رواية
شبهي
ميدان هليوبوليس
Heliopolis Square
د. محمد فتحي

شبهي

رواية

د. محمد فتحي

اسم الكتاب: شبهي

المؤلف: د. محمد فتحي عيسى

الطبعة الأولى: 2026

التنسيق الداخلي: د. محمد فتحي عيسى

تصميم الغلاف: د. محمد فتحي عيسى

رقم التسجيل: 2026/0000

رقم التعريف الدولي الموحد للكتاب: **XXX-XXXX-XX-XXXX-XX**

حقوق النشر © د. محمد فتحي

"تم التأكيد على الحقوق الأدبية للمؤلف."

جميع الحقوق محفوظة. دون التقييد على الحقوق المحفوظة

بموجب حقوق النشر أعلاه، يمنع استخدام أي جزء من هذا

الإصدار في التكرار أو التخزين أو إدخاله في نظام استرجاع أو نقله

بأي شكل أو وسيلة (إلكترونية، ميكانيكية، تصويرية، تسجيلية أو

غير ذلك) دون الحصول على إذن كتابي مسبق من صاحب حقوق

النشر وناشر هذا الكتاب. باستثناء الاقتباسات القصيرة لأغراض

المراجعة والنقد.

هذه رواية من نسج الخيال. وأي تشابه بين شخصياتها أو أحداثها وبين أشخاص أو وقائع حقيقية هو محض مصادفة.

شكر وتقدير

أنا ممتن للغاية للأفراد الرائعين الذين كانوا دعمًا لا يتزعزع وحبًا لا ينقطع والذي كان القوة الدافعة وراء إنشاء هذا الكتاب.

لزوجتي الحبيبة، شيماء: تشجيعك وصبرك وحبك اللامحدود كانت صخرتي طوال هذه الرحلة. إيمانك بي قد دفع تصميمي، ودعمك الثابت كان أهم مصدر لقوتي. شكرًا لك على كونك شريكتي في كل مغامرة.

لأبطالي الخارقين، عمر وياسين: أنتما مصدر إلهام لكل كلمة في هذه الصفحات. ضحككما وفضولكما وطاقتكما اللامحدودة تمنحون حياتي فرحًا. رؤيتكما تنموان وتتعلمان كانت امتيازا لي، وأكرس هذا العمل للإمكانيات اللامتناهية التي تنتظركما.

لأبي: حكمتك وإرشادك وإيمانك الثابت بإمكانياتي صارت صورتي الحالية. صمودك وحبك شهادة على قوة روابط العائلة. شكرًا لك على كونك ركيزة دعمي ومصدر إلهام.

تكريمًا لذكرى والدتي الحبيبة: رغم أنك لم تعد معنا، إلا أن روحك وحبك ما زالا يرشداني. دروسك في اللطف والقوة والصمود تعيش في قلبي. هذا الكتاب هو تحية للذكريات الجميلة التي شاركناها وتأثيرك الدائم على حياتي.

لإخوتي وأخواتي: تواصلكم وضحككم المشترك والفهم غير المقنع الذي يأتي مع العائلة كانوا مصدر راحة دائم. شكرًا لكم على كونكم رفاق حياتي الدائمين في هذه الرحلة.

يعكس هذا الكتاب الحب الجماعي والتشجيع والقوة التي

منحتها لي عائلتي. فإنه بكل امتنان وشغف أقدم هذه الصفحات

لكل واحد منكم.

مع حبي،

د. محمد فتحي عيسى

الكتاب الأول

بيت رقم 12

القاهرة — 1983

الفصل التمهيدي

في الممر المقابل

لم يكن زين يذهب إلى السوبر ماركت في ذلك الوقت من الليل إلا مضطرًا. منذ أن اعتزل الجراحة صار يكره الأماكن التي تبقى مضاءة بعد أن تنطفئ المدينة؛ كانت تذكره بالمستشفيات، بالممرات التي لا تعرف الصباح من المساء، وبالوجوه التي تنتظر خبرًا يمكن أن يغيّر عمرًا كاملًا في جملة واحدة.

دخل وهو يحمل ورقة صغيرة كتب عليها ثلاثة أشياء بخط متعجل: لبن، دواء، وبسكويت من النوع الذي أوصته حفيدته ألا ينساه. وضع نظارته فوق أنفه، قرأ الورقة للمرة الثانية، ثم طواها بعناية كأنها وصفة طبية قديمة.

كان المكان شبه خالٍ. عامل يرتب عبوات المياه في نهاية الممر، امرأة شابة تحاول إقناع طفلها بأن الحلوى لا تصلح للعشاء، وصوت موسيقى هادئة ينساب من سماعة في السقف. دفع زين العربة بيد، وباليد الأخرى لمس جيب معطفه ليتأكد أن مفاتيحه

ما تزال هناك. صارت هذه الحركة عادة في السنوات الأخيرة؛ لا يثق في جيب لم يتحسسه، ولا في ذاكرة لم يختبرها مرتين.

وقف أمام ثلاجة الألبان، ومد يده إلى عبوة كاملة الدسم. تذكر تحذير طبيبه، أعادها، ثم اختار أخرى خالية الدسم. ابتسم في سره. قضى نصف قرن يشرح للناس كيف يحافظون على قلوبهم، ولم يبدأ هو في الإصغاء إلا بعدما هدأ كل شيء حوله.

حين استدار بالعربة، رأى المرأة عند آخر الممر.

لم ير فيها في البداية إلا ظهرًا منحنيًا قليلًا، وشعرًا أبيض قصيرًا، ومعطفًا بلون الرمل. كانت تمسك عبوة شاي وتقربها من عينيها لتقرأ تاريخ الصلاحية. شيء في طريقة إمالة رأسها جعله يتوقف، لا لأنه عرفها، بل لأن جسده تذكر قبل أن تفعل ذاكرته.

رفع يده عن مقبض العربة. بقي في مكانه، يراقبها وهي تعيد العبوة إلى الرف، ثم تلتفت بحثًا عن شيء آخر. تقابلت عيناهما لحظة. نظرة عابرة بين غريبين في ممر ضيق. اعتذر بعينيه لأنه كان يسد الطريق، وتحرك نصف خطوة إلى الجانب.

هي أيضًا تحركت، ثم توقفت.

لم تظهر الدهشة على وجهها دفعة واحدة. بدأت بانقباض صغير بين الحاجبين، ثم اتساع بطيء في العينين، وأخيرًا ارتجافة خفيفة عند الفم. قربت يدها من صدرها، كأنها تبحث عن الاسم في مكان قديم هناك.

قالت بصوت لم يكن مرتفعًا، ومع ذلك وصل إليه واضحًا: «زين؟»

كان اسمه قد قيل له آلاف المرات: في البيت، وفي قاعات المحاضرات، وفي غرف العمليات، وعلى منصات المؤتمرات. لكن أحدًا لم ينطقه بتلك الوقفة القصيرة بعد الحرف الأول، ولا بذلك المد الخافت الذي جعله يعود طفلًا قبل أن يجيب.

قال: «سالي.»

لم يقتربا فورًا. كان بينهما متران فقط، لكن السنوات وقفت فيهما بكامل ثقلها. رأى وجهها كما هو الآن: الخطوط الرفيعة حول العينين، بقعة صغيرة عند الخد، ويدًا ترتجف قليلًا فوق مقبض العربة. وفي اللحظة نفسها رأى الوجه الآخر؛ الطفلة التي

كانت تجلس على الدرجة الأولى، تقبض على كرة حمراء وتجادله في أن الأحمر ليس لونًا للبنات.

ابتسمت. لم تكن الابتسامة التي يتخيلها الناس عند لقاء قديم؛ لم تفتح باب الفرح كله، ولم تغلق باب الأسى. كانت ابتسامة من يعرف أن ما ضاع لا يعود، لكنه يشكر المصادفة لأنها سمحت له أن يراه مرة أخرى.

قالت: «ما كنتش هاعرفك.»

أجاب بعد لحظة: «وأنا... لولا عينيك.»

خفضت نظرها إلى العربة، كأن الجملة أربكتها. لم يكن فيها سوى خبز صغير وعبوة شاي ودواء. سألها عن حالها، فقالت إنها بخير على قدر ما يسمح به العمر. سألته إن كان ما يزال يعمل، فأشار إلى يديه وقال إنهما تقاعدتا قبله. ضحكت ضحكة قصيرة، ثم سعلت، فانتظر حتى هدأ صوتها.

كان يستطيع أن يسأل ألف سؤال. عن الكويت، عن السنوات التي لم يسمع عنها إلا من الآخرين، عن أبنائها، عن الرجل الذي عاش معها، وعن اللحظة التي توقفت فيها رسائلهما إلى الأبد.

لكنها كانت أسئلة تحتاج إلى عمر آخر، لا إلى دقائق بين رفوف الشاي والألبان.

قالت هي: «لسه فاكر العمارة؟»

لم يحتج إلى أن تسميها.

قال: «رقم اتناشر.»

تحركت في وجهها ابتسامة أوسع. «والجميزة.»

«والباب اللي ما كانش بيقفل.»

«والدرجة اللي كنت بتقعد عليها لما تزعل.»

أراد أن يقول إنها كانت تعرف دائمًا متى يكون غاضبًا حتى حين لا يتكلم. لكنه رأى خلفها مرآة طويلة مثبتة في نهاية الممر، فرأى الرجل الذي يقف أمامها: شعر أبيض، كتفان مائلان، ونظارة سميكة تخفي جزءًا من عينيه. احتاج لحظة ليدرك أن الصورة تخصه.

التفتت سالي إلى المرآة بدورها. وقفا جنبًا إلى جنب داخلها، تفصل بينهما عربتان وممر كامل من الأشياء اليومية. قال زين في نفسه إن المرآة لم تكن قاسية؛ كانت فقط أمينة أكثر مما ينبغي.

قالت سالي: «الغريب إني لما شوفتك... ما شفتش الراجل ده.» وأشارت إلى صورتهما. «شفتك زي ما كنت.»

سألها: «إزاي؟»

أجابت من غير تفكير: «واقف عند باب العمارة، ماسك عربية حمرا، ومش عايز تعترف إنك تايه.»

ضحك. خرجت الضحكة منه متأخرة، خشنة في أولها، ثم لانت. ولثوانٍ، اختفى صوت الموسيقى وثلاجات العرض وخطوات العامل. لم يبقَ إلا صوت عجلات سيارة صغيرة فوق رخام المدخل، وطفلة تسأله عن اسمه.

قالت إنها يجب أن تذهب. أومأ، ولم يحاول أن يمنعها. مدّت يدها، فوضع يده فيها. كانت باردة وخفيفة، لكن طريقة ضغط أصابعها لم تتغير. ترددت قبل أن تتركه، ثم قالت: «فرحت إني شوفتك.»

قال: «وأنا كمان.»

ابتعدت تدفع عربتها ببطء. لم يلتفت وراءها إلا حين وصلت إلى نهاية الممر. كانت قد التفتت هي أيضًا. رفع كل منهما يده، ثم اختفت خلف الرفوف.

ظل زين واقفًا أمام المرآة. رفع يده إلى شعره، ثم أنزلها. خلف كتفه، بقي الممر خاليًا.

أغمض عينيه. اختفى الممر، وعاد صيف بعيد: شاحنة أثاث عند الرصيف، وجميزة لا يكفي ظلها سيارة، وعمارة تحمل الرقم 12. وبين الصناديق، كان طفلًا في السادسة يبحث عن سيارته الحمراء.

الفصل الأول

بيت رقم 12

حين توقفت شاحنة الأثاث أمام العمارة رقم 12، كان عامل النقل يسبّ حر يوليو، وريم تبكي منذ عشر دقائق، وزين يبحث في صندوق مفتوح عن سيارته الحمراء.

كانت مصر الجديدة في ذلك الصباح تتثاءب ببطء تحت الشمس. ترام بعيد يرن عند المنعطف، وبائع خبز يعبر الشارع بعربة خشبية، وروائح البن المحمص والغبار الساخن تتناوب عند الرصيف. لم تكن الشوارع غريبة تمامًا على كمال ياسين، لكنها كانت جديدة على أسرته؛ والجديد، مهما بدا جميلًا، يحتاج إلى وقت حتى يصبح بيتًا.

لم ينزل كمال فورًا. بقي لحظة في المقعد الأمامي، وأخرج المفتاح الجديد من جيبه، قلبه بين إصبعيه ثم أعاده. لم يره أحد.

طرق السائق على المقود وقال:

ـ وصلنا يا باشمهندس.

فتح كمال الباب. لفحته حرارة يوليو، ومعها رائحة خشب الصناديق والغبار الذي أثارته الشاحنة. رفع رأسه إلى العمارة: خمسة طوابق ذات شرفات عريضة، باب حديدي أخضر، وجميزة صغيرة عند الرصيف لم يتجاوز ظلها عرض سيارة.

كان فؤاد مراد في طريقه إلى شراء الجريدة حين رأى العمال يحاولون إدخال دولاب أكبر من مدخل العمارة. اقترب ليعينهم، ثم لمح الرجل الواقف عند طرف الشاحنة.

توقف الاثنان في اللحظة نفسها. لم يحتجا إلى الاسم في البداية؛ ضحكة واحدة خرجت من فؤاد، وفتح كمال ذراعيه كأن السنوات التي فرّقتهما في مواقع العمل والأسفار اختصرت نفسها فجأة في مدخل العمارة.

قال فؤاد وهو يضرب كفًا بكف: «كمال ياسين! إنت اللي اشتريت شقة الدور التالت؟»

ضحك كمال: «وإنت ساكن هنا ومخبي؟»

«مخبي إيه؟ أنا بقولك من سنتين تعال مصر الجديدة، وإنت اللي بتسمع نص الكلام.»

ثم خلع ساعته، طواها في جيبه، وأمسك طرف الدولاب من غير أن يسأل أحدًا.

قال كمال: «استنى، هتبوظ هدومك.»

رد فؤاد وهو يرفع: «هدومي تتغسل. الدولاب لو اتخبط مراتك هتفتكرك طول العمر.»

ضحك أحد العمال. هذه المرة ضحك كمال معه، وترك طرف الدولاب لصديقه القديم.

قال زين بعناد:

ـ كانت هنا.

نزل من الشاحنة وبدأ يفتش بين الكراتين على الرصيف. لم ينتبه إلى الطفلة التي وقفت عند باب العمارة، تحمل دمية بعين واحدة وتراقبه.

سألت:

ـ ضيعت إيه؟

رفع رأسه إليها.

ـ عربيتي.

ـ لونها؟

ـ أحمر.

نظرت حولها. كانت السيارة تحت طرف بطانية سقطت من إحدى الكراتين. سحبتها بقدمها، ثم انحنت وأمسكتها.

مد زين يده بسرعة، لكنه توقف قبل أن يأخذها.

ـ إنتِ لقيتيها؟

هزت رأسها.

ـ اسمك إيه؟

قالت:

ـ سالي.

أخذ السيارة، ثم مررها على الأرض مرة ليتأكد أن عجلاتها ما زالت تعمل. رفعت سالي دميتها.

ـ دي اسمها لولا.

نظر زين إلى الدمية ذات العين الواحدة.

ـ هي مكسورة.

ضمتها سالي إلى صدرها.

ـ لأ. عينها بس وقعت.

عند مدخل العمارة، كان فؤاد يضحك مع كمال بالطريقة التي لا يضحك بها الرجال إلا مع من عرف نسختهم القديمة. وفي اللحظة نفسها نزلت ليلى تحمل كيس سكر وكوبين من الماء البارد.

توقفت نادية أمامها. بقيتا ثانية واحدة تحدقان في بعضهما، ثم نطقتا الاسمين معًا. تركت ليلى ما في يدها على أقرب صندوق، وتعانقتا وسط العمال والغبار، كأنهما لم تنقطعا كل تلك السنوات.

قالت ليلى وهي تمسح عرقها وضحكتها معًا: «السكر عندكم غالبًا لسه في آخر كرتونة.»

ـ السكر عندكم غالبًا لسه في آخر كرتونة.

نظرت نادية إلى الكيس، ثم إلى الفوضى خلفها.

ـ وإحنا لسه مش عارفين آخر كرتونة فين.

ضحكتا.

صعد الأثاث إلى الدور الثالث قطعة قطعة. وفي كل مرة كان زين يمر على الدور الثاني، كان يجد باب شقة سالي مفتوحًا، ورائحة طعام لا يعرفه تخرج إلى السلم.

قبل الغروب، جلس كمال فوق صندوق الكتب في الصالة التي لم تُرتب بعد. خلع حذاءه ودلك قدمه اليمنى. دخل زين يحمل سيارته، وجلس بجواره من غير كلام.

من الشرفة جاء صوت فؤاد:

ـ يا جار! الشاي عندنا لحد ما تلاقوا الكوبايات.

رفع كمال رأسه.

ـ خمس دقايق.

قال فؤاد:

ـ الخمس دقايق في النقل بتبقى ساعتين. تعالى دلوقتي.

نظر كمال إلى نادية. كانت واقفة وسط الكراتين، لكنها ابتسمت وأشارت له أن يذهب.

خرج كمال، وتبعه زين. عند الدرجة الأخيرة قبل الدور الثاني، وجد سالي جالسة على الأرض، تصلح شريط دميتها.

توقف زين لحظة، ثم وضع سيارته الحمراء أمامها.

ـ تقدري تجربيها.

رفعت عينيها إليه، ثم دفعتها مرة واحدة فوق البلاط.

اصطدمت السيارة بالحائط.

قال زين:

ـ بالراحة.

قالت سالي:

ـ ما هي عربية.

جلس إلى جوارها، وأراها كيف تحركها من غير أن تنقلب.

ومن داخل الشقتين جاءت أصوات الكبار وضحكاتهم الأولى، بينما بقي باب الدور الثاني مفتوحًا حتى وقت متأخر.

• • •

في الليلة الأولى، نامت الأسرة وسط الصناديق.

نام كريم، الأخ الأكبر، عند خالته لتبعده نادية عن فوضى النقل، وبقي سريره الجديد فارغًا. نامت ريم بسرعة بعد ساعات

البكاء، أما زين فظل يفتح عينيه كلما صدر صوت من الخشب أو المواسير.

كان سقف الغرفة أبيض بلا شروخ. لم يعرف أين ينظر.

سمع خطوات أبيه في الممر. ثم صوت المفاتيح في طبق صغير. ثم فتح الشرفة وإغلاقها. بعد دقائق دخل كمال، فوجد زين مستيقظًا.

ـ مش عارف تنام؟

هز زين رأسه.

جلس كمال على طرف السرير. لم يقل إن البيت الجديد يحتاج وقتًا، ولم يشرح له أن الأصوات ستصبح مألوفة. فقط ترك الباب مفتوحًا قليلًا، وقال:

ـ لو صحيت، النور في الصالة شغال.

في الصباح استيقظ زين على صفير بائع لا يعرفه. ذهب إلى الشرفة، فرأى رجلًا يدفع عربة خبز، وولدًا يركض خلفها، وكلبًا أسود ينام تحت الجميزة.

في المطبخ كانت نادية تفتح الصناديق واحدًا بعد الآخر. مدت يدها إلى درج فارغ، ثم نادت:

ـ كمال، المقص فين؟

جاء صوته من الصالة:

ـ كان في الكرتونة اللي مكتوب عليها مطبخ.

ـ كل الكراتين مكتوب عليها مطبخ.

دخلت ليلى من الباب المفتوح، وفي يدها مقص.

ـ خدي ده لحد ما تلاقوا بلدكم.

أخذته نادية وهي تضحك.

ـ إحنا واضح إننا هنعتمد عليكم.

ـ ما إحنا تحتكم على طول. حتى لو ما اعتمدتوش علينا هنسمعكم.

كانت تلك أول مرة تضحك نادية منذ الوصول.

بعد الإفطار، أخذ كمال زين ليريه حدود البيت: هذه غرفة كريم وزين، وهذه غرفة ريم عندما تكبر، وهذا هو الحمام الذي

يجب ألا يترك صنبوره مفتوحًا، وهذه الشرفة التي لا يصعد على سورها.

توقف زين عند باب غرفة صغيرة.

ـ دي بتاعة مين؟

قال كمال:

ـ لسه معرفناش.

دخلها الطفل. كانت الكراتين تملأها حتى النافذة. وجد صندوقًا قديمًا بلا كتابة، وحاول فتحه.

قال كمال من خلفه:

ـ سيبه.

ترك زين الغطاء فورًا.

اقترب كمال من الصندوق، ومسح الغبار عن سطحه. بقيت يده عليه لحظة أطول من اللازم، ثم حمله ووضعه فوق الدولاب.

ـ ده بتاعك؟

ـ بتاع زمان.

لم يفهم زين ما إذا كان "زمان" شخصًا أم مكانًا، لكنه لم يسأل.

في الظهر، طرق الباب ثلاثة أطفال: حسام وشريف ومحمود. سألوا إن كان الولد الجديد سيخرج للعب. كان زين ما يزال يلبس قميص النوم.

قالت نادية:

ـ بعد ما يلبس.

ركض إلى غرفته. بعد دقائق خرج وقد أدخل نصف قميصه في البنطال وترك النصف الآخر خارجه. حاولت أمه إصلاحه، فابتعد.

ـ كده حلو.

من عند السلم، شاهدته سالي ينزل مع الأولاد. لم تنضم إليهم. جلست على الدرجة الثالثة وفتحت كتابًا مصورًا.

عندما عادت الكرة إلى مدخل العمارة، جاءت عند قدميها. أمسكتها بكلتا يديها.

صاح حسام:

ـ ارميها!

رفعتها، لكنها لم تعرف إلى من. أشار زين إلى نفسه. رمتها قصيرة، فتدحرجت حتى توقفت أمامه.

قال:

ـ كويس.

قال حسام:

ـ دي ما بتعرفش ترمي.

نظر زين إلى سالي ثم إلى حسام.

ـ ما هي أول مرة.

لم يقل أكثر. أعاد الكرة إلى منتصف الشارع، واستمرت المباراة.

في المساء، حين أغلقت نادية الباب، بقيت أصوات الأطفال تصعد من الخارج. قال كمال وهو يضع المفتاح في الطبق:

ـ اتعرف؟

قالت:

ـ من أول يوم.

لم يرد. نظر من الشرفة إلى ابنه وهو يقف تحت الجميزة، ثم عاد إلى الداخل ليكمل تركيب سرير كريم.

• • •

كانت الجميزة أصغر من أن يصعد إليها أحد، لكنها كانت أكبر شيء يملكه الأطفال في الشارع.

تجمعوا تحتها كل عصر. يضعون الحجارة لتصبح مرمى، ويربطون حبلاً في غصن منخفض، ويختلفون على من يبدأ اللعب. لم تكن الشجرة تخص العمارة رسميًا، لكنهم عاملوها كأنها وُجدت من أجلهم.

في الأسبوع الأول، وقف زين يتفرج أكثر مما لعب. كان حسام أسرعهم، وشريف أعلى صوتًا، ومحمود يغيّر الفريق كلما بدأ فريقه يخسر.

أما سالي فكانت تجلس على الدرجة الأولى، ترسم أو تقرأ. لم يسألها أحد أن تلعب، ولم تطلب.

في عصر يوم شديد الحرارة، أوقف زين الكرة بقدمه ثم سددها. ارتفعت أكثر مما أراد، واصطدمت بأصيص في شرفة الدور الأول. سقط الأصيص في الحديقة الصغيرة، وانكسر.

اختفى محمود أولًا. تبعه شريف. وتراجع حسام خلف الجميزة. بقي زين وحده قرب الكرة.

فتح باب الحديقة رجل مسن اسمه الأستاذ نعيم. نظر إلى الأصيص، ثم إلى الأولاد.

ـ مين؟

لم يتكلم أحد.

قال حسام بصوت منخفض من خلف الشجرة: «الكرة بتاعتنا.»

ـ الكرة بتاعتنا.

نظر الأستاذ نعيم إليه.

ـ أنا سألت مين كسر.

قال زين:

ـ أنا شطتها.

في تلك اللحظة خرج كمال من العمارة. رأى الأصيص المكسور، وفهم المشهد قبل أن يسأل.

قال للأستاذ نعيم:

ـ حقه عليّ. نجيب غيره.

رد الرجل:

ـ أنا مش عايز أصيص. أنا عايزهم يبعدوا اللعب عن الشبابيك.

التفت كمال إلى الأولاد.

ـ سمعتوا؟

هزوا رؤوسهم.

لم يقل شيئًا آخر. في اليوم التالي، عاد من العمل ومعه شريط قياس وطباشير. قاس مسافة أبعد عن الشرفات، ورسم لهم مرمى جديدًا.

قال حسام:

ـ هنا ضيق.

رد كمال:

ـ أحسن من زجاج في عين حد.

تركهم ومضى.

بعد أن بدأوا اللعب، جلست سالي قرب الخط الجديد. كانت ترسم الجميزة. نظر زين إلى الورقة.

ـ الجذع مش كده.

قالت:

ـ إنت شايفه إزاي؟

اقترب وأشار بإصبعه.

ـ فيه خط هنا.

رسمته.

ـ وكمان حفرة صغيرة تحت.

أضافتها.

اقتربت سالي منه قليلًا، ثم قالت: «اقعد. أجرب أرسمك.»

جلس زين فوق الرصيف محاولًا أن يثبت وجهه كما يفعل الكبار في الصور. رسمت رأسًا أكبر من الجسد، وعينين واسعتين، وشعرًا غير مرتب. حين انتهت، دفعت الورقة إليه.

تأملها طويلًا، ثم قال: «ده مش شبهي.»

أشارت إلى الشعر: «شبهك لما تصحى.»

ضحك رغمًا عنه. وفي المساء ترك الورقة فوق مكتبه. دخل كمال ليغلق النافذة، فرأى الرسم، رفعه وتأمله، ثم أعاده إلى مكانه من غير أن يسأل من رسمه.

بعد أسابيع، حمل الغصن المنخفض أول عقدة من الحبل، وظهرت على الجذع خدوش صغيرة من أحذية الأطفال. كانت سالي تضيفها إلى رسوماتها كلما زادت.

الفصل الثاني

بيتان وباب واحد

وخلال الأيام الأولى، أخذ البيت يتعلّم أصوات ساكنيه، بينما أخذ الأطفال يتعلّمون الطريق بين الأبواب والسلم والجميزة.

بدأت الجيرة بطبق محشي، ثم تمددت حتى أصبحت الجمعة لا تكتمل إلا بالأسرتين.

كان فؤاد يصعد بطبق، وتنزل نادية بطبق آخر، وفي النهاية تُجمع المائدة في شقة واحدة لأن نقل الأطباق صار أكثر تعبًا من نقل الناس.

في أول جمعة حقيقية، جلس كمال وفؤاد في الشرفة. بينهما جريدة مفتوحة، لكن الحديث انتقل من أسعار البترول إلى كرة القدم ثم إلى المدرسة. في الداخل، كانت ليلى ونادية ترتبان الطعام، وريم تزحف تحت الكراسي، بينما كريم — الذي عاد أخيرًا من عند خالته — يشتكي من أن الصغار أخذوا غرفته.

قال زين:

ـ هي غرفتنا.

رد كريم:

ـ كانت أوضتي قبلك.

قالت نادية:

ـ كانت أوضتك في البيت القديم. هنا أوضتكم إنتوا الاتنين.

نظر كريم إلى السريرين كأن أحدًا خفض رتبته.

في شقة فؤاد، كان طارق وهاني يتشاجران على جهاز الراديو. جلس أحمد الصغير في صورة معلقة فوق الخزانة، طفلًا لم يتجاوز الثالثة. لم يسأل زين عنه في البداية. كان يظنه أخًا غائبًا.

أثناء الغداء، سأل:

ـ أحمد فين؟

توقفت يد ليلى لحظة. وضعت الملعقة، ثم قالت:

ـ عند ربنا.

لم يفهم زين. نظر إلى سالي، لكنها أخفضت عينيها إلى طبقها.

غيّر فؤاد الحديث بسرعة:

ـ يا جماعة، مين اللي حاطط الشطة دي؟ دي مش محشي، دي امتحان شجاعة.

ضحك الجميع، حتى ليلى. لكنها بعد دقائق قامت إلى المطبخ وحدها.

لحقت بها نادية. لم تقل شيئًا. وقفت إلى جوارها وهي تغسل طبقًا نظيفًا للمرة الثانية.

في الشرفة، كان كمال قد سمع السؤال والصمت الذي تبعه. طوى الجريدة. لم يعلّق.

بعد الغداء، نزل زين وسالي وحدهما. جلسا تحت الجميزة، وصارت سالي تقطع قطعة حلوى إلى نصفين غير متساويين.

قال زين: «دي أكبر.»

قالت: «عشان إنت أكبر بسنة.»

أخذ القطعة الأصغر من غير اعتراض. لاحظت سالي، فبدلتها بقطعتها.

قال: «ليه؟»

«عشان أنا قطعت غلط.»

لم تكن قد أخطأت.

في الأعلى، جلس كمال وفؤاد يصلحان مقبض باب. قال فؤاد وهو يدير المفك:

ـ الواحد يفتكر إنه اختار شقة. وبعدين يكتشف إنه اختار الناس اللي حواليها.

رد كمال:

ـ أو الناس هي اللي اختارته.

لم يضيفا شيئًا.

عند الغروب، عادت كل أسرة إلى شقتها. بقيت الأبواب مواربة، والأطباق تتنقل بين الطابقين، والأصوات تختلط عبر السلم حتى لم يعد واضحًا أي ضحكة خرجت من أي بيت.

• • •

في صباح اليوم الأول، كان الحذاء الجديد يؤلم زين عند الكعب، لكنه لم يقل.

وقف أمام المدرسة ممسكًا بحقيبته بكلتا يديه. كانت البوابة أكبر من بوابة مدرسته القديمة، والأطفال أكثر، والأصوات تختلط حتى لا يستطيع تمييز كلمة واحدة.

وضعت نادية يدها على كتفه.

ـ أدخل؟

هز رأسه.

قال كمال:

ـ إحنا واقفين هنا.

دخل وحده.

في الفصل، اختار زين مقعدًا في الصف الثاني، وظل المقعد المجاور له خاليًا حتى بدأت المعلمة تكتب التاريخ فوق السبورة.

بعد دقائق، ظهر صبي عند الباب، حقيبته أكبر من ظهره وشعره لم ينجح الماء في تهدئته. اعتذر من المعلمة بكلمة قصيرة، فنظرت إلى المقاعد وأشارت إلى المكان بجوار زين.

جلس الصبي، أخرج كراسة وقلمًا مكسور السن، ثم همس: «معاك براية؟»

ناوله زين البراية. أعادها بعد أن أصلح القلم، وقال: «أنا سامر.»

قال زين اسمه. لم يتصافحا؛ في السادسة، تكفي براية مشتركة ليبدأ شيء يشبه الصداقة.

في الحصة الأولى، طلبت المعلمة من كل طفل أن يقول اسمه وعمل أبيه. قال سامر:

قال سامر حين جاء دوره: «بابا شغله بيخليه يسافر كتير.»

ضحك بعض الأطفال، فقالت المعلمة:

ـ دي مش وظيفة.

فكر سامر، ثم أضاف: «وبيجيب هدايا لما يرجع.»

ـ هو بيرجع بهدايا.

ضحك الفصل كله، وضحك هو معهم.

عندما جاء دور زين قال:

ـ بابا مهندس بترول.

سألته المعلمة:

ـ يعني بيطلع البترول؟

قال:

ـ هو بيرجع هدومه فيها تراب.

لم يضحك أحد هذه المرة؛ بدت الإجابة منطقية.

في الفسحة، جلسا عند سور منخفض. فتح زين علبة الطعام، وكانت تحتوي بيضة مسلوقة وجبنة وخيارًا. أخرج سامر ساندويتشًا ملفوفًا في ورق جريدة، نظر إلى البيضة وقال إنه يكرهها، ثم مد يده إليها. ضحك زين وأعطاه نصفها، فوضع سامر نصف ساندويتشه في العلبة.

قبل أن ينتهيا، مر طفل أكبر منهما وخطف قطعة الحلوى من يد سامر.

وقف سامر فورًا.

ـ رجعها.

دفعه الولد في كتفه.

ـ امشي.

قبل أن يتحرك سامر، وقف زين إلى جواره. لم يقل شيئًا. كان أقصر من الولد، لكنه بقي.

جاء المشرف من بعيد، فألقى الولد الحلوى على الأرض ومضى.

التقطها سامر. كانت قد تلوثت بالتراب. نظر إليها، ثم رماها في السلة.

قال لزين:

ـ كنت هضربه.

قال زين:

ـ كان هيضربنا إحنا الاتنين.

ضحك سامر.

ـ بس كنا هنبقى اتنين.

كانت تلك أول مرة يفهمان فيها أن الوقوف بجوار شخص لا يعني أنك تعرف كيف تنقذه.

بعد انتهاء اليوم، وجد زين أباه عند البوابة. كان كمال يراقب الأطفال ولا يلوح. ركض إليه، ثم تذكر سامر فعاد خطوتين.

ـ ده سامر.

صافحه كمال.

ـ أهلًا يا سامر.

قال سامر:

ـ هو زين قالك عليّا؟

نظر كمال إلى ابنه.

ـ من امبارح.

في طريق العودة، سأل كمال:

ـ المدرسة؟

قال زين:

ـ كبيرة.

ـ والمدرسين؟

ـ واحدة.

ـ وصاحبك؟

توقف زين لحظة.

ـ كويس.

لم يحك عن الولد الأكبر ولا قطعة الحلوى. وفي المساء، بينما كان كمال يلمع حذاءه، وجد خدشًا عند كتفه في القميص. نظر إليه، ثم إلى زين، لكنه لم يسأل.

في اليوم التالي، أرسل كمال معه قطعتين من الحلوى بدل واحدة.

خلال أسبوع صار زين يعرف ما لا يأكله سامر، وصار سامر يعرف أن صديقه يصمت حين يغضب بدل أن يصرخ. كان سريع الكلام وسريع الغضب وسريع النسيان؛ إذا خسر في اللعب أقسم أنه لن يعود، ثم رجع قبل أن ينتهي الشوط.

في طريق العودة أراه زين العمارة والجميزة. كانت سالي جالسة عند الباب تقرأ كتابًا مصورًا. توقف سامر أمامها وسأل: «إنتِ أخت زين؟»

قالت: «لأ.»

«قريبته؟»

«لأ.»

نظر إلى زين: «أمال إيه؟»

قال زين: «جارتنا.»

هز سامر كتفيه: «يعني مش حاجة.»

رفعت سالي عينيها إليه: «وإنت إيه؟»

صمت ثانية، ثم قال: «صاحبه.»

أغلقت الكتاب: «لسه من أسبوع.»

جلس سامر على الدرجة المقابلة لها وقال: «والأسبوع الجاي هابقى صاحبه برضه.»

ضحك زين. لم تضحك سالي، لكنها أبقت الكتاب مغلقًا، وظلت تجادله حتى نادتهم ليلى إلى الداخل.

بعد أيام دعاه زين إلى البيت. فتحت نادية الباب، وكان سامر يحمل الكرة تحت ذراعه. عرفته من كثرة ما سمعته عنه، فأحمر وجه زين حين قالت ذلك. أكل سامر أكثر مما توقع، ثم ساعدها في جمع الأطباق من غير أن تطلب.

عاد كمال فوجد الولدين يبنيان طريقًا لسيارة زين الحمراء باستخدام الكتب. قال: «الكتب تتقري، مش تتداس.»

قفزا وأعاداها إلى الرف. وعند الباب همس سامر: «أبوك بيخوف.»

جاء صوت كمال من الداخل: «وأنا سامع.»

تجمد سامر، ثم انطلقت ضحكة فؤاد من الدور الثاني. خلال لحظة ضحك الجميع، حتى كمال نفسه.

• • •

جاء المصور في صباح بارد نسبيًا، يحمل كاميرا سوداء وحاملًا معدنيًا.

قضى المدرس نصف الحصة في ترتيب الأطفال: الطويل في الخلف، القصير في الأمام، والذي لا يتوقف عن الحركة قربه حتى يمسكه عند الحاجة.

وقف زين في الصف الثاني، ووقف سامر إلى جواره. في اللحظة الأخيرة، دفع سامر كتفه حتى اقتربا أكثر.

ـ عشان نطلع في نفس الصورة.

قال زين:

ـ إحنا واقفين جنب بعض أصلًا.

ـ أقرب أحسن.

في الفناء المقابل، كان فصل سالي يستعد للتصوير. رأته من بعيد، لكنه لم يرها.

رفع المصور رأسه من خلف الكاميرا.

ـ محدش يرمش.

رمش نصف الفصل.

أعاد الصورة.

في المرة الثانية، عطس سامر.

صرخ المدرس:

ـ يا سامر!

قال سامر:

ـ غصب عني.

في الثالثة، خرجت الصورة.

بعد أسبوعين، وزع المدرس النسخ. أمسك زين الصورة بحذر من الأطراف. كان شعره مدهونًا أكثر مما يحب، وقميصه مشدودًا عند الرقبة، وسامر يبتسم بفم مفتوح.

قال:

ـ شكلك وحش.

رد سامر:

ـ وإنت شكلك زعلان.

في الحقيقة، بدا الاثنان سعيدين بطريقة لم يعرفاها وقت التصوير.

أخذ زين الصورة إلى البيت. كانت نادية أول من رآها. بحثت عنه في الصفوف ثم قبّلته فوق رأسه.

ـ طالع شبه باباك.

قال كمال:

ـ لا، واقف زي أمه. مش عارف يسيب إيده.

كانت يد زين في الصورة تقبض على طرف بنطاله.

وصلت الصورة إلى سالي في المساء. جلست على السلم، ونظرت إلى كل الوجوه. وضعت إصبعها فوق سامر.

ـ ده بيضحك قوي.

قال زين:

ـ هو كده.

ثم أشارت إليه.

ـ وإنت مش بتضحك ليه؟

ـ المصور قال ما نتحركش.

ـ الضحك مش حركة.

لم يجد جوابًا.

أخذ كمال الصورة ووضعها داخل إطار رخيص فوق مكتب زين. بعد أيام، مالت قليلًا. وبعد أسابيع، غطتها ذرات تراب. وبعد أشهر، اعتاد الجميع وجودها حتى توقفوا عن رؤيتها.

لكنها بقيت هناك: طفلان في صف واحد، قبل أن يعرف كل منهما مقدار ما سيأخذه من عمر الآخر.

• • •

بدأ المطر أثناء الحصة الثانية.

ضرب الزجاج أولًا بنقط متباعدة، ثم تحول إلى خيوط متصلة حجبت الملعب. ترك الأطفال السبورة واتجهوا إلى النافذة حتى صاح المدرس وأعادهم إلى مقاعدهم.

عند انتهاء اليوم، وقفت الأمهات عند البوابة بالمظلات. لم يجد زين أباه ولا أمه. كان كمال في العمل، ونادية تأخرت بسبب ريم المريضة.

قال سامر:

ـ نجري.

قال زين:

ـ نستنى.

انتظرا خمس دقائق. ازداد المطر.

ركض سامر أولًا. تبعه زين.

بعد أول شارع، ابتلت الجوارب. بعد الثاني، صارت الحقائب فوق رأسيهما. عند الثالث، توقفا عن محاولة الاحتماء وبدآ يقفزان في المياه.

وصل سامر إلى عمارة زين رغم أن بيته في الاتجاه الآخر.

ـ أطلع عندكم لحد المطر يخف؟

قال زين:

ـ اطلع.

فتحت نادية الباب، فوجدتهما يقطران ماءً فوق السجادة الجديدة. نظرت إلى الأرض ثم إلى وجهيهما.

ـ اقفوا مكانكم.

جاءت بمنشفتين وملابس قديمة لكريم أعطتها لسامر. بدت البنطال أطول منه، فلفه عند القدمين.

جلسا في المطبخ يشربان حليبًا ساخنًا. كانت ريم نائمة في الغرفة، وحرارتها مرتفعة. نهضت نادية كل بضع دقائق لتطمئن عليها.

قال سامر:

ـ هي تعبانة؟

ـ شوية برد.

ساد الصمت. لم يعتد سامر رؤية نادية قلقة.

عاد كمال قبل المغرب. رأى حذاءين مبتلين عند الباب، وحقيبتين مفتوحتين لتجفا، وسامر في ملابس كريم.

قال:

ـ واضح إن عندنا لاجئ.

ضحك سامر، لكن نادية لم تضحك.

دخل كمال الغرفة، لمس جبين ريم، ثم خرج وغيّر ملابسه بسرعة.

ـ نروح للدكتور.

قالت نادية:

ـ استنى لما المطر يخف.

نظر من الشرفة. لم يخف.

ـ هنروح دلوقتي.

حمل ريم ونزل. تبعته نادية. بقي زين وسامر مع كريم في البيت.

لأول مرة، لم يشعر زين أن المطر لعبة. وقف عند الشرفة يراقب سيارة أبيه تبتعد ببطء في الشارع المغمور بالمياه.

جلست سالي في شرفتها المقابلة، فرأته واقفًا.

ـ ريم مالها؟

ـ تعبانة.

اختفت. بعد دقائق طرقت ليلى الباب ومعها ترمس ينسون، ثم أخذت سامر إلى بيته.

عاد كمال ونادية ليلًا. كانت ريم نائمة على كتف أبيها، والدواء في يد أمها.

سأل زين:

ـ كويسة؟

قال كمال:

ـ كويسة.

لم يقل أكثر. وضع ابنته في سريرها، وجلس إلى جوارها حتى نامت. من الشرفة، ظل صوت المطر مستمرًا، لكنه لم يعد الصوت نفسه الذي سمعه الأطفال في المدرسة.

الفصل الثالث

أشياء يحتفظ بها الأطفال

ومع بداية المدرسة، لم تعد العمارة وحدها هي العالم؛ صار هناك عالم آخر خلف بوابة حديدية، له قوانينه ومقاعده وخوفه الخاص.

كان الصندوق الأزرق لسالي.

صندوق كرتون غطته بورق لامع، وكتبت اسمها في الداخل حتى لا يسرقه أحد، مع أن أحدًا لم يكن يريد صندوقًا مليئًا بقصاصات الورق وأغطية الأقلام وأشياء لا معنى لها.

اكتشفه زين حين دخل يبحث عن كرة سقطت في شقتهم.

كانت سالي في المطبخ، وليلى تتحدث مع نادية في الصالة.

وجد الكرة قرب غرفتها، ورأى الصندوق تحت السرير. سحبه قليلًا.

ظهرت داخله رسمة الجميزة، وغلاف حلوى قديم، وصورة صغيرة لطفل لا يعرفه.

دخلت سالي.

ـ بتعمل إيه؟

ترك الصندوق فورًا.

ـ بدور على الكرة.

أشارت إلى الكرة خلفه.

ـ لقيتها.

ظل واقفًا، ثم سأل:

ـ مين ده؟

أمسكت الصورة بسرعة وأعادتها.

ـ أحمد.

ـ أخوكي؟

هزت رأسها.

ـ هو عند ربنا؟

لم تجب. دفعت الصندوق تحت السرير، ثم أخذت الكرة ووضعتها في يده.

ـ ما تفتحش حاجتي.

قال:

ـ ما فتحتش.

ـ سحبته.

ـ عشان الكرة.

ـ الكرة كانت بره.

احمر وجهه.

ـ خلاص.

خرج من الغرفة. عند الباب توقف، لكنه لم يعتذر.

في المساء، جلست سالي على السلم وحدها. مر زين من أمامها ثم عاد. وضع شيئًا إلى جوارها: سيارته الحمراء.

نظرت إليه.

ـ دي ليه؟

ـ خليها عندك النهارده.

ـ مش عايزاها.

ـ براحتك.

تركها ومضى.

بعد ساعة، صعد كمال فوجد السيارة أمام باب الشقة. حملها ودخل.

ـ دي مش عربيتك؟

قال زين:

ـ سالي رجعتها.

ـ إنت اديتهالها ليه؟

هز كتفيه.

ـ عادي.

نظر كمال إليه، ثم وضع السيارة على الطاولة ولم يسأل.

في اليوم التالي، وجد زين ورقة مطوية داخل حقيبته. فتحها. كانت رسمة لسيارته الحمراء، وتحتها كلمتان بخط سالي المتعثر: "ما تزعلش".

ذهب إلى الدور الثاني. كانت واقفة عند الباب.

قال:

ـ أنا ما كنتش هسرق الصندوق.

قالت:

ـ عارفة.

ـ وأنا آسف.

ترددت، ثم قالت:

ـ خلاص.

منذ ذلك اليوم عرف كل منهما أن للآخر أشياء لا تُفتح من غير إذن، حتى حين يكون الباب قريبًا والفضول أقرب.

• • •

كان باب العمارة الحديدي لا يُغلق جيدًا.

إذا دفعه أحد بخفة، بقي مواربًا. وإذا هبت الريح، ضرب الحائط بصوت يفزع ريم ويوقظ عم حسين.

أصلحه عم حسين مرتين. أصلحه فؤاد مرة. وفي كل مرة عاد إلى عادته.

قال كمال:

ـ المفصلة عايزة تتغير.

قال عم حسين:

ـ المالك بيقول الشهر الجاي.

لم يأتِ الشهر التالي.

في عصر يوم، دخل كلب أسود إلى العمارة هربًا من الحر.

وجده الأطفال تحت السلم، يلهث وعيناه نصف مغلقتين.

قال محمود:

ـ نطلعه.

قالت سالي:

ـ عطشان.

جاءت بطبق ماء. شرب الكلب حتى فرغ الطبق، ثم تمدد.

قال حسام:

ـ نخليه عندنا.

اعترض عم حسين:

ـ العمارة مش مأوى.

لكن الكلب بقي حتى المساء.

عندما عاد كمال، وجده عند المدخل والأطفال حوله. سأل:

ـ بتاع مين؟

قال سامر:

ـ بتاعنا.

قال عم حسين:

ـ من ساعة.

انحنى كمال، نظر إلى الطوق القديم حول رقبته، ثم وجد لوحة معدنية صغيرة. مسحها وقرأ اسمًا ورقم هاتف.

ذهب إلى بقالة آخر الشارع واتصل. بعد نصف ساعة جاء رجل في سيارة قديمة، نزل مسرعًا واحتضن الكلب.

قال:

ـ بدور عليه من الصبح.

نظر الأطفال إلى بعضهم في خيبة. كانوا قد سمّوه "أسود" وقرروا أين سينام.

ربت الرجل على رأس الكلب وشكرهم. قبل أن يرحل، قال زين:

ـ خليه ما يهربش تاني.

أجاب الرجل:

ـ الباب اتفتح.

بعد أن غادرت السيارة، نظر كمال إلى باب العمارة الموارب.

في صباح اليوم التالي، أحضر مفصلة جديدة من السوق. نزل فؤاد معه، وأمسك عم حسين الباب.

استغرق الإصلاح ساعة. كان زين وسامر يراقبان، وسالي جالسة على الدرجة ترسم الثلاثة وهم يعملون.

جرب كمال الباب. أغلق من أول مرة.

قال عم حسين:

ـ كده محدش يدخل.

رد فؤاد:

ـ ولا حد يخرج من غير ما نسمع.

في المساء، عاد زين من اللعب ودفع الباب. أغلق خلفه بصوت واضح. توقف ونظر إليه، ثم فتحه مرة أخرى لسالي التي كانت تصعد ببطء وهي تحمل كتبها.

قالت:

ـ شكرًا.

قال:

ـ الباب تقيل.

دخلت، وأغلقه وراءهما.

منذ ذلك اليوم لم يعد باب العمارة مفتوحًا طوال الوقت. أما أبواب الشقق فبقيت مواربة، وانتقلت الجيرة من الممرات إلى البيوت نفسها.

• • •

جاء الشتاء إلى العمارة رقم 12 من أسفل الأبواب.

في الأسبوع الأول، بدأت النوافذ تصدر صفيرًا رفيعًا كلما اشتدت الريح. وفي الأسبوع الثاني، وضعت نادية قطعة قماش عند أسفل باب الشرفة، ثم وجدت ليلى تفعل الشيء نفسه في الدور الثاني، فضحكتا لأن البيتَين، رغم اختلافهما، كانا يواجهان البرد بالطريقة ذاتها.

كان زين يكره ارتداء القميص الصوفي. يقرصه عند الرقبة، ويجعله يحك جلده كل دقائق. لكن كمال أصر عليه صباحًا، فلم يجادل. انتظر حتى خرج أبوه إلى العمل، ثم خلع القميص ودسه داخل الحقيبة.

في المدرسة، لاحظ سامر أن قميص زين الأبيض منتفخ من الخلف.

ـ إيه اللي في الشنطة؟

ـ ولا حاجة.

- وريني.

فتح زين الحقيبة قليلًا. ظهر طرف الصوف البني.

قال سامر:

ـ إنت خلعته؟

هز زين رأسه.

ابتسم سامر ابتسامة واسعة.

ـ وأنا كمان.

فتح حقيبته، وأخرج بلوفرًا كحليًا مكورًا فوق الكتب. تبادلا النظرة التي يتبادلها شخصان اكتشفا أنهما ارتكبا الجريمة نفسها.

بعد الظهر، انخفضت الحرارة فجأة. خرج الأطفال من المدرسة ووجوههم تضربها الريح. حاول زين أن يبدو طبيعيًا، لكنه كان يضم ذراعيه إلى صدره. أعاد ارتداء القميص الصوفي في

مدخل عمارة قريبة، وأعانه سامر في إدخال رأسه من الفتحة الضيقة.

قال سامر:

ـ ما تقولش لحد.

رد زين وهو يصلح شعره:

ـ وإنت كمان.

عندما وصلا إلى العمارة رقم 12، كانت سالي جالسة عند الباب، وفي يدها كتاب مصور. رفعت رأسها إليهما، ثم قالت:

ـ إنتوا لابسين الهدوم بالمقلوب.

نظر زين إلى كم القميص. كانت الخياطة إلى الخارج.

قال سامر بسرعة:

ـ دي الموضة.

أغلقت سالي الكتاب.

ـ الموضة عندكم بس؟

لم يجد سامر ردًا، فضحك زين. كان الضحك يجعل البرد أخف.

في المساء، دخل كمال غرفة زين ليغلق النافذة. وجد القميص الصوفي ملقى فوق الكرسي، مبللًا عند الأكمام. حمله، وشم فيه رائحة المطر والشارع. لم يقل شيئًا.

في الصباح التالي، وضع فوق سرير زين قميصًا آخر أخف، وقال وهو يربط ساعة يده:

ـ ده أريح.

نظر زين إليه. لم يعرف هل اكتشف أبوه ما فعله أم لا.

قال كمال قبل أن يخرج:

ـ البرد ما يعرفش العند.

كانت الجملة قصيرة، وانتهت عند هذا الحد.

في المدرسة، أخبر سامر بما حدث.

قال سامر:

ـ أبوك عرف.

ـ يمكن.

ـ أكيد.

ظل زين طوال اليوم يفكر في الطريقة التي عرف بها كمال أشياء لم يخبره بها أحد. وعندما عاد، وجد أباه يصلح شقًا صغيرًا في إطار النافذة. وقف يتابعه، ثم ناوله المسامير من غير أن يطلب.

خارج الشرفة، كانت أول قطرات المطر تضرب الجميزة. وفي الدور الثاني، كانت سالي تضع ورقة بين صفحات كتابها، وترسم عليها ولدين يرتديان قميصيهما بالمقلوب.

• • •

انقطعت الكهرباء في السابعة مساءً، بينما كانت نادية ترفع صينية الطعام من المطبخ إلى المائدة.

انطفأ التلفزيون أولًا، ثم المروحة، ثم المصباح المعلق في الصالة. بقيت نقطة حمراء صغيرة داخل جهاز الراديو، ثم اختفت هي الأخرى.

صرخت ريم من الغرفة.

قال كريم:

ـ يا سلام. كنت بتفرج.

جاء صوت كمال من الشرفة:

ـ محدش يتحرك.

لم يكن أمرًا، بل احتياطًا. في الظلام، تغيرت أبعاد البيت. صار الممر أطول، والطاولة أقرب، والأصوات أوضح.

أشعل كمال شمعة ووضعها داخل طبق معدني. ارتجف الضوء على وجوههم. كانت نادية تحمل ريم، وكريم يمد يده بحثًا عن كوب الماء، وزين ينظر إلى ظل أبيه على الحائط وقد بدا أطول من الحقيقة.

طرق فؤاد الباب.

ـ عندكم كبريت؟

قالت نادية:

ـ تعالى وخد شمعة.

دخل فؤاد ومعه سالي وطارق وهاني. بعد دقائق صعدت ليلى بإناء الشاي، ثم جاء عم حسين يحمل مصباح جاز صغيرًا. امتلأت الصالة بالناس لأن الشقة الوحيدة التي وجد فيها الجميع شموعًا كافية كانت شقة كمال.

قال فؤاد وهو يجلس على الأرض:

ـ الكهربا قررت تعمل لنا زيارة عائلية.

ضحك الكبار. أما الأطفال فتجمعوا حول المصباح، يحركون أيديهم أمامه لتكبر الظلال فوق الحائط.

رسم سامر بيده رأس ذئب. صنعت سالي أرنبًا صغيرًا. حاول زين تقليدها، فخرج الشكل مثل طائر مكسور الجناح.

قالت سالي:

ـ إنت عامل كلب.

قال:

ـ هو أرنب.

ـ ودانه فين؟

فتح إصبعيه أكثر، فضحك الجميع.

لم يكن سامر من سكان العمارة، لكنه كان هناك. جاء قبل انقطاع الكهرباء للعب، ثم بقي. أعطته نادية طبقًا مثل بقية الأولاد، ولم يسأل أحد متى سيعود إلى بيته.

بعد الطعام، قال عم حسين إن الكهرباء لن تعود قبل ساعات. حكى فؤاد عن ليلة قديمة نام فيها فوق سطح بيتهم لأن الحر كان لا يُحتمل. حكت ليلى عن أول مرة رأت فيها الثلج في فيلم أجنبي، وكيف ظنت أنه قطن يتساقط من السماء.

كان كمال أقلهم كلامًا. جلس قرب الشمعة يصلح بطارية الراديو، يفك الغطاء ويعيده. سأل زين:

ـ ليه بتصلحه والنور مقطوع؟

قال:

ـ عشان لما يرجع النور، ما ننساش إنه كان بايظ.

رفع فؤاد حاجبيه.

ـ يا أخي حتى في الضلمة بتشتغل؟

رد كمال:

ـ الضلمة ما توقفش الحاجة اللي نقدر نعملها.

ثم صمت، كأنه ندم أنه قال أكثر مما يلزم.

عند التاسعة، عادت الكهرباء فجأة. أضاء المصباح بقوة، وظهر كل شيء كما كان: الكراسي، الأطباق، الصناديق القليلة التي لم تُفتح بعد. رمش الجميع تحت الضوء.

قالت ريم وهي تضحك:

ـ تاني.

قامت نادية لتطفئ الشموع. لكن سالي قالت:

ـ خلي واحدة.

وضعت ليلى الشمعة في منتصف المائدة، وتركتها مشتعلة رغم عودة النور.

في تلك الليلة، لم يطلب الأطفال تشغيل التلفزيون. جلسوا حول الضوء الصغير حتى ذابت الشمعة إلى نصفها، ثم عاد كل واحد إلى بيته.

في الصباح، نزع زين قطعة الشمع المتجمد من الطبق، ووضعها في درج مكتبه إلى جوار صورة الفصل، ثم أغلق الدرج.

الفصل الرابع

ما لا يقوله الكبار

وحين دخل الشتاء، بدأت التفاصيل الصغيرة تكشف ما لا تقوله الأسر في أيامها العادية.

اختارت المعلمة سالي لقراءة فقرة في الإذاعة المدرسية لأنها كانت تقرأ الكلمات من غير أن تتوقف كثيرًا.

عادت إلى البيت تحمل الورقة كأنها نتيجة امتحان. قرأتها أمام ليلى مرة، ثم مرتين، ثم وقفت أمام المرآة تقرأها بصوت أعلى.

كانت الفقرة عن النظافة. سبعة أسطر قصيرة، لكن المدرسة كلها ستسمعها.

قال طارق وهو يمر خلفها:

ـ هتتلخبطي.

قالت:

ـ مش هتلخبط.

ـ قدام الناس؟

أغلقت الورقة.

ـ روح ذاكر.

لكن الجملة بقيت معها.

في صباح اليوم التالي، وقفت عند باب العمارة تنتظر فؤاد. مر زين وسامر في طريقهما إلى المدرسة. كانت تحمل الورقة مطوية أربع مرات.

قال سامر:

ـ إيه دي؟

ـ هقول حاجة في الطابور.

ـ قدام المدرسة كلها؟

هزت رأسها.

قال سامر:

ـ أنا لو مكانك أهرب.

نظر زين إلى الورقة.

ـ إنتِ حافظاها؟

ـ آه.

ـ يبقى قوليها.

قالها ببساطة، كأنه لا يرى ما يخيفها.

في الفناء، وقف التلاميذ في صفوف. كان الميكروفون مثبتًا فوق منضدة خشبية، ويصدر طنينًا كلما لمسه أحد. وقفت سالي خلف المعلمة، تنتظر دورها. كانت ترى مئات الرؤوس ولا ترى وجهًا واحدًا.

عندما نُودي اسمها، تقدمت. فتحت الورقة. تحركت الكلمات أمام عينيها. في السطر الأول، جف حلقها.

رفعت رأسها مصادفة. رأت زين في صف فصله، يقف بعيدًا. لم يلوح ولم يبتسم. فقط ظل ينظر إليها.

بدأت القراءة.

في الجملة الثالثة، أخطأت في كلمة. توقفت لحظة، ثم أعادتها. لم يضحك أحد. أكملت حتى النهاية، ثم عادت إلى مكانها والورقة ترتجف في يدها.

بعد الطابور، لحق بها زين عند السلم.

ـ كانت حلوة.

قالت:

ـ غلطت.

ـ رجعتيها صح.

وصل سامر خلفه.

ـ أنا كنت ههرب.

قالت سالي:

ـ عارفة.

ضحك زين. ابتسمت هي أيضًا، لكن ابتسامتها اختفت حين دخلت الفصل.

بعد أيام، طلبت منها المعلمة قراءة فقرة أخرى. هذه المرة لم تخبر أحدًا في البيت إلا في الليلة السابقة. جلست نادية معها عند مائدة المطبخ، وطلبت منها أن تقرأ ببطء.

قالت نادية:

ـ ما تجريش عشان تخلصي. خلي كل كلمة تاخد حقها.

سألت سالي:

ـ إنتِ كنتِ بتقري في المدرسة؟

ابتسمت نادية.

ـ كنت بكتب أكتر ما بقرا.

ـ بتكتبي إيه؟

توقفت يد نادية فوق كوب الشاي. ثم قالت:

ـ حاجات قديمة.

دخل كمال، فانتهى الحديث. لكن سالي لم تنسَ الإجابة.

في الإذاعة الثانية، قرأت من غير أن تخطئ. وعندما عادت إلى العمارة، وجد زين عند الجميزة.

قالت له:

ـ النهارده ما غلطتش.

رفع رأسه من الكرة.

ـ كنت عارف.

لم يسألها كيف كان يومها. ولم تقل له إنها بحثت عنه بين الصفوف ولم تجده لأن فصله تأخر عن الطابور. اكتفت بأن جلست على الدرجة، تتابع المباراة، والورقة مطوية في جيبها.

• • •

اكتشف سامر قطعة الأرض خلف السور صدفة.

كان يطارد كرة صغيرة خرجت من فناء المدرسة، فتبعها إلى زقاق ضيق ثم وجد بابًا حديديًا بلا قفل. خلف الباب أرض مهملة، تتناثر فيها الحجارة والأخشاب، وفي آخرها شجرة تين لا تظهر من الشارع.

في اليوم التالي، أخذ زين معه.

قال عند الباب:

ـ محدش يعرف المكان.

دفعه ببطء. صدر صوت احتكاك طويل، ثم انفتح.

كانت الأرض أكبر مما توقع زين. الهواء فيها ساكن، ورائحة التراب أقوى، والشجرة في النهاية تحمل ثمارًا صغيرة خضراء.

قال سامر:

ـ دي تبقى مقرنا.

ـ مقر إيه؟

ـ أي حاجة.

جلسا تحت الشجرة. لم يكن معهما شيء يفعلانه. ومع ذلك، بقيا ساعة كاملة. تحدّث سامر عن أبيه الذي يسافر كثيرًا، وعن هدية وعده بها ولم يعد بها في الرحلة الأخيرة. وحكى زين عن كريم الذي يعامله كطفل أمام أصدقائه ثم يطلب منه أن يغطي غيابه أمام أمه.

كان هذا أول مكان يتكلمان فيه من غير أن يسمعهما أحد.

في المرة الثالثة، أحضرا خبزًا وجبنًا. وفي الرابعة، وجدا ثمرة تين بدأت تلين. قطفها سامر ومسحها في قميصه.

قال زين:

ـ يمكن تبقى وحشة.

قسمها سامر نصفين.

ـ نجرب.

كان طعمها غير ناضج، مليئًا باللبن الأبيض المر. بصقاها وضحكا حتى آلمتهما بطونهما.

تأخرا في العودة.

في العمارة، بدأت نادية تنادي من الشرفة. خرج كمال من عمله مبكرًا، فلم يجد زين. سأل حسام، ثم عم حسين، ثم سالي.

قالت سالي:

ـ كان مع سامر.

ـ راحوا فين؟

هزت رأسها.

بقيت عند الباب تراقب الشارع. كانت كلما ظهر ولدان من بعيد، تقف، ثم تجلس حين تكتشف أنهما ليسا هما.

ظهر زين وسامر بعد الغروب، وثيابهما مغطاة بالتراب.

وقف كمال عند باب العمارة. لم يصرخ. قال:

ـ فين؟

نظر زين إلى سامر. قال سامر بسرعة:

ـ كنا بنلعب.

سأل كمال:

ـ فين؟

قال زين:

ـ بعيد شوية.

ظل كمال صامتًا. ثم قال:

ـ سامر يروح بيته. وإنت اطلع.

في الصالة، جلس زين أمام أبيه. كانت نادية تتحرك في المطبخ بعصبية، وتضع الأشياء بقوة أكبر من اللازم.

قال كمال:

ـ المكان ده خطر؟

ـ لأ.

ـ حد يعرفه؟

ـ إحنا.

ـ لو حصل لك حاجة، أبدأ أدور فين؟

لم يجب زين.

دخلت نادية وقالت:

ـ أنت عارف أنا ناديت عليك كام مرة؟

خفض رأسه.

قال كمال:

ـ بكرة توريني المكان.

رفع زين عينيه في خوف.

ـ وهتقفله؟

ـ بكرة نشوف.

في اليوم التالي، ذهب كمال معهما. فحص الباب والسور والأخشاب الصدئة. لم يغلق المكان، لكنه أبعد لوحًا فيه مسامير، وطلب منهما ألا يدخلا وحدهما ولا يتأخرا.

قبل أن يغادر، وقف تحت شجرة التين، نظر إلى الثمار الخضراء، ثم قال:

ـ استنوا عليها. لسه بدري.

لم يعرف الطفلان إن كان يقصد الشجرة وحدها.

• • •

كان اسم أحمد يظهر في البيت أكثر مما يظهر صاحبه.

في خزانة ليلى علبة صغيرة مكتوب عليها اسمه. وفي ألبوم الصور صفحات تنتهي فجأة عند طفل في الثالثة. وعلى رف الصالة سيارة زرقاء لم يسمح أحد لطارق أو هاني باللعب بها.

عرف زين أن أحمد مات، لكنه لم يفهم المعنى كاملًا. كان يتخيل أنه في مكان بعيد، مثل والد سامر حين يسافر، لكنه لا يعود في موعد محدد.

في يوم مولد سالي، اجتمعت الأسرتان في شقة فؤاد. أعدت ليلى كعكة صغيرة، ووضعت ست شمعات بدل خمس لأن سالي أصرت أن عمرها الجديد يبدأ فور إطفائها.

قال فؤاد:

ـ الحساب عندنا بيتقدم بسرعة.

ضحك الجميع.

بعد قطع الكعكة، اختفت ليلى إلى غرفتها. تأخرت. دخلت نادية خلفها، فوجدتها جالسة أمام الخزانة، تحمل قميصًا صغيرًا أبيض.

لم تقل نادية شيئًا. أغلقت الباب، وجلست إلى جوارها.

في الخارج، بدأ الأطفال لعبة الكراسي. كان سامر يغش بتأخير جلوسه حتى آخر لحظة، وكانت سالي تصرخ عليه كل مرة. زين لم يكن يحب اللعبة، لكنه شارك لأن هذا يومها.

عندما عادت ليلى، كان وجهها هادئًا أكثر من اللازم. صفقت معهم، ثم حملت الأطباق.

بعد أن غادر الضيوف، دخلت سالي غرفة أمها. وجدت العلبة مفتوحة فوق السرير.

قالت:

ـ طلعتي حاجات أحمد؟

أغلقت ليلى العلبة.

ـ آه.

ـ ليه النهارده؟

جلست ليلى على طرف السرير.

ـ عشان يوم ميلادك كان قريب من يوم ميلاده.

سكتت سالي. ثم سألت:

ـ كان بيحب الكعكة؟

ابتسمت ليلى رغم الدموع التي لم تسقط.

ـ كان بياكل الكريم ويسيب الكيك.

جلست سالي بجوارها.

ـ أنا بعمل كده برضه.

نظرت ليلى إليها، ومررت يدها على شعرها.

ـ عارفة.

في اليوم التالي، أخبرت سالي زين عند السلم.

قالت:

ـ أنا شبه أحمد في الأكل.

قال:

ـ يمكن عشان إخوات.

ـ ماما زعلت.

لم يعرف ماذا يقول. أخرج من جيبه نصف قطعة حلوى بقيت من المدرسة، ومدها إليها.

قالت:

ـ مش عايزة.

ـ خليها بعدين.

أخذتها ووضعها في جيب فستانها.

بعد أسبوع، وجد زين الغلاف داخل الصندوق الأزرق عندما فتحته سالي أمامه لتريه رسمة جديدة. لم يذكره. وهي لم تقل لماذا احتفظت به.

كان أحمد الغائب الوحيد الذي يعرفه الأطفال من صوره وأشيائه. ومن غير أن يظهر، علّمهم أن بعض البيوت تحمل شخصًا لا يراه الزائر، وأن الحزن لا يبقى دائمًا خلف باب مغلق؛ أحيانًا يجلس إلى المائدة في يوم ميلاد سعيد.

• • •

حصل سامر على تسع درجات من عشر في امتحان الحساب، بينما حصل زين على الدرجة كاملة.

لم تكن الدرجة الواحدة مهمة، لكن المعلمة رفعت ورقة زين أمام الفصل وقالت:

ـ نموذج مرتب.

ثم أعادت ورقة سامر وأضافت:

ـ إنت فاهم، بس مستعجل.

ضحك طفل في الصف الخلفي. التفت سامر إليه بعصبية، ثم عاد إلى مقعده.

في الفسحة، أخفى الورقة داخل الحقيبة. حاول زين أن يحدثه عن المباراة، لكنه أجاب بكلمات قصيرة.

قال زين:

ـ إنت زعلان؟

ـ لأ.

ـ عشان الدرجة؟

ـ قلت لأ.

ظل زين صامتًا. لم يكن يعرف أن السؤال نفسه يمكن أن يزيد الغضب.

عند الخروج، مرّا بالمكتبة. وقف زين يتأمل مجلة جديدة، بينما أكمل سامر الطريق وحده.

لحق به عند أول الشارع.

ـ استنى.

قال سامر:

ـ روح للمجلة.

ـ مالك؟

توقف سامر فجأة.

ـ كل حاجة إنت فيها أحسن.

لم يفهم زين.

ـ إيه؟

ـ جبت عشرة. والأستاذة قالت ورقتك نموذج. وأبوك بيذاكرلك. وإنت عندك كتب وحاجات.

قال زين:

ـ إنت بتعرف ترسم أحسن مني.

ـ أنا بتكلم عن الحساب.

ـ طب أذاكر معاك.

ـ مش عايز.

مشى سامر بسرعة. بقي زين مكانه للحظات، ثم عاد إلى البيت وحده.

في المساء، لاحظ كمال أنه لم ينزل للعب. سأله مرة واحدة، فحكى له ما حدث.

قال كمال:

ـ وإنت قلت له إيه؟

ـ قلت أذاكر معاه.

ـ يمكن ما كانش عايز حل.

ـ أمال كان عايز إيه؟

رفع كمال كتفيه.

ـ يمكن كان عايزك تسمعه.

لم يضف نصيحة أخرى.

في اليوم التالي، جلس زين إلى جوار سامر من غير أن يفتح موضوع الدرجة. قسم ساندويتشه نصفين، وأعطاه واحدًا. أخذ سامر النصف من غير كلام.

في حصة الرسم، طلبت المعلمة منهم رسم بيت. انتهى سامر أولًا، فرسم لزين نافذة وشجرة لأن رسمه كان خاليًا منهما.

قال زين:

ـ حلو.

رد سامر:

ـ عارف.

ضحكا، وعاد كل شيء تقريبًا إلى مكانه. لكن الدرجة الناقصة تركت أثرًا صغيرًا لم يره أحد. للمرة الأولى، قارن سامر حياته بحياة زين، ولم تكن المقارنة في صالح أي منهما.

في آخر يوم قبل الإجازة، طلبت المعلمة من كل طفل أن يرسم المكان الذي يسميه بيتًا. لم تقل: ارسم شقتك. قالت المكان، وتركت الكلمة مفتوحة.

رسم زين العمارة رقم 12. بالغ في طولها حتى كادت تخرج من الورقة، ثم وضع نافذتين مضاءتين: واحدة في الدور الثاني، وأخرى فوقها مباشرة. رسم الجميزة عند الباب أصغر من حقيقتها، والسيارة الحمراء قرب الرصيف.

مال سامر فوق الورقة وقال: «إنت رسمت بيت سالي كمان.»

رد زين من غير أن يرفع رأسه: «ما هو في نفس العمارة.»

أما سامر فرسم طريقًا طويلًا، وسيارة في منتصفه، وحقيبة فوق السقف. حين سأله زين أين البيت، أشار إلى آخر الطريق وقال: «هناك... بس العربية لسه ما وصلتش.»

بعد الظهر اجتمع الثلاثة عند الجميزة. أحضرت سالي رسمتها من فصلها: درج رخامي يبدأ من باب أخضر، وفوق كل درجة شخص صغير. كان طارق وهاني في الأعلى، وريم قرب الباب، وزين في المنتصف. تركت مساحة فارغة عند الشجرة.

أخذ سامر القلم من يدها وقال: «نسيتي حد.» ورسم نفسه بجوار الجذع، أكبر من الجميع بقليل. اعترضت سالي لأن رأسه صار ضخمًا، فضحك زين وقال إن الرسم هذه المرة يشبهه فعلًا.

ظلت الأوراق الثلاث معلقة أيامًا فوق حائط غرفة زين: عمارة، وطريق، وسلم. كلما دخل الهواء من النافذة، تحركت أطرافها معًا.

الفصل الخامس

أول ما يكسره الزمن

في صباح اليوم الثالث من الإجازة، استيقظ زين على صوت حديد يضرب حديدًا.

لم يكن الصوت صادرًا من العمارة. جاء من الجهة الخلفية، حيث قطعة الأرض التي اكتشفها سامر في الشتاء الماضي. ارتفع مع كل ضربة غبار خفيف، ثم تبعه صوت محرك ثقيل لم يعتده الشارع.

خرج زين إلى الشرفة بملابس النوم. كانت نادية تنشر ملاءة فوق الحبل، وريم تقف على كرسي صغير لتراقبها. مال زين فوق السور، فلم يرَ سوى طرف شاحنة صفراء خلف البيوت.

سأل: «بيعملوا إيه؟»

قالت نادية من غير أن تلتفت: «غالبًا هيبنوا في الأرض الفاضية.»

توقف عن النظر إلى الشاحنة، ونظر إلى أمه.

ـ أنهي أرض؟

ـ اللي ورا المدرسة. سمعت بابا وفؤاد بيتكلموا عنها امبارح.

ترك الشرفة وجرى إلى غرفته. ارتدى قميصًا وسروالًا من غير أن يغلق الأزرار كلها، ثم مر بالصالة. نادته نادية كي يفطر، لكنه قال إنه سيعود بعد قليل، ولم ينتظر الإذن.

عند الطابق الثاني، فتح باب شقة فؤاد قبل أن يطرق. كانت ليلى جالسة إلى المائدة تقطع الخبز، وسالي تمشط شعرها أمام المرآة الصغيرة في المدخل.

قال زين وهو يلهث: «الأرض.»

التفتت سالي. «مالها؟»

ـ هيبنوا فيها.

توقفت يد ليلى فوق السكين. قالت: «استنوا لما حد كبير يروح معاكم.»

لكن الطفلين كانا قد وصلا إلى السلم.

• • •

وجدوا سامر عند الباب الحديدي، واقفًا ويداه في جيبيه. كان يرتدي القميص نفسه الذي لعب به أمس، وعلى ركبته بقعة تراب جافة.

خلفه، دخل عاملان يحملان لفافة سلك. وعند منتصف الأرض، وقفت آلة ذات ذراع طويلة قرب شجرة التين. حُفرت حول جذعها دائرة بيضاء من الجير، ووُضعت على أحد فروعها علامة حمراء.

قالت سالي: «إيه العلامة دي؟»

لم يجب سامر.

اقترب زين من الباب. «إنت عرفت إمتى؟»

قال سامر: «امبارح.»

ـ ومقولتش ليه؟

نظر سامر إلى الأرض. «كنت هقول.»

ـ إمتى؟ بعد ما يهدوها؟

دفع زين الباب، فمنعه عامل شاب بذراعه.

ـ ممنوع تدخلوا يا ولاد. في شغل هنا.

قال زين: «إحنا بنقعد جوه.»

ضحك العامل. «خلاص ما بقيش فيه قعاد. الأرض اتباعت.»

قالت سالي: «والشجرة؟»

أشار إلى العلامة الحمراء. «دي في مكان الحفر.»

لم تفهم سالي الجملة أولًا. رفعت رأسها إلى الشجرة، ثم سألت: «يعني هتشيلوها؟»

أجاب العامل وهو يبتعد: «اسألوا المهندس.»

كان المهندس رجلًا أصلع يحمل أوراقًا ملفوفة. مر بينهم من غير أن يراهم. فتح إحدى الخرائط فوق صندوق خشبي، وأخذ يشرح لثلاثة رجال أين تبدأ الحفرة وأين ينتهي السور الجديد.

اقتربت سالي حتى صارت إلى جواره.

ـ يا عمو.

نظر إليها.

ـ نعم؟

ـ ما ينفعش تسيبوا الشجرة؟

حدق في وجهها لحظة، ثم أشار بالقلم إلى الورقة. «المبنى كله هييجي هنا.»

ـ خلوه ييجي جنبها.

ابتسم الرجل، لا سخرية منها بل عجزًا عن شرح أشياء كثيرة. «الموضوع مش كده.»

قال سامر: «هو كده بالظبط. الأرض كبيرة.»

لف المهندس الخريطة وقال: «روحوا العبوا بعيد عشان المعدات.»

مشى الأطفال إلى سور المدرسة. لم يكن في المكان ما يجلسون عليه؛ الصندوق الذي اتخذوه مائدة اختفى، والأخشاب التي صنعوا منها مقاعد جُمعت في كومة. ظلوا واقفين كأنهم ضيوف وصلوا بعد انتهاء الحفل.

قال زين لسامر: «إنت كنت عارف.»

ـ قلت لك كنت هقول.

ـ ليه ما قلتش امبارح؟

رفع سامر صوته: «عشان كنت عايز نقعد آخر مرة من غير ما تفضلوا باصين للشجرة ومستنيين يقطعوها.»

قالت سالي: «قعدت لوحدك؟»

لم يجب.

نظر زين إلى بقعة التراب فوق ركبته وفهم. جاء سامر في المساء، وجلس تحت الشجرة وحده، ثم عاد من غير أن يخبرهما.

قال زين: «المكان مش بتاعك لوحدك.»

رد سامر: «ولا بتاعك. ما حدش فينا صاحب الأرض.»

كانت الجملة صحيحة، ولذلك آلمته أكثر.

دار سامر وخرج إلى الشارع. نادته سالي، فلم يلتفت. حاول زين أن يبدو غير مهتم، لكنه ظل يراقب ظهره حتى اختفى.

• • •

في الظهيرة، كتبت سالي على ورقة من كراسة المدرسة: «ممنوع قطع الشجرة. يوجد أطفال هنا.»

ترددت عند كلمة «يوجد»، وسألت طارق عن كتابتها. سألها لماذا، فطوت الورقة وقالت إنه واجب. صحح لها الهمزة، ثم عاد إلى مجلته.

أحضرت الورقة إلى شقة زين. كان يجلس عند المائدة، أمامه طبق لم يلمسه.

قالت: «هنعلقها على الباب.»

قرأها. «هيشيلوها.»

ـ يمكن ما يشوفوهاش.

ـ شافونا الصبح.

ـ الورقة غيرنا.

لم يقتنع، لكنه نزل معها. وجدا سامر عند الجميزة، يرسم على قطعة كرتون. لم يعتذر زين، ولم يعتذر سامر. رفعت سالي الورقة أمامهما كأنها قرار رسمي.

قال سامر: «لازم نعمل منها اتنين.»

دخل إلى بيته وأحضر قلمًا أحمر وشريطًا لاصقًا. كتب نسخة ثانية بخط أكبر، وأضاف تحتها: «الشجرة قديمة.»

قال زين: «قديمة قد إيه؟»

أجاب سامر: «مش مهم. القديمة ما تتقطعش.»

علقوا الورقتين على الباب الحديدي وعلى جذع الشجرة. طلب منهم العامل أن يخرجوا، فخرجوا بعد أن تأكدوا أن الورقتين ظاهرتان من بعيد.

في المساء، نزلوا ليتفقدوهما. كانت ورقة الباب في مكانها، أما ورقة الشجرة فقد تحركت مع الهواء حتى أصبحت مائلة. أعاد زين تثبيتها، ثم وضع كفه فوق الجذع.

كان خشنًا ودافئًا من شمس النهار.

قالت سالي: «ممكن نقف هنا بكرة وما نخليهمش يقربوا.»

قال زين: «هيشيلونا.»

ـ نقعد على الأرض.

قال سامر: «نربط نفسنا في الشجرة.»

ضحكت سالي. «بإيه؟»

ـ حبل الغسيل.

بدأوا يخططون بجدية. سيأتون قبل العمال، ويحضرون ماء وطعامًا، ويجلسون حول الجذع. إذا حاول أحد إبعادهم، يصرخون حتى يأتي الكبار. لم يسأل أحد منهم ماذا سيفعل الكبار حين يصلون.

عاد زين إلى البيت وهو يحمل الخطة كأنها سر عسكري. وجد كمال في الصالة يقرأ الجريدة. تردد قبل أن يحكي، ثم أخبره بكل شيء، باستثناء فكرة حبل الغسيل.

استمع كمال حتى النهاية.

سأله زين: «يقدروا يقطعوها؟»

ـ لو الأرض ملكهم ومعاهم تصريح، غالبًا يقدروا.

ـ حتى لو الشجرة أقدم منهم؟

طوى كمال الجريدة. «السن لوحده مش بيحمي حاجة.»

ـ نكلم الشرطة؟

نظر إليه كمال طويلًا، ثم قال بهدوء: «الشرطة مش هتوقف مبنى عشان ثلاثة أطفال بيحبوا شجرة.»

شعر زين أن والده انضم إلى الطرف الآخر. قال: «يبقى الكبار كلهم موافقين.»

ـ مش كل حاجة بنعجز نمنعها نبقى موافقين عليها.

ـ إنت تقدر تكلم المهندس.

ـ أقدر أكلمه. لكن مش هقولك كلام مش حقيقي. ممكن يسمعني، وممكن ما يغيرش حاجة.

رفع زين كتفيه. «يبقى مفيش فايدة.»

عاد كمال إلى الجريدة، ثم قال قبل أن يفتحها: «في فرق بين إن الحاجة ما تنجحش، وإنها ما تكونش لها فايدة.»

لم يفهم الفرق، ولم يطلب تفسيره.

• • •

عند السادسة صباحًا، طرق سامر باب شقة زين. فتح له كمال، مرتديًا ملابس العمل.

قال سامر: «زين صحي؟»

خرج زين قبل أن يجيبه والده. كان قد نام بملابسه تقريبًا، وحمل زجاجة ماء وكيس خبز.

نزل الاثنان إلى شقة سالي. فتحت ليلى الباب، وقالت إن سالي لم تستيقظ. سمعتهما الطفلة من الداخل وخرجت وهي تربط شعرها.

وصل الثلاثة إلى الأرض قبل العمال. كان الباب الحديدي مفتوحًا. دخلوا، فوجدوا الشجرة واقفة تحت ضوء صباح رقيق، والورقة الحمراء ما تزال على جذعها.

جلسوا حولها. أحضر سامر حبلًا قصيرًا، لكنه لم يكفِ ليلف الجذع والثلاثة. ربط طرفه بفرع منخفض، وأمسك كل واحد جزءًا منه.

قالت سالي: «لما ييجوا، محدش يقوم.»

هز الاثنان رأسيهما.

انتظروا.

مرت عشر دقائق. ثم عشر أخرى. بدأ الخبز ينقص. جاءت قطة صغيرة وجلست قرب السور. حكى سامر قصة عن رجل عاش فوق شجرة عشرين سنة حتى لا يقطعوها، ولم يعرف إن كانت

القصة حقيقية. قالت سالي إنها ستبقى عشرين سنة أيضًا. قال زين إن المدرسة ستبدأ قبل ذلك، فضحكوا.

وصل أول عامل، فرآهم وهز رأسه. بعده جاء المهندس، ثم سائق الآلة الصفراء. اقترب الرجل الأصلع وقال: «إيه اللي جابكم بدري؟»

قالت سالي: «مش هنمشي.»

نظر إلى الحبل ثم إليهم. «وأهاليكم عارفين؟»

قال سامر: «آه.»

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا.

سمعوا صوت كمال خلفهم: «دلوقتي عرفنا.»

التفتوا. كان واقفًا عند الباب ومعه فؤاد ونادية وليلى. لم يبدُ أي منهم غاضبًا، لكن ليلى كانت تحمل مشط سالي في يدها، كأنها خرجت قبل أن تكمل ما بدأت.

اقترب كمال من المهندس. تحدثا بعيدًا عن الأطفال. أخرج المهندس الخريطة، وأشار إلى خطوطها. انضم فؤاد إلى الحديث،

وسأله عن مسافة الارتداد ومكان المدخل. لم يفهم الأطفال الكلمات، لكنهم راقبوا الوجوه.

بعد دقائق، عاد كمال.

قال زين: «هيسيبها؟»

جلس والده على ركبته أمامهم. «المهندس بيقول إن الأساسات هتعدي من مكانها، وإن نقلها بالحجم ده مش ممكن.»

قالت سالي: «يعني لأ.»

ـ يعني لأ.

شدد سامر قبضته حول الحبل. «إحنا مش هنقوم.»

قال فؤاد: «لو فضلتوا، الشغل هيقف النهارده. وبكرة هيرجعوا ويقطعوها. الفرق إنكم هتكونوا اتعاقبتوا واتمنعتوا تنزلوا.»

قال سامر: «يبقى نقعد كل يوم.»

نظر إليه فؤاد بحزن لم يفهمه الصبي. «الكبار أحيانًا عندهم وقت أطول من الأطفال.»

بدأت سالي تبكي في صمت. لم تحاول إخفاء دموعها. أما زين فظل ممسكًا بالحبل حتى اقترب كمال ووضع يده فوق يده.

قال: «قوموا. خدوا منها حاجة تفتكروها بيها.»

ـ إحنا عايزينها هي.

ـ عارف.

ـ الغصن مش هيبقى شجرة.

ـ عارف برضه.

كان أكثر ما أزعج زين أن والده يعرف، ومع ذلك لا يملك شيئًا آخر.

أفلت الحبل. أفلتته سالي بعده، ثم سامر. قص لهم أحد العمال ثلاثة أغصان صغيرة. اختارت سالي غصنًا عليه ورقتان، وأخذ سامر قطعة من اللحاء، أما زين فبحث في التراب حتى وجد ثمرة تين صغيرة سقطت قبل أن تنضج.

خرجوا من الأرض. وقفوا خلف الباب الحديدي، والكبار وراءهم.

انطلقت الآلة. تحركت ذراعها نحو الجذع، فتقدمت سالي خطوة، وأمسكت ليلى كتفها. لم تسقط الشجرة من الضربة الأولى. انحنت، قاومت لحظة، ثم صدر من الجذع صوت طويل يشبه انشقاق باب قديم.

حين وقعت، ارتفع غبار أخفى المكان كله.

لم يقل أحد شيئًا.

• • •

زرعوا ثمرة زين في علبة صفيح فوق سطح العمارة. وضع سامر التراب، وسكبت سالي الماء، وثبت زين العلبة قرب الحائط حتى لا تسقطها الريح.

كانوا يصعدون كل صباح لينظروا إليها. بعد أسبوع ظهر خيط أخضر رفيع. صرخت سالي، ونادت الجميع. قال سامر إنه شجرة التين الجديدة، وقال زين إنهم يجب أن يصنعوا لها سورًا صغيرًا.

عاشت النبتة اثني عشر يومًا.

في يوم شديد الحر، وجدوا ساقها منحنية فوق التراب. سقتها سالي حتى امتلأت العلبة بالماء. نقلها زين إلى الظل. أحضر سامر قليلًا من السماد من محل النباتات. لم تنتصب مرة أخرى.

قالت سالي: «يمكن تنام.»

قال زين: «النبات ما بينامش كده.»

سأل سامر: «نزرع واحدة تانية؟»

لم يرد أي منهما.

دفنوا النبتة في الحوض الصغير عند الجميزة. احتفظت سالي بالغصن في الصندوق الأزرق، ووضع سامر قطعة اللحاء داخل كراسة الرسم. أما زين فاحتفظ بعلبة الصفيح فارغة تحت سريره.

بعد شهور، ارتفع في الأرض مبنى من أربعة طوابق. مر الأطفال بجواره كل يوم. كانت نافذة الطابق الأول تقع بالضبط في المكان الذي كانت فيه شجرة التين.

الفصل السادس

أسماء جديدة للأشياء

بعد عامين، لم يعد أحد يقيس أعمارهم بأنصاف السنوات.

صار زين في التاسعة، وسالي في الثامنة، وسامر يسبق زين بأشهر يذكرها كلما احتاج إلى إثبات أنه الأكبر. تغيرت حقائب المدرسة، وقصرت سراويل ثم طالت، واختفت بعض الألعاب في الصناديق من غير قرار رسمي بأن زمنها انتهى.

حتى العمارة نفسها بدت أصغر. الدرج الذي كان يحتاج إلى جهد صار يُقطع ركضًا، والبدروم الذي أخافهم يومًا صار مجرد مكان رطب ترفض نادية أن يدخلوا إليه بسبب الفئران. وحده الباب الأخضر بقي يئن بالطريقة القديمة كلما فُتح.

في المدرسة، ظهرت كلمات لم تكن موجودة في الصف الأول.

قالت المشرفة لسالي ذات صباح: «ما ينفعش تجري في الفناء بالطريقة دي. إنتِ كبرتي.»

كانت سالي تطارد كرة خرجت من ملعب الأولاد. توقفت وهي لا تزال ترفع طرف مريلتها حتى لا تتعثر.

سألت: «كبرت إمتى؟»

لم تجب المشرفة. أخذت الكرة من يدها، ورمتها إلى الجهة الأخرى، ثم أشارت إلى صف البنات.

في البيت، حكت سالي لليلى وهي تخلع حذاءها.

قالت ليلى: «هي قصدها تخلي بالك من هدومك.»

ـ قالت إني كبرت.

ـ وإنت فعلًا كبرتي.

ـ يعني ما أجريش؟

نظرت ليلى إلى ابنتها، ثم إلى خدش صغير في ركبتها. «اجري، بس مش لازم في وسط ماتش الولاد.»

ـ أنا بلعب معاهم من زمان.

ـ المدرسة غير العمارة.

كانت تلك إجابة الكبار المفضلة حين يريدون أن تتغير القاعدة من مكان إلى آخر من غير أن يشرحوا لماذا.

في اليوم التالي، جلست سالي مع البنات قرب سور الفناء. لعبن لعبة بالأيدي، وصفقن في إيقاع حفظته بعد مرتين. من بعيد، كان

زين يحرس المرمى، وسامر يصرخ في اللاعبين. خرجت الكرة إليهن مرة أخرى. هذه المرة لم تتحرك سالي.

ركض سامر وأخذها. سأل: «مش هترجعيها؟»

قالت: «المشرفة قالت ما أدخلش ملعبكم.»

نظر إلى المشرفة ثم قال: «طب بعد المدرسة.»

أجابتها واحدة من البنات قبلها: «هي بتروح معانا المكتبة.»

لم تكن سالي قد وافقت على الذهاب، لكنها قالت: «آه.»

عاد سامر إلى الملعب. وقف زين عند المرمى يراقب الحوار، ثم جاءت الكرة نحوه فدخلت بين قدميه. صرخ الفريق عليه، فالتقطها من الأرض وألقاها بعنف أكبر مما يلزم.

• • •

في ذلك العام، أحضرت مدرسة العلوم نموذجًا بلاستيكيًا لجسم الإنسان.

كان نصفه شفافًا، ويمكن فتح صدره وإخراج أعضاء ملونة واحدة بعد أخرى. ضحك التلاميذ عندما أخرجت المعلمة الأمعاء،

واشمأز بعضهم من الكبد. أما زين فبقي ينظر إلى القلب الأحمر الصغير في يدها.

قالت المعلمة: «القلب عضلة. شغالة طول الوقت من قبل ما تتولد لحد آخر لحظة.»

رفع زين يده. «ما بتتعبش؟»

ـ بتتعب لو صاحبها ما حافظش عليها. وممكن تمرض، وممكن الأطباء يصلحوها.

ـ يفتحوها؟

ـ أحيانًا يفتحوا الصدر ويعملوا عملية.

ساد الفصل. حتى سامر توقف عن الرسم في آخر الكراسة.

سأل زين: «والواحد بيبقى صاحي؟»

ضحك بعض الأطفال. قالت المعلمة: «لأ. بيكون تحت التخدير، والطبيب عنده أجهزة وفريق كامل.»

أعادت القلب إلى مكانه، لكنها لم تستطع أن تعيده في رأس زين إلى مجرد قطعة بلاستيك. ظل يتخيل عضلة صغيرة تعمل في

الظلام، لا يراها صاحبها ولا يطلب منها أن تستمر، ومع ذلك تستمر.

بعد أسبوع، وجد نادية جالسة عند باب المطبخ، تضع يدها فوق صدرها.

كان البيت مزدحمًا لأن ليلى جاءت تساعدها في إعداد طعام لضيوف كمال. انتشرت الأطباق فوق المائدة، وارتفع البخار من الحلة. دخل زين ليطلب ماء، فرأى وجه أمه شاحبًا.

قال: «مالك؟»

أجابت وهي تحاول أن تبتسم: «مافيش. قلبي جري شوية.»

تذكر النموذج البلاستيكي. جلس أمامها ووضع إصبعين على معصمها كما فعلت المعلمة حين شرحت النبض. لم يجد شيئًا أولًا، ثم شعر بدقات سريعة تقفز تحت الجلد.

قال: «سريع قوي.»

دخلت ليلى، فرأت وجهه. وضعت كوب ماء في يد نادية، وفتحت النافذة. بعد دقائق هدأ النبض، لكن زين لم يهدأ.

حين عاد كمال، أخبرته ليلى. أصر على أن يذهبا إلى الطبيب في المساء. قالت نادية إنها مجرد دوخة من الحر، لكنه لم يناقشها طويلًا.

جلس زين في غرفة الانتظار بين أبيه وأمه. كان المكان صغيرًا، تفوح منه رائحة مطهر، وعلى الحائط صورة لقلب مرسوم بالأزرق والأحمر. خرج رجل مسن يحمل ورقة دواء، ثم نادت الممرضة اسم نادية.

وقف زين معها.

قالت: «خليك مع بابا.»

ـ أنا عايز أدخل.

نظر الطبيب إلى كمال، ثم سمح له. جلس زين على كرسي قرب الباب، يراقب السماعة فوق صدر أمه، وجهاز الضغط وهو ينتفخ حول ذراعها.

سأل الطبيب أسئلة كثيرة: هل نامت جيدًا؟ هل شربت قهوة؟ هل حدث هذا من قبل؟ ثم قال إن القلب سليم، وإن الإرهاق

والحر وقلة الطعام قد تسبب خفقانًا، لكنه طلب بعض التحاليل للاطمئنان.

سأله زين: «إنت سمعت إيه بالسماعة؟»

ابتسم الطبيب. «سمعت قلبها بيشتغل كويس.»

ـ عرفت إزاي؟

مد له السماعة. «اسمع.»

وضع القرص المعدني فوق صدره. وصل إليه صوت مكتوم منتظم: دقتان قصيرتان، ثم فراغ، ثم دقتان. لم يشبه صوت القلب في الأفلام، ولا صوت الساعة. كان أقرب إلى طرق صغير على باب مغلق.

قال الطبيب: «كل قلب له صوته، بس لازم تتعلم تسمع الفرق.»

في الطريق إلى البيت، سأل كمال ابنه لماذا كان صامتًا.

قال زين: «الدكتور عرف من الصوت إنها كويسة.»

قال كمال: «عشان درس سنين.»

ـ لو الصوت وحش، يصلحه؟

ـ يحاول.

ظل زين ينظر من نافذة السيارة. كانت كلمة «يحاول» أقل طمأنينة من كلمة «يصلح»، لكنها بدت له أكثر صدقًا.

• • •

بدأت سالي في الوقت نفسه تكتب صحيفة للعمارة.

لم تكن صحيفة بالمعنى الذي يعرفه الكبار. أربع ورقات من كراسة الرسم، كتبت في أعلاها بقلم أزرق: «أخبار رقم 12». رسم سامر تحت العنوان باب العمارة والجميزة، ثم رفض أن يكتب اسمه لأنه قال إن الرسامين الكبار يوقعون في الزاوية.

كان الخبر الأول عن انقطاع المياه يوم الثلاثاء. والثاني عن قطة السيدة وداد التي ولدت ثلاثة قطط. أما الخبر الثالث فكان إعلانًا بأن المصعد سيُصلح قريبًا، رغم أن العمارة لم يكن بها مصعد أصلًا.

قال زين: «إنتِ كتبتي خبر مش حقيقي.»

ردت سالي: «ده اقتراح.»

ـ مكتوب خبر.

ـ لما نكتبه يمكن يعملوه.

قال سامر: «اكتبي إن السكان يطالبون بمصعد.»

أعجبتها العبارة. شطبت السطر وأعادته بخط أوضح.

قررت أن تضيف صفحة بعنوان «اسأل السكان». حملت دفترًا صغيرًا، وبدأت من شقتها. سألت فؤاد عن أكثر شيء يحبه في العمارة، فقال الشرفة في الصباح. سألت ليلى، فقالت الجيران. أجاب طارق: قرب المدرسة، وقال هاني: لا شيء لأن شبكة الكرة ضيقة.

صعدت إلى الطابق الثالث. كان كمال يصلح مقبض دولاب.

سألته: «لو كنت مش مهندس، كنت هتبقى إيه؟»

فكر وقال: «مُدرّس.»

ضحك زين. «إنت ما بتحبش الدوشة.»

قال كمال: «يمكن عشان كده ما بقيتش مدرس.»

أجابت نادية عن السؤال نفسه بأنها كانت ستكتب كتبًا للأطفال.

توقفت سالي عن الكتابة. «إنتِ بتعرفي تكتبي؟»

قالت نادية: «كنت بحاول.»

ـ فين الحاجات اللي كتبتيها؟

ـ في درج قديم، غالبًا.

ـ أطلعها؟

ابتسمت نادية. «لما ألاقيها.»

ثم جاء دور زين.

جلست سالي أمامه فوق السلم، ووضعت الدفتر على ركبتها.

ـ هتبقى إيه لما تكبر؟

قال من غير تفكير: «مهندس بترول.»

رفع سامر رأسه من الرسم. «عشان باباك؟»

ـ أيوه.

كتبت سالي الإجابة. ثم سألته: «ولو ما بقيتش؟»

تذكر السماعة والقلب البلاستيكي وصوت الدقات.

قال: «دكتور.»

شطبت كلمة «مهندس» بخط واحد، وكتبت «طبيب».

قال زين: «ما تشطبيهاش. يمكن أبقى الاتنين.»

ضحك سامر. «هتصلح مواسير الناس.»

ضحكت سالي حتى اهتز الدفتر. احمر وجه زين، ثم ضحك معهم رغمًا عنه.

سألت سامر: «وإنت؟»

قال: «رسام.»

جاء صوت أبيه من الشقة: «رسام إيه؟ قول مهندس معماري.»

لم يكن فؤاد قد خرج، لكنه سمع الكلمة من الداخل. سكت سامر، ثم قال بصوت أعلى: «مهندس معماري.»

كتبت سالي ما قاله الأب.

نظر سامر إلى الكلمة، ومد يده إلى الدفتر. «اكتبي رسام جنبها.»

كتبتها بين قوسين.

في المساء، علقت الصحيفة عند المدخل. قرأها السكان، وضحكوا من خبر المصعد، ووضعت السيدة وداد علامة بالقلم بجوار خبر قطتها لتصحح أن العدد أربعة لا ثلاثة.

وقف الأطفال أمامها بفخر.

قال كمال: «مين رئيس التحرير؟»

أشارت سالي إلى نفسها.

ـ ومين الرسام؟

أشار سامر إلى توقيعه الصغير في الزاوية.

ـ وزين بيعمل إيه؟

قالت سالي: «بيراجع الأخبار عشان ما نكتبش حاجة غلط.»

نظر زين إليها. لم يعرف أنها لاحظت ذلك فيه.

• • •

كان التغير يأتيهم في صورة قواعد صغيرة.

لم تعد ليلى تسمح لسالي بالنزول بعد المغرب وحدها. لم يعد طارق يقبل أن تدخل أخته غرفته حين يكون أصدقاؤه عنده. بدأ كريم يغلق باب غرفته، ويطلب من زين ألا يلمس شرائط الكاسيت. وصارت ريم، التي كانت تمشي خلفهم في كل مكان، تملك صديقاتها وألعابها الخاصة.

في أحد الأيام، جلس زين وسالي فوق الدرجة بين الطابقين كما اعتادا. كان سامر في نادي المدرسة يتدرب على الرسم. تبادلا مجلة الأطفال، وراح زين يحل المسابقة بينما تقرأ سالي قصة بصوت خافت.

فتحت السيدة وداد بابها، ونظرت إليهما.

قالت: «ما تقعدوا جوه بدل قعدة السلم دي؟ إنتوا مش صغيرين.»

قال زين: «إحنا بنقرا.»

ـ اقرو في بيتكم.

أغلقت الباب.

ظلا صامتين.

سألت سالي: «هو إحنا عملنا حاجة؟»

ـ لأ.

ـ أمال قالت كده ليه؟

رفع كتفيه. لم يكن لديه تفسير، لكنه شعر أن الدرجة التي جلسا عليها مئات المرات أصبحت فجأة مكانًا يحتاج إلى دفاع.

قالت: «نطلع عندنا؟»

قال: «ماشي.»

في شقتها، جلست سالي إلى المائدة، وجلس زين في المقعد المقابل بدلًا من جوارها. لم يطلب منه أحد ذلك. فتح المجلة، وحاول إكمال المسابقة، لكنه نسي السؤال الذي كان يحله.

في دفتر الصحيفة، عادت سالي إلى صفحة المقابلات، وكتبت تحت اسم زين سؤالًا لم تسأله بصوت مسموع: «لماذا يريد أن يصبح طبيبًا؟»

انتظرت يومين، ثم سألته عند باب المدرسة.

فكر قليلًا وقال: «عشان محدش يخاف وهو مستني الدكتور.»

كتبت الإجابة كما قالها، من غير أن تصحح له أن الطبيب لا يستطيع منع الخوف دائمًا.

الفصل السابع

الامتحان الذي لم يكن في الورقة

في الصف الرابع، صار للمدرسة يوم رياضي يسبق امتحانات نصف العام.

علقوا أعلامًا صغيرة فوق الفناء، ورسموا خطوط السباق بالطباشير، ووضعوا منضدة طويلة للجوائز. اختير زين ضمن فريق الفصل في كرة القدم، واختير سامر في سباق المئة متر، أما سالي فكانت ضمن مجموعة الإذاعة التي ستعلن النتائج.

وصلت الأسر في الصباح. جلس كمال وفؤاد في صف واحد قرب الملعب، وبينهما أكواب شاي ورقية. جاءت نادية وليلى بعد بدء السباق الأول، تحملان زجاجات ماء وسندويتشات تكفي نصف المدرسة.

كان سامر سريعًا. لم تكن خطواته منتظمة، لكنه كان يندفع في الأمتار الأخيرة كأنه يهرب من شيء. فاز بالسباق بفارق صغير، ورفع ذراعيه قبل خط النهاية. أعلنت سالي اسمه عبر الميكروفون، فالتفت إليها بدلًا من أن ينظر إلى منصة الجوائز.

قال زين، وهو ينتظر مباراة فريقه: «لو كنت رفعت إيدك بدري شوية كنت هتقع.»

رد سامر: «بس ما وقعتش.»

ـ المرة الجاية ممكن.

ـ إنت عمرك ما تسيب حاجة تعدي من غير ما تقول المرة الجاية؟

ضحك زين. «عشان المرة الجاية تيجي.»

بدأت المباراة. لعب زين في الدفاع، لا لأنه الأفضل في المركز، بل لأنه الوحيد الذي يقبل البقاء بعيدًا عن الكرة معظم الوقت. كان يراقب المساحات أكثر مما يطارد اللاعبين، ويقطع التمريرات قبل أن تصل.

في منتصف الشوط، تجمع عدد من تلاميذ الصفوف الصغيرة قرب خط التماس. طلبت منهم المشرفة أن يبتعدوا، لكن صوتها ضاع وسط الصراخ.

خرجت الكرة بقوة، وركض خلفها سامر من خارج الملعب كي يعيدها. في اللحظة نفسها، اندفع طفل صغير اسمه مازن بين

اثنين من زملائه. اصطدم أحدهم بكتفه، فسقط مازن إلى الخلف على لوح زجاج كان مسنودًا إلى سور المخزن.

جاء الصوت حادًا. انكسر الزجاج، ثم ساد صمت قصير قبل أن يبدأ الصراخ.

كان سامر أقرب شخص إليه. انحنى وحاول أن يرفعه، فرأى الدم عند ذراعه. تجمدت يداه.

وصل زين بعد ثوانٍ. رأى قطعة زجاج كبيرة قرب كف الطفل، وجرحًا طويلًا فوق الساعد. تذكر الطبيب الذي قال إن الخوف لا يوقف القلب عن العمل، وتذكر المعلمة وهي تضغط بقطعة قماش على جرح في درس الإسعافات.

خلع قميص التدريب الذي يرتديه فوق الزي، وطواه، وضغطه فوق الجرح.

قال لمازن: «بص لي. ما تبصش على إيدك.»

كان الطفل يبكي ويسأل عن أمه.

قال سامر: «أنا أشيله.»

ـ استنى الممرضة.

وصل المدرسون. أبعدتهم المشرفة، وجاءت الممرضة بحقيبة الإسعافات. أخذت مكان زين، وطلبت من سامر أن يرفع ذراع الطفل. كانت يداه ترتجفان، لكنه فعل.

وسط الفوضى، صاح ولد من الصف الخامس: «سامر زقه!»

التفتت المشرفة. «إيه؟»

قال الولد: «كان بيجري وراه، وزقه على الإزاز.»

رفع سامر رأسه. «كداب!»

ـ أنا شفتك جنبه.

قال سامر: «كنت بجيب الكورة.»

كانت سالي قد تركت الميكروفون وجاءت من الجهة الأخرى. قالت بصوت مرتفع: «هو ما زقوش.»

سألتها المشرفة: «إنتِ شفتي؟»

ـ شفت مازن وقع. واحد خبطه من ورا.

ـ مين؟

نظرت سالي إلى مجموعة الأطفال. لم تكن تعرف الاسم.

التفتت المشرفة إلى زين. «إنت كنت في الملعب. شفت إيه؟»

كان زين قد رأى المشهد من بعيد. رأى مازن يندفع، ورأى كتفًا يصطدم به، لكنه لم يتأكد من صاحبه. ورأى سامر يصل بعد السقوط. كل ذلك حدث في ثوانٍ، ومع ذلك شعر أن الإجابة يجب أن تكون كاملة وإلا صارت خطأ.

قال: «مش عارف مين خبطه.»

تغير وجه سامر.

أكمل زين: «بس سامر ما زقوش. هو وصل بعد ما وقع.»

قالت المشرفة: «متأكد؟»

تردد جزءًا من الثانية، لا في براءة سامر بل في دقة ذاكرته.

قال: «أيوه.»

لكن سامر رأى التردد قبل الإجابة.

• • •

نُقل مازن إلى المستشفى مع أستاذ الرياضة. أُلغيت بقية المسابقات، ودخل زين وسامر وسالي إلى غرفة الناظر لكتابة ما شاهدوه.

جلس سامر على طرف الكرسي، وذراعاه ملطختان بدم جف عند الأصابع. عرضت عليه السكرتيرة أن يغسلهما، فرفض.

قال الناظر: «كل واحد يكتب لوحده، ومن غير ما يتفق مع التاني.»

أعطاهم ثلاث ورقات.

كتبت سالي بسرعة، ثم عادت تقرأ الجمل وتضيف كلمات في الهوامش. رسم سامر خطًا في أول الورقة، توقف، ثم كتب نصف صفحة. أما زين فظل طويلًا أمام الجملة الأولى: «كنت أقف داخل الملعب عندما...»

أراد أن يكتب أن سامر بريء. لكن الناظر لم يسأل من البريء؛ سأل ماذا حدث. كتب أنه رأى مازن يقع بعد اصطدام طفل به، وأن سامر كان على بعد خطوات ووصل بعد السقوط. لم يذكر اسم الطفل الذي اتهم سامر، لأنه لم يكن جزءًا من الحادث نفسه.

قرأ الناظر الأوراق. ثم استدعى المشرفة وعددًا من التلاميذ. بعد ساعة، اعترف طفل من الصف الثالث بأنه اصطدم بمازن من

غير قصد حين كان يحاول الوصول إلى الكرة. لم يعاقبه الناظر، لكنه وبخ المدرسة على ترك الزجاج قرب الفناء.

حين خرجوا، كانت الأسر تنتظرهم عند الباب.

احتضنت ليلى سالي، وسألت نادية زين إن كان أصابه شيء. أما فؤاد فأمسك كتفي سامر ونظر إلى الدم الجاف.

قال: «ده دم مين؟»

ـ مازن.

ـ وإنت كويس؟

هز سامر رأسه، ثم سحب نفسه بهدوء من يد أبيه.

في الطريق إلى العمارة، مشى الأطفال خلف الكبار. حاولت سالي أن تحكي كيف كان مازن يبكي، لكن سامر ظل صامتًا.

عند أول شارع، قال لزين: «إنت شكيت إني زقيته.»

توقف زين. «لأ.»

ـ اتأخرت قبل ما تقول.

ـ كنت بحاول أفتكر مين خبطه.

ـ هي سألتك أنا زقيته ولا لأ.

ـ قلت لها إنك ما زقتوش.

ـ بعد ما وقفت تفكر.

قالت سالي: «هو قال الحقيقة.»

نظر إليها سامر. «إنتِ ما فكرتيش.»

ـ عشان كنت شايفة.

ـ وهو كان شايف برضه.

قال زين: «أنا كنت بعيد.»

ابتسم سامر ابتسامة قصيرة بلا فرح. «ماشي.»

مشى أمامهما. أراد زين أن يلحق به، لكن سالي أمسكت ذراعه.

قالت: «سيبه دلوقتي.»

سحب ذراعه منها، لا بعنف، وقال: «إنتِ واقفة معاه.»

نظرت إليه في دهشة. «أنا واقفة مع اللي حصل.»

ـ هو شايفك دافعتي عنه وأنا لأ.

ـ وإنت دافعت عنه.

ـ مش كفاية بالنسبة له.

قالت سالي: «يمكن عشان كان خايف.»

كان زين أيضًا خائفًا، لكنه لم يقل.

• • •

في المساء، جاء الطبيب من المستشفى بخبر أن جرح مازن احتاج إلى غرز، لكنه لم يصب عصبًا أو وترًا. عادت الحركة إلى العمارة، وبقي سامر في بيته.

جلس زين مع كمال في الشرفة. حكى له ما حدث، من سقوط الطفل إلى كلام سامر عند العودة.

سأله كمال: «إنت شكيت فيه؟»

ـ لأ.

ـ طب ليه اترددت؟

ـ عشان ما كنتش شايف كويس. لو قلت متأكد وأنا مش متأكد أبقى بكدب.

هز كمال رأسه. «صح.»

ـ بس سامر زعل.

ـ برضه من حقه يزعل.

نظر زين إلى أبيه. «إزاي الاتنين صح؟»

ـ إنت جاوبت بأمانة. وهو كان واقف والناس بتتهمه، فاحتاج صاحبه يصدقه من غير حساب. كل واحد فيكم كان داخل امتحان مختلف.

ـ أعمل إيه؟

ـ ما تحاولش تثبت له إن إحساسه غلط. قوله إنت حسيت بإيه.

في اليوم التالي، طرق زين باب سامر. فتح له فؤاد، ثم نادى ابنه. جاء سامر مرتديًا ملابس البيت، وعلى وجهه ضيق لم يحاول إخفاءه.

قال زين: «نتمشى؟»

ـ عندي مذاكرة.

ـ عشر دقايق.

نزلا إلى الجميزة. جلس زين على حافة الحوض، وبقي سامر واقفًا.

قال زين: «أنا ما شكيتش فيك.»

ـ قلتها امبارح.

ـ بس أنا خفت أقول حاجة غلط، فيعاقبوا حد ما عملش حاجة.

ـ وأنا كنت هتعاقب.

ـ عارف.

سكت، ثم أضاف: «ولما الولد قال إنك زقيته، أنا خفت لحظة إن المدرسين يصدقوه قبل ما أتكلم. يمكن عشان كده اتأخرت.»

جلس سامر إلى جواره. ظل ينظر إلى الشارع.

قال: «سالي قالت فورًا.»

ـ كانت أقرب.

ـ هي دايمًا أقرب؟

لم يفهم زين السؤال تمامًا. قال: «إحنا كلنا أصحاب.»

التقط سامر حصاة صغيرة ورماها في الحوض. «عارف.»

لم تنتهِ المسألة باعتذار واضح. لم يقل سامر إنه سامحه، ولم يقل زين إنه آسف. لكنهما ذهبا معًا إلى بيت سامر، وأكملا لعبة قديمة على الورق كما لو أن الجلسة عند الجميزة أدت غرضها.

• • •

بعد أسبوع، عادت المسابقات الرياضية في صورة مختصرة. لم يشارك مازن، لكنه حضر وذراعه ملفوفة بضماد أبيض. أحضر لزين منديلاً جديدًا بدل القميص الذي تلطخ بدمه، وأعطى سامر كرة مطاطية صغيرة لأنه قال إن الكرة الكبيرة هي التي بدأت المشكلة.

ضحك سامر للمرة الأولى على الحادث.

في الإذاعة، أعلنت سالي نتائج الامتحانات التي ظهرت في اليوم نفسه. جاء زين الأول في فصله، وسامر الثالث، وسالي الأولى في فصلها. صفقت الأسر، والتقط فؤاد صورة للثلاثة أمام منصة الجوائز.

في الصورة، وقف سامر في المنتصف يحمل كأس السباق، وسالي إلى يمينه تحمل شهادة، وزين إلى يساره يحمل كتابًا. كانت يد سامر فوق كتف زين، لكن عينيه اتجهتا نحو سالي في اللحظة التي ضغط فيها فؤاد زر الكاميرا.

لم يلاحظ أحد ذلك وقتها.

بعد العودة، وضع كمال شهادة زين فوق المائدة، ثم قال: «النهارده كان عندكم امتحانين.»

قال زين: «ما كانش فيه غير الحساب والعلوم.»

ـ فيه امتحان تاني ما كانش في الورقة.

ـ حادثة مازن؟

ـ أيوه.

ـ نجحنا؟

فكر كمال. «مفيش درجات في النوع ده. كل موقف بيوريك حاجة في نفسك، وبعدها إنت تقرر تصلحها ولا تسيبها.»

في الليل، مر زين أمام المرآة في الصالة. رفع ذراعه كما رفعها حين ضغط على جرح مازن. تذكر الدم، ويد سامر المرتجفة، وصوت سالي الواثق وهي تقول إنه لم يدفع الطفل.

في الليل، وقف زين أمام مرآة الصالة. رفع ذراعه كما فعل حين ضغط على جرح مازن، ثم خفضها. بقي صوت سالي في رأسه: «هو ما دفعوش.»

الفصل الثامن

صيف الرسائل الضائعة

في صيف 1987، جاء كمال إلى البيت بخبر لم يفرح به أحد بالطريقة التي توقعها.

كان قد كُلّف بالإشراف على عمل في رأس غارب لمدة شهرين، وقررت الشركة أن توفر له شقة صغيرة يمكن أن تقيم فيها الأسرة خلال الإجازة. قال إن البحر قريب، وإنهم سيغيرون الجو، وإن الأولاد سيشاهدون مواقع البترول التي ظلوا يسمعون عنها.

قال كريم فورًا: «هناك تلفزيون؟»

قالت ريم: «والبحر فيه قناديل؟»

أما زين فسأل: «هنقعد الشهرين كلهم؟»

قال كمال: «غالبًا.»

ـ ونرجع إمتى؟

ـ قبل المدرسة بأسبوعين.

نظر زين من الشرفة إلى الطابق الثاني. لم يكن قد غاب عن العمارة أكثر من عشرة أيام متصلة منذ جاء إليها.

قالت نادية: «هتحب المكان لما تروح.»

لم يقل إنه لا يريد أن يحب مكانًا آخر.

نزل بالخبر إلى سالي وسامر. كانا عند الجميزة، يحاولان إصلاح عجلة سامر بعد أن خرجت سلسلتها.

قال سامر: «شهرين كتير.»

قال زين: «مش بإيدي.»

سألت سالي: «هترجعوا قبل عيد ميلادي؟»

حسبت على أصابعها. كان عيد ميلادها في نهاية الإجازة تقريبًا.

قال زين: «أكيد.»

لم يكن متأكدًا، لكنه لم يحتمل أن يرى القلق على وجهها.

قال سامر: «نبعت لك جوابات.»

رفعت سالي رأسها. «أنا هكتب.»

قال زين: «وأنا كمان.»

دخلت إلى البيت، وعادت بدفتر صغير مزقت منه ثلاث ورقات. كتبت عنوان العمارة كاملًا لزين، وطلبت منه أن يحضر العنوان الجديد قبل السفر.

قال سامر: «ليه تكتبي له عنوانه؟ هو عارفه.»

ـ عشان يحط جوابنا في ظرف ويرجعه لو نسي.

ضحك زين. «أنا مش هنساها.»

قالت: «كل الناس بتقول كده قبل ما تسافر.»

• • •

كانت رأس غارب مختلفة عن كل ما يعرفه.

الهواء أكثر ملوحة، والجبال تبدو قريبة رغم أنها بعيدة، والشمس تشرق فوق البحر من غير أن تعترضها عمارة أو شجرة. الشقة التي وفرتها الشركة في مبنى منخفض، حوله أرض رملية وسيارات بيضاء تحمل شعار المؤسسة.

في الأيام الأولى، خرج زين مع كمال إلى موقع العمل. ارتدى خوذة أكبر من رأسه، وشاهد الأنابيب والخزانات ومضخات تتحرك بإيقاع ثابت. شرح له والده كيف يصعد النفط من باطن

الأرض، وكيف يمر في مراحل قبل أن يصبح وقودًا أو مادة تدخل في أشياء لا حصر لها.

سأل زين أسئلة كثيرة، وأجاب كمال بصبر. لساعة كاملة، عاد حلم الهندسة إلى رأسه. لكنه حين رأى عاملًا يجرح يده في قطعة معدن، ظل يراقب الطبيب وهو ينظف الجرح أكثر مما راقب المضخة.

قال كمال بعد خروجهما: «واضح إنك مش هتبقى مهندس.»

أجاب زين: «لسه ما قررتش.»

ابتسم والده. «ما تستعجلش.»

في الليل الأول، كتب رسالة إلى سالي.

بدأها ثلاث مرات. كتب «عزيزتي سالي»، ثم شطب «عزيزتي» لأنها بدت كلمة من خطابات الكبار. كتب «سالي»، وشعر أنها جافة. أخيرًا كتب: «إلى سالي وسامر»، رغم أنه كان يريد أن يكتب لكل منهما رسالة منفصلة.

حكى عن البحر والجبال والخوذة، ورسم مضخة تشبه طائرًا طويل الرقبة. في النهاية كتب: «العنوان عند بابا، ابعتوا بسرعة.»

أعطى الرسالة إلى كمال في الصباح. وضعها الأب في حقيبته، ووعد أن يرسلها مع سيارة الشركة التي تذهب إلى السويس، ومن هناك إلى البريد.

انتظر زين الرد.

مر أسبوع. ثم عشرة أيام. كلما عاد كمال من العمل، سأله إن كانت هناك رسائل. كان الجواب نفسه: «لسه.»

في القاهرة، كتبت سالي رسالتها في اليوم التالي لسفره. ملأت أربع صفحات: خبر إصلاح عجلة سامر، ولادة قطة جديدة عند السيدة وداد، انقطاع الكهرباء مساء الخميس، ومشاجرة هاني مع طارق بسبب شريط كاسيت. رسمت في الهامش الجميزة والباب، وكتبت: «العمارة موجودة زي ما هي.»

كتب سامر نصف صفحة فقط. قال إن فريقهم فاز في مباراتين، وإنه تعلم أن يرفع العجلة الأمامية عن الأرض، وإنه سيعلم زين حين يعود. رسم نفسه فوق الدراجة بحجم أكبر من الشارع، ورسم سالي خلفه ترفع يدها.

وضعا الرسالتين في ظرف واحد. كتبت سالي العنوان كما أملاه فؤاد: اسم الشركة، إسكان العاملين، رأس غارب، باسم المهندس كمال ياسين.

نزل فؤاد بالظرف في طريقه إلى العمل. عاد به في المساء لأن موظف البريد قال إن العنوان يحتاج إلى رقم المبنى أو صندوق البريد. وضعه فوق المكتبة حتى يسأل كمال في مكالمة الهاتف الأسبوعية.

جاءت المكالمة مساء الجمعة، لكن الخط كان ضعيفًا. تحدث كمال وفؤاد عن العمل، ثم نادت نادية ليلى، وتبادلتا أخبار البيت. حاولت سالي أن تأخذ السماعة، فانقطع الخط قبل أن تسمع صوت زين.

بقي الظرف فوق المكتبة يومين. ثم وضع فؤاد فوقه ملفات، ونسيه.

• • •

في الأسبوع الثالث، وصل إلى زين أول خطاب.

لم يكن من سالي أو سامر. كان من كريم، الذي عاد إلى القاهرة قبل الأسرة لأنه التحق بتدريب رياضي في النادي. كتب سطرين فقط: «وصلت. البيت حر. سلم لي على بابا وماما.»

قرأ زين الرسالة مرتين، ثم سأل كمال: «ليه جواب كريم وصل وهما لأ؟»

قال الأب: «يمكن ما بعتوش.»

ـ وعدوا.

ـ يمكن العنوان ضاع منهم.

لم يقتنع. في المساء، كتب رسالة ثانية، هذه المرة إلى سالي وحدها.

كتب: «أنا بعثت قبل كده وما رديتيش. يمكن الجواب ما وصلش. هنا البحر كبير بس مفيش جميزة. ريم اتعلمت تعوم بالعوامة. أنا رحت مع بابا الشغل. سامر عمل إيه في العجلة؟»

قرأ السطر الأخير، ثم شطبه. لم يرد أن تكون رسالته إلى سالي سؤالًا عن سامر.

أضاف: «أنا راجع قبل عيد ميلادك.»

في اليوم التالي، وجد الرسالة فوق منضدة كمال، تحت مفاتيح السيارة. سأل والده إن كان نسيها. اعتذر كمال ووضعها في جيب قميصه أمامه.

وصلت الرسالة إلى القاهرة بعد اثني عشر يومًا.

حين أحضرها ساعي البريد، كانت سالي عند النادي مع سامر. تسلما معًا من مدرب قديم دراجة صغيرة استعارها لهما طارق. لم تكن سالي تعرف القيادة؛ كان سامر يمسك المقعد من الخلف ويجري، ثم يتركه من غير أن يخبرها. سقطت مرتين، وفي الثالثة قطعت نصف الملعب قبل أن تكتشف أنه لا يمسكها.

صرخت: «إنت سبتني!»

قال وهو يلهث: «لو قلت لك كنتِ وقعتي.»

ـ أنا وقعت أصلًا مرتين.

ـ المرة التالتة لأ.

ضحكت رغم غضبها. أعادها إلى نقطة البداية، وركض خلفها مرة أخرى.

عندما عادت إلى البيت، أعطتها ليلى الظرف. عرفت خط زين على الفور، وجلست عند المائدة لتفتحه. قرأت الرسالة، ثم أعادتها من البداية.

قالت ليلى: «اكتبي له بسرعة عشان تلحق توصل.»

صعدت سالي إلى غرفتها. أخرجت الظرف القديم من تحت الملفات بعدما أخبرها فؤاد بمكانه، وأضافت إليه رسالة جديدة.

كتبت: «إحنا بعتنا لك جواب بس بابا نسيه عشان العنوان كان ناقص. العمارة لسه موجودة. أنا اتعلمت أركب العجلة وسامر وقع وهو بيجري ورايا واتعورت ركبته. عيد ميلادي بعد أربعة أسابيع. ما تتأخرش.»

توقفت عند جملة «سامر وقع». لم ترَ فيها شيئًا يستحق الحذف. رسمت عجلة صغيرة، وأغلقت الظرف.

هذه المرة كتب فؤاد رقم المبنى الذي أخذه من كمال، وأرسل الخطاب في اليوم نفسه.

• • •

وصل الظرف إلى رأس غارب بعد أسبوعين آخرين، وقد انثنت إحدى زواياه وتلطخ بالحبر.

كان زين قد توقف تقريبًا عن سؤال أبيه. جاء كمال من العمل، ووضع الظرف أمامه من غير كلام.

فتح زين الرسالتين. قرأ الأولى التي كتبت في بداية الصيف، ثم الثانية. كانت أخبار القاهرة قديمة لحظة وصولها: القطة كبرت، والكهرباء عادت، وربما أصلح هاني وطارق شجارهما. ومع ذلك، شعر كأنه يدخل العمارة من بابها الأخضر.

قرأ رسالة سامر. توقف عند الرسم الذي تظهر فيه سالي خلف الدراجة، ثم انتقل إلى رسالة سالي الجديدة. أعاد جملة تعلمها ركوب العجلة مرتين.

قالت نادية، التي كانت ترتب الملابس: «فرحت؟»

ـ آه.

ـ باين عليك.

طوى الأوراق. «هما بيعملوا حاجات كتير.»

ـ وإنت كمان.

ـ بس لما أرجع هيبقوا عارفين حاجات أنا ما أعرفهاش.

جلست نادية إلى جواره. «طبيعي. وإنت هترجع عارف حاجات هما ما يعرفوهاش.»

ـ مش نفس الحاجة.

فهمت أنه لا يتحدث عن المعلومات. قالت: «المكان ما بيقفش لما حد يسافر. ولا الناس. بس ده مش معناه إنهم سابوه.»

أخرج زين ورقة جديدة. بدأ يكتب ردًا غاضبًا: «واضح إنكم مشغولين بالعجلة ومش فارق معاكم...» ثم توقف. مزق الورقة إلى قطع صغيرة، وكتب بدلًا منها أنه رأى دولفينًا من بعيد، وأنه سيحضر لسالي صدفة كبيرة، ولسامر قطعة معدن من الموقع إذا سمح والده.

في آخر الرسالة، كتب: «أنا راجع يوم الخميس.»

• • •

عادوا يوم الأربعاء.

انتهى العمل قبل موعده بيوم، فقرر كمال ألا يخبر أحدًا. قال إن المفاجأة أفضل. أمضوا الطريق الطويل بين البحر والقاهرة، ووصلوا إلى مصر الجديدة بعد المغرب.

حين ظهرت العمارة رقم 12، شعر زين أنها أصغر مما كانت في ذاكرته، ثم عادت إلى حجمها الحقيقي كلما اقتربت السيارة. الجميزة أكثر امتلاء، والباب الأخضر يحمل خدشًا جديدًا قرب المقبض.

كانت سالي وسامر يجلسان عند المدخل. بينهما الدراجة الصغيرة، وسامر يصلح المصباح الأمامي. رفعت سالي رأسها أولًا. ظلت لحظة لا تتحرك، ثم قامت وركضت نحو السيارة.

فتح زين الباب قبل أن تتوقف.

قالت: «إنت جيت!»

ـ أيوه.

ـ قلت الخميس.

ـ خلصنا بدري.

كانت تريد أن تعانقه كما تفعل ليلى حين يعود فؤاد من السفر، لكنها توقفت أمامه، واكتفت بأن أمسكت ذراعه وسحبته نحو المدخل.

قالت: «تعالى أوريك العجلة.»

اقترب سامر ببطء، ثم ضرب كف زين بكفه. «رجعت يا دكتور.»

كانت تلك أول مرة يناديه باللقب على سبيل المزاح. قال زين: «لسه.»

أخرج من حقيبته صدفة بيضاء كبيرة، وأعطاها لسالي. ثم أخرج قطعة معدنية صغيرة مصقولة، أعطاها لسامر.

قال سامر: «دي من البريمة؟»

ـ من ورشة الموقع. بابا قال ما تنفعش في حاجة.

ـ الحاجات اللي ما تنفعش أحسن حاجة للرسم.

وضعها في جيبه.

بدأت سالي تحكي بسرعة: كيف تعلمت الدراجة، وكيف سقط سامر، وكيف صنعت السيدة وداد صندوقًا للقطط، وكيف علق

طارق صورة لاعب جديد فوق سريره. كان سامر يكمل الجمل، ويصحح التفاصيل، ويضحكان عند أشياء لم يفهمها زين.

قالت سالي: «فاكر لما سامر قال لأم عبده إن العجلة بتشتغل بالبترول؟»

ضحك سامر قبل أن تكمل. نظر زين من أحدهما إلى الآخر.

قال: «إيه اللي حصل؟»

حاولا شرح النكتة، لكنها فقدت معناها خارج لحظتها. ضحك زين معهم كي لا يبدو غريبًا، لكنه شعر أن الصيف ترك بينهما ممرًا صغيرًا لم يكن موجودًا حين سافر.

بعد دقائق، ناوله سامر الدراجة. «يلا نجربك.»

قال زين: «بعرف أركب.»

ـ دي فراملها بالعكس.

ركب زين، وانطلق. كانت الفرامل لا تعمل جيدًا بالفعل. صرخا عليه قبل الحائط، فقفز من الدراجة وتركها تسقط. ضحك الثلاثة حتى خرج فؤاد من الشرفة يسأل عن الضوضاء.

عاد شيء من مكانه.

• • •

في صباح اليوم التالي، طرق ساعي البريد باب العمارة. كان يحمل رسالة باسم سالي فؤاد مراد.

فتحتها عند الجميزة. كانت رسالة زين التي كتب فيها أنه سيعود الخميس. قرأها هو واقفًا إلى جوارها، ثم نظر إلى نفسه أمامها.

قال سامر: «الجواب وصل بعد صاحبه.»

ضحكت سالي. «نعلقه في الصحيفة تحت الأخبار المتأخرة.»

قال زين: «ارميه.»

طوت الرسالة ووضعتها في جيبها. «لأ.»

ـ ما هو ملوش لازمة دلوقتي.

قالت: «كان له لازمة لما اتكتب.»

احتفظت به في الصندوق الأزرق، إلى جوار غصن شجرة التين الجاف ونصف غلاف الحلوى القديمة.

أما زين، فاحتفظ برسالتيها داخل كتاب العلوم. لم يكن يعرف لماذا اختار ذلك الكتاب، ربما لأن القلب المرسوم في أحد فصوله بدا مكانًا مناسبًا لأشياء لا يعرف كيف يسميها.

ومع بداية العام الدراسي الجديد، عاد الثلاثة إلى المدرسة معًا. ظاهريًا، لم يتغير شيء: زين يحمل حقيبته على كتف واحدة، سامر يركل الحجارة في الطريق، وسالي تمشي بينهما وتراجع فقرة الإذاعة.

الفصل التاسع

السنة التي ضاقت فيها المقاعد

بدأ العام التالي بمقاعد جديدة.

استبدلت المدرسة المقاعد الخشبية القديمة بأخرى من الحديد، يجلس عند كل واحد منها تلميذان. كانت أكثر لمعانًا وأقل راحة، ولها سطح مائل يجعل الأقلام تتدحرج كلما اهتز الفصل. قال المدرس إن المدرسة تتطور. قال سامر إن التطور كان يجب أن يبدأ من المراوح.

جلس زين إلى جواره في الصف الثالث. كانا قد طالا، فلم تعد أرجلهما تدخل تحت المقعد بسهولة. اصطدمت ركبة سامر بركبة زين في الحصة الأولى، ودفع كل منهما الآخر قليلًا كي يحصل على مساحة أكبر.

قال سامر: «المقعد ضيق.»

قال زين: «إنت اللي فاتح رجلك.»

ـ وإنت حاطط الشنطة تحت رجلي.

نقل زين الحقيبة. بعد دقائق، عاد كتفاهما يتلامسان وهما يكتبان. لم يكن المقعد قد صغر؛ هما اللذان لم يعودا بالحجم الذي صُمم له.

في فناء البنات، كانت سالي تكتشف الشيء نفسه. صارت المريلة القديمة أقصر من اللازم، فاشترت لها ليلى أخرى أوسع. ربطت شعرها إلى الخلف بدل الضفيرتين، وحين رآها زين عند باب العمارة في أول صباح، ظل ينظر ثانية أطول مما ينبغي.

قالت: «إيه؟»

ـ ولا حاجة.

ـ شعري وحش؟

ـ لأ.

ـ أمال بتبص ليه؟

رفع كتفيه، وبدأ ينزل الدرج. لحقت به، وظلت تسأله حتى قال إن شكلها مختلف. أجابت بأن كل الناس تتغير، ثم مشت أمامه كأنها لم تهتم. لكنها حين وصلت إلى المرآة عند المدخل، نظرت إلى شعرها سريعًا.

سار سامر معهما إلى المدرسة. كان قد اشترى حقيبة سوداء يحملها على كتف واحدة، وعلّق في سحّابها قطعة المعدن التي أحضرها زين من رأس غارب. اصطدمت القطعة بالحقيبة وهي تتحرك، فأصدرت رنينًا خفيفًا مع كل خطوة.

قالت سالي: «لسه محتفظ بيها؟»

قال سامر: «عملت منها ميدالية.»

نظر زين إلى القطعة. شعر بسرور صغير لأنها ما تزال معه، ثم رأى سالي تمسكها لتتفحص الرسم الذي حفره سامر فوقها. كان وجهًا نصفه يضحك ونصفه يعبس.

قالت: «حلوة.»

قال سامر: «هعمل لك واحدة.»

لم يقل زين شيئًا. ركل حجرًا صغيرًا، فابتعد إلى وسط الشارع، واضطر إلى الجري كي يستعيده قبل أن تمر سيارة.

• • •

في ذلك العام، أعلنت المدرسة عن مسابقة لصحيفة الحائط بين الفصول. طلبت مدرسة اللغة العربية من سالي إعداد موضوع رئيسي، واختارت عنوانًا واسعًا: «البيت».

قالت لها المعلمة: «مش عايزة إنشاء محفوظ. اكتبي عن بيت تعرفيه.»

عادت سالي إلى العمارة وهي تفكر. صعدت إلى غرفتها، أخرجت أعداد «أخبار رقم 12» القديمة، وراحت تقرأها. بدت لها الأخطاء كثيرة، والخط كبيرًا، والأخبار طفولية، لكنها لم تستطع التخلص من أي ورقة.

في المساء، جلست على الدرجة بين الطابقين ومعها دفتر. جاء زين يحمل كتاب العلوم، وجاء سامر بكراسة الرسم. أخبرتهما بالمسابقة.

قال سامر: «نرسم العمارة.»

قال زين: «كل الفصل هيكتب عن بيته.»

ـ هي قالت بيت تعرفيه، مش شقتك.

سألت سالي: «طب البيت يعني إيه؟»

أجاب سامر: «المكان اللي حاجتك فيه.»

قال زين: «المكان اللي بترجعي له.»

فكرت سالي. «لو سافرت ومعايا حاجتي، يبقى الفندق بيت؟»

قال سامر: «لأ، عشان مش هتفضلي.»

قال زين: «يبقى المكان اللي بترجعي له وبتفضلي فيه.»

سألت: «واللي بيغيروا بيوتهم كتير؟»

تذكر سامر رسم الطريق والسيارة في آخر العام الأول. أغلق كراسة الرسم، وقال: «ممكن ناس يبقوا هم البيت.»

سكت الثلاثة.

كتبت سالي الجملة كما قالها، ثم وضعت حولها دائرة.

عملوا ثلاثة أيام. رسم سامر واجهة العمارة من زاوية تجعل الجميزة في المقدمة والباب الأخضر خلفها. أصر زين على أن عدد الشرفات في الرسم خطأ، فأضاف سامر شرفة صغيرة لم تكن متناسقة مع البقية، وكتب تحتها اسم زين ساخرًا.

صححت سالي المعلومات: سنة انتقال أسرة كمال، عدد الطوابق، وأسماء بعض السكان. قابلت السيدة وداد، التي رفضت

أن تذكر عمرها لكنها وافقت أن تحكي عن أول يوم سكنت فيه العمارة. قال الدكتور رشدي إن البيت هو المكان الذي يعرف فيه الجيران صوت خطواتك. وقالت أم عبده، التي تنظف السلم، إن البيت الذي لا ينظفه أهله يتعب مهما كان غاليًا.

حين انتهت سالي من المقال، قرأته أمام زين وسامر.

كتبت عن الباب الذي لا يغلق جيدًا، وعن صوت الأقدام فوق الرخام، وعن رائحة الطعام التي تصعد من شقة إلى أخرى حتى لا يعود ممكنًا معرفة من يطبخ. كتبت عن أحمد الذي لم تره العمارة طويلًا لكنه بقي فيها، وعن شجرة تين لم تكن في العمارة أصلًا ومع ذلك صارت جزءًا من ذكريات أطفالها. وفي النهاية وضعت جملة سامر: «أحيانًا لا يكون البيت مكانًا. قد يكون ناسًا تعرف أن بابهم سيفتح لك حتى لو لم تطرق.»

قال زين: «الجملة حلوة.»

نظر سامر إليه. «أنا اللي قلتها.»

ـ عارف.

سألت سالي: «في حاجة غلط؟»

أشار زين إلى سطر. «الدكتور رشدي ساكن من سبع سنين، مش تسعة.»

قال سامر: «محدش هيحسب.»

رد زين: «لو هتكتبي حاجة، تبقى صح.»

شطبت سالي الرقم وأصلحته.

فازت الصحيفة بالمركز الأول. وقفت سالي في الطابور لتتسلم شهادة، ووقف سامر إلى جوار اللوحة لأن رسمه اختير أفضل رسم. ذكر المدير اسميهما عبر الميكروفون، ثم شكر مدرسة اللغة العربية.

كان زين في الصف يصفق. انتظر أن تذكر سالي أن المعلومات راجعها هو، لكنها لم تقل. لم تكن قد طلبت الميكروفون أصلًا؛ اكتفت بابتسامة مرتبكة والتقاط الصورة.

بعد الطابور، جاءت نحوه وهي تحمل الشهادة.

قالت: «كسبنا.»

قال: «إنتوا كسبتوا.»

ـ ما إحنا عملناها سوا.

ـ المدير ما قالش اسمي.

نظرت إليه. «أنا ما قلتش له يقول مين.»

وصل سامر يحمل اللوحة. «هو زعلان عشان ما خدش شهادة.»

قال زين: «مش زعلان.»

ـ باين.

قالت سالي: «نكتب اسمك ورا اللوحة.»

لم يعجبه الحل، لأنه جاء بعد أن طلبه تقريبًا. قال إنه متأخر عن الفصل، ومشى.

في المساء، وجد الصحيفة معلقة في مدخل العمارة. في أسفلها، تحت أسماء المشاركين، كتبت سالي بخط واضح: «مراجعة المعلومات: زين كمال ياسين.»

وقف يقرأ السطر. كان يستطيع أن يصعد ويشكرها، لكنه سمع ضحكها مع سامر في الشقة الثانية، فدخل بيته من غير أن يطرق بابهم.

• • •

بعد أيام، وجد كريم إحدى رسائل سالي داخل كتاب العلوم.

كان يبحث عن مسطرة، ففتح الكتاب وسقطت الورقة المطوية. التقطها قبل زين، وقرأ السطر الأول بصوت مرتفع: «إلى زين، العمارة موجودة زي ما هي...»

خطف زين الرسالة من يده.

ضحك كريم. «إيه ده؟ خطابات؟»

ـ دي قديمة.

ـ قديمة من إمتى؟ من أيام عنترة؟

ـ سالي بعتها لي وأنا مسافر.

ـ آه، سالي.

قال الاسم بنبرة جعلته يبدو شيئًا آخر. احمر وجه زين.

قال: «كان معاها جواب سامر كمان.»

ـ بس إنت مخبي جواب مين في كتاب القلب؟

نظر زين إلى الصفحة المفتوحة. كانت الرسالة بالفعل عند الرسم التشريحي للقلب. لم يكن قد انتبه إلى المصادفة إلا الآن.

قال كريم: «يا سلام يا دكتور.»

دفعه زين بكتفه. دفعه كريم أقوى، ثم أعاد له الكتاب وهو يضحك.

في اليوم التالي، نادته سالي من شرفتها لينزل. تظاهر بأنه لم يسمع. عند المدرسة، سارت إلى جواره، فانتقل إلى الناحية الأخرى من سامر. سألته عن واجب الحساب، فأجاب بكلمة واحدة.

استمر ذلك ثلاثة أيام.

في اليوم الرابع، وقفت أمامه عند مدخل العمارة.

قالت: «إنت زعلان مني؟»

ـ لأ.

ـ بتكدب.

ـ ما بكدبش.

ـ أمال بتتهرب ليه؟

كان سامر واقفًا على بعد خطوات، يربط حذاءه. رفع رأسه ليستمع، ثم عاد إلى الرباط حين نظر إليه زين.

قال زين: «كريم لقى جوابك.»

انتظرت سالي بقية الجملة. «وبعدين؟»

ـ فضل يرخم.

ـ عليك ولا عليا؟

ـ قال كلام سخيف.

ـ إيه؟

لم يستطع أن يكرر النبرة ولا المعنى. قال: «خلاص.»

فهمت ببطء. تغير وجهها، لا خجلًا فقط بل غضبًا.

قالت: «فعشان كريم قال كلام سخيف، إنت ما تكلمنيش أنا؟»

ـ أنا ما عملتش حاجة.

ـ عملت. خليتني أفضل أسأل نفسي أنا غلطت في إيه.

تحرك سامر نحوهما. قال: «في إيه؟»

أجابت سالي: «مفيش.»

ثم صعدت إلى بيتها.

نظر سامر إلى زين. «إنت عملت إيه؟»

ـ ولا حاجة.

ـ واضح إن ولا حاجة دي زعلتها.

قالها ومشى خلفها، لكنه لم يدخل شقتها. جلس على الدرجة خارج الباب، وبعد دقائق خرجت سالي وجلست إلى جواره. لم يسمع زين ما قالاه. ظل عند المدخل، يضغط بقدمه على طرف البلاطة المكسورة.

في تلك الليلة، طرق باب شقة فؤاد. فتحت سالي، وبقيت ممسكة بالمقبض.

قال: «أنا آسف.»

لم تجب.

ـ كريم هو اللي قال كلام، بس أنا اللي اتصرفت غلط.

ـ ليه اتكسفت؟

فكر. «مش عارف.»

ـ إحنا صحاب من زمان.

ـ عارف.

ـ والجواب كان عادي.

ـ عارف.

نظرت إليه طويلًا. «لو حد قال حاجة تاني، ما تعاقبنيش أنا.»

هز رأسه.

ابتعدت عن الباب وسمحت له بالدخول. كان سامر في الصالة يرسم. رفع عينيه، ثم أعادهما إلى الورقة. جلست سالي على المقعد المقابل، وجلس زين قرب طرف الأريكة. للمرة الأولى، شعر أن الرجوع إلى مكان قديم يمكن أن يحتاج إلى إذن.

• • •

في نهاية العام، اجتمعت الأسرتان على العشاء لمناقشة المدارس الإعدادية.

كان كريم قد دخل المرحلة الثانوية، وصار الحديث عن المجموع والدروس يتكرر في البيت. طارق يستعد للثانوية العامة، وهاني انتقل إلى مدرسة أخرى. أما الثلاثة الأصغر، فكانوا يقتربون من نهاية الابتدائي، وكل أب بدأ يرى الطريق قبل أن يراه ابنه.

قال فؤاد إن سامر يحتاج إلى تقوية في الرياضيات إذا أراد أن يصبح مهندسًا معماريًا. كان سامر يقطع الخبز، فتوقف قليلًا.

قال: «أنا قلت عايز أبقى رسام.»

رد فؤاد: «الرسم موهبة حلوة، بس لازم يبقى عندك شغل.»

ـ الرسامين عندهم شغل.

ـ لما تكبر هتفهم.

خفض سامر رأسه، وعاد إلى الخبز.

قال كمال لزين إن مدرسة المتفوقين في العلوم قد تكون مناسبة له. سألته نادية إن كانت بعيدة، وبدأ الكبار يتبادلون أسماء مدارس ومصاريف ومواصلات.

سألت ليلى ابنتها: «وإنتِ بتحبي إيه؟»

قالت سالي: «الصحافة.»

ضحك هاني. «هتكتبي أخبار العمارة؟»

قالت بجدية: «ممكن أكتب أخبار أكبر.»

قال فؤاد: «لسه بدري. المهم دلوقتي تجيبي مجموع كويس.»

لاحظ زين أن إجاباتهم جميعًا تحولت في لحظة إلى درجات مطلوبة ومدارس يختارها الكبار. تذكر دفتر المقابلات القديم حين قال «طبيب» وقال سامر «رسام» وقالت سالي من غير أن تُسأل إنها تريد أن تحفظ ما يحدث.

بعد العشاء، خرج الثلاثة إلى السلم. جلسوا على الدرجة العريضة بين الطابقين، لكنهم لم يعودوا يتسعون جنبًا إلى جنب كما كانوا. جلس سامر إلى الحائط، وسالي في المنتصف، وبقي نصف جسد زين عند الحافة.

قال: «وسعوا.»

تحركت سالي قليلًا، فاصطدم كتفها بسامر. قال سامر: «أنا لازق في الحيطة.»

ضحكت: «يبقى زين يقعد في الدرجة اللي تحت.»

جلس زين تحتها، واستند بظهره إلى السلم. صار وجهه في مستوى ركبتيهما.

قال سامر: «كده أحسن.»

رد زين: «عشان أخدتوا الدرجة كلها.»

قالت سالي: «بكرة نقعد فوق السطح.»

لكنهم لم يصعدوا في اليوم التالي. كان لدى سامر درس، ولسالي تدريب إذاعة، ولزين موعد مع مدرس العلوم. مر أسبوع، ثم آخر، وظلت الفكرة مؤجلة.

ضاقت المقاعد في المدرسة، وضاقت الدرجة التي جمعتهم، وضاقت الساعات التي يستطيعون فيها أن يكونوا معًا بلا سبب. لم يقع شجار كبير، ولم يعلن أحد أن الطفولة تنتهي. كل ما حدث أن أجسادهم وأيامهم وأحلام آبائهم كبرت في وقت واحد، ولم تعد الأماكن القديمة تتسع لها بالطريقة نفسها.

في آخر يوم من العام، أزال العامل صحيفة «البيت» من الحائط المدرسي ووضعها في المخزن. أخذت سالي المقال، وأخذ سامر الرسم، وبقي الاسم الذي أضافته لزين مكتوبًا خلف اللوحة.

خرجوا من المدرسة تحت شمس يونيو. عند أول الطريق، مشى سامر إلى يمين سالي، ومشى زين إلى يسارها. كانوا قريبين بما يكفي ليتلامس ظلهم فوق الأسفلت، لكن كل واحد منهم صار يحمل سؤالًا لا يعرف كيف يقوله للآخرين.

كان سامر يسأل إن كان يمكن للموهبة أن تكون حياة كاملة. وكانت سالي تسأل لماذا تتحول الصداقة إلى شيء يخجل منه الناس

حين يكبرون. أما زين، فكان يسأل للمرة الأولى لماذا يضايقه أن يفهم سامر ما لا يستطيع هو قوله.

لم يكن أي منهم يملك الإجابة. ولذلك واصلوا السير، ثلاثة أطفال على حافة عمر جديد، يظنون أن الطريق إلى العمارة هو الطريق نفسه الذي مشوه دائمًا.

• • •

بعد أسبوعين، قررت نادية طلاء غرفة الأولاد.

أخرجت الكتب من الرفوف، ونقلت السريرين إلى منتصف الغرفة، وطلبت من زين أن يفرغ الدرج السفلي من المكتب. في آخر الدرج وجد ملفًا كرتونيًا قديمًا، التصق طرفه ببقعة من الغراء.

فتحه، فسقطت منه ثلاث أوراق كبيرة.

كانت رسومات العام الأول: عمارة زين، وطريق سامر، وسلم سالي.

بهتت الألوان، وانثنت الأطراف، وترك مسمار التعليق ثقبًا صغيرًا في أعلى كل ورقة. لم يتذكر زين متى نقلتها أمه من الحائط، ولا لماذا لم يسأل عنها. حملها ونزل إلى الطابق الثاني.

كانت سالي تراجع مقالة قديمة، وسامر يرسم عند النافذة. فرش زين الأوراق أمامهما.

قالت سالي: «إحنا رسمنا ده؟»

قال سامر: «رأسّي كان كبيرًا فعلًا.»

أشار إلى صورته التي أضافها بجوار الجميزة، وضحك. ثم نظر إلى رسم الطريق. سيارة صغيرة في المنتصف، حقيبة فوق سقفها، وبيت بعيد عند نهاية خط طويل.

قال زين: «لسه العربية ما وصلتش؟»

أجاب سامر بعد لحظة: «يمكن عدت البيت ومشيت من الناحية التانية.»

سألته سالي: «يعني إيه؟»

ـ يعني الرسم وحش. الطريق ملوش آخر واضح.

أمسك قلمًا وحاول أن يضيف خطًا، فمنعته سالي.

ـ ما تغيروش.

ـ ليه؟

ـ عشان ده اللي رسمته وقتها، مش اللي عايز ترسمه دلوقتي.

نظر زين إلى رسم العمارة. كانت الشرفتان المضيئتان ما تزالان واضحتين: واحدة في الطابق الثاني، وأخرى فوقها. لم يرسم شقة سامر، لأنه لم يكن يسكن معهم. ومع ذلك، رسم سامر نفسه لاحقًا عند الشجرة، كأنه وجد مكانًا في اللوحة من غير أن يطلبه أحد.

قال زين: «نرميهم؟»

قالها ليرى اعتراضهما، لا لأنه يريد ذلك.

أجابت سالي فورًا: «لأ.»

أما سامر فقال: «اعملوا اللي إنتوا عايزينه.» ثم مد يده وأخذ رسم الطريق، ومرر أصابعه فوق السيارة الصغيرة.

أحضرت سالي الصندوق الأزرق. لم يعد صغيرًا كما كان؛ انتقلت محتوياته إلى صندوق أحذية غلفته بورق أزرق، وكتبت فوقه كلمة «خاص». أخرجت غصن شجرة التين الجاف، والرسائل،

وأعداد صحيفة العمارة. طوت الرسومات بعناية، لكن زين أوقفها.

قال: «لو طويناها هتتكسر.»

أحضر من بيته أنبوبًا كرتونيًا كان يحمل خريطة قديمة لكمال. لفوا الرسومات حول بعضها، وأدخلوها فيه. كتب سامر على الأنبوب: «لا يفتح قبل أن نكبر.»

سألت سالي: «إحنا هنكبر إمتى؟»

قال: «لما نبطل نسأل السؤال ده.»

ضحكت. قال زين إن الجملة مسروقة من فيلم، فأنكر سامر، وبدأا يتجادلان في اسم الفيلم ومَن شاهده أولًا.

وضعت سالي الأنبوب فوق خزانتها. كان أطول من الصندوق الأزرق، فبرز نصفه إلى الخارج. قالت إنها ستنقله حين تجد مكانًا أفضل.

بعد أيام، نسي الثلاثة أمره.

في المساء نفسه، صعدوا إلى السطح أخيرًا. حمل سامر ثلاث زجاجات مياه غازية، وأحضرت سالي كيس لب، وجاء زين بمجلة

جديدة. جلسوا قرب الحائط الذي يحجب الريح، لا متلاصقين كما كانوا صغارًا، بل في نصف دائرة تتيح لكل واحد مساحة لمد ساقيه.

تحتهم، كانت الشرفات تضيء واحدة بعد أخرى. ارتفع صوت أم تنادي طفلها، وصوت بائع بعيد، ورائحة خبز من مخبز الشارع. أشار سامر إلى المبنى الذي أقيم مكان شجرة التين، وقال إن أحد سكانه علق قفص عصافير في النافذة.

قالت سالي: «يمكن العصافير شايفة الشجرة اللي كانت هناك.»

قال زين: «العصافير ما كانتش موجودة وقتها.»

ـ يمكن حد حكا لها.

ضحك سامر. «مين؟ المهندس؟»

قذفَت سالي نحوه حفنة لب، فردها، وسقط بعضها فوق مجلة زين. اعترض أولًا، ثم دخل معهما في المعركة. تناثرت القشور فوق السطح، وارتفعت ضحكاتهم حتى ناداهم فؤاد من الشرفة أن يهدأوا.

للحظات، عادوا بالحجم الذي يسمح لهم أن يجلسوا في مكان واحد من غير أن يفكروا في المسافة بين أجسادهم أو في كلام من يراهم.

لكن حين نزلوا، ذهب سامر إلى درس الرياضيات، ودخلت سالي لتتدرب على فقرة الإذاعة، وبقي زين عند باب شقته يبحث عن مفتاحه في الحقيبة.

لم يكونوا قد افترقوا. كانوا فقط يتعلمون، للمرة الأولى، أن البقاء معًا يحتاج إلى أكثر من أن يسكنوا في العمارة نفسها.

في الليلة التالية، انقطعت الكهرباء عن الشارع كله.

خرج السكان إلى الشرفات، ثم اجتمع بعضهم عند السلم لأن الهواء هناك أبرد. وضعت نادية شمعة فوق طبق، وأحضرت ليلى مروحة من الورق. جلس الكبار يتحدثون في الظلام، بينما جلس زين وسالي وسامر على الدرجة نفسها التي ضاقت بهم نهارًا.

لم تظهر الحدود في العتمة. لم يرَ أحد أين ينتهي كتف ويبدأ الآخر، ولم يهتموا بمن يجلس في المنتصف. حكى سامر قصة مخيفة اخترع نصفها، وقاطعته سالي كلما بالغ، أما زين فصحح له أن

الأشباح لا يمكن أن تفتح بابًا مغلقًا إذا كانت تمر عبر الجدران أصلًا.

قال سامر: «إنت حتى الأشباح لازم تراجع معلوماتها.»

ضحكت سالي، وضحك زين معها.

حين عادت الكهرباء، أضاءت المصابيح دفعة واحدة. غطى الجميع عيونهم، ثم قام الكبار ليعودوا إلى شقققهم. وقف سامر لأنه تأخر عن الدرس، وأخذت ليلى سالي لتكمل ما تركته، ودخل زين يبحث عن كتابه.

خلال دقائق، خلا السلم إلا من الشمعة التي نسيت نادية إطفاءها. ظل لهبها الصغير ظاهرًا رغم ضوء المصباح، ثم جاءت نسمة من الباب فأطفأته.

كان النور يعيد لكل شيء حدوده، بعد أن منحتهم العتمة ساعة واحدة بلا مسافات.

في غرفته، لم يفتح زين كتاب العلوم.

أخرج ورقة من آخر الكراسة، وكتب في أعلاها: «أشياء لا يجب أن تتغير.» ثم وضع تحت العنوان أربعة أسطر: باب العمارة، الجميزة، سالي، سامر.

قرأ القائمة، وشعر أن الأسماء لا تشبه الأشياء. الباب يمكن طلاؤه، والجميزة يمكن أن تكبر أو تُقطع، أما سالي وسامر فلهما إرادة لا يعرف كيف يضعها داخل جملة. شطب العنوان، وكتب بدلًا منه: «أشياء أريد أن تبقى.»

دخلت نادية تحمل الملابس النظيفة. رأته يغطي الورقة بكفه، فلم تسأله عما يكتب. وضعت القمصان في الدولاب، ثم قالت: «الحاجات اللي بنخبيها قوي ساعات بنخاف عليها أكتر من اللازم.»

رفع رأسه. «إنتِ شفتي؟»

ـ لأ.

ـ أمال بتقولي كده ليه؟

ابتسمت. «عشان إنت قفلت إيدك عليها كأن حد هيخطفها.»

تردد، ثم رفع كفه. قرأت الكلمات من مكانها، ولم تضحك.

قالت: «مفيش حاجة بتفضل زي ما هي، يا زين.»

ـ عارف.

ـ بس في حاجات بتفضل مهمة حتى وهي بتتغير.

سألها: «إزاي أعرف الفرق؟»

أغلقت باب الدولاب. «ما تعرفش وقتها. بتعرف بعدين.»

خرجت، وبقيت الورقة أمامه. فكر أن كلمة «بعدين» واسعة أكثر مما يحتمل؛ يمكن أن تعني غدًا، ويمكن أن تعني حين يصير في عمر أبيه. طوى الورقة ووضعها داخل كتاب العلوم، فوق رسائل سالي مباشرة.

ثم أطفأ المصباح، واستلقى يسمع حركة البيت فوق صمت الليل: كريم يقلب شريط كاسيت، ريم تسأل عن كوب ماء، وكرسي يتحرك في شقة سالي تحتهم. كانت الأصوات كلها في أماكنها.

الفصل العاشر

آخر عام في الطفولة

في سبتمبر 1988، كتبت مديرة المدرسة فوق السبورة في طابور الصباح جملة لم يفهم التلاميذ لماذا استقبلها المدرسون بالتصفيق: «عامكم الأخير في المرحلة الابتدائية».

لم تكن كلمة «الأخير» مألوفة في المدرسة. كل شيء فيها كان يتكرر: جرس الصباح، النشيد، دفاتر الواجب، امتحان يناير، ثم إجازة الصيف التي يعقبها صف أعلى. حتى التلاميذ الذين غادروا ظلوا موجودين في أسماء محفورة فوق المقاعد وفي صور باهتة داخل غرفة النشاط. لذلك بدا إعلان المديرة كأنه يتحدث عن آخرين.

وقف زين في الصف، يطالع ظهر سامر أمامه. كان سامر قد طال خلال الصيف حتى اضطر إلى إنزال طرف سرواله أكثر من مرة. وعلى الجهة الأخرى من الفناء، وقفت سالي بين البنات، تربط شعرها إلى الخلف بشريط أزرق جديد.

حين انتهى الطابور، التفت سامر وقال: «يعني السنة الجاية مش هنكون هنا.»

قال زين: «هنبقى في الإعدادي.»

ـ عارف. بس مش هنا.

أراد زين أن يقول إن المباني لا تهم، وإنهم سيبقون معًا في أي مدرسة. لكنه تذكر أن مدارس البنين والبنات منفصلة في المرحلة التالية، وأن فؤاد يفكر في مدرسة قريبة لسالي، بينما كان كمال يسأل عن مدرسة تجريبية أبعد قليلًا له ولسامر.

قال: «لسه بدري.»

كانت تلك إجابته كلما اقترب منه شيء لا يريد التفكير فيه.

• • •

في الحصة الأولى، وزعت مدرسة اللغة العربية دفاتر صغيرة ذات أغلفة رمادية.

قالت: «كل واحد هيكتب رسالة لنفسه، ونحفظها في المدرسة. بعد عشر سنين، اللي يفتكر ييجي ياخدها.»

ضحك التلاميذ. قال ولد في الخلف إن المدرسة نفسها قد تختفي قبل عشر سنوات. أجابته المعلمة بأن المباني تعيش أكثر من الناس أحيانًا، ثم طلبت منهم كتابة ما يتمنون أن يصبحوا عليه.

كتب زين اسمه وتاريخ اليوم، وتوقف.

كان جواب «طبيب» قد لازمه منذ رأى نموذج القلب البلاستيكي. لكنه صار يخاف من سهولته؛ كأن تكرار الكلمة يحول الحلم إلى واجب سبق أن وقّع عليه. نظر إلى سامر، فوجده يرسم بدل أن يكتب. بيت زجاجي واسع، نوافذه كثيرة، وفي منتصفه منضدة عليها أوراق وفرش.

همس زين: «قالت رسالة.»

قال سامر من غير أن يرفع رأسه: «دي رسالتي.»

ـ مش مكتوب فيها حاجة.

ـ أنا هفهمها.

على الجهة الأخرى من الفصل، كانت سالي تكتب بسرعة. توقفت مرتين لتفكر، ثم عادت إلى السطر. لم يستطع زين رؤية ما كتبت، لكنه رأى صفحتين كاملتين قبل أن تطوي الورقة.

كتب أخيرًا: «بعد عشر سنوات، أريد أن أكون قد دخلت كلية الطب. أريد أن أعرف كيف يعمل القلب، وأن أستطيع إصلاحه عندما يمرض. وأريد ألا أكون قد نسيت الناس الذين كانوا معي وأنا صغير.»

قرأ الجملة الأخيرة، ثم شطب كلمة «صغير» وكتب «هنا».

لم تعجبه الصياغة، لكنه لم يجد أفضل منها.

جمعت المعلمة الرسائل في صندوق كرتوني، وأغلقتها بشريط لاصق أمامهم. قالت إن عشر سنوات ستمر أسرع مما يظنون.

قال سامر: «كل الكبار بيقولوا كده لأنهم خلصوها.»

ضحكت سالي. أما زين فحسب عمره بعد عشر سنوات. سيكون في الحادية والعشرين تقريبًا. بدا له ذلك عمرًا لا يمكن أن يصل إليه إنسان يعرفه.

• • •

صار العام كله سلسلة من الأشياء التي تحمل صفة «الأخيرة».

آخر معرض علوم في الابتدائي. آخر مسابقة صحيفة حائط. آخر مباراة في الفناء الصغير. آخر مرة يقف فيها طابورهم أمام النافذة المكسورة. حتى المشرفة التي كانت تمنع سالي من الجري قالت لها في أحد الأيام: «هتوحشيني لما تمشي»، وكأنها لم تقضِ خمس سنوات تطلب منها أن تهدأ.

في البيت، بدأ الكبار يتحدثون عن المدارس التالية وكأنهم يوزعون طرقًا على خريطة.

قال كمال إن زين يحتاج إلى مدرسة تهتم بالعلوم واللغة. وقال فؤاد إن الأقرب أفضل لسالي، لأن المواصلات ستصبح أصعب. أما والد سامر، الذي عاد من سفر طويل في نوفمبر، فقال إن ابنه يجب أن يدخل المدرسة نفسها التي سيدخلها زين حتى «يشدوا بعض».

كان سامر حاضرًا حين قيلت العبارة. سأل: «ولو أنا شدّيته ناحية الرسم؟»

ضحك والده. «شدّه للنجاح الأول وبعدين ارسموا براحتكم.»

لم يضحك سامر.

بعد أن خرجوا إلى السلم، قال زين: «هو مش قصده يمنعك.»

ـ إنت بقيت بتترجم كلام الكبار؟

ـ قصدي إنه عايزك تجيب مجموع.

ـ ما أنا فاهم. كلهم عايزين النتيجة، ومحدش عايز يعرف أنا عايز أوصل لفين.

كانت سالي جالسة على الدرجة الأعلى، تمسك ملفًا للصحيفة.

قالت: «أنا قلت لبابا عايزة أبقى صحفية.»

سأل سامر: «قال إيه؟»

ـ قال الصحافة شغل متعب ومش مضمون، وبعدين قال لسه بدري.

نظر الاثنان إلى زين.

قال: «بابا مبسوط إني عايز طب.»

قال سامر: «طبعًا. إنت اخترت الإجابة النموذجية.»

كانت الجملة ساخرة، لكنها أصابت شيئًا داخله. أراد أن يدافع عن اختياره، ثم رأى أن الدفاع سيجعله يبدو كأنه يدافع عن رضا أبيه لا عن نفسه.

قالت سالي: «يمكن الإجابة النموذجية تبقى إجابته فعلًا.»

نظر إليها ممتنًا، لكنه لم يشكرها. كان يزداد صعوبة في قول الأشياء البسيطة كلما كبر.

• • •

في يناير، بدأت عادة جديدة بين تلاميذ الصف السادس. يشتري كل واحد دفترًا صغيرًا يمرره على زملائه، فيكتبون له كلمات يتذكرهم بها بعد أن يغادروا المدرسة.

سمته البنات «دفتر الذكريات»، وسماه الأولاد «الأوتوجراف» لأن الكلمة الأجنبية بدت أقل عاطفة.

أحضرت سالي دفترًا أبيض، غلفت غلافه بورق أزرق، وكتبت في الصفحة الأولى: «لا تكتب ما يمكن أن تقوله لأي شخص.»

أعطته لسامر أولًا.

جلس سامر في الفسحة تحت السلم الخلفي، ورسم ثلاث نوافذ متجاورة: نافذة فيها قلم، وأخرى فيها سماعة طبيب، وثالثة فيها فرشاة. تحت الرسم كتب: «بعض البيوت لا تُبنى بالحجارة. حافظي على النوافذ مفتوحة.»

حين قرأت سالي الصفحة، ابتسمت وظلت تنظر إليها وقتًا طويلًا.

ثم أعطت الدفتر إلى زين.

أخذه إلى البيت، ووضعه فوق مكتبه. ظل يومين لا يفتحه، لأنه أراد أن يكتب شيئًا أفضل من سامر، ولأنه كره نفسه لأنه يفكر بهذه الطريقة.

في الليلة الثالثة، فتح الصفحة الفارغة. كتب: «أتمنى لك النجاح والتفوق في حياتك القادمة.»

قرأها. بدت كجملة يكتبها مدرس على شهادة تقدير.

مزق الورقة بحذر حتى لا يفسد الدفتر، ثم كتب في الصفحة التالية: «إلى سالي: أتمنى ألا تتغيري.»

تذكر كلام نادية عن أن الأشياء لا تبقى كما هي، فشطبها.

كتب: «أتمنى أن تحققي ما تريدين.»

توقف عند كلمة «تريدين». ماذا تريد؟ الصحافة، نعم، لكنها تريد أيضًا أن تظل شجاعة، وأن تسأل حين يصمت الجميع، وأن تحتفظ بالأشياء التي يراها الآخرون بلا فائدة. كان يعرف عنها ما يكفي لملء صفحات، لكنه لم يعرف كيف يكتبه من دون أن يكشف أنه كان يراقب كل ذلك.

في النهاية كتب سطرين فقط: «إلى سالي، أتمنى أن تصبحي صحفية كما تريدين، وأن تظل العمارة رقم 12 أول خبر مهم كتبته. زين.»

أعاد إليها الدفتر في الصباح.

قرأت الصفحة وهي واقفة عند باب المدرسة. لم تقل إنها جميلة، ولم تقل إنها سيئة. أغلقت الدفتر وسألت: «بس؟»

قال: «عايزة إيه تاني؟»

ـ ولا حاجة.

وضعت الدفتر في حقيبتها ومشت إلى صف البنات.

ظل مكان السؤال بينهما طوال اليوم.

في المساء، رأى الدفتر فوق مائدة بيتها. كانت سالي في المطبخ، وسامر لم يصل بعد. فتحه إلى صفحته، ثم قلب الصفحة. وجد على ظهرها جملة كتبتها هي بالقلم الرصاص: «هو ده كل اللي تعرفه عني؟»

أغلقه بسرعة حين سمع خطواتها.

قالت وهي تدخل: «بتعمل إيه؟»

ـ كنت بشوف خط سامر.

نظرت إليه. عرف من وجهها أنها لا تصدقه، لكنها لم تحرجه.

جلسا صامتين حتى جاء سامر. وفي أثناء الكلام، كان زين يرى الدفتر إلى جواره كأنه شخص رابع يعرف ما أخفاه كل منهما.

• • •

مع اقتراب نهاية العام، أعلنت المدرسة عن صورة جماعية لكل فصل.

جاء المصور يحمل كاميرا كبيرة وحاملًا ثلاثيًّا. رتب التلاميذ فوق درجات المسرح: القصيرون في الأمام، والطوال في الخلف، والمدرسة في المنتصف.

كانت المدرسة قد قررت تصوير فصلي البنين والبنات معًا لأنهما شاركا في أنشطة العام. وقفت سالي في الصف الأوسط. وقف سامر خلفها قليلًا. أما زين فكان ينبغي أن يقف إلى جوارها، لكن أحد الأولاد قال بصوت مسموع: «خلو العريس جنب العروسة.»

ضحك الصف.

تحرك زين خطوة إلى الطرف الآخر قبل أن يطلب منه المصور ذلك.

قالت المدرسة: «يا زين، مكانك هنا عشان الطول.»

أجاب: «أنا شايف كويس من هنا.»

قال المصور إن الصورة ستخرج غير متوازنة. دفع ولد آخر سامر إلى المنتصف، وبقي زين عند الحافة.

لم تنظر سالي إليه. ثبتت عينيها على الكاميرا، وابتسمت حين طلب المصور.

صدر وميض أبيض، وانتهت اللحظة.

بعد أسبوع، وزعت الصور. ظهر سامر قريبًا من سالي، وظهر زين عند الطرف، بينه وبينهما كتفان ووجه معلمة. كانت ابتسامته متأخرة قليلًا، كأن الكاميرا التقطته قبل أن يقرر إن كان سعيدًا.

قال سامر وهو ينظر إلى الصورة: «واقف برا الفصل ليه؟»

قال زين: «المصور حطني هناك.»

رفعت سالي عينيها إليه، ولم تصحح الكذبة.

في البيت، وضعت نادية الصورة داخل إطار صغير. قال زين إنه لا يحبها، فسألته لماذا. أشار إلى أن رأس أحد التلاميذ يغطي جزءًا من كتفه.

قالت: «الغريب إنك كل مرة تبعد بنفسك، وبعدين تزعل إن الصورة طلعتك بعيد.»

نظر إليها. لم يكن يعرف هل تتحدث عن الصورة فقط.

• • •

في آخر يوم دراسي، لم تُعقد حصص حقيقية. حمل التلاميذ أقلامًا ليوقعوا فوق القمصان والحقائب، وركضوا بين الفصول رغم صراخ

المشرفين. كتب سامر فوق ظهر قميص زين: «لا تنسَ الطريق.»

وكتبت سالي تحتها: «ولا الناس.»

حين أعطاها زين القلم، رفعت ضفيرتها عن ظهرها وقالت: «اكتب.»

وقف القلم فوق القماش الأبيض.

كان يستطيع أن يكتب الجملة التي لم يكتبها في الدفتر. كان يستطيع أن يقول إن العمارة لا تعني له شيئًا من دون شرفتها تحت شرفته، وإنه يتذكر صوتها وهي تسأله كل صباح إن كان قد استيقظ. لكنه رأى الأولاد حوله، ورأى سامر يراقب من غير قصد، فعاد إلى الجملة الآمنة.

كتب: «بالتوفيق دائمًا. زين.»

قرأت سالي ما كتب من فوق كتفها قدر استطاعتها، ثم أنزلت شعرها.

قالت: «إنت بتحب كلمة بالتوفيق قوي.»

رد: «حلوة.»

ـ حلوة لأي حد.

رن الجرس الأخير.

تجمع التلاميذ عند البوابة. بعضهم بكى، وبعضهم وعد أن يتصل يوميًا، وبعضهم كان فرحًا بالإجازة إلى درجة لم تسمح له بفهم ما ينتهي.

خرج الثلاثة معًا. عند الرصيف، توقف سامر واشترى زجاجات مياه غازية من الكشك. شربوا واقفين تحت الجميزة.

قالت سالي: «السنة الجاية مش هنروح من الطريق ده كلنا.»

قال زين: «نقدر نتقابل هنا ونمشي.»

ـ مدرستي في الناحية التانية.

قال سامر: «نقابلك بعد المدرسة.»

ـ مواعيدنا مش واحدة.

شرب زين بقية الزجاجة دفعة واحدة. قال: «إحنا ساكنين فوق بعض. يعني هنشوف بعض أكتر من المدرسة.»

نظرت إليه سالي. «متأكد؟»

قال: «طبعًا.»

لم تكن تسأله عن المسافة بين الشقق. ومع ذلك أجاب كأنها تسأل عن عنوان.

صعدوا إلى السطح قبل المغرب. أخرجوا الأنبوب الكرتوني الذي يحمل رسوماتهم القديمة، ووضعوه قرب الصندوق الأزرق. رفضت سالي فتحه، لأن سامر كتب أنه لا يفتح قبل أن يكبروا.

قال سامر: «إحنا كبرنا.»

قالت: «مش قوي.»

سأل زين: «نعرف منين؟»

أجابت: «لما ما نبقاش محتاجين نفتحه عشان نفتكر.»

جلسوا عند الحائط. من هناك رأوا سطح المدرسة، وفناءها الصغير، والخط الأبيض الذي يقسم مكان طابور البنين عن البنات. بدا كل شيء قريبًا بحيث يمكن العودة إليه، مع أنهم كانوا يعرفون أن البوابة لن تفتح لهم بالطريقة نفسها بعد الصيف.

قال سامر: «آخر يوم في الطفولة شكله عادي أوي.»

ضحكت سالي. «مين قال إنه آخر يوم؟»

أشار إلى القمصان التي امتلأت بالكتابة وإلى المدرسة الخالية.

«كله بيقول.»

قال زين: «الطفولة مش مدرسة.»

ـ أمال إيه؟

لم يعرف.

حين نادتهم ليلى للعشاء، نزلوا يركضون كما كانوا يفعلون دائمًا. سبقهم زين إلى الباب، ودفعه سامر، واحتجت سالي لأنهما تركاها خلفهما. للحظات، لم يتغير شيء.

لكن في صباح سبتمبر التالي، خرج زين وسامر بزي مدرسة البنين، وخرجت سالي بعدهما بربع ساعة في زي آخر، وسلكت شارعًا معاكسًا.

لم يعلن أحد أن الطفولة انتهت.

كل ما حدث أن الطريق الذي جمعهم ست سنوات انقسم عند باب العمارة، ومشى كل واحد في ناحية وهو يظن أن المساء كفيل بإعادة كل شيء إلى مكانه.

الفصل الحادي عشر

الطريق الذي انقسم

كان أول ما كرهه زين في المدرسة الإعدادية هو صوت الجرس.

لم يكن مختلفًا كثيرًا عن جرس مدرسته القديمة، لكنه كان أطول وأشد حدة، ويتبعه اندفاع مئات الأولاد في ممرات أضيق مما ينبغي. لا يعرف المدرسون أسماءهم بعد، ولا تعرف المقاعد آثار أيديهم، ولا توجد شجرة يمكن أن يقفوا تحتها ويقولوا إنها مكانهم.

دخل زين الفصل مع سامر في اليوم الأول. اختارا مقعدين في الصف الثاني. بعد دقائق، جاء مدرس الرياضيات وطلب من سامر الانتقال إلى الخلف لأن طوله يحجب السبورة.

قال سامر وهو يجمع كتبه: «ابتدينا.»

سأله زين: «إيه؟»

ـ كل حاجة بتحاول تفرقنا من أول حصة.

ضحك زين، لكنه لم يغير مكانه معه. كان يريد أن يرى السبورة بوضوح.

في الفسحة، تعرفا إلى عادل، ولد سريع الكلام يعرف أسماء نصف المدرسين لأن أخاه الأكبر تخرج في المدرسة. أراهما أماكن لا يدخلها المشرفون، وبائع الفول عند الباب الخلفي، والنافذة التي يمكن منها رؤية مدرسة البنات في الشارع الموازي.

قال عادل: «اللي عنده أخت هناك يقدر يطمن عليها.»

قال سامر: «إحنا عندنا صاحبتنا هناك.»

نظر عادل إلى زين. «صاحبتكم الاتنين؟»

قال زين بسرعة: «جارتنا.»

أكمل عادل الكلام كأن الفرق لا يهمه، لكن زين ظل يسمع طريقته في نطق الكلمة طوال اليوم.

• • •

كانت مدرسة سالي تبعد ثلاثة شوارع فقط، لكنها بدت لها أبعد من رأس غارب.

لا تعرف فيها أحدًا سوى بنت اسمها داليا جلست إلى جوارها بالمصادفة. كانت داليا تتحدث كثيرًا حين تتوتر، ولذلك عرفت

سالي في ساعة واحدة عدد إخوتها، واسم قطتها، والسبب الذي جعلها تكره مدرسة اللغة الإنجليزية.

سألتها داليا: «إنتِ ساكنة فين؟»

أجابت سالي.

قالت: «بعيد شوية. بتيجي لوحدك؟»

ـ مع بابا أول أسبوع. بعد كده هاجي مع بنات من العمارة اللي جنبنا.

لم تقل إن اثنين اعتادا السير معها ست سنوات ذهبا الآن في اتجاه آخر.

في نهاية اليوم، خرجت قبل زين وسامر بنصف ساعة. انتظرت عند كشك قريب، تشتري قلمًا لا تحتاجه، على أمل أن تراهما. مر الوقت، وبدأ صاحب الكشك ينظر إليها، فمشت إلى البيت وحدها.

حين وصلت، كانا جالسين عند المدخل، يتحدثان عن مدرس ضرب طالبًا بالمسطرة لأنه نسي الكراسة.

قالت: «خلصتوا إمتى؟»

أجاب زين: «من شوية.»

ـ ما عدتوش من عند مدرستي ليه؟

قال سامر: «ما عرفناش ميعادك.»

قالت: «قولت لكم.»

تذكر زين أنها أخبرتهما مساء أمس، لكنه كان يراجع جدول الحصص ولم ينتبه.

قال: «بكرة.»

في اليوم التالي، انتهت حصصهما متأخرة. وفي اليوم الذي بعده، كان لسامر تدريب رياضي. ثم أصبح الانتظار مشروعًا مؤجلًا حتى توقفوا عن ذكره.

• • •

ابتكرت سالي طريقة لا تحتاج إلى المواعيد.

ربطت مشبك غسيل في طرف خيط طويل، وأنزلته من شرفتها إلى شرفة زين. وضعت في المشبك ورقة صغيرة كتبت عليها: «هل رجعت؟»

كانت نادية في المطبخ حين اصطدم المشبك بزجاج الشرفة. خرج زين وأمسكه.

كتب على ظهر الورقة: «من ساعة.» ثم أعاد المشبك إلى أسفل.

بعد دقيقة عاد: «ليه ما نزلتش؟»

كتب: «عندي واجب.»

عاد مرة ثالثة: «بعد الواجب؟»

كتب: «نشوف.»

رفع الخيط، ولم يعد.

في المساء، طرق باب شقتها. فتحت له سالي، وقالت قبل أن يدخل: «كلمة نشوف معناها لأ عندك؟»

ـ كان عندي حساب كتير.

ـ كنت تقدر تكتب لأ.

ـ ما كنتش عارف هخلص إمتى.

قالت: «إنت بقيت بترد زي الكبار.»

مر من جوارها إلى الصالة. كان سامر هناك، يرسم شعارًا لفريق الفصل الجديد. رفع رأسه وقال: «أنا كتبت لها آه ونزلت.»

رد زين: «عشان إنت ما عملتش الواجب.»

ـ عملته هنا.

وضعت سالي كتاب الحساب أمام زين. «اعمله هنا برضه.»

جلس. بعد نصف ساعة، كان الثلاثة حول المائدة نفسها. عادت الطمأنينة قليلًا، لكن الخيط بقي معلقًا بين الشرفتين، يستخدمونه كلما عجزت المواعيد عن جمعهم.

صار يحمل أسئلة وطلبات وأخبارًا قصيرة: «هات كراسة العلوم.» «سامر تحت.» «ماما عملت كيك.» «بابا زعلان.» «اطلع السطح.»

لم يحمل الخيط يومًا جملة طويلة. الأشياء المهمة بدت أثقل من أن يرفعها مشبك غسيل.

• • •

في المدرسة الجديدة، اكتشف زين أن التفوق يمكن أن يصنع مكانًا أسرع من الصداقة.

أجاب عن سؤال صعب في العلوم، فطلب منه المدرس أن يشرح أمام الفصل. بعد ذلك صار الأولاد ينادونه «الدكتور». لم يعد اللقب مزاحًا خاصًا من سامر، بل اسمًا عامًا يسبقه في الممرات.

أعجبه الأمر في البداية. كان يعرف كيف يتعامل مع الأسئلة الواضحة: يقرأ، يفكر، ثم يجيب. لا أحد يسأله لماذا صمت أو لماذا نظر أو لماذا ضايقه شيء لم يحدث له مباشرة.

أما سامر، فصنع مكانه بطريقة أخرى. رسم وجه مدرس الدراسات على السبورة قبل دخوله، فغضب المدرس أولًا، ثم احتفظ بالرسمة في الدرج. صار الأولاد يطلبون منه أن يرسم أسماءهم وشعارات فرق الكرة فوق الكراسات.

قال له زين: «هتضيع وقتك.»

ـ ما هو وقتي.

ـ عندنا امتحان جبر.

ـ وعندي صفحة فاضية.

لم يعودا يتشاجران على المقعد. جلس كل واحد في المكان الذي يناسب ما يريد أن يصير عليه، وصارا يلتقيان في الفسحة بدل أن يقضيا اليوم كله جنبًا إلى جنب.

في مدرسة البنات، انضمت سالي إلى جماعة الإذاعة. أعطتها المشرفة نصًا عن النظافة لتقرأه، فغيرت المقدمة من غير إذن. استدعتها المشرفة بعد الطابور.

قالت: «إنتِ ليه غيرتِ الكلام؟»

ـ كان ناشف.

ـ ناشف؟

ـ محدش بيسمع لما الكلام يبقى زي الكتاب.

توقعت عقابًا. لكن المشرفة طلبت منها أن تكتب فقرة الأسبوع التالي بنفسها، بشرط أن تعرضها عليها قبل الطابور.

عادت سالي إلى العمارة تحمل الورقة كأنها شهادة.

وجدت سامر أولًا. قرأ الفقرة وقال إن البداية تحتاج إلى صورة. رسم بنتًا تحمل ميكروفونًا، ومن فمها تخرج طيور صغيرة بدل الكلمات.

قالت: «دي أنا؟»

ـ ممكن.

ـ شعري مش كده.

ـ الرسم مش بطاقة شخصية.

حين جاء زين، أعطته الورقة. قرأها واقفًا.

قال: «في معلومة غلط. إنتِ كاتبة إن الإنسان بيستخدم نص مخه.»

ـ المدرسة قالتها.

ـ مش معنى إنها قالت تبقى صح.

أخرج كتابًا من حقيبته، وفتح صفحة. شرح لها أن الفكرة شائعة لكنها غير دقيقة. شطبت سالي الجملة وكتبت غيرها.

قالت: «حلو كده؟»

قرأ ثانية. «آه.»

انتظرت.

سأل: «إيه؟»

ـ مفيش حاجة تانية؟

ـ زي إيه؟

أشار سامر إلى الرسم. «مثلاً تقول الفقرة حلوة.»

قال زين: «لو مش حلوة ما كنتش قريتها مرتين.»

ابتسمت سالي، لكنها قالت: «مش كل الناس بتفهم المدح بالطريقة دي.»

احتفظ زين بالجملة. لم يستخدمها.

• • •

في ديسمبر، هطلت أمطار قوية وقت خروج المدارس.

انتهى يوم زين قبل سالي بعشرين دقيقة. وقف مع سامر وعادل تحت مظلة محل مغلق. كانت المياه تجري عند حافة الرصيف، والسيارات ترش الطين على المارة.

قال سامر: «نروح نجيب سالي.»

قال عادل: «مين سالي؟»

أجابه سامر: «صاحبتنا اللي قلت لك عليها.»

رفع عادل حاجبيه ونظر إلى زين. «الجارة؟»

قال زين: «هي تعرف تروح.»

نظر سامر إليه. «المطر شديد.»

ـ باباها ممكن ييجي لها.

ـ ويمكن ما يجيش.

أخرج سامر مظلة صغيرة من حقيبته، وجرى في اتجاه مدرسة البنات. بقي زين تحت المظلة مع عادل.

بعد دقيقة قال إنه نسي كراسة عند المكتبة، ومشى في الاتجاه نفسه.

وصل قرب المدرسة، فرأى مجموعة بنات عند البوابة. كانت سالي تقف تحت سقف ضيق مع داليا. وقف على الجانب الآخر من الشارع، لا يعرف إن كان يناديها.

خرج ثلاثة أولاد من مدرسته يركضون خلفه. ناداه أحدهم: «يا دكتور! مستني مين؟»

تراجع زين تحت شرفة محل، وأجاب بأنه ينتظر سامر.

في اللحظة نفسها ظهر سامر عند البوابة، فتح المظلة فوق سالي وداليا، ومشى معهما. كانت المظلة أصغر من ثلاثة، فابتلت كتفه. ضحكت سالي وهي تحاول أن تميلها نحوه.

رأت زين عبر الشارع.

توقف وجهها عن الضحك لحظة. رفعت يدها لتناديه، لكنه أشار إلى الأولاد خلفه كأنه يشرح شيئًا، ثم مشى قبلهم نحو العمارة.

وصلت بعده بعشر دقائق. كان يخلع حذاءه عند المدخل.

قالت: «كنت واقف هناك ليه؟»

ـ مستني سامر.

ـ ولما شفتنا مشيت ليه؟

ـ الأولاد كانوا راجعين.

ـ وإيه يعني؟

لم يجد إجابة لا تكشف أنه خاف من ضحكتهم أكثر مما خاف عليها من المطر.

قال: «ما كانش لازم تيجي من الشارع ده. كله مياه.»

حدقت فيه. «إنت زعلان إني جيت مع سامر؟»

ـ لأ.

ـ أمال زعلان من إيه؟

ـ مش زعلان.

صعد الدرج قبلها.

قالت خلفه: «الغريب إنك كل ما تقول مش زعلان، تبقى زعلان أكتر.»

في الطابق الثالث، دخل شقته وأغلق الباب. سمعها تكمل إلى الطابق الثاني، ثم سمِع بابهم يغلق.

كان يمكنه أن يعود ويشرح. لكنه لم يكن يملك تفسيرًا يحترمه هو نفسه.

• • •

في تلك الليلة، جلست نادية عند طرف سريره لتجمع الملابس التي ابتلت.

قالت: «سالي كانت مضايقة.»

ـ قالت لك؟

ـ ما قالتش. وشها قال.

ـ أنا ما عملتش حاجة.

ـ ساعات دي المشكلة.

ظل يقلب صفحات كتابه.

قالت: «إنت كبرت يا زين.»

رفع عينيه. كان يكره الجملة منذ قالتها المشرفة لسالي قبل سنوات.

أضافت: «والكبر مش إنك تبعد عن الناس عشان حد ما يعلقش عليك. الكبر إنك تعرف إنت بتعمل إيه وليه.»

قال: «هما بيقولوا كلام سخيف.»

ـ واللي يضحك النهارده هينسى بكرة. بس اللي إنت تخبيه عن حد قريب منك ممكن يفضل فاكره سنين.

لم تجبره على الاعتذار. خرجت بالملابس المبتلة، وتركت الباب مواربًا.

أخرج زين ورقة صغيرة. كتب: «أنا كنت جاي عشان المطر.» ثم شطبها لأن الجملة بدت دفاعًا. كتب: «ما كنتش عايز الأولاد يعلقوا.» فشطبها لأنها بدت أسوأ. في النهاية لم يكتب شيئًا.

عند منتصف الليل، سمع مشبك الغسيل يصطدم بالزجاج.

خرج إلى الشرفة. رفع الورقة.

كتبت سالي: «بكرة عندي إذاعة. أصحى؟»

ابتسم رغمًا عنه. كتب: «هصحى.»

عاد المشبك بعد دقيقة: «متتأخرش.»

في الصباح، وقف في شرفته قبل موعد الطابور. لم يكن يستطيع سماع إذاعة مدرستها، لكنه تخيلها تمسك الميكروفون وتقرأ. حين عادت، سألها كيف كانت الفقرة.

قالت: «حلوة. ما غلطتش ولا مرة.»

قال: «كنت عارف.»

توقفت عند باب شقتها. «دي أحسن من بالتوفيق.»

ثم دخلت.

• • •

في نهاية العام الأول من الإعدادية، صعد الثلاثة إلى السطح في ليلة صيفية. أحضر سامر كراسة جديدة، وأحضرت سالي جهاز تسجيل صغيرًا استعاره فؤاد من العمل، وحمل زين ثلاثة أكواب شاي خفيف أعدتها نادية.

قالت سالي إنها تريد تسجيل أصواتهم كي يسمعوها بعد سنوات.

ضغطت الزر الأحمر، وظهر دوران البكرتين الصغيرتين خلف الغطاء الشفاف.

قال سامر بصوت مذيع: «هنا سطح العمارة رقم اتناشر، الساعة تسعة وأربع دقائق.»

قال زين: «تسعة وسبع.»

ـ الدكتور صحح الوقت.

ضحكت سالي. «قولوا حاجة للمستقبل.»

قال سامر: «أنا هبقى عندي مرسم كبير، ومحدش هيقول لي الرسم مش شغل.»

قالت سالي: «أنا هعمل برنامج وأسأل الناس الأسئلة اللي بيهربوا منها.»

وجها الجهاز إلى زين.

قال: «أنا هبقى دكتور قلب.»

انتظرا.

سألت سالي: «وبس؟»

نظر إلى شرفتيهما، وإلى الشارع الذي انقسمت فيه طرق المدارس.

قال: «وهنفضل نعرف بعض.»

قال سامر: «دي مش حاجة للمستقبل. دي حاجة معروفة.»

أوقفت سالي التسجيل، ثم أعادته إلى البداية. خرجت أصواتهم أرفع وأبعد قليلًا من الحقيقة.

عند جملة زين الأخيرة، لم يقل أحد شيئًا.

وضعت سالي الشريط في علبته، وكتبت عليه: «نهاية أولى إعدادي».

سألت: «نسمعه لما نبقى عشرين؟»

قال سامر: «مع الرسومات.»

قال زين: «لسه بدري.»

الفصل الثاني عشر

أشياء لا تُقال في الرسائل

في العام التالي، اشترى فؤاد جهاز هاتف جديدًا لشقته.

كان أسود، أثقل من أن يُحمل بيد واحدة، وله قرص دائري يعود إلى مكانه ببطء بعد كل رقم. وُضع فوق منضدة صغيرة في الصالة، وصار جميع أفراد البيت يرفعون السماعة كلما رن، حتى لو كانوا يعرفون أن المكالمة تخص فؤاد.

قالت سالي لزين: «دلوقتي أقدر أكلمك بدل الخيط.»

أشار إلى السقف. «إنتِ تحتنا. ممكن تنادي.»

ـ التليفون أشيك.

في الليلة الأولى، اتصلت بشقة زين. رد كمال.

قالت بصوت رسمي: «مساء الخير يا عمو، ممكن أكلم زين؟»

ناول كمال السماعة لابنه وهو يبتسم.

قال زين: «ألو.»

جاء صوتها قريبًا وغريبًا في الوقت نفسه. «ألو.»

سكتا.

سأل: «عايزة إيه؟»

ـ كنت بجرب.

ـ جربتي.

ـ حلو؟

ـ إيه؟

ـ صوتي.

نظر إلى أبيه، فوجد كمال ما يزال قريبًا. أدار ظهره وقال: «زي ما هو.»

سمع ضحكتها. «إنت حتى في التليفون ناشف.»

أغلقت، ثم طرق باب شقتهما بعد أقل من دقيقة لتخبره أن المكالمة كانت ناجحة.

صار الهاتف بعد ذلك طريقًا جديدًا بينهم، لكنه لم يكن خاصًا. تمر كل كلمة عبر الصالة، ويمكن لأي أم أن تسمع نصف الحوار، وأي أخ أن يرفع السماعة الأخرى. لذلك امتلأت مكالماتهم بجمل تبدو عادية: «عندك واجب العربي؟» «سامر جه؟» «ميعاد الفيلم كام؟»

أما ما لا يصلح أن يسمعه البيت كله، فظل معلقًا في الصمت.

• • •

كانت سالي في الثانية الإعدادية حين كتبت أول قصة قصيرة لها.

جاءتها الفكرة من الشرفتين. كتبت عن ولد وفتاة يسكنان في بيتين متقابلين، يضيء كل منهما مصباح نافذته حين يريد أن يطمئن إلى الآخر. مع مرور السنوات، ترتفع بين البيتين عمارة جديدة، فلا يعود الضوء مرئيًا. يظل كل واحد يشعل المصباح في موعده، من غير أن يعرف أن الآخر يفعل الشيء نفسه.

سمت القصة «النافذتان».

أعطتها لسامر لأنه كان في بيتها حين انتهت. قرأها جالسًا قرب النافذة، ثم طلب قلمًا. رسم في آخر الصفحة مستطيلين صغيرين، وبينهما كتلة سوداء، وفوقها خيط رفيع من الضوء يصعد إلى السماء.

قال: «الضوء ممكن يتقابل فوق العمارة.»

قالت: «بس هما مش شايفين.»

ـ مش لازم يشوفوا عشان يبقى موجود.

سألته: «حلوة؟»

ـ حسيت إن العمارة دي شريرة.

ضحكت. «هي مش شريرة. هي بس موجودة.»

حين وصل زين، وجد الصفحة بينهما.

قالت سالي: «كتبت قصة.»

مدت الأوراق إليه. قرأها ببطء، وأعاد الصفحة الأولى مرتين. عند النهاية، توقف عند رسم سامر.

سألته: «إيه رأيك؟»

قال: «ليه ما يستخدموش مراية تعكس الضوء؟ أو يطلعوا السطح؟»

ابتسمت أولًا، ظنًا أنه يمزح. لكنه أكمل:

ـ وكمان لو العمارة جديدة، هيعرفوا قبل ما تتبني ويعملوا طريقة تانية. المشكلة ممكن تتحل بسهولة.

أخذت الأوراق من يده. «دي قصة يا زين، مش مسألة هندسة.»

ـ أنا عارف. بس لازم تبقى منطقية.

قال سامر: «هي منطقية. هما مش عارفين يكلموا بعض.»

ـ ليه؟

ـ عشان لو كانوا يعرفوا، ما كانتش بقت قصة.

قال زين: «يبقى المشكلة إنهم أغبياء.»

سكتت سالي.

رأى التغير في وجهها متأخرًا. حاول أن يخفف الجملة:

«قصدي كان ممكن تعملي سبب أقوى.»

طوت الأوراق. «خلاص.»

ـ خلاص إيه؟

ـ مش مهم.

خرج سامر بعد قليل لشراء شيء من المكتبة. بقي زين وسالي وحدهما.

قال: «إنتِ زعلتي؟»

ـ لأ.

ـ بتقولي لأ بطريقة معناها آه.

نظرت إليه. «وأنت بتقول رأيك بطريقة معناها إن كل حاجة لازم تتصلح عشان تعجبك.»

ـ ما طلبتي رأيي.

ـ طلبت رأيك، مش تقرير عيوب.

ـ لو قلت حلوة وخلاص، كنت هكدب.

قالت بهدوء: «ممكن تقول إنك فهمتها أو ما فهمتهاش. مش كل حاجة ما تعجبكش تبقى غلط.»

دخلت غرفتها وأغلقت الباب.

ظل زين في الصالة، أمامه كوب لم يشرب منه. كان مقتنعًا أن ملاحظاته صحيحة، لكنه لم يشعر أنه انتصر.

• • •

في المدرسة، قدمت سالي القصة إلى مسابقة نظمتها مكتبة عامة في مصر الجديدة. لم تخبر زين.

طلبت من سامر أن يرسم غلافًا. رسم نافذتين من غير العمارة، ثم أضاف بينهما سماء مزدحمة بالأسلاك والطيور. كتبت اسمه أسفل الرسم، واسمها أسفل القصة.

بعد ثلاثة أسابيع، وصل خطاب إلى المدرسة يفيد بأن القصة اختيرت ضمن عشرة أعمال ستقرأ في لقاء عام.

عادت سالي تحمل الخطاب. كان سامر ينتظرها عند الجميزة. قرأه ورفعها من كتفيها لحظة من الفرح، ثم تركها فورًا حين خرجت السيدة وداد إلى الشرفة.

قالت وهي تضحك: «نزلني يا مجنون.»

سأل: «هتقريها قدام ناس؟»

ـ شكلها كده.

ـ هعمل لك غلاف أحسن.

عند المساء، أخبرت الأسرتين. صفق فؤاد، وقال إن لديه زميلًا يعرف أحد المسؤولين في المكتبة. قالت ليلى إن سالي لا تحتاج إلى واسطة لكي تقرأ قصة اختاروها بالفعل. ضحك الجميع.

كان زين آخر من عرف. عاد من درس العلوم فوجدهم يحتفلون بقطعة حلوى.

قالت نادية: «سالي قصتها اتقبلت.»

نظر إليها. «أنهي قصة؟»

أجابت سالي: «اللي الولد والبنت الأغبياء فيها.»

قالت الجملة مبتسمة، لكنها لم تكن مزحة كاملة.

قال: «مبروك.»

ـ شكرًا.

جلس وأكل قطعة الحلوى. أراد أن يسأل لماذا لم تخبره، لكنه عرف الإجابة.

• • •

في يوم القراءة، ذهب الجميع إلى المكتبة.

كانت القاعة صغيرة، كراسيها خشبية، وعلى الجدران صور لكتاب لم يعرف زين معظمهم. جلس كمال وفؤاد ونادية وليلى في الصف الثالث. جلس زين وسامر في الصف الذي أمامهم.

كانت سالي ترتدي فستانًا أزرق بسيطًا، وتمسك الأوراق بيدين ترتجفان قليلًا. قبل أن تصعد، انحنى سامر نحوها وقال شيئًا لم يسمعه زين. هزت رأسها وضحكت، ثم صعدت.

بدأ صوتها منخفضًا، ثم استقام بعد السطر الأول. حين وصلت إلى الجزء الذي ترتفع فيه العمارة بين النافذتين، نظرت إلى

الجمهور، لا إلى الورق. صمتت القاعة بالطريقة التي كانت تريدها دائمًا من الإذاعة المدرسية.

عرف زين عندها أن القصة لم تكن تحتاج إلى مرآة ولا إلى سطح. كانت عن أناس يملكون طرقًا كثيرة للكلام، لكنهم لا يستخدمونها.

حين انتهت، صفق واقفًا قبل أن ينتبه إلى نفسه. نظرت إليه سالي وسط التصفيق. ابتسمت، ثم بحثت بعينيها عن سامر، الذي كان يرفع رسم الغلاف عاليًا.

بعد اللقاء، تجمعوا في فناء المكتبة. قدم المشرف شهادة لسالي، وشكر سامر على الرسم. قال كمال لزين: «إنت ما قلتش لنا إنها بتكتب كويس كده.»

أجاب: «أنا ما كنتش عارف.»

سمعته سالي. قالت: «كنت عارف. بس كنت مشغول تدور على الغلط.»

لم تقلها بقسوة. وذلك جعله يشعر بأسوأ.

في طريق العودة، سار خلفها مع سامر. كانت تتحدث إلى ليلى عن القاعة، وفؤاد يحمل الشهادة داخل ملف حتى لا تنثني.

قال سامر لزين بصوت منخفض: «إنت بتضايقها ليه؟»

ـ أنا ما كنتش أقصد.

ـ إنت دايمًا ما تقصدش.

توقف زين. «وإنت مالك؟»

التفت سامر إليه. «مالي إني صاحبها. زيك.»

كانت الإجابة بسيطة، لكن كلمة «زيك» بدت لزين تحديًا.

قال: «أنا أعرفها قبلك.»

اتسعت عينا سامر. «هو في طابور؟»

ـ ما قلتش كده.

ـ قول اللي عايز تقوله بدل ما تفضل تقول حاجات تانية.

وصل الكبار إليهما، فانتهى الحوار. مشيا بقية الطريق متباعدين.

• • •

في تلك الليلة، كتب زين اعتذارًا.

لم يبدأه بكلمة «آسف» لأنها بدت ثقيلة. كتب أولًا أنه فهم القصة في القاعة، ثم شطب الجملة لأنها توحي بأن القصة احتاجت إلى جمهور كي تصبح جيدة. كتب أنه كان يريد مساعدتها، ثم شطبها لأن المساعدة التي لا يطلبها أحد قد تكون نوعًا آخر من السيطرة.

أخيرًا كتب: «القصة حلوة. أنا فهمتها متأخر. مش كل حاجة محتاجة مني حل. مبروك بجد.»

طوى الورقة، ونزل إلى الطابق الثاني. كان الباب مغلقًا. أدخلها من تحته.

في الداخل، كان سامر جالسًا في الصالة ينتظر فؤاد ليعيد له كتابًا استعاره. رأى الورقة تدخل، فقام والتقطها. عرف خط زين من الخارج.

لم يفتحها.

وضعها فوق منضدة سالي، ثم خرج قبل أن تعود من المطبخ.

في الصباح، وجد زين مشبك الغسيل على زجاج الشرفة.

رفعت الورقة الصغيرة كلمة واحدة: «وصلت.»

قلبها، فوجد في الخلف: «وشكرًا.»

احتفظ بها في كتاب العلوم.

• • •

بعد أيام، أحضرت سالي جهاز التسجيل إلى السطح. قالت إنها تريد سماع الشريط القديم.

جلس الثلاثة قرب الحائط. ضغطت زر التشغيل. خرجت أصواتهم من العام السابق، مملوءة بصفير خفيف.

قال صوت سامر إنه سيكون لديه مرسم لا يعترض عليه أحد. قالت سالي إنها ستسأل الناس الأسئلة التي يهربون منها. ثم جاء صوت زين: «وهنفضل نعرف بعض.»

ضحك سامر. «صوتك كان رفيع.»

قال زين: «صوتك لسه رفيع.»

أوقفت سالي الشريط، ثم أعادته إلى الجملة الأخيرة.

قالت: «نسمعها تاني.»

خرج صوت زين الصغير، واثقًا من شيء لا يملك عليه دليلًا.

قال سامر: «إحنا لسه عارفين بعض.»

أجابت سالي: «أيوه. بس ساعات الواحد يعرف حد من زمان، وما يعرفش اللي جواه دلوقتي.»

نظر زين إليها. سأل: «تقصديني؟»

قالت: «أقصدنا كلنا.»

شغل سامر الشريط من البداية كي لا يظل السؤال معلقًا. لكن السؤال بقي، لأن التسجيل حفظ أصواتهم ولم يحفظ ما كانوا يخافون قوله بينها.

• • •

في نهاية العام، حصل زين على المركز الأول في مسابقة العلوم بالمدرسة عن نموذج مبسط للدورة الدموية. صنع القلب من مضخة مطاطية، والأنابيب من خراطيم شفافة، واستخدم ماءً ملونًا بالأحمر والأزرق.

حضر كمال العرض. ظل واقفًا قرب المنضدة يسأل المدرسين عن تفاصيل المسابقة، وفوق وجهه فخر لم يحاول إخفاءه.

جاءت سالي وسامر بعد انتهاء يومهما. كان سامر يحمل دفتر الرسم، وكانت سالي تحمل الشهادة التي حصلت عليها قصتها، لأنها وعدت مدرسة النشاط أن تصورها.

شرح زين النموذج. ضغط المضخة، فتحرك السائل في الأنابيب.

قالت سالي: «إنت فعلًا هتبقى دكتور قلب.»

لم تقلها كمزحة هذه المرة.

قال سامر: «بس قلبك ده بيسرب.»

أشار إلى نقطة ماء عند الوصلة. ضحكوا. أحضر زين قطعة قماش، وساعده سامر في تثبيت الخرطوم. أمسكت سالي اللوحة حتى لا تقع.

وقفوا حول المنضدة، كل واحد يصلح جزءًا يخص الآخر. رآهم كمال من بعيد، والتقط لهم صورة من غير أن ينتبهوا.

حين ظهرت الصورة بعد أيام، كان زين منحنياً فوق المضخة، وسامر يمسك الخرطوم، وسالي ترفع اللوحة. لم يكن أحد ينظر إلى

الكاميرا. ولم توجد بينهم المسافة التي تركوها في صورة المدرسة القديمة.

احتفظت نادية بالصورة إلى جوار الأولى.

قالت لزين: «الصور اللي ما نستعدش لها بتطلع أصدق.»

سألها: «ليه؟»

ـ عشان ما بيبقاش عندنا وقت نختار نقف فين.

الفصل الثالث عشر

حين صار لكل واحد جمهور

مر العام الثالث من الإعدادية كأنه ممر ضيق بين بابين.

امتحانات، دروس إضافية، أسئلة عن المجموع، وأوراق تنسيق المدارس الثانوية. اختفت جلسات السلم تقريبًا. صار زين يذاكر حتى وقت متأخر، وسامر ينجز واجباته بسرعة ليعود إلى الرسم، وسالي تقسم وقتها بين الدراسة والإذاعة وكتابة موضوعات لمجلة المدرسة.

حين التقوا، كانوا يحكون ما حدث بدل أن يعيشوا شيئًا معًا.

قالت سالي مرة: «بقينا نشرات أخبار لبعض.»

أجاب زين: «السنة دي مهمة.»

قال سامر: «كل سنة الكبار يقولوا دي أهم سنة.»

ـ عشان كل سنة لها نتيجة.

ـ والحياة اللي بين النتائج؟

لم يجب زين. كان يشعر أن كل ساعة لا يذاكر فيها تُسحب من مستقبل محدد ينتظره. ولم يكن يعرف أن المستقبل لا يأتي

دفعة واحدة في يوم إعلان النتيجة، بل يتشكل أيضًا في الساعات التي تركها تمر.

نجح الثلاثة بدرجات عالية. دخل زين وسامر مدرسة ثانوية قريبة، واختارت أسرة سالي مدرسة بنات معروفة بنشاطها الأدبي. في خريف 1992، صاروا في مرحلة يطلق عليها الكبار «سن الرجولة» حين يريدون تحميلهم المسؤولية، و«سن المراهقة» حين يريدون تجاهل رأيهم.

• • •

تغيرت ملامح زين ببطء ثم دفعة واحدة.

صار أطول من نادية، وظهر خط خفيف فوق شفته أصر كريم على السخرية منه. اتسعت كتفاه، وصار صوته يتغير في منتصف الجملة أحيانًا، فيسعل كي يخفي ذلك.

أما سامر، فترك شعره أطول مما يسمح به ناظر المدرسة. كان يمرر يده فيه كلما فكر، ويحمل كراسة رسم سوداء لا يسمح لأحد بفتحها من غير إذنه.

سالي قصت شعرها حتى كتفيها. حين رآها زين أول مرة، توقف عند الدرجة بين الطابقين.

قالت: «ماتقولش مختلف.»

ـ كنت هقول قصير.

ـ دي ملاحظة علمية؟

ابتسم. «لايق عليك.»

بقيت تنظر إليه لحظة، كأنها تنتظر أن يسحب الجملة أو يحولها إلى نقد. لكنه لم يفعل.

قالت: «شكرًا.»

مر سامر من أسفل السلم. رفع رأسه وقال: «حلو. وشك بقى واضح للرسم.»

قالت: «أنا مش موديل عندك.»

ـ كل الناس موديلات، بس في ناس بتتحرك كتير.

أخذت كراسته وحاولت فتحها، فانتزعها منها وهو يضحك. نزل الثلاثة إلى الشارع، وعادت الحركة بينهم سهلة للحظات.

• • •

في الثانوية، صار لكل واحد منهم جمهور مختلف.

كان زين معروفًا بين المدرسين. يختاره مدرس الأحياء للإجابة عن الأسئلة الصعبة، ويستعير منه التلاميذ الملخصات قبل الامتحانات. يقف حوله عدد من الأولاد في الفسحة، لا لأنهم يعرفونه جيدًا، بل لأنهم يعرفون أنه يعرف الإجابة.

كان سامر معروفًا في غرفة النشاط. يرسم لوحات المناسبات، ويصمم أغلفة المجلات، ويقلد وجوه المدرسين في دقائق. التف حوله من يحبون الضحك ومن يريدون اسمه مزخرفًا فوق كراسة.

أما سالي، فصار صوتها معروفًا قبل وجهها. قدمت فقرات في احتفالات المدرسة، ثم انضمت إلى نشاط صحفي في مركز ثقافي قريب. تعلمت كيف تمسك الميكروفون، وكيف تسأل سؤالًا ثانيًا حين يهرب الضيف من الأول.

كلما عادوا إلى العمارة، ترك كل واحد جمهوره عند الباب. لكن آثاره دخلت معهم.

صار زين يتحدث عن المنافسة على الدرجات. وسامر عن معرض يريد الاشتراك فيه. وسالي عن لقاءات ومقالات وأسماء

كتاب. لم يعد أي منهم يعرف تفاصيل يوم الآخرين كلها، فبدأوا يختارون ما يحكونه، وما يختار الإنسان حذفه قد يكون أحيانًا أكثر مما يختار قوله.

• • •

أعلن المركز الثقافي عن أمسية بعنوان «أصوات شابة من مصر الجديدة». ستتضمن مجلة صغيرة يكتبها الطلاب، ومعرضًا للرسوم، وفقرة حوار على المسرح.

اختيرت سالي لتنسيق المجلة وتقديم الفقرة. اختير سامر لتصميم الغلاف وعرض ثلاث لوحات. أما زين فدعته سالي لكتابة مقال مبسط عن القلب، لأن المشرف يريد موضوعًا علميًا.

قال: «عندي امتحان فيزياء الأسبوع الجاي.»

ـ المقال صفحة واحدة.

ـ الصفحة عايزة مراجع.

قال سامر: «اكتب لهم إن القلب مضخة وخلاص.»

نظر زين إليه. «عشان كده إنت مش بتكتب علم.»

قالت سالي: «مش لازم تعملها لو مش فاضي.»

كانت نبرتها عادية أكثر مما ينبغي.

قال: «هعملها.»

قضى مساءين في المقال. كتب عن النبض، والدورة الدموية، وكيف يتغير معدل القلب مع الخوف والجهد. حذف الكلمات الصعبة، وأضاف رسمًا بسيطًا. حين أعطاه لسالي، قرأته أمامه.

قالت: «حلو.»

انتظر.

أضافت: «بجد. واضح ومش ناشف.»

ضحك. «اتعلمت.»

قال سامر وهو يرسم الغلاف: «سجلوا التاريخ.»

جاء الغلاف على هيئة ثلاثة خطوط تتقاطع في منتصف الصفحة: خط يشبه موجة صوت، وخط يشبه نبض القلب، وخط يتحول إلى يد تمسك قلمًا. كتبت سالي أسماءهم في صفحة المحتويات.

رأى زين اسمه إلى جوار اسميهما، وشعر أن المجلة أعادت ترتيبهم في مكان واحد.

• • •

كان موعد الأمسية مساء الخميس.

وعد زين أن يصل قبل السادسة ليساعد في ترتيب المقاعد. لكنه فوجئ بمدرس الفيزياء يعلن اختبارًا إضافيًا في درس خاص يبدأ الخامسة.

قال زين لكمال إنه يستطيع الغياب هذه المرة.

نظر إليه والده. «إنت داخل علمي وعايز طب. المدرس ده ناس كتير مستنية مكان عنده.»

ـ عندي حاجة في المركز.

ـ إيه أهم: امتحان فيزياء ولا مجلة نشاط؟

لم يجب.

قال كمال بنبرة لا تحتمل نقاشًا: «روح الامتحان، وبعده الحق أصحابك.»

كان يستطيع أن يقول إنهم لا يحتاجون حضوره بعد انتهاء كل شيء. لكنه رأى الفخر في وجه أبيه كلما تحدث عن الطب، وشعر أن الاعتراض خيانة لطريق اختاره بنفسه.

ذهب إلى الامتحان.

انتهى متأخرًا. ركض من موقف الحافلات إلى المركز، ووصل عند السابعة والنصف.

كانت القاعة ممتلئة. وقف عند الباب الخلفي. فوق المسرح، كانت سالي تجلس إلى جوار كاتب محلي، تسأله عن أول مقال نشره. لم تكن تنظر إلى الأوراق. تستمع، ثم تلتقط من إجابته سؤالًا جديدًا.

على الجدار خلفها، علق غلاف سامر مكبرًا. وفي جانب القاعة، وقف سامر قرب لوحاته، يشرح لإحدى السيدات لماذا رسم وجهًا بلا فم.

لم يلاحظ أي منهما وصوله.

جلس في آخر مقعد.

حين انتهى الحوار، صعد سامر إلى المسرح ليقدموا له شهادة مشاركة. نادته سالي باسمه كاملًا، ثم قالت إن المجلة لم تكن لتخرج من دون رسومه. صافحها أمام الجمهور، ووقفا لحظة تحت ضوء واحد.

صفق زين، لكنه شعر أنه يصفق لصورة اكتملت من دونه.

بعد انتهاء الأمسية، وجدته سالي قرب باب القاعة.

قالت: «إنت جيت إمتى؟»

ـ من شوية.

ـ ما شفتكش.

ـ كنت ورا.

قال سامر وهو يحمل اللوحات: «افتكرناك مش جاي.»

ـ كان عندي امتحان.

سألته سالي: «عملت إيه؟»

ـ كويس.

قالت: «خلاص، أهم حاجة.»

لم تعجبه الجملة. بدت كأنها تعيد إليه الاختيار الذي صنعه، وتتركه معه.

قال: «المجلة طلعت حلوة.»

ـ مقالك عجب الناس.

ـ كويس.

نظر سامر من أحدهما إلى الآخر. قال: «تعالوا نشيل الحاجات بدل الكلام العظيم ده.»

• • •

في الخارج، التقط المصور صورة للمشاركين.

وقفت سالي في الصف الأمامي، وسامر خلفها يحمل إحدى لوحاته. وصل زين متأخرًا إلى التجمع، فلم يجد مكانًا إلا عند الطرف. هذه المرة لم يبعده تعليق أحد، ولم يطلب منه مصور أن يقف هناك. كان المكان المتبقي ببساطة.

بعد الصورة، سلم فؤاد على كمال وقال إن ابنته كانت واثقة فوق المسرح. أثنى كمال على رسومات سامر، ثم أشار إلى المقال وقال للناس إن زين كتبه رغم امتحاناته.

كانت الأسر فخورة بالجميع. وحده زين شعر أن الثناء لا يعيد الساعتين اللتين غاب فيهما.

في السيارة، جلست سالي بين ليلى ونادية في الخلف. جلس سامر وزين مع كمال في السيارة الأخرى.

ظل سامر صامتًا حتى تحركوا.

ثم سأل: «إنت متضايق ليه؟»

ـ مش متضايق.

ـ سالي عندها حق. دي طريقتك لما تبقى متضايق.

ـ قلت لك مش متضايق.

نظر سامر من النافذة. بعد لحظة قال: «إنت كنت عايزها تستناك؟»

التفت زين. «تستنى إيه؟»

ـ تبدأ الأمسية. أو ما تفرحش عشان إنت مش موجود. مش عارف.

ـ أنا ما قلتش كده.

ـ ما هو ده الموضوع. إنت عمرك ما بتقول.

قال كمال من المقعد الأمامي: «في حاجة يا ولاد؟»

أجابا معًا: «لأ.»

انتظر سامر حتى صعدا إلى العمارة. عند الدرجة الأولى، أمسك ذراع زين.

قال بهدوء: «إنت بتحبها؟»

كان السؤال مباشرًا إلى درجة أن زين ضحك.

ـ إيه الكلام ده؟

ـ سؤال.

ـ دي سالي.

ـ عارف اسمها.

ـ إحنا اتربينا مع بعض.

ـ برضه مش إجابة.

تحرك زين إلى أعلى. «إنت اتجننت.»

لحق به سامر. «أنا مش بقول إن في حاجة غلط.»

ـ عشان مفيش حاجة أصلًا.

توقف سامر عند الطابق الثاني. كان باب شقة فؤاد مفتوحًا، ويأتي منه صوت سالي وهي تحكي لريم عن اللقاء.

قال سامر: «خلاص.»

لكن وجهه قال إنه لم يقتنع.

دخل زين شقته. في غرفته، وجد نسخة المجلة فوق المكتب. فتحتها نادية عند مقاله، ووضعت علامة صغيرة بجوار اسمه.

قلب الصفحات حتى وصل إلى الغلاف. تتقاطع الخطوط الثلاثة، لكن خطين منها يبدوان أقرب في المنتصف، لأن سامر رسمهما بيده وسالي اختارت مكان العنوان.

أغلق المجلة.

لم يكن يعرف إن كان يحبها. كان يعرف فقط أنه يريد أن يكون أول من تخبره، وأن يهمها غيابه، وأن يظل مكانه إلى جوارها محفوظًا حتى عندما لا يصل.

وبدا له ذلك أقل من الحب، مع أنه كان يطلب من الحياة أكثر مما يطلبه الحب أحيانًا.

• • •

في الأسبوع التالي، اتصلت سالي لتسأل عن صورة الأمسية.

رد زين.

قالت: «المصور بعتها للمركز. هنروح ناخد نسخ الخميس.»

ـ ماشي.

ـ هتيجي؟

ـ عندي درس.

سكتت قليلًا. «كل خميس عندك درس دلوقتي؟»

ـ تقريبًا.

ـ خلاص. أنا وسامر نجيبها لك.

أراد أن يقول إنه سيغير الموعد. لكنه سمع كمال يسأل من الصالة عن المتصل، فقال: «تمام.»

حين أغلق، ظل ممسكًا بالسماعة حتى ناداه كمال مرة أخرى. أعادها إلى مكانها، وبقي واقفًا إلى جوار الهاتف.

الفصل الرابع عشر

المقعد الثالث

في ربيع العام التالي، دُعي طلاب المركز الثقافي إلى مسابقة على مستوى القاهرة.

ستقام الفعاليات في مبنى كبير بوسط المدينة، وتشمل الصحافة والرسم والعلوم. رشحت سالي للتحقيق الصحفي، وسامر للرسم الحي، وزين لعرض نموذج علمي عن كهرباء القلب.

قال سامر حين قرأ الأسماء: «أخيرًا حاجة تجمعنا من غير ما نخترعها.»

قالت سالي: «ومن غير ما حد يقول عنده امتحان.»

نظرت إلى زين مبتسمة. ابتسم هو أيضًا، لكنه فهم الرسالة.

كان موعد الانطلاق السادسة والنصف صباحًا من أمام المركز. وصلت سالي أولًا، تحمل ملفًا وقارورة ماء. وصل سامر بعدها بدقائق، وعلق لوح الرسم فوق كتفه. أما زين فوصل مع كمال قبل تحرك الحافلة بلحظات، لأن نموذج القلب رفض العمل في الصباح واضطر إلى إعادة توصيل سلك.

صعد الثلاثة.

كانت المقاعد مزدوجة.

جلست سالي قرب النافذة، ووضع سامر لوحه في المقعد المجاور حتى لا ينكسر. وقف زين في الممر يحمل الصندوق الذي بدا أكبر من المساحة المتبقية.

قالت سالي: «حط النموذج فوق، واقعد هنا.»

قال سامر: «اللوح هيتني.»

أشار المشرف إلى مقعد فارغ خلفهما. «يا زين اقعد هنا عشان نتحرك.»

جلس وحده في المقعد الثالث، خلف رأسيهما مباشرة.

قال سامر وهو يحاول أن يلتفت: «هنبدل بعد شوية.»

قال زين: «عادي.»

تحركت الحافلة.

في البداية، ظلت سالي تلتفت لتشركه في الحديث. سألته عن النموذج، وناولته قطعة حلوى، وأخبرته بموضوع التحقيق الذي

ستكتبه عن أحلام الشباب. لكنه كان يجيب من خلف المقعد، بينما يرى سامر وجهها كاملًا كلما تحدثت.

بعد نصف ساعة، بدأ الطريق يزدحم. فتح سامر كراسته وأراها أفكارًا للرسم. مالت نحوه حتى لا يسمع الآخرون تعليقاتها. تحول الحديث إلى أسماء وأشكال لم يرها زين.

أخرج كتاب الأحياء من حقيبته، وقرأ الصفحة نفسها ثلاث مرات.

لم يكن المقعد الثالث بعيدًا. لو مد يده لوصل إلى حافة مقعدهما. لكن القرب الجسدي لا يمنع أن يصبح الإنسان خارج الحديث.

• • •

قسم المنظمون المشاركين بين ثلاث قاعات.

ذهب زين إلى قاعة العلوم، وسامر إلى ساحة الرسم، وسالي إلى ورشة الصحافة. اتفقوا أن يلتقوا عند الواحدة أمام الساعة الكبيرة في المدخل.

عمل زين طوال الصباح. ثبت الأقطاب فوق نموذج مطاطي، ووصلها بجهاز صغير يرسم خطًا متحركًا. شرح للجنة كيف تنتقل الإشارة الكهربائية في القلب، وكيف يمكن لاضطراب صغير أن يغير انتظام النبض كله.

سأله أحد المحكمين: «إيه اللي خلاك تختار القلب؟»

أجاب الإجابة التي يعرفها: لأنه عضلة تعمل بلا توقف، ولأن إصلاحها يجمع بين العلم والدقة والمسؤولية.

ثم خطر له سبب آخر لم يقله: لأنه يريد أن يفهم لماذا يعرف الإنسان أحيانًا كل شيء عن عضو، ولا يعرف شيئًا عما يحدث داخله.

انتهى العرض قبل الواحدة بعشر دقائق. حمل نموذجه وذهب إلى الساعة.

انتظر.

مرت الواحدة. ثم عشر دقائق.

جاءت سالي مسرعة، تحمل أوراقًا كثيرة. قالت: «آسفة. المقابلة طولت.»

سأل: «سامر فين؟»

ـ لسه بيرسم. تعال نشوفه.

ذهبا إلى الساحة الخارجية. وقف عدد من الناس حول الرسامين. كان سامر جالسًا أمام لوحة كبيرة، يرسم وجوهًا كثيرة داخل حافلة. في الصف الأول امرأة تحمل طفلًا، وفي الخلف رجل ينام، وعند النافذة فتاة تنظر إلى الخارج. أما المقعد خلفها فكان فارغًا، فوقه كتاب مفتوح.

همست سالي: «ده إحنا؟»

قال زين: «فين؟»

أشارت إلى الفتاة وإلى المقعد الفارغ. «مش عارفة. حسيت.»

انتهى سامر، ورفع اللوحة. صفق الواقفون.

حين رآهما، ابتسم. «اتأخرت؟»

قال زين: «ربع ساعة.»

قالت سالي: «الرسم يستاهل.»

نظر سامر إلى زين. «عرضك عمل إيه؟»

ـ كويس.

ـ بس؟

ـ اللجنة سألت كتير.

مد سامر يده وضرب كتفه. «يبقى عجبهم.»

كان صادقًا في فرحته له. وهذا جعل الغيرة أكثر صعوبة؛ لأن كراهية منافس كريم أصعب من كراهية شخص سيئ.

• • •

في ورشة الصحافة، أجرت سالي خمس مقابلات مع طلاب من مدارس مختلفة. سألتهم ماذا يريدون أن يصبحوا، وماذا يريد أهلهم لهم، وما الفرق بين الاثنين.

حين قابلت سامر، سجلت إجابته في دفترها.

قال: «عايز أرسم مباني الناس تحب تعيش فيها، مش بس تبقى شكلها حلو.»

ـ يعني عمارة؟

ـ يمكن عمارة، ويمكن رسم. نفسي ما اضطرش أختار بينهم عشان أرضي حد.

سألته: «مين الحد؟»

نظر إلى جهاز التسجيل. «السؤال ده مش للنشر.»

أوقفت الجهاز. قال إن والده يريد له الهندسة، وإنه لا يكرهها، لكنه يخاف أن تتحول العمارة إلى حجة تمنعه من الرسم. استمعت سالي من غير أن تقدم حلًا.

قال: «إنتِ بتعرفي تسمعي.»

أجابت: «عشان بحب الناس تحكي.»

ـ وزين؟

ـ ماله؟

ـ بيعرف يحكي لك؟

نظرت إلى الساحة حيث كان يشرح نموذج القلب لطفل صغير.

قالت: «زين بيحكي لما يشرح حاجة. إنما هو نفسه... قليل.»

ـ يمكن ما يعرفش.

ـ أو يمكن فاكر إن اللي يعرفه من زمان لازم يفهم من غير ما يقول.

عاد سامر إلى لوحته، وبقيت الجملة معه.

• • •

ظهرت النتائج في نهاية اليوم.

حصل زين على المركز الثاني في العلوم. فازت سالي بالمركز الأول في التحقيق الصحفي. ونال سامر جائزة خاصة من لجنة الفنون لأن لوحته «تحكي قصة من غير شرح».

وقفوا معًا يحملون الشهادات.

قال زين لسالي: «مبروك.»

قالت: «من غير بالتوفيق؟»

ضحك. «اتطورت.»

قال سامر: «وأنا؟»

ـ مبروك يا فنان.

ـ مقبولة.

التقط المشرف صورة لهم. هذه المرة وقف زين في المنتصف، وسالي إلى يمينه، وسامر إلى يساره. وضع كل واحد ذراعه خلف الآخر. بدوا متساوين في الصورة، لا أحد أقرب، ولا مقعد يفصل بينهم.

لكن الصور لا تعرف ما قيل خارج إطارها.

• • •

في رحلة العودة، وجدوا المقاعد نفسها.

أزال سامر لوحه من المقعد وقال لزين: «اقعد جنب سالي. أنا هنام ورا.»

قال زين: «ما تفرقش.»

ـ بتفرق، عشان إنت قريت الكتاب كله في السكة الصبح وما قلبتش صفحة.

نظرت سالي إلى زين. عرف أنها لاحظت أيضًا.

قال: «اقعد إنت. كنتوا بتتكلموا في التحقيق.»

سأل سامر: «إنت عايز تقعد ولا لأ؟»

انزعج زين من تحويل الأمر إلى سؤال علني. قال: «لأ.»

جلس سامر إلى جوار سالي، وجلس زين خلفهما مرة أخرى.

بعد دقائق، نام معظم الطلاب. انخفضت أضواء الحافلة. كانت سالي تقلب أوراق التحقيق، وسامر يراجع الرسم. دار بينهما حديث منخفض لا يسمعه زين كاملًا.

أغمض عينيه. لم ينم.

في منتصف الطريق، مالت رأس سالي إلى الزجاج. أخذ سامر سترته ووضعها بين رأسها والنافذة حتى لا تصطدم مع اهتزاز الحافلة. فعل ذلك بهدوء، من غير أن يوقظها أو ينظر حوله ليرى من لاحظ.

رأى زين.

كانت حركة صغيرة، لا تحمل اعترافًا ولا وعدًا. لكنه عرف أنه لو جلس إلى جوارها لفعل الشيء نفسه. وربما كان الفرق أن سامر فعل، بينما ظل هو يفكر فيما كان سيفعله.

• • •

وصلوا إلى مصر الجديدة بعد التاسعة مساء.

كان كمال وفؤاد ينتظران أمام المركز. تبادلا الشهادات، وقرأ كل أب اسم ابنه أو ابنته أكثر من مرة. قالت نادية حين عادوا إلى العمارة إنها ستعد عشاءً سريعًا للجميع.

جلسوا حول المائدة في شقة زين. حكت سالي عن المقابلات. شرح سامر لوحته. طلب كمال من زين أن يعرض النموذج مرة أخرى، فاعتذر لأن البطارية فرغت.

قال فؤاد لسامر: «الجائزة دي تنفع في ملف كلية الهندسة.»

أجاب سامر: «هي جائزة رسم.»

ـ الرسم مهم للعمارة.

قالت سالي: «ومهم لو دخل فنون جميلة.»

نظر فؤاد إليها، ثم ضحك كأنه يسمع اقتراحًا طفوليًا. «خليه يخلص ثانوي وبعدين نشوف.»

خفض سامر رأسه إلى الطبق.

رأى زين ضيقه. كان يستطيع أن يغير الموضوع، لكنه قال: «الهندسة أضمن.»

رفع سامر عينيه إليه.

ـ أضمن لمين؟

ـ للشغل.

ـ إنت بقيت نسخة من أبويا؟

تدخلت نادية: «كل واحد يختار اللي يناسبه لما ييجي الوقت.»

قال سامر: «الوقت عمره ما بييجي. كل مرة يقولوا بعدين.»

قام من المائدة، وشكر نادية، وخرج.

قال فؤاد إنه حساس زيادة، ثم أكمل الطعام. أما سالي فوضعت الملعقة وقالت لزين: «كان لازم تقف معاه.»

ـ أنا قلت رأيي.

ـ رأيك جه في أسوأ وقت.

ـ يعني أقول كلام مش مقتنع بيه؟

قالت: «لا. بس مش لازم كل حقيقة تعرفها تقولها وقت ما الناس تكون موجوعة.»

دخلت ليلى لتساعد نادية، ولم تسمع الجملة. سكت زين.

كان قد تعلم من قصة النافذتين أن كل شيء لا يحتاج إلى حل. لكنه لم يتعلم بعد أن صحة الرأي لا تعفي صاحبه من مسؤولية توقيته.

• • •

في اليوم التالي، ذهب إلى بيت سامر.

فتح له والده وقال إن سامر على السطح. صعد، فوجده جالسًا قرب خزانات المياه، يرسم فوق ركبته.

قال زين: «أنا آسف.»

لم يرفع سامر رأسه. «على إيه؟»

ـ اللي قلته امبارح.

ـ إنت شايف الهندسة أضمن.

ـ آه. بس مش معنى كده إنها أنسب لك.

توقف القلم.

جلس زين إلى جواره. «أنا ساعات بقول الحاجة كأنها الوحيدة الصح.»

قال سامر: «عشان بتخاف من الحاجات اللي ملهاش إجابة واحدة.»

ـ يمكن.

ظل سامر صامتًا، ثم ناوله الكراسة. «شوف.»

كانت صفحة فيها رسم لسالي وهي نائمة في الحافلة، رأسها إلى النافذة، وخلفها انعكاس أضواء الشارع. لم يرسم السترة، ولم يرسم نفسه. رسم فقط وجهها الهادئ ويدها فوق ملف التحقيق.

تجمد زين.

سأل: «رسمتها إمتى؟»

ـ في السكة. من الذاكرة لما رجعنا.

ـ ليه؟

رفع سامر كتفيه. «حبيت الصورة.»

أعاد زين الكراسة. ظل السؤال الذي طرحه سامر عند السلم قبل أشهر حاضرًا بينهما.

قال: «إنت بتحبها؟»

ابتسم سامر ابتسامة قصيرة بلا فرح. «دلوقتي بقي السؤال ينفع؟»

ـ جاوب.

نظر إلى الرسم. «مش عارف.»

ـ إزاي مش عارف؟

ـ عادي. إنت ما عرفتش لما سألتك.

قال زين: «أنا وسالي مختلفين.»

ـ عشان عرفتوا بعض الأول؟

ـ عشان... عشان هي سالي.

ضحك سامر بهدوء. «لسه نفس الإجابة.»

سكتا. من أسفل السطح جاء صوت سالي تناديهما. كانت قد صعدت إلى شقة سامر ثم عرفت أنهما فوق.

قال سامر قبل أن تظهر: «أنا ما عملتش حاجة وراك.»

رد زين: «أنا ما قلتش إنك عملت.»

ـ بس عينيك قالت.

ـ وإنت ناوي تعمل إيه؟

فكر سامر. «مش عارف. أنا بس لما تغيب بحس اليوم ناقص. ولما تفرح بحاجة بحب أبقى أول واحد يشوفها. ولما تزعل... بعرف قبل ما تقول.»

وصلت سالي إلى آخر درجة. توقف الاثنان عن الكلام.

قالت: «إنتوا مستخبيين ليه؟»

أغلق سامر الكراسة. «بنتكلم.»

نظرت إلى زين. «اتصالحتم؟»

قال: «آه.»

جلست بينهما. أخرجت الصور التي استلمتها من المركز. أعطت كل واحد نسخة من الصورة التي يقفون فيها متجاورين.

قالت: «دي أحسن صورة لينا من زمان.»

نظر زين إلى النسخة. في الصورة، يقف في المنتصف. في الحقيقة، لم يعد يعرف أين مكانه.

قالت سالي: «إيه رأيكم نكتب التاريخ وراها ونحطها مع الحاجات القديمة؟»

وافق سامر. لم يجب زين فورًا.

سألته: «مالك؟»

قال: «ولا حاجة.»

تبادل سامر وسالي نظرة سريعة. كانت نظرة شخصين يعرفان أن الجملة تعني عكسها.

أخذت سالي قلمًا وكتبت خلف الصورة: «ربيع 1993 — كنا ثلاثة، وفاز كل واحد بشيء.»

ثم أعطتها لزين ليكمل. ظل القلم في يده.

كان يستطيع أن يكتب ما لم يكتبه في دفاتر الذكريات، وما لم يقله في الهاتف، وما لم يسمح له الخوف من ضحك الآخرين أن يعترف به. لكنه كان يعرف الآن أن الكلمات لن تسقط في فراغ؛ هناك قلب آخر قريب منها، وصديق يستطيع أن يسمي ما يشعر به.

كتب فقط أسماءهم بالترتيب: «سالي — زين — سامر».

قال سامر: «ليه حطيت نفسك في النص؟»

قالها ضاحكًا، لكن زين رفع رأسه بسرعة.

ضحكت سالي أيضًا. «عشان هو واقف في النص في الصورة.»

طوتها ووضعتها داخل الملف.

حين نزلوا، مشى سامر إلى جوار سالي، ومشى زين خلفهما بدرجة واحدة. لم يكن أحد قد أخذ منه مكانًا، ولم يكن لأي منهم حق في مكان الآخر. ومع ذلك، شعر أن السلم الذي جمعهم منذ

الطفولة صار ضيقًا مرة أخرى، لا لأن أجسادهم كبرت هذه المرة، بل لأن شيئًا رابعًا صعد معهم.

لم يكن حبًا مكتملًا، ولا خيانة، ولا اختيارًا.

كان مجرد معرفة جديدة: أن الصديق الذي وثق به أكثر من الجميع يمكن أن ينظر إلى الفتاة نفسها بالطريقة التي يخشى هو أن يعترف بها.

وعند باب شقته، سمع سالي تضحك على شيء قاله سامر في الطابق الأسفل. وضع يده على المقبض، وبقي لحظة لا يدخل.

لأول مرة، لم يكن يخاف أن يفقدها بسبب سفر أو مدرسة أو طريق ينقسم.

كان يخاف أن تظل قريبة، وأن تختار بنفسها أن تقف إلى جوار شخص آخر.

دخل غرفته وأغلق الباب بهدوء. أخرج من الرف كتاب العلوم القديم الذي انتقلت إليه أوراق كثيرة لا علاقة لها بالعلوم. وجد بين صفحاته القائمة التي كتبها ليلة انقطاع الكهرباء منذ سنوات:

«أشياء أريد أن تبقى». تحتها باب العمارة، والجميزة، وسالي، وسامر.

بهت الحبر، وبقي فراغ صغير أسفل الأسماء. وضع القلم فوقه وكتب: «مكاني بينهم».

تأمل العبارة. لم تكن شيئًا يمكن أن يبقى بقرار منه. المكان بين الناس ليس مقعدًا يحمل اسمه، ولا ملكية يحتفظ بعقدها. قد يمنحه الآخرون بمحبتهم، وقد يضيعه هو بصمته، وقد يتغير من غير أن يكون أحد مخطئًا.

شطب الجملة بخط واحد، ثم ندم لأن الشطب لم يخفها. طوى الورقة وأعادها إلى الكتاب.

رن الهاتف في الصالة. سمع نادية ترد، ثم تناديه.

رفع السماعة. كان سامر.

قال: «نسيت كراسة الرسم فوق السطح. لو طلعت بكرة بدري خدها معاك عشان أبويا ما يشوفهاش.»

سأله زين: «ليه؟»

ـ فيها رسومات هيقول عليها تضييع وقت.

نظر زين إلى السقف، حيث ترك صديقه الكراسة التي تحتوي صورة سالي.

قال: «حاضر.»

سكت سامر لحظة، ثم أضاف: «ويا زين... أنا مش عايز أخسرك.»

شد زين السلك حول إصبعه. كان يستطيع أن يجيبه بالجملة نفسها. قال بدلًا منها: «ولا أنا.»

أغلق الهاتف، وبقي واقفًا أمامه.

لم يكن سامر خصمًا دخل حياتهم من الخارج. كان الصديق الذي أعطاه نافذة حين رسم بيته خاليًا، وانتظره في المطر، وفرح بنجاحه من غير حساب. وهذا بالتحديد ما جعل الخوف مؤلمًا: لا يستطيع أن ينتصر عليه من دون أن يخسر شيئًا آخر يحبه.

في الصباح، صعد زين قبل الجميع وأخذ الكراسة من السطح. لم يفتحها. وضعها داخل حقيبة سامر عند باب شقته، ثم نزل.

كان ذلك أول اختيار حقيقي يفعله منذ عرف بما يشعر به صديقه: أن يحمي سره، مع أن السر نفسه قد يأخذ منه يومًا ما كان يتمنى أن يبقى له.

في مساء الجمعة، وضعت سالي صورة المسابقة في ألبوم جديد، وكتبت تحتها ثلاثة أسطر: «بعد خمس سنين».

كتب زين: «كلية الطب». وكتب سامر: «مكان يسمح لي أن أرسم من غير اعتذار». أما سالي فكتبت: «كلية الإعلام، وصوتي لا يكون ملكًا لأحد».

سألها زين: «يعني إيه؟»

قالت: «يعني ما حدش يقرر لي أقول إيه أو أسكت إمتى.»

قال سامر: «حتى إحنا؟»

نظرت إليهما. «حتى إنتوا.»

أغلقت الألبوم ووضعته إلى جوار الصندوق الأزرق وشريط التسجيل. امتلأت الخزانة بأدلة على أنهم كانوا معًا، لكنها لم تحمل وعدًا بأن يظل المستقبل بالشكل نفسه.

حين خرجوا، سبق سامر إلى الشارع. بقي زين وسالي عند المدخل.

سألته: «إنت زعلان من سامر؟»

ـ لأ.

ـ ومني؟

كان يستطيع أن يقول إنه خائف، لكنه لا يعرف ممَّ. قال: «ليه أزعل منك؟»

ظهر سامر عند الناصية يحمل ثلاث زجاجات. خرجت سالي إليه، ولحق بها زين.

جلسوا تحت الجميزة، يشربون ويتجادلون في مباراة لم يشاهدها أي منهم كاملة. كانت سالي في المنتصف، بينما ظل زين يدير غطاء الزجاجة بين إصبعيه حتى انبعج المعدن.

الفصل الخامس عشر

حين دخلت الغيرة البيت

في الأسبوع التالي، لم يحدث شيء يصلح لأن يسمى حادثة. لم يرفع أحد صوته، ولم يغلق بابًا بعنف، ولم يقل سامر لسالي كلمة جديدة. ومع ذلك، دخل التغير إلى العمارة كما يدخل الغبار من نافذة لا ينتبه أحد إلى أنها مفتوحة: طبقة خفيفة أول الأمر، ثم أثر واضح فوق كل شيء.

كان مساء الخميس موعد العشاء في بيت فؤاد. اعتادت الأسرتان أن تتبادلا المائدة منذ سنوات، حتى صار السؤال عن صاحب الدعوة مجرد تفصيل تنظيمي. دخل زين فوجد سامر جالسًا إلى جوار سالي أمام الطاولة الصغيرة في الصالة، وبينهما أوراق ملونة ومقص وشريط لاصق.

قال سامر من غير أن يرفع رأسه: «تعالى شوف الشعار قبل ما نثبته.»

اقترب زين. كانت سالي قد كتبت عنوان الندوة بخط عريض، ورسم سامر حوله نافذة مفتوحة يخرج منها شريط يشبه موجة صوت.

قالت سالي: «المدرسة وافقت نعمل يوم عن الإعلام وتأثيره. أنا هقدم الحوار، وسامر مسؤول عن الديكور.»

سأل زين: «وأنا؟»

رفعت عينيها إليه. «إنت قلت عندك مراجعة كيمياء.»

ـ سألت بس.

قال سامر: «محتاجين حد يظبط الجزء العلمي في فقرة الإعلانات والأدوية. لو عندك وقت.»

أجاب زين أسرع مما ينبغي: «ما عنديش.»

عاد إلى مقعده قرب النافذة. لم يكن يكذب. أمامه امتحان تجريبي بعد أيام، وكمال لا يتوقف عن تذكيره بأن كلية الطب لا تقبل الأمنيات بل الدرجات. لكنه لم يحتمل أن يبدو وجوده زائدًا عن حاجة مشروع جمع سالي وسامر وحدهما.

دخل فؤاد يحمل أكواب الشاي، وقال وهو يرى الأوراق: «أهو ده الكلام. الواحد يبقى عنده نشاط بدل القعدة في الكتب طول اليوم.»

نظر إلى زين وأضاف ممازحًا: «إلا الدكتور طبعًا. ده لو خرج من الكتاب ممكن يضيع منه مريض في المستقبل.»

ضحك الجميع. ابتسم زين ابتسامة صغيرة، ثم مد يده إلى كتاب كان قد أحضره معه وفتحه فوق ركبته.

قالت سالي: «إحنا لسه ما كلناش.»

ـ براجع صفحة.

ـ الصفحة مش هتهرب.

أجاب من غير أن ينظر إليها: «ولا الامتحان هيستنى.»

سكتت. أكملت لصق الورق مع سامر، لكن ضحكهما صار أخفض. لم يشعر زين بالراحة؛ شعر فقط أن الصمت الذي صنعه أثقل من الضحك الذي أراد إيقافه.

حين وضعت ليلى الطعام، تغيرت أماكن الجلوس تلقائيًا. جلس فؤاد في رأس المائدة، وإلى جواره كمال. جلست نادية وليلى

متقابلتين. اختار سامر الكرسي القريب من الحائط، فجلست سالي إلى جواره لأن الأوراق كانت هناك. بقي لزين الكرسي المقابل لهما.

لم يكن ترتيبًا مقصودًا، لكنه رآه كأنه إعلان.

دار الحديث عن الامتحانات، ثم عن سفر محتمل لفؤاد إلى موقع عمل في الصحراء الغربية. قال فؤاد إنه سيغيب أسبوعين فقط، فاحتجت سالي لأن موعد الندوة يقع في منتصف السفر.

قال سامر: «هنصورها لك يا عمو.»

رد فؤاد: «وأنت بقيت المصور كمان؟»

ـ عندنا كاميرا المدرسة.

قالت سالي: «هو اللي اقترح نوثق اليوم كله.»

نظر زين إلى طبقه. كان يستطيع أن يسأل عن موعد الندوة أو أن يعرض إحضار كاميرا كمال، لكنه وجد نفسه يقول: «المهم ما تتحولش الحكاية لعب وتنسوا الدراسة.»

توقفت سالي عن الأكل.

قالت ليلى: «دي ساعتين يا زين، مش رحلة شهر.»

وأضافت نادية في محاولة لتخفيف النبرة: «والنشاط برضه جزء من المدرسة.»

قال سامر: «إحنا مخلصين اللي علينا.»

رفع زين عينيه إليه. «أنا ما كلمتكش.»

ساد صمت قصير.

قال سامر بهدوء: «بس أنا جزء من الحكاية اللي بتتكلم عنها.»

مد كمال يده إلى طبق السلطة وكأنه لم يسمع. أما فؤاد فقال: «يا جماعة، الأكل يبرد وإحنا عاملين مؤتمر.»

عادت الملاعق إلى الحركة، لكن شيئًا من الألفة غادر المائدة.

بعد العشاء، دخلت نادية وليلى المطبخ. بقي الرجال في الصالة أمام مباراة قديمة، بينما جمعت سالي الأوراق وطلبت من سامر أن يحمل اللوحة حتى لا تنثني.

وقف زين عند باب الشرفة.

قالت له سالي: «تعالى دقيقة.»

خرج وراءها. كانت أصوات الشارع تصعد خافتة، ومصباح العمارة المقابلة ينعكس فوق زجاج النافذة.

سألته: «إنت مضايق من إيه؟»

ـ مش مضايق.

ـ يبقى أسلوبك ده اسمه إيه؟

ـ أنا قلت إن الدراسة أهم.

ـ لا. إنت قلتها كأننا بنضيع وقتنا، مع إنك من أسبوع كنت فرحان إننا كسبنا المسابقة.

ـ المسابقة خلصت.

ـ وإحنا نوقف نعمل أي حاجة بعدها؟

قال: «اعملي اللي إنت عايزاه.»

ابتسمت بسخرية. «الجملة دي بتقولها لما تكون عايزني أعمل العكس.»

التفت إلى الشارع. «إنت فاهمة كل حاجة بزيادة.»

ـ وإنت بقيت ما تقولش حاجة خالص، وبعدين تزعل إننا ما فهمناكش.

قال بعد تردد: «كل وقتك بقى مع سامر.»

خرجت الجملة أخيرًا، أصغر من الخوف الذي حملها وأوضح مما كان يريد.

نظرت إليه سالي طويلًا. «هو ده الموضوع؟»

ـ أنا بس بقول.

ـ بتقول إيه؟

ـ إنكم طول الوقت سوا.

ـ لأننا بنعمل حاجة سوا. وإنت كل مرة بنطلب منك تيجي تقول عندي مذاكرة.

ـ يعني عشان بذاكر أبقى برا كل حاجة؟

ـ إنت اللي بتقف برا، وبعدين تبص لنا كأننا قفلنا الباب.

سمعا صوت سامر ينادي من الصالة أنه سيغادر. تحركت سالي نحو الباب، ثم توقفت.

قالت: «على فكرة، أنا مش جدول في يومك. ما ينفعش تختفي لما تكون مشغول وترجع تراجع أنا كنت مع مين وعملت إيه.»

قال زين: «أنا ما راجعتكيش.»

ـ عملت أسوأ. حكمت من غير ما تسأل.

دخلت. بقي وحده في الشرفة حتى جاءت نادية تبحث عنه.

قالت: «الجو برد.»

ـ مش بردان.

وقفت إلى جواره. لم تسأله مباشرة. كانت تعرف أن الأسئلة التي تشبه التحقيق تجعل ابنها يغلق أبوابه.

قالت بعد لحظة: «لما كنت في سنك، كنت فاكرة إن اللي بيحب حد يبقى من حقه يزعل منه زي ما هو عايز.»

نظر إليها. «مين قال إني بحب حد؟»

ابتسمت من غير أن تحاصره. «أنا ما قلتش إنك بتحب. بتكلم بصفة عامة.»

ـ وبعدين؟

ـ بعدين اكتشفت إن المحبة مش تصريح ملكية. لو زعلت لأن حد بعيد، قول إنك مفتقده. ما تعاقبوش عشان ما عرفش يقرأ أفكارك.

قال: «هي ما بقتش بعيدة.»

ـ يمكن المسافة مش دايمًا بالمتر.

عاد إلى الصالة. كان سامر قد رحل، وسالي تساعد ريم في جمع الأطباق. لم تنظر إليه.

في تلك الليلة، ظل مستيقظًا يسمع صوت الكراسي في الشقة أسفلهم. حاول أن يقرأ، فعاد إلى السطر نفسه أربع مرات. أغلق الكتاب وفتح النافذة. رأى نور غرفة سالي. تحرك ظلها خلف الستارة، ثم اختفى.

فكر أن ينزل ويعتذر. تخيل نفسه واقفًا أمام الباب لا يعرف من أي جملة يبدأ. قال لنفسه إن الصباح أفضل، ثم عرف أنه يؤجل لاختفاء شجاعته لا لاختيار الوقت المناسب.

• • •

في يوم الندوة، ذهب زين إلى المدرسة رغم أنه أخبر الجميع أنه لن يستطيع. انتهت مراجعة الكيمياء مبكرًا، ووجد نفسه يسير نحو قاعة النشاط من غير أن يقرر.

كانت القاعة ممتلئة. وقف سامر عند الجانب يثبت آخر صورة، بينما كانت سالي على المنصة تمسك الميكروفون. لم تلاحظ زين في البداية.

تحدثت بثبات عن الفرق بين الخبر والرأي، وعن إعلان دواء يَعِد الناس بما لا يستطيع تقديمه. عرضت مثالًا صغيرًا كتبه زين في ورقة بعد العشاء بيومين، ثم تركه عند باب شقتها من غير اسم ولا اعتذار.

قالت أمام الحضور: «ساعدني في هذا الجزء شخص يعرف أن المعلومة مسؤولية، حتى لو كان أحيانًا ينسى أن الكلمة أيضًا مسؤولية.»

ضحك بعض الطلاب من العبارة التي لم يفهموا مقصدها. أما زين فعرف أنها رأته عند الباب.

بعد انتهاء الندوة، تجمعت الطالبات حول سالي، وجاء المدرسون لتهنئتها. كان سامر يصور اللوحات ثم ناول الكاميرا لأحدهم ووقف إلى جوارها في صورة جماعية.

ظل زين بعيدًا حتى فرغ المكان قليلًا.

رأته سالي، واقتربت. «جيت إمتى؟»

ـ من الأول تقريبًا.

ـ وما دخلتش ليه قدام؟

ـ ملقتش مكان.

قالت وهي تعرف أنه يكذب: «المقاعد الخلفية كانت فاضية.»

أخرج من حقيبته كتاب الكيمياء. «المثال كان محتاج تعديل بسيط في آخر سطر.»

ابتسمت. «طبعًا. دي طريقتك في قول مبروك؟»

سكت، ثم قال: «كنتِ كويسة جدًا.»

ـ كويسة بس؟

ـ ممتازة.

اتسعت ابتسامتها قليلًا. «شكرًا.»

جاء سامر يحمل اللوحة. قال لزين: «أهو الدكتور حضر في الآخر.»

رد زين: «حضرت من الأول.»

ـ ما شفتكش.

قالت سالي: «كان واقف ورا.»

نظر سامر إلى كليهما، وفهم أن شيئًا حدث من دونه. ناول زين طرف اللوحة. «امسك عشان ننزلها المخزن.»

حملها الاثنان، وسارت سالي أمامهما. عند السلم، انزلقت الورقة الملصقة من أحد الجوانب، فتوقفوا لإصلاحها. جلس سامر القرفصاء يمسك الشريط، وجثت سالي إلى جواره. ظل زين واقفًا يحمل الوزن الأكبر.

قال سامر: «نزّلها شوية.»

ـ لو نزلتها هتتكسر.

ـ مش هتتكسر.

قالت سالي: «اسمع كلامه، هو اللي عاملها.»

أنزلها زين، لكنه قال: «واضح إنه بقى يعرف كل حاجة.»

رفع سامر رأسه. لم تكن الجملة مزاحًا.

قالت سالي بسرعة: «خلاص ثبتناها.»

أكملوا الطريق في صمت.

حين خرجوا من المدرسة، كانت نادية تنتظر في السيارة مع ليلى. لوحت لهما من بعيد. جلست سالي في الخلف إلى جوار زين، وجلس سامر عند الطرف الآخر. وضعت اللوحة بينهم، فصارت حاجزًا ورقيًا يقسم المقعد إلى جهتين.

قالت نادية وهي تدير المحرك: «عملتوا إيه؟»

بدأت سالي تحكي. قاطعها سامر ليضيف موقفًا مضحكًا، فضحكت ليلى. شاركهما زين بعد لحظة بتصحيح معلومة صغيرة، ثم وجد نفسه يضحك أيضًا.

لم تختف الغيرة. جلست معه في السيارة، وصعدت معه السلم، ودخلت غرفته. لكنها فقدت للحظات قدرتها على إفساد كل شيء حين قرر أن يكون حاضرًا بدل أن يطالب الآخرين بتعويض غيابه.

في المساء، طرقت سالي بابه وأعطته ورقة الدعوة بعد أن كتب سامر خلفها أسماء المشاركين.

قالت: «هنحطها في الصندوق.»

سأل: «الصندوق الأزرق؟»

ـ آه. بقى فيه حاجات كتير.

نظر إلى اسمه بينهم. «وسامر؟»

ـ اسمه موجود، يبقى من حقه يشوفها بعدين.

قال: «الصندوق كان بتاعنا.»

لم تغضب. بدت فقط متعبة. «كان بتاع حاجاتنا. والحاجات اتغيرت.»

أخذت الورقة وغادرت.

ظل واقفًا أمام الباب المفتوح. كانت الورقة قد اختفت في يدها، وبقي الصندوق في الغرفة خلفها.

الفصل السادس عشر

الرسالة التي وصلت إلى الشخص الخطأ

بدأ زين كتابة الرسالة في حصة اللغة العربية.

كان المدرس يشرح الفرق بين التشبيه والاستعارة، ويكتب أمثلة فوق السبورة، بينما كان زين يفتح الصفحة الأخيرة من كراسة الفيزياء ويضع كفه فوقها كلما اقترب أحد.

كتب أولًا: «سالي».

ظل الاسم وحده في أعلى الورقة. بدا كأنه يكفي، ثم بدا كأنه لا يشرح شيئًا.

شطب السطر وبدأ من جديد.

«أنا لا أعرف متى صار الكلام معك أصعب من الكلام مع أي شخص آخر. ربما لأنك تعرفين النسخة التي كنتها قبل أن أتعلم كيف أخفي ما أشعر به.»

توقف. قرأ الجملة، فشعر أنها تشبه موضوع تعبير لا رسالة. شطب نصفها، ثم كتب تحتها:

«أنا أغار، وهذا يجعلني أتصرف بطريقة لا أحبها. لا أغار لأنني أشك فيك، بل لأنني لا أعرف ما مكاني عندك، ولأنني كنت أظن أنني لن أحتاج يومًا إلى السؤال.»

رن الجرس. أغلق الكراسة بسرعة ووضعها في حقيبته.

عند نهاية اليوم، طلب منه سامر كراسة الفيزياء لنسخ مسألة غاب عنها في درس خاص. أخرج زين كراستين متشابهتين، وناوله إحداهما من غير أن ينتبه.

لم يكتشف الخطأ إلا في المساء.

كان يبحث عن الرسالة ليكملها، فوجد كراسة سامر في حقيبته. جلس فوق السرير، وقلب الصفحات بسرعة. عند الغلاف الداخلي كان اسم سامر مكتوبًا بقلم أسود، وتحت الاسم رسم لعين مفتوحة.

شعر بالبرودة في أطرافه.

هبط الدرجتين دفعة واحدة، ثم خرج إلى الشارع. كان بيت سامر على مسافة عشر دقائق، لكنه قطع الطريق في نصف الوقت تقريبًا.

فتح سامر الباب بنفسه. لم يبدُ متفاجئًا.

قال زين: «الكراسة.»

أشار سامر إلى غرفته. «جوه.»

دخل زين. كانت الكراسة فوق المكتب، مغلقة. أخذها وفتح الصفحة الأخيرة. الرسالة في مكانها.

سأل من غير أن ينظر إليه: «قريتها؟»

جلس سامر على طرف السرير. «ما كانش عليها اسم في الأول.»

ـ اسمها مكتوب أول سطر.

ـ أول صفحة فتحت عند النص. قريت كام كلمة قبل ما أفهم.

ـ كام كلمة؟

ـ كفاية.

أغلق زين الكراسة. «كان ممكن تقفلها من أول جملة.»

ـ قفلتها لما عرفت إنها مش ليا.

ـ وهي ممكن تكون ليك إزاي؟

قال سامر: «ما عرفتش إنها رسالة. افتكرتها حاجة كاتبها لنفسك.»

ظل زين واقفًا. كان الغضب أسهل من الخجل، لذلك تمسك به.

ـ إنت دايمًا بتفتح كراسات الناس من الآخر؟

ـ إنت اللي ادتهالي عشان أنقل منها.

ـ أنقل مسألة، مش تقرأ اللي مش بتاعك.

نهض سامر. «أنا قلت لك إني قريت بالغلط.»

ـ وصدقت نفسك؟

اقترب منه خطوة. «إنت جاي تتخانق ولا تاخد الكراسة؟»

ـ عايز أعرف قريت إيه.

أجاب سامر بعد صمت: «قريت إنك بتغير، وإنك مش عارف مكانك عندها.»

كانت الجملة بصوت سامر أكثر إيلامًا مما كانت فوق الورق.

قال زين: «ولو قلت لها...»

قاطعه سامر: «مش هقول.»

ـ ليه أصدقك؟

ظهر الضيق في وجه سامر. «عشان عمري ما فضحت لك سر.»

ـ بس السر المرة دي يهمك.

فهم سامر المقصود. جلس مرة أخرى، كأنه احتاج إلى مسافة قبل أن يجيب.

قال: «آه، يهمني.»

ـ يبقى؟

ـ يبقى كنت أقدر أخبي الكراسة أو أسيبك ما تعرفش إني قريت. إنما أنا حطيتها قدامك زي ما هي.

فتح زين الصفحة. لم يكن فيها علامة واحدة جديدة. لم تطوَ الحافة، ولم يوضع خط تحت كلمة. لا دليل على أن سامر تجاوز ما اعترف به، ولا دليل على العكس.

قال سامر: «لو إنت كاتب ده بجد، ليه ما تديهالهاش؟»

ـ ما يخصكش.

ـ يخصني لما تبقى بتعاملني كأني سرقت منك حاجة وإنت أصلًا ما قلتش إنك عايزها.

رفع زين رأسه. «سالي مش حاجة.»

ـ كويس إنك فاكر.

ظل الاثنان ينظران إلى بعضهما. كانا يعرفان طريق العودة إلى المزاح والاعتذار؛ سلكاه مئات المرات. هذه المرة وقف شيء في منتصفه.

قال سامر: «أنا مش هقول لها. بس ما تطلبش مني أتصرف كإني مش شايف.»

ـ شايف إيه؟

ـ إنك بتحبها، وإنك كل ما تخاف تقول لها تبعد عنها وتلومها إنها قربت من حد غيرك.

أغلق زين الكراسة بعنف. «وإنت بتقرب عشان تساعدني يعني؟»

لم يجب سامر.

كان الصمت إجابة غير كاملة، وهذا ما جعله أخطر.

خرج زين من البيت والرسالة في حقيبته. عند أول ناصية، توقف تحت مصباح شارع، وأخرج الورقة من الكراسة. قرأها مرة أخيرة، ثم مزقها إلى قطع صغيرة.

حمل الهواء قطعتين، فسقطت واحدة قرب الرصيف والتصقت الأخرى بجذع شجرة. انحنى ليجمعهما. لم يحتمل فكرة أن يقرأ غريب كلمة منها، حتى بعد أن صارت غير مفهومة.

وضع القصاصات في جيبه وعاد إلى البيت.

• • •

في الأيام التالية، لم يتحدث زين وسامر إلا في الضرورة. جلسا في الفصل نفسه، وتبادلا الكتب، وخرجا مع المجموعة نفسها، لكن بين كل جملة وأخرى مسافة محسوبة.

لاحظت سالي.

سألت سامر أولًا، فقال إنهما اختلفا على شيء تافه. سألت زين، فأعطاها الإجابة نفسها. لم تصدق أيًا منهما.

اقترب موعد الحفل السنوي. كانت سالي تقدم فقرة قصيرة عن أنشطة المدرسة، وكان سامر قد صمم الخلفية. وعد زين أن يحضر البروفة الأخيرة بعد درس الأحياء.

انتهى الدرس متأخرًا. حين خرج، وجد كمال ينتظره أمام المركز.

قال: «عندنا معاد مع دكتور شريف.»

سأله زين: «مين دكتور شريف؟»

ـ أستاذ في كلية الطب. قلت له إنك ناوي تقدم السنة الجاية، وهيشرح لك نظام الدراسة ويقول لك تركز على إيه.

نظر زين إلى الساعة. كانت البروفة قد بدأت.

قال: «ما ينفعش نأجل؟»

استغرب كمال. «نأجل أستاذ جامعة عشان إيه؟»

ـ عندي حاجة في المدرسة.

ـ نشاط؟

لم تكن الكلمة سؤالًا؛ كانت حكمًا.

قال زين: «وعدت سالي.»

ـ سالي هتفهم. مستقبلك أهم.

كان يستطيع أن يرفض. تخيل وجه والده، والحديث الطويل عن الفرص التي لا تتكرر، ثم ركب السيارة.

استقبله الأستاذ في عيادته الخاصة. تحدث عن سنوات الدراسة، والسهر، والتدريب، وعن طالب الطب الذي يجب أن يقبل أن يكون وقته ملكًا لمهنته. شعر زين بالحماس والخوف. سأل أسئلة كثيرة، ونسي البروفة لعدة دقائق كاملة.

حين خرج، كانت الساعة تقترب من التاسعة.

عاد إلى العمارة فوجد باب شقة فؤاد مفتوحًا. سمع أصواتًا في الصالة. دخل، فرأى سالي جالسة على الأرض تفك شرائط الزينة، وسامر يقص جزءًا تالفًا من اللوحة.

رفعت سالي رأسها. «الحمد لله على السلامة.»

ـ بابا خدني عند دكتور في الكلية.

ـ ما كنتش تعرف تقول؟

ـ المعاد جه فجأة.

ـ عندنا تليفون في المدرسة.

قال سامر من دون أن ينظر إليه: «أنا عملت الجزء العلمي.»

رد زين: «محدش طلب منك.»

توقفت يد سامر.

قالت سالي: «أنا طلبت منه، عشان الفقرة ما تقفش.»

ـ خلاص، تمام.

قالتها نبرته بعكس معناها.

نهضت سالي. «إنت وعدتني.»

ـ وأنا ما كنتش بلعب. كنت عند أستاذ جامعة.

ـ ما قلتش إنك كنت بتلعب. قلت إنك وعدتني.

ـ يعني أسيب حاجة تخص مستقبلي؟

ـ كان ممكن تتصل.

ـ ما افتكرتش.

صمتت. كانت هذه أسوأ إجابة، لأنها لم تقل إن الظروف منعته بل إن وجودها خرج من ذهنه.

قال سامر: «هي كانت مستنياك من العصر.»

التفت إليه زين. «إنت مالك؟»

قالت سالي: «هو ماله إنه كان موجود.»

ألقى زين حقيبته فوق الكرسي. «مبروك. بقى موجود في كل حاجة.»

تغير وجه سامر. «مش أنا اللي غبت.»

ـ وإنت مستني أي غياب عشان تاخد مكاني.

وقفت سالي بينهما. «كفاية.»

قال سامر: «أنا ما خدتش مكان حد.»

ـ عشان مفيش مكان عاجبك إلا اللي مش بتاعك.

لم يفهم سامر وحده الإشارة إلى الرسالة. فهمت سالي أن هناك شيئًا آخر لا تعرفه.

سألت: «إنتوا مخبيين إيه؟»

قال الاثنان معًا: «ولا حاجة.»

ضحكت ضحكة قصيرة غاضبة. «بقيتوا شبه بعض حتى في الكذب.»

دخلت غرفتها وأغلقت الباب.

حمل سامر حقيبته. عند المدخل، قال لزين بصوت منخفض: «أنا حفظت لك سرك، وإنت استخدمته عشان تهيننني.»

ـ أنا ما قلتش حاجة.

ـ قلت كفاية.

خرج.

بقي زين في الصالة أمام اللوحة. كان في وسطها فراغ تركوه ليكتب فيه المعلومة التي وعد بها. ملأه سامر بخط واضح، وأضاف مصدرًا في أسفل الورقة. لم يكن فيه خطأ واحد.

خرجت ليلى من المطبخ. نظرت إلى البابين المغلقين، ثم إليه. قالت: «حصل إيه؟»

ـ سوء تفاهم.

ـ سوء التفاهم عمره ما كان بيخلي تلاتة يدخلوا البيت بوشوش ويخرجوا منه لوحدهم.

لم يرد.

في الحفل، أدت سالي فقرتها بإتقان. وقف سامر خلف الستار يتابع الإضاءة. جلس زين في الصف الأخير إلى جوار نادية. حين

انتهت، صفق لها طويلًا، لكنها لم تبحث عنه بين الوجوه كما فعلت في الندوة السابقة.

بعد العرض، خرجت مع زميلاتها لالتقاط الصور. وقف سامر على بعد خطوة. مر زين من جوارهم، فدعته إحدى الطالبات إلى الصورة.

تردد، ثم وقف عند الطرف.

قال المصور: «قربوا من بعض.»

تحرك الجميع. بقيت مسافة صغيرة بين زين وسالي. مد سامر يده من الخلف وجذب كتف زين نحوه ضاحكًا حتى لا يفسد الصورة. لم يبتسم زين في اللحظة المناسبة.

ظهرت الصورة بعد أسبوع: سالي في الوسط، سامر يضحك، وزين ينظر إلى شيء خارج الإطار.

كتبت سالي خلفها التاريخ فقط. لم تضف الجملة التي اعتادت أن تكتبها عن معنى اليوم.

الفصل السابع عشر

ما بين الاعتراف والإنكار

حل الصيف بثقله المعتاد، لكن العمارة لم تستعد إيقاعها القديم. كانت الأبواب تظل مفتوحة، وروائح الطعام تتبادل الطوابق، وتعلو أصوات المراوح والمذياع، بينما صار الثلاثة يجيدون المرور من جوار بعضهم من غير أن يقرروا إن كانوا معًا أم لا.

خرج سامر معهم أقل. قال إن والده أرسله إلى دروس مكثفة في الرياضيات تمهيدًا لاختيار القسم العلمي. وفي الأيام التي حضر فيها، كان يتجنب الانفراد بزين أو سالي.

أما زين، فغرق في الكتب كأن الدراسة غرفة يمكن إغلاقها من الداخل. كلما سأله أحد عن توتره قال إن السنة القادمة صعبة. كان ذلك صحيحًا، لكنه لم يكن الحقيقة كلها.

وجدت سالي نفسها بين صمتين. لم تعد تسأل عن سبب الخلاف؛ بدأت تغضب من افتراضهما أن من حقهما الاحتفاظ بسر يؤثر في طريقة معاملتهما لها.

ذات عصر، صعدت إلى السطح. وجدت سامر هناك يرسم واجهة العمارة المقابلة. جلس قرب الحائط حتى لا يراه والده من الشرفة.

قالت: «إنت مستخبي من مين؟»

ـ من كل الناس اللي شايفين الرسم جريمة.

جلست إلى جواره. «طنط قالت إنك عند درس.»

ـ خلصت بدري.

ـ وزين فاكر إنك بطلت تطلع عشان زعلان منه.

توقف القلم. «زين قال لك كده؟»

ـ زين ما بيقولش. أنا بقيت أترجم سكوته.

أغلق الكراسة.

قالت: «إيه اللي حصل بينكم؟»

ـ اتخانقنا.

ـ على إيه؟

ـ حاجة تخصه.

ـ وأنا ليَّ علاقة بيها؟

لم يجب.

ابتعدت قليلًا. «يبقى ليا.»

قال سامر: «ما ينفعش أحكي لك.»

ـ عشان وعدته؟

ـ عشان مش حقي.

نظرت إلى الشارع. «غريبة. الحاجة مش حقك، بس نتيجتها بقت حقيقتي كل يوم.»

قال: «أنا آسف.»

ـ إنت آسف على إيه بالضبط؟

رفع عينيه إليها. كانت فرصة للهرب أو للكلام. اختار نصف الكلام، وهو الاختيار الذي يظنه الناس أكثر أمانًا ثم يكتشفون أنه يجرح الجميع.

قال: «أنا بقيت بحس إنك أهم عندي من مجرد صاحبة.»

لم تتحرك.

أضاف بسرعة: «مش بقول عشان أضغط عليك. ومش مستني رد دلوقتي.»

ـ زين يعرف؟

ـ يعرف إني... مش متأكد.

ـ يعني الخناقة بسببي.

ـ مش بسببك. بسببي أنا وهو.

قالت: «لما اتنين يتخانقوا عشان واحدة من غير ما يقولوا لها، تبقى هي السبب في نظرهم حتى لو قالوا العكس.»

ـ أنا ما اعتبرتكش سبب.

ـ اعتبرتني إيه؟

فتح فمه ثم أغلقه.

قالت: «أنا مش جايزة بينكم، ومش اختبار لصداقة حد.»

ـ عارف.

ـ لأ، لو كنت عارف كنت قلت له قبل ما تقول لي. أو قلت لي من غير ما تخليني أحس إني دخلت بيت فيه اتفاقات سرية.

نظر إلى الكراسة بين يديه. «كنت خايف أخسركم أنتم الاتنين.»

قالت بهدوء: «وإنت كده بتخسرنا واحدة واحدة.»

نهضت لتغادر.

قال: «سالي.»

توقفت.

ـ أنا بجد لما بتغيبي بحس اليوم ناقص.

أغمضت عينيها لحظة، ثم التفتت. «دي جملة حلوة. بس ما ينفعش أفرح بيها وأنا حاسة إن وراها حد تاني هيتوجع.»

نزلت.

• • •

لم تذهب إلى زين فورًا. بقيت يومين تفكر في ما قاله سامر وما لم يقله. كانت تعرف زين منذ أن كان يخلط بين الخوف والغضب، وتعرف أن صمته غالبًا يحمل كلامًا أكبر من قدرته على إخراجه. لكنها تعبت من أن تقوم وحدها بمهمة الفهم.

في مساء اليوم الثالث، وجدته في المدخل يصلح سلسلة دراجته القديمة. جلس على الأرض، ويداه ملطختان بالشحم.

قالت: «سامر كلمني.»

توقفت يده.

ـ قال إيه؟

ـ قال إنه بيحبني.

شد السلسلة أكثر مما يلزم، فانفلتت من الترس وجرحت إصبعه.

قالت: «إيدك.»

ـ بسيطة.

ـ بص لي.

رفع عينيه.

سألته: «كنت تعرف؟»

ـ كنت شاكك.

ـ واتخانقتوا؟

ـ مش عشان كده بس.

ـ عشان إيه كمان؟

نظر إلى باب العمارة المفتوح. مر ولد يحمل خبزًا، فانتظر حتى خرج.

قال: «قرأ حاجة خاصة بيا بالغلط.»

ـ عني؟

لم يجب.

اقتربت. «إنت كتبت عني إيه؟»

ـ مفيش. مزقتها.

ـ بعد ما قراها هو.

ـ ما كانش المفروض يقرأ.

ـ وأنا مش المفروض أعرف؟

قال: «ما كانتش جاهزة.»

ـ الكلام هو اللي ما كانش جاهز، ولا إنت؟

مسح إصبعه في قطعة قماش. «مش كل حاجة لازم تتقال أول ما نحسها.»

ـ صح. بس لما سكوتك يبدأ يعاقبني، يبقى لازم تقول لي أنا بتعاقب على إيه.

ـ أنا ما عاقبتكيش.

ـ بطلت تيجي، واتهمت سامر إنه بياخد مكانك، وكل مرة أفرح بحاجة معاه تبص لي كإني خنت حاجة ما حدش عرفني إنها موجودة.

قال: «وإنتِ فرحانة إنه قال لك؟»

اتسعت عيناها. «هو ده اللي فهمته؟»

ـ بسأل.

ـ لأ، إنت بتحاكم.

نهض زين. «عايزاني أقول إيه؟»

ـ الحقيقة.

ـ الحقيقة إن سامر صاحبي وعارف كل حاجة عني، ومع ذلك قرر يقرب منك.

ـ وأنا؟

ـ إنت إيه؟

ـ أنا في الحقيقة دي فين؟ هل أنا مجرد حاجة هو قرب منها وإنت خايف تخسرها؟

قال بعصبية: «ما تحوريش الكلام.»

ـ أنا بحاول ألاقي نفسي فيه.

سكت. كان السؤال بسيطًا، لكنه احتاج منه إلى اعتراف لا يستطيع العودة بعده.

قالت: «إنت بتحبني يا زين؟»

سمع صوت أمه تنادي ريم في الطابق الثالث، وصوت سيارة تتوقف في الخارج، وصوت قلبه كأنه شيء منفصل عنه.

فتح فمه.

قال: «إحنا عمرنا ما كنا محتاجين نسأل السؤال ده.»

ابتعدت خطوة. «دي مش إجابة.»

ـ عشان السؤال غلط.

ـ ليه؟

ـ لأن اللي بينا أكبر من كلمة.

ابتسمت بحزن. «الكلام ده حلو في الروايات. في الحقيقة، هو طريقة محترمة للهروب.»

ـ وإنت عايزاني أقول كلمة عشان سامر قالها؟

ـ أنا عايزاك تقولها لو حقيقية. ولو مش حقيقية تقول برضه.

قال بعد صمت: «أنا مش هتنافس مع حد.»

ـ محدش طلب منك تتنافس.

ـ هو اللي حطنا في الوضع ده.

هزت رأسها. «لا. هو قال حاجة، وإنت فضلت تنكر. الوضع ده صنعتموه أنتم الاتنين.»

دخلت العمارة وصعدت. تركت وراءها زين والدراجة والسلسلة المفكوكة.

• • •

بعد أسبوع، أقامت المدرسة رحلة قصيرة إلى الإسماعيلية. تردد زين في الذهاب، ثم أصر كمال أن يخرج «من جو الكتب». جلس زين في مقدمة الحافلة مع زملائه، وجلست سالي في المنتصف إلى جوار زميلتها مها. كان سامر في المقعد الخلفي يرسم وجوه النائمين.

عند الاستراحة، انقسم الطلاب إلى مجموعات. مشى زين قرب الماء وحده. لحق به سامر.

قال: «هي قالت لك؟»

ـ آه.

ـ أنا كنت هقول لك.

ـ إمتى؟ بعد ما تجاوبك؟

ـ هي ما جاوبتش.

توقف زين. «كنت مستني إجابة؟»

قال سامر: «طبعًا. أنا مش بقول كلام للهواء.»

ـ مع إنك عارف...

ـ عارف إيه؟ إنك كتبت رسالة ومزقتها؟

ـ عارف إن في حاجة بينا من قبل ما تدخل حياتنا.

اقترب سامر. «أنا ما دخلتش حياتكم امبارح. أنا صاحبك من سنين.»

ـ بالضبط.

ـ وبالضبط عشان أنا صاحبك، شفتك بتبعد عنها كل ما تقرب منك. شفتها تستناك وإنت تختار كل حاجة قبلها، وبعدين تزعل لما تلاقي حد واقف.

قال زين: «كنت واقف عشانها ولا عشان تستغل غيابي؟»

احمر وجه سامر. «أنا ما استغلتش حاجة.»

ـ قلت لها بعد ما قريت رسالتي.

ـ كنت بحبها قبل الرسالة.

ـ وكنت ساكت.

ـ زيك.

دفعه زين في كتفه. لم تكن دفعة قوية، لكنها أنهت ما بقي من الكلام الهادئ.

دفعه سامر بدوره. «ما تمدش إيدك.»

جاء طالبان من بعيد، فتوقفا. عدل سامر قميصه، وقال بصوت أخفض: «إنت فاكر أسبقيتك تديك حق. ما فيش حد بيحب بالدور.»

قال زين: «وفيه حاجة اسمها صاحبك.»

ـ الصاحب ما يطلبش منك تلغي نفسك عشان هو خايف يتكلم.

تركه وعاد إلى المجموعة.

من بعيد، رأت سالي نهاية المشهد. لم تر الدفعة الأولى، لكنها رأت المسافة بينهما. حين اقترب سامر منها، لم تسأله. وحين مر زين، لم تنادِه.

في طريق العودة، جلست سالي إلى جوار سامر لأن مها انتقلت إلى مقعد آخر. تحدثا قليلًا، ثم نامت وهي تسند رأسها إلى النافذة. ظل سامر صامتًا ينظر إلى الطريق.

كان زين على بعد ثلاثة مقاعد. رأى انعكاس وجهها في الزجاج، وتذكر الرسم الذي صنعه سامر للمشهد نفسه من قبل. شعر أن الصورة خرجت من الكراسة وصارت واقعًا لا يستطيع تمزيقه.

عند وصول الحافلة، نزل الجميع. حمل سامر حقيبة سالي حين انقطع حزامها. حاولت أن تأخذها منه، فأصر حتى باب العمارة.

وقف زين عند الناصية. لم يلحق بهما.

في المساء، طرق سامر باب شقة فؤاد ليعطي سالي دفترًا نسيته في الحافلة. دعته ليلى إلى العشاء. جلس في المكان الذي اعتاد زين الجلوس فيه حين يأتي وحده.

كان زين يسمع ضحكاتهم من فوق. طلبت منه نادية النزول، فقال إن عنده مذاكرة. لم تضغط عليه.

بعد قليل، دخلت غرفته تحمل طبقًا.

قالت: «ليلى بعتت لك أكل.»

ـ مش جعان.

وضعته فوق المكتب. «الغيرة دخلت البيت يا زين، بس إنت اللي بتفتح لها كل الأبواب.»

رفع رأسه. «هي اختارت تقعد معاه.»

ـ يمكن اختارت ما تقعدش لوحدها وهي مستنياك.

ـ إنتِ دايمًا في صفها.

جلست على طرف السرير. «أنا في صفك عشان ما تخسرش نفسك وإنت بتحاول ما تخسرهاش.»

قال: «سامر خانني.»

ـ وعدك ما يحبهاش؟

ـ ما كانش محتاج وعد.

ـ يمكن إنت شايف إن الحاجات المفهومة ما تحتاجش كلام. بس اللي مفهوم عندك مش لازم يبقى مفهوم عند غيرك.

قال: «كان عارف.»

ـ وإنت كنت عارف إنك بتحبها؟

لم يجب.

تركت الطبق وخرجت.

أسفلهم، انتهى العشاء وغادر سامر. فتحت سالي الشرفة، فرأت نور غرفة زين. بقيت واقفة لحظة، ثم أغلقت الستارة.

الفصل الثامن عشر

سنة الشهادة

بدأ العام الدراسي الأخير بإعلان غير مكتوب لحالة الطوارئ في البيتين.

اختفت الزيارات الطويلة، وتقلصت مواعيد الخروج، وامتلأت الثلاجات بجداول الدروس المكتوبة بخطوط مختلفة. علقت نادية جدول زين قرب الهاتف، وعلقت ليلى جدول سالي فوق باب غرفتها. صار كل منهما يستطيع معرفة مكان الآخر من الورقة، من غير أن يراه.

قال كمال إن هذه السنة «تحدد العمر كله». اعترضت نادية بأن العمر لا يتحدد في امتحان، لكنه رد أن الكلام المريح لا يغير قواعد القبول. أما فؤاد فكان أقل صرامة في الكلمات وأكثر قلقًا في الأفعال؛ يتصل من العمل ليسأل هل حضرت سالي الدرس، ويعود بأوراق تقديم لكليات لم تطلبها.

كان يريد لها أن تدخل كلية «مضمونة». اقترح الاقتصاد والعلوم السياسية إن حصلت على مجموع مرتفع، أو التجارة باللغة الإنجليزية، أو الألسن. حين قالت كلية الإعلام، هز رأسه.

ـ إعلام عشان تبقي مذيعة؟

قالت: «مش لازم مذيعة. فيه صحافة وإذاعة وإنتاج.»

ـ والشغل؟

ـ كل كلية فيها ناس بتشتغل وناس لأ.

ـ بس فيه اختيارات أضمن.

قالت ليلى: «سيبها تختار بعد النتيجة.»

رد فؤاد: «أنا ما بمنعهاش. أنا بفهمها السوق.»

سمعت سالي العبارة نفسها التي قالها زين لسامر عن الهندسة. نظرت إلى زين، الجالس عند طرف المائدة يراجع مسألة. لم يرفع عينيه.

قال سامر، الذي حضر العشاء لأول مرة منذ أسابيع: «هي شاطرة في الإعلام من دلوقتي.»

سأله فؤاد: «وإنت ناوي على إيه؟»

ـ فنون جميلة.

ضحك فؤاد ظنًا أنها مزحة. لم يضحك سامر.

قال كمال: «فنون جميلة محتاجة موهبة ودراسة برضه، بس فرصها مش سهلة.»

رد سامر: «أنا عارف.»

قال فؤاد: «وأبوك موافق؟»

ـ لأ.

ساد صمت. حاولت ليلى تغييره بسؤال عن الحلوى، لكن سامر أكمل: «هو عايز هندسة.»

رفع زين رأسه. تذكر حواره القديم معه، وشعر أن عليه أن يقول شيئًا. قال: «لو دخلت هندسة وأنت مش عايزها، هتكره نفسك والكلية.»

نظر سامر إليه. لم يتوقع دعمه.

أضاف زين: «بس لازم تبقى فاهم إن فنون مش مجرد إنك بتحب ترسم. ليها امتحان قدرات ومنافسة.»

قال سامر: «أنا بتمرن.»

ـ لو محتاج حد يراجع معاك المواد العلمية، أساعدك.

تبادلا نظرة قصيرة. لم تكن مصالحة، لكنها أول حجر يوضع فوق الهوة بدل أن يقذف فيها.

قالت سالي: «وأنا أساعدك في التاريخ والثقافة العامة.»

ابتسم سامر. «كده هسقط من كتر المساعدة.»

ضحكوا. للحظة، عادوا ثلاثة حول المائدة، لكنهم عرفوا أن الرجوع لم يعد يحدث بلا حذر.

• • •

صارت السنة تقاس بالامتحانات التجريبية. حصل زين في الأول على درجة أقل مما توقع في الكيمياء، فعاد إلى البيت كأن كارثة وقعت. حاول كمال أن يخفي قلقه، لكنه قال إن الخطأ الآن أفضل من الامتحان النهائي ثم أمضى ساعة يراجع معه أسباب النقص.

انتظرت سالي حتى غادر كمال الغرفة، ثم طرقت الباب.

قال زين: «ادخلي.»

وضعت فوق مكتبه قطعة شوكولاتة وورقة صغيرة مكتوبًا عليها: «درجة واحدة لا تعرفك أكثر مما أعرفك.»

قرأها. «مين قال إنها درجة واحدة؟»

ـ التعبير مجازي.

ـ الفرق سبع درجات.

جلست على الكرسي المقابل. «إنت مستحيل تتعزى زي البشر؟»

ابتسم رغمًا عنه. «شكرًا.»

ـ العفو.

بقيت لحظة. كان بينهما كلام مؤجل من الصيف، لكنه بدا أثقل من أن يوضع قرب كتاب الكيمياء.

سألها: «إنتِ وسامر...؟»

نظرت إليه مباشرة. «أنا وسامر إيه؟»

ـ ما رديتيش عليه؟

ـ قلت له إني مش عايزة أدخل في حاجة دلوقتي.

تنفس ببطء. لم يرد أن يظهر ارتياحه.

قالت: «ما تفرحش قوي. أنا ما قلتش كده عشانك.»

ـ أنا ما فرحتش.

ـ كذاب سيئ.

ابتسمت، ثم اختفت الابتسامة. «قلت له عشان أنا مش عايزة أبقى سبب إنكم تخسروا بعض، وعشان ما أحبش أبدأ حاجة وأنا مش عارفة قلبي واقف فين.»

سأل: «واقف فين؟»

ـ لو كنت أعرف، ما كنتش قلت مش عارفة.

قال: «ممكن نرجع زي الأول؟»

هزت رأسها ببطء. «الأول راح. نقدر نبقى كويسين، بس مش نرجع أطفال ما يعرفوش إن الحاجات ممكن تتغير.»

ـ وأنا مش عايز أخسرك.

ـ يبقى ما تختفيش كل ما تخاف.

أراد أن يقول لها الجملة التي مزقها، لكنه سمع صوت كمال يعود في الممر. فتحت سالي الكتاب أمامها كأنها جاءت للمذاكرة.

دخل الأب وقال: «كويس إنكم بتراجعوا مع بعض.»

لم يعرف أن ابنه كان على بعد ثوانٍ من مراجعة شيء آخر ظل يؤجله سنوات.

• • •

مر الشتاء قاسيًا. أصيبت نادية بنزلة برد طويلة لم تأخذها بجدية. كانت تسعل في الليل ثم تخرج صباحًا لإعداد الإفطار. طلب منها زين الذهاب إلى الطبيب، فضحكت.

ـ بقيت دكتور قبل ما تدخل الكلية؟

قال: «الكحة بقالها أسبوعين.»

ـ حساسية شتاء.

أصر، فذهب معها إلى العيادة. قال الطبيب إنها عدوى بسيطة تحتاج إلى راحة ومضاد حيوي. عاد زين مطمئنًا، لكنه صار يراقبها أكثر مما تحب. إذا صعدت السلم ببطء، سألها هل تتعب. وإذا نامت بعد الظهر، لمس جبهتها.

قالت له ذات يوم: «لو فضلت تبص لي كده همرض من التوتر.»

ـ أنا بتأكد إنك كويسة.

ـ أنا كويسة. ركز في امتحانك.

ابتسمت وربتت على خده. لم يعرف أن الخوف عليها سيصبح يومًا أكبر من كل امتحان، وأن هذه التفاصيل الصغيرة ستعود إليه فيما بعد كإنذارات لم تكن إنذارات أصلًا، بل حياة عادية يمنحها الفقد معنى متأخرًا.

في تلك الفترة، كانت سالي تأتي للمذاكرة في الصالة حتى لا يبقى كل واحد وحيدًا. يجلس زين عند المائدة الكبيرة بكتب العلوم، وتجلس هي في الجانب الآخر بكتب الأدب والتاريخ واللغة. أحيانًا يحضر سامر، فيرسم ساعة كاملة ثم يحل مسائل الرياضيات تحت رقابة زين.

لم يعد أحد يتحدث عن الاعتراف. صاروا يتعاملون معه كقطعة أثاث كبيرة لا يمكن إخراجها من الغرفة، فيتحركون حولها بحذر.

في ليلة ممطرة، انقطعت الكهرباء عن الحي. أضاءت نادية الشموع، وعادت العمارة إلى شكلها القديم. جلس الثلاثة على السلم بين الطابقين لأن الهواء في الشقق كان خانقًا.

قال سامر: «فاكرين أول مرة النور قطع وإحنا صغيرين؟»

قالت سالي: «إنت ما كنتش معانا.»

ـ حكيتوا لي عنها ميت مرة، بقيت فاكرها أكتر منكم.

قال زين: «كان عندنا قائمة حاجات عايزينها تفضل.»

سألت سالي: «لسه موجودة؟»

ـ آه.

ـ كنت كاتب إيه؟

ـ حاجات غبية.

قال سامر: «أكيد كاتب الشجرة والكورة وسالي.»

نظر زين إليه. ابتسم سامر ابتسامة خفيفة لا تحمل تحديًا.

قالت سالي: «وأنت؟»

ـ أنا ما كنتش موجود في القائمة وقتها.

قال زين: «ضفناك بعدين.»

سكت سامر. «وبعدين شطبتني؟»

كان السؤال نصف مزحة ونصف خوف.

أجاب زين: «لا.»

وصلهم صوت فؤاد ينادي سالي لتأتي بمصباح. نهضت، ثم قالت: «ما تتحركوش. راجعة.»

حين اختفت، قال سامر: «أنا عارف إنك مش مصدقني زي الأول.»

ـ مش وقت الكلام ده.

ـ عمره ما هيبقى وقته.

نظر زين إلى شعلة الشمعة. «إنت كنت عارف اللي بيني وبينها.»

ـ كنت عارف إن في حاجة، بس إنت عمرك ما قلت لي إيه هي. وكل مرة سألتك قلت سالي هي سالي.

ـ كان لازم تفهم.

ـ فهمت. وكنت أناني برضه.

رفع زين عينيه. كانت أول مرة يستخدم سامر الكلمة على نفسه.

قال سامر: «أنا مش ندمان إني حسيت. بس يمكن ندمان إني قلت لها وأنا عارف إنكم مش عارفين تتكلموا.»

ـ يعني كنت مستني تستفيد من سكوتي.

ـ يمكن جزء مني كان مستني. مش فخور بده.

قبل أن يرد، عادت سالي تحمل مصباحًا صغيرًا. نظرت إليهما وشعرت أن حديثًا توقف.

قالت: «كنتوا بتتكلموا عني؟»

قال سامر: «آه.»

تفاجأ زين من صدقه.

جلست. «قولوا.»

قال سامر: «كنت بقول إني غلطت لما حطيتك وسط حاجة ما اتحلتش بيني وبينه.»

سألت: «وهو قال إيه؟»

أجاب زين: «لسه ما قلتش.»

انتظرا.

قال بعد وقت: «أنا كمان غلطت لما اتعاملت كأن سكوتي واضح للكل.»

قالت سالي: «كويس. نعمل إيه بالمعلومتين دول؟»

لم يكن لدى أحد جواب. ضحكت هي أولًا، ضحكة صغيرة متعبة.

ـ إحنا بنكبر ولا بنعقد الحكاية؟

قال سامر: «الاتنين غالبًا.»

عاد النور فجأة. أضاءت المصابيح فوق رؤوسهم، فانكمشت ظلالهم وعاد كل شيء واضحًا أكثر مما يحتمل.

• • •

قبل الامتحانات النهائية بأسبوع، مُنعت الزيارات تقريبًا. كان زين ينام أربع ساعات، ويستيقظ على صوت نادية تضع الشاي قرب مكتبه. كان كمال يعود من العمل فيسأله عن عدد الساعات، ثم يندم حين يرى الإرهاق في وجهه ويحاول الحديث عن شيء آخر.

سالي بدورها كانت تخوض معركة مع القلق. لم تكن تخاف من الرسوب؛ كانت تخاف من مجموع يدفعها إلى كلية يختارها الآخرون. كتبت فوق مكتبها: «الإعلام ليس خطة بديلة.»

أما سامر، فكان يذاكر ليحصل على مجموع يوقف اعتراض أبيه، ويتدرب ليلًا على امتحان القدرات. أخفى رسوماته داخل

صندوق أدوات قديم بعدما مزق والده إحدى اللوحات وقال إنها تشغله عن «المستقبل الحقيقي».

في الليلة السابقة لأول امتحان، لم يستطع زين النوم. خرج إلى الشرفة، فرأى سالي في الشرفة أسفلها. لم يستطيعا رؤية وجهي بعضهما كاملين بسبب زاوية البناء.

قالت: «صاحي؟»

ـ واضح.

ـ خايف؟

ـ شوية.

ـ كذاب.

ابتسم. «وإنتِ؟»

ـ جدًا.

قال: «هتعملي كويس.»

ـ إنت عارفني أكتر من الدرجة؟

عرف أنها تعيد جملتها المكتوبة فوق الشوكولاتة.

قال: «أكتر بكتير.»

سكتت، ثم قالت: «بعد الامتحانات لازم نتكلم.»

ـ في إيه؟

ـ في كل حاجة مؤجلة.

كان يستطيع أن يسأل عن سامر، لكنه لم يفعل.

قال: «موافق.»

ـ وعد؟

تذكر وعود السطح، والبيت الذي لن يتركه، والعلبة التي سيفتحانها في العشرين.

قال: «وعد.»

في الصباح، خرجت الأسرتان معًا. وقفت نادية وليلى عند باب المدرسة، وراح فؤاد يكرر التعليمات، بينما حاول كمال أن يبدو هادئًا. وصل سامر مع والده، فاجتمع الثلاثة عند البوابة.

قال سامر: «بعد كام ساعة نبقى بدأنا نخلص.»

قالت سالي: «أو بدأنا نضيع.»

رد زين: «ما تقوليش كده.»

مد سامر يده. وضع زين يده فوقها، ثم وضعت سالي يدها فوقهما.

قالت: «كل واحد يدخل الباب اللي اختاره.»

رن الجرس.

انفصلت الأيدي، ودخلوا.

الفصل التاسع عشر

أبواب الجامعة

ظهرت النتيجة في صباح حار من يوليو، بعد ليلة لم ينم فيها أحد جيدًا.

ذهب كمال وفؤاد إلى المدرسة قبل فتح الباب بساعة. بقيت نادية وليلى قرب الهاتف، بينما وقف زين وسالي في الشرفة يتابعان الشارع. كان سامر ينتظر في بيته، وقد اتفقوا أن يتصل أول من يعرف.

قالت سالي: «لو مجموعي ما جابش إعلام، هقدم اختبار معهد ولا أستنى سنة؟»

ـ هيجيب.

ـ إنت بتقولها كأنك شفت النتيجة.

ـ عشان ما أعرفش أقول حاجة تانية.

قالت: «ولو مجموعك ما جابش طب؟»

نظر إلى الشارع. «مش عارف.»

كانت أول مرة يعترف بأن خطته لا تحتوي بديلًا.

ظهر كمال عند الناصية. كان يمشي بسرعة، وإلى جواره فؤاد يلوح بورقتين. لم يستطيعا قراءة وجهيهما من بعيد.

صعد الأبوان السلم بدل انتظار المصعد الذي لم يكن موجودًا أصلًا. سمعوا خطواتهما قبل أن يفتح الباب.

دخل كمال، نظر إلى زين، ثم فتح ذراعيه.

قال: «مبروك يا دكتور.»

لم يفهم زين في اللحظة الأولى. ثم رأى الرقم في الورقة، وسمع نادية تصرخ من الفرح. احتضنته قبل أن يصل إليها، وضحك كمال وهو يربت على كتفه بقوة.

في الشقة أسفلهم، كانت ليلى تبكي وفؤاد يكرر: «إعلام يا ستي، زي ما إنت عايزة.»

نزل زين من غير أن ينتظر. وجد سالي في المدخل، تمسك الورقة بيد وترفع طرف فستانها بالأخرى كما فعلت يوم ركضت خلف الكرة الحمراء. توقفا أمام بعضهما.

قالت: «طب؟»

ـ طب.

ـ إعلام.

ضحكا، ثم تعانقا بعفوية نسيت كل ما بينهما من حذر. كان العناق قصيرًا، لكنه أعاد إليهما لحظة من زمن سابق حين كان نجاح أحدهما خبرًا يخص الآخر تلقائيًا.

جاءت نادية وليلى، فتحول المدخل إلى أصوات ودموع واتصالات. اتصلوا بسامر مرات عدة، ولم يرد.

بعد ساعة، ظهر عند باب العمارة. عرفوا من وجهه أن النتيجة ليست سيئة، لكنها ليست كما أراد.

قال: «المجموع كويس.»

سأله زين: «قد إيه؟»

ذكر الرقم. كان يكفي لعدد من الكليات، لكنه لا يضمن رغبة والده في الهندسة، ولا يحسم فنون جميلة التي تعتمد على اختبار القدرات.

قالت سالي: «وامتحان القدرات؟»

ـ الأسبوع الجاي.

قال كمال: «يبقى لسه النتيجة الحقيقية ما ظهرتش.»

ربت على كتفه. لم يقل شيئًا عن فرص العمل أو الاختيار الأضمن. تذكر سامر هذا الدعم طويلًا، لأن والده حين عرف بالمجموع قال فقط: «كويس. نكتب هندسة في أول الرغبات.»

• • •

قضوا الأسابيع التالية بين مكاتب التنسيق، والشهادات، والصور الشخصية، وطوابير لا تنتهي. دخل زين كلية الطب لأول مرة لتقديم أوراقه، فشعر أن المبنى أكبر من حلمه. رائحة المطهر والكتب القديمة، الطلاب الذين يتحركون بثقة، اللوحات التي تحمل أسماء الأقسام؛ كل شيء قال له إن اللقب الذي نادوه به في المدرسة لم يكن سوى مزحة، وإن الطريق الحقيقي يبدأ الآن.

رافقته نادية. وقفت في الفناء تنظر إلى المبنى، ثم قالت: «كنت عارفة.»

سألها: «عارفة إيه؟»

ـ إنك هتدخل هنا.

ـ من إمتى؟

ـ من يوم ما فضلت تسأل الدكتور ليه ريم سخنت وإنت عندك سبع سنين.

ضحك. «أنا كنت بخاف عليها بس.»

ـ يمكن الدكاترة بيبدأوا بالخوف على حد.

أمسك يدها للحظة. لم يكن يفعل ذلك كثيرًا أمام الناس، لكنه شعر أن هذا اليوم لها بقدر ما هو له.

في اليوم التالي، ذهبت سالي مع فؤاد إلى كلية الإعلام. ظل الأب يسأل عن الأقسام وفرص العمل والتدريب، حتى قالت له الموظفة مبتسمة: «سيبها تدخل الأول يا أستاذ فؤاد.»

خرجت سالي من المبنى تحمل ملفها، ووقفت عند البوابة. تخيلت صوتها يخرج من استوديو، واسمها فوق مقال، وكاميرا تشير إلى شخص تسأله ولا تقبل إجابة جاهزة. لم تكن تعرف أي صورة ستتحقق، لكنها شعرت للمرة الأولى أن اختيارها أخذ شكل باب حقيقي.

أما سامر، فدخل امتحان القدرات ويده ترتجف. رسم تكوينًا من ثلاثة مقاعد ونافذة. كان المقعد الأوسط فارغًا، وعلى الجانبين

شخصان ينظر كل منهما إلى اتجاه مختلف. حين انتهى، عرف أنه رسم أكثر مما طلب السؤال.

انتظر النتيجة ثلاثة أيام. جاء إلى العمارة عصرًا وهو يحمل الورقة.

قال: «اتقبلت.»

صرخت سالي، واحتضنته ليلى كأنه ابنها. مد زين يده إليه، لكن سامر فتح ذراعيه بدل المصافحة. تردد زين لحظة ثم عانقه.

قال سامر قرب أذنه: «لسه مش عارف أقنع أبويا.»

رد زين: «إقناعه مش شرط عشان تبقى كويس فيها.»

ابتعدا. كانت الجملة دعمًا، لا استعادة كاملة للثقة.

في الليل، احتفلوا فوق السطح. أعدت نادية الطعام، وأحضرت ليلى كعكة كتبت فوقها بالكريمة أسماء الكليات الثلاث. ضحك فؤاد لأن الاسم الأطول خرج من حافة الكعكة، وقال كمال إن هذا دليل على أن الفن لا يعترف بالمساحات المحددة.

جلس الثلاثة قرب السور القديم. بحثت سالي عن الشق الذي وضعا فيه العلبة المعدنية وهما طفلان. وجدته بعد دقائق، لكن الحصاة كانت عالقة.

قالت: «نفتحها؟»

قال زين: «اتفقنا لما نبقى عشرين.»

ـ فاضل سنتين تقريبًا.

قال سامر: «أنا ما ليش حاجة فيها أصلًا.»

نظرت إليه سالي. «إنت ليك حاجات تانية.»

تركوا العلبة مكانها.

قالت سالي: «بعد أسبوع كل واحد هيبقى في حتة.»

ـ مش بلد تانية، قال زين.

ـ المسافة مش دايمًا بالمتر، ردت وهي تكرر جملة نادية القديمة.

نظر إليها. «هنشوف بعض.»

قال سامر: «نحدد يوم ثابت.»

اتفقوا على مساء الجمعة. لم يقل أحد إن الجداول ستتغير، وإن المحاضرات والصداقات الجديدة ستدخل بين المواعيد، وإن اليوم الثابت أكثر الأشياء قابلية للتحرك.

حين نزل سامر، بقي زين وسالي فوق السطح.

قالت: «إحنا كان عندنا كلام بعد الامتحانات.»

ـ فاكر.

ـ والامتحانات خلصت.

وقف قرب السور. أسفلهم كانت الجميزة أكبر مما يتذكر، وفروعها تلامس شرفة الطابق الأول.

قال: «أنا مش عارف أقولها بطريقة ما تبوظش كل حاجة.»

ـ يمكن كل حاجة باظت من كتر ما بتحاول تحافظ عليها.

التفت إليها. كان الضوء القادم من سلم السطح يقسم وجهها إلى نصفين.

قال: «الرسالة اللي سامر قراها... كنت كاتب فيها إني بغير، وإنك أهم حد في حياتي، وإني مش عارف مكاني عندك.»

انتظرت بقية الجملة.

قال: «وكنت هكتب إني...»

توقف.

ابتسمت بلا فرح. «لسه؟»

ـ أنا بحاول.

ـ وأنا بقالى سنين بفهم محاولاتك بدل كلامك.

ـ بحبك.

خرجت الكلمة هادئة، من غير مقدمة تليق بالسنوات التي سبقتها. سمعها هو أولًا كأنه شخص آخر قالها.

لم تتحرك سالي.

أضاف: «مش عارف من إمتى. يمكن من قبل ما أعرف اسمها. ومش بقولها عشان سامر، ولا عشان أخاف تروحي. بقولها لأنك سألتي، ولأن سكوتي أذانا كلنا.»

خفضت عينيها. «أنا كنت مستنياها.»

شعر بالهواء يعود إلى صدره.

ثم قالت: «بس استنيتها وقت طويل لدرجة إني مش عارفة أعمل بيها إيه دلوقتي.»

ـ يعني إيه؟

ـ يعني أنا بحبك بطريقتي من زمان. بس تعبت من إني كل مرة أقرب ألاقيك خايف، وكل مرة أبعد شوية تفتكر إني بسيبك.

ـ أنا ممكن أتغير.

ـ عارفة. وأنا كمان اتغيرت.

قال: «وسامر؟»

ـ سامر مهم عندي، بس أنا ما وعدتوش بحاجة. المشكلة مش هو. المشكلة إننا لازم نعرف إحنا عايزين إيه بعيدًا عن الخوف منه أو عليه.

اقترب خطوة. «أنا عايزك.»

قالت بهدوء: «مش عايزة أبقى حاجة عايزها. عايزة أبقى شخص تختاره كل يوم، حتى لما الدراسة والشغل والخوف يبقوا موجودين.»

ـ هختارك.

ـ ما توعدش بحاجة ما جربتهاش.

صمتا. لم تكن ترفضه، ولم تمنحه النهاية التي تخيلها. كانت تطلب بداية أكثر صعوبة من الاعتراف: سلوكًا يثبت الكلمة.

قالت: «نبدأ الجامعة، ونشوف إحنا مين برا العمارة والمدرسة. وما نخليش سامر مقياس لأي حاجة بيننا.»

ـ يعني نستنى؟

ـ يعني ما نهربش، وما نستعجلش اسم قبل ما نعرف نعيش معناه.

مدت يدها. أمسكها.

لم يكن عهدًا طفوليًا هذه المرة. كان اتفاقًا ناقصًا بين شخصين يعرفان أن الكلام وحده لا يحمي المستقبل.

في الأسبوع الأول من الدراسة، خرجوا معًا من العمارة صباحًا. افترقوا عند نهاية الشارع: زين نحو كلية الطب، وسالي نحو الإعلام، وسامر إلى فنون جميلة بعدما خاض مع أبيه معركة لم تنته تمامًا.

وقفوا عند الناصية نفسها التي شهدت ذهابهم إلى المدرسة أول مرة.

قال سامر: «الجمعة.»

قالت سالي: «الجمعة.»

نظر زين إليهما. «الجمعة.»

سار كل واحد في اتجاهه.

الفصل العشرون

ما فعلته السنة الأولى

في الجمعة الأولى، حضروا جميعًا.

وصل سامر قبل الموعد بعشر دقائق، وجاءت سالي تحمل كراسة جديدة كتبت فوق غلافها «مشروعات»، بينما عاد زين من الكلية مرتديًا قميصًا أبيض تفوح منه رائحة المطهر. جلسوا تحت الجميزة، وتحدث كل واحد بسرعة كأنه يخشى أن تنتهي الساعة قبل أن يثبت للآخرين أن حياته الجديدة تستحق السماع.

حكى زين عن قاعة التشريح التي دخلها في يومه الثاني. لم يذكر الجسد المغطى فوق المائدة إلا بعد أن سأله سامر. قال إنه شعر بالغثيان، ثم خجل من نفسه لأن زملاءه بدوا أكثر ثباتًا.

قالت سالي: «يمكن هم كانوا بيعملوا نفسهم ثابتين.»

ـ يمكن.

سأله سامر: «رسمتوه؟»

نظر إليه زين مستغربًا. «إحنا مش في فنون.»

ـ عارف. بس الرسم طريقة تعرف بيها الحاجة.

أخرج سامر كراسته ورسم عظمة يد من الذاكرة كما رآها في كتاب قديم. صحح زين زاوية الإبهام، فتحولت الدقائق التالية إلى نقاش نسيًا خلاله المسافة بينهما.

حكت سالي عن أول محاضرة في الخبر الصحفي. طلب الأستاذ من الطلاب كتابة خمس جمل عن حادث شاهدوه، فكتب نصفهم قصة لم تحدث. قالت إن الأستاذ جمع الأوراق وسألهم كيف يريدون من الناس أن يصدقوهم إذا كانوا يخترعون التفاصيل في أول أسبوع.

قالت: «حسيت إنه بيكلمني أنا لوحدي.»

سألها زين: «إنت اخترعتي؟»

ـ لأ، بس زوقت الحكاية شوية.

قال سامر: «يعني اخترعتي بأدب.»

ضحكوا.

في الجمعة الثانية، اعتذر زين لأن عنده اختبارًا قصيرًا. وفي الثالثة، تأخرت سالي في تدريب طلابي. حضر سامر وحده إلى العمارة، ثم جلس مع فؤاد وكمال نصف ساعة وغادر.

أما الجمعة الرابعة، فلم يتصل أحد.

لم ينهَر الوعد في لحظة. فقد صلابته بالتدريج، كما تفقد الورقة لونها تحت الشمس. ظل موجودًا في كلامهم، لكنه لم يعد يحدد تصرفاتهم.

• • •

كانت كلية الطب أكثر قسوة مما تخيل زين. لم يكن يكفي أن يفهم؛ عليه أن يحفظ أسماء لا تنتهي، ويتعلم أن الخطأ الصغير قد يغير معنى عضو كامل. عاد في بعض الأيام عاجزًا عن الحديث. كانت نادية تضع الطعام قربه وتسأله سؤالًا واحدًا، فإذا أجاب بكلمة تركته، وإذا بدأ يحكي جلست حتى ينتهي.

قال لها بعد أول اختبار: «كل اللي دخلوا معايا كانوا أوائل.»

ابتسمت. «وإنت كنت فاكر إن الكلية هتستقبلك لوحدك؟»

ـ كنت فاكر إني شاطر.

ـ وإيه اللي منع إنك تفضل شاطر وسط الشطار؟

هز رأسه. «هنا الشطارة مش كفاية.»

ـ كويس إنك عرفت بدري.

لم تقل له إنه الأفضل، ولم تَعِده أن الطريق سهل. منحته ما يحتاجه أكثر: حق أن يكون خائفًا من غير أن يصبح الخوف حكمًا عليه.

كانت سالي ترى الضوء في غرفته حتى الفجر. ترسل إليه أحيانًا ورقة تحت الباب أو كوب قهوة مع ريم. يكتب لها في المقابل تعليقًا على مقال أو يصحح معلومة في مشروع. ظل ما بينهما قائمًا، لكنه أخذ صورة مراسلات عملية أكثر من صورة بداية حب.

سألته ذات ليلة عبر الهاتف: «إحنا اتفقنا ما نهربش، صح؟»

ـ صح.

ـ إنت بقالك أسبوعين ما قعدتش معايا عشر دقايق.

ـ عندي امتحانات.

ـ عارفة. أنا بس بقول لك إني مفتقداك.

كانت الجملة التي نصحته نادية أن يقولها يومًا، وسبقت سالي إليها.

قال: «وأنا كمان.»

ـ طيب نعمل إيه؟

نظر إلى الكتب المفتوحة. «بعد الامتحان يوم الخميس.»

ـ ما تقولش وعد.

ـ ليه؟

ـ عشان ما نحمّلهوش أكتر من اللازم. خلّيه محاولة.

نجحت المحاولة. خرجا بعد الامتحان ومشيا في شوارع مصر الجديدة ساعتين. تحدث عن الكلية، وتحدثت عن زميلة اسمها مها تصر على أن تعمل في الصحافة الاستقصائية، وعن أستاذ قال إن الصوت الجيد لا يصنع مذيعًا إذا لم يكن وراءه عقل يسأل.

لم يذكرا سامر. كان غيابه حاضرًا من غير اسم.

• • •

في كلية الفنون الجميلة، وجد سامر المكان الذي تخيله، ثم اكتشف أن العثور على المكان لا ينهي الصراع. كان زملاؤه يرسمون بمهارة، وبعضهم تدرب منذ الطفولة. لأول مرة لم يكن الفنان الوحيد في الفصل، ولم تعد موهبته تكفي لتمنحه جمهورًا تلقائيًا.

عاد إلى البيت بلوحات يصفها والده بأنها «شخبطة مكلفة». انقطعت بينهما أحاديث كثيرة، وصار الطعام يمر في صمت. لجأ سامر إلى سالي أكثر مما ينبغي. يتصل ليحكي عن نقد أستاذ، أو يأتي بصورة مشروع ويسألها عن الفكرة، أو ينتظرها عند الكلية من غير موعد.

في البداية، رحبت. كانت تحب أن ترى ما يصنع، وتفهم شعوره بأن الطريق المختار يحتاج إلى دفاع يومي. ثم لاحظت أن وجوده صار يحمل انتظارًا لا يصرح به.

قالت له بعد أن وجدته للمرة الثالثة عند البوابة: «إنت جيت عشان عندك حاجة هنا؟»

ـ جيت أشوفك.

ـ من غير ما تقول؟

ـ كنت عايز أعمل لك مفاجأة.

قالت: «المفاجأة تبقى حلوة لما ما تحطش صاحبها قدام اختيار فوري.»

ـ اختيار إيه؟

ـ إني أسيب أصحابي وأمشي معاك، أو أرفض وأبان وحشة.

نظر إلى المجموعة التي تنتظرها. «أنا ما قصدتش.»

ـ عارفة. بس القصد مش بيمسح النتيجة.

سارا خطوات بعيدًا عن البوابة.

قال: «أنا حاسس إنك بعد ما زين قال لك...»

قاطعته: «ما تدخلش زين في كل جملة بيننا.»

ـ بس هو موجود.

ـ موجود في حياتي. مش موجود عشان تقيس فرصتك عليه.

سكت.

قالت: «أنا بحبك يا سامر، بس مش بالطريقة اللي إنت مستنيها. وكل مرة تقرب وأنت مستني إني أغير رأيي، بتخليني أخاف إن صداقتنا كانت ثمنًا لحاجة تانية.»

تلقى الجملة كصفعة هادئة. قال: «ما كانتش ثمن.»

ـ يبقى ما تخليهاش كده.

عادت إلى زملائها. بقي واقفًا أمام البوابة، وفهم للمرة الأولى ما فعله بصديقه وبها. لم يكن خطؤه أنه أحب؛ كان أنه استخدم

المعرفة التي حصل عليها مصادفة، وفسحة الصمت بينهما، ليختبر احتمالًا يخدمه. أقنع نفسه أنه صادق، ولم يسأل إن كان صدقه عادلًا.

• • •

ذهب إلى كلية الطب في صباح يوم بارد من ديسمبر. انتظر زين أمام المبنى حتى انتهت محاضرته. خرج يحمل كتبًا كثيرة وملامح شخص لم ينم.

قال حين رآه: «في حاجة؟»

ـ محتاج أكلمك.

جلسا على سور منخفض قرب البوابة. مر الطلاب حولهما، ولم يكن أحد يعرف أن الرجلين الصغيرين يحملان تاريخًا بدأ بكراسة رسم ومقعد مدرسة.

قال سامر: «أنا غلطت.»

انتظر زين.

ـ مش عشان حبيتها. مش هكدب وأقول إني ندمان على إحساسي. غلطت عشان قريت رسالتك، وعرفت إنك خايف، وجزء مني شاف خوفك فرصة.

شد زين أصابعه حول حافة الكتاب.

أكمل سامر: «قلت لنفسي إنك ساكت وإنها حرة وإن أنا كمان من حقي أقول. كل ده صح، بس مش الحقيقة كلها. الحقيقة إني كنت عارف إني لو قربت في الوقت ده هزقك من المكان اللي إنت واقف فيه، حتى لو المكان ما كانش ملكك.»

قال زين: «واكتشفت ده دلوقتي؟»

ـ اكتشفته لما عملت معاها اللي كنت بلومك عليه. بقيت مستني منها رد، وبزعل لما حياتها تكمل من غيري.

نظر زين إلى البوابة. «هي قالت لك؟»

ـ قالت لي كفاية عشان أشوف نفسي.

سأل بعد صمت: «عايز مني إيه؟»

ـ ولا حاجة. بس مش عايز أفضل مستخبي ورا إنك إنت كمان غلطت. إنت غلطت، وأنا خنت ثقتك.

كانت الكلمة واضحة، ولم يحاول سامر تخفيفها.

قال زين: «أنا مسامحك.»

رفع سامر عينيه بسرعة.

أضاف زين: «بس مش عارف أثق فيك زي الأول.»

هز سامر رأسه. «فاهم.»

ـ المسامحة مش زرار يرجع كل حاجة.

ـ عارف.

وقفا. مد سامر يده، فصافحه زين. لم يتعانقا.

قبل أن يبتعد، قال زين: «ما تبعدش عنها عشان تثبت لي حاجة. هي مش عقوبة ليك ولا مكافأة ليا.»

ابتسم سامر بحزن. «واضح إننا اتعلمنا الجملة دي متأخر.»

عاد زين إلى الكلية، وبقي سامر لحظة يتابع دخوله. لم يستعد صديقه، لكنه توقف عن مطالبة الزمن بأن يمحو ما فعل.

في الجمعة التالية، اجتمعوا في بيت نادية. جلس سامر في المقعد المقابل، وجلست سالي بين الأسرتين لا بينهما. تحدثوا عن الكليات، وضحكوا، وتجنبوا مناطق كثيرة.

لم يعودوا كما كانوا. لكنهم لم يكونوا غرباء بعد.

وكان هذا هو أول درس حقيقي في سنتهم الأولى: بعض العلاقات لا تنجو بالعودة إلى صورتها القديمة، بل بقبول أن الشرخ سيظل مرئيًا، وأن المحبة ـ إن بقيت ـ عليها أن تتعلم السير من حوله.

بعد انصراف سامر، أخرجت سالي الصورة القديمة من الألبوم. كانت صورة المسابقة التي وقف فيها زين في المنتصف وكتبوا خلفها: «كنا ثلاثة، وفاز كل واحد بشيء.» أضافت تحت العبارة بخط أصغر: «ثم اكتشفنا أن الفوز لا يعني أن نخرج من الحكاية بلا خسائر.»

رآها زين تكتب، فسأل: «ليه لازم كل حاجة يبقى لها تعليق؟»

قالت: «عشان الصور بتكذب لو سبناها لوحدها. بتورينا إننا كنا بنضحك، وما تقولش إيه اللي حصل قبلها أو بعدها.»

أعادت الصورة إلى مكانها، ثم أغلقت الألبوم.

في شقته، فتح زين كتاب العلوم القديم وأخرج القائمة التي كتبها في طفولته. بقي اسما سالي وسامر متجاورين، وبقي الشطب فوق عبارة «مكاني بينهم». لم يحاول إصلاحها. كتب في أسفل الورقة تاريخ ذلك اليوم، ثم جملة واحدة: «بعض الأماكن لا تعود، لكن أصحابها قد يتعلمون الوقوف من غيرها.»

وفي غرفته البعيدة، رسم سامر ثلاثة خطوط تلتقي عند نقطة ثم تفترق. ظل ينظر إليها، قبل أن يمحو الخط الذي في المنتصف ويعيده مرة أخرى، أخف من السابق لكنه موجود.

الفصل الحادي والعشرون

حين صار الوقت عدوًا

لم يكن أصعب ما في الجامعة أن لكل كلية أبوابًا مختلفة، بل أن لكل باب ساعة لا تنتظر أحدًا.

في المدرسة، كان اليوم ينتهي حين يدق الجرس الأخير. يستطيع زين أن يعرف متى سيجد سالي في العمارة، ومتى يمر سامر، ومتى تجتمع الأسرتان حول مائدة واحدة. أما الآن، فقد صار لكل واحد منهم جدول يلتهم المساحات التي كانوا يظنون أنها ملكهم.

بدأ الفصل الدراسي الثاني بجدول عملي يمتد في بعض الأيام إلى المساء. كان زين يخرج من البيت قبل أن تستيقظ ريم، ويعود وقد انتهت ليلى من رفع أطباق العشاء. يحمل معه رائحة المطهرات، وغبار المدرجات، وصداعًا ثابتًا خلف عينيه. في البداية قاوم التعب كما يقاوم عيبًا شخصيًا. يفتح الكتب بعد منتصف الليل، ويكتب الملاحظات حتى تتداخل الحروف، ثم ينام فوق المكتب ويستيقظ مذعورًا لأنه أضاع ساعة.

كانت نادية تدخل غرفته في صمت، تضع كوب اللبن إلى جواره وتغطي كتفيه بغطاء خفيف. إذا فتح عينيه قال لها إنه مستيقظ، فتجيبه: «عارفة. الناس اللي نايمة هي اللي بتتكلم وهي مغمضة.»

كان يبتسم، ثم يعود إلى الكتاب.

أما سالي، فكانت الجامعة قد منحتها حياة تزداد اتساعًا كل يوم. انضمت إلى جماعة الصحافة، وبدأت تتدرب في إذاعة داخلية يديرها الطلاب، وصارت تتحدث عن محاضرين وأصدقاء ومشروعات بأسماء لا يعرفها زين. لم يشعر بالغيرة منهم بقدر ما شعر أنه يسمع قصة تُكتب في غيابه.

اتفقا على اللقاء مساء الثلاثاء من كل أسبوع. بدا الاتفاق بسيطًا، ثم تحول إلى امتحان.

في الثلاثاء الأول، تأخر زين ساعة لأن المعيد مدّ التدريب العملي. وجد سالي عند مقهى صغير قرب الكلية، تقلب مجلة من غير أن تقرأ. اعتذر، فقالت إن الأمر عادي. لكن الطريق إلى البيت كان أقصر مما ينبغي، والكلمات أقل من المعتاد.

في الثلاثاء الثاني، اتصلت سالي لتخبره أن اجتماع فريق الإذاعة تغيّر موعده. قال إنه يفهم. ثم أمضى المساء في الشرفة، يراقب باب العمارة كلما سمع سيارة تتوقف.

وفي الثلاثاء الثالث، نسي الاثنان الموعد. تذكرته سالي وهي في الحافلة، وتذكره زين حين رأى في الهامش كلمة كتبها لنفسه: «الثلاثاء ـ سالي».

ضحكا في الهاتف، ثم سكتا.

قالت: «إحنا بقينا محتاجين نكتب بعض في الجداول.»

ـ يمكن عشان الجداول بقت هي اللي بتحكمنا.

ـ وإحنا؟

لم يعرف ما الذي تسأل عنه تحديدًا. قال: «إحنا موجودين.»

أجابته: «الوجود لوحده ساعات ما يكفيش.»

ظل يفكر في الجملة بعد أن أغلقت الخط. كان يريد أن يقول لها إن كل ساعة يقضيها في الكلية جزء من مستقبل يظنهما داخله، لكنه خاف أن يجعل المستقبل حجة على حساب الحاضر.

وكان يريد أن يطلب منها أن تقلل ما تفعله، ثم خجل من أن تكون محبته بابًا يضيق عليها.

في نهاية الأسبوع، صعدت سالي إلى شقتهم. وجدت نادية ترتب خزانة الصالة، فجلست تساعدها. أخرجتا مفارش قديمة وصورًا وعلبًا احتفظت بها الأسرة من بيوت سابقة.

قالت نادية وهي تطوي مفرشًا مطرزًا: «زين مضغوط قوي.»

أجابت سالي: «أنا عارفة.»

ـ وإنت كمان عندك دنيا جديدة.

ـ هو شايف إني بعيدة؟

رفعت نادية رأسها. «هو ساعات بيشوف التعب أقرب من الناس. مش عشان الناس مش مهمة، عشان التعب بيقف قدام عينه.»

قالت سالي: «وأنا ساعات بحس إني لازم أفهم من غير ما يشرح.»

ـ ما تعمليش كده في نفسك. الفهم مش امتحان حب.

سكتت سالي.

أكملت نادية: «قولوا لبعض اللي ناقصكم. من غير حسابات. اللي بيحب حد مش لازم يعرف كل حاجة لوحده.»

دخل زين في تلك اللحظة، يحمل حقيبته بكتف مائل. رآهما بين الصناديق وقال: «إنتوا بتعملوا إيه؟»

قالت نادية: «بنرمي حاجات ملهاش لازمة.»

رفعت سالي صورة قديمة له وهو طفل، وقالت: «ولقينا حاجات ليها لازمة جدًا.»

حاول أن يأخذها، فخبأتها خلف ظهرها. دار حولها، فضحكت نادية، ثم سعلت سعالًا قصيرًا جعلها تتوقف لحظة وتضع يدها على صدرها.

نظر زين إليها. «إنت كويسة؟»

ـ غبار الخزانة. ولا حاجة.

فتحت النافذة، وعاد كل شيء طبيعيًا بسرعة تكفي لأن ينساه.

خرج زين وسالي إلى الشرفة. كان الهواء باردًا، والشارع مشغولًا بضوء السيارات.

قالت: «إحنا محتاجين نبطل نتعامل كأن كل تأخير معناه إن التاني اختار حاجة علينا.»

ـ أنا ما قلتش كده.

ـ وأنا ما قلتش إنك قلته. بس إحنا بنحسه.

أسند ذراعيه إلى السور. «أنا مش عارف أعمل كل حاجة.»

قالت: «ولا أنا. ومش عايزاك تعمل كل حاجة. عايزاك لما ما تعرفش، تقول.»

نظر إليها. «مفتقدك.»

ابتسمت. «وأنا مفتقداك.»

ـ رغم إنك تحتنا بدور؟

ـ المسافة مش بعدد السلالم.

اتفقا على قاعدة جديدة: لا موعد مقدس، ولا اعتذار جاهز. إذا لم يستطيعا اللقاء، يقولان بوضوح إنهما حزنا، من غير أن يحولا الحزن إلى اتهام. بدت القاعدة ناضجة، لكنها احتاجت إلى محاولات كثيرة كي تصير عادة.

أما سامر، فابتعد قليلًا كما وعد نفسه، لا عقابًا لسالي ولا خوفًا من زين. غرق في مشروعات الكلية، وصار يزور العمارة أقل. حين يأتي، يجلس مع الجميع، ويتجنب أن يخلق فرصة خاصة لا يحتاجها أحد. كان زين يلاحظ ذلك، ويشعر بالامتنان من غير أن يعرف كيف يقوله.

في أحد الأيام، اتصل به سامر ليطلب كتابًا عن التشريح الفني. قال إن أستاذ الرسم طلب دراسة حقيقية لحركة العضلات، وإن رسوم الكلية لا تكفي.

قابله زين في مكتبة الجامعة. اختارا كتابًا قديمًا مليئًا بالرسومات، وجلسا على درجات المدخل.

قال سامر: «غريبة. إنت بتشوف الجسم عشان تعالجه، وأنا بشوفه عشان أرسمه.»

أجاب زين: «وفي الآخر الاتنين لازم يعرفوا اللي تحت الجلد.»

ابتسم سامر. «يمكن عشان كده أصحاب من زمان.»

لم يقل زين شيئًا، لكنه أعطاه الكتاب.

كان ذلك أول فعل ثقة صغير بعد الشرخ. لم يعنِ أن الماضي اختفى، لكنه أثبت أن المستقبل لا يحتاج إلى أن يظل رهينة له.

مع اقتراب الامتحانات، ازدادت سرعة الأيام. كتبت سالي تقريرًا عن طالب كفيف يعتمد على تسجيل المحاضرات، ونشرته مجلة الكلية. علقت نادية نسخة منه فوق الثلاجة، إلى جوار جدول زين وصورة ريم في المدرسة.

قالت لسالي: «ده أحسن من كلام كتير بيتكتب في الجرائد.»

ضحكت سالي. «أول مرة حد يعلق مقال جنب مواعيد حقن التطعيم.»

قالت نادية: «عشان كل حاجة مهمة تبقى قدام العين.»

وقف زين أمام المقال ليلًا وقرأه كاملًا. كتب في أسفله بقلم رصاص: «صوتك واضح حتى وإنتِ بتكتبي.» ثم أعاده إلى مكانه.

في الصباح، رأت سالي الجملة. لم تسأله عنها، ولم تشكره. اكتفت بأن وضعت دائرة صغيرة حولها.

الفصل الثاني والعشرون

العلامة التي لم يقرأها أحد

بدأ الأمر بتعب لا يصلح ليكون خبرًا.

كانت نادية تتوقف قليلًا وهي تصعد السلم، ثم تكمل قبل أن يلاحظ أحد. تضع يدها على صدرها حين تحمل أكياس السوق، وتقول إن الجو خانق. وإذا سألتها ليلى لماذا لم تعد تتمشى معها في الصباح، أجابت بأن البيت لا يترك لها وقتًا.

في بيت اعتاد أن تكون الأم فيه هي من تسأل الجميع عن صحتهم، بدا السؤال عنها غريبًا، كأنهم يوجهون المرآة إلى الجهة الخطأ.

لاحظت ريم أولًا أن أمها تنام عصرًا. دخلت عليها مرة فوجدتها مستلقية بثيابها، والستارة نصف مغلقة.

قالت: «إنتِ تعبانة؟»

فتحت نادية عينيها وابتسمت. «كبرت شوية بس.»

ـ ما إنتِ كنتِ كبيرة امبارح.

ضحكت، ثم جلست. «النهارده كبرت زيادة.»

حين عاد زين، أخبرته ريم كما لو كانت تبلغ عن شيء خالف النظام. دخل على أمه في المطبخ، فوجدها تقطع الخضار.

قال: «ريم بتقول إنك نمتي العصر.»

ـ ودي جريمة؟

ـ مش عادتك.

ـ بقالي يومين مش بنام كويس.

نظر إلى وجهها. لم يكن شاحبًا بوضوح، ولم تكن تتألم. طلب منها أن تقيس ضغطها عند الصيدلية، فقالت إنها ستفعل. ثم سألته عن امتحانه، فتحول الحوار بسهولة إلى حياته.

في اليوم التالي، سألها إن قاست الضغط. قالت إنها نسيت.

كان في بداياته الطبية ما يكفي ليعرف أسماء أشياء كثيرة، وما لا يكفي ليميز الخطر حين يرتدي هيئة عادية. لم يكن يريد أن يبدو طالبًا صغيرًا يشخّص كل من حوله، ولم يكن يريد أن يخيفها. أقنع نفسه أن التعب شائع، وأن أمه لا تزال أصغر من الأمراض التي يدرسها في المحاضرات.

قال لها: «لو استمر، نروح للدكتور.»

أجابت: «حاضر يا دكتور.»

قالتها بمزاح، فاطمأن أكثر مما يجب.

في الجمعة التالية، اجتمعت الأسرتان في بيت فؤاد. أعدت ليلى الغداء، لكن نادية أصرت على إحضار صينية حلوى صنعتها في الصباح. حين وصلت إلى الطابق الثاني، جلست قبل أن تخلع معطفها.

قالت ليلى: «إنتِ مالك؟»

ـ السلم بقى أطول ولا إيه؟

اقترب فؤاد. «نقيس لك الضغط.»

قالت: «يا جماعة أنا كويسة. بس طول النهار واقفة.»

أحضر كمال جهازًا قديمًا كان يحتفظ به. جلس زين أمامها ووضع الرباط حول ذراعها. ارتبك وهو يحاول استخدامه أمام الجميع، فصحح له كمال موضع السماعة.

خرج الرقم أعلى قليلًا من المعتاد، لكنه لم يكن كافيًا وحده ليشرح التعب.

قال زين: «نروح نعمل كشف.»

ردت: «بعد الامتحانات بتاعتك.»

ـ مالهاش علاقة بامتحاناتي.

ـ كل حاجة لها علاقة. أنت يومك محسوب بالدقيقة.

قال كمال: «نروح بكرة، وخلاص.»

نظرت إليه نادية، ثم وافقت حتى ينتهي النقاش.

في الصباح، اتصلت العيادة لتؤجل الموعد لأن الطبيب اضطر إلى السفر. قال كمال إنهم سيحجزون في مكان آخر، لكن نادية بدت أفضل. أعدت الإفطار، ورتبت الشقة، ونزلت إلى السوق مع ليلى. تحول الموعد المؤجل إلى نية، والنية إلى شيء يذكرونه من حين إلى آخر ثم ينسونه.

مرت أيام.

كان زين يعود فيجد أمه كما عرفها: تسأله إن أكل، تعاتب كريم لأنه لا يتصل، تراجع واجبات ريم، وتختلف مع كمال حول مصروف البيت. لم يرَ العلامات لأنها لم تجتمع أمامه في لحظة واحدة. كل علامة جاءت منفردة، صغيرة، قابلة لتفسير مريح.

وفي مساء بارد، وجدها واقفة عند النافذة تتنفس ببطء.

قال: «ماما؟»

التفتت. «إنت جيت؟»

ـ مالك؟

ـ شوية حموضة.

ـ فين الوجع؟

أشارت إلى منتصف صدرها، ثم قالت بسرعة: «أكلت حاجة تقيلة.»

اقترب. «الوجع بيروح في دراعك؟»

ضحكت. «إنت هتمتحن عليّ؟»

ـ جاوبيني.

ـ لأ. ومفيش وجع أصلًا دلوقتي.

كان يعرف من محاضرته أن ألم الصدر لا يُستهان به. لكنه كان يعرف أيضًا أن الأعراض في الكتب مرتبة، بينما الحياة لا تقدم نفسها في نقاط واضحة. عرض أن يأخذها إلى المستشفى، فرفضت. قال إنه سيتصل بوالده، فطلبت ألا يثير ضجة قبل أن يعود.

جلست وشربت ماء. بعد دقائق، قالت إنها بخير. تحركت في البيت، وسألت ريم عن حقيبتها، ثم عادت إلى المطبخ.

حين دخل كمال، أخبره زين. غضب لأن نادية لم تتصل به، ثم هدأ حين رآها تضحك.

قال لها: «بكرة الصبح نروح. مفيش تأجيل.»

أجابت: «حاضر.»

في تلك الليلة، بقي زين مستيقظًا. دخل إلى غرفتها مرتين بحجة البحث عن كتاب. كانت تقرأ في السرير، ثم نامت بوجه هادئ. عاد إلى مكتبه، وفتح فصلًا عن القلب، لكنه لم يستطع أن يربط الكلمات بالمرأة في الغرفة المجاورة.

عند الفجر، سمع صوتها في المطبخ. وجدها تعد الشاي.

قال: «إنتِ ليه صحيتِ؟»

ـ ما نمتش كويس.

ـ لسه في وجع؟

ـ لا.

ثم نظرت إليه طويلًا، وقالت: «إنت خايف؟»

أنكر فورًا. «أنا بس عايز أطمن.»

مدت يدها ولمست وجهه. «أنا كويسة.»

كانت تقولها لتطمئنه، وهو صدقها لأنه احتاج إلى ذلك.

ذهب معها كمال إلى طبيب باطني في الظهيرة. كان زين في عملي مهم، واتصل ثلاث مرات من هاتف الكلية. عاد كمال يقول إن الطبيب طلب تخطيط قلب وتحاليل، وإنهم سيجرونها في اليوم التالي. وصف لها دواءً مؤقتًا، ونصحها بالراحة.

سأل زين: «قال إيه بالظبط؟»

ـ قال لازم نستبعد القلب.

ـ طب ما نعمل التخطيط النهارده.

قالت نادية: «المعمل قفل، وبعدين أنا تعبت من اللف.»

ـ نروح مستشفى.

ـ بكرة يا زين.

ارتفع صوته: «ليه كل حاجة بكرة؟»

توقف الجميع.

قالت نادية بهدوء: «عشان النهارده خلص.»

شعر بالذنب. جلس إلى جوارها، وأمسك يدها.

قال كمال: «أنا هاخدها الصبح بدري.»

لم يكن أحد منهم مهملًا. لم يكن أحد يريد تأجيل الخطر. كانوا فقط يتصرفون كما يتصرف الناس حين لا يعرفون أن الوقت ضاق: يثقون في الغد لأنه جاء دائمًا من قبل.

في المساء، اتصلت سالي. أخبرها زين أن أمه متعبة، فقالت إنها ستصعد. رفض أولًا حتى لا يقلقها، ثم وافق.

جاءت تحمل حساء أعدته ليلى. جلست مع نادية، وتحدثتا عن الجامعة. بدت نادية أفضل وهي تضحك. قالت لسالي إنها شاهدت مذيعة في التلفزيون لا تترك ضيفها يكمل جملة، وإن عليها ألا تصبح مثلها.

قالت سالي: «أنا أصلًا عايزة أخلي الناس تتكلم.»

أجابت نادية: «افتكري إن اللي قدامك مش موضوع. ده بني آدم.»

قالت الجملة ثم سكتت، كأن التعب مر فوق وجهها لحظة.

بعد أن عادت سالي إلى شقتها، وقف زين عند الباب معها.

قالت: «أنا ممكن أبات فوق مع ريم لو محتاجين.»

ـ لا، بابا موجود.

ـ اتصل بي لو حصل أي حاجة.

ـ مش هيحصل.

قالها بطريقة تشبه الأمر.

نظرت إليه. «ما تحاولش تتحكم في اللي خايف منه بالكلام.»

لم يرد.

أغلق الباب، وعاد إلى الصالة. كانت نادية قد نامت فوق الأريكة، وغطاها كمال. جلس زين على المقعد المقابل، يراقب ارتفاع الغطاء وانخفاضه مع أنفاسها.

قبل منتصف الليل، فتحت عينيها وقالت له: «روح نام. عندك محاضرة.»

ـ مش مهم.

ـ مهم. ما تخليش تعبي ياكل يومك.

قال: «اليوم يتعوض.»

ابتسمت. «مش كل الأيام.»

الفصل الثالث والعشرون

اليوم الذي توقف فيه البيت

استيقظ زين على صوت شيء يسقط.

لم يكن الصوت عاليًا، لكنه جاء في ساعة كان البيت فيها يعرف السكون. نهض قبل أن يفتح عينيه تمامًا، وخرج إلى الممر.

وجد كوبًا مكسورًا قرب باب المطبخ، ونادية جالسة على الأرض، تسند ظهرها إلى الحائط. كانت يدها فوق صدرها، ووجهها مختلفًا؛ ليس شاحبًا فقط، بل كأن ملامحه انسحبت إلى مكان بعيد.

قال: «ماما.»

لم تجبه فورًا.

ركع أمامها. «بصي لي.»

فتحت عينيها. حاولت أن تقول شيئًا، فلم يخرج صوت واضح.

صرخ باسم والده.

خرج كمال من الغرفة، ثم توقفت خطواته لحظة واحدة قبل أن يتحرك بسرعة. حمل الهاتف، وطلب الإسعاف. كانت ريم قد

ظهرت عند باب غرفتها، فدفعها زين برفق إلى الداخل وقال لها أن تغلق الباب.

قالت: «ماما مالها؟»

ـ اقفلي الباب يا ريم.

لم يغلق صوته الخوف. زادته الأوامر وضوحًا.

حاول زين أن يتذكر ما تعلمه. سأل أمه عن الألم، عن التنفس، عن الغثيان. كانت الإجابات مقطوعة. أعطاها قرصًا أوصى به الطبيب في الليلة السابقة، ثم تردد. كل معلومة درسها تحولت إلى احتمالات متعارضة، وكل ثانية جعلته أصغر من أن يحمل المسؤولية التي وضعها حول عنقه.

طرق كمال باب شقة فؤاد بعنف. صعد فؤاد وليلى وسالي في دقائق. أخذت ليلى ريم إلى الداخل، بينما اتصل فؤاد بطبيب يعرفه. جلست سالي قرب نادية، تمسك يدها وتقول لها إن الإسعاف قادم.

نظرت نادية إلى زين.

كانت النظرة طويلة رغم قصرها. حاولت أن ترفع يدها نحوه، فأمسكها.

قال: «أنا هنا.»

ضغطت أصابعها على أصابعه، ثم ارتخت.

قال اسمها بصوت أعلى. لم تجب.

انحنى يتحسس النبض. لم يكن واثقًا مما شعر به، أو لم يشعر به. بدأ الإنعاش كما تعلم، لكن جسد أمه لم يكن نموذجًا في قاعة التدريب. كان صدرًا احتضنه طفلًا، ويدين أطعمتاه، ووجهًا يعرف كل خوف أخفاه. ومع ذلك، أجبر نفسه أن يحوله إلى خطوات: ضغطات، تنفس، عد، إعادة.

وصل المسعفون. أبعدوه قليلًا، ثم عاد يساعد حين طلبوا. امتلأت الصالة بأصوات قصيرة وأوامر وأدوات. وقفت سالي عند الحائط، تضع يدها فوق فمها. كان كمال يجيب عن الأسئلة بصوت لا يشبهه.

في السيارة، جلس زين إلى جوار المسعف. تبعهم كمال وفؤاد بسيارة أخرى. لم يشعر بحركة الطريق. كان يراقب الشاشة

الصغيرة، ووجه الرجل الذي يعمل أمامه، ويحاول أن يقرأ من ملامحه ما لا يقوله.

عند باب الطوارئ، أخذوها إلى الداخل ومنعوه من الدخول. قال إنه طالب طب، كأن الجملة تمنحه حقًا إضافيًا. أجابه الطبيب: «استنى بره.»

وقف في الممر تحت ضوء أبيض قاسٍ. وصل كمال، ثم فؤاد. اتصلت ليلى بكريم الذي كان خارج القاهرة في عمله، ثم جلست إلى جوار ريم في البيت لا تعرف كيف تخبرها.

مرت الدقائق من غير شكل. خرج ممرض، ثم دخل. تحركت عربة معدنية، وانغلق باب. كان زين يحسب الزمن في رأسه، ثم نسي الرقم.

خرج الطبيب أخيرًا. لم يقل الجملة مباشرة. بدأ بكلمات عن جلطة حادة، وعن توقف القلب قبل الوصول، وعن محاولات استمرت طويلًا.

قال كمال: «يعني إيه؟»

نظر الطبيب إليه، ثم قال إنهم لم يستطيعوا إنقاذها.

ظل كمال واقفًا.

أما زين، فسمع الكلمات كأنها شرح لحالة تخص شخصًا آخر. قال للطبيب إن الإنعاش بدأ في البيت، وإنها كانت واعية قبل دقائق، وإنهم يمكن أن يحاولوا مرة أخرى. كان يتحدث بسرعة، يستخدم الكلمات العلمية ليبني بابًا لا وجود له.

وضع الطبيب يده على كتفه. «عملنا كل اللي نقدر عليه.»

أزاح زين يده. «لأ، هي كانت بتتكلم.»

قال فؤاد بصوت مكسور: «يا زين...»

التفت إليه بعنف. «هي كانت بتتكلم.»

لم يجبه أحد.

سمحوا لهم بالدخول. كانت نادية مستلقية بهدوء لا يشبه النوم. لا حركة في صدرها، ولا انقباض صغير بين حاجبيها، ولا ابتسامة تطمئن بها أحدًا. اقترب كمال ووضع يده فوق رأسها، ثم جلس على الكرسي كأن ساقيه فقدتا القدرة على حمله.

وقف زين عند طرف السرير.

تذكر كوب اللبن الذي تركته له ليلة سابقة. تذكر أنها قالت إن اليوم انتهى. تذكر ألم الصدر، والموعد المؤجل، وكل مرة كان يستطيع أن يصر أكثر. تجمعت التفاصيل في رأسه لا كذكريات، بل كاتهامات.

قال: «أنا كان لازم آخدها المستشفى امبارح.»

رفع فؤاد رأسه. «إنت ما كنتش تعرف.»

ـ كنت أعرف إن فيه وجع.

ـ والدكتور شافها.

ـ كان لازم أصر.

قال كمال، من غير أن ينظر إليه: «محدش كان يعرف.»

لكن زين لم يسمع في الجملة براءة. سمع أن الجميع أخطأ، وأن خطأه أكبر لأنه كان يدرس الطب.

عادوا إلى العمارة قبل الظهر، من دون نادية.

حين فُتح باب الشقة، خرجت ريم من غرفة ليلى وركضت نحو أبيها. بحثت خلفه، ثم خلف زين.

قالت: «ماما فين؟»

لم يستطع أحد أن يجيب.

نزل كمال إلى ركبتيه وضمها. فهمت من حضنه قبل أن تسمع الكلمات. بدأت تهز رأسها وتقول: «لا» كأن الرفض يستطيع أن يغير الخبر.

وصل كريم في العصر. صعد السلم راكضًا، ودخل الشقة وهو يناديها. حين رأى الوجوه، توقف. اقترب من زين وصفعه.

لم تكن الصفعة قوية، لكنها شقت الصمت.

قال كريم: «إنت كنت هنا.»

لم يدافع زين عن نفسه.

أمسك فؤاد بكريم، لكن كمال قال: «سيبه.»

وقف الشقيقان متقابلين. كانت عينا كريم ممتلئتين بذعر طفل أكبر من عمره.

قال: «إنت بتدرس طب. إزاي ما خدتش بالك؟»

أجابه زين: «ما خدتش بالي.»

انهار كريم بعد الجملة، وأمسك بقميص أخيه. تحولت المواجهة إلى عناق غير متوازن، كل منهما يتشبث بالآخر ليمنع نفسه من السقوط.

جاء الناس. امتلأت الشقة بأقارب وجيران وأكواب شاي لا يشربها أحد. تحركت ليلى بين النساء كأن البيت بيتها، ورتبت ما يجب ترتيبه لأن الحزن لا يعفي الأسرة من التفاصيل. جلس فؤاد إلى جوار كمال، يتولى المكالمات، بينما بقي سامر قرب الباب، لا يعرف أين يضع يديه.

وجد سالي في الممر.

قال: «زين فين؟»

أشارت إلى غرفته.

كان الباب مفتوحًا. جلس زين على الأرض، ظهره إلى السرير، وفي يده سماعة طبية. لم يعرف سامر إن كان ينبغي أن يدخل. دخل وجلس بعيدًا من غير كلام.

بعد وقت طويل، قال زين: «أنا سمعت قلبها امبارح.»

لم يرد سامر.

ـ كان موجود.

قال سامر: «عارف.»

ـ النهارده مش موجود.

لم يجد سامر جملة تستطيع حمل المعنى. قال فقط: «أنا هنا.»

في المساء، جلست سالي إلى جوار زين في الصالة بعد أن خف عدد الناس. لم تلمسه. كان ينظر إلى الكرسي الذي اعتادت نادية الجلوس عليه.

قالت: «آخر حاجة قالتها لي كانت عن الشغل.»

نظر إليها.

ـ قالت لي أفتكر إن اللي قدامي بني آدم، مش موضوع.

أغمض عينيه.

قال: «آخر حاجة قالتها لي إني أنام عشان عندي محاضرة.»

ـ كانت عايزاك تكمل.

ـ كانت عايزاني ما أقلقش.

ثم قال بصوت منخفض: «أنا صدقتها.»

مدت يدها هذه المرة، ووضعها فوق يده.

لم تقل إن الأمر لم يكن خطأه. كانت تعرف أن الجملة صحيحة، لكنها لا تدخل قلبًا قرر محاكمة نفسه. بقيت إلى جواره، لأن بعض اللحظات لا تحتاج إلى تفسير، بل إلى شاهد لا يهرب.

في اليوم التالي، خرجت الجنازة من المسجد القريب. وقف زين بين أبيه وكريم. كان الناس يعزونه فيقول «البقاء لله» كأن فمه تعلم العبارة منفصلًا عنه. رأى النعش يتحرك فوق الأكتاف، ولم يستطع أن يربط الصندوق بالمرأة التي كانت تفتح له الباب قبل ساعات.

عند القبر، أمسك كمال بذراعه بقوة. لم يعرف هل كان الأب يستند إلى الابن أم يمنعه من التقدم.

حين انتهى كل شيء، عادوا إلى البيت.

الفصل الرابع والعشرون

بعد الجنازة

في الأيام الأولى، لم يشعر أحد بغياب نادية لأن البيت امتلأ بالناس.

كانت الأطباق تصل من الأقارب، والأكواب تُغسل، والكراسي تتحرك، والباب لا يكاد يغلق. كل شخص يحمل ذكرى عنها ويقدمها للأسرة كأن الذكريات طعام يمكن أن يمنع الجوع.

قالت امرأة إنها لم ترها يومًا ترد محتاجًا. وقالت أخرى إنها كانت تتصل بها كلما مرض أحد. روى جار قديم كيف وقفت معهم في سفر زوجته. استمع زين إلى الحكايات واكتشف أن لأمه حياة خارج الدور الذي عرفها فيه، وأن موتها كشف له مساحات لم يسأل عنها وهي موجودة.

ثم انصرف الناس.

بدأ الغياب الحقيقي صباحًا.

استيقظ كمال ولم يجد الشاي إلى جوار سريره. دخل المطبخ، وقف أمام العلب لا يعرف أيها يحتوي على السكر، ثم خرج من غير أن يصنع شيئًا.

دخلت ريم المدرسة بقميص لم يُكْوَ جيدًا، وعادت غاضبة لأن أباها نسي ورقة مطلوبة. صرخ فيها كمال، ثم اعتذر بعد دقيقة، فبكت أكثر.

أما كريم، فبقي أسبوعًا قبل أن يعود إلى عمله. كان يغسل الأطباق بعنف، ويرتب الأشياء في أماكن خاطئة، ويعترض على أي شخص يلمس أغراض أمه. حين حاولت ليلى جمع بعض ملابسها، قال إنهم ليسوا في عجلة، وأغلق باب الغرفة.

كان زين يتحرك كأنه الوحيد الذي يجب ألا يتعب. يذهب إلى الكلية، يعود ليشتري احتياجات البيت، يراجع مع ريم، ويتأكد أن والده أخذ دواء الضغط. إذا سأله أحد عن حاله قال: «كويس.»

في أول يوم عاد فيه إلى الجامعة، دخل مدرج التشريح. كان أمام الطلاب قلب محفوظ في وعاء زجاجي. بدأ الأستاذ يشرح الشرايين التاجية، ومسار الدم، وما يحدث حين ينسد أحدها.

توقف العالم عند كلمة «ينسد».

رأى أمه فوق أرض المطبخ. سمع صوت الكوب. أحس ببرودة يدها.

خرج من المدرج قبل نهاية المحاضرة. دخل الحمام، وأغلق الباب، لكنه لم يبك. ظل يتنفس بسرعة حتى هدأ، ثم غسل وجهه وعاد إلى المحاضرة التالية.

بدأ يقرأ عن الجلطات ليلًا. لم يكن يذاكر للامتحان؛ كان يبحث عن لحظة كان يمكن أن يغير فيها النتيجة. يتتبع الأعراض، ويقارنها بما قالته نادية، ويعيد حساب الزمن من أول ألم إلى وصول الإسعاف.

وجد عشرات الاحتمالات، وكل احتمال صنع ذنبًا جديدًا.

قال له أحد الأساتذة، بعد أن سأله أسئلة تتجاوز مستوى المنهج: «المريض مش معادلة. أحيانًا تعمل الصح كله والنتيجة ما تبقاش في إيدك.»

لم يخبره زين أن المريض كان أمه.

في البيت، كانت سالي تصعد كل مساء تقريبًا. تساعد ريم في واجباتها، وتجلب معها أخبارًا صغيرة من العالم: نتيجة مسابقة،

موقف مضحك من أستاذ، شريط أغنيات جديد. لم تكن تحاول أن تجعلهم ينسون. كانت تحاول أن تذكرهم بأن الحياة لم تتوقف احترامًا لحزنهم.

ذات ليلة، وجدته في المطبخ يغسل كوبًا.

قالت: «إنت ما نمتش؟»

ـ عندي مذاكرة.

ـ بقالك أسبوعين عندك مذاكرة.

ـ أنا في طب.

ـ وإنت بني آدم قبل ما تكون في طب.

أغلق الماء. «أنا كويس.»

قالت: «كل مرة تقولها بتبقى أقل تصديقًا.»

ـ عايزاني أعمل إيه؟

ـ ولا حاجة محددة. بس ما تبقاش المسؤول عن كل الناس عشان ما تضطرش تبص لنفسك.

التفت إليها. «بابا مش قادر، وكريم رجع شغله، وريم صغيرة.»

ـ وأنا وليلى وفؤاد موجودين.

ـ ده بيتنا.

ـ من إمتى البيوت اتفصلت؟

رفع صوته: «من إمتى لازم أعتمد على الناس في كل حاجة؟»

سكتت لحظة، ثم قالت: «يمكن من يوم ما بقينا ناس.»

خرجت من المطبخ. شعر أنه ظلمها، لكنه لم يلحق بها.

في اليوم التالي، لم تصعد. مر يوم آخر، ثم ثالث. عرف أنها تمنحه مساحة، أو تحمي نفسها من قسوته. لم يعرف أي الاحتمالين يؤلمه أكثر.

جاء سامر في الجمعة. أحضر لوحة صغيرة رسم فيها نادية من صورة قديمة، وهي تضحك في شرفة العمارة. لم يحاول أن يجعلها صورة مثالية؛ رسم الخطوط حول عينيها، والشعرة التي خرجت من غطاء رأسها، وحركة يدها وهي تحمل كوبًا.

بكى كمال للمرة الأولى حين رآها.

وقف طويلًا أمام اللوحة، ثم قال: «حطها مكان الساعة.»

اعترضت ريم: «ماما كانت بتحب الساعة.»

قال كمال: «تبقى اللوحة جنبها.»

نظر زين إلى سامر. لم يقل شكرًا، لكنه أمسك كتفه لحظة. فهم سامر.

بعد أن انصرف، وجد زين سالي عند السلم. كانت نازلة إلى شقتها.

قال: «أنا آسف.»

توقفت.

ـ كنت بتكلم كأن وجودكم فضل.

قالت: «أنا ما زعلتش عشان ما شكرتنيش. زعلت عشان إنت بتعاقب نفسك، وكل ما حد يقرب، بتعاقبه معاك.»

جلس على الدرجة. جلست إلى جواره.

قال: «كريم عنده حق.»

ـ في إيه؟

ـ كنت هنا. كان لازم أعرف.

ـ إنت كنت ابنها، مش دكتورها.

ـ كنت الاتنين.

ـ لأ. إنت طالب في سنة أولى، وخايف على أمه. والدكتور نفسه طلب تحاليل تاني يوم.

قال: «لو كنت أصريت...»

قاطعته: «ممكن كانت تروح وتلحق. وممكن ما تلحقش. إنت بتختار احتمال واحد عشان تقدر تحط نفسك في مكان المتحكم. الذنب أوقات بيبقى أسهل من الاعتراف إننا مش قادرين نمنع كل حاجة.»

نظر إليها. لم يكن يتوقع أن تأتي الجملة منها بهذه القسوة والرحمة معًا.

قالت: «أنا كمان سألت نفسي لو كنت فضلت فوق، لو كنت قلت لليلى، لو كنت ناديت فؤاد. كلنا بنعيد الليلة عشان نلاقي باب يرجعنا. مفيش باب.»

انحنى ووضع وجهه بين يديه.

للمرة الأولى منذ المستشفى، بكى.

لم يكن بكاءً هادئًا. خرج من جسده كشيء قاومه طويلًا. جلست سالي إلى جواره، ووضعت يدها فوق ظهره. لم تقل شيئًا.

من شقتها، سمعت ليلى الصوت. اقتربت من الباب، ثم تراجعت. كانت تعرف أن بعض الأبواب تُفتح حين نتركها مغلقة.

بعد ذلك اليوم، لم يختف الذنب، لكنه فقد احتكاره للكلام. صار زين يستطيع أن يقول: «أنا افتكرتها» أو «أنا مش قادر أذاكر» أو «أنا غضبان» من غير أن يحول الجملة إلى مهمة يجب حلها.

بدأ البيت يتعلم نظامًا جديدًا. رتبت ليلى جدول الطعام مع كمال. تولت سالي مساعدة ريم يومين في الأسبوع. اتصل كريم كل مساء، وعاد في نهاية كل أسبوع تقريبًا. أما زين، فبقي مسؤولًا، لكنه لم يعد يتصرف كأن المسؤولية تعني الوحدة.

في الأربعين، اجتمعت الأسرة حول مائدة صغيرة بعد قراءة القرآن. كانت اللوحة الجديدة معلقة إلى جوار الساعة. توقف عقرب الثواني لحظة بسبب بطارية ضعيفة، فنهض كمال ليغيرها.

قالت ريم: «سيبها واقفة.»

سألها: «ليه؟»

ـ عشان الوقت ما يمشيش بعيد عنها.

جلس كمال مرة أخرى، ولم يغير البطارية.

بقيت الساعة متوقفة عدة أيام. ثم، في صباح لم يتفقوا عليه، وضع زين بطارية جديدة.

نظر إليه والده.

قال زين: «هي ما كانتش بتحب الساعات البايظة.»

بدأ العقرب يتحرك.

الفصل الخامس والعشرون

ما تبقى من الأم

بعد شهرين، قرر كمال فتح خزانة نادية.

لم يعلن القرار، ولم يدع أحدًا. دخل الغرفة في صباح الجمعة، وفتح الضلفتين، ثم بقي واقفًا أمام الملابس. كان العطر الخفيف ما زال عالقًا بالقماش، فمد يده إلى فستان أزرق وأعاده بسرعة، كأن لمسه اعتداء على زمن لم يبرد بعد.

وجدته ريم هناك.

قالت: «بتعمل إيه؟»

ـ بنرتب.

ـ ليه؟

ـ عشان الحاجات ما تبوظش.

دخلت ووقفت بينه وبين الخزانة. «مش عايزة حد ياخد هدومها.»

قال: «محدش هياخد حاجة من غير ما نتفق.»

جلست فوق السرير. «سيبها زي ما هي.»

لم يستطع أن يشرح لها أن الأشياء لا تبقى كما هي حتى لو لم نلمسها. تتغير رائحتها، ويعلوها الغبار، ويصير وجودها نفسه عبئًا. أغلق الخزانة وقال إنهم سيؤجلون.

وصل كريم في الظهر، فثار حين عرف. اتهم والده بأنه يريد التخلص من أثرها، ثم اعتذر بعد ساعة. صار الاعتذار لغة البيت الجديدة؛ الجميع يجرح الجميع لأن الحزن يجعل الجلد أرق، ثم يعودون فيحاولون الإصلاح.

اقترحت ليلى أن تقسم بعض الأشياء بين ريم وسالي، وتحفظ البقية. رفض زين أن يأخذ شيئًا. قال إن لديه ما يكفي من الذكريات.

لكنه في الليل، دخل الغرفة وحده.

فتح درج المنضدة، فوجد دفترًا صغيرًا كانت نادية تكتب فيه مصروف البيت ومواعيد الأطباء وأرقام الهواتف. بين الصفحات، ظهرت ملاحظات لا تخص الحسابات:

«زين عنده امتحان الثلاثاء ـ ما نعملش دوشة.»

«سالي أول يوم تدريب ـ نسألها عملت إيه.»

«كريم زعلان من الشغل ـ ما نضغطش عليه.»

«ريم محتاجة حذاء جديد.»

كانت تدير حياتهم في سطور لا يعرفون أنها موجودة. لم تكتب عن نفسها إلا مرتين: «تعبت وأنا طالعة السلم» و«أحجز دكتور».

جلس زين على الأرض والدفتر في يده. كان التاريخ إلى جوار الملاحظة الأولى سابقًا لوفاتها بأسبوعين.

قرأها مرارًا.

دخل كمال، فرآه.

قال زين: «هي كانت عارفة إنها تعبانة.»

جلس الأب على طرف السرير. «كانت بتقول تعب عادي.»

ـ كتبت تحجز دكتور.

ـ وحجزنا.

ـ متأخر.

تنهد كمال. «إنت عايز تحاكم مين؟»

لم يرد.

قال الأب: «لو عايز تحاكمني، حاكمني. أنا جوزها، وأنا اللي قلت نستنى لبكرة. لكن ما تحولش أمك لقضية طول عمرك.»

رفع زين عينيه.

ـ يعني أنسى؟

ـ لأ. افتكرها عايشة، مش بس وهي بتموت.

كانت هذه أول مرة يتحدث كمال بوضوح منذ الجنازة. بدا أكبر بعشر سنوات، لكن صوته استعاد شيئًا من سلطته القديمة.

أخذ الدفتر من يد زين وقلب صفحاته.

قال: «أمك ما كانتش بتحب حد يعيش مذنب. حتى لما حد يغلط، كانت تدور له على مخرج.»

ـ يمكن المرة دي مفيش مخرج.

ـ يبقى نعمله.

أعاد إليه الدفتر. «خده. بس لما تقراه، اقرأ كله.»

حمله زين إلى غرفته. في الصفحات الأخيرة، وجد قائمة مشتريات ناقصة، ووصفة حلوى، ورقم خياطة، ثم جملة كتبتها

من غير تاريخ: «البيت مش اللي فيه كل حاجة موجودة. البيت اللي الناس فيه تعرف ترجع لبعض.»

لم يعرف سبب كتابتها، ولا لمن كانت موجهة. لكنه شعر أنها تركت جملة تكفيهم جميعًا.

في الأسبوع التالي، قسمت الأسرة الملابس. اختارت ريم الفستان الأزرق، رغم أنه أكبر منها بسنوات، وقالت إنها سترتديه حين تكبر. أخذت ليلى شالًا كانت نادية تحبه. أما سالي، فرفضت أولًا، ثم أعطاها كمال قلمًا فضيًا وجدوه في حقيبة نادية.

قال: «كانت بتكتب بيه قوائمها.»

أمسكته سالي بحذر. «ده ليكم.»

ـ إنتِ من البيت.

كانت جملة بسيطة، لكنها جعلتها تبكي.

أخذ زين سماعتها الطبية القديمة؟ لم تكن نادية طبيبة، ولم يكن لديها ما يربطه بالمهنة. اختار بدلًا من ذلك ساعة يد صغيرة توقفت في الليلة التي ماتت فيها. أصلحها عند صانع ساعات، وبدأ يرتديها في الكلية.

حين لاحظت سالي، سألته: «مش بتضايقك؟»

قال: «بتفكرني إن الوقت مش مضمون.»

ـ وده مريح؟

ـ لأ. بس صادق.

كانت هي قد بدأت تدريبًا قصيرًا في صحيفة أسبوعية. تنقل الأخبار الصغيرة، وتفرغ مقابلات طويلة، وتصنع القهوة لمحررين لا يتذكرون اسمها. جاءت يومًا غاضبة لأن أحدهم أخذ فقرة كتبتها ووضع اسمه فوقها.

قال زين: «قولي لرئيس التحرير.»

ـ أنا متدربة. هيقول لي اتعلمي الأول.

ـ يبقى سيبيه؟

ـ مش هسيبه، بس لازم أختار المعركة.

نظر إلى قلم نادية في يدها. «ماما كانت هتقول لك إيه؟»

فكرت. «كانت هتقول افتكري إن اللي قدامك بني آدم. بس غالبًا كانت هتضيف إن البني آدم ممكن يبقى قليل الأدب.»

ضحك للمرة الأولى من قلبه منذ شهور.

سمع كمال الضحكة من الصالة. توقف عن تقليب الجريدة، ونظر إلى الباب المغلق. لم يدخل. اكتفى بأن ابتسم لنفسه.

في الجامعة، تغيرت علاقة زين بالدراسة. لم يعد يريد النجاح فقط. صار يسأل أسئلة تربك بعض المعيدين، ويطلب حضور مناقشات لا تخص سنته. انجذب إلى القلب لا لأنه عضو أكثر شاعرية من غيره، بل لأنه رآه قادرًا على اختصار حياة كاملة في توقف واحد.

قال له زميل اسمه حسام: «إنت ناوي تبقى قلب من دلوقتي؟ لسه قدامنا سنين.»

أجابه: «مش ناوي. بس عايز أفهم.»

كان الفهم عنده محاولة متأخرة للإنقاذ.

زاره سامر في الكلية مرة، ليعيد كتاب التشريح الفني. انتظر معه قرب المشرحة، ورأى الطلاب يخرجون بوجوه مرهقة.

قال: «أنا كنت فاكر رسومات الجسم صعبة. واضح إن الحقيقة أصعب.»

أجاب زين: «الحقيقة دايمًا فيها حاجات الرسم بيقدر يخبيها.»

ـ والرسم ساعات يطلع حاجات الحقيقة مخبياها.

جلسا في الكافتيريا. أخبره سامر عن مشروع يصمم فيه ملصقًا لمسرحية، وعن أستاذ قال له إن خطوطه جميلة لكنها تخاف من الفراغ.

قال زين: «يمكن عشان إنت بتملأ كل مساحة قبل ما تعرف محتاجة إيه.»

ابتسم سامر. «بتتكلم عن اللوحة ولا عني؟»

ـ الاتنين.

ضحكا. كان بينهما الآن نوع جديد من الصداقة: أقل عفوية، وأكثر انتباهًا. لم يعد سامر يدخل البيت من غير أن يطرق، ولم يعد زين يفتش في كل كلمة عن خيانة قديمة. الشرخ لم يختف، لكنه توقف عن الاتساع.

في نهاية الفصل الدراسي، نجح زين بتقدير مرتفع. علقت ريم النتيجة إلى جوار مقال سالي، في المكان نفسه الذي كانت نادية تضع فيه كل ما تراه مهمًا.

قال كمال: «أمك كانت هتفرح.»

أجاب زين: «عارف.»

هذه المرة، لم تتحول الجملة إلى سكين. كانت موجعة، نعم، لكنها حملت معها صورة نادية وهي ترفع الورقة وتقول إن الدرجة لا تساوي النوم الذي خسره.

ليلتها، فتح زين دفترها وكتب في الصفحة الأخيرة: «نجحت. البيت لسه بيرجع لبعض.»

أغلق الدفتر ووضعه في الدرج. فوق الحائط، ظلت النتيجة معلقة في المكان الذي كانت نادية تختاره للأشياء المهمة.

الفصل السادس والعشرون

قلب لا ينام

دخل زين عامه الجامعي الثاني وهو يحمل عادات رجل أكبر منه.

يستيقظ قبل المنبه، يراجع جدول البيت قبل جدوله، ويتأكد أن ريم أخذت مصروفها وأن كمال تناول دواءه. صار كريم يمزح بأنه تحول إلى «ست البيت»، فيضحك زين ثم يعيد ترتيب الأكواب التي تركها أخوه.

لكن المسؤولية لم تمنحه الهدوء. في الليل، كان يستيقظ على أصوات غير موجودة: كوب يسقط، خطوة في الممر، سعال قصير. يقوم ليتفقد الغرف، ثم يعود إلى سريره. أحيانًا يضع أصابعه فوق معصمه ويعد نبضه حتى ينام.

أخبر سالي بذلك بعد أسابيع.

قالت: «محتاج تتكلم مع حد متخصص.»

رد فورًا: «أنا مش مجنون.»

ـ وأنا ما قلتش كده.

ـ الناس هتقول إيه؟

ـ الناس مش بتصحى مكانك كل ليلة.

كان مفهوم العلاج النفسي في عالمهم محاطًا بالخجل والنكات. حتى في الكلية، يتحدث بعض الطلاب عن المرضى النفسيين كأنهم كائنات منفصلة. قاوم الفكرة، ثم وافق بعد ليلة استيقظ فيها وهو يضغط على صدر ريم ليتأكد أنها تتنفس.

ذهب إلى طبيب أوصى به أستاذه. دخل العيادة متوترًا، وجلس كأنه في امتحان. سأله الطبيب عن أمه، وعن شعوره بالذنب، وعن النوم. أجاب بعبارات قصيرة، ثم قال فجأة: «أنا لو ما خفتش، ممكن حاجة تحصل.»

سأله الطبيب: «الخوف هو اللي بيحميهم؟»

ـ بيخليني أخد بالي.

ـ وهل منع موت والدتك؟

كره السؤال، ثم أدرك أن كراهيته لا تجعله خاطئًا.

استمرت الجلسات أشهرًا متباعدة. لم يخرج منها شخصًا آخر، ولم يختف الكابوس. لكنه بدأ يميز بين الانتباه والسيطرة، وبين المسؤولية والعقاب. تعلم أن يترك ريم تذهب في رحلة المدرسة

من غير أن يتصل كل ساعة، وأن ينام أحيانًا قبل أن يعود كمال من زيارة صديق.

كانت سالي الوحيدة التي تعرف. لم تسأله بعد كل جلسة ماذا قال، ولم تحول العلاج إلى مشروع. كانت تنتظر أن يفتح الموضوع.

قال لها مرة: «الدكتور بيقول إني بحاول أشتغل طبيب لكل اللي بحبهم.»

أجابت: «وأنا من زمان بقول لك إننا مش حالات.»

ـ إنت بتحبي تكسبي حتى قدام الدكتور؟

ـ طبعًا. خصوصًا لو هو غالي.

ابتسم.

بدأت علاقتهما تستعيد مساحات ضاعت في الحزن. يلتقيان بعد المحاضرات، يتشاركان السندوتشات في حديقة عامة، ويختلفان حول فيلم أو مقال. لم تعد كل لحظة بينهما محملة بالخوف من المستقبل، لكن ظل في داخلهما شعور بأن شيئًا يمكن أن ينتهي فجأة.

دفعهما ذلك أحيانًا إلى الصراحة، وأحيانًا إلى التعلق.

في يوم عيد ميلاد سالي، أخذها زين إلى سطح العمارة. كانا قد انقطعا عن الصعود إليه بعد وفاة نادية، لأن المكان ارتبط بطفولة تبدو بعيدة. أزاحا صندوقًا قديمًا، وبحثا عن الشق الذي خبآ فيه العلبة المعدنية.

قالت سالي: «إحنا اتفقنا نفتحها لما نبقى عشرين.»

ـ إنت لسه تسعتاشر.

ـ ناقص شهور.

ـ القواعد قواعد.

جلست قرب السور. «من إمتى وإنت بتحترم القواعد؟»

ـ من لما بقيت دكتور تقريبًا.

ضحكت. «تقريبًا دي أهم كلمة.»

لم يفتحا العلبة. اكتفيا بالتأكد أنها ما زالت في مكانها. كان الصدأ قد غطاها أكثر، والحجر فوقها تحرك قليلًا.

قالت: «تفتكر الورقة لسه سليمة؟»

ـ حتى لو باظت، إحنا عارفين كان مكتوب إيه.

ـ اسمينا بس.

ـ وقتها كانوا كفاية.

نظرت إليه. «ودلوقتي؟»

قال: «دلوقتي محتاجين نعرف إحنا مين جنب الأسماء.»

كانت دراستها قد بدأت تأخذها إلى التدريب الميداني. أجرت أول مقابلة مسجلة مع عامل قديم في استوديو الإذاعة. عادت متحمسة، ثم اكتشفت أن الشريط لم يسجل بسبب خطأ تقني. بكت من الغيظ، وأرادت أن تترك التدريب.

قال لها زين: «اعملي المقابلة تاني.»

ـ الراجل مش هيفتكر نفس الكلام.

ـ يمكن يقول أحسن.

ـ ويمكن يرفض.

ـ يبقى اتعلمتِ إن الجهاز يتجرب قبل المقابلة.

نظرت إليه بحدة. «أنا مش عايزة درس.»

توقف. «آسف.»

جلسا في صمت.

بعد قليل، قال: «عايزة إيه؟»

ـ تقول لي إن الموقف يضايق.

ـ يضايق جدًا.

ـ وإن أنا مش فاشلة.

ـ إنتِ مش فاشلة.

ـ من غير ما تصلحه.

ـ حاضر.

ابتسمت رغم نفسها. «إنت بتتعلم.»

قال: «غصب عني.»

أعادت المقابلة، وكانت النسخة الثانية أعمق. أخبرها العامل أشياء نسيها في المرة الأولى. حين بث التقرير، جاء صوتها واضحًا، هادئًا، يترك للرجل المساحة التي أوصتها نادية بها.

استمع زين في البيت، ومعه كمال وريم وليلى وفؤاد. حين انتهى، قال فؤاد بصوت فخور إن ابنته ستصبح أشهر مذيعة في مصر. قالت سالي إنها ربما تفضل الكتابة. اختلف الأب والابنة في مزاح، بينما نظر زين إلى القلم الفضي بين أصابعها.

في الكلية، دخل لأول مرة جناح القلب ضمن جولة تعليمية. كان المرضى مستلقين في أسرة متقاربة، ولكل واحد قصة تختصرها الورقة في تشخيص ورقم. وقف عند رجل في الخمسين يشكو ألمًا مشابهًا لما وصفته أمه. شعر أن الغرفة تضيق، لكنه لم يخرج.

سأل المريض عن بداية الألم، وعن ضيق التنفس، واستمع إلى قلبه. كانت يده ثابتة رغم ارتجافه الداخلي.

بعد الجولة، قال له الأستاذ: «سؤالك كان مهم.»

لم يعرف الأستاذ أن السؤال تأخر عامًا كاملًا.

عاد إلى البيت وأخبر كمال أنه يريد أن يتخصص في جراحة القلب يومًا ما.

قال الأب: «الجراحة طريق صعب.»

ـ عارف.

ـ وسنينه طويلة.

ـ عارف.

نظر إليه كمال. «عايزها عشان أمك؟»

فكر زين. «بدأت عشانها. بس مش عايز أفضل فيها بس عشانها.»

هز كمال رأسه. «خلي بالك. الميت ما ينفعش يختار لنا حياتنا.»

كانت الجملة مؤلمة، لكنها صحيحة. بدأ زين يسأل نفسه إن كان يحب المجال حقًا، أم يطارد لحظة مستحيلة. ومع كل جولة جديدة، وجد أنه لا ينجذب فقط إلى القلب المتوقف، بل إلى الدقة المطلوبة لإصلاحه، وإلى العمل الجماعي في غرفة العمليات، وإلى الحدود الرفيعة بين الجرأة والتهور.

صار حلمه أقل شبهًا بتكفير الذنب، وأكثر شبهًا باختيار.

في نهاية العام، وقف مع سالي أمام باب العمارة. كان سامر قادمًا يحمل لوحة كبيرة، وريم تنادي من الشرفة، وكمال وفؤاد يختلفان في الأعلى حول مباراة.

قالت سالي: «إحنا كبرنا؟»

نظر إلى السلم. «شوية.»

ـ حاسّة إن السنة دي كانت عشر سنين.

ـ وأنا حاسس إنها يوم واحد طويل.

صعدا معًا. عند الطابق الثاني، توقفت سالي.

قالت: «بكرة عندي تدريب بدري.»

ـ وأنا عندي مستشفى.

ـ نشوف بعض إمتى؟

نظر إلى ساعة نادية في يده. «لما نعرف. بس ما نختفيش.»

قالت: «اتفقنا.»

دخلت شقتها، وأكمل هو إلى الطابق الثالث.

الفصل السابع والعشرون

أحلام تسير بسرعات مختلفة

في الصيف التالي، اكتشف زين وسالي أن الإجازة كلمة تستخدمها الجامعات ولا تعني بالضرورة أن الحياة تتوقف.

حصلت سالي على فرصة تدريب في مبنى التلفزيون. لم يكن التدريب لامعًا كما تخيلته. تقضي ساعات في انتظار منتج مشغول، وتنقل أوراقًا بين المكاتب، وتجلس خلف زجاج الاستوديو تراقب أشخاصًا يتحدثون في الضوء بينما يصرخ آخرون في الظلام لضبط الصورة والصوت.

لكنها كانت سعيدة.

عادت في أول يوم تحمل بطاقة مؤقتة حول رقبتها، وظلت تحكي عن الممرات والكاميرات وغرفة المونتاج. جلست الأسرة في بيت فؤاد تستمع إليها. كان فؤاد أكثر حماسًا منها، يسأل عن المذيعين الذين رأتهم، بينما كانت ليلى تسأل إن كانت أكلت.

وصل زين متأخرًا من تدريب تطوعي في مستشفى جامعي. كان قميصه ملتصقًا بظهره من حر أغسطس، وعيناه حمراوين من السهر.

قالت سالي: «كنت مستنياك. حكيت لهم كل حاجة مرتين.»

جلس إلى جوارها. «احكي التالتة.»

بدأت من جديد، لكنه فقد خيط الحكاية بعد دقائق. كان يفكر في مريض دخل الطوارئ ولم يجدوا له سريرًا، وفي الطبيب المقيم الذي ظل واقفًا ست عشرة ساعة. حين سألته سالي عن رأيه في فكرة برنامج اقترحتها، احتاج إلى أن يعيد السؤال.

قالت: «إنت مش معايا.»

ـ سامعك.

ـ سامع صوتي، مش الكلام.

اعتذر. حاول أن يركز، لكن التعب كان أقوى من النية.

بعد أن نزل إلى شقته، قالت ليلى لابنتها: «ما تزعلوش من بعض عشان يوم طويل.»

أجابت سالي: «أنا مش زعلانة من اليوم. أنا خايفة الأيام كلها تبقى كده.»

في الصباح التالي، أرسل لها زين ورقة صغيرة مع ريم: «احكي لي عن البرنامج بعد ما أنام ست ساعات. المرة دي هاسمع.»

ضحكت، وكتبت تحتها: «ست ساعات كاملة؟ واضح إن الطب في إجازة.»

التقيا عصرًا في مقهى هادئ. شرحت له فكرتها عن برنامج يستضيف أصحاب المهن التي لا يراها الناس، من عامل الإضاءة إلى عامل النظافة في المستشفى. استمع، وسأل، واقترح عليها أن تبدأ كل حلقة بصوت المكان قبل ظهور الضيف.

قالت: «أهو ده زين اللي أعرفه.»

أجاب: «النسخة دي محتاجة نوم وصيانة.»

كان الخلاف قد انتهى، لكن السؤال بقي. ماذا يحدث حين تصبح ساعات أحدهما أثقل من ساعات الآخر؟

حاول كل منهما دخول عالم الثاني. أخذته سالي إلى الاستوديو في يوم سمحوا فيه للمتدربين باستقبال ضيف. وقف خلف

الزجاج، اندهش من عدد الأشخاص اللازمين لصناعة دقائق تبدو للمشاهد سهلة. ورأى سالي حين تضع السماعة وتقرأ نصًا تجريبيًا؛ لم تكن الفتاة التي تنتظره على السلم، بل شابة تعرف أين تنظر ومتى تصمت.

قال لها بعد الخروج: «إنت بتتغيري قدام الميكروفون.»

سألته بقلق: «لوحش؟»

ـ لأ. بتبقي أوضح.

وفي أسبوع آخر، انتظرته هي عند المستشفى. لم يسمح لها بالدخول إلى الأقسام، فجلست في الحديقة الخارجية ساعة. خرج وقد نسي أنها تنتظره. وجدها تقرأ جريدة على مقعد حديدي.

قال: «أنا آسف. الحالة طولت.»

أغلقت الجريدة. «المريض كويس؟»

ـ لسه.

ـ يبقى كويس إني استنيت.

سارا نحو محطة الحافلات. حكى لها عن الحالة من غير أسماء، وعن شعوره بالعجز. لم تقل له إن عليه ألا يحمل كل شيء. قالت:

«واضح إنك بقيت تعرف تفضل موجود حتى لما ما تقدرش تصلح.»

فهم أنها تتحدث عن أكثر من المستشفى.

في منتصف الصيف، اقترح فؤاد رحلة قصيرة إلى الإسكندرية. وافق الجميع، لكن زين اعتذر لأن التدريب يتعارض مع الموعد.

قال كمال: «التدريب تطوعي. تقدر تعتذر يومين.»

ـ فيه ناس معتمدة عليّ.

ابتسم كريم: «الطوارئ هتقفل من غيرك؟»

لم يعجبه المزاح. «أنا التزمت.»

قالت سالي إنها ستبقى أيضًا، ثم تراجعت حين أصر عليها فؤاد. قبل السفر، صعدت إلى زين.

قالت: «أنا مش عايزة أحس إني بسيبك.»

ـ إنتِ رايحة يومين مع أهلك، مش مهاجرة.

ـ وإنت ما تزعلش؟

ـ هزعل إني مش جاي، مش منك.

كان هذا تقدمًا صغيرًا: أن يفرقا بين الحزن واللوم.

سافرت الأسرة. بقيت العمارة هادئة على نحو أعاد إلى زين ليالي ما بعد الجنازة. عاد من المستشفى، دخل بيتًا فارغًا لأن كمال ذهب مع فؤاد، وريم أصرت على الرحلة، وكريم في عمله. فتح الثلاجة فوجد طبقًا تركته ليلى، وورقة من سالي: «ما تنساش إن الناس اللي في حياتك مش محتاجة تقع عشان تسمح لنفسك تشتاق لها.»

قرأها مرتين.

اتصل بها من الهاتف الأرضي في شقة فؤاد. ردت ليلى، ثم نادتها. جاء صوت البحر خلفها، وضحكات بعيدة.

قال زين: «أنا مفتقدك.»

أجابته: «وأنا كمان.»

ـ وما حصلش حادث يستدعي الاعتراف.

ضحكت. «تقدم طبي ملحوظ.»

تحدثا عشر دقائق. لم يناقشا المستقبل، ولم يضعا حلولًا لاختلاف الجداول. اكتفيا بأن يتركا صوت كل منهما يصل إلى الآخر.

حين عادت الرحلة، أحضرت له سالي حجرًا صغيرًا من الشاطئ.

قال: «ده هدية؟»

ـ أيوه.

ـ حجر؟

ـ عشان تفتكر إن فيه حاجات بتفضل مكانها حتى والموج شغال طول الوقت.

وضعه فوق مكتبه إلى جوار ساعة نادية.

الفصل الثامن والعشرون

الطريق الذي لم ينتبهوا إليه

مع بداية العام الجامعي الجديد، دخلت سالي سنتها الثالثة وهي تحمل ثقة أكبر وبطاقة تدريب دائمة لمدة ثلاثة أشهر. أما زين، فصار يقضي يومين أسبوعيًا في المستشفى إلى جوار المحاضرات، وبدأ اسمه معروفًا لدى بعض الأطباء المقيمين بوصفه الطالب الذي يسأل كثيرًا ويبقى بعد انتهاء الجولة.

قال له حسام: «إنت بتستعجل السنين ليه؟»

أجاب: «مش بستعجل. بس مش عايز أضيّعها.»

كان يخشى أن تبدو أي ساعة غير منتجة خيانة للوقت الذي لم تحصل عليه أمه. احتاج إلى جلسات كثيرة ليفهم أن الراحة ليست إهدارًا، لكنه ظل يفهم الفكرة بعقله أكثر مما يطبقها بجسده.

في المقابل، تعلمت سالي أن الظهور في عالم الإعلام لا يعتمد على الموهبة وحدها. هناك من يملك علاقات، ومن يعرف كيف

يمدح المسؤول المناسب، ومن يتكلم أكثر مما يعمل. كانت ترفض اللعبة، ثم تكتشف أنها لا تستطيع تجاهلها تمامًا.

عرض عليها منتج شاب أن تنضم إلى فريق إعداد برنامج أسبوعي. العمل من دون أجر تقريبًا، لكنه يمنحها فرصة حقيقية. وافقت قبل أن تسأل عن المواعيد، ثم اكتشفت أن الاجتماعات تنتهي ليلًا.

اعترض فؤاد.

قال: «البنت ما ترجعش لوحدها بعد عشرة.»

ـ فيه عربية بتوصل الفريق.

ـ عربية مين؟ وسواق مين؟

ـ كل البنات بيرجعوا كده.

ـ إنتِ مش كل البنات.

دخل النقاش مرحلة يعرفها البيت: كل طرف يكرر حجته بصوت أعلى، وليلى تحاول الترجمة بينهما. اتصل فؤاد بزين وسأله عن رأيه، كأنه يستدعي حكمًا محايدًا.

قال زين: «لو العربية معروفة وبتوصلها للباب، ممكن نجرب.»

نظرت إليه سالي بامتنان.

أضاف: «بس ما ينفعش كل يوم.»

اختفت نظرتها.

قالت: «ليه؟»

ـ عشان الدراسة، وعشان الأمان.

ـ أنا اللي أحدد أقدر أوفق ولا لأ.

قال فؤاد: «شايفة؟ حتى زين بيقول كده.»

شعرت أنه تحول من حليف إلى شاهد ضدها.

بعد أن هدأ النقاش، واجهته عند المدخل.

قالت: «إنت قلت رأيك عشان مقتنع، ولا عشان ترضي بابا؟»

ـ مقتنع إن الرجوع المتأخر كل يوم مش آمن.

ـ وأنا موافقة. بس كان ممكن تسألني الأول عن التفاصيل.

ـ عمو فؤاد سألني.

ـ وأنا مش حالة طبية بيتشاور فيها الرجالة.

تراجع خطوة. «ما قصدتش.»

ـ القصد مش بيمسح النتيجة. فاكر؟

عرف العبارة. كانت قد قالتها لسامر أمام بوابة الكلية، ثم صارت قاعدة بينهم جميعًا.

قال: «عندك حق.»

ذهبت إلى أبيها بنفسها، وقدمت جدولًا واضحًا، واسم المنتج، ورقم السيارة، وأسماء زميلاتها. وافق على ثلاثة أيام أسبوعيًا بشرط أن تتصل قبل المغادرة. لم يكن انتصارًا كاملًا، لكنه كان قرارها.

اعتذر زين مرة أخرى. قالت إنها قبلت، ثم أضافت: «أنا محتاجة لما تحب تحميني، ما تاخدش صوتي مني.»

قال: «وأنا محتاج أعرف الفرق.»

ـ اسألني.

بدأ العمل. صارت تعود متعبة وممتلئة بالحكايات. أحيانًا تجد زين ينتظرها عند باب العمارة، لا ليراقب موعدها، بل ليراها

دقائق قبل أن يصعدا. وفي أحيان أخرى، يكون في المستشفى فلا يلتقيان أيامًا.

كان سامر قد بدأ مشروع تخرج مبكرًا لمعرض طلابي عن «المدينة التي تتغير». رسم عمارات مصر الجديدة وقد أكلت اللافتات أجزاء من واجهاتها، ورسم شرفة قديمة خلف جهاز تكييف حديث، ورسم سلم العمارة رقم 12 من أسفل، من غير أن يظهر الأشخاص.

قالت سالي وهي ترى اللوحة: «ليه السلم فاضي؟»

أجاب: «عشان الناس اللي طلعوه موجودين في الأثر، مش لازم في الصورة.»

نظر زين إلى الدرجات المرسومة. قال: «في درجة ناقصة.»

ضحك سامر. «إنت حافظهم؟»

ـ أيوه.

أضاف سامر الدرجة في اليوم التالي.

في مساء خريفي، انتهى اجتماع سالي متأخرًا. تعطلت السيارة المخصصة للفريق، فعرض زميل اسمه عماد أن يوصل ثلاثًا من

الزميلات. اتصلت بفؤاد، لكن الخط كان مشغولًا. اتصلت بزين فلم تجده؛ كان في المستشفى، والهاتف المحمول لم يكن بعد شيئًا يملكه الجميع.

انتظرت نصف ساعة، ثم ركبت مع المجموعة.

كان عماد يقود بسرعة، ويتحدث أكثر مما ينظر إلى الطريق. طلبت منه زميلة أن يهدئ، فضحك وقال إنه يعرف الشوارع. نزلت الفتاتان قبل سالي، وبقيت وحدها في المقعد الخلفي.

قالت: «امشِ على مهلك، مفيش داعي للسرعة.»

أجاب: «ما تقلقيش. عشر دقايق وتبقي في البيت.»

وصلت سالمة، لكن قلبها ظل سريعًا. دخلت العمارة فوجدت فؤاد عند الباب، وجهه غاضب من الخوف. كان قد اتصل بمقر العمل وعرف أنها غادرت.

تحول الخوف إلى شجار. منعها من العودة إلى التدريب، وقال إن الفرصة التي لا تحترم أمانها لا تستحق. ردت بأنها لم تختر تعطل السيارة، وإنها اتصلت. ارتفعت الأصوات حتى صعد كمال وزين، الذي عاد لتوه.

قال زين حين عرف ما حدث: «عمو فؤاد عنده حق المرة دي.»

نظرت إليه سالي كأنها لم تتوقع شيئًا آخر، ومع ذلك خذلتها الجملة.

قالت: «المرة دي؟ يعني في محكمة؟»

ـ ركبتِ مع حد بيسوق بسرعة وإنتِ لوحدك في الآخر.

ـ ما كنتش عارفة إنه هيسوق كده.

ـ وكان ممكن تستني.

ـ أستنى في الشارع لحد إمتى؟

ـ تتصلي تاني.

ـ اتصلت.

قال فؤاد: «خلاص. مفيش شغل.»

دخلت سالي غرفتها وأغلقت الباب.

في اليوم التالي، لم تتحدث إلى زين. وبعد يومين، أرسلت إليه مع ريم ورقة قصيرة: «أنا عارفة إنكم خفتوا. بس الخوف لما يتحول لأوامر، بيخليني أخاف منكم كمان.»

قرأها، ولم يجد ردًا سريعًا.

ذهب إلى فؤاد. قال إن منعها الكامل سيجعلها تخفي التفاصيل في المرة القادمة، وإن الأفضل وضع خطة بديلة للعودة. فوجئ فؤاد بأنه يغير موقفه.

قال زين: «أنا كنت خايف، فقلت أول حاجة توقف الخطر. بس هي مش هتوقف حياتها.»

اتفقوا أن يتناوب فؤاد وكمال على إحضارها في الأيام المتأخرة، وأن تستعين بسيارة أجرة معروفة إذا تعطل النقل. عاد التدريب.

حين أخبرها زين، قالت: «شكرًا إنك غيرت رأيك.»

ـ شكرًا إنك خلتيني أشوف إنه كان رأي خوف، مش رأي عقل.

الفصل التاسع والعشرون

حين انكسر الطريق

جاء الحادث في يوم لم يبدأ بعلامة.

كان الصباح عاديًا إلى حد القسوة. شربت سالي قهوتها واقفة، واختلفت مع ليلى حول معطف خفيف رفضت ارتداءه، ثم عادت من الباب لتأخذ القلم الفضي الذي نسيته. ناداها فؤاد من الشرفة أن تتصل إذا تأخرت، فرفعت يدها من غير أن تلتفت.

في الجامعة، أنهت محاضرتين، ثم ذهبت إلى تسجيل تقرير خارج الاستوديو عن ورشة صغيرة لصناعة الآلات الموسيقية. كان معها المصور ومساعد الإنتاج وسائق يعرفه الفريق. اتصلت بالبيت في العصر، وقالت إنهم سيعودون قبل الثامنة.

كان زين في المستشفى حين رن الهاتف عند مكتب التمريض. ناداه موظف الاستقبال لأن شخصًا يطلبه بإلحاح. جاء صوت فؤاد متقطعًا.

قال: «سالي عملت حادثة.»

لم يفهم الجملة أولًا. سأل عن المكان، وعن المستشفى، وعن حالتها. لم يكن فؤاد يعرف. اتصل بهم أحد أفراد الفريق وقال إن السيارة اصطدمت بحاجز بعد أن انحرفت لتتفادى حافلة.

ترك زين ما في يده وركض.

في الطريق، حاول أن يمنع ذاكرته من العودة إلى ليلة نادية. قال لنفسه إن الحادث لا يعني الموت، وإنه لم يرَ الحالة، وإن عليه أن يجمع المعلومات لا أن يصنع النهايات. لكن جسده لم يصدق منطقه. كانت يداه باردتين، ونبضه سريعًا تحت ساعة أمه.

وصل إلى مستشفى قريب من موقع الحادث. وجد فؤاد عند باب الطوارئ، ومعه ليلى التي لم تتوقف عن الدعاء. كان قميص فؤاد مفتوحًا عند الرقبة، ووجهه رماديًا.

قال: «مش عايزين يقولوا حاجة.»

دخل زين ببطاقته الجامعية، وشرح أنه من الأسرة وطالب طب. هذه المرة لم تكن الصفة محاولة لإنقاذ أمه بعد فوات الوقت؛ كانت وسيلة لفهم ما يحدث.

وجد سالي فوق سرير الطوارئ. كان الدم قد جف عند شعرها، وذراعها مثبتة، ووجهها متورمًا من جانب واحد. لم تكن واعية تمامًا، لكنها تحركت حين سمعت اسمها.

اقترب. «سالي، أنا زين.»

فتحت عينيها لحظة. لم يعرف إن كانت رأته.

أخبره الطبيب أن لديها كسرًا في الفخذ وإصابة في البطن تحتاج إلى تدخل عاجل، مع اشتباه في ارتجاج شديد. ضغطها منخفض، ويجب نقل دم وإجراء جراحة.

سأل زين أسئلة واضحة. لم يناقش الطبيب، ولم يطلب وعودًا. كتب فصيلة الدم، واتصل ببنك الدم، وأرسل سامر وكريم لجمع متبرعين. وحين احتاجوا توقيع ولي الأمر، أمسك يد فؤاد وشرح له ما قاله الطبيب جملة جملة.

قال فؤاد: «هتعيش؟»

توقف زين. كان يعرف الآن أن الصدق لا يعني القسوة، وأن الطمأنة الكاذبة ليست رحمة.

قال: «حالها خطيرة، بس هم بدأوا بسرعة، وإحنا هنعمل كل اللي نقدر عليه.»

وقّع فؤاد.

قبل أن يدفعوا السرير إلى غرفة العمليات، فتحت سالي عينيها مرة أخرى. حركت شفتيها. انحنى زين، فسمع كلمة غير واضحة. ظن أنها قالت اسمه، ثم رأى أصابعها تبحث قرب جانبها.

قالت بصعوبة: «القلم.»

كان القلم الفضي في حقيبتها التي وصلت مع أحد أفراد الفريق. قال لها: «معايا. ما ضاعش.»

هدأت يدها.

أُغلق الباب.

بدأ الانتظار.

وصل كمال وريم وكريم وسامر، ثم أقارب لا يعرفون ماذا يفعلون سوى الوقوف. جلس فؤاد لا يتحرك، بينما كانت ليلى تمشي بين طرفي الممر. كلما فُتح باب، رفعت رأسها.

جلس سامر إلى جوار زين.

قال: «السواق مات.»

أغمض زين عينيه. سأل عن المصور والمساعد. كان أحدهما مصابًا بكسور، والآخر خرج بجروح سطحية.

قال سامر: «أنا كلمت ناس تتبرع.»

ـ شكرًا.

ـ إنت كويس؟

نظر إليه زين. «مش مهم.»

ثم صحح نفسه: «لأ. مش كويس. بس هافضل موجود.»

كانت جملة تعلمها بصعوبة.

استمرت الجراحة ساعات. أخبرهم الطبيب بعدها أنهم أوقفوا نزيفًا داخليًا وثبتوا حالتها، وأن جراحة العظام ستنتظر حتى تستقر. أما إصابة الرأس فتحتاج إلى مراقبة دقيقة.

قالت ليلى: «يعني فاقت؟»

ـ لسه تحت تأثير التخدير.

سمحوا لهم برؤيتها من خلف الزجاج في العناية المركزة. بدت أصغر من كل السنوات التي عاشتها. الأنابيب والأجهزة حولها جعلت جسدها جزءًا من نظام لا يفهمه أهلها.

وقف فؤاد إلى جوار زين.

قال بصوت منخفض: «أنا كنت عايز أمنعها من الشغل.»

أجابه زين: «الحادث مش عقاب عشان خرجت.»

ـ لو كنت منعتها...

نظر إليه زين. عرف الطريق الذي بدأ الأب يسلكه؛ الطريق نفسه الذي عاش فيه بعد نادية.

قال: «لو منعتها، كان ممكن يحصل لها أي حاجة في طريق تاني. إحنا مش هنقدر نبني حياتها كلها حوالين الحادث.»

ـ إنت بتقول الكلام ده ليا ولا لنفسك؟

قال زين: «للاتنين.»

في الفجر، جلست ليلى فوق كرسي، رأسها على كتف كمال. نامت ريم في حضن كريم. بقي سامر عند نهاية الممر يرسم

خطوطًا فوق ورقة ثم يمزقها. أما زين فوقف أمام الزجاج، يتابع الأرقام على الشاشة من غير أن يسمح لها أن تتحول إلى نبوءة.

حرّكت سالي يدها.

دخلت الممرضة، ثم خرجت وقالت إنها بدأت تستجيب. بعد دقائق، سمحوا لزين بالدخول وحده لأنه الأهدأ ولأنه يستطيع فهم التعليمات.

وقف إلى جوارها.

فتحت عينيها ببطء. كان نظرها مضطربًا، ثم استقر عليه.

قالت بصوت يكاد لا يُسمع: «اتأخرت؟»

لم يعرف هل تسأل عن البيت أم العمل أم العمر كله.

قال: «لأ. إحنا كلنا هنا.»

حاولت أن تحرك ساقها، فتألمت. شرح لها أنها في المستشفى، وأنها أجرت جراحة، وأن عليها ألا تتحرك. تساقطت دمعة من عينها إلى جانب وجهها.

قالت: «مش حاسة برجلي.»

أمسك يدها. «الدكتور متابع. ما نحكمش دلوقتي.»

كانت الجملة طبية وصادقة، لكنها لم تكفِ لإخفاء خوفه.

ضغطت أصابعها على يده، كما فعلت نادية في آخر لحظة.

مر التشابه داخله كسكين، لكنه لم يهرب منه.

هذه اليد لم ترتخِ.

ظل ممسكًا بها حتى نامت من جديد.

خرج إلى الأسرة، وقال لهم إنها استجابت وعرفت اسمه. بكت ليلى، وضم فؤاد زين للمرة الأولى منذ كان طفلًا.

لم تكن الأزمة انتهت. كانت أمام سالي جراحات وألم وشهور لا يعرفون شكلها. لكن عند شروق الشمس، كان هناك فرق واحد يكفي ليستمروا:

هذه المرة، عاد القلب من حافة الخوف، وبقي الباب مفتوحًا على الغد.

في الظهيرة، خرج طبيب العظام يحمل صور الأشعة. شرح أن الكسر معقد، لكنه قابل للتثبيت، وأن فقدان الإحساس قد يكون مؤقتًا بسبب الصدمة والتورم. لم يقدم ضمانًا. طلب منهم أن يستعدوا لجراحة ثانية حين تسمح حالتها العامة.

سأل فؤاد عن أسوأ احتمال. تردد الطبيب، ثم قال إنهم لن يسبقوا الفحوصات.

بعد أن ابتعد، قال كمال: «نمسك في اللي نعرفه، مش اللي خايفين منه.»

جلس زين إلى جوار ريم. كانت تحمل حقيبة سالي في حجرها، وقد أخرجت منها القلم الفضي ووضعته في جيبها حتى لا يضيع.

قالت: «لما تصحى، هتقدر تمشي؟»

أجاب: «الدكاترة شغالين عشان ترجع تمشي.»

ـ وإنت هتساعدهم؟

نظر إلى باب العناية. «هساعدها هي.»

لم يكن يعرف بعد شكل المساعدة. قد تكون في تبديل ضمادة، أو شرح تقرير، أو البقاء حين يصرخ الألم، أو الصمت حين ترفض المواساة. للمرة الأولى، لم يحتج إلى تعريف دوره قبل أن يقبله.

عند المساء، فتحوا حقيبتها بحثًا عن بطاقة التأمين. وجدوا بين الأوراق مسودة برنامج كتبت فوقها: «أناس لا نراهم». وتحت

العنوان قائمة ضيوف محتملين، كان آخرها: «ممرضو الطوارئ ـ الذين يبدأون إنقاذ الحكاية قبل أن يعرف أحد أسماءهم.»

قرأ زين السطر، ثم أعاد الورقة بحرص.

قال لسامر: «لما تفوق، فكرني أقول لها إن عندها حلقة جاهزة هنا.»

أجابه سامر: «هي اللي هتقولها. بصوتها.»

نظر الثلاثة من خلف الزجاج. كانت سالي نائمة، لكن الشاشة فوقها ترسم نبضًا منتظمًا.

الفصل الثلاثون

الجسد الذي تعلّم من جديد

حين فتحت سالي عينيها في صباح اليوم الثالث، لم تعرف أولًا هل جاء النهار أم أن الضوء الأبيض فوق سريرها لم ينطفئ منذ الليلة السابقة. كانت الغرفة بلا زمن؛ أجهزة تومض، وستارة نصف مغلقة، ورائحة مطهر تلتصق بالحلق. حاولت أن ترفع رأسها، فشدها ألم حاد من بطنها إلى الفخذ، وأعادها إلى الوسادة قبل أن تفهم ما فعلته.

اقتربت الممرضة وقالت بصوت هادئ: «ما تتحركيش لوحدك. إنتِ عملتِ عمليتين وجسمك لسه محتاج وقت.»

تذكرت الطريق على هيئة لقطات منفصلة: حقيبة على المقعد، ضحكة المصور، حافلة كبيرة تقترب أكثر مما ينبغي، يد السائق تنحرف بالمقود، ثم صوت زجاج لا يشبه أي صوت سمعته من قبل. بعد ذلك، لم يكن هناك طريق. كان هناك وجه زين فوقها، وقلم فضي تسأل عنه كأن العالم كله يمكن اختصاره في شيء صغير لم يضع.

قالت: «ماما فين؟»

ظهرت ليلى من خلف الستارة قبل أن تجيب الممرضة. كانت ترتدي الملابس نفسها تقريبًا منذ يومين، وقد ربطت شعرها كيفما اتفق. انحنت فوق ابنتها وقبّلت جبهتها بحذر، كما لو أن القبلة نفسها قد تؤلمها.

ـ أنا هنا يا حبيبتي.

ـ بابا؟

ـ بره. ما بيمشيش غير لما الدكاترة يطردوه.

حاولت سالي أن تبتسم، فلم تستطع إلا تحريك جانب واحد من فمها. سألت عن ساقها. قالت ليلى إن طبيب العظام سيشرح كل شيء، وإن الجراحة نجحت، وإنهم ينتظرون أن يخف التورم. كانت الإجابة ممتلئة بكلمات مطمئنة، لكنها لم تجب عن السؤال الحقيقي.

قالت سالي: «أنا لسه مش حاسة بيها.»

سكتت ليلى نصف ثانية أطول مما ينبغي. «الدكتور قال ده ممكن يحصل بعد الصدمة والجراحة.»

ـ وممكن ما يروحش؟

ـ ما نسبقش ربنا ولا الدكاترة.

عرفت سالي هذه الجملة. كانت أمها تستخدمها كلما خافت من شيء لا تستطيع السيطرة عليه. لم تسأل مرة أخرى، لكنها ظلت تنظر إلى الغطاء الذي يغطي ساقيها. بدا الجزء السفلي من جسدها بعيدًا عنها، كأنه يخص مريضة أخرى وضعت سريرها بالمصادفة إلى جوارها.

دخل زين بعد دقائق، مرتديًا قميصًا أزرق مجعدًا، وتحت عينيه ظل لم يخفه النوم القصير. وقف عند الباب أولًا، كأنه ينتظر منها إذنًا لا يحتاجه أحد غيره.

قالت: «دخلت ليه بالشكل الرسمي ده؟»

اقترب. «عشان المرة اللي فاتت دخلت جري، الدنيا اتقلبت.»

ـ عندك أخبار حقيقية ولا هتقول لي ما نحكمش دلوقتي؟

جلس إلى جوارها. لم يحاول أن يلمس يدها فورًا، ولم يبدأ بالطمأنة. أخبرها بما عرفه: الجراحة الأولى أوقفت النزيف الداخلي، والثانية ثبّتت كسر الفخذ، والفحوص لم تظهر قطعًا

كاملًا في الأعصاب. هناك تورم شديد وصدمة عصبية محتملة، والوقت والفحص المتكرر سيكشفان أكثر. قال إن الطبيب رأى استجابة ضعيفة في بعض العضلات، وإن ذلك أفضل من غيابها تمامًا.

استمعت إليه بعينين ثابتتين. حين انتهى قالت: «يعني ممكن أمشي وممكن لأ.»

ـ يعني فرص التحسن موجودة، ومحدش يقدر يديكي حكم نهائي النهارده.

ـ وإنت شايف إيه؟

تردد. كان السؤال يطلب منه أن يكون زين لا طالب الطب، وأن يمنحها يقينًا لا يملكه. قال: «شايف إنك هتتعبي. وشايف إنك مش هتكوني لوحدك. غير كده، مش هكدب عليكي.»

أغمضت عينيها. خرجت دمعة واحدة، ثم أخرى. لم تقل إنها خائفة. لم يكن عليها أن تقول.

في المساء، سمح الطبيب لفؤاد بالدخول. وقف عند طرف السرير، عاجزًا عن الاقتراب. كان الرجل الذي يملأ البيت بصوته،

ويعرف كيف يصلح الأجهزة ويتجادل مع الموظفين ويحل مشاكل العمل، لا يعرف أين يضع يديه أمام ابنته. قالت سالي: «تعالى يا بابا. أنا مش بتكسر من اللمس.»

اقترب وأمسك أصابعها. قال إنه سيأخذها إلى أفضل الأطباء، وإنه اتصل بمن يعرف ومن لا يعرف، وإنها ستعود كما كانت. استمعت إليه ثم قالت: «ما تقولش كما كنت.»

نظر إليها في دهشة.

ـ ليه؟

ـ عشان لو رجعت مختلفة، ما أبقاش فشلت.

انخفض رأسه. فهم أن وعده الذي قصده حبًا يمكن أن يتحول إلى امتحان لا تستطيع اجتيازه. قال: «ترجعي إنتِ. بأي شكل. بس ترجعي لنا.»

في اليوم التالي، نقلوها من العناية المركزة إلى غرفة عادية. بدأ الألم يصبح أكثر تحديدًا؛ لم يعد كتلة كبيرة تملأ جسدها، بل نقاطًا تعرفها: جرح البطن حين تسعل، الفخذ حين يحركه أحد، الكتف حين تحاول الاعتماد عليه، وصداع يظهر مع الضوء. كانت تكره

أن يسألها الجميع عن درجة الألم من واحد إلى عشرة. لا توجد أرقام كافية لوصف أن يصبح جسدك مكانًا لا تثق به.

جاء اختصاصي العلاج الطبيعي بعد الظهر. عرّف نفسه، ثم شرح أنه سيبدأ بحركات بسيطة للتنفس والدورة الدموية وتحريك القدم قدر الإمكان. قالت ليلى: «مش بدري عليها؟»

أجاب: «البدري هنا جزء من العلاج، لكن من غير ما نتجاوز تعليمات الجراح.»

طلب من سالي أن تحاول شد عضلات الفخذ. ركزت نظرها في السقف، وأمرت ساقها بالحركة كما تأمر يدها. لم يحدث شيء تراه. قال الاختصاصي إنه شعر بانقباض خفيف تحت أصابعه. لم تصدقه.

ـ ما تجاملنيش.

ابتسم. «أنا مش جاي أرفع معنوياتك. أنا جاي أقيس تقدمك. ولو مفيش تقدم هقول.»

أعجبها أنه لم يطلب منها التفاؤل. حاولت مرة أخرى، حتى ارتجف فكها من الجهد. ظهر انقباض صغير لا يكاد يُرى.

قال زين، الذي كان واقفًا قرب النافذة: «ظهر.»

التفتت إليه بعصبية. «ما تبصش عليا كأني حالة في العملي.»

صمت الغرفة. أرادت أن تسحب الجملة فورًا، لكنها لم تفعل. كان عليها أن تدافع عن حدودها حتى أمام أقرب الناس.

قال زين بعد لحظة: «عندك حق.»

وخرج.

حين عاد في المساء، وجدها مستيقظة وحدها. كانت ليلى ذهبت لتستحم، وفؤاد مع الطبيب. وضع على الطاولة دفترًا أسود وقلمها الفضي.

قال: «لقيت دول في الشنطة.»

نظرت إلى الدفتر. «مش قادرة أكتب.»

ـ مش لازم تكتبي دلوقتي.

ـ وإنت زعلت؟

ـ من إيه؟

ـ إني قلت لك ما تبصليش كحالة.

جلس. «زعلت عشان اكتشفت إني فعلًا كنت ببص كده. مش طول الوقت، بس كل ما أخاف بدور على أرقام وتقارير. بحس إن لو فهمت كل حاجة هقدر أمنعها.»

ـ وأنا مش عايزة أبقى الحاجة اللي تمنعها. أنا عايزة أبقى أنا.

ـ قولي لي لما أنسى.

ـ هقول. غالبًا بطريقة مش لطيفة.

ـ دي مش معلومة جديدة.

ضحكت، ثم أمسكت بطنها من الألم. انتظر حتى هدأت. بعدها وضع الدفتر قرب يدها، لا في حجرها، وترك لها حرية الاقتراب منه.

مرت الأيام الأولى بطيئة. كان التحسن يأتي في وحدات لا يراها الزائر: إصبع قدم يتحرك مقدارًا ضئيلًا، قدرة على الجلوس دقيقة إضافية، جرعة مسكن تتأخر نصف ساعة، وجبة تحتفظ بها المعدة بدل أن ترفضها. تعلّمت سالي أن النصر يمكن أن يكون شيئًا لا يصفق له أحد.

وفي أول مرة جلسوها على حافة السرير، شعرت أن الغرفة تدور، وأن ساقها المكسورة أثقل من جسدها كله. أمسك الاختصاصي بحزام الدعم، ووقفت ليلى عند الجانب الآخر، بينما بقي زين قرب الباب بعد أن طلبت منه ألا يساعد إلا إذا نادته.

قال الاختصاصي: «هننزل الرجل السليمة الأول، ونخلي ظهرك مستقيم.»

تحركت ببطء. وصل الألم إلى رأسها، وامتلأت جبهتها بالعرق. بعد ثوانٍ قالت: «رجعوني.»

ـ لسه بدري. خدي نفسين.

ـ قلت رجعوني.

أعادوها إلى الوسادة. أدارت وجهها إلى الحائط، غاضبة من جسدها ومن الجميع. قال الاختصاصي إنه سيعود غدًا، ولم يحاول تحويل الفشل إلى درس ملهم.

بعد خروجه، بقيت الغرفة صامتة. قالت سالي: «كلكم مستنيين أعمل معجزة كل يوم.»

أجاب زين: «أنا مستني اليوم يعدي من غير ما يكسرك.»

ـ هو كسرني بالفعل.

اقترب خطوة، ثم توقف. «الكسر مش تعريفك.»

التفتت إليه. «بس هو دلوقتي أكبر حاجة في يومي.»

ـ يبقى نخليه حاجة في يومك، مش اليوم كله.

مد يده نحو الدفتر الأسود. «قولي لي حاجة واحدة حصلت النهارده مش لها علاقة بالحادث.»

فكرت. قالت إن الممرضة الجديدة تضع عطرًا قويًا، وإن ليلى سرقت نصف قطعة الحلوى التي أحضرها كريم ثم أنكرت، وإن سامر ترك رسمة لكرسي فارغ ولم يشرحها.

قال زين: «ثلاث حاجات.»

ـ ما تتعودش على الكرم.

في اليوم التالي، جلست دقيقة ونصف. وبعد يومين، ثلاث دقائق. لم تصبح أكثر شجاعة فجأة؛ أصبحت أكثر معرفة بما ينتظرها. وكان الفرق كافيًا.

بعد أسبوعين، أخبرها الطبيب أنها ستغادر المستشفى قريبًا، لكن العلاج الحقيقي سيبدأ في البيت ومركز التأهيل. قال الجملة

بنبرة من يقدم خبرًا سعيدًا. شعرت سالي بالخوف. في المستشفى، كان الألم مفهومًا وله جرس تستدعي به أحدًا. أما البيت، ففيه السلم، وغرفتها القديمة، ونظرات الجيران، والحياة التي ستطالبها بأن تتذكر من كانت.

سألت: «هطلع الدور التاني إزاي؟»

قال فؤاد بسرعة: «هنشيلك.»

نظرت إليه. «أنا مش دولاب.»

ضحك الطبيب للمرة الأولى. شرح لهم طريقة النقل والكرسي والمساندة، وأنها لن تصعد وتنزل كل يوم في البداية. جلس فؤاد يكتب التعليمات كما لو أنه يستعد لامتحان.

في ليلة الخروج، فتحت سالي الدفتر الأسود. أمسكت القلم بيد متعبة وكتبت جملة واحدة بخط مائل:

«أنا لا أعود إلى حياتي القديمة. أنا أتعلم حياة تستطيع أن تحملني الآن.»

أغلقت الدفتر، ووضعت القلم على الطاولة، ثم نامت قبل أن ينطفئ ضوء الممر.

الفصل الحادي والثلاثون

البيت الذي تغيّر مقاسه

وصلت سيارة الإسعاف إلى العمارة قبل الظهر. كان فؤاد قد طلب من الجميع ألا يتجمعوا عند المدخل، ولذلك تجمعوا عند النوافذ والشرفات بدلًا من ذلك. السيدة وداد فتحت باب شقتها بحجة الاطمئنان، وأحد أطفال الطابق الخامس نزل مرتين ثم صعد حين زجرته أمه. حتى العمارة، التي حفظت سالي وهي تركض على درجاتها، بدت كأنها تنتظر لترى كيف ستعود.

أخرج المسعفان الكرسي المتحرك. حين جلست عليه، شعرت سالي أن الشارع ارتفع فجأة وأن عيون الناس صارت في مستوى واحد فوق رأسها. وضعت حقيبتها في حجرها وأمسكت القلم الفضي داخلها. لم تكن بحاجة إليه، لكنها احتاجت أن تحمل شيئًا اختارته بنفسها.

قال فؤاد: «نطلعها واحدة واحدة.»

كان قد اتفق مع زين وكريم وسامر على طريقة رفع الكرسي في السلم. رفضت سالي الفكرة أولًا، ثم لم تجد بديلًا. أمسك

الرجال بالجوانب، وبدأوا الصعود ببطء. في كل درجة مالت قليلًا إلى الخلف، ورأت سقف المدخل بدل الأرض. قاومت رغبتها في إغلاق عينيها.

عند الطابق الأول، قالت السيدة وداد: «سلامتك يا بنتي. الحمد لله اللي نجاكي.»

أجابت سالي وشكرتها. ثم أضافت السيدة، بنبرة لم تقصد بها أذى: «العمر كله قدامك، وإن شاء الله ترجعي زي الأول.»

شعرت سالي بالجملة تسقط فوقها كحمل إضافي. لم ترد. واصلوا الصعود.

عند باب الشقة في الطابق الثاني، كانت ليلى قد أزالت السجادة الصغيرة حتى لا تعوق الكرسي، ودفعت منضدة الهاتف إلى الجانب، وبدلت مواضع الكراسي. بدا البيت نفسه وقد تغيّر مقاسه كي يسمح لها بالمرور. دخلت ببطء. كل شيء مألوف، ومع ذلك لم يكن شيء في مكانه الطبيعي.

اقتربت ريم منها وحضنتها من جانب واحد. قالت: «أنا رتبت لك الكتب.»

ـ مين سمح لك تلمسي كتبي؟

تراجعت ريم مذعورة، ثم رأت ابتسامتها فضربتها برفق فوق كتفها. «لسه سخيفة.»

ـ كنتِ متوقعة الحادثة تصلح أخلاقي؟

ضحك الجميع أكثر مما تستحق الجملة. كانت الضحكة إعلانًا صغيرًا أن اللغة القديمة ما زالت ممكنة.

حين دخلت غرفتها، توقفت. أزال فؤاد المكتب من قرب النافذة ووضع السرير في المنتصف ليسهل الاقتراب منه. نقلت ليلى المرآة إلى ارتفاع منخفض، ورتبت الأدوية فوق منضدة جديدة. أما الأوراق والقصاصات والصور التي كانت تملأ الحائط، فقد جُمعت في صندوق.

قالت سالي: «مين شال الحاجات؟»

أجابت ليلى: «عشان ما تزحمش المكان. لما تتحسني نرجع كل حاجة.»

ـ رجعوها دلوقتي.

ـ يا حبيبتي، الكرسي محتاج مساحة.

ـ الصور مش في الأرض. رجعوها على الحيطة.

بدأت ليلى تقول إن التعب لن يسمح، ثم توقفت. فهمت أن ابنتها لا تدافع عن زينة الغرفة، بل عن الدليل الوحيد على أن حياتها لم تُمحَ لتفسح مكانًا للمريضة.

قالت: «حاضر. بعد ما ترتاحي نرجعهم سوا.»

طلبت سالي أن يبقى المكتب قرب النافذة، ولو ضاقت الحركة. اعترض فؤاد لأن حافته قد تصطدم بالكرسي. قالت إنها تحتاج أن ترى الشارع وتكتب. انتهى النقاش بحل وسط: أعاد كريم المكتب، ووضعه مائلًا، وأزالوا كرسيًا آخر بدلًا منه.

في الأيام الأولى، صار البيت جدولًا علاجيًا. دواء في السادسة، إفطار خفيف، تمارين تنفس، زيارة ممرضة لتغيير الضمادة، ثم علاج طبيعي. كتب فؤاد المواعيد فوق ورقة كبيرة علقها على الثلاجة، وأضاف أرقام الأطباء وسيارة الإسعاف ومركز التأهيل. كان يتعامل مع الخوف كما تعامل طوال حياته مع المشروعات: يحوله إلى خطوات، ويضع بجوار كل خطوة موعدًا واسم مسؤول.

أما ليلى فكانت تراقب التفاصيل التي لا تدخل الجداول.

تعرف من تغير وجه سالي إن كانت تحتاج إلى مسكن أو إلى أن تُترك وحدها، وتغلق باب الغرفة حين يطول بقاء الزائرين، وتمنع النساء من السؤال عن الندبة أو الزواج أو «مستقبل البنت» كأن حادثًا واحدًا منحهن حق التفتيش في حياتها.

بعد أسبوع، جاءت خالة بعيدة وجلست قرب السرير. قالت وهي تهز رأسها: «المهم إن ربنا نجاكي. الشغل يتعوض، والدراسة تتعوض، والصحة أهم من كل حاجة.»

ردت سالي: «الصحة مهمة عشان أرجع للدراسة والشغل، مش عشان أعيش أتفرج عليها.»

لم تفهم الخالة، فنظرت إلى ليلى كأنها تطلب ترجمة. تدخلت ليلى وقدمت الشاي.

في المساء، قال فؤاد إن من الأفضل تأجيل العام الدراسي. كان يحمل أوراقًا أحضرها من الكلية، وقد سأل عن إجراءات تجميد القيد من غير أن يخبرها.

قالت سالي: «إنت قدمت حاجة؟»

ـ لسه. بس سألت.

ـ ليه من غيري؟

ـ عشان أريحك من التفكير.

ـ إنت ريحت نفسك، مش أنا.

جلس أمامها. «يا سالي، إنتِ مش قادرة تدخلي الحمام لوحدك. هتروحي الجامعة إزاي؟»

أصابتها الجملة في المكان الذي تحاول ألا تراه. قالت: «مش لازم أقرر النهارده.»

ـ القرار له ميعاد.

ـ يبقى لما ييجي الميعاد أقرره أنا.

رفع صوته: «أنا أبوكي ومسؤول عنك.»

ـ مسؤول تساعدني، مش تعيش بدالي.

خرج فؤاد من الغرفة وأغلق الباب بقوة. بقيت ليلى جالسة، ثم قالت بهدوء: «هو خايف.»

ضحكت سالي بمرارة. «كلكم خايفين. وأنا الوحيدة اللي لازم أتحمل نتيجة خوفكم.»

ظلت ليلى صامتة. وبعد وقت قالت: «إنتِ عارفة إن كان لك أخ اسمه أحمد.»

نظرت سالي إليها. كان الاسم موجودًا في البيت كصورة صغيرة فوق خزانة قديمة، وكتاريخ لا يفتحه أحد. عرفت أنه مات في الثالثة قبل أن تولد ذاكرتها، لكنها لم تسمع القصة كاملة.

قالت ليلى: «لما مات، كان عنده حرارة. الدكتور قال بسيطة، وبعدها حصلت مضاعفات بسرعة. أبوكي كان بره القاهرة، وأنا فضلت شايلة إحساس إني ما لحقتوش. لما اتولدتي، كان بيقوم من النوم يحط إيده قدام نفسك عشان يتأكد إنك بتتنفسي. كبرتي وهو اتعلم يخبّي الخوف، بس ما راحش.»

نظرت سالي إلى الباب المغلق. للمرة الأولى رأت في غضب أبيها طفلًا فقده قبل أن يعرف كيف يودعه.

قالت: «أنا مش أحمد.»

ـ عارفة. وهو عارف بعقله. بس الخوف مش دايمًا بيسمع العقل.

ـ وأنا ما ينفعش أعيش كأني التعويض اللي ممنوع يحصل له حاجة.

ـ عندك حق. قولي له كده لما تهدوا. بس افتكري إنك مش بتحاربيه. إنتِ بتحاولي ترجعيه لك.

في اليوم التالي، دخل فؤاد ومعه الإفطار. لم يعتذر مباشرة. وضع الصينية، وعدل الستارة، وسأل عن الألم. قالت سالي: «أنا مش هقدم على تجميد السنة دلوقتي.»

جلس.

أكملت: «لو الدكاترة قالوا مستحيل، أو لو أنا لقيت إني مش قادرة، هاخد القرار. بس مش قبل ما نجرب.»

قال: «وأنا مش هقدر كل يوم أسيب شغلي وأوصلك.»

ـ ما طلبتش. نشوف زميلاتي، والكلية، والمحاضرات المسجلة، وأي حل. ما تقولش لأ قبل ما نعرف السؤال كله.

ظل ينظر إلى يديه. ثم قال: «أنا كل ما أشوفك على الكرسي، بشوف أخوكي.»

ـ بص لي أنا.

رفع عينيه.

ـ أنا قدامك. ومحتاجة أبويا، مش حارس على باب الحياة.

مد يده وأمسك يدها. لم يعدها بأنه سيتغير بسرعة. قال فقط: «هحاول.»

كان ذلك أكثر صدقًا من أي وعد كامل.

أما زين، فقد وقع في نوع آخر من الحراسة. صار يمر مرتين في اليوم، يقرأ تقاريرها، ويسأل عن التمارين، ويصحح طريقة وضع الوسادة. في البداية تقبلت وجوده لأنها كانت تحتاج إلى شخص يفهم اللغة الطبية. بعد أيام، شعرت أنه يملأ الغرفة بتوقعاته حتى حين يصمت.

في جلسة العلاج، طلب منها الاختصاصي أن تنتقل من السرير إلى الكرسي باستخدام ذراعيها والساق السليمة. وقف زين قربها، جاهزًا للإمساك بها. قالت: «ارجع خطوة.»

ـ ممكن تميلي.

ـ عارفة.

ـ وأنا واقف بس.

ـ وجودك بالشكل ده بيقول إنك مستني أقع.

ابتعد. حاولت الحركة. انزلقت يدها، ومال جسدها. تحرك زين غريزيًا، لكن الاختصاصي أمسك الحزام وأعادها. صاحت سالي: «قلت ما تتحركش!»

قال: «كنتِ هتقعي.»

ـ كنت هتعلم.

ـ مش لازم كل تعلم يبقى بسقوط.

ـ ومش لازم كل حب يبقى إنقاذ.

خرجت الجملة حادة. وقف زين لحظة، ثم أخذ حقيبته وغادر من غير أن يرد.

لم يأت في المساء.

في اليوم التالي، وجدته سالي في شرفة شقته فوقها، ينظر إلى الشارع. نادته من شرفتها. ظهر عند السور، وبدت المسافة بين الطابقين أكبر من المعتاد.

قالت: «إنت زعلان؟»

ـ أنا بفكر.

ـ دي إجابة الناس الزعلانة وهي عايزة تبان عاقلة.

ابتسم رغمًا عنه.

قالت: «أنا آسفة على الطريقة. مش على المعنى.»

ـ وأنا آسف إني كل مرة أخاف عليكي، أتصرف كأن خوفي أهم من إرادتك.

ـ ما تبعدش عشان ما تتدخلش. اتعلم تقف جنبي.

ـ الفرق صعب.

ـ عشان كده بنتعلمه.

في الجلسة التالية، جلس زين على كرسي قرب الباب وفتح كتابًا. لم يرفع رأسه كلما تحركت. حين نجحت سالي في الانتقال إلى الكرسي وحدها للمرة الأولى، نظرت إليه. أغلق الكتاب وقال: «تحبي أقول مبروك ولا هتعتبريها متابعة طبية؟»

قالت: «مسموح بمبروك واحدة.»

قالها، ثم عاد إلى كتابه.

الفصل الثاني والثلاثون

صوتها الذي سبق خطوتها

بعد شهر من الحادث، استطاعت سالي أن تجلس أمام مكتبها ساعة كاملة. كانت ساقها مثبتة، وظهرها يؤلمها، لكن النافذة مفتوحة، والدفتر الأسود أمامها، وجهاز التسجيل الصغير إلى جوار الأوراق. ضغطت زر التشغيل، فخرج صوت قديم سجلته قبل الحادث: ضجيج استوديو، ضحكة زميلة، ثم صوتها تقول: «نجرب من الأول. المرة دي ما حدش يدخل قبل الإشارة.»

أوقفت الشريط فورًا.

لم تبكِ. شعرت فقط أن الفتاة التي تتحدث في التسجيل تعيش في غرفة قريبة لا تستطيع الوصول إليها. كانت واثقة من حركتها، مستعجلة، تضرب القلم فوق الطاولة، وتظن أن أكبر مشكلاتها موعد تسليم الحلقة.

دخلت ريم تحمل كومة محاضرات وصورًا من زميلات سالي. قالت: «دكتورة القسم وافقت تبعت لك تسجيلات المحاضرات. ومها بتقول فريق البرنامج مستنيك.»

ـ مستنيني في إيه؟

ـ تكملي الحلقة بتاعة الطوارئ.

نظرت سالي إلى المسودة التي وجدوها في حقيبتها: «أناس لا نراهم». كانت الفكرة قد بدأت قبل الحادث بوصفها تقريرًا عن العاملين الذين يسبق دورهم ظهور الكاميرا: عمال النظافة، فنيو الإضاءة، الممرضون، السائقون. الآن صار أول اسم في القائمة وجهًا رأته فوقها وهي تنزف.

قالت ريم: «مها قالت ممكن يعملوها من غيرك لو مش قادرة.»

أمسكت سالي الورقة. كان العرض منطقيًا، بل رحيمًا. لكنه جعلها تشعر أن حياتها تتحول إلى مشروع يكمله الآخرون احترامًا لها.

قالت: «اتصلي بها. قولي لها تيجي بكرة ومعاها كل التسجيلات.»

اعترض فؤاد حين عرف. قال إن الجلوس الطويل يرهقها وإن الدراسة أولى، وإن البرنامج ليس وظيفة رسمية. أجابته سالي أن

العمل جزء من علاجها. قال إن العلاج له أطباء. قالت إن الروح ليست في جدول الدواء. تدخلت ليلى قبل أن يعود الخلاف إلى نقطة الصفر، واتفقوا على ساعتين فقط.

جاءت مها في اليوم التالي، ومعها حقيبة من الأشرطة وأوراق مبعثرة. وقفت عند باب الغرفة مترددة، ثم انحنت لتحضن سالي بحذر مبالغ فيه.

قالت سالي: «أنا مش قنبلة.»

ضحكت مها وارتاحت. جلستا تراجعان المواد. كان معظمها قديمًا أو سطحيًا: أسئلة سريعة لممرضة عن ضغط العمل، مقابلة مع عامل نظافة صوّرتها الكاميرا من زاوية متعالية، وجمل معدة مسبقًا عن «الجنود المجهولين» بدت لسالي الآن فارغة.

قالت: «نرمي النص ده.»

ـ كله؟

ـ كله. إحنا بنتكلم عن ناس بنشوفهم بس لما نحتاجهم، وبعدها بنرجع ننساهم. لازم نسألهم إيه اللي بيشوفوه هم فينا.

ـ وإنتِ هتعملي المقابلات إزاي؟

نظرت إلى جهاز التسجيل. «بالصوت. مش لازم الكاميرا تشوفني عشان أشتغل.»

اتصلت بالممرضة التي كانت في الطوارئ ليلة الحادث. رفضت في البداية، ثم وافقت على مقابلة من دون اسم أو صورة. جاءت بعد انتهاء ورديتها، وجلست في الصالة مع سالي ومها. سألتها سالي كيف تستطيع استقبال مصاب جديد قبل أن تعرف قصته، وكيف تفصل بين الخوف والعمل، وما الذي يبقى في ذاكرتها بعد خروج المرضى.

قالت الممرضة: «إحنا ما بنفصلش تمامًا. لو فصلنا، نبقى آلات. بس بنتعلم نأجل إحساسنا لحد ما نخلص اللي في إيدنا.»

ـ وبعدين؟

ـ ساعات الإحساس ينسى يرجع. وساعات يرجع كله مرة واحدة في البيت.

سألتها عن الليلة التي وصلت فيها السيارة. نظرت الممرضة إليها طويلًا، ثم قالت: «فاكرة إنك كنتِ بتدوري على حاجة. وإحنا بنقص هدومك عشان نفحصك، كنتِ بتقولي قلم.»

ابتسمت سالي. «القلم وصل.»

بعد المقابلة، بقيت صامتة. لم تكن تعرف أنها تحدثت في الطوارئ، ولا أن غرباء رأوا جسدها وقطعوا ملابسها وأنقذوها بينما كانت ذاكرتها غائبة. شعرت بالامتنان والعار والغضب في وقت واحد، ثم وبّخت نفسها على العار. لم تختر أن تكون مكشوفة. جسدها لم يخنها؛ كان يقاتل بطريقته.

كتبت مقدمة جديدة للحلقة:

«نحن نحب أن نظن أن حكاياتنا تبدأ حين نفتح أعيننا، لكن هناك من يحملنا في الصفحات التي لا نتذكرها. لا يعرف أسماءنا، ولا يعرف من نحب، ومع ذلك يتصرف لثوانٍ كأن حياتنا أهم شيء في العالم.»

قرأتها لمها، فقالت: «دي لازم تقوليها بصوتك.»

ترددت سالي. كانت قد سمعت صوتها في التسجيل القديم ولم تحتمل المسافة بينهما. قالت إنها ستبحث عن مذيعة أخرى.

رفضت مها.

ـ الفكرة بتاعتك والتجربة بتاعتك.

ـ التجربة مش مؤهل صوتي.

ـ وإنتِ قبل الحادث كنتِ عايزة تشتغلي قدام الميكروفون. ليه دلوقتي بتستخبي؟

غضبت سالي. «أنا مش باستخبى. أنا على كرسي في أوضة ومش بعرف أوصل الحمام من غير مساعدة. مش كل حاجة اسمها شجاعة أو خوف.»

اعتذرت مها، وجمعت أوراقها. قبل أن تغادر قالت: «أنا مش عايزاكي تثبتي حاجة لحد. بس ما تخليش الحادث ياخد قرار كان بتاعك.»

ظل جهاز التسجيل فوق المكتب يومين. في اليوم الثالث، أغلقت سالي الباب، وثبتت الورقة أمامها، وضغطت الزر الأحمر.

قالت الجملة الأولى، فتلعثمت عند كلمة «حكاياتنا». أعادت من البداية. في المحاولة الرابعة، جاء صوتها منخفضًا أكثر من اللازم. في السادسة، دخل صوت سيارة من الشارع. في التاسعة، نسيت السطر الأخير وأغلقت الجهاز بعصبية.

دخل سامر بعد الظهر فوجد عشرات المحاولات مسجلة فوق الشريط نفسه. استمع إلى واحدة، ثم قال: «إنتِ بتقوليها كأنك بتقدمي امتحان.»

ـ ما هو تسجيل.

ـ لأ. إنتِ بتحاولي ترجعي صوت البنت اللي قبل الحادث.

نظرت إليه. «وإيه المشكلة؟»

ـ إنها مش موجودة بنفس الشكل. قولي الكلام بصوتك دلوقتي.

ـ وصوتي دلوقتي عامل إزاي؟

ـ أبطأ. وأقل ثقة في الأول. بس لما بتوصلي لنص الجملة، بيبقى أصدق.

لم تعرف هل تشكره أم تطرده. أعاد لها الشريط وقال: «ما تمسحيش النفس اللي بين الجمل. هو جزء من الحكاية.»

في المساء، سجلت المقدمة مرة واحدة. لم تكن خالية من الاهتزاز. سُمع تنفسها عند الانتقال بين سطرين، وتوقفت لحظة قبل كلمة «يحملنا». تركت كل ذلك.

ساهم سامر في إعداد الملصق، ورسم يدين لا يظهر صاحبهما تحملان خطًا نابضًا. جمع زين أسماء أطباء وممرضين وافقوا على الكلام، لكنه هذه المرة سلّم الأرقام إلى سالي ولم يدِر المقابلات عنها. أما فؤاد، فجلس في الصالة أثناء التسجيلات متظاهرًا بقراءة الجريدة، ثم صار يقترح أسماء عمال وفنيين من موقع عمله.

عُرضت الحلقة في قاعة صغيرة بالكلية. لم تستطع سالي الحضور بسبب السلم الطويل وعدم وجود مصعد، فأصر الفريق على نقل جهاز عرض إلى بيت فؤاد. اجتمعت الأسرتان وبعض الزملاء في الصالة، ووضعوا التلفزيون عند الحائط. بدأت الشاشة بلقطات أيدٍ تفتح باب الطوارئ، وتغسل الأرض، وتثبت ضوءًا، وتكتب اسمًا فوق ملف. لم تظهر سالي في الصورة. جاء صوتها فقط، هادئًا ومترددًا في البداية، ثم أكثر ثباتًا.

حين انتهى العرض، لم يصفق أحد فورًا. ظلت الشاشة سوداء لثانيتين، ثم بدأت ليلى، وتبعها الجميع. مسح فؤاد عينيه متظاهرًا بأن الإضاءة أزعجته.

قال زين لسالي: «صوتك رجع.»

أجابته: «هو ما راحش. أنا اللي كنت بدور عليه في المكان الغلط.»

بعد أيام، اتصلت بها أستاذة في القسم وقالت إن الحلقة ستُعرض في نشاط جامعي أوسع، وإن بإمكانها استكمال الفصل الدراسي من خلال تكليفات خاصة حتى تتحسن حركتها. لم يكن ذلك ضمانًا للنجاح، لكنه فتح طريقًا لم يكن موجودًا.

في جلسة العلاج التالية، طلب منها الاختصاصي الوقوف داخل إطار المشي للمرة الأولى. ثبت ساقها، وشرح توزيع الوزن، وأمسك الحزام حول خصرها. دفعت بذراعيها، وارتفع جسدها ببطء. صرخت من الألم، ثم وجدت نفسها واقفة لثلاث ثوانٍ.

لم تكن هناك كاميرا. لم يسمع أحد مقدمة موسيقية. لم تقل جملة بطولية. جلست وهي تبكي وتضحك في الوقت نفسه.

قالت ليلى: «وقفتي.»

مسحت سالي وجهها. «صوتي سبقني.»

الفصل الثالث والثلاثون

الخوف حين يتنكّر في هيئة حب

مع تحسن سالي، ازداد خوف الرجال من حولها بدل أن يقل. كان فؤاد يراقب كل حركة جديدة، وزين يحفظ مواعيد الجلسات، وكمال يسأل الطبيب عن التفاصيل التي لا يسألها فؤاد كي لا يسمع إجابة تزعجه. حتى كريم صار يختار الطريق الأقل ازدحامًا حين ينقلها إلى مركز التأهيل، وإن أضاف نصف ساعة إلى الرحلة.

في البداية رأت سالي في ذلك كله حبًا. ثم بدأ الحب يضيق حولها مثل جبيرة وُضعت بإحكام زائد.

حين سمح الطبيب لها بالخروج مرة أسبوعيًا، اقترحت الذهاب إلى الكلية لتسليم مشروعها بنفسها. قال فؤاد إن مها تستطيع أخذه. قالت إنها تريد رؤية أساتذتها وزملائها. وافق بشرط أن يذهب معها زين وأن يعودا بعد ساعة. لم يعجبها الشرط، لكنها قبلت لأن البديل كان البقاء.

وصلت إلى الكلية في سيارة كمال. كان المدخل الرئيسي يحتوي على ست درجات بلا منحدر. وقف الحارس ينظر إلى الكرسي ثم

إلى الدرج، واقترح أن يحملها العمال. رفضت. داروا حول المبنى حتى وجدوا باب خدمة منخفضًا، لكنه كان مغلقًا بسلسلة. احتاج الأمر إلى موظف ومفتاح ومكالمة إلى الإدارة. انتظرت سالي في الشمس عشرين دقيقة بينما مر الطلاب من أمامها.

قال زين: «نرجع. المشروع يتسلم من غيرك.»

ـ استنينا عشرين دقيقة، نستنى خمسة كمان.

ـ إنتِ تعبانة.

ـ أنا اللي أحدد.

ـ وشك اصفر.

ـ من الغيظ، مش من التعب.

فتح الباب أخيرًا. عبرت ممرًا خلفيًا بين صناديق ومقاعد مكسورة، ثم خرجت إلى الرواق الذي عرفته قبل الحادث. توقفت الأصوات للحظة حين رآها الطلاب. تقدمت مها وعانقتها، واقترب آخرون يقدمون السلام والعبارات نفسها: «الحمد لله على سلامتك»، «إنتِ بطلة»، «إن شاء الله ترجعي أحسن من الأول».

شعرت سالي أنها دخلت بوصفها حادثة لا طالبة. كل وجه ينظر أولًا إلى ساقها، ثم إلى عينيها. كانت تفهم فضولهم ولا تحتمله.

دخلت قاعة القسم، وسلمت المشروع، وناقشت الأستاذة في تعديلات بسيطة. بعد نصف ساعة، بدأ الألم يصعد من الفخذ إلى الظهر. لم تقل شيئًا. حين انتهت، اقترحت مها الجلوس في المقهى.

قال زين: «كفاية عليها النهارده.»

التفتت سالي إليه ببطء. «أنا موجودة.»

ـ عارف.

ـ يبقى ما تجاوبش بدالي.

قال أمام الجميع: «أنا شايف إنك محتاجة ترتاحي.»

ـ وأنا شايفة إني أقعد عشر دقايق.

جلسوا. لم تتحدث سالي كثيرًا. كانت طاقتها قد نفدت بالفعل، لكن اعترافها بذلك أمام زين بدا لها هزيمة. في طريق العودة، ظلت صامتة.

قال: «إنتِ كنتِ تعبانة.»

ـ مش دي المشكلة.

ـ أمال إيه؟

ـ إنك كنت مستني تثبت إنك صح.

ـ أنا كنت خايف عليكي.

ـ الخوف مش تصريح إنك تتكلم بصوتي.

ـ ولو سكت وإنتِ أذيتِ نفسك؟

ـ تقولي لي رأيك بيني وبينك. ما تعلنش قدام الناس إني مش قادرة قبل ما أنا أقول.

أمسك المقود بقوة. «أنا شفتك في الطوارئ. كل ما أشوف وشك يتغير، برجع أشوفك هناك.»

لانت نبرتها، لكنها لم تتراجع. «وأنا كنت هناك. مش إنت. ما ينفعش التجربة اللي حصلت لجسمي تديك سلطة على جسمي.»

توقف عند إشارة المرور. ظل ينظر أمامه، ثم قال: «أنا مش عارف أحبك من غير ما أحاول أحميكي.»

جاءت الكلمة واضحة للمرة الأولى: أحبك. لم يقلها بوصفها اعترافًا معدًا، بل خرجت وسط خلاف، عارية من الموسيقى والترتيب. سمعها الاثنان، ولم يعلقا عليها.

قالت سالي بعد صمت: «اتعلم تحميني لما أطلب. ولما ما أطلبش، صدق إني أعرف نفسي.»

ـ وإنتِ اتعلمي إن طلب المساعدة مش هزيمة.

ـ دي معركتي أنا.

ـ بس تأثيرها علينا كلنا.

وصلت السيارة إلى العمارة، وبقي الاثنان جالسين. كان بإمكان كل منهما أن يتمسك بنصف الحقيقة الذي يملكه. سالي محقة في أن جسدها وقرارها لها. وزين محق في أن الخوف لم يعد فكرة مجردة بعد أن حمل احتمال فقدها. المشكلة أن الحب لا يحل التناقضات؛ يجبر الناس فقط على البقاء داخلها مدة أطول.

قال زين: «أنا آسف إني اتكلمت بدالك.»

قالت: «وأنا آسفة إني خبيت تعبي عشان أثبت لك حاجة.»

ـ نعمل إيه المرة الجاية؟

ـ تسألني: نكمل ولا نمشي؟ وأنا أجاوب بصدق.

ـ ولو جاوبتي بعناد؟

ـ اسأل مرة تانية.

ضحك. ثم سأل: «نطلع ولا تقعدي شوية؟»

ـ نطلع. أنا تعبانة فعلًا.

في البيت، واجهت شكلًا آخر من الخوف. كان فؤاد قد عرف من كمال صعوبة دخول الكلية، فأعلن أنها لن تذهب مرة أخرى قبل أن تستطيع المشي. قالت إن المشكلة في المبنى لا فيها، وإن الحل ليس حبسها. رد بأن المجتمع كله غير مهيأ، وإنه لا يستطيع تغيير المجتمع من أجل زيارة.

قالت: «يبقى نغير الجزء اللي نقدر عليه.»

كتبت خطابًا إلى عميد الكلية تطلب فتح باب الخدمة بانتظام ووضع منحدر مؤقت. ساعدتها مها في جمع توقيعات طلاب لديهم إصابات أو إعاقات مؤقتة ودائمة. حين قرأ فؤاد الخطاب، قال إن الإدارة لن تهتم. أرسلته على أي حال.

بعد أسبوعين، جاء رد مختصر بالموافقة على إبقاء الباب مفتوحًا خلال ساعات الدراسة، ودراسة إنشاء منحدر. لم تتغير الجامعة كلها. لم يصبح العالم عادلًا. لكن بابًا واحدًا فُتح.

علقت سالي نسخة الرد فوق مكتبها. قالت لفؤاد: «شايف؟»

قرأها، ثم قال: «أنا ما كنتش عايز أحبطك.»

ـ كنت عايز تحميني من الإحباط، فكنت هتحرمني من المحاولة.

جلس قربها. «أنا مش متعود أشوفك محتاجة حاجة ومقدرش أوفرها.»

ـ وفر لي ثقتك.

لم يجب فورًا. كان الطلب أصعب من شراء جهاز أو استدعاء طبيب. الثقة تعني أن يسمح لها بالخروج إلى عالم أثبت قدرته على إيذائها.

في المساء، صعد فؤاد إلى كمال. وجده في الشرفة، يحمل كوب الشاي الذي كانت نادية تعده له. قال فؤاد: «أنا كل ما أحاول أحميها، تزعل.»

أجاب كمال: «يمكن عشان الحماية ساعات بتبقى طريقة محترمة للخوف.»

ـ وإنت بتعمل إيه مع زين؟

نظر كمال إلى الشارع. منذ موت نادية، صار يتصل بزين في المستشفى كل ليلة، ويسأله متى يعود، ويغضب إذا نام عند زميل أو تأخر من غير خبر. قال: «بعمل نفس اللي بتعمله تقريبًا.»

ضحك فؤاد. «يبقى إحنا الاتنين محتاجين علاج طبيعي.»

ـ للآباء مفيش مركز تأهيل.

ـ فيه أولادنا. بيجبرونا نتعلم.

في الأيام التالية، وضع زين وسالي قاعدة: لا يتخذ أحدهما قرارًا نيابة عن الآخر، ولا يخفي أحدهما التعب لإثبات الاستقلال. كانت قاعدة تبدو بسيطة، وفشلا فيها مرات كثيرة. لكنه صار يسأل قبل أن يمسك الكرسي، وصارت هي تقول حين تحتاج إلى العودة. وإذا اختلفا، حاولا أن يتذكرا أن الخوف ليس عدوًا ينبغي إنكاره، بل شعورًا يجب ألا يُمنح حق القيادة.

الفصل الرابع والثلاثون

ما قاله سامر أخيرًا

كان سامر يزور سالي أقل من زين، لكنه حين يأتي لا يسألها عن الألم أولًا. يضع رسوماته فوق المكتب، أو يحكي عن أستاذ يكره عمله، أو يسرق قطعة حلوى من المطبخ ثم يدعي أن هاني أخذها. أحبّت فيه أنه يعامل الحادث كجزء من الغرفة لا كالغرفة كلها.

ومع ذلك، كان يحمل منذ سنوات كلامًا يعرف أنه لا يستطيع تأجيله إلى الأبد.

في عصر شتوي، وجد سالي وحدها. كانت ليلى في السوق، وفؤاد في العمل، وزين لديه امتحان. جلست أمام النافذة، تحاول ثني ركبتها وفق تعليمات العلاج. وضع سامر أنبوب الرسومات قرب الباب وقال: «جبت لك حاجة.»

أخرج لوحة صغيرة. رسم فيها السلم القديم للعمارة، لكن هذه المرة لم يكن فارغًا. ظهرت ثلاثة ظلال: طفلان في الأعلى، وثالث يقف على درجة أقل، نصفه في الضوء ونصفه في الظل.

قالت سالي: «مين دول؟»

ـ إنتِ عارفة.

ـ وليه التالت واقف لوحده؟

جلس. «عشان هو اللي حط نفسه هناك.»

نظرت إليه، وانتظرت.

قال: «أنا طول سنين كنت بحكي لنفسي إني دخلت بينكم عشان إنتِ كنتِ محتاجة حد يسمعك، أو عشان زين كان ساكت، أو عشان إحنا تلاتة أصحاب. كل ده فيه جزء صح. بس فيه جزء تاني ما كنتش عايز أشوفه.»

ـ إيه؟

ـ كان عاجبني إنك تختاريني في لحظات. حتى لو الاختيار مؤقت. كنت بحس إني كسبت حاجة من زين.

قالت سالي بهدوء: «أنا مش حاجة تتكسب.»

ـ عارف. متأخر، بس عارف.

ـ وإنت ما كنتش لوحدك. أنا كمان استخدمت وجودك ساعات عشان أوجعه أو أهرب من كلام مش عايزة أقوله.

رفع رأسه. لم يتوقع أن تمنحه نصيبًا من المسؤولية أقل مما حمله لنفسه، ولا أن تحمل هي نصيبها.

قال: «أنا آسف.»

ـ اعتذرت قبل كده.

ـ اعتذرت عن تصرفات. مش عن الإحساس اللي وراها.

صمتت. كانت تستطيع أن تطمئنه وتقول إن كل شيء مضى، لكنها لم ترد تحويل اعتذاره إلى راحة سريعة.

قالت: «إنت أذيتنا، وأذيت نفسك. بس مش كل اللي حصل كان بسببك. زين كان ساكت وأنا كنت بعاند، وإنت كنت بتدور على مكان. إحنا التلاتة عملنا المثلث ده.»

ـ وأنا عايز أخرج منه.

ابتسمت. «تخرج من إيه؟ حياتنا؟»

ـ لأ. من دور الشخص التالت. أنا صاحبكم. مش احتياطي حد، ولا منافس حد.

أشارت إلى اللوحة. «يبقى ليه رسمت نفسك تحت؟»

نظر إليها طويلًا، ثم أخذ قلم الفحم وأضاف خطًا إلى جوار الظل الثالث، كأنه يفتح له طريقًا إلى جانب السلم لا خلف الاثنين.

قال: «عشان لسه بتعلم أرسم مكان جديد.»

تحدثا بعد ذلك عن أشياء لم يقولاها في الجامعة. أخبرها أنه حين ندم في السنة الأولى، فكر في الابتعاد نهائيًا، لكنه خاف أن يبدو هروبه بطولة جديدة تجعل الجميع يلاحقونه. قالت إنها كانت ستغضب لو اختفى من غير تفسير. اعترف أنه أحبها فعلًا في فترة ما، وربما ظل يحب جزءًا من الصورة التي صنعها لها، لكنه لم يعد يريد أن يبني حياته على احتمال أن تلتفت إليه.

قالت: «الحب مش دايمًا معناه إن العلاقة لازم تحصل.»

ـ دي جملة سهلة للي اتختار.

ـ وأنا ما اتختارتش رسميًا أصلًا.

ضحك. «إنتوا محتاجين محامي يكتب لكم تعريف العلاقة.»

ـ إحنا محتاجين نبطل نفترض إن العمر طويل.

جاءت الجملة من أثر الحادث. فهمها سامر. قال: «قولي له.»

ـ وهو يقول.

ـ رجعنا للعند.

ـ دي صفة ثابتة في الشخصية.

قبل أن يغادر، طلبت منه أن يترك اللوحة. علقها قرب مكتبها، تحت رد الجامعة بشأن الباب. لم تكن تذكارًا لمثلث عاطفي، بل خريطة لثلاثة أشخاص يحاول كل منهم أن يجد مكانًا لا يقوم على إقصاء الآخر.

بعد أيام، التقى سامر بزين في مقهى قريب من المستشفى. كان زين يراجع ملاحظات المحاضرة، فوضع سامر أمامه كوب قهوة وقال: «أنا قلت لسالي كل حاجة.»

رفع زين عينيه. «كل حاجة إيه؟»

ـ عن اللي عملته زمان. وعن إني كنت مبسوط ساعات إنكم مختلفين.

أغلق زين الكتاب. شعر بوخزة الغيرة القديمة، ثم سأل: «وقالت لك إيه؟»

ـ قالت إننا التلاتة مسؤولين. وقالت إني صاحبكم.

ـ وإنت؟

ـ قلت إني مش هفضل الشخص التالت.

ظل زين صامتًا. كان جزء منه يريد أن يطلب تفاصيل، وأن يعرف هل قال سامر إنه أحبها، وهل ردت، وهل بقي شيء بينهما. لكنه رأى أن السؤال نفسه يعيد سامر إلى الدور الذي يحاول الخروج منه.

قال: «أنا ظلمتك ساعات.»

ضحك سامر. «وساعات كنت مصيب.»

ـ وأنا استخدمت سكوتي عشان أخليكم تخمنوا، وبعدين زعلت من تخمينكم.

ـ تقدم ممتاز. الطب خلاك تشخّص نفسك.

مد زين يده. صافحه سامر، ثم سحبها وقال: «ما تعملهاش مشهد مصالحة رجالي. إحنا لسه هنتخانق كتير.»

ـ أكيد.

ـ وبالمناسبة، أنا اللي هوصل سالي الجلسة الخميس.

ـ ليه؟

ـ عشان إنت عندك امتحان، وعشان أنا صاحبها، مش مندوبك.

توقف زين، ثم قال: «تمام.»

في الخميس، قاد سامر السيارة ببطء مبالغ فيه حتى سخرت منه سالي. قال إنه لا يريد أن يتحول إلى فصل جديد في مأساتها. طلبت منه أن يزيد السرعة قليلًا، فرفض. تشاجرا وضحكا، وكان ذلك طبيعيًا على نحو افتقداه.

بعد الجلسة، مر بها على الكلية لترى المنحدر الخشبي المؤقت الذي وضعته الإدارة عند الباب. كان مائلًا أكثر من اللازم، ويحتاج إلى شخص يدفع الكرسي. قالت إنه حل ناقص. أجاب سامر: «كل الحلول الأولى بتبقى رسمة تجريبية.»

صعد بها، ثم وقفوا في الرواق. لم تكن مها موجودة، ولا زين، ولا فؤاد. كان هذا خروجًا لا يدور حول حماية أحد أو إثبات شيء لأحد. جلست سالي أمام لوحة الإعلانات تقرأ مواعيد الامتحانات، بينما اشترى سامر عصيرين.

قالت: «هكمل السنة.»

ـ عارف.

ـ ما تقولش كده كأنك كنت متأكد.

ـ ما كنتش. بس عارف إنك قررتِ.

كان الفرق مهمًا. لم يقل إنها قوية، ولم يحول قرارها إلى صفة أسطورية. اعترف فقط بأنه قرارها.

عندما عادا إلى العمارة، كان زين ينتظر عند الباب. نظر إلى سامر ثم إلى سالي. قالت له: «المنحدر سيئ جدًا، بس موجود.»

قال سامر: «وأنا سقت كويس، اكتب في التقرير.»

ابتسم زين. لم يسأل لماذا تأخرا عشرين دقيقة، ولم يفتش عن معنى إضافي في وجودهما معًا. حمل حقيبة سالي بعد أن سألها، وصعد الثلاثة إلى الشقة.

الفصل الخامس والثلاثون

الاسم الذي تأخر سنوات

حل الربيع بطيئًا ذلك العام. بدأت الأشجار أمام العمارة تستعيد أوراقها، وبدأت سالي تستعيد الحركة على نحو لا يشبه المعجزات التي يتخيلها الزائرون. انتقلت من الكرسي إلى إطار المشي، ثم إلى عكازين، وبقيت المسافات الطويلة تحتاج إلى الكرسي. كان الألم يأتي في أيام بلا سبب واضح، وتتيبس الركبة في الصباح، ويخونها التوازن حين تتعب. تعلمت أن التحسن ليس خطًا مستقيمًا؛ قد تمشي عشر خطوات يومًا، ثم تحتاج إلى المساعدة في اليوم التالي.

عادت إلى الكلية يومين في الأسبوع. فتحوا لها باب الخدمة، وصارت تعرف العامل الذي يحمل المفتاح. أكملت التكليفات، وسجلت حلقات قصيرة من المنزل، ثم دخلت الاستوديو للمرة الأولى بعد الحادث. وقفت أمام الميكروفون على عكاز واحد، لا لأن الوقوف ضروري، بل لأنها أرادت أن تعرف كيف يبدو جسدها في المكان القديم.

أما زين، فكان ينتقل إلى مرحلة أكثر قسوة في دراسته. صار يقضي ساعات أطول في الأقسام، ويرى مرضى لا تنتهي قصصهم عند خروج الطبيب من الغرفة. بعد وفاة نادية وحادث سالي، لم يعد الطب بالنسبة إليه علمًا محايدًا. كان كل تقرير يحمل احتمال أن يكون شخص ما ينتظر خلف باب، وكل قرار صغير يمكن أن يظل في ذاكرة عائلة سنوات.

في إحدى الليالي، عاد إلى العمارة بعد منتصف الليل. وجد ضوء شرفة سالي مفتوحًا. صعد إلى شقته، وضع حقيبته، ثم نزل. فتحت له ليلى وقالت إن سالي لم تستطع النوم بسبب الألم، وإن فؤاد أخيرًا نام بعد أن ظل يسألها كل ساعة.

دخل غرفتها. كانت جالسة قرب النافذة، ساقها مرفوعة فوق وسادة، والدفتر الأسود في حجرها.

قال: «المسكن ما اشتغلش؟»

ـ اشتغل شوية. وبعدين قرر ياخد أجازة.

جلس على الكرسي المقابل. لم يسأل عن درجة الألم، ولم يقترح تعديل الجرعة. قال: «تحبي أعمل إيه؟»

نظرت إليه. كانت هذه الجملة ثمرة شهور من الخلافات.

ـ اقعد.

جلسا في صمت. كان الشارع هادئًا، ويأتي من بعيد صوت سيارة منفردة. بعد وقت قالت سالي: «إنت قلت لي في العربية إنك مش عارف تحبني من غير ما تحاول تحميني.»

عرف أن الكلمة التي تركاها معلقة عادت تطلب اسمها.

قال: «أيوه.»

ـ كان قصدك إيه؟

ـ قصدت اللي قلته.

ـ دي إجابة جبانة.

ابتسم. «أنا بحبك يا سالي.»

لم تتغير الغرفة. لم تهب موسيقى من مكان مجهول، ولم يختف الألم. فقط استقرت الجملة بينهما، بسيطة وثقيلة، كشيء كان موجودًا منذ زمن ثم وُضع أخيرًا فوق الطاولة.

قالت: «من إمتى؟»

ـ مش عارف. يمكن من قبل ما أعرف إن فيه اسم للي بينا. ويمكن من يوم ما لقيت الكرة عند رجلي. ويمكن من أول مرة حسيت إنك ممكن تختاري سامر ومش أنا. كل إجابة فيهم ناقصة.

ـ بتحبني أنا، ولا بتحب فكرة إننا لازم نكمل عشان بدأنا مع بعض؟

فكر قبل أن يجيب. «بحب إنك الوحيدة اللي بتعرفي إمتى أنا ساكت عشان مش لاقي كلام، وإمتى ساكت عشان بعاقب. بحب صوتك لما تتحمسي لفكرة وتنسي اللي حواليكي. وبخاف من عنادك، وبزعل من إنك ساعات تستخدمي استقلالك عشان تبعديني. وبحبك حتى لما ما تكونيش محتاجاني. يمكن خصوصًا ساعتها.»

سكتت سالي. كانت تخشى إجابة المنقذ: أحبك لأنك احتجت إليّ. لكنه رآها خارج حاجته إلى البطولة.

قالت: «وأنا بحبك.»

خرجت الجملة أقل ثباتًا من جملته، لكنها لم تكن أقل صدقًا.

ـ من إمتى؟

ـ من قبل ما أعرف برضه. بس كرهتك فترات.

ضحك. «ده يطمن.»

ـ لازم تعرف العقد كامل. حبيتك لما كنت بتستنى عند السلم، ولما كنت بتفهم حاجات من غير كلام. وكرهتك لما كنت بتقرر إن سكوتك أرقى من إنك تشرح. وحبيتك بعدين، وكرهتك في العربية، وحبيتك لما اعتذرت. الموضوع مش خط مستقيم.

ـ واضح إن مفيش حاجة عندنا خط مستقيم.

نظرت إلى ساقها. «أنا خايفة.»

ـ من إيه؟

ـ إنك تكون بتقول ده دلوقتي عشان الحادث. عشان حسيت إنك ممكن تخسرني.

ـ الحادث خلاني أقول. ما خلقش اللي بقوله.

ـ وخايفة أبقى عبء عليك. دراستك وحياتك وأبوك وريم، وبعدين أنا وجلساتي.

ـ إنتِ مش قائمة مهام.

ـ ما تقولش كلام حلو بس.

ـ مش بقول. وبالمناسبة، إنتِ ممكن تبقي عبء ساعات، وأنا كمان هبقى عبء. الناس مش بتفضل خفيفة على بعض طول العمر.

ضحكت رغم الألم. «رومانسي جدًا.»

ـ دقة علمية.

مدت يدها. أمسكها. لم يكن الإمساك وعدًا بالزواج ولا إعلانًا للأسرتين، ولم يحل خلافاتهما. كان اتفاقًا على ألا يظلا يختبئان خلف كلمة الصداقة بينما يطلب كل منهما من الآخر ما هو أكثر.

قالت: «مش عايزة علاقتنا تبقى سر، ومش عايزة تتحول بكرة لمشروع جواز والأسرتين يقعدوا يحددوا كل حاجة.»

ـ ندي نفسنا وقت.

ـ بس ما نرجعش للغموض.

ـ إحنا مع بعض.

ـ قولها تاني.

ـ إحنا مع بعض.

رفعت حاجبها. «دي مش رومانسية برضه.»

ـ أنا طالب طب، مش شاعر.

ـ سامر كان هيقولها أحسن.

سحب يده متظاهرًا بالغضب، فضحكت وأمسكتها من جديد.

في الصباح، لم يعلنا شيئًا. لم يحتاجا إلى ذلك فورًا. لكن التفاصيل تغيرت. حين دخل زين بيت فؤاد، لم يعد يختبئ خلف زيارة طبية. وحين اتصلت سالي به في المستشفى، لم تعتذر لأنها تشغله. صار من حق كل منهما أن يطلب وقتًا، ومن واجبه أن يسمع الرفض أحيانًا من غير أن يحوله إلى إهانة.

كانت ليلى أول من فهم. رأتهما في الشرفة، لا يفعلان شيئًا مختلفًا سوى أن الصمت بينهما صار مطمئنًا. وضعت الشاي أمامهما وقالت: «أنا مش هسأل. بس لما يبقى فيه كلام للكبار، ما تخلوناش آخر ناس تعرف.»

احمر وجه سالي. قال زين: «إحنا لسه...»

رفعت ليلى يدها. «قلت مش هسأل.»

أما فؤاد، فبقي منشغلًا بعلاج ابنته. وربما رأى ولم يرد أن يسمي. كان زين بالنسبة إليه ابن صديقه والولد الذي وقف معه

في المستشفى. فكرة أن يصبح شيئًا آخر لم تكن مخيفة بعد، لكنها حملت معنى أن سالي ستغادر يومًا، وهو معنى لم يكن مستعدًا له.

كمال أيضًا لاحظ. سأل زين ذات مساء: «إنت وسالي اتفقتوا على حاجة؟»

قال زين: «إحنا مع بعض.»

ظل كمال صامتًا، ثم قال: «إنتوا لسه صغيرين.»

ـ عارف.

ـ ودراستك طويلة.

ـ عارف.

ـ وهي محتاجة تركز في علاجها.

ـ عارف.

ضاق كمال من الإجابات القصيرة. «أنا مش باعترض. بس ما تحملوش نفسكم كلام أكبر من وقتكم.»

قال زين: «إحنا ما بنخططش للجواز بكرة. بس مش هنتعامل كأن اللي بينا مش موجود.»

نظر كمال إلى الكوب الذي بين يديه. منذ وفاة نادية، صار أي حديث عن خروج زين من البيت يفتح داخله فراغًا لا يعترف به. قال: «خلي بالك من مستقبلك.»

ـ هي جزء منه.

رفع كمال عينيه بسرعة. لم يرد. كانت الجملة مبكرة وثقيلة. سمع فيها ما لم يقله زين: أن مستقبل الابن قد لا يكون داخل هذا البيت، وأن الرجل الذي فقد زوجته قد يفقد أيضًا الوجود اليومي لابنه.

في الأسبوع التالي، دعا سامر الثلاثة إلى معرض طلابي شارك فيه. كانت سالي تستطيع المشي بالعكازين لمسافات قصيرة، لكنها أخذت الكرسي احتياطًا. عند المدخل، مد زين يده إلى المقبض ثم توقف وسأل: «أدفع؟»

قالت: «آه.»

دفعها حتى القاعة، ثم تركها تتحرك وحدها بين اللوحات. عرض سامر لوحة السلم بثلاثة ظلال، وأضاف إلى جوارها لوحة

لطريق انكسر في المنتصف ثم استمر بخط مختلف. لم يكتب أسماءهم.

وقفوا أمامها. قال سامر: «العنوان: ما بعد النقطة التي ظنناها نهاية.»

قالت سالي: «طويل.»

قال زين: «ومتفائل زيادة.»

ـ عشان كده أنا الفنان وإنتوا الجمهور الجاحد.

التقط لهم أحد الزملاء صورة. وقفت سالي بينهما مستندة إلى عكاز واحد، وزين إلى يمينها، وسامر إلى يسارها. لم تكن الصورة إعلانًا عن منتصر ومهزوم. كانت صورة ثلاثة أشخاص خرجوا من أدوار قديمة، ولو مؤقتًا.

عند العودة، طلبت سالي أن يصعدوا إلى السطح. اعترض فؤاد بسبب الدرج، لكنها قالت إنها ستصعد ببطء، وإنها تحتاج إلى تجربة السلم قبل أن تخاف منه أكثر. وقف زين خلفها، وسامر أمامها، من غير أن يلمسها أحد إلا حين طلبت. استغرق الصعود

وقتًا طويلًا. عند كل طابق توقفت تستريح، تسمع أنفاسها وترى الدرجات التي كانت تقفز فوقها طفلة.

وصلت إلى السطح عند الغروب. كان الهواء باردًا، والمدينة أوسع مما تذكرت. مشَت بالعكازين حتى السور الذي خبآ عنده العلبة المعدنية القديمة، لكنهما لم يبحثا عنها. لم يكن الوقت قد حان بعد، أو ربما خافا أن يجداها فارغة.

قالت سالي: «فاكر لما وعدتني إنك مش هتمشي؟»

ـ أيوه.

ـ وكنت مصدقاك.

ـ وأنا كنت مصدق نفسي.

ـ دلوقتي ما توعدنيش إنك مش هتمشي.

نظر إليها.

أكملت: «وعدني إنك لو احتجت تمشي، ما تختفيش. ولو أنا مشيت، ما تعتبرش ده خيانة.»

قال: «وأنتِ وعديني إننا ما نستخدمش الحب عشان نحبس بعض.»

ـ أو عشان ننقذ بعض غصب.

ـ أو عشان نسكت ونقول المفروض يفهم.

مدت يدها. كانت اليد نفسها التي أمسكت يده في العناية، لكنها الآن ثابتة ودافئة.

قالت: «عهد؟»

ابتسم. كانت الكلمة قديمة، من زمن الكرة الحمراء والبدروم والسطح الأول.

قال: «عهد.»

وقفا يشاهدان الغروب، بينما جلس سامر بعيدًا يرسم خزانات المياه وحبال الغسيل، ويترك لهما المسافة من غير أن يغادر. وفي الطابق الثالث، كان كمال يقف خلف ستارة الشرفة، يراهما فوق السطح ولا يسمع كلامهما.

ظل كمال ممسكًا بطرف الستارة. على الطاولة خلفه كان كوبان فوق الصينية؛ أعاد أحدهما إلى الخزانة.

أغلق الستارة قبل أن يروه.

الفصل السادس والثلاثون

الطريق الذي لم يعد بريئًا

لم تكن أصعب رحلة لسالي هي الرحلة الأولى من المستشفى إلى البيت. في ذلك اليوم كانت تحت تأثير المسكنات، ومحاطة بأبيها وزين والمسعفين، والطريق كله مهمة طبية تنتهي عند باب الشقة. الصعوبة بدأت حين صار عليها أن تركب سيارة عادية، في يوم عادي، من غير أجهزة ولا زي أبيض ولا أحد يعترف بأن المقعد الخلفي قد يتحول فجأة إلى مكان ضيق لا يدخل إليه الهواء.

بعد أن سمح لها الطبيب بالانتقال المنتظم إلى مركز التأهيل، تولى كريم قيادتها في معظم الأيام. كان يقود بهدوء، ويبتعد عن الحافلات، ويتجنب الفرامل المفاجئة. ظنت سالي أنها تجاوزت الخوف لأن الرحلات مرت من غير مشكلة. لكنها اكتشفت أنها لم تكن تنظر إلى الطريق أصلًا. كانت تثبت عينيها في حقيبتها، أو تعد أعمدة الإنارة، أو تتحدث بلا توقف حتى تصل.

في صباح يوم مزدحم، اضطر كريم إلى تغيير المسار بسبب أعمال الحفر. دخل شارعًا أوسع تتحرك فيه السيارات بسرعة. اقتربت حافلة من جانبهم، وضغط سائق خلفهم البوق بعنف. في اللحظة نفسها، عاد صوت الزجاج.

لم يكن تذكرًا عاديًا. لم ترَ صورة في ذهنها؛ صار جسدها داخل الحادث من جديد. تسارع نفسها، وتيبست أصابعها حول حزام الأمان، وشعرت بألم في الفخذ كأن المعدن يتحرك داخله. قالت لكريم أن يتوقف. لم يسمعها من المرة الأولى. صاحت: «وقف العربية!»

انحرف إلى جانب الطريق. حاول أن يسألها، فلم تستطع الإجابة. فتحت الباب وهي ما تزال مربوطة بالحزام. اقترب منها، فدفعت يده. احتاجت دقائق حتى عاد الشارع إلى حجمه الحقيقي، وحتى فهمت أن الحافلة ابتعدت وأن الزجاج لم ينكسر.

قال كريم: «نرجع البيت.»

هزت رأسها. «عندي جلسة.»

ـ مش مهم.

ـ مهمة.

ـ إنتِ مش قادرة تتنفسي.

ـ هتنفس. استنى بس.

جلست على الرصيف، والعكازان إلى جوارها. كان المارة ينظرون ثم يكملون طريقهم. أعطاها كريم زجاجة ماء. بعد عشر دقائق، عادت إلى السيارة وطلبت منه أن يقود ببطء. وصلت إلى المركز متأخرة، ولم تخبر أحدًا بما حدث.

في الجلسة، لاحظ الاختصاصي أن عضلاتها مشدودة وأنها لا تستجيب للتعليمات. سأل إن كان الألم مختلفًا. قالت إنها لم تنم جيدًا. أنهت نصف التمارين وعادت إلى البيت.

ظل الحادث الصغير، الذي لم يقع، معها أيامًا. صارت تستيقظ على صوت الفرامل، وتخاف من النوم لأنها تعرف أين ستجد نفسها. أخفت الأمر عن ليلى كي لا تمنعها من الخروج، وعن فؤاد لأنه سيعتبر خوفها دليلًا على أن العالم خارج البيت لم يعد آمنًا.

أما زين، فلاحظ أنها تطلب منه إغلاق النافذة كلما ارتفع صوت المرور.

سألها: «حصل حاجة في العربية مع كريم؟»

ـ لأ.

ـ سالي.

ـ ما حصلش حادث لو ده سؤالك.

انتظر.

قالت: «خفت. بس خلصت.»

ـ خلصت إزاي؟

ـ العربية وقفت، وبعدها كملنا.

ـ وإنتِ من ساعتها ما بتبصيش للشارع.

ضاقت به لأنها تعرف أنه محق. قالت: «مش عايزة تحليل.»

ـ مش بحللك. بس اللي حصل مش ضعف ولا دلع. ممكن يكون استجابة بعد الصدمة، ومحتاج تتكلمي مع حد متخصص.

ـ أنا مش مجنونة.

ندمت فور خروج الجملة. كان يعرف أنها لا تقصد إهانة المرضى النفسيين، بل تدافع عن الصورة التي تريد الاحتفاظ بها لنفسها: مريضة عظام تتعافى، لا إنسانة هُزت من الداخل.

قال زين: «أنا ما قلتش كده. ولو قلت لك روحي لطبيب قلب، مش معناها إنك فشلتي في تشغيل قلبك.»

ـ سيبني أفكر.

لم يضغط. أعطاها اسم طبيبة تعمل مع مصابي الحوادث، ووضع الورقة داخل الدفتر ثم أغلقه.

مر أسبوع قبل أن تتصل. حجزت الموعد باسمها، ولم تطلب من أحد أن يذهب معها. حين أخبرت فؤاد، قال إنه سيقودها وينتظر بالخارج. رفضت أولًا، ثم وافقت بشرط ألا يسألها عما قالت في الجلسة.

كانت الطبيبة في منتصف الأربعينيات، مكتبها بلا معاطف بيضاء ولا أجهزة. سألت سالي عن الحادث، ثم عن الأشياء التي لا تتذكرها، وعن الطريق والنوم والجسد. شرحت لها أن الذاكرة لا

تعيش في الأفكار وحدها؛ أحيانًا يتعلم الجسد الخطر أسرع من العقل، فيستجيب لصوت أو حركة كأن الحدث يحدث الآن.

قالت سالي: «أنا عارفة إن العربية ما خبطتش. بس وقتها ما كنتش عارفة.»

ـ لأن الجزء اللي مسؤول عن الإنذار اشتغل قبل الجزء اللي يراجع الأدلة. إحنا مش هنقنعك إن الطريق آمن دائمًا؛ هو مش آمن دائمًا. هنساعدك تفرقي بين الخطر الموجود والخطر اللي رجع من الذاكرة.

أعجبتها الصياغة. لم تعدها الطبيبة بأن تحب السيارات أو تنسى. علمتها أن تسمي الأشياء التي تراها، وأن تثبت قدميها أو يديها في الحاضر، وأن تتنفس ببطء لا بوصفه سحرًا بل رسالة للجسد. اتفقتا على خطوات تدريجية: الجلوس في سيارة متوقفة، ثم رحلة قصيرة في شارع هادئ، ثم المرور قرب طرق أكثر ازدحامًا.

قالت الطبيبة: «المهم إنك تختاري السرعة. لا حد يجبرك، ولا إنتِ تجبري نفسك عشان تثبتي إنك قوية.»

عرفت سالي أن النصيحة لا تخص الطريق وحده.

بدأت التدريب مع ليلى. جلستا في سيارة فؤاد المتوقفة أمام العمارة، تشربان الشاي من كوبين صغيرين كأنهما في نزهة سخيفة. ضحكتا من المشهد، ثم بكت سالي حين مر سائق بسرعة وسمعت البوق. لم تقل ليلى «ما تخافيش». قالت: «إحنا هنا. العربية واقفة. الباب مفتوح.»

في المرة التالية، دار فؤاد حول المربع السكني. أعطته سالي تعليمات كثيرة، فاستجاب لها من غير تعليق. عند العودة قال: «أنا كنت فاكر لو سقت ببطء كفاية، أقدر أمنع خوفك.»

ـ ساعدتني. بس مش هتمنعه كله.

ـ صعب عليا أقبل إن فيه حاجة ما أعرفش أصلحها.

ـ ما تصلحنيش. خليك معايا وأنا بتصلح لوحدي.

ابتسم. «إنت وزين حافظين الجملة دي؟»

ـ هو اللي محتاج يحفظها أكتر.

بعد عدة رحلات، طلبت من زين أن يقود. اختارت مساء الجمعة حين تكون الشوارع أقل ازدحامًا. جلس خلف المقود

وسألها عن المسار. قالت: «إنت اختار. بس لو قلت لك قف، تقف.»

قاد نحو الكوربة، ثم شارعًا تحيط به الأشجار. لم يشغل الموسيقى، ولم يحاول ملء الصمت. كانت سالي تنظر أمامها هذه المرة. كلما اقتربت سيارة، شعرت كتفاها بالتصلب، فتسمي في سرها ما تراه: شجرة، صيدلية، رجل يحمل خبزًا، إشارة حمراء. الحاضر يتكون من أشياء صغيرة، كما تكونت طفولتها.

قال زين: «نرجع؟»

ـ لأ. كمل لحد أول الإشارة وبعدين نرجع.

عند الإشارة، توقفت سيارة إلى جوارهم. كان بها طفل يضغط وجهه إلى الزجاج. لوح لسالي، فلوحت له. تغير الضوء، وتحركت السيارات.

في طريق العودة قالت: «أنا مش عايزة أفضل طول عمري محتاجة حد معين يسوق لي.»

ـ هتوصلي لده.

ـ ما تضمنش.

صحح نفسه: «هنشتغل لحد ما يبقى عندك اختيارات أكتر.»

كانت الجملة أفضل.

تزامن علاج الخوف مع استعدادها للامتحانات. وافقت الكلية على أن تؤديها في قاعة بالدور الأرضي، وأن تحصل على وقت إضافي بسبب صعوبة الجلوس الطويل. ترددت في قبول الوقت الإضافي، وشعرت أنه ميزة لم تكسبها. قالت لها الطبيبة إن الإنصاف لا يعني أن يتلقى الجميع الشيء نفسه، بل أن تزال العقبة التي لا علاقة لها بما يُقاس.

في أول امتحان، وصلت مبكرًا. كان بعض الطلاب يراجعون عند الباب، فتوقفوا حين رأوها. جلست مها إلى جوارها ولم تسأل عن ساقها. راجعتا سؤالًا عن أخلاقيات المقابلة الصحفية، ثم دخلتا.

بعد ساعة، بدأ الألم. تناولت المسكن المسموح، وغيرت وضعها، وأكملت. لم تستخدم كل الوقت الإضافي. حين سلمت الورقة، شعرت بتعب يكفي لإسقاطها، لكنها لم تشعر بأنها عادت

إلى ما كانت عليه. شعرت بأنها صنعت طريقة جديدة للوجود في المكان نفسه.

نجحت في المواد كلها، وإن انخفض تقديرها قليلًا. حاول فؤاد أن يقول إن الظروف تفسر النتيجة، فقاطعته: «النتيجة مش محتاجة دفاع. أنا نجحت وخلاص.»

أقاموا عشاءً صغيرًا في بيتهم. أحضرت ليلى طبقها المفضل، وجاء سامر بكعكة كتب فوقها: «ناجحة من غير خطاب تحفيزي». أما زين فأعطاها حافظة جلدية للقلم الفضي.

قالت: «إنت بتغلف قلم قديم؟»

ـ عشان كل مرة يضيع، نخش عملية جديدة ندور عليه.

وضعت القلم داخلها. قالت: «المرة الجاية هسأل عن حاجة أغلى.»

ـ يفضل تقوليها قبل التخدير.

بعد الامتحانات، اقترحت مها أن يكملوا سلسلة «أناس لا نراهم» بحلقة عن الناجين من الحوادث. رفضت سالي في البداية. لم ترد أن يتحول ما حدث إلى بطاقة تعريف مهنية، ولا أن تظهر

أمام الناس لأنها «الفتاة التي عادت». قالت إن الناجي ليس بالضرورة خبيرًا في المعنى، وإن الألم لا يجعل صاحبه حكيمًا تلقائيًا.

ثم فكرت في الأشخاص الذين لا تظهرهم قصص النجاة: من يخافون بعد شفاء الجروح، ومن لا يعودون كما كانوا، ومن يحتاجون مساعدة نفسية ويخفونها بسبب العار. وافقت بشرط ألا تكون الحلقة عنها وحدها، وألا تستخدم موسيقى حزينة فوق صور العكازات.

أجرت مقابلات مع شاب فقد صديقًا في حادث ونجا من غير إصابة جسدية، وامرأة عادت إلى القيادة بعد عامين، ورجل يستخدم كرسيًا متحركًا رفض عبارة «تحدى الإعاقة» لأنها تجعل حياته مسابقة دائمة. سجلت أيضًا حديثًا مع الطبيبة من دون كشف تفاصيل جلساتها.

قال الرجل في المقابلة: «الناس تحب قصة فيها قبل وبعد. قبل كنت مكسور، وبعد بقيت بطل. بس الحقيقة إن فيه أيام ببقى

كويس وأيام ببقى تعبان، وده مش بيخليني أقل بطولة ولا أكتر. بيخليني بني آدم.»

احتفظت سالي بالجملة في منتصف الحلقة، لا في النهاية. لم ترد نهاية تلخص حياة أحد.

حين جاء وقت تسجيل ظهورها، اختارت أن تجلس أمام الكاميرا بالعكازين ظاهرين إلى جوارها. قالت: «أنا سالي فؤاد. تعرضت لحادث، ونجوت. الجملتان صحيحتان، لكنهما لا تقولان كل شيء عني.» ثم بدأت الأسئلة.

عرضت الحلقة في الجامعة، ولاقت اهتمامًا أكبر من سابقتها. طلبت صحيفة طلابية إجراء حوار معها. رفضت عنوانًا اقترحه المحرر: «الإرادة تهزم المستحيل». قالت إن الأطباء والعلاج والدعم والوقت والحظ كلها شاركت، وإن الإرادة وحدها لا تلحم عظمة ولا تفتح بابًا مغلقًا. تغير العنوان إلى: «ما بعد النجاة: الحياة التي لا تظهر في الخبر».

قرأ كمال الحوار في الصباح. طواه ووضعه قرب زين. قال: «سالي شاطرة.»

ـ جدًا.

ـ وواضح إنها مصممة على شغلها.

ـ دي حاجة كويسة.

قال كمال: «أكيد. بس إنت كمان عندك طريق طويل. ما تنساش نفسك وإنت واقف جنبها.»

شعر زين بأن الجملة تبدو نصيحة، لكن تحتها شيء آخر.

قال: «وقوفي جنبها مش ضد نفسي.»

ـ دلوقتي يمكن. بعدين المسؤوليات بتزيد.

ـ لما تزيد نبقى نتعامل معاها.

أخذ كمال الجريدة. «أنا بس مش عايزك تختار بدري وتكتشف إنك قفلت أبواب.»

نظر إليه زين. «إنت شايف سالي باب بيتقفل؟»

ـ ما قلتش كده.

ـ أمال تقصد إيه؟

أجاب كمال بحدة مفاجئة: «أقصد إن حياتك مش لازم تتحدد وإنت لسه طالب.»

انتهى الحوار عند هذا الحد، لكنه ترك أثرًا. لم يكن اعتراضًا صريحًا، ولا سببًا يستطيع زين مواجهته. كان خوفًا يختبئ داخل منطق المستقبل، كما اختبأ خوف فؤاد داخل قوانين الأمان.

في نهاية الصيف، قررت سالي أن تمر قرب موقع الحادث. لم تطلب أن تتوقف عند الحاجز، ولم تبحث عن أثر في الأسفلت. أرادت فقط ألا يظل الطريق مكانًا تتخيله أكبر من حقيقته. ذهب معها فؤاد وليلى وزين. جلس فؤاد خلف المقود، وكانت ليلى إلى جواره، وزين بجانب سالي في الخلف.

حين اقتربوا، عرفت المكان قبل أن يخبرها أحد. تغير شكل الهواء في صدرها. رأت الحاجز المعدني، ومحطة وقود، وشجرة صغيرة لم تكن تتذكرها. قالت لفؤاد أن يبطئ، لا أن يتوقف. مروا.

لم يحدث شيء خارق. لم ينته الخوف، ولم تشعر أنها انتصرت على الطريق. بكت بصمت، وأمسكت حافة المقعد. سألها زين بعينيه إن كانت تريد يده. مدت يدها، فأمسكها.

بعد مئات الأمتار قالت: «نرجع من نفس الطريق.»

قال فؤاد: «مش لازم النهارده.»

ـ عارفة. أنا عايزة.

دار بالسيارة وعاد. في المرة الثانية، رأت محلًا صغيرًا وامرأة تنتظر الحافلة. صار المكان أقل شبهًا بمسرح الكارثة وأكثر شبهًا بشارع يعبره الناس كل يوم.

عند البيت، لم يحتفلوا. صعدت سالي إلى غرفتها، وكتبت في الدفتر الأسود:

«الطريق لم يعتذر. وأنا لم أسامحه. مررت به فقط، وسمحت له أن يكون شارعًا إلى جانب كونه ذاكرة.»

في صباح اليوم التالي، خرجت إلى الشرفة بعكاز واحد. كان زين فوقها يستعد للذهاب إلى المستشفى. نادته، فظهر عند السور.

قالت: «عديت من الطريق مرتين.»

ـ عارف. عمو فؤاد كلمني.

ـ وما قلتش لي مبروك؟

ـ كنت مستني أعرف إنتِ عايزة تسميها إيه.

فكرت. «مش انتصار. خطوة.»

قال: «مبروك الخطوة.»

نزل إلى الشارع. وقفت تراقبه حتى عبر، ثم عادت إلى مكتبها. أمامها محاضرات العام الجديد، ومواعيد العلاج، ومسودة حلقة أخرى. لم تكن الحياة تنتظر أن تتعافى بالكامل كي تبدأ. كانت تبدأ كل صباح، ناقصة ومزدحمة، وتطلب منها أن تدخلها بالجسد الذي لديها، لا بالجسد الذي تتمنى استعادته.

مع بداية العام الدراسي، عرض فؤاد أن يغيّر مواعيد عمله يومين كل أسبوع ليقودها إلى الكلية. شكرته سالي، ثم قالت إنها رتبت مع مها وسيارة أجرة يعرفها أهل إحدى الزميلات. لم يعجبه الحل. طلب رقم السائق ورقم السيارة وعنوانه، ثم سأل من سيرافقها في العودة. أجابته بكل التفاصيل التي تعرفها، وحين انتهت قال: «أنا مش مرتاح.»

قالت: «مش لازم ترتاح عشان تسمح لي أعيش.»

تدخلت ليلى: «بس لازم تعرفي إن عدم راحته مش معناه إنه ضدك.»

نظرت سالي إلى أبيها. «أنا هاتصل لما أوصل، ولما أتحرك. لو حصل تغيير هقول. أكتر من كده هنبقى بنمثل إننا نقدر نضمن الطريق.»

جلس فؤاد طويلًا، ثم أعطاها نقودًا إضافية للطوارئ. كان ذلك شكل موافقته؛ لم يقل «روحي»، بل ساعدها على الاستعداد للذهاب.

في الصباح الأول، نزلت الدرج بعكازين. وقف فؤاد خلفها، وليلى أمامها، لكنهما لم يحملاها. عند كل بسطة كانت تستريح، وعند الطابق الأول فتحت السيدة وداد بابها. قالت: «ما شاء الله، رجعتي تمشي.»

ابتسمت سالي. «بمشي. لسه ما رجعتش لحاجة.»

وصلت إلى المدخل متعبة قبل أن يبدأ اليوم. انتظرت السيارة، ورأت أباها واقفًا خلف الزجاج. لوحت له. رفع يده، ولم ينزل معها.

في الكلية، كان الباب الخلفي مفتوحًا كما وعدت الإدارة. المنحدر الخشبي ما يزال حادًا، لكن عامل الأمن ثبت حافته

وأضاف شريطًا خشنًا كي لا تنزلق. قالت له سالي: «إنت اللي عملت كده؟»

قال: «الخشبة كانت بتتحرك. قلت بدل ما نستنى خطاب تاني.»

سجلت اسمه في دفترها. لم تعرف بعد لماذا، لكنها تعلّمت أن التغييرات الصغيرة لها أصحاب غالبًا لا تظهر أسماؤهم في القرارات الرسمية.

دخلت المحاضرة بعد بدايتها بدقائق. توقفت الأستاذة، ثم أشارت إلى مقعد قريب من الباب. جلست سالي، وفتحت دفترها، وبدأت تكتب. لم يصفق أحد، وهذا أسعدها. لم تكن تريد استقبال بطلة عائدة؛ أرادت فقط أن تفوتها جملة من المحاضرة لأنها تأخرت في إخراج القلم مثل أي طالبة أخرى.

في الاستراحة، مشَت مع مها إلى الاستوديو. احتاجت إلى التوقف مرتين. قالت مها: «نجيب الكرسي المرة الجاية.»

كانت سالي على وشك الرفض، ثم تذكرت وعدها ألا تخفي التعب لإثبات شيء. قالت: «آه. للمسافات الطويلة.»

لم يكن قبول الكرسي تراجعًا. كان استخدامًا لأداة تمنحها وقتًا وطاقة لما تريد فعله. احتاجت شهورًا لتفصل بين الاستقلال وفكرة أداء كل شيء بالطريقة الأصعب.

حين عادت مساءً، كان فؤاد في المدخل قبل وصول السيارة. حاول أن يبدو كأنه نزل بالمصادفة لشراء جريدة. لم تسأله. دفع الحساب، وحمل حقيبتها بعد أن طلب، ثم صعد خلفها.

قال عند الطابق الأول: «اليوم كان عامل إيه؟»

ـ طويل.

ـ حصل حاجة؟

ـ حاجات كتير. ولا واحدة كارثة.

ابتسم. «كويس.»

عند باب الشقة قالت: «المرة الجاية ما تنزلش تستناني.»

فتح فمه ليعترض.

أضافت: «استناني في الشرفة لو لازم.»

فكر، ثم قال: «نتفاوض.»

في الطابق الثالث، عاد زين من المستشفى بعد ساعة. وجد كمال يتناول العشاء وحده. كانت ريم عند صديقة، وكريم في عمله. جلس أمامه، فسأله كمال عن يومه، ثم عن سالي. قال زين إنها ذهبت إلى الكلية وحدها تقريبًا.

قال كمال: «فؤاد سمح؟»

ـ هي رتبت، وهو وافق.

ـ وإنت ما رحتش معاها؟

ـ كان عندي مستشفى. وهي ما طلبتش.

ظل كمال يحرك الملعقة في الطبق. قال: «بقيتوا مش محتاجين حد.»

نظر إليه زين. «مين إحنا؟»

ـ إنتوا كلكم. كريم طول اليوم بره، وريم عندها حياتها، وإنت بين المستشفى وسالي.

كانت هذه أقرب مرة يقول فيها كمال إنه وحيد. أراد زين أن يطمئنه بسرعة، لكنه تذكر أن الطمأنة السريعة قد تخفي السؤال بدل أن تجيبه.

قال: «إنت مفتقد ماما.»

توقفت الملعقة.

ـ كلنا مفتقدينها.

ـ بس إنت بتقعد هنا لوحدك أكتر مننا.

قال كمال بحدة: «أنا كويس.»

لم يجادله زين. أكل معه، ثم ساعده في رفع الأطباق. قبل أن يدخل غرفته قال: «ممكن نتعشى سوا يومين ثابتين في الأسبوع. من غير ما يبقى حد فينا مريض عشان نتجمع.»

أجاب كمال: «شوف جدولك.»

ـ هشوفه.

الفصل السابع والثلاثون

آخر عام قبل الحياة

بدأ العام الأخير لسالي بقائمة طويلة من الأشياء التي لا تتفق فيما بينها. مشروع تخرج يحتاج إلى أيام في الشارع، وعلاج طبيعي مرتين في الأسبوع، ومحاضرات صباحية في مبنى لا يزال بابه الخلفي أسهل من بابه الرئيسي، وأب يتعلم بصعوبة أن السؤال عن موعد العودة ليس تصريحًا بالعودة إلى مراقبتها من النافذة.

جلست في أول اجتماع لفريق مشروع التخرج وهي تضع عكازًا إلى جوار المقعد. اقترحت مها برنامجًا وثائقيًا عن المهن التي تختفي خلف الصورة، امتدادًا لحلقة «أناس لا نراهم». أراد زميل آخر أن يصنعوا فيلمًا عن «قصة عودة سالي» لأن الجمهور يحب الحكايات الشخصية. ظل يشرح الفكرة كأن صاحبتها غير موجودة.

قال: «نبدأ بالحادث، وبعدين صور المستشفى، وبعدين أول خطوة. عندنا مادة إنسانية قوية جدًا.»

سألته سالي: «ومين الشخصية الرئيسية؟»

ابتسم، ظنًا أن السؤال موافقة. «إنتِ طبعًا.»

ـ أنا مش موافقة.

ـ ليه؟ القصة ملهمة.

ـ بالنسبة لمين؟

تردد. «للناس.»

ـ أنا مش مطالبة أشرح جسمي للناس عشان مشروع التخرج ينجح.

قال المشرف إن عليهم ألا يخلطوا الخلاف الشخصي بالاختيار المهني. أجابت سالي أن رفضها مهني أيضًا؛ فالفيلم المقترح يعرف نهايته قبل أن يبدأ، ويبحث فقط عمن يثبتها. يريد بطلة تنتصر، وصورًا تخدم الجملة، ولا يريد أن يسأل ماذا يحدث حين لا يعود الناجي كما كان.

اقترحت بدلًا منه فيلمًا عن الوصول: كيف يدخل الناس إلى أماكن صُممت وكأن أجسادهم متشابهة. لم يكن الموضوع عن الإعاقة وحدها، بل عن أم تحمل عربة طفل، ورجل مسن أمام

سلم طويل، وعامل ينقل صندوقًا عبر باب ضيق، وطالبة على عكازين تنتظر مفتاح باب الخدمة.

قالت مها: «نصور المكان كأنه شخصية.»

أضافت سالي: «ونخلي الناس يتكلموا عن يومهم، مش عن بطولة مزعومة.»

انقسم الفريق. بعضهم رأى الفكرة ثقيلة، وآخرون خافوا أن تتحول إلى محاضرة. بقيت سالي هادئة. لم تقل إن الفكرة نابعة من تجربتها إلا حين سألها المشرف. قالت إن التجربة منحتها سؤالًا، لا إجابة جاهزة.

خرجت من الاجتماع بعد ساعتين وقد تورمت ركبتها. كانت تعرف أن عليها الذهاب إلى جلسة العلاج، لكنها جلست على مقعد في الرواق وأغمضت عينيها. جاء زين قبل موعده بنصف ساعة. كان في طريقه إلى المستشفى، ويحمل كتابًا سميكًا تحت ذراعه.

قال: «وشك بيقول إن الاجتماع كان لطيفًا جدًا.»

ـ اقترحوا يعملوا مشروع عني.

ـ وإنتِ رفضتِ.

فتحت عينيها. «عرفت منين؟»

ـ عشان لو وافقتِ كنتِ هتقولي إنهم هيعملوا مشروع معاكِ، مش عنكِ.

حكت له الفكرة الجديدة. لم يقاطعها، ولم يبدأ في تعداد مخاطر التصوير الخارجي. حين انتهت، سأل: «هتحتاجوا تنزلوا أماكن كتير؟»

ـ أيوه.

ـ تحبي أقول رأيي الطبي ولا رأيي كزين؟

ـ رأيك كزين الأول.

ـ الفكرة ممتازة. ورأيي الطبي إنك ترتبي الأيام بدل ما تثبتي إنك تقدري تعملي كل حاجة في يوم واحد.

قالت: «اتعلمت.»

نظر إلى الركبة المتورمة. «مش باين.»

ضحكت. «اتعلمت نظري.»

جلس إلى جوارها حتى جاء موعد السيارة. لم يحمل حقيبتها إلا بعد أن سأل. وحين نهضت ببطء، ثبت المقعد بقدمه من غير أن يمد يده إلى جسدها. صارت هذه التفاصيل الصغيرة لغتهما الجديدة؛ أفعال لا يلاحظها أحد، لكنها تقول إنهما يحاولان الوفاء بما اتفقا عليه فوق السطح.

في البيت، كان فؤاد قد اشترى دفترًا كبيرًا وكتب فوق الصفحة الأولى «خطة مشروع التخرج». رسم جدولًا للأماكن والمواعيد وأرقام السائقين. نظرت سالي إلى الدفتر ثم إليه.

قال بسرعة: «مش هاتدخل. ده بس تنظيم.»

ـ تنظيم مين؟

ـ تنظيمك. أقصد لو عايزة.

أخذت القلم، وشطبت العنوان، وكتبت: «خطة الإنتاج». ثم دفعت الدفتر نحوه. «ممكن تساعدني في الاتصالات وتصاريح الأماكن. من غير ما تختار مين ييجي معايا.»

قال فؤاد: «اتفقنا.»

كان الاتفاق أكثر صعوبة مما بدا. في أول يوم تصوير، اتصل بها أربع مرات. في المرة الخامسة لم تجب. عاد إلى البيت غاضبًا، فوجدها في المطبخ تراجع التسجيلات مع مها.

قال: «أنا اتصلت.»

ـ كنت بسجل.

ـ كان ممكن تبعتي رسالة.

ـ كان ممكن تستنى لحد ما أخلص.

تدخلت ليلى: «هي رجعت في الموعد يا فؤاد.»

أجاب: «أنا مش بتكلم عن الموعد.»

قالت سالي: «إنت بتتكلم عن إنك ما عرفتش أنا فين لمدة ساعة. وده هيحصل كتير.»

وقف صامتًا. لم تعتذر، ولم يهددها بإلغاء التصوير. أخذ نفسًا طويلًا وقال: «المرة الجاية ابعتي قبل ما تدخلي مكان الشبكة فيه ضعيفة.»

ـ لو عرفت.

ـ ولو ما عرفتيش، أحاول ما أفترضش أسوأ حاجة.

كانت هذه مساومة حقيقية؛ لا انتصارًا كاملًا لها ولا استسلامًا منه.

في الطابق الثالث، كان كمال يتابع ابنَه وهو يخرج قبل الفجر ويعود بعد العشاء. دخل زين السنوات الإكلينيكية التي جعلت يومه يتبع المرضى لا الساعة. صار يتحدث عن الحالات من دون أسماء، ويعود أحيانًا برائحة المطهر عالقة في ملابسه. كان كمال يسأله إن كان قد أكل، ثم يسأله عن سالي كأنه يسأل عن خبر بعيد.

ذات مساء، قال: «هي آخر سنة، صح؟»

ـ أيوه.

ـ وبعدها؟

ـ تشتغل، غالبًا في الإعداد أو التقارير. عندها أكتر من فرصة تدريب.

ـ كويس.

انتظر زين بقية الجملة. لم تأتِ.

قال: «إحنا اتكلمنا يا بابا.»

رفع كمال عينيه عن الجريدة. «في إيه؟»

ـ أنا وسالي.

ـ وإيه اللي حصل يعني؟

ـ مفيش حاجة حصلت. بس مش عايز أفضل عامل كأن الموضوع مش موجود.

طوى كمال الجريدة ببطء. «إنت لسه طالب. وهي لسه طالبة. لما يبقى فيه موضوع حقيقي نتكلم.»

ـ هو حقيقي حتى لو إحنا طلبة.

ـ المشاعر حقيقية. ده ما يخليش القرار جاهز.

لم يكن الكلام رفضًا. كان تأجيلًا يلبس ثياب الحكمة. قبل أشهر، كان زين سيجادل. هذه المرة قال: «ماشي. بس ما ينفعش كل مرحلة تخلص تقول لي استنى المرحلة اللي بعدها.»

نظر كمال إليه طويلًا. «خلص دراستك الأول.»

خرج زين من الغرفة وهو يحمل الجملة معه. لم يخبر سالي في تلك الليلة؛ كان لديها تصوير صباحي، ولم يرد أن يضع فوق

يومها سؤالًا لا إجابة له. لكنه حين رآها في نهاية الأسبوع، عرف من نظرتها أنها لاحظت شيئًا.

قالت: «كلمته؟»

ـ لمحت.

ـ ورد؟

ـ قال نخلص دراسة.

جلست سالي عند سور السطح، وقد صار المشي إليه ممكنًا بعكاز واحد في الأيام الجيدة. قالت: «ده منطقي.»

ـ منطقي لو مش بيتحرك كل ما نقرب منه.

ـ يمكن هو فعلًا محتاج وقت.

ـ وإحنا؟

نظرت إلى العمارة المقابلة. «إحنا كمان محتاجين نعرف شكل حياتنا قبل ما نطلب من الناس يوافقوا عليها.»

لم تعجبه الجملة أولًا. شعر أنها تساند كمال. ثم فهم أنها لا تريد أن تجعل الزواج مكافأة على طول الانتظار، ولا طريقًا

للهروب من البيتين. أرادت أن تختاره وهي تعرف ماذا ستأخذ معها وماذا ستترك.

قال: «بس ما نفضلش نجهز لحد ما العمر يعدي.»

ابتسمت. «إحنا عندنا اتنين وعشرين سنة يا زين.»

ـ حاسس إني مستني من 1983.

ـ من يوم الكرة؟

ـ من يوم قلتي لي الأحمر مش لون بنات.

ضحكت، ثم انخفضت ضحكتها حين وخز الألم ساقها. انتظر حتى استقرت، ولم يسأل إن كانت تريد النزول. بعد قليل قالت: «آخر سنة دي حاسة إنها آخر حاجة مفهومة. بعدها كل حد هيسأل: هتشتغلي فين؟ هتتجوزي إمتى؟ هتعملي إيه برجلك؟ كأن الحياة امتحان شفوي والناس كلها لجنة.»

قال: «جاوبي اللي تحبيه وسيبي الباقي.»

ـ هحاول.

في نهاية الشهر، وافق القسم على مشروع «باب للدخول». حصل الفريق على تصريح للتصوير في محطة قطار، ومبنى

حكومي، ومسرح قديم، وكلية حديثة صُممت بمنحدرات ومصاعد. كتبت سالي في الدفتر: «لن نسأل الناس كيف تغلبوا على المكان. سنسأل لماذا كان عليهم أن يتغلبوا عليه أصلًا.»

حين قرأ زين الجملة، قال: «دي تنفع عنوان.»

أجابت: «العنوان أقصر.»

ـ إيه؟

ـ «الدخول».

بدأ التصوير، وامتلأت الأيام بالمواعيد. لم تعد سالي تعد الخطوات التي استعادتْها، بل الساعات التي استطاعت أن تعمل فيها من غير أن تنسى جسدها أو تعاقبه. وفي كل مرة عادت فيها إلى البيت، كانت ترى على مكتب أبيها دفتر «خطة الإنتاج» مفتوحًا عند صفحة جديدة، بخط فؤاد المنظم، وبجانبه مساحة تركها لها كي تغير ما كتب.

الفصل الثامن والثلاثون

امرأة أمام الكاميرا

اختارت سالي أن تبدأ فيلم التخرج بصورة باب مغلق.

لا موسيقى، ولا تعليق. فقط يد رجل مسن تدفع الباب الزجاجي لمبنى البريد، ثم تتراجع حين يرتد الباب بثقله. تظهر يد أخرى من الداخل وتفتحه. يدخل الرجل، وتبقى الكاميرا لحظة على الباب قبل أن تنتقل إلى عربة طفل تصعد رصيفًا مكسورًا، ثم عامل يحمل أسطوانة غاز عبر ممر ضيق، ثم سالي نفسها عند باب الخدمة في الكلية، تنتظر المفتاح.

اختلف الفريق حول ظهورها. قالت مها إن وجودها يمنح الفيلم صدقًا، وقال زميل آخر إنه قد يجعل المشاهد يظن أن الموضوع عنها. حسمت سالي الأمر بأن تظهر مثل بقية الشخصيات، بلا تقديم خاص ولا ذكر للحادث. لقطة واحدة تنتظر فيها، ثم تتحرك حين يُفتح الباب.

في غرفة المونتاج، قضوا ليالي طويلة. كانت الشاشة الصغيرة تضيء وجوههم، وأكواب الشاي تتراكم فوق الطاولة. بعد ساعتين

من الجلوس يبدأ الألم في ظهر سالي، فتقف، أو تمشي في الممر، أو تمد ساقها على كرسي آخر. لم تعد تخفي هذه الحركات. صار الفريق يتوقف من تلقاء نفسه من غير أن يحول التوقف إلى مناسبة للشفقة.

في إحدى الليالي، أصر المشرف على إضافة تعليق ختامي يشرح الرسالة. قرأ نصًا كتبه: «إن المجتمع المتحضر هو الذي يفتح أبوابه للجميع، ويمنح أصحاب الإرادة فرصة لتحدي الصعاب.»

وضعت سالي القلم فوق الطاولة. «أصحاب الإرادة دي هنشيلها.»

قال: «ليه؟ جملة إيجابية.»

ـ لأنها بتقول إن المشكلة في إرادة الشخص. لو ما دخلش يبقى ما تحداش كفاية.

ـ ما نفهمهاش بالحرف.

ـ المشاهد هيفهمها زي ما اتكتبت.

اقترحت أن ينتهي الفيلم بصوت العامل الذي أصلح المنحدر الخشبي في الكلية. كان يقول في المقابلة: «الخشبة كانت بتتحرك.

ما استنيتش حد يكتب قرار. جبت مسمارين وثبتّها.» ثم صورة المنحدر فارغًا، والطلاب يدخلون من الباب.

قال المشرف إن النهاية صغيرة أكثر من اللازم. أجابت أن الحياة تتغير أحيانًا بمسمارين، وأن المشكلة في انتظار خطاب كبير كي نفعل الشيء الواضح.

بقيت النهاية كما أرادت.

قبل العرض بأسبوع، طلبت منها القناة التعليمية التابعة للجامعة أن تسجل تقديمًا قصيرًا للفيلم. دخلت الاستوديو ووجدت أمام الكاميرا منصة مرتفعة وكرسيًا ثابتًا لا يمكن تحريكه. قال الفني إن التصوير خمس دقائق فقط. نظرت إلى الدرجتين المؤديتين إلى المنصة.

سألته: «مفيش مكان تاني؟»

ـ ده الديكور المعتمد.

ـ والكرسي؟

ـ ثابت في الأرض.

كان بإمكانها صعود الدرج بمساعدة اثنين، والجلوس، وإنهاء الأمر. فعلت ما هو أصعب: طلبت تغيير مكان التصوير. اتصل الفني بالمنتج، وجاء المنتج منزعجًا. قال إن الجدول مزدحم وإنها كانت تعرف أنها ستصور.

قالت: «كنت عارفة إني هصور. ما كنتش عارفة إن الوصول للكاميرا جزء من الاختبار.»

نظر إلى عكازها ثم إلى الساعة. «نساعدك تطلعي وخلاص.»

ـ أنا أقدر أطلع. السؤال ليه لازم حد يشيلني كل مرة عشان الديكور ما يتغيرش؟

اقترحت أن توضع الكاميرا في الممر أمام خلفية بسيطة. احتاج الأمر إلى عشرين دقيقة. ظل المنتج يتنهد، لكن الفني نقل الإضاءة، وجاء عامل يحمل كرسيًا عاديًا. حين جلست، قالت سالي للفني: «اسمك إيه؟»

ـ حاتم.

ـ شكرًا يا حاتم.

قال وهو يثبت الميكروفون: «هو أصلًا الشكل ده أحسن.»

سجلت التقديم في محاولة واحدة. لم تتحدث عن نفسها. قالت إن الفيلم يسأل سؤالًا بسيطًا: من الذي نتصوره حين نبني مكانًا، ومن الذي ننساه؟

وصل خبر الخلاف إلى رئيس القسم، فاستدعاها. دخلت مكتبه مستعدة للدفاع، لكنه قال إن القناة قررت مراجعة الاستوديوهات بعد شكواها. لم يبدُ سعيدًا تمامًا؛ قال إن طريقتها كانت حادة وإنها كان يمكن أن تحل الأمر بهدوء.

سألته: «إزاي؟»

ـ تتكلمي معايا الأول.

ـ وأنا كنت قدام الكاميرا في موعد التصوير. لو استنيت حضرتك، كنا هنصور بالطريقة القديمة ونراجعها بعدين.

قال إن المؤسسات لا تتغير في لحظة. أجابت: «بس الناس بتتعب في لحظة.»

خرجت من المكتب وهي لا تعرف هل خسرت رضاه. في المساء، حكت لليلى. توقعت أن تقلق أمها من تأثير الخلاف على

التقدير، لكنها قالت: «أنا فخورة إنك ما طلعتيش السلم عشان تريحيهم.»

قال فؤاد: «بس كان ممكن يتعنتوا.»

نظرت إليه ليلى. «وكان ممكن يسكتوا، وتفضل كل بنت بعدها تتشال.»

مسح فؤاد شاربه. «أنا ما قلتش إنها غلط.»

قالت سالي: «إنت بس بتحب الصح لما يكون آمن.»

لم يغضب. قال: «يمكن.»

في يوم العرض، امتلأت القاعة بالطلاب وأسرهم. جلس فؤاد وليلى في الصف الثاني، وإلى جوارهما كمال وريم. جاء كريم متأخرًا، ووقف سامر عند الممر لأنه لم يجد مقعدًا. أما زين فوصل بملابس المستشفى قبل بدء الفيلم بدقائق، وجلس في آخر القاعة كي لا يلفت الانتباه.

حين ظهر الباب المغلق، ساد الصمت. لم يكن الفيلم مثاليًا؛ بعض اللقطات اهتزت، وصوت محطة القطار غطى سؤالًا، وانتقالان بديا أطول مما ينبغي. لكنه كان حيًا. الأشخاص فيه لم

يكونوا أمثلة، بل وجوهًا لها أعمال ومواعيد وضيق ونكات صغيرة.

عند لقطة سالي أمام باب الخدمة، مال كمال نحو فؤاد وهمس: «دي كانت بتستنى كل يوم كده؟»

قال فؤاد: «في الأول. بعدين فتحوه لها.»

ـ وليه الباب الرئيسي ما اتعدلش؟

هز فؤاد كتفيه. لم يكن قد سأل نفسه السؤال بهذه البساطة.

انتهى الفيلم بصوت العامل والمسمارين. لم تظهر جملة تلخص المعنى. بقيت الشاشة على المنحدر بينما عبره طالب يحمل صندوقًا، ثم طالبة تدفع عربة معدات، ثم انطفأت.

بدأ التصفيق مترددًا، ثم اتسع. وقفت سالي مع فريقها. حين حاول زميلها أن يرفع يدها كما يفعل الفائزون، سحبتها وضحكت. لم يكن انتصارًا فرديًا.

بعد العرض، اقتربت منها امرأة تعمل في محطة إذاعية خاصة. عرّفت نفسها باسم داليا منصور، وقالت إنها تجهز برنامجًا

أسبوعيًا عن المدينة والناس، وإنها أعجبت بطريقة سالي في إدارة المقابلات أكثر من موضوع الفيلم نفسه.

قالت: «إنتِ بتسيبي الشخص يتكلم من غير ما تسرقي كلامه.»

ابتسمت سالي. «دي أول مرة حد يمدحني إني بسكت.»

أعطتها داليا بطاقة صغيرة. «عندنا تدريب صيفي. مش وعد بشغل، بس تعالي اعملي اختبار.»

أخذت سالي البطاقة. لم تسأل إن كان المكان يحتوي على مصعد. سألت أولًا عن طبيعة العمل والمواعيد. ثم، بعد أن فهمت التفاصيل، سألت عن الوصول.

قالت داليا: «الاستوديو في الدور الرابع، وفيه أسانسير. بس المدخل عنده درجتين. نشوف حل قبل ما تيجي.»

كانت الإجابة مختلفة. لم تقل لها تعالي وسنحملك، ولم تتظاهر أن المشكلة غير موجودة. قالت «نشوف حل» قبل الموعد.

في الخارج، تجمع أفراد الأسرتين حول سالي. كان فؤاد يحمل شهادة التقدير كأنها تخصه. قالت ليلى إن الفيلم جعلها ترى أبوابًا لم تلاحظها من قبل. أما كمال فقال: «إنتِ كنتِ عنيدة من وإنتِ صغيرة.»

أجابته: «دي مجاملة؟»

ـ النهارده آه.

تأخر زين حتى ابتعد الآخرون. وقف أمامها، وملابسه البيضاء مجعدة، وعيناه متعبتان.

قال: «أنا شوفت آخر عشرين دقيقة بس.»

ـ يبقى فوتّ أهم باب.

ـ هشوفه تاني. بس شوفتك وإنتِ واقفة بعد العرض.

ـ كنت قاعدة نص الوقت.

ـ مش قصدي رجلك.

فهمت. لم يقل إنها عادت، ولا إنها انتصرت. كان ينظر إليها كما هي في تلك اللحظة: امرأة صنعت شيئًا، واختلفت من أجله، ووقفت لتحمل نتيجته.

أخرجت بطاقة داليا من حقيبتها. «عندي اختبار تدريب.»

قرأها وقال: «مبروك.»

ـ لسه ما اتقبلتش.

ـ مبروك إن حد شاف شغلك.

في طريق العودة، جلست سالي قرب نافذة السيارة. مروا بمبنى القناة التعليمية، فرأت المنصة خلف الزجاج. فكرت في الكرسي المثبت في الأرض، وفي الفني الذي نقل الإضاءة، وفي عشرين دقيقة بدت للمنتج أزمة ثم صارت لقطة أفضل.

في غرفتها، وضعت بطاقة التدريب داخل حافظة القلم الفضي. فتحت الدفتر الأسود، وكتبت موعد الاختبار، ثم تركت الصفحة مفتوحة حتى الصباح.

الفصل التاسع والثلاثون

السنوات التي لا تتشابه

تخرجت سالي في صباح حار، مرتدية روبًا أسود واسعًا أخفى العكاز حين وقفت لالتقاط الصورة ولم يخفه حين مشت. أراد المصور أن يضعها في الصف الأمامي «عشان ما تتعبيش». قالت إنها ستقف مع فريقها حيث يقفون. انتهى الأمر بأن جلس نصف الفريق على درجات المسرح ووقف النصف الآخر خلفهم، فبدت الصورة أقل ترتيبًا وأكثر شبهًا بهم.

بعد الحفل، عادوا إلى العمارة، حيث علقت ليلى شرائط ملونة في الصالة، وأعدت السيدة وداد طبقًا من الكعك رغم أنها ما زالت تشتكي من أصوات الشباب. جاء أقارب لا تعرف سالي كيف يرتبط بعضهم بالعائلة، وكرروا الأسئلة نفسها: «هتشتغلي فين؟» «هتعملي ماجستير؟» «والجواز بقى إمتى؟»

كانت تجيب عن السؤال الأول، تبتسم للثاني، وتتجاهل الثالث. حين قالت عمة بعيدة إن الشغل مرهق «خصوصًا بعد

اللي حصل»، وضعت ليلى طبق العصير أمامها وقالت: «هي تعرف جسمها وشغلها أكتر مننا.»

سمعت سالي الجملة من المطبخ. لم تخرج لتشكر أمها. احتفظت بها في داخلها، كما يحتفظ المرء بمفتاح يعرف أنه سيحتاجه لاحقًا.

قُبلت في التدريب الإذاعي. في اليوم الأول، وصلت قبل الموعد بنصف ساعة. كان المدخل قد حصل على منحدر معدني صغير، غير ثابت، يهتز قليلًا حين تصعده. وقفت داليا عند الباب وقالت: «طلبنا واحد دائم، بس الإجراءات بتاخد وقت.»

قالت سالي: «المؤقت ده أحسن من إننا نستنى الدائم وأنا تحت.»

بدأت كمساعدة إعداد. تجمع أخبار المدينة، وتتصل بالضيوف، وتكتب أسئلة لمذيع مشهور يحب أن يضيف صوته إلى كل إجابة. لم تظهر على الهواء. كانت تقضي ساعات في غرفة صغيرة بها هاتفان وجهاز تسجيل ومروحة تصدر صوتًا أعلى من اللازم.

في الأسبوع الأول، أعاد إليها رئيس التحرير مسودة حلقة وقد شطب نصف الأسئلة. كتب عند الهامش: «طويلة»، «نظرية»، «الضيف لن يفهم». شعرت بالإهانة، ثم قرأت الأسئلة بصوت مرتفع، فاكتشفت أن بعضها مكتوب كي يثبت أنها ذكية لا كي يفتح حديثًا.

أعادت الكتابة. في الحلقة التالية، قال لها رئيس التحرير: «أحسن. السؤال اللي ما يتفهمش من أول مرة غالبًا مش عميق، غالبًا متعقد.»

كرهت نبرته، واحتفظت بالنصيحة.

كانت تعود إلى البيت في السابعة، أحيانًا بعد أن يغادر زين إلى نوبة ليلية. صار لقاؤهما يحتاج إلى ترتيب. انتهى زمن النزول العفوي إلى الطابق الثاني، أو النداء من الشرفة في أي ساعة. كانت الأيام تُقسم بين جدولها وجدوله، وبين ألم يظهر من غير موعد وحالة طارئة تمدد نوبته.

في البداية، حاولا أن يعوضا ذلك بمكالمات طويلة بعد منتصف الليل. كانت سالي تستيقظ متعبة، ويخطئ زين في المحاضرة لأنه

نام ساعتين. اتفقا على أن يتوقفا عن اعتبار الإرهاق دليلًا على الحب.

صار لهما موعد ثابت عصر الجمعة، إلا إذا كان زين في المستشفى أو سالي في تسجيل. يجلسان في حديقة صغيرة قرب الكوربة، أو فوق السطح إذا لم يحتمل جسدها الخروج. أحيانًا لا يجدان ما يقولانه. كان الصمت جديدًا؛ ليس صمت الطفولة المريح ولا صمت الخصام، بل صمت شخصين يعيشان أيامًا لا يعرف الآخر تفاصيلها كلها.

قالت سالي مرة: «أنا خايفة نبقى بنحكي لبعض ملخصات حياتنا.»

ـ وإيه الحل؟

ـ ما نكتفيش بالأحداث. قولي مثلًا إيه أكتر حاجة ضايقتك النهارده.

فكر. «دكتور اتكلم عن مريضة قدامها كأنها مش موجودة.»

ـ وإنت عملت إيه؟

ـ ما عملتش حاجة وقتها. بعدين رجعت شرحت لها الكلام.

ـ ليه ما قلتش له؟

ـ هو استشاري وأنا طالب.

نظرت إليه. «نفس إجابة الناس في أي مؤسسة.»

قال: «إنتِ بقيتِ مزعجة مهنيًا.»

ـ دي مجاملة؟

ـ النهارده آه.

حكى لها في الأسبوع التالي أنه سأل الاستشاري بهدوء إن كان من الأفضل إشراك المريضة في الشرح. لم يتغير الرجل فجأة، لكنه توقف لحظة ثم وجه جملة واحدة إليها بدل ابنها. لم تكن ثورة. كان مسمارين في منحدر صغير، كما قالت سالي.

أما زين، فكان في سنوات الطب التي لا تشبه ما قبلها. كلما تعلم أكثر، رأى مساحة ما لا يعرفه. دخل قسم القلب للمرة الأولى طالبًا مترددًا، ووقف قرب سرير رجل في الخمسين يشتكي ألمًا ممتدًا إلى ذراعه. قرأ التخطيط مع الطبيب، ورأى الخطوط تتحول من رسم مجرد إلى قرار سريع. خلال دقائق امتلأت الغرفة بالحركة.

لم ينقذ زين الرجل. لم يكن صاحب القرار ولا اليد التي أجرت التدخل. حمل ملفًا، وأحضر نتيجة تحليل، ووقف بعيدًا. لكن الدقائق نفسها ظلت معه. القلب الذي قضى سنوات يراه رمزًا للحب والحزن ظهر أمامه عضلة لها شرايين وضغط ووقت ضيق.

بعد انتهاء الحالة، جلس في الممر. سأله طبيب مقيم اسمه محمود صبري: «أول جلطة تشوفها؟»

أومأ.

قال الطبيب: «ما تتعودش على شكلها لدرجة تنسى صاحبها. وما تخافش منها لدرجة تعطل إيدك.»

كان محمود أكبر منه بسبع سنوات فقط، لكنه بدا كأنه يعرف المكان منذ ولادته. لم يرفع صوته، ولم يسخر من أسئلة الطلاب، وكان يكتب اسم المريض فوق الورقة قبل التشخيص. تعلق زين بطريقته أكثر من تخصصه في البداية.

صار يعود إلى قسم القلب كلما استطاع. قرأ عن الدورة الدموية، وأمراض الصمامات، والجراحات التي تفتح الصدر كي تصلح ما لا يراه أحد. لم يقرر فورًا أن يصبح جراح قلب. قاوم

الفكرة لأنها بدت مرتبطة بموت نادية أكثر من اللازم. أراد أن يختار بعقله، لا أن يقضي عمره يحاول إجراء عملية متأخرة لأمه.

قال لمحمود ذات ليلة: «إزاي أعرف إني عايز التخصص نفسه، مش بحاول أصلح حاجة قديمة؟»

كانا يقفان أمام آلة قهوة لا تعمل جيدًا. ضرب محمود جانبها، فسقط الكوب.

قال: «مش لازم دوافعك تبقى نقية. مفيش حد بيدخل الطب من غير قصة. السؤال: لما القصة تهدى، تفضل مستعد تعمل الشغل اليومي؟ تقف ساعات؟ تذاكر؟ تتحمل إن النتيجة مش دايمًا بإيدك؟»

ـ مش عارف.

ـ يبقى شوف أكتر. ما تختارش من مشهد واحد.

اتبعت سالي النصيحة نفسها بطريقتها. التدريب الإذاعي لم يكن كله مقابلات ذكية. قضت أيامًا تتصل بضيوف يعتذرون، وتطبع أوراقًا يضيعها المذيع، وتبحث عن شريط سجل فوقه شخص برنامجًا آخر. أحبت العمل رغم ذلك. أحبت أن سؤالًا

جيدًا قد يجعل صوتًا عاديًا يُسمع، وأن الحلقة تتكون من تفاصيل لا يراها المستمع.

بعد ثلاثة أشهر، عرضت عليها داليا عقدًا مؤقتًا بأجر صغير. قالت: «مش وظيفة أحلامك. ست شهور، وممكن ما تتجددش.»

قرأته سالي سطرًا سطرًا. سألت عن ساعات العمل، والتأمين، وأيام التسجيل الخارجي. لم تقل «موافقة» من الفرح قبل أن تفهم.

في البيت، وضع فؤاد العقد تحت مصباح المكتب وراجعه كأنه اتفاق بترولي. قال إن المرتب قليل وإن بند الإنهاء غير مريح. قالت سالي إنها تعرف، وإنها تحتاج إلى خبرة. قال: «أنا مش محتاجك تشتغلي عشان الفلوس.»

أجابته: «أنا محتاجة أشتغل عشان شغلي.»

وقّعت في الصباح.

في مساء اليوم نفسه، عاد زين ليجد كمال جالسًا في الظلام. لم يشغل إلا مصباحًا صغيرًا قرب صورة نادية. قال إن الكهرباء لم تنقطع؛ كان يجلس هكذا فقط.

أخبره زين بعقد سالي. قال كمال: «مبروك لها.» ثم أضاف: «دلوقتي هي دخلت حياتها، وإنت لسه قدامك سنين.»

ـ الطب أطول، مش معنى كده إني واقف.

ـ ما قلتش إنك واقف.

ـ كل مرة تتكلم كأننا هنصحى نكتشف إن كل واحد بقى في عالم.

قال كمال: «وده احتمال مش موجود؟»

جلس زين أمامه. «موجود. زي احتمال إننا نكمل. ليه إنت شايف واحد بس؟»

لم يجب كمال. مد يده إلى صورة نادية وعدّل زاويتها قليلًا.

في الأسابيع التالية، اتسعت المسافات الزمنية بين زين وسالي، لكنها لم تتحول إلى غياب. كانا يتعلمان أن العلاقة لا تحفظها كثرة الساعات وحدها. أحيانًا كان يمر عليها عشر دقائق قبل نوبته، فتقرأ له سؤالًا كتبته. وأحيانًا كانت تنتظره في مدخل المستشفى بكوب شاي، ثم تتركه يعود من غير أن تطلب لقاء كاملًا.

لكن في كل جمعة، إذا التقيا، كان زين يسأل: «إيه أكتر حاجة ضايقتك؟»

وتسأله هي: «وإيه الحاجة اللي ما قلتهاش لحد؟»

الفصل الأربعون

البيت الذي بدأ يسمع السؤال

سمع فؤاد السؤال أولًا من أخيه الأكبر في مناسبة عائلية.

كانوا يجلسون حول مائدة طويلة، وسالي في الطرف الآخر تتحدث مع ابنة خالتها عن العمل. مال الأخ نحو فؤاد وقال بصوت منخفض لم يكن منخفضًا بما يكفي: «البنت اتخرجت واشتغلت. ناويين على إيه؟»

قال فؤاد: «ناويين تعيش حياتها.»

ضحك الرجل. «كل البنات بتعيش حياتها، بس لازم الواحد يطمن.»

ـ يطمن على إيه؟

ـ على مستقبلها. خصوصًا بعد الحادث. الفرص الكويسة ما بتستناش.

وضع فؤاد الملعقة. كان يعرف أن أخاه لا يقصد الإهانة، وأنه يكرر منطقًا سمعه عمرًا: الزواج فرصة، والفتاة لها وقت، والإصابة تخصم من رصيدها في سوق لا يعترف أحد صراحة بأنه سوق.

قال: «سالي مش بضاعة آخر الموسم.»

اتسعت عينا الرجل. «أنا ما قلتش كده.»

ـ بس فكرت كده.

وصل جزء من الحوار إلى سالي. لم تتدخل. في طريق العودة، سألت أباها: «هو قال لك إيه؟»

قال: «كلام فارغ.»

ـ عن الجواز؟

نظر إلى الطريق. «الناس ما عندهاش موضوع غيره.»

ـ وإنت؟

ـ أنا إيه؟

ـ شايف إيه؟

كان السؤال مباشرًا إلى درجة أزعجته. قال: «أنا شايف إنك لسه صغيرة.»

ضحكت. «من سنة كنت بتقول اتخرجت وبقيت كبيرة.»

ـ كبيرة في الشغل. الجواز حاجة تانية.

ـ أنا مش بسألك أتجوز دلوقتي. بسألك إنت شايف زين؟

توقف عند إشارة حمراء. ظل ينظر أمامه حتى تغير الضوء، ثم تحرك.

قال: «زين ابني زيكم.»

ـ دي مش إجابة.

ـ هو شاب محترم، وأنا بحبه.

ـ برضه مش إجابة.

قال بنفاد صبر: «إنتِ عايزة مني أقول إيه؟»

ـ الحقيقة. هل لو جه بعد ما يخلص، هتبقى موافق؟

خفض سرعة السيارة. لم يكن قد فكر في السؤال بوصفه قرارًا قريبًا. كان يرى زين وسالي معًا منذ الطفولة، ولذلك استطاع سنوات أن يضع العلاقة في مكان لا يحتاج إلى تسمية.

قال: «لو إنتِ عايزاه، وهو جاهز، ومافيش حاجة تمنع... أنا مش هقف ضدك.»

التفتت إليه. «يعني موافق؟»

ـ يعني لما ييجي وقتها نتكلم.

ـ بابا، دي جملة عم كمال.

شد يديه حول المقود. «كمال قال إيه؟»

أخبرته بما قاله لزين: الدراسة أولًا، ثم الوقت المناسب. لم تضف تفسيرًا. ظل فؤاد صامتًا حتى وصلا.

في المساء، صعد إلى الطابق الثالث. وجد كمال يصلح مقبض درج في غرفة النوم. كانت أدوات نادية ما تزال في الصندوق نفسه، وملابس قليلة بقيت في الجانب الأيسر من الدولاب لأن كمال لم يستطع أن يقرر متى يصبح الاحتفاظ وفاءً ومتى يصبح عجزًا.

قال فؤاد: «سالي سألتني عن زين.»

توقفت يد كمال لحظة، ثم عاد إلى المسمار. «وسألتك ليه دلوقتي؟»

ـ عشان الناس بدأت تسألها عن الجواز. وعشان واضح إن الموضوع مش لعب عيال.

ـ ما قلتش إنه لعب.

ـ طيب إنت شايف إيه؟

أغلق كمال الدرج وجربه. «شايف إنهم لسه في أول حياتهم.»

ـ سالي اتخرجت واشتغلت.

ـ وزين لسه قدامه تخرج وامتياز وجيش وتخصص. إنت عايزه يفتح بيت بإيه؟

ـ ما حدش قال بكرة. إحنا بنتكلم على نية واضحة.

وقف كمال، وأعاد المفك إلى الصندوق. «والنية الواضحة هتفيدهم بإيه غير إنها تربطهم أكتر وهما مش عارفين الظروف؟»

ـ هما مربوطين من زمان.

ـ المشاعر غير المسؤولية.

جلس فؤاد على طرف السرير. «أنا مش فاهم خوفك.»

قال كمال بسرعة: «مش خايف.»

ـ إنت من يوم ما نادية ماتت وإنت بتخاف من كل حاجة بتاخد زين بره البيت.

استدار كمال نحوه. «ما تدخلش نادية في الموضوع.»

ـ هي جوه الموضوع حتى لو ما قلناش اسمها.

ساد صمت ثقيل. من الشارع جاء صوت بائع ينادي، ثم ابتعد. قال كمال: «إنت سهل عليك الكلام. بيتك مليان. طارق وهاني داخلين خارجين، وسالي وليلى. أنا لما زين يتجوز، هيفضل لي مين؟»

خرجت الجملة قبل أن يستطيع إعادتها.

لم يجب فؤاد فورًا. اقترب منه ووضع يده على كتفه.

«هيفضل لك زين. بس مش بالشكل اللي إنت عايزه كل يوم.»

ـ يعني أقعد أستناه يزورني؟

ـ يعني ما تخليش وجوده معاك شرط إنه ما يبقاش مع حد تاني.

أبعد كمال يده. «إنت بتتكلم لأن بنتك هي اللي هتاخده.»

تلقى فؤاد الجملة كصفعة. وقف. «زين مش حاجة تتاخد. وسالي مش جاية تخطفه.»

ـ ما قصدتش.

ـ قصدت خوفك. وأنا مقدره، بس ما ينفعش تدفعهم تمنه.

غادر فؤاد قبل أن يتحول الكلام إلى شيء لا يعود منه. نزل الدرج ببطء. عند الطابق الثاني، وجد سالي في الباب. كانت قد سمعت وقع قدميه ولم تسمع الحوار.

سألته: «كلمته؟»

ـ اتكلمنا.

ـ وقال؟

نظر إلى وجهها. كان يستطيع أن يطمئنها بكذبة صغيرة، أو يخيفها بتفسير كامل. قال: «هو مش رافضك. هو خايف.»

ـ من إيه؟

ـ من إنه يبقى لوحده.

سكتت سالي. لم تشعر بالغضب أولًا، بل بالحزن على رجل فقد زوجته وصار يرى كل باب خروجًا نهائيًا. ثم جاء الغضب: حزنه لا يمنحه حق تحويل حياتهما إلى دواء.

قالت: «زين عارف؟»

ـ مش بالكلام ده.

ـ ما تقولوش. أنا هقوله إنك اتكلمتوا، بس الباقي لازم يسمعه من أبوه.

في اليوم التالي، أخبرت زين. كانا في الحديقة نفسها، والناس تمر حولهما. قال: «أنا كنت حاسس.»

ـ الإحساس مش كفاية.

ـ أواجهه بإيه؟ يقول لي أنا ما رفضتش.

ـ ما تواجهوش كأنه متهم. اسأله هو محتاج إيه.

ضحك بمرارة. «محتاجني ما أمشيش.»

ـ وإنت محتاج إيه؟

نظر إليها. «أبني حياتي من غير ما أحس إني بهده.»

ـ يبقى دي المحادثة.

عاد زين إلى البيت مبكرًا. وجد كمال أمام التلفزيون، لكنه لا يتابعه. جلس إلى جواره وأغلق الصوت.

قال: «عمو فؤاد طلع لك.»

ـ آه.

ـ اتكلمتوا عني وسالي.

ـ اتكلمنا كلام سابق لأوانه.

ـ أنا مش جاي أطلب موافقة دلوقتي. جاي أسألك: إنت خايف إني أسيبك؟

تغير وجه كمال. «مين قال لك الكلام ده؟»

ـ محدش. أنا بسألك.

ـ كل ابن بيتجوز وبيخرج من بيت أهله. دي سنة الحياة.

ـ مش ده السؤال.

نهض كمال وأعاد تشغيل التلفزيون. «إنت مرهق وبتكبر المواضيع.»

أغلق زين الصوت مرة أخرى. «بابا، أنا مش هختفي. بس مش هقدر أفضل ابنك بالطريقة اللي تخليك مطمن طول الوقت. حتى لو ما اتجوزتش سالي، أنا هشتغل وأتخصص وممكن أسافر.»

قال كمال: «أهو. إنت بنفسك بتقول.»

ـ بقول إنك لازم تبني حياتك كمان. مش تستنى حياتي تقف جنبك.

كانت الجملة أقسى مما أراد. رأى أثرها، لكنه لم يسحبها.

قال كمال: «من ساعة ما أمك ماتت وإنت بتعاملني كأني حالة محتاجة خطة علاج.»

ـ لأ. أنا يمكن بعمل كده ساعات. بس دلوقتي بكلمك كابنك.

ـ والابن المفروض يعرف واجبه.

ـ وواجبي إيه؟

انتهى الحديث بلا اتفاق. دخل كمال غرفته، وبقي زين في الصالة. بعد ساعة، خرج الأب ووضع طبق فاكهة على الطاولة من غير أن يتكلم. أخذ زين قطعة، وقال: «هتعشى معاك بكرة.» أومأ كمال.

الفصل الحادي والأربعون

أول راتب

حصلت سالي على أول راتب في ظرف أبيض كتب عليه اسمها بالقلم الأزرق.

كان المبلغ أقل مما توقع فؤاد حين قرأ العقد، وأكبر من أي مال حملته سالي وهي تعرف أنه جاء من ساعاتها وأسئلتها وأخطائها. جلست في غرفة الإعداد بعد انتهاء اليوم، فتحت الظرف، وعدت الأوراق مرتين. لم تشعر بالثراء. شعرت أن الوقت الذي خرج من جسدها وعقلها عاد إليها في صورة يمكن لمسها.

سألت داليا ما إذا كان عليها توقيع إيصال. ضحكت وقالت: «امضي هنا، وبعدين روحي اصرفي المرتب قبل ما الإدارة تكتشف إننا بندفع للناس.»

خرجت سالي وفي حقيبتها الظرف. كانت تفكر ماذا تشتري. هدية لأمها، ساعة لأبيها، كتبًا، أو حذاءً مريحًا صارت تؤجل شراءه لأن سعره مرتفع. في الطريق، رأت متجرًا للأجهزة الصغيرة،

فتذكرت جهاز التسجيل القديم الذي يلتهم البطاريات ويشوّش نصف المقابلات.

اشترت مسجلًا جديدًا بنصف الراتب تقريبًا.

حين عادت، فتح فؤاد العلبة وقال: «كان ممكن أجيبه لك.»

ـ عارفة.

ـ وخصمتي نص مرتبك في أول يوم.

ـ ده شغلي.

قلب الجهاز في يده، وقرأ المواصفات. «اختيار كويس.»

أعطت ليلى وشاحًا اختارته من محل صغير، واشترت لكمال علبة الشاي الذي يحبه، ولريم أقلام رسم. أما زين، فلم تعرف ماذا تعطيه. كان يرفض الأشياء الغالية، ويحتفظ بالأشياء البسيطة حتى تبلى.

وجدت في مكتبة قرب الإذاعة دفترًا صغيرًا ذا غلاف أسود، يشبه دفترها الأول لكنه بحجم الجيب. اشترته وكتبت في الصفحة الأولى: «أشياء لا تُكتب في الملف.»

أعطته له في موعد الجمعة.

قرأ الجملة وقال: «رشوة عشان أسرّب معلومات مرضى؟»

ـ عشان تفتكر إن الناس أكتر من تقاريرهم. تكتب لنفسك، من غير أسماء.

قلب الصفحات. «وده من أول مرتب؟»

ـ ما تسألش عن السعر.

ـ غالي؟

ـ أقل من قلم فضي ضاع في حادثة.

وضعه في جيب القميص. «هستخدمه.»

ـ دي مش مجاملة مطلوبة.

ـ بجد.

في الليلة نفسها، كتب أول سطر بعد عودته من المستشفى: «الرجل في السرير سبعة كان خائفًا من أن ينام، لا من أن يموت.» لم يعرف ماذا يفعل بالجملة. لم تكن معلومة طبية، لكنها ظلت معه أكثر من نتيجة التحليل.

بدأ راتب سالي يغير أشياء صغيرة. صارت تدفع حساب السيارة أحيانًا، وتشتري دواءها من غير أن تنتظر فؤاد، وتدعو

ليلى إلى الغداء في يوم إجازتها. اعترض فؤاد حين أرادت المشاركة في مصروف البيت.

قال: «بيت أبوك مش فندق.»

ـ وأنا مش ضيفة.

ـ فلوسك وفريها.

ـ هادفع فاتورة التليفون اللي شغلي بيستهلكها.

ـ الشركة بتكلمك، مش إنتِ اللي بتكلميهم.

ـ بابا، سيب لي حاجة أعملها من غير مفاوضات بترولية.

اتفقوا في النهاية أن تتحمل اشتراك الهاتف الإضافي الذي ركبوه لغرفتها، وأن تدخر جزءًا من الراتب. فتح لها فؤاد حسابًا بنكيًا، ثم حاول أن يحتفظ بدفتر الحساب «عشان ما يضيعش». مدت يدها. أعطاه لها وهو يضحك من نفسه.

في الإذاعة، بدأت تسجل تقارير قصيرة بصوتها. كان أول تقرير عن موقف حافلات تغيّر مساره وأربك السكان. خرجت مع مهندس الصوت، وقفت بين الضجيج والعوادم، وسألت السائقين والركاب. حين عادوا، قالت داليا إن صوتها جيد لكنه متحفظ.

ـ متحفظ إزاي؟

ـ كأنك بتعتذري إنك موجودة على الهواء.

أعادت التسجيل. في المرة الثانية، ارتفع صوتها أكثر مما ينبغي. قالت داليا: «مش خناقة. إنتِ بتكلمي شخص واحد قاعد جنب الراديو.»

في المحاولة الثالثة، تخيلت كمال في المطبخ صباحًا، يشرب الشاي والجهاز قربه. تكلمت إليه. حين بث التقرير، كان كمال بالفعل يستمع في المطبخ. رفع الصوت ونادى زين، الذي جاء من غرفته نصف نائم.

قال كمال: «دي سالي.»

ـ عارف صوتها يا بابا.

ـ بتتكلم كويس.

كان فخورًا بها من غير تحفظ. هذا ما جعل تناقضه أصعب؛ لم يكن يرفضها، ولم يرَ فيها نقصًا. أحبها كابنة الجيران، وكابنة صديقه، وكصوت يسمعه في الصباح. المشكلة بدأت فقط حين تصورها زوجة تنقل مركز حياة زين بعيدًا عنه.

في العمل، اقترحت داليا أن تقدم سالي فقرة ثابتة مرة كل أسبوعين. قال رئيس التحرير إن الجمهور قد يتعاطف معها إذا عرف قصة الحادث. رفضت سالي إدخال القصة في الإعلان. قالت: «اللي هيسمعني يسمعني عشان الفقرة. رجلي مش حملة تسويق.»

أجاب الرجل: «إحنا ما بنستغلش. دي قصة إنسانية.»

ـ هي قصتي، وأنا بقول لأ.

ساندتها داليا. خرج الإعلان باسم الفقرة فقط: «من الرصيف». كانت خمس دقائق عن تفصيلة في المدينة: شجرة قديمة يقطعها مشروع، مكتبة تغلق، شارع تغيرت أسماؤه، عامل إشارة يقف في الشمس. لم تصبح مشهورة. لكن بعض المستمعين بدأوا يرسلون رسائل يقترحون موضوعات.

ذات يوم، وصلت رسالة من الكويت من مستمع مصري يعمل هناك. كتب أنه يسمع البرنامج عبر تسجيل يرسله أخوه، وأن حلقة المكتبة ذكرته بالقاهرة. قرأت سالي الرسالة على الهواء

من غير أن تعرف أن اسم البلد سيصبح بعد سنوات عنوانًا لحياة أخرى.

في البيت، احتفظت بالرسائل في صندوق. قال هاني ساخرًا: «بقي عندنا نجمة.»

ـ نجمة بمرتب يكفي جهاز تسجيل ونص حذاء.

قال طارق: «المهم إنك بدأتي.»

كان طارق قد بدأ يفكر في السفر للعمل، وهاني يبحث عن فرصة مختلفة كل شهر. صار بيت فؤاد أيضًا يتغير. الأبناء الذين ملأوا الغرف يخرجون واحدًا بعد آخر، وتبقى ليلى ترتب أسرّتهم كأنهم سيعودون في اللحظة نفسها.

في مساء هادئ، جلست سالي مع أمها في الشرفة. سألتها ليلى: «إنتِ مبسوطة؟»

ـ في الشغل؟

ـ في حياتك.

فكرت سالي. «مش عارفة لو مبسوطة كلمة كبيرة. بس حاسة إني موجودة فيها.»

ـ وزين؟

ـ موجود. بس مش كل حاجة.

ابتسمت ليلى. «كويس.»

تفاجأت سالي. «كنتِ متوقعة تقولي الحب لازم يبقى كل حاجة.»

ـ الحب اللي يبقى كل حاجة، أول ما حاجة تتغير يقع. لازم يبقى عندكم حاجات ترجعوا تحكوها لبعض.

سألتها سالي إن كانت هي وفؤاد عاشا هكذا. قالت ليلى إن الزواج لا يعطيك إجابة واحدة؛ تمر سنوات يكون فيها الشريك العالم كله، وسنوات يصبح فيها جزءًا من عالم مزدحم بالأولاد والعمل والمرض، ثم يعود في آخر الليل الشخص الذي يعرف أين تضعين النظارة.

قالت: «بس أهم حاجة ما تخليش حد يحبك عشان محتاجك تفضلي في مكان معين.»

فهمت سالي أنها لا تتحدث عن زين وحده. كانت تتحدث عن فؤاد أيضًا، وعن الآباء، وعن نفسها حين استخدمت سامر قديمًا كي تختبر مكانها في قلب زين.

في الجمعة التالية، وجدت زين قد بدأ يملأ الدفتر. لم يسمح لها بقراءته. قالت: «أنا اللي جايباه.»

ـ والهدية لما تتقدم ما تبقاش ملكك.

ـ قاعدة سخيفة.

ـ قانون.

جلسا تحت شجرة في الحديقة. كان في جيبه دفتر أسرار مرضى بلا أسماء، وفي حقيبتها مسجل اشترته بمالها. للمرة الأولى، بدا المستقبل أقل اعتمادًا على وعود مجردة. كان لكل منهما عمل يتعلمه، ومال قليل، وتعب خاص، وأشياء يمكن أن يحملها إلى البيت الذي لم يوجد بعد.

الفصل الثاني والأربعون

أبي لا يقول لا

تخرج زين بعد عامين من تخرج سالي، في احتفال أقل بهجة مما تخيلت الأسرة وأكثر تعبًا. كان قد قضى الليلة السابقة في المستشفى، ووصل إلى الحفل بعينين حمراوين وربطة عنق عقدها كريم له في السيارة. وقف كمال في الصف الأمامي، يحمل كاميرا نادية القديمة التي لم يستخدمها منذ وفاتها.

حين نودي اسم زين، رفع كمال الكاميرا، لكنه ضغط الزر متأخرًا. ظهرت الصورة بعد ذلك وفيها طرف المنصة وظهر طالب آخر. احتفظ بها رغم ذلك.

بعد الحفل، عانقه طويلًا. قال: «أمك كانت هتفرح.»

لم يقل زين إنها ترى أو تسمع. وضع رأسه لحظة فوق كتف أبيه، وسمح للجملة أن تكون عن الغياب لا عن التعويض.

أقاموا العشاء في شقة كمال. جاءت سالي بعد انتهاء برنامجها، تحمل جهاز التسجيل لأنها لم تجد وقتًا للعودة إلى البيت. وقف الأقارب حول زين يسألونه عن التخصص. قال إنه ما يزال في سنة

الامتياز وسيختار بعد أن يمر بالأقسام. كان يميل إلى القلب والجراحة، لكنه لم يرد أن يحول الميل إلى إعلان قبل أن يختبره.

في نهاية المساء، بقي فؤاد وليلى وسالي بعد مغادرة الآخرين. جلس الرجال في الشرفة، بينما ساعدت سالي ريم في جمع الأكواب. سمعت فؤاد يقول: «الحمد لله، خلصت المرحلة الكبيرة.»

أجاب كمال: «لسه الامتياز والجيش. الطب عمره ما بيخلص.»

توقفت يد سالي فوق الصينية. نظرت إلى ريم، التي سمعت أيضًا ولم تعلق.

في اليوم التالي، قال زين لأبيه إنه يريد أن يتحدث رسميًا عن سالي.

كانا في المطبخ، المكان الذي شهد أول اعتراف بالخوف بعد الانتقال إلى العمارة. وضع كمال كوب الشاي فوق الطاولة وقال: «رسميًا يعني إيه؟»

ـ نقعد مع عمو فؤاد ونحدد إن بعد الامتياز والجيش نتخطب أو نتجوز حسب الظروف.

ـ إنت لسه ما تعرفش هتدخل الجيش قد إيه، ولا هتتوزع فين، ولا هتشتغل بعده فين.

ـ عشان كده بقول نية واتفاق، مش فرح الشهر الجاي.

ـ وليه تربطها بيك وهي ممكن ييجي لها فرصة أحسن؟

شعر زين بأن الجملة لا تخص مصلحة سالي وحدها. قال: «إنت شايف إني مش فرصة كويسة؟»

ـ ما قلتش كده.

ـ إنت عمرك ما بتقول لا. بتقول بعد الامتياز، بعد الجيش، بعد التخصص. إمتى بعد؟

قال كمال بحدة: «لما تبقى قادر تفتح بيت وتحمل مسؤولية.»

ـ وأنا هبقى قادر إزاي من غير ما أبدأ؟ كل دكتور في سني دخله قليل ولسه بيتعلم.

ـ يبقى تستنى.

ـ سالي مستنية من غير ما حد يطلب منها. وأنا مش عايز أخليها تستنى في السر.

ـ هي شغالة وناجحة. ما حدش موقف حياتها.

ـ وأنا جزء من حياتها، مش عائق فيها.

جلس كمال. بدت عليه الشيخوخة فجأة، لا في الشعر الأبيض وحده، بل في الطريقة التي أمسك بها الكوب بكلتا يديه.

قال: «أنا ربيتكم لوحدي بعد أمك.»

ـ عارف.

ـ ما طلبتش منكم حاجة.

ـ طلبت مننا نفضل قريبين. وإحنا قريبين.

ـ القرب كلام سهل قبل ما كل واحد ياخد طريقه.

جلس زين أمامه. «أنا مش هاخد طريق ضدك.»

ـ بس هتاخده بعيد عني.

ظهرت الحقيقة مرة أخرى، أهدأ من المرة الأولى. قال زين: «المسافة مش معناها إنك خسرتني.»

ـ إنت ما تعرفش.

ـ ولا إنت تعرف.

نظر كمال إلى صورة نادية الصغيرة فوق الثلاجة. «كنت فاكر لما تكبروا، البيت يخف. ما كنتش أعرف إنه هيفضى.»

كان بإمكان زين أن يعانقه وينهي الحديث من غير قرار. اقترب، لكنه لم يهرب من السؤال.

قال: «أنا هفضل ابنك. بس ما ينفعش أثبت ده إني ما أتجوزش أو ما أبنيش بيت.»

ـ ما قلتش ما تتجوزش.

ـ بتقول ما أتجوزش دلوقتي. وبعدين هتقول ما أتجوزش وقت التخصص. وبعدها السفر. أنا محتاج أعرف إن التأجيل له نهاية.

قال كمال: «بعد الجيش.»

جاءت الجملة واضحة هذه المرة.

ـ وعد؟

تردد كمال. «بعد الجيش نقعد ونتكلم حسب ظروفك.»

ـ دي مش وعد.

ـ ما أقدرش أوعد بحاجة ما أعرفش ظروفها.

نهض زين. «تمام. بس أنا هكلم عمو فؤاد وأقوله إن نيتي واضحة. مش هطلب منه اتفاق رسمي من وراك، بس مش هفضل ساكت.»

قال كمال: «إنت حر.»

كانت العبارة تحمل غضبًا؛ فالحرية هنا بدت لكمال انسحابًا من سلطته، لا نضجًا لابنه.

نزل زين إلى الطابق الثاني. كان فؤاد في مكتبه يراجع أوراقًا، وليلى وسالي في الصالة. طلب أن يتحدث معهم جميعًا. جلست سالي وظهرها مستقيم، ولم تنقذه من بداية الكلام.

قال: «أنا بحب سالي، وإحنا متفقين إننا عايزين نكمل. أنا داخل امتياز وبعده جيش، ولسه ما عنديش بيت ولا دخل ثابت. مش جاي أطلب خطوبة دلوقتي. جاي أقول إن نيتي قدامكم واضحة، وإن أول ما أخلص الجيش عايز نقعد رسمي.»

نظر فؤاد إلى ابنته. «وإنتِ؟»

قالت: «دي نيتي كمان. بس أنا مش هوقف شغلي ولا حياتي لحد الوقت ده.»

ـ وده مفهوم.

سأل فؤاد: «كمال عارف إنك نازل تتكلم؟»

ـ عارف. هو شايف إن الكلام بدري.

لم يخفِ زين الخلاف، ولم يصوره رفضًا. قال فؤاد: «أنا ما عنديش اعتراض عليك يا زين. بس مش عايز الموضوع يعمل مشكلة بينك وبين أبوك، ولا بيني وبينه.»

قالت ليلى: «وما ينفعش برضه نخلي خوفه يعلقهم سنين.»

تنهد فؤاد. «نستنى الجيش. ده وقت محدد على الأقل.»

مد يده إلى زين. لم تكن خطبة، ولا اتفاقًا مكتوبًا، بل اعترافًا بأن السؤال صار له مكان على المائدة.

حين صعد زين، وجد كمال في الشرفة. قال له ما حدث. لم يبدُ الأب مرتاحًا، لكنه لم يغضب كما توقع.

قال: «فؤاد وافق طبعًا.»

ـ قال نستنى الجيش.

ـ عاقل.

ـ نفس اللي إنت قلته.

ـ يبقى مافيش مشكلة.

لكن المشكلة كانت موجودة في الطريقة التي قال بها الجملة. كلما اتفق الجميع على التأجيل، شعر كمال بالأمان المؤقت، كأن الزمن الذي كسبه قد يجد له حلًا لا يحتاج إلى قرار.

أما سالي، فوضعت في تقويمها موعدًا تقريبيًا لنهاية الامتياز، ثم شطبته. لم ترد أن تحول كل يوم إلى عدّ تنازلي. قالت لزين في مكالمة قصيرة: «هنعيش السنة زي ما هي. ما نخليش الجيش ياكلها قبل ما يبدأ.»

قال: «وأول ما أخلص...»

قاطعته: «أول ما تخلص نتكلم. دلوقتي خلص يومك.»

الفصل الثالث والأربعون

سنة الزي الأبيض

بدأ زين سنة الامتياز بقسم الجراحة العامة. في اليوم الأول، أعطاه الطبيب المقيم قائمة مهام لم تنتهِ حتى بعد انتهاء النوبة: عينات، تحاليل، موافقات، تغيير غيارات، ومريض يحتاج إلى نقل دم لم تصل فصيلته بعد. ارتدى المعطف الأبيض الذي حلم به سنوات، واكتشف في ساعات أن الزي لا يمنح صاحبه سلطة بقدر ما يجعله هدفًا لكل سؤال.

كانت الممرضة الأقدم تعرف الجناح أكثر من نصف الأطباء الجدد. قالت له حين وقف مرتبكًا أمام عربة الأدوات: «لو مش عارف، اسأل. بس ما تعملش نفسك عارف على جسم حد.»

شكرها، وحفظ اسمها: أمينة.

في نهاية الأسبوع، كتب في دفتر سالي: «المعطف الأبيض لا يجعلني أقل خوفًا. يجعل خوفي مرئيًا لي وحدي.»

تنقل بين الأقسام. في الباطنة تعلّم أن المرض الواحد قد يرتدي وجوهًا كثيرة. في الطوارئ تعلّم أن ترتيب الأولويات قرار أخلاقي

بقدر ما هو طبي. وفي الأطفال اكتشف أنه لا يحتمل صراخ الأمهات أكثر من صراخ الصغار.

حين وصل إلى جراحة القلب والصدر، وجد محمود صبري وقد أصبح نائبًا أكثر مسؤولية وأقل نومًا. أخذه إلى غرفة العمليات في السادسة صباحًا. قال: «هتقف بعيد، وما تلمسش حاجة إلا لما حد يقول لك.»

ارتدى زين ملابس العمليات، وغسل يديه رغم أنه لن يشارك. دخلت المريضة، امرأة في السادسة والأربعين تحتاج إلى تغيير صمام. قبل التخدير، كانت تسأل عن ابنتها التي تنتظر خارجًا. قال لها طبيب التخدير إن كل شيء سيكون بخير. لم يحب زين الوعد، لكنه فهم لماذا خرج.

حين فُتح الصدر ورأى القلب، لم يشعر بالرهبة الشعرية التي تخيلها. شعر بالتركيز. حركة صغيرة في حيز ضيق، أجهزة تحافظ على الدم، أصوات أرقام، يد جراح تتقدم من غير استعجال. العضلة التي تحمل حياة كاملة بدت هشّة وقوية في الوقت نفسه.

استمرت العملية ساعات. آلمته قدماه، وجف حلقه، ولم يجرؤ على الحركة. عند إعادة القلب إلى العمل، انتظر الجميع نبضة ظهرت على الشاشة ثم أخرى. لم يصفق أحد. واصلوا العمل.

بعد الخروج، جلس زين على الأرض قرب غرفة الملابس. أعطاه محمود زجاجة ماء.

قال: «لسه عايز قلب؟»

ـ أكتر.

ـ عشان اللحظة دي؟

فكر زين. «عشان كل اللي قبلها وبعدها. مش بس النبضة.»

أومأ محمود. «يبقى شوف الحالات اللي ما بتنجحش كمان قبل ما تقرر.»

جاءت الحالة بعد أسبوعين. رجل مسن دخل بظروف صعبة، وكانت المخاطر مرتفعة. فعل الفريق ما يستطيع، ولم يخرج الرجل من غرفة العمليات حيًا. وقف زين مع الطبيب الذي أخبر الابن. لم يقل أحد «عملنا اللي علينا» كأن الجملة تعيد الأب. بكى

الابن بصمت، ثم سأل السؤال الذي لا يملك الطبيب جوابًا كاملًا عنه: «لو جينا بدري كان عاش؟»

قال الجراح: «كان ممكن فرصه تبقى أحسن. بس ما أقدرش أقول لك كان هيعيش.»

كتب زين في الدفتر: «الصدق لا يخفف الألم دائمًا، لكنه لا يضيف إليه كذبة.»

صار اختياره للقلب أوضح، لكنه لم يعلنه إلا بعد شهور. أخبر سالي في الاستوديو حين جاءت تسجل فقرتها. جلس في غرفة الانتظار، يستمع إلى صوتها من خلف الزجاج. كانت تتحدث عن مبنى سينما قديم سيتحول إلى متجر. بعد انتهاء التسجيل، خرجت وهي تحمل الأوراق.

قال: «أنا هختار جراحة قلب.»

توقفت. «قررت؟»

ـ آه.

ـ عشان ماما؟

كان السؤال الذي خاف منه. قال: «جزء. بس مش كله. شوفت الشغل الحلو والقاسي. ولسه عايزه.»

ـ مبروك.

ـ إنتِ مش خايفة؟

ـ من إيه؟

ـ الساعات. التخصص. إني أبقى طول الوقت في المستشفى.

جلست على المقعد. «خايفة. بس لو قلت لك اختار حاجة أقل عشان نقضي وقت أكتر، هبقى بطلب منك تبقى شخص تاني وبعدين ألومك إنك مش مبسوط.»

ـ وإحنا هنعمل إيه؟

ـ ننظم، نفشل، نعيد التنظيم. زي دلوقتي بس أصعب.

ابتسم. «إجابة مريحة جدًا.»

ـ أنا مش مسؤولة عن راحتك.

ثم مدت يدها وأمسكت يده. «بس مسؤولة أقول لك الحقيقة.»

في البيت، أخبر كمال. قال الأب إن التخصص مرهق، وإن فرصه تحتاج إلى سنوات وربما سفر. سأله إن كان متأكدًا.

ـ متأكد إني عايز أحاول.

ـ والجواز؟

جاء السؤال منه لأول مرة، لكنه لم يكن دعوة. كان حجة جديدة.

قال زين: «الناس بتتجوز وهي بتتخصص.»

ـ والناس بتفشل في الاتنين.

ـ والناس بتنجح.

قال كمال: «أنا بس بلفت نظرك إنك بتختار طريق ما فيهوش وقت.»

ـ الوقت مش حاجة ألاقيها. حاجة أعمل لها مكان.

نظر كمال إلى الدفتر الصغير في جيب ابنه. «سالي قالت لك الجملة دي؟»

ضحك زين. «لأ. دي بتاعتي.»

لم تكن كل أيام الامتياز بطولة مهنية. أخطأ في كتابة طلب تحليل، ونسي أن يتابع نتيجة مهمة حتى ذكرته أمينة، ونام مرة في غرفة الأطباء بينما كانت أسرة مريض تنتظر منه ورقة خروج. اعتذر، وتعلم أن الإرهاق يفسر الخطأ لكنه لا يمحوه.

في إحدى النوبات، جاء كمال إلى المستشفى بألم في صدره. اتصل بزين من المدخل بدل الطوارئ، وقال إنه لا يريد «دوخة». نزل زين ووجد وجهه شاحبًا. أخذه فورًا إلى الفحص. أظهر التخطيط أن الأمر ليس جلطة، لكن الضغط مرتفع ويحتاج إلى متابعة.

غضب كمال من كثرة الفحوص. قال: «أنا كويس.»

أجابه زين: «الجملة دي مش تشخيص.»

بعد أن اطمأنوا، جلسا في الممر. قال كمال: «ما تقولش لسالي ولا فؤاد.»

ـ ليه؟

ـ ما بحبش الناس تقلق.

ـ ولا تحب حد يشوفك محتاج.

ـ يمكن.

حمل زين الوصفة. «أنا هاجي معاك للدكتور بكرة.»

ـ عندك شغل.

ـ هبدل.

نظر كمال إليه. في تلك اللحظة، رأى الابن الذي يخاف فقده، ورأى أيضًا الطبيب الذي لا يستطيع أن يبقى في البيت ليحرسه من كل شيء. قال: «ما تعطلش نفسك. كريم ييجي.»

كانت خطوة صغيرة من كمال، قبولًا بأن الرعاية يمكن أن تأتي من أكثر من شخص.

انتهت سنة الامتياز بسرعة في التقويم وببطء داخل الجسد. في آخر يوم، أعاد زين المعطف إلى الخزانة، ثم أخذه لأنه اشتراه بماله. صار القماش عند الأكمام باهتًا، وعلى الجيب أثر قلم لم يخرج بالغسيل.

انتظره سالي أمام المستشفى. لم تحمل وردًا. أعطته شطيرة لأنه لم يأكل منذ الصباح.

قالت: «خلصت؟»

ـ رسميًا.

ـ حاسس بإيه؟

نظر إلى المبنى. «إني بدأت.»

كان استدعاء التجنيد في حقيبته، مطويًا بين أوراق التخرج. لم يفتحه أمامها بعد. جلسا على سور منخفض، وأكل نصف الشطيرة، ثم أخرج الورقة.

قرأتها سالي. الموعد بعد أسابيع.

قال: «دي المرحلة اللي بعدها.»

أعادتها إليه. «مرحلة بموعد نهاية. خلينا نصدق ده لحد ما يثبت العكس.»

الفصل الرابع والأربعون

قبل أن يرتدي الزي الآخر

دخلت الأسابيع السابقة للتجنيد كل بيت بطريقة مختلفة.

في شقة كمال، ظهرت أكياس صغيرة من الملابس الداخلية والجوارب وأدوات الحلاقة، كأن كريم وريم يستعدان لإرسال زين إلى قارة أخرى. كان كمال يسأل كل من خدم في الجيش عن الأماكن والمدة، ويعود بإجابات متناقضة تزيد قلقه. أما زين فكان يحاول إنهاء أوراقه والتسجيل في النقابة وزيارة المستشفى الذي يأمل أن يعود إليه بعد الخدمة.

في شقة فؤاد، كانت سالي تتظاهر أن الموعد عادي. رتبت حلقاتها للشهور المقبلة، ووافقت على تغطية إضافية، ورفضت أن تجعل أيامها فراغًا ينتظر مكالمة قد تأتي أو لا تأتي.

قالت لها داليا: «ممكن تاخدي إجازة يوم سفره.»

ـ ليه؟

ـ عشان تودعيه.

ـ هودعه قبل الشغل. لو قعدت اليوم كله هافضل أعد الساعات.

مع ذلك، طلبت أن تنهي فقرتها مبكرًا في اليوم السابق.

اجتمعت الأسرتان على العشاء في شقة فؤاد. كانت المائدة تشبه أيام الطفولة، لكن المقاعد تغيرت. طارق يعمل خارج القاهرة ويزورهم قليلًا، وهاني يتحدث عن مشروع جديد، وكريم يأتي من عمله متأخرًا. جلست ريم قرب كمال، بينما جلس زين وسالي متقابلين لا متجاورين، كأنهما يتجنبان تحويل العشاء إلى وداع خاص.

حكى فؤاد قصص خدمته العسكرية، وزاد فيها كلما ضحك الآخرون. قال إنه كان قادرًا على النوم واقفًا، وإن ضابطًا عاقبه لأنه أصلح مولدًا من غير إذن. قال كمال: «إنت من يومك بتحب تعمل بطل.»

رد فؤاد: «على الأقل كنت بعرف أصلح المولد، مش زي واحد حرق لوحة الكهربا أول ما اتعين.»

ضحكوا بالقصة القديمة. نظر زين إلى أبيه وهو يضحك، ورأى للحظة الشاب الذي كانه قبل أن يصبح أبًا وأرملًا ورجلًا يخاف البيت الفارغ.

بعد العشاء، صعد زين وسالي إلى السطح. كان الهواء باردًا، والمدينة تحتهم أكثر ازدحامًا مما كانت في طفولتهما. جلسا قرب المكان الذي أخفيا فيه العلبة المعدنية. لم يحاولا فتحها؛ اتفقا أن العشرين التي حدداها في طفولتهما مرت، لكن الورقة يمكن أن تنتظر وقتًا آخر.

قالت سالي: «إنت خايف؟»

ـ آه.

ـ من الجيش؟

ـ من إني أرجع ألاقي كل حاجة اتحركت.

ـ كل حاجة هتتحرك. حتى لو قعدت.

ـ عارف. بس وأنا بعيد مش هشوفها.

ـ وأنا هحكي لك اللي ينفع يتحكي.

أخرج من جيبه الدفتر الصغير. «هاخده معايا لو سمحوا.»

ـ لو ما سمحوش، اكتب لما ترجع.

ـ وإنتِ؟

ـ هكمل الشغل. داليا قالت ممكن أقدم حلقة كاملة مرة في الشهر.

ـ دي حاجة كبيرة.

ـ وخايفة أفشل.

ـ كويس.

رفعت حاجبها. «كويس؟»

ـ عشان يبقى عندك حاجة تخافي منها غير غيابي.

ضربته بخفة على ذراعه. ثم قالت: «ما تطلبش مني أستناك بالشكل اللي يوقفني.»

ـ مش هطلب.

ـ وما تزعلش لو حكيت لك عن حاجات حلوة حصلت وإنت مش موجود.

ـ هزعل شوية.

ـ مسموح. بس ما تعاقبنيش.

ـ وإنتِ ما تعاقبينيش لو رجعت متغير.

سكتت. «متغير إزاي؟»

ـ ما أعرفش. يمكن متعب، عصبي، ساكت. يمكن المكان يطلع أسهل من اللي متخيل. بس ما تفضليش مستنية نسخة محددة.

قالت: «أنا أصلًا بطلت أستنى النسخ القديمة.»

كانت تقصد نفسها أيضًا.

مد يده إلى الشق بين الحجرين ولمس العلبة من الخارج. قال: «إحنا كتبنا أسماءنا عشان نفتكر؟»

ـ يمكن عشان نثبت إننا كنا هنا.

ـ وإحنا لسه هنا.

ـ مش بنفس الطريقة.

نزلا قبل منتصف الليل. عند باب شقتها، أعطته سالي القلم الفضي. قال: «ده بتاعك.»

ـ خده معاك.

ـ ممكن يضيع.

ـ الحاجات بتضيع وهي في الأدراج برضه.

ـ وإنتِ هتكتبي بإيه؟

أخرجت قلمًا عاديًا من جيبها. «اتطورت.»

أخذ القلم ووضعه داخل الدفتر. لم يقبّلها في المدخل. كان فؤاد قد يفتح الباب، أو كمال ينزل السلم، ولم يعودا يريدان أن يكون حبّهما فعلًا سريًا ومع ذلك لم يصبح علنيًا كاملًا. أمسك يدها لحظة، ثم صعد.

في الصباح، استيقظت العمارة قبل الشمس. نزل كمال يحمل حقيبة أكبر مما يحتاج زين، ونزل كريم وريم. خرج فؤاد وليلى وسالي. وقفت السيدة وداد عند بابها بالدعاء نفسه الذي تقوله لكل مسافر.

عند السيارة، حاول كمال أن يعطي زين مالًا إضافيًا. قال زين إن معه ما يكفي. وضعه كمال في جيبه بالقوة.

قال فؤاد: «خلي بالك من نفسك، وما تعملش فيها دكتور على الناس كلها.»

قالت ريم وهي تبكي: «كلّمنا أول ما توصل.»

أما سالي فبقيت خطوة إلى الخلف. لم ترد أن يراها الجميع وهي تنهار، ولم ترد أيضًا أن تحول التماسك إلى عرض. حين جاء دورها، اقتربت.

قالت: «مبروك المرحلة.»

ضحك. «لسه داخِلها.»

ـ بنبارك لك مقدمًا عشان ما تقولش نسينا.

ثم أضافت بصوت لا يسمعه غيره: «ارجع لما تقدر، مش لما تبقى نفس الشخص.»

قال: «وإنتِ ما تستنيش واقفة.»

ركب السيارة إلى جوار كريم. جلس كمال في الخلف معه، كأنه يريد أن يقتطع من الطريق ساعات إضافية. تحركت السيارة ببطء، ولوحت الأيدي.

ظلت سالي في مكانها حتى اختفت عند نهاية الشارع. شعرت بأن الأرض تحتها ثابتة، وهذا أزعجها. كانت تتوقع أن يتغير شيء مرئي حين يغادر.

قالت ليلى: «اطلعي ارتاحي قبل الشغل.»

ـ عندي تسجيل.

ـ تقدري تعتذري.

ـ مش عايزة.

صعدت إلى غرفتها، بدلت ملابسها، وأخذت المسجل. فوق المكتب كان صندوق الرسائل، والدفتر الأسود، وبطاقة التدريب القديمة. فتحت النافذة. شرفة الطابق الثالث صامتة، لكن هذا لم يجعل البيت فارغًا. كان كمال سيعود بعد أن يودع ابنه، وسيمشي في الغرف التي تركها الجميع في مواضعها.

في الطريق إلى الإذاعة، تلقت أول مكالمة من زين. كانت قصيرة ومزدحمة بالأصوات. قال إنه وصل إلى مكان التجمع، وإنهم سيأخذون الهواتف بعد قليل.

قالت: «أنا في العربية رايحة الشغل.»

ـ كويس.

ـ ما عنديش كلام كبير.

ـ وأنا كمان.

سكتا ثانيتين.

قالت: «القلم معاك؟»

ـ في جيبي.

ـ ما تضيّعوش.

ـ ما أقدرش أوعد.

انقطعت المكالمة قبل أن يودعا بعضهما كما ينبغي. نظرت سالي إلى شاشة الهاتف، ثم وضعته في حقيبتها. وصلت إلى الإذاعة، صعدت المنحدر المعدني الذي صار أقل اهتزازًا بعد أن ثبته حاتم بمسمارين إضافيين، ودخلت الاستوديو.

كانت حلقتها عن رسائل المسافرين: ما الذي يكتبونه، وما الذي يتركونه خارج الورق. جلست أمام الميكروفون، وضبط الفني مستوى الصوت. أضاء المصباح الأحمر.

قالت: «مساء الخير. أحيانًا لا يبدأ السفر حين تتحرك السيارة، بل حين نكتشف أن جملة كان يمكن قولها لم يعد لها وقت...»

توقفت لحظة قصيرة، ثم أكملت النص.

وفي الطرف الآخر من المدينة، كان زين يخلع معطفه الأبيض ويضعه في حقيبة ستبقى عند أبيه، قبل أن يرتدي زيًا لا يحمل اسمه وحده، ولا يسمح له أن يحدد مواعيده أو الطريق الذي يعود منه.

انتهت مرحلة كانت لها أبواب واضحة. وبدأت سنة ستُقاس بالمكالمات القليلة، والإجازات المؤجلة، والرسائل التي قد تصل بعد أن يتغير معناها.

عاد كمال إلى العمارة بعد الظهر وحده. كان كريم قد ذهب إلى عمله من الطريق، وريم سبقتهم إلى الجامعة. نزل من السيارة وهو يحمل المعطف الأبيض الذي تركه زين في المقعد الخلفي. لم يصعد فؤاد معه، ولم يعرض عليه أن يجلس عندهم؛ فهم من وجهه أنه يحتاج إلى أن يدخل البيت كما هو.

فتح الباب، فاستقبله صمت لا يختلف في حجمه عن أي يوم آخر، لكنه هذه المرة لم يكن ينتظر أن ينتهي بمفتاح زين في المساء. وضع المعطف فوق ظهر الكرسي، ثم نقله إلى غرفة ابنه. كانت الكتب مكدسة على المكتب، وسماعة الطبيب معلقة عند المصباح، وكوب فارغ تركه منذ الصباح.

مد كمال يده إلى الكوب، ثم توقف. جلس على السرير بدل أن يرتب الغرفة. لم يبكِ. نظر إلى الأشياء وحاول أن يقنع نفسه بأن الغياب مؤقت، وأن شهور الخدمة ستمر، وأن كل الآباء

يودعون أبناءهم. لكن الخوف لم يكن من الشهور. كان من التدريب الذي تمنحه الشهور للجميع على العيش بدونه.

رن الهاتف الأرضي. أسرع إليه، فوجد فؤاد يسأله إن كان وصل. قال: «وصلت.»

ـ تنزل تتغدى معانا؟

ـ كلوا إنتوا.

ـ ليلى عاملة حسابك.

نظر كمال إلى المطبخ. لم يشترِ خبزًا، ولم يعرف ماذا سيطبخ. قال: «هنزل بعد شوية.»

كانت موافقته أصعب عليه من الرفض. النزول يعني الاعتراف بأنه لا يريد أن يأكل وحده، وأن بيت فؤاد ليس بيتًا يأخذ ابنه منه، بل بابًا يمكن أن يفتحه حين يصعب عليه الصمت.

قبل أن ينزل، طوى معطف زين ووضعه في الدولاب. وجد في الجيب ورقة صغيرة نسيها: قائمة بأسماء أدوية وملاحظة في الأسفل بخط سريع: «اتصل بابا بخصوص الضغط.» جلس مرة

أخرى. لم تكن رعاية زين له وعدًا بالبقاء، لكنها لم تكن وهمًا أيضًا. كان ابنه يفكر فيه وهو بعيد، حتى حين لا يكون إلى جواره.

في مكان التجمع، جلس زين على مقعد خشبي بين عشرات الشبان. تغيرت ملابسهم، وقُصت أحاديثهم إلى أسئلة عملية: الاسم، المؤهل، الأوراق، مكان الوقوف. حاول أن يكتب في الدفتر، لكنه لم يجد جملة. أخرج القلم الفضي، ورسم خطًا قصيرًا، ثم أعاده إلى جيبه قبل أن يراه أحد ويسخر من حرصه عليه.

جاءه صوت ضابط ينادي المجموعة. وقف، وحمل حقيبته. للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، لم يكن هناك شخص يعرف أنه زين الذي يسكن الطابق الثالث، أو ابن كمال ونادية، أو صديق سامر، أو الرجل الذي تحبه سالي. كان اسمًا في كشف، وطبيبًا بين أطباء، وجسدًا يتعلم نظامًا لا يسأله عما يريد.

أما سالي، فأنهت الحلقة وخرجت من الاستوديو بعد أن انطفأ المصباح الأحمر. قالت لها داليا إن المقدمة كانت أهدأ من المعتاد. أجابت أنها كانت مناسبة للموضوع. لم تحكِ عن المكالمة.

في السيارة، فتحت هاتفها ثم أغلقته. لا رسالة جديدة.

أخرجت الدفتر الأسود، وكتبت وهي تنتظر إشارة المرور:

«اليوم لم يتوقف أحد منا. ربما هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن ننتظر من غير أن نضيع.»

حين وصلت إلى العمارة، رأت ضوء شقة كمال مفتوحًا، وسمعت صوته في بيتهم يختلف مع فؤاد حول كمية الملح في الطعام. ابتسمت. صعدت الدرج ببطء، وتوقفت عند الطابق الثالث لحظة، ثم واصلت إلى بيتها.

في الليلة الأولى، رن الهاتف بعد الفجر. جاء صوت زين بعيدًا:

«أنا كويس يا بابا. ما تقلقش.»

أراد كمال أن يسأله عشرات الأسئلة، لكن شخصًا كان يناديه من الخلف. قال: «ربنا يحفظك. وكلّمني لما تقدر.» وبقي الهاتف دافئًا في يده.

الفصل الخامس والأربعون

سنة لا تُقاس بالأيام

لم تشبه الأسابيع الأولى من الخدمة العسكرية أي زمن عرفه زين من قبل.

في كلية الطب كانت الأيام طويلة، لكنها قابلة للتسمية: محاضرة، جولة، نوبة، امتحان، مريض خرج، وآخر دخل. حتى الحزن بعد وفاة نادية كان يملك تواريخ يستطيع أن يضع حولها دائرة. أما هنا، فقد ذابت الأيام في نظام واحد يبدأ قبل أن يستيقظ الجسد وينتهي بعد أن يتوقف العقل عن تسجيل ما يحدث.

لم يكن المكان قاسيًا بالصورة التي تخيلها فؤاد في حكاياته، ولا سهلًا بالصورة التي حاول كمال أن يصدقها. كان معسكرًا بعيدًا بما يكفي ليجعل القاهرة فكرة، وقريبًا بما يكفي ليحسب زين المسافة إليها كلما مرت سيارة في الطريق العام.

عُيّن في نقطة طبية صغيرة تخدم الجنود والضباط وبعض العاملين المدنيين. لم يكن فيها غير غرفتين، وخزانة أدوية لا تحتوي

دائمًا على ما يحتاجه، وسرير فحص يصدر صريرًا كلما جلس عليه مريض. كان الطبيب الأقدم، النقيب عادل، قد سبقه إلى المكان بأشهر، واكتسب قدرة على معرفة الشكوى من طريقة دخول صاحبها.

قال له في اليوم الأول: «هنا هتتعلم إن المريض مش بييجي لك بالكتاب. بييجي لك وهو مستعجل، أو خايف، أو عايز يوم راحة، أو مخبي حاجة أهم من اللي بيقولها.»

في الأسبوع الأول، جاءه جندي يدعي أنه لا يستطيع تحريك ذراعه. كشف الفحص أنه سليم، لكن زين سأله قبل أن يكتب التقرير.

قال الجندي: «أمي داخلة عملية، وعايز أروح يومين.»

لم يمنحه تقريرًا كاذبًا. استدعى المسؤول، وشرح أن الشاب يحتاج إلى إذن عائلي. قال النقيب عادل بعد خروجه: «هتتعب نفسك.»

أجاب زين: «أقل من إنه يأذي نفسه عشان حد يسمعه.»

كانت المكالمات قصيرة وغير منتظمة. أحيانًا يتصل زين فيجد كمال قد خرج إلى الصيدلية، أو يجد الخط مشغولًا لأن ليلى تتحدث مع أختها. وأحيانًا ينجح في الوصول، فيسمع أربعة أصوات تتناوب على السماعة قبل أن ينتهي الوقت.

كان كمال يبدأ كل مكالمة بالسؤال نفسه: «بتاكل كويس؟»

ويجيب زين بالإجابة نفسها: «أيوه.»

ثم يسأله عن الضغط والدواء، فيغير كمال الموضوع.

أما سالي، فلم تكن تتصل بالبيت في الموعد الذي يتوقعه. انتظرت أن يحدد هو الوقت الذي يستطيع فيه الكلام، لكن الوقت لم يكن ثابتًا. ترك لها مرة رسالة عند داليا في الإذاعة؛ لأن هاتف البيت ظل مشغولًا. كتبت داليا فوق ورقة إعداد البرنامج: «اتصل. قال إنه بخير. صوته مرهق.»

وضعت سالي الورقة في دفترها ولم تسأله في المكالمة التالية لماذا بدا مرهقًا. قالت له عن حلقتها الأولى التي قدمتها كاملة، وعن ارتباكها حين أضاء المصباح الأحمر وبقي المذيع الأساسي خلف الزجاج لا إلى جوارها.

قال زين: «سمعتك؟»

ـ التسجيل عندي.

ـ ابعتيه.

ـ على شريط؟

ـ أي حاجة.

ـ هتسمعه فين؟

نظر حوله إلى الغرفة المشتركة، وإلى الراديو الصغير الذي يلتقط محطتين فقط. «معرفش. ابعتيه وخلاص.»

أرسلت إليه شريط كاسيت داخل مظروف مبطن، ومعه ورقة صغيرة كتبت فيها: «لا تسمعني بوصفك الشخص الذي يعرفني. اسمعني كأنك التقطت المحطة بالصدفة.»

وصل المظروف بعد اثني عشر يومًا. كانت زاويته ممزقة، والخط على العنوان باهتًا. احتفظ به زين يومين قبل أن يجد جهازًا لدى أحد الضباط. جلس ليلًا في غرفة فارغة، ووضع السماعتين فوق أذنيه.

جاء صوت سالي واضحًا أكثر مما يأتي في الهاتف. لم يكن صوت الفتاة التي يعرف متى تتردد ومتى تبتلع نهاية الجملة. كان صوت امرأة تضبط أنفاسها، تقود حوارًا، وتترك للضيف مساحة ثم تستعيدها. تحدثت الحلقة عن العمال الذين يسافرون يوميًا من أطراف المدينة إلى قلبها، وعن الساعات التي لا تُحسب من أعمارهم لأنها تقع بين البيت والعمل.

في منتصف الحلقة، نسي زين أنها سالي.

وحين تذكر، شعر بالفخر وبشيء أصغر منه لم يحب أن يسميه. كانت حياتها تتحرك في مكان لا يراه. لم يعد غيابُه فراغًا في يومها، بل صار مجرد تفصيل بين تسجيل واجتماع ومادة جديدة.

أعاد الشريط إلى بدايته واستمع مرة أخرى.

كتب في الدفتر الصغير: «سمعتك كما طلبت. لم أعرفك في بعض اللحظات. أظن أن هذا جيد، لكنني لم أحب كل ما شعرت به.»

لم يرسل الصفحة.

في الشهر الأول، تعلم زين أن الانتظار لا يعني الجلوس. كان ينتظر المكالمة وهو يفحص مريضًا، وينتظر الإجازة وهو يقف في طابور، وينتظر أن ينام وهو يراجع قائمة الأدوية. صار الزمن مجموعة من الفتحات الصغيرة: عشر دقائق يستطيع فيها أن يغسل وجهه وحده، خمس دقائق يكتب فيها، دقيقة واحدة يسمع فيها صوت أبيه قبل أن ينقطع الخط.

ذات ليلة، استُدعي إلى نقطة الحراسة لأن جنديًا سقط مغشيًا عليه. كان الشاب نحيفًا، ووجهه شاحبًا، ونبضه سريعًا. لم يكن في المكان جهاز تخطيط، ولا معمل، ولا استشاري يمكن استدعاؤه. فحصه زين، وسأل عن الطعام والماء، ثم لاحظ رائحة غريبة في أنفاسه وارتباكًا في إجاباته. طلب نقله فورًا إلى مستشفى أكبر، رغم اعتراض المسؤول الذي ظنها حالة إرهاق.

ظهر لاحقًا أن الشاب مصاب بارتفاع شديد في سكر الدم ولم يكن يعرف أنه مريض.

عاد زين إلى غرفته قرب الفجر. جلس على حافة السرير ولم يستطع النوم. فكر في المسافة بين أن يكون طبيبًا في مستشفى

محاطًا بالأجهزة، وأن يكون طبيبًا أمام جسد لا يملك له إلا أصابعه وأسئلته وقراره.

أخرج القلم الفضي. كتب لسالي رسالة طويلة عن الجندي، ثم مزقها. لم يرد أن يحول كل مكالمة إلى تقرير عن الخطر. كتب بدلًا منها سطرًا واحدًا:

«بدأت أفهم أن الطب ليس أن تعرف الإجابة، بل أن تتحمل مسؤولية السؤال حين لا يوجد وقت كافٍ.»

في القاهرة، كانت سالي تخرج من الاستوديو في التوقيت نفسه تقريبًا. قرأت رسالته بعد أيام، وجلست أمام نافذة غرفتها. لم تكتب له أنها خافت. كتبت: «وأنا بدأت أفهم أن الصوت ليس أن تتكلم، بل أن تعرف متى لا تملأ الصمت.»

وصلت الرسالتان متأخرتين، لكنهما وصلتا.

الفصل السادس والأربعون

الصوت الذي لا ينتظر الإذن

بعد نجاح الحلقة الشهرية الأولى، طلب مدير المحطة من داليا أن تمنح سالي مساحة أكبر في الإعداد والتقديم. لم يقل إن صوتها مميز، ولم يستخدم الكلمات التي انتظرتها سنوات. قال فقط: «الأرقام كويسة، والناس بعتت رسايل.»

حملت سالي الجملة إلى البيت كما لو كانت خطاب تعيين.

قال فؤاد: «أرقام إيه؟»

شرحت له عدد الاتصالات والرسائل التي وصلت بعد الحلقة.

سأل: «وفيه عقد؟»

ـ لسه.

ـ يبقى ما نفرحش قوي قبل الورق.

قالت ليلى: «نفرح دلوقتي، ولما الورق ييجي نفرح تاني.»

ابتسم فؤاد، لكنه ظل يسأل عن المواعيد والعودة ليلًا والمواصلات. كان خوفه أقل حدة مما كان بعد الحادث، لكنه لم يختفِ. تعلم فقط أن يقدمه في صورة أسئلة عملية.

بدأت سالي إعداد سلسلة قصيرة بعنوان «الطريق إلى العمل». لم تكن الفكرة جديدة، لكن طريقتها في جمع الأصوات جعلتها تخصها. أرادت أن تسجل في محطات الحافلات، وعند أبواب المصانع، وفي عربات الموظفين التي تتحرك قبل الفجر. اعترض مدير الإنتاج على خروجها وحدها، فطلبت مصورًا ومهندس صوت. قال إن الميزانية لا تسمح.

قالت: «يبقى نسجل بالصوت بس.»

ـ المكان زحمة.

ـ وده سبب إننا نروح.

ـ خلي حد غيرك يعمل المقابلات.

ـ أنا اللي كتبت الأسئلة.

نظر إليها كمن يبحث عن سبب يوقفها من غير أن يبدو ظالمًا. وقعت عيناه على ساقها، التي بقي في مشيتها أثر خفيف للحادث حين تتعب.

قال: «إحنا مش عايزين نعرضك لموقف.»

أجابت: «الموقف موجود سواء رحت أو ما رحتش. الفرق إن حد هيسمعه أو لأ.»

خرجت من المكتب وهي لا تعرف إن كانت كسبت النقاش. بعد ساعتين، اتصلت بها داليا وأخبرتها أن الإدارة وافقت على تجربة واحدة مع مهندس صوت.

كانت المحطة الأولى عند موقف مزدحم في السادسة صباحًا. وصلت سالي قبل الموعد، ترتدي حذاءً مريحًا وتحمل جهاز التسجيل بحزام طويل حتى لا تضطر إلى الإمساك به طوال الوقت. وقف مهندس الصوت، مدحت، إلى جوارها وهو يراقب الناس باستغراب.

قال: «هنسأل مين؟»

ـ أول حد يوافق.

رفض عدة أشخاص، ثم توقفت سيدة تحمل حقيبتين ولفافة خبز. قالت إنها تخرج قبل الخامسة وتعود «على حسب ربنا والمرور»، وإن أبناءها يحسبون عملها ثماني ساعات بينما تغيب

اثنتي عشرة، ثم تبدأ في البيت وردية أخرى كأن الطريق لم يحدث.

عادت سالي بثلاث ساعات من التسجيل. أبقت في المونتاج تنفس النساء وضوضاء المحركات، ثم قالت لها داليا إن الحلقة صارت كئيبة أكثر مما ينبغي. أعادتا ترتيبها، وأضافتا ضحكة السيدة وهي تحكي عن نومها واقفة في الحافلة، وصوت فتاة تراجع محاضرتها وسط الزحام.

حين بُثت الحلقة، كان زين في نقطة طبية لا يصل إليها البث بوضوح. حاول تدوير مؤشر الراديو، فدخل صوتها بين تشويش ومحطة أخرى. سمع جملًا متقطعة، ثم اختفت.

تضايق أكثر مما توقع. ظل يحرك الجهاز حتى ناداه أحد الجنود. أغلقه ووضعه فوق الخزانة.

في المكالمة التالية، قالت سالي: «سمعت؟»

ـ جزء.

ـ التسجيل هبعته.

ـ كل حاجة عندك بقت تسجيل يوصل بعد أسبوعين.

سكتت.

عرف من صمتها أنه قال الجملة كاتهام.

قالت: «إنت زعلان عشان الحلقة فاتتك ولا عشان حصلت من غيرك؟»

ـ أنا مش بقول إنها ما تحصلش.

ـ بس بتقولها كأنها قصرت في حقك.

كان يستطيع أن يدافع عن نفسه: الخدمة، التعب، البعد، انقطاع الخط. لكنه تذكر كلامها ليلة الوداع: لا تعاقبني على الأشياء الجميلة التي تحدث وأنت غائب.

قال: «أنا زعلان إني ما كنتش موجود. وحولتها للحظة كأنك السبب.»

ـ وأنا كان نفسي تسمعها وقتها.

ـ احكي لي عنها.

حكت. لم تختصر كي توفر وقت المكالمة، ولم تسأله إن كان عنده طاقة. تكلمت عن السيدة والحافلة والمونتاج، وعن خوفها

قبل البث، وعن رسالة وصلت من فتاة قالت إنها لأول مرة سمعت يومها العادي في الراديو.

انتهى الوقت قبل أن تسأله سالي عن يومه.

قال زين بسرعة: «أنا كويس.»

قالت: «مش لازم كل مرة تكون كويس عشان أتكلم.»

ـ المرة الجاية أحكي.

ـ ما تأجلش كل حاجة للمرة الجاية.

انقطع الخط.

ظلت الجملة معه يومين. لم يكن التأجيل قرارًا واعيًا؛ كان الطريقة الوحيدة التي يعيش بها. يؤجل التعب إلى الإجازة، والخوف إلى المكالمة، والاعتراف إلى ما بعد الخدمة، والزواج إلى ما بعد الاستقرار. كل مرحلة تضع أمامه بابًا جديدًا وتقول: بعده ستبدأ حياتك.

في القاهرة، حصلت سالي على أول مكافأة باسمها عن حلقة أعدتها وقدمتها. لم يكن المبلغ كبيرًا. اشترت لليلى وشاحًا، وأعطت فؤاد قلمًا، واشترت لنفسها حذاءً جديدًا يصلح للعمل الطويل.

احتفظت بجزء صغير في ظرف كتبت عليه: «حياة لا تعتمد على وعد.»

لم يكن الظرف ضد زين. كان من أجلهما معًا. أرادت أن تدخل أي بيت مستقبلًا وهي تعرف أن صوتها وعملها ليسا زينة قابلة للخلع حين تضيق الظروف.

حين أخبرت زين بالمكافأة، قال: «أول فلوس من صوتك.»

ـ من شغلي كله، مش صوتي بس.

ـ صح. من الشغل كله.

تعلم أن يصحح الجملة من غير أن يشعر أن التصحيح إهانة.

أما فؤاد، فوضع القلم في جيب قميصه وذهب به إلى العمل في اليوم التالي. وحين سأله زميل عنه، قال: «بنتي اشترته من مرتبها.» قالها أكثر من مرة، وبنبرة أعلى مما يحتاج السؤال.

في المساء، صعد إلى كمال يحمل نسخة مسجلة من الحلقة. جلسا أمام جهاز الكاسيت. استمع كمال بصمت، ثم قال: «صوتها اتغير.»

قال فؤاد بفخر: «بقت مذيعة.»

نظر كمال إلى الشريط وهو يدور، وسأل عن مواعيد التسجيل والعودة. فهم فؤاد السؤال الذي لم يُذكر فيه زين.

قال: «دي حياتها يا كمال. اللي هيتجوزها عارفها.»

رد كمال: «أنا ما قلتش حاجة.»

ظل كمال ينظر إلى الشريط وهو يدور. مد يده نحو زر الإيقاف، ثم تركه. على الرف المقابل، كانت صورة نادية مائلة قليلًا.

قال فؤاد وهو ينهض: «لما زين يرجع، نقعد كلنا.»

أجاب كمال: «لسه بدري.»

لم يسأله فؤاد: بدري على ماذا؟

الفصل السابع والأربعون

الإجازة الأولى

جاء خبر الإجازة قبلها بيوم واحد.

اتصل زين ببيتهم بعد العشاء. رد كمال، وحين فهم أنه سيعود في صباح اليوم التالي، نادى اسمه بصوت جعل ريم تخرج من غرفتها وفؤاد يفتح باب شقته في الطابق الثاني.

قال كمال: «آجي آخدك؟»

ـ لا، هاعرف أرجع.

ـ العربية معايا.

ـ يا بابا، هاجي مع زمايلي وأوصل.

ـ توصل فين؟

ضحك زين لأول مرة في المكالمة. «البيت.»

عرفت سالي من صوت الحركة في السلم قبل أن يخبرها أحد. خرجت فوجدت كمال يحمل السماعة وريم تسأله عن الساعة. وقفت عند بابها، ولم تدخل في دائرة التخطيط.

قال لها فؤاد: «هينزل بكرة.»

أومأت. «سمعت.»

ـ مش هتكلميه؟

ـ بكرة.

لم ترد أن تستهلك أول لقاء في مكالمة تحت سمع الجميع.

في الصباح، أعدت ليلى وكمال طعامًا يفوق ما يستطيع زين أكله، واتفقا بعد جدال عبر السلم أن يكون الغداء في شقته والعشاء عند فؤاد.

وصل زين بعد الظهر.

سمعوا خطواته قبل أن يظهر. فتح كمال الباب ونزل درجتين، ثم توقف كأنه تذكر أن ابنه لم يعد طفلًا. عانقه طويلًا. وقف كريم خلفه، وريم تبكي وتضحك، وفؤاد يربت على كتفه.

كانت سالي في آخر المجموعة.

بدا زين أنحف. اسمر وجهه، وقُص شعره أقصر مما اعتاد، وصارت عيناه تتحركان بسرعة على المكان قبل أن تستقرا. لم يكن تغيرًا كبيرًا يمكن وصفه، بل انقطاعًا صغيرًا بين صورته في الذاكرة والرجل الواقف أمامها.

قالت: «حمد الله على السلامة.»

ـ الله يسلمك.

لم يعانقها. لم يكن أحدهما متأكدًا من المسافة المناسبة أمام الأسرتين. مد يده، فمدت يدها، ثم ضحكا من الرسمية وسحباها.

قال فؤاد: «إيه يا جماعة؟ بقيتوا زمايل شغل؟»

أنقذتهم الضحكة.

دخل زين شقته. لمس ظهر الأريكة، ونظر إلى صورة نادية، وفتح باب غرفته كأنه يتأكد أنها لم تُنقل. وجد المعطف الأبيض في الدولاب، والكتب في أماكنها، وكوب الصباح القديم مغسولًا فوق المكتب.

قال كمال من خلفه: «ما حبيتش أغير حاجة.»

ـ كويس.

ـ كنت هدهن الأوضة، بس قلت تستنى لما ترجع.

ـ مش محتاجة.

ـ الحيطة فيها رطوبة.

ـ بعدين.

توقفت كلمة «بعدين» بينهما. ابتسم كمال، لكنه لم يعلق.

في الغداء، أكل زين أكثر مما توقع، وأجاب عن الأسئلة نفسها مرات. لم يحكِ عن الجندي المريض، ولا عن الليالي التي نام فيها مرتديًا جزءًا من ملابسه، ولا عن الغضب الذي يأتي بلا سبب. حكى قصصًا آمنة: زميل ينام وهو واقف، ضابط ينسى الأسماء، شاي شديد السكر.

كانت سالي تراقب يده. كلما ارتفع صوت مفاجئ في الشارع، توقفت أصابعه لحظة. وحين سقط غطاء إناء في المطبخ، استدار قبل الجميع.

بعد الغداء، قال إنه يريد أن ينام. أصر كمال أن يجلس قليلًا، ثم تراجع حين رأى عينيه.

نام زين ست ساعات.

استيقظ بعد المغرب مرتبكًا. لم يعرف في اللحظة الأولى أين هو. سمع صوت الملاعق في المطبخ ورائحة القهوة، فجلس ببطء. كان القلم الفضي فوق المكتب؛ وضعه كمال إلى جوار الدفتر بعد أن وجده في جيب ملابسه التي أرسلها للغسيل.

أخذه ونزل إلى شقة فؤاد.

وجد سالي وحدها في الصالة تراجع نصًا. رفعت رأسها، ثم أغلقت الأوراق.

قال: «فين الناس؟»

ـ بابا وماما نزلوا يجيبوا حاجات للعشا. هاني عند صاحبه.

جلس قبالتها. «إنتِ ما جيتيش تصحيني.»

ـ إنت محتاج تنام.

ـ كنت مستني أشوفك.

ـ شوفتني.

ـ قصدي لوحدنا.

قالت بهدوء: «وأنا كنت مستنية تصحى من غير ما أبقى سبب إنك ما ترتاحش.»

لم يعرف هل يشكرها أم يغضب منها. قال: «إنتِ اتغيرتي.»

ـ وإنت كمان.

ـ أنا عارف إني اتغيرت إزاي؟

ـ لأ.

ـ أمال قلتيها ليه؟

ـ عشان ما نخليش الجملة اتهام. التغيير حصل للاتنين.

مد لها القلم. «رجع.»

لم تأخذه. «خليه معاك لحد ما تخلص.»

ـ ليه؟

ـ عشان ما تعتبرش كل إجازة نهاية.

وضعه في جيبه.

قالت: «حكيت لكل الناس كلام مضحك. عايز تحكي لي إيه بجد؟»

ظل صامتًا. كان يظن أنه حين يراها ستخرج الكلمات متتابعة. لكنه وجد أن التجربة التي عاشها لا تدخل في غرفة الصالة بسهولة. أي تفصيل سيبدو إما صغيرًا أو مخيفًا.

قال: «أنا ساعات بحس إني مش دكتور. مجرد واحد معاه سماعة ومفيش حاجة تانية.»

ـ وده بيخوفك؟

ـ بيكشفني. في المستشفى كنت دايمًا أقدر أنادي حد أكبر. هنا أوقات القرار واقف عندي.

ـ وبتعمل إيه؟

ـ باخد القرار.

ـ وبعدها؟

ـ أفضل أفكر لو كان غلط.

جلست إلى جواره بدلًا من مقابلته. لم تقل إنه شجاع. لم تقل إنه أفضل طبيب. وضعت يدها فوق يده.

قالت: «أنا أول حلقة خرجت أسجلها، رجعت البيت وفضلت أفكر في كل سؤال ما سألتوش. مش نفس المسؤولية، عارفة. بس يمكن مفيش شغل بيقول لك إنك خلصت صح.»

ـ بعتِ التسجيل؟

ـ عندي هنا.

استمعا إلى الحلقة من جهاز صغير. لم ينظر إليها زين أثناء البث. أغمض عينيه، وترك الأصوات تدخل الغرفة. بعد النهاية،

قال: «الست اللي بتضحك وهي بتقول إنها بتنام واقفة... دي أكتر واحدة فضلت معايا.»

ابتسمت سالي. «أنا كمان.»

ثم حكت له عن الظرف الذي تدخر فيه جزءًا من دخلها. لم تخفِ اسمه المكتوب عليه.

قال: «حياة لا تعتمد على وعد؟»

ـ زعلت؟

فكر. «قبل ما أجي كان ممكن أزعل.»

ـ ودلوقتي؟

ـ دلوقتي شايف إن الوعد اللي محتاجك توقفي حياتك عشان تثبتيه، وعد سيئ.

نظرت إليه طويلًا. «إنت تعبت.»

ـ دي مجاملة؟

ـ لأ. عشان الكلام ده ما كانش هيطلع منك بالساهل زمان.

دخل فؤاد وليلى، فانتهت العزلة. في العشاء، عاد زين إلى القصص الخفيفة. لكنه حين صعد إلى شقته، كان صدره أقل امتلاءً بالكلام المؤجل.

في اليوم التالي، استيقظ كمال مبكرًا وأعد قائمة بالأشياء التي يريد إنجازها معه: زيارة الطبيب، تصليح الصنبور، شراء دواء، المرور على البنك. نظر زين إلى الورقة وقال: «أنا عندي يومين يا بابا.»

ـ ما هي كلها حاجات بسيطة.

ـ عايز أقعد معاك، مش ألف مشاوير.

ـ دي مشاويرنا سوا.

كانت الجملة صادقة ومؤلمة. خرجا معًا. وفي كل مكان، قدم كمال ابنه بصفته «الدكتور زين» كأنه يخشى أن تعيده الخدمة إلى مجرد اسم في كشف.

في الليلة الأخيرة، صعد زين وسالي إلى السطح. لم يفتحا العلبة. جلسا قربها.

قال زين: «الإجازة خلصت قبل ما تبدأ.»

ـ عشان حاولت تحط فيها كل حاجة.

ـ المرة الجاية نعمل إيه؟

ـ ما نخططش.

ـ دي خطة.

ضحكت. أسندت رأسها إلى كتفه. بعد وقت قالت: «أنا ما كنتش عايزاك ترجع نفس الشخص.»

ـ وأنا؟

ـ كنت خايفة ترجع شخص ما يعرفنيش.

ـ عرفتِ؟

ـ لسه.

لم يغضب. قال: «وأنا لسه بعرفك.»

حين غادر في الصباح، لم تنزل العمارة كلها. ودعه كمال عند الباب، ونزلت سالي وحدها إلى المدخل. تبادلا عناقًا سريعًا بعيدًا عن الشارع.

قالت: «المرة الجاية ما تجيش تزور النسخة القديمة من البيت.»

ـ أجي فين؟

ـ أجي للحياة اللي ماشية هنا. وإحنا هنحاول ندخل في حياتك اللي هناك، مش نسحبك منها.

ركب السيارة. هذه المرة لم تبقَ سالي واقفة حتى تختفي. استدارت وصعدت قبل أن تتحرك.

رآها في المرآة تدخل العمارة. لم تتحرك السيارة إلا بعد أن اختفت خلف الباب الأخضر.

الفصل الثامن والأربعون

حين يمرض الأب بعيدًا عن ابنه

في منتصف الشتاء، استيقظ كمال على دوار شديد.

حاول أن يقف من السرير، فاضطر إلى الجلوس مرة أخرى. مد يده إلى المنضدة، وأسقط كوب الماء. ظل يسمع ارتطامه بالأرض كأنه يأتي من غرفة أخرى.

لم يكن أحد في الشقة. كريم انتقل إلى بيت قريب بعد زواجه، وريم في الجامعة، وزين في خدمته. جلس كمال دقائق يفاوض جسده. أقنع نفسه أنه لم يأكل جيدًا، ثم حاول الوصول إلى المطبخ.

عند باب الغرفة، فقد توازنه وأمسك بالحائط.

سمعت ليلى صوتًا فوقها. لم يكن قويًا، مجرد احتكاك كرسي أو شيء وقع. تجاهلته أولًا، ثم تذكرت أن كمال وحده. صعدت وطرقت الباب. لم يجب. طرقت مرة ثانية، ثم نادت.

وصلها صوته ضعيفًا: «أنا جاي.»

انتظرت ولم يفتح.

نزلت إلى فؤاد في الشارع، ثم صعدا معًا بالمفتاح الاحتياطي الذي احتفظا به منذ وفاة نادية.

وجدا كمال جالسًا على الأرض قرب الممر، مستندًا إلى الحائط، غاضبًا أكثر مما هو خائف.

قال: «ما كانش لازم تفتحوا.»

ركع فؤاد إلى جواره. «كنت مستنينا نطلب ميعاد؟»

قاس له الضغط بالجهاز الذي تركه زين. كان مرتفعًا جدًا. اتصلوا بطبيب قريب، ثم نقلوه إلى المستشفى للفحص.

رفض كمال أن يخبروا زين.

قال: «هيعمل إيه من هناك؟»

أجابه فؤاد: «يعرف.»

ـ هيقلق ويطلب إجازة ومش هياخدها.

ـ ده ابنه.

ـ وأنا أبوه. ومن حقي ما أعطلوش.

وصلت سالي إلى المستشفى بعد أن اتصلت بها ليلى. وجدت كمال على سرير الملاحظة، وفؤاد يتجادل معه، وريم تبكي في الممر.

دخلت، وأمسكت ملف الفحوص. لم تتظاهر بفهم التفاصيل، لكنها قرأت ما تستطيع. قال الطبيب إن الدوار سببه اضطراب الضغط مع إرهاق وقلة طعام، وإن الفحوص المبدئية مطمئنة، لكنه يحتاج إلى متابعة منتظمة.

قال كمال: «شايفين؟ مفيش حاجة.»

ردت سالي: «فيه حاجة اسمها إنك وقعت لوحدك.»

نظر إليها. لم يكن معتادًا أن تكلمه بهذه النبرة.

قال: «ما وقعتش. قعدت.»

ـ على الأرض؟

ـ ما كانش فيه كرسي قريب.

كادت تضحك، لكنها لم تفعل. جلست إلى جواره.

قالت: «هنقول لزين.»

ـ لأ.

ـ ليه؟

ـ عشان ما يفتكرش إن لازم يرجع كل ما جسمي يعمل حركة.

ـ هو مش لازم يرجع. بس لازم يعرف.

ـ وإنتِ عايزاه يعيش هناك وهو مستني التليفون؟

فهمت سالي أن الخلاف ليس عن مكالمة. كمال يخشى أن يكون احتياجه حبلًا يربط ابنه، ويخشى في الوقت نفسه أن يكتشف أنه يستطيع العيش من دون هذا الحبل.

قالت: «أنا هقوله إنك كويس، وإننا معاك، وإنه ما يعملش حاجة غير اللي يقدر عليها.»

ـ وإنتِ اللي تحددي له؟

ـ لأ. أنا هقوله الحقيقة، وهو يحدد.

أدار وجهه نحو النافذة.

اتصلت في المساء. لم يصل الخط. تركت رسالة قصيرة. عاود زين الاتصال بعد منتصف الليل.

قالت فورًا: «باباك كويس. اسمع الجملة دي الأول.»

ثم حكت ما حدث من غير تهويل ولا تقليل. سأل عن الأرقام والأدوية والطبيب. كتب كل شيء. قال إنه سيطلب إجازة.

قالت: «الطبيب قال يرجع البيت بكرة. فؤاد معاه، وريم هتبات فوق.»

ـ أنا لازم أشوفه.

ـ اطلب. بس لو ما أخدتش، ما تحولش ده لذنب.

ـ هو كان عايز يخبي؟

سكتت لحظة. «آه.»

أغلق زين عينيه. كان غاضبًا وخائفًا. قال: «طبعًا.»

ـ ما تبدأش المكالمة معاه بخناقة.

ـ إنتِ بقيتي تعرفي أنا هعمل إيه؟

ـ أعرفك لما تكون خايف.

حصل على إجازة قصيرة بعد يومين. وصل إلى البيت، فوجد كمال جالسًا في الصالة يرتدي ملابس الخروج، كأنه يريد إثبات أن المستشفى كان مبالغة.

قال زين من الباب: «رايح فين؟»

ـ مشوار.

ـ اقعد.

ـ ما تكلمنيش كدكتور.

ـ طب أكلّمك كابنك اللي عرف إن أبوه وقع من سالي؟

ارتفع صوت كمال. «أنا ما وقعتش.»

ـ دي أهم حاجة عندك؟ الاسم؟

ـ أهم حاجة إنك ما تسيبش خدمتك وتجري عشان دوخة.

ـ أنا ما جريتش. خدت إجازة.

ـ كان ممكن ما تاخدهاش.

ـ وكان ممكن ما أعرفش خالص.

وقفا متقابلين. لأول مرة لم يكن الخوف مستترًا في سؤال عن الطعام أو الضغط.

قال كمال: «أنا مش عايز أبقى السبب إنك توقف حياتك.»

رد زين: «وأنا مش عايز حياتي تبقى حجة إنك تخبي عني.»

ـ إنت مش موجود.

جاءت الجملة أشد مما قصدها كمال.

سكت زين.

أضاف الأب: «قصدي... بعيد.»

ـ عارف.

دخل غرفته ووضع الحقيبة. وجد ريم رتبت الأدوية في صندوق، وكتبت المواعيد فوق ورقة. لم يكن البيت عاجزًا بدونه. هذه الحقيقة أراحته وجرحته في الوقت نفسه.

في المساء، جلس مع كمال وحدهما. لم يعتذر أي منهما مباشرة.

قال زين: «هنعمل نظام. ريم أو كريم يمروا، وفؤاد معاه المفتاح. وجهاز الضغط يتقاس مرتين.»

ـ أنا مش طفل.

ـ عارف. عشان كده إنت اللي هتكتب القراءات.

ـ وإنت هتراجعها من هناك؟

ـ لما أقدر.

نظر كمال إلى الورقة. قال: «وسالي؟»

ـ مالها؟

ـ هي اللي هتبقى حلقة الوصل؟

لاحظ زين النبرة. «هي كانت موجودة لما حصل.»

ـ وأنا مش عايزها تشيل مسؤولية بيتنا.

ـ هي ما قالتش إنها شايلة.

ـ بس إنت بتعتمد عليها.

ـ وأنا كمان موجود لها.

قال كمال: «إنت فاكر إن ده سهل؟ اتنين شغلهم واخدهم، وكل واحد فاكر إنه يقدر يسند التاني. بعد الجواز، مين فيكم هيفضى لما التاني يقع؟»

كانت أول مرة يربط كمال خوفه من المرض بالزواج بوضوح.

قال زين: «إحنا مش بندور على حد يفضى لنا. بندور على شريك.»

ـ الكلام ده حلو قبل المسؤوليات.

ـ وإنت وماما كنتوا إزاي؟

تغير وجه كمال. «ما تدخلش أمك في الكلام.»

ـ ليه؟ هي كانت بتشتغل وتربي وتدير البيت، وإنت كنت بتسافر.

ـ وعشان كده عارف التكلفة.

ـ التكلفة عليها ولا عليك؟

نهض كمال. انتهى الحوار من غير أن ينتهي.

في اليوم التالي، عاد زين إلى خدمته. قبل أن يغادر، وضع جهاز الضغط فوق الطاولة وكتب تعليمات قصيرة. قال كمال: «أنا هلتزم.»

عند الباب، أضاف: «بس لما تخلص، ما تفتكرش إن كل مشكلة حلها إنك تتجوز بسرعة.»

نظر زين إليه. «أنا ما بربطش الحاجتين.»

بعد أن غادر زين، بقي جهاز الضغط فوق الطاولة، وبجواره ورقة التعليمات بخطه. قرأها كمال مرة أخرى، ثم طواها ووضعها تحت الجهاز.

الفصل التاسع والأربعون

ما يفعله الغياب بالوعود

مرت الشهور التالية أقل اضطرابًا وأكثر ثقلًا.

التزم كمال بقياس الضغط، لكنه كتب الأرقام أحيانًا بعد الموعد بساعات كي لا يشعر أن الورقة تتحكم فيه. كان يرسل القراءات مع سالي حين تتحدث إلى زين، ثم توقف عن ذلك وقال إنه يستطيع أن يخبر ابنه بنفسه.

أما زين، فصار يتصل بأبيه أولًا، ثم بسالي. لم يكن ترتيبًا متفقًا عليه، لكنه نشأ من الخوف. لاحظته سالي ولم تعترض. كانت تعرف أن المنافسة مع مرض أب ليست حبًا، وأن طلب المساواة في كل مكالمة قد يحول العلاقة إلى دفتر حسابات.

مع ذلك، بدأت المسافة تُظهر اختلافاتهما.

كان زين يريد أن يعرف مواعيدها بالتفصيل: متى تخرج، ومن معها، ومتى تعود. لم يكن يسألها قبل الخدمة بهذه الصورة. قال إنه يحاول فقط أن يجد وقتًا مناسبًا للاتصال.

قالت: «اسألني إمتى أكون فاضية، مش اليوم كله عامل إزاي.»

ـ عايز أعرف حياتك.

ـ أعرفها من اللي بحكيه، مش من جدول رقابة.

ـ إنتِ شايفة إني براقبك؟

ـ ساعات.

صمت. كان المعسكر قد علمه أن كل شيء له موعد واسم ومسؤول. نقل النظام إلى العلاقة من غير أن ينتبه.

قال: «هحاول.»

ـ وأنا هحاول ما أقرأش كل سؤال كأنه أمر.

لم تنتهِ المشكلة، لكنها صارت قابلة للكلام.

في المقابل، كانت سالي تؤجل إخباره ببعض الأشياء حتى لا تقلقه. لم تقل له إنها عادت ذات ليلة في سيارة زميل بعدما تعطلت سيارة الإذاعة. ولم تقل له إن مديرًا جديدًا اقترح نقلها إلى برنامج مسائي أكبر. كانت تريد أن تقرر أولًا ثم تحكي، لكنه عرف من فؤاد صدفة.

قال في المكالمة: «إنتِ كنتِ هتقولي إمتى؟»

ـ لما أعرف إذا كنت هوافق.

ـ يعني بعد القرار.

ـ القرار شغلي.

ـ وأنا ماليش رأي؟

ـ عندك رأي، مش إذن.

عاد الصمت بينهما، أكثر قسوة هذه المرة.

قال زين: «أنا مش بطلب إذن. بس إحنا بنتكلم في جواز. مواعيدك هتأثر علينا.»

ـ ومواعيدك في المستشفى مش هتأثر؟

ـ أكيد.

ـ طب سألتني قبل ما تختار القلب؟

ـ حكيت لك.

ـ بعد ما كنت تقريبًا اخترت.

أراد أن يقول إن التخصص ليس مثل برنامج مسائي. توقف. كان ذلك النوع من الجمل الذي يصنع سلطة من غير أن يعلنها.

قال: «عندك حق.»

لكن اعترافه لم ينهِ غضبها.

وافقت سالي على البرنامج المسائي بعد شروط: يومان فقط في الأسبوع، وسيارة عودة، ومساحة تحريرية واضحة. اتصلت بزين بعد التوقيع.

قالت: «وافقت.»

ـ مبروك.

ـ زعلان؟

ـ آه.

انتظرت تفسيرًا.

قال: «زعلان إنك ما دخلتنيش في التفكير. ومبسوط لك. الاتنين موجودين.»

ـ وأنا كنت خايفة تدخلني في خناقة قبل ما أعرف أنا عايزة إيه.

ـ كنتِ شايفاني عقبة؟

ـ كنت شايفة خوفك عقبة.

وصلت الجملة إلى مكان حساس فيه. قال: «ماشي.»

ـ ماشي يعني إيه؟

ـ يعني سمعتك.

ـ مش كل سماع موافقة.

ـ ومش لازم أوافق على كل حاجة عشان أحترم قرارك.

كانت تلك بداية شكل جديد من الحب، أقل راحة من الطفولة وأصدق منها. لم يعد الاتفاق دليل القرب، ولم يعد الخلاف علامة النهاية.

زار سامر العمارة في إجازة من عمله في الإسكندرية. حكت له سالي عن خلاف البرنامج، فرفض أن يختصره في كلمة «تحكم» أو يقدم نفسه بديلًا أكثر فهمًا.

قال: «هو هناك كل حاجة حواليه متقفلة، فعايز خريطة لحياتك. مش لازم تديه الخريطة كلها؛ خليه يعرف الباب.»

سألته: «بقيت حكيم؟»

أجاب: «بقيت أعرف ثمن إني أستخدم كلام حد ضده.»

حين اتصل زين في المساء، أخبرته أن سامر زارهم. لم تخفِ اللقاء، ولم تقدمه كتحدٍ.

قال زين: «قعد معاك لوحدكم؟»

ـ في الشرفة، والبيت كله موجود.

ـ حكيتِ له عننا؟

ـ عن خلاف البرنامج.

لم يرد.

قالت: «قول اللي عندك.»

ـ مش عاجبني إنك تحكي له حاجة بيننا.

ـ هو صديقنا.

ـ كان بيحبك.

ـ وكان صاحبك قبل ما يعرفني.

ـ ده ما يمسحش اللي حصل.

ـ ولا يخليه متهم طول عمره.

قال زين بحدة: «إنتِ دايمًا بتدافعي عنه.»

توقفت سالي. هذه الجملة جاءت من المراهقة كاملة، لم تنضج معها.

قالت: «وأنت دايمًا عندك درج قديم تفتح منه الغيرة وقت ما تتزنق.»

أغلقا المكالمة بغضب.

لم يتحدثا ثلاثة أيام. لم يكن الصمت عقابًا متعمدًا، لكن كل واحد انتظر الآخر. زين كتب رسالة ولم يرسلها. سالي قدمت حلقتها الأولى في البرنامج المسائي، وعادت إلى البيت بعد الحادية عشرة، ووجدت كمال جالسًا مع فؤاد.

سألها كمال: «الساعة كام؟»

قال فؤاد قبل أن تجيب: «العربية وصلتها.»

نظر كمال إلى الساعة. قال: «الشغل ده هيفضل لحد إمتى؟»

أجابت سالي: «حلقتين في الأسبوع.»

ـ وبعد الجواز؟

ساد الصمت.

كان السؤال أول إعلان واضح أن كمال يفكر في الأمر بوصفه مشكلة قائمة.

قالت سالي: «بعد الجواز هيفضل شغلي برضه.»

ـ حتى لو زين شغله نوبات؟

ـ هنرتب حياتنا إحنا الاتنين.

قال كمال: «الترتيب على الورق سهل.»

لم ترد. دخلت بيتها.

سأل فؤاد صديقه: «إنت مالك؟»

ـ بخاف عليهم.

ـ الخوف عليهم مش معناه تختبرها كأنها داخلة وظيفة عندك.

ـ أنا ما اختبرتهاش.

ـ سألتها بعد الجواز كأن الشغل عيب لازم تدافع عنه.

قال كمال: «أنا شايف ابني هيشتغل ليل نهار، وهي كمان. مين هيبني البيت؟»

رد فؤاد: «هما. بطريقتهم.»

ـ وإحنا؟

خرجت الكلمة قبل أن يوقفها.

نظر فؤاد إليه. «إحنا إيه؟»

لم يجب كمال.

في الليلة الثالثة، اتصل زين بسالي. قال: «أنا آسف على الجملة.»

ـ أي جملة؟

ـ إنك دايمًا بتدافعي عنه. دي مش حقيقة، دي خوف قديم.

ـ وأنا آسفة إني حكيته خلافنا من غير ما أفكر إنت هتحس بإيه.

ـ مش بطلب ما تحكيش لحد.

ـ بس في حاجات تخصك معايا، مش من حقي أحكيها كلها.

تنفسا بهدوء. لم يسألا من المخطئ أكثر.

قالت سالي: «كمال سألني هشتغل بعد الجواز ولا لأ.»

سكت زين.

ـ قلت له آه.

ـ عمل إيه؟

ـ حسّسني إن السؤال امتحان.

قال زين: «هتكلم معاه لما أرجع.»

ـ ما تتكلمش بالنيابة عني. اتكلم عن موقفك.

ـ موقفي إن شغلك جزء منك.

ـ حتى لما يضايقك؟

ـ خصوصًا لما يضايقني. عشان يبقى لازم أتعامل مع نفسي، مش أمحيه.

ابتسمت، لكنه لم يرها.

قالت: «الخدمة قربت تخلص.»

ـ ستة أسابيع.

ـ ما نعدش الأيام.

ـ أنا بعدّها.

ـ عدها لوحدك.

ضحكا.

الفصل الخمسون

اليوم الذي انتهت فيه الخدمة

انتهت الخدمة في صباح عادي.

لم تعزف موسيقى، ولم يشعر زين بالتحول في اللحظة التي تسلم فيها أوراقه. خرج من البوابة يحمل حقيبة أخف مما دخل بها، ووقف في الشمس لا يعرف ماذا يفعل بالحرية المفاجئة.

كان قد تخيل هذه اللحظة مرات: يتصل بسالي، ثم بكمال، أو العكس؛ يركب أول سيارة؛ يشتري قهوة؛ يخلع الحذاء الثقيل. لكنه وجد نفسه واقفًا مع زملائه يتبادلون العناوين والوعود التي يعرفون أن كثيرًا منها لن يُنفذ.

قال له النقيب عادل: «هترجع المستشفى؟»

ـ آه.

ـ قلب؟

ـ غالبًا.

ـ ما تقولش غالبًا بعد السنة دي. يا تختار يا تسيب غيرك يختار لك.

صافحه. «إنت هتبقى دكتور كويس لو ما حاولتش تنقذ كل الناس لوحدك.»

قال زين: «دي نصيحة طبية ولا شخصية؟»

ـ الاتنين مرض واحد.

ضحكا.

اتصل بكمال أولًا. رد من الرنة الأولى.

قال زين: «خلصت.»

لم يجب الأب ثانيتين. ثم قال: «حمد الله على السلامة يا ابني.»

ـ جاي.

ـ أنا هتحرك آخدك.

ـ ما تتحركش. هاجي بنفسي.

ـ معاك شنط.

ـ شنطة واحدة.

ـ الطريق زحمة.

ـ يا بابا.

سكت كمال. «مستنيك.»

اتصل بسالي. كانت على الهواء. ردت داليا وهمست: «قدامها عشر دقايق.»

قال: «قولي لها خلصت.»

أنهت سالي الحلقة قبل موعدها بدقيقة لأول مرة. خرجت من الاستوديو، واتصلت به وهي تمشي في الممر.

قالت: «إنت فين؟»

ـ بره.

ـ بره فين؟

ـ بره المكان كله.

وقفت. أغمضت عينيها. «حمد الله على السلامة.»

ـ هاجي البيت.

ـ أنا عندي اجتماع بعد نص ساعة.

ـ روحي.

ـ ممكن ألغيه.

ـ ما تلغيش.

ـ متأكد؟

ـ إحنا اتفقنا ما نستناش واقفين.

قالت: «بس أحيانًا الوقوف اختيار.»

ـ خلصي وتعالي. أنا مش مسافر بكرة.

وصل زين إلى العمارة قبلها. هذه المرة لم يكن في استقباله جمع كبير. كمال وفؤاد وليلى وريم كانوا عند المدخل، والسيدة وداد تنظر من بابها. عانقه كمال، ثم أخذ الحقيبة رغم اعتراضه.

قال: «نطلع.»

وقف زين لحظة ينظر إلى الواجهة. بدا رقم 12 أصغر مما كان في طفولته. الشجرة أمام العمارة كبرت، وبعض الشرفات أغلقت بالزجاج، وباب المدخل طُلي بلون جديد.

صعد الدرج ببطء. عند الطابق الثاني، كان باب فؤاد مفتوحًا ورائحة الطعام تخرج منه. عند الثالث، دخل بيته.

لم يشعر أنه عاد. شعر أنه وصل إلى مكان يعرفه ويحتاج أن يتعلمه من جديد.

وجد فوق سريره المعطف الأبيض مكويًا، وإلى جواره سماعة الطبيب. قال كمال: «المستشفى اتصلوا مرتين. عايزين يعرفوا هتبدأ إمتى.»

ـ هروح بعد يومين.

ـ يومين بس؟

ـ عايز ألحق التقديم.

ـ ما ترتاح أسبوع.

ـ ارتحت سنة من المستشفى.

قال كمال: «ما ارتحتش.»

نظر إليه زين. كانت الجملة أقرب إلى الاعتراف.

جلسا في الغرفة. قال الأب: «إنت ناوي تعمل إيه؟»

ـ أبدأ شغل، وأقدم في قسم القلب، وأشوف موضوع النيابة.

ـ والفلوس؟

ـ هتبقى قليلة في الأول.

ـ والسكن؟

ـ نتكلم فيه.

عرف كمال ما يقصده. نهض وأمسك الحقيبة الفارغة. «ارتاح النهارده.»

ـ يا بابا، اتفقنا بعد الجيش.

ـ ما أنا بقول لك ارتاح النهارده.

خرج قبل أن يتحول الحديث إلى قرار.

وصلت سالي بعد المغرب. دخلت شقة كمال من غير أن تطرق، كما كانت تفعل في طفولتها، ثم توقفت عند الباب حين رأته واقفًا في الصالة.

لم يكن يرتدي الزي العسكري. قميص عادي وبنطال قديم، لكن جسده بقي محتفظًا بطريقة الوقوف. ابتسم.

قالت: «خلص الاجتماع.»

ـ وأنا خلصت الجيش.

اقتربا. هذه المرة لم يتصافحا. عانقته أمام ليلى وريم. كان العناق قصيرًا، لكنه لم يعد سرًا.

نظر كمال من باب المطبخ. لم يقل شيئًا.

في العشاء، تحدث الجميع عن الخطوات المقبلة. فؤاد سأل عن العمل، وليلى عن الراحة، وريم عن الاحتفال. قالت سالي إنها ستأخذ إجازة في نهاية الأسبوع.

قال زين: «نطلع السطح.»

سأله فؤاد: «لسه السطح؟»

أجاب: «في حاجات ما بتترقاش.»

بعد العشاء، صعدا. كان الهواء باردًا، والعلبة في مكانها. جلسا قرب السور.

قالت سالي: «هتطلبني إمتى؟»

لم تتجمل بالسؤال، ولم تنتظر أن يبدأ هو المشهد.

قال: «بكرة هتكلم مع بابا.»

ـ وإنت جاهز لإيه بالضبط؟

ـ خطوبة. الجواز لما يكون عندنا دخل وسكن.

ـ ومدة الخطوبة؟

ـ سنة؟ يمكن أكتر حسب الشغل.

ـ أنا مش عايزة مدة مفتوحة.

ـ وأنا مش عايز أبيع لك رقمًا مش ضامنه.

فكرت. «نتفق على خطوات، مش تاريخ. شغل ثابت، خطة سكن، وموعد مراجعة كل ست شهور.»

ضحك. «حوّلتي الجواز لخطة إنتاج.»

ـ أحسن ما نحوله لشعر ونكتشف إن مفيش بيت.

أخرج القلم الفضي من جيبه. «رجع لك.»

أخذته هذه المرة. «خلصت المرحلة.»

ـ ولسه بتكتبي بالقلم العادي؟

ـ اتعودت عليه.

ـ طب ليه أديته لي؟

ـ عشان يرجع وهو شايل وقت مش بتاعي.

فتحت الدفتر الأسود، ووضعت القلم بين صفحاته.

قال زين: «أنا عايزك.»

ـ عارف.

ـ الجملة دي ما بقتش كفاية؟

ـ كفاية للحب. مش كفاية للجواز.

ـ عشان كده هنعمل الخطوات.

نظرت إلى شرفة الطابق الثالث، ثم إلى شقتها تحتها. «كمال مش جاهز.»

ـ وعدني نتكلم بعد الجيش.

ـ التأجيل مش وعد بالموافقة.

ـ عارف.

ـ إنت مستعد تسمع لا؟

توقف.

قال: «هيقول لي استنى.»

ـ ده مش جواب سؤالي.

نظر إلى العلبة داخل الشق. «لو قال لا، هعرف ليه.»

ـ ولو السبب ما أقنعكش؟

ـ أنا راجل بالغ.

قالت: «وأنا كمان. ما تخليش الخلاف بينك وبينه يتحول إلى قرار عن حياتي من غيري.»

ـ هنتكلم كلنا.

ـ ابدأ معاه. لكن ما توعدوش باسمي بحاجة ما اتفقناش عليها.

أومأ.

نزلا. عند باب شقتها، قال: «بكرة.»

أجابت: «بكرة نعرف إحنا واقفين فين.»

في الطابق الثالث، كان كمال مستيقظًا. سمع خطوات زين تدخل الغرفة، وظل ينظر إلى باب الصالة المغلق. عرف أن الصباح سيحمل الحديث الذي أجله سنة كاملة.

لم ينم جيدًا.

الفصل الحادي والخمسون

الرجل الذي كان يؤجل كلمة لا

استيقظ كمال قبل زين.

أعد الشاي، ثم غسله من غير أن يشربه. فتح الشرفة وأغلقها. نقل الجريدة من الطاولة إلى المقعد، ثم أعادها. كان البيت هادئًا، لكنه لم يشعر بالوحدة؛ شعر بأن كل شيء فيه ينتظر.

خرج زين من غرفته مرتديًا قميصًا داكنًا وبنطالًا عاديًا. لم يكن ذاهبًا إلى مكان، ومع ذلك بدا مستعدًا.

قال كمال: «فطرت؟»

ـ لسه.

ـ ناكل الأول.

جلسا إلى المائدة. وضع الأب الجبن والخبز والبيض. أكل زين قليلًا. لم يستطع أي منهما الاستمرار في الطقس العادي.

قال زين: «أنا عايز أروح لفؤاد النهارده.»

ـ رايح له كل يوم.

ـ عايز أروح رسمي.

قطع كمال قطعة خبز صغيرة. «إنت لسه راجع امبارح.»

ـ واتكلمنا قبل ما أدخل الجيش.

ـ اتكلمنا إننا نقعد حسب ظروفك.

ـ ظروفي واضحة. هبدأ شغل، وهقدم في القلب. الدخل قليل، بس عندي خطة. الخطوبة مش بكرة جواز.

ـ والخطوبة مسؤولية.

ـ عارف.

ـ والسكن؟

ـ ممكن نبدأ بإيجار قريب، أو نستنى لما أوفر مقدم شقة. هنتفق مع سالي وأهلها.

رفع كمال عينيه. «يعني اتفقتوا من غيري.»

ـ اتفقنا على اللي يخصنا. جاي آخد موافقتك وأدخل البيت من بابه.

ـ ولو أنا شايف إن الوقت غلط؟

ـ نتكلم في السبب والمدة.

ـ كل حاجة عندك بقت مدة وخطة.

ـ عشان كلمة بعدين فضلت سنة كاملة.

تصلب وجه كمال. «أنا ما عطلتكش. إنت كنت في الجيش.»

ـ وأنا دلوقتي خلصت.

نهض الأب وأخذ كوبه إلى الحوض. قال من ظهره: «ابدأ شغلك الأول.»

ـ هبدأ بعد يومين.

ـ استقر في القسم.

ـ قد إيه؟

ـ لما تبقى واقف على رجلك.

ـ يعني قد إيه؟ سنة؟ اتنين؟ خمس؟

استدار كمال. «الجواز مش سباق.»

ـ وأنا مش بجري. أنا بطلب كلمة واضحة.

كانت الكلمة التي خافها كمال واقفة بينهما. استطاع أن يعود إلى التأجيل: بعد النيابة، بعد التخصص، بعد السكن. لكنه رأى في وجه ابنه أن الممر انتهى.

قال: «أنا مش موافق.»

لم يتحرك زين.

سمع صوت سيارة في الشارع، وبائعًا ينادي، وماءً يسقط من الصنبور الذي لم يغلقه كمال جيدًا.

قال زين: «على الوقت؟»

ـ على الجواز ده.

ـ من سالي؟

ـ آه.

خرج الاسم كأنه شيء لم يقله من قبل. جلس كمال، لكنه لم ينظر إلى ابنه.

قال زين: «ليه؟»

ـ لأنكم مش شايفين غير إنكم بتحبوا بعض.

ـ وإنت شايف إيه؟

ـ شايف اتنين اتربوا مع بعض لحد ما بقوا فاكرين إن القرب قدر. شايفك بعد موت أمك مسكت في البيت وفي سالي عشان ما تقعش. وشايفها بعد الحادث مسكت فيك عشان كنت موجود. الامتنان والخوف والعِشرة ممكن يلبسوا شكل الحب.

كانت الجمل جاهزة أكثر مما ينبغي. فكر فيها كمال ليالي طويلة.

قال زين: «إحنا حبينا بعض قبل موت ماما وقبل الحادث.»

ـ كنتوا أطفال.

ـ وكبرنا واخترنا بعض.

ـ اخترتوا إيه؟ إنت داخل شغل ما فيهوش يوم ثابت، وهي داخلة شغل ليل ونهار. كل واحد فيكم عايز يثبت نفسه. هتعملوا بيت إمتى؟

ـ دي مشكلتنا وإحنا عارفينها.

ـ لأ، مش عارفين. إنت شفت أمك وهي بتشيل البيت وأنا مسافر؟ شفت تعبها كله؟ إنت فاكر الحب عوّضها؟

ـ إنت ندمان إنك اتجوزتها؟

رفع كمال رأسه بغضب. «ما تقولش كلام سخيف.»

ـ إنت اللي بتستخدم حياتكم دليل إن حياتنا هتفشل.

ـ أنا بقول لك إن النية مش كفاية.

ـ وعندنا خطة.

ـ خطة! سالي قالت لك خطة؟ كل كلامكم بقى شغل ومواعيد ومراجعة ست شهور. البيت مش مشروع.

ـ والبيت مش سجن لحد يفضل فيه عشان يطمنك.

عرف زين أنه تجاوز، لكنه لم يسحب الجملة.

شحب وجه كمال. «أنا حبستك؟»

ـ كل مرة أتحرك، تمرض أو تخاف أو تقول لي البيت هيفضى. وبعدها تقول إنك مش عايز تعطلني.

ـ أنا مرضت بإرادتي؟

ـ لأ. بس بتستخدم خوفك كأنه حجة ضد حياتي.

نهض كمال. «اخرج من قدامي لو هتتكلم بالطريقة دي.»

ـ هخرج. بس جاوبني: لو كان عندي شقة ومرتب، كنت هتوافق؟

تردد الأب.

قال زين: «يعني المشكلة مش الوقت.»

ـ المشكلة إن الجواز ده غلط.

ـ عشان أنا هسيب البيت؟

ـ عشان سالي مش مناسبة لك.

وصلت الجملة إلى زين كصفعة.

قال ببطء: «سالي اللي ربيتها قدامك، واللي وقفت معانا بعد ماما، واللي إنت بتعتبرها بنتك... فجأة مش مناسبة؟»

ـ بنتي حاجة، ومراتك حاجة تانية.

ـ إيه اللي ناقصها؟

ـ ما حولش الكلام لإهانة ليها. هي بنت محترمة وناجحة. بس إنتوا شبه بعض في العناد والطموح. لما تتعبوا، كل واحد هيطلب من التاني مساحة مش عنده. إنت محتاج بيت هادي، وحد يقدر يعيش مع شغلك.

ـ يعني واحدة تستناني.

ـ واحدة تفهم طبيعة حياتك.

ـ وسالي ما تفهمش؟

ـ سالي عندها حياة بنفس الصعوبة.

قال زين: «وده سبب إني بحبها، مش سبب إني أرفضها.»

ـ الحب مش كل حاجة.

ـ والخوف مش حكمة.

سكتا.

كانت صورة نادية فوق الثلاجة بينهما. نظر إليها كمال، ثم قال بصوت أخفض: «أنا عارف إني خايف. بس خوفي مش كله أناني. أنا شايفكم داخلين على تعب.»

ـ من حقك تحذرني. مش من حقك تختار عني.

ـ ومن حقك تعمل اللي إنت عايزه. بس من غير موافقتي.

لم يتوقع زين أن تصل الجملة إلى هذا الحد. قال: «يعني إيه؟»

ـ يعني أنا مش هاروح معاك، ومش هشارك في خطوبة أنا شايفها غلط.

ـ وفؤاد صاحب عمرك؟

ـ فؤاد هيفهم.

ـ لأ. مش هيفهم. وأنا مش فاهم.

دخل زين غرفته وأغلق الباب. لم يضربه. بقي واقفًا خلفه، يتنفس بسرعة. أخرج القلم من جيبه، ثم تذكر أنه أعاده إلى سالي. كان الدفتر أمامه، لكن الصفحة ظلت بيضاء.

في الصالة، جلس كمال وحده. ظن أنه بعد أن يقول «لا» سيشعر بالراحة لأن الكلمة انتهت. لكنه شعر أن البيت اتسع فجأة أكثر مما يحتمل.

رن الهاتف. كان فؤاد يدعوهما إلى الغداء.

قال كمال: «مش هنعرف نجي.»

ـ ليه؟

ـ تعبان شوية.

نظر زين من خلف الباب. عرف أن التأجيل بدأ يتحول إلى كذب.

فتح غرفته، وخرج.

قال: «أنا نازل لفؤاد.»

وقف كمال. «هتقول له إيه؟»

ـ الحقيقة.

ـ استنى لما نهدا.

ـ إحنا استنينا سنة.

ـ ما تدخلش البيتين في خناقة.

ـ البيتين دخلوا من أول ما وعدتني بحاجة إنت ما كنتش ناوي تعملها.

ـ أنا ما وعدتش بالموافقة.

ـ وعدتني بكلام واضح بعد الجيش. وده الكلام الواضح.

خرج زين.

نزل السلم الذي قطعه آلاف المرات. عند الطابق الثاني، وجد الباب مفتوحًا ورائحة الغداء. كانت سالي في الداخل تضحك على شيء قاله هاني. حين رأته، عرفت من وجهه أن «بكرة» جاء بإجابة لم تكن تريدها.

قال فؤاد: «اتفضل يا دكتور. أبوك فين؟»

أجاب زين: «عايز أتكلم معاكم.»

اختفت الضحكة من الغرفة.

الفصل الثاني والخمسون

الرفض الذي سمعه بيتان

جلس زين في المقعد القريب من الباب. بقي واقفًا لحظة قبل أن يجلس، كأنه لا يريد أن يستقر في الجملة التي يحملها.

كانت ليلى تضع الأطباق فوق المائدة. توقفت، ومسحت يديها في المريلة. جلس فؤاد قبالته، بينما بقيت سالي عند طرف الصالة. لم تطلب منه أن يبدأ وحدهما، ولم تحاول حمايته من أهلها.

قال فؤاد: «خير؟»

نظر زين إلى سالي، ثم إلى أبيها. «اتكلمت مع بابا.»

قالت سالي: «وقال لا.»

لم يكن سؤالًا.

أومأ.

وضع فؤاد يده فوق ذراع المقعد. «لا على إيه بالضبط؟»

ـ على الجواز. علينا إحنا.

قالت ليلى: «كمال قال كده؟»

ـ آه.

نهض فؤاد فورًا. «أنا هطلع له.»

قالت سالي: «استنى يا بابا.»

ـ أستنى إيه؟ بقاله سنة بيقول بعد الجيش.

قال زين: «هو بيقول إنه ما وعدش بالموافقة.»

ضحك فؤاد ضحكة قصيرة بلا فرح. «الكلام له معنى عند الناس.»

تدخلت ليلى: «اسمعوا السبب الأول.»

حكى زين. حاول ألا يحول كمال إلى رجل أناني فقط، لكنه لم يخفِ الجمل التي قالها: العِشرة التي تشبه الحب، والعملان المتعبان، والبيت الهادئ، وعدم المناسبة.

حين وصل إلى عبارة «بنتي حاجة ومراتك حاجة»، أغلقت ليلى عينيها. أما فؤاد فنهض مرة أخرى.

قال: «أنا هطلع.»

وقفت سالي أمام الباب. «لا.»

ـ ابعدي يا سالي.

ـ لو طلعت له دلوقتي، الموضوع هيبقى كرامة بينك وبينه. وأنا مش عايزة حياتي تتحول لخناقة بين صاحبين.

ـ هو أهانك.

ـ هو خايف. وقال كلام مؤذٍ. الاتنين صح.

قال فؤاد: «إنتِ بتدافعي عنه؟»

ـ لأ. بحاول ما نخليش غضبنا يقرر بدلنا.

نظر إليها زين. كانت أهدأ منه، وهذا جرحه للحظة. أراد أن يرى فيها الانهيار نفسه، كي يثبت أن ما حدث كبير. ثم خجل من رغبته.

قالت له: «إنت عايز تعمل إيه؟»

ـ عايزك.

ـ دي إجابة عن إحساسك. عايز تعمل إيه؟

ـ أتقدم لك حتى لو هو ما جاش.

سكت فؤاد وليلى.

قالت سالي: «وتبدأ حياتنا بخلاف مع أبوك؟»

ـ هو اللي اختار الخلاف.

ـ وإحنا هنختار إيه؟

ـ ما نستناش موافقة مش هتيجي.

قال فؤاد: «أنا موافق عليك يا زين. وقلت لك من الأول. بس ما ينفعش أتجاهل كمال كأنه شخص غريب.»

ـ وأنا ما ينفعش أعيش تحت حقه في الرفض طول عمري.

ـ محدش قال طول عمرك.

ضحكت سالي بمرارة. «بدأت كلمة بعدين تاني.»

صمتوا.

دخل هاني من غرفته، فهم أن الكلام خاص، فعاد وأغلق الباب. كانت المائدة جاهزة، والطعام يبرد.

قالت ليلى: «نطلع نتكلم معاه كلنا بهدوء.»

قالت سالي: «مش النهارده.»

نظر إليها زين. «ليه؟»

ـ عشان إنت نازل من خناقة، وبابا طالع على خناقة، وأنا مش هقدر أتكلم وأنا بحاول أمنعكم من كسر بعض.

ـ يعني نستنى؟

ـ يومين. مش سنة.

قال فؤاد: «أنا مش ضامن يومين.»

ـ عشاني.

جلس الأب مرة أخرى.

صعد زين بعد قليل. لم يأكل. عند الطابق الثالث، وجد كمال واقفًا في المدخل. كان قد سمع جزءًا من الأصوات في الأسفل، أو تخيلها.

قال: «قلت لهم؟»

ـ آه.

ـ وفؤاد قال إيه؟

ـ كان طالع لك. سالي منعته.

خفض كمال عينيه. «كويس.»

ـ كويس؟

ـ قصدي كويس إنهم ما اتخانقوش.

ـ إنت خايف على صداقتك أكتر من حياتنا؟

ـ ما تحطش كل حاجة ضد بعض.

دخل زين غرفته. في تلك الليلة لم ينم أي بيت جيدًا.

في الصباح، طرق فؤاد باب كمال.

فتح له بعد وقت طويل. دخل الصديقان إلى الصالة. لم تكن هناك ضيافة. جلس فؤاد في المقعد الذي جلس فيه آلاف المرات.

قال: «أنا جاي أسألك، مش أتشاجر.»

أجاب كمال: «اتفضل.»

ـ بنتي فيها إيه؟

ـ مفيهاش حاجة.

ـ يبقى ابنك فيه إيه؟

ـ مفيهوش حاجة.

ـ يبقى إحنا بنتكلم في إيه؟

تنهد كمال. أعاد الأسباب نفسها، لكن أمام فؤاد بدت أقل صلابة. قال إن العملين لا يتركان بيتًا، وإن زين يحتاج سنوات، وإن سالي تستحق رجلًا حاضرًا، وإنهما متعلقان بتاريخ أكثر من المستقبل.

قال فؤاد: «إنت بتقرر نيابة عن الاتنين إنهم مش فاهمين نفسهم.»

ـ وأنا أبو زين. من حقي أشوف اللي هو مش شايفه.

ـ تشوف، آه. تمنع؟

ـ أنا ما منعتهوش. قلت له مش هشارك.

ـ إنت عارف إن عدم مشاركتك منع.

سكت كمال.

قال فؤاد: «قول لي الحقيقة. إنت خايف يسيبك.»

رفع كمال رأسه. «ما تدخلش في نفسي.»

ـ أنا صاحبك من قبل ما يبقى عندك ابن. شفتك بعد نادية. شفتك لما كريم اتجوز، ولما زين دخل الجيش. كل ما البيت يفضى، تمسك في سبب محترم.

ـ وأنا شايف ابني داخل على جواز غلط.

ـ يمكن. بس حتى لو غلط، مش كل غلط نمنعه. أوقات نحذر ونقف جنبهم.

ـ وإنت موافق بسهولة عشان عايز تطمن على بنتك.

تلقى فؤاد الاتهام، ثم قال: «أكيد عايز أطمن عليها. ويمكن أنا كمان عندي خوف بيخليني أشوف زين أمان. عشان كده سألتها هي، مش قررت عنها.»

قال كمال: «سالي عنيدة.»

ـ وزين عنيد.

ـ هيتعبوا بعض.

ـ وإحنا ما تعبناش بعض؟

ابتسم كمال رغمًا عنه، ثم اختفت الابتسامة.

قال فؤاد: «أنا مش هخسر صداقتنا عشان القرار ده. بس مش هتطلب مني أقول لبنتي تستنى لحد ما خوفك يهدى. الخوف ما بيهدأش لو بنطعمه.»

نهض.

عند الباب، قال كمال: «أنا محتاج وقت.»

أجابه فؤاد: «إنت أخدت وقت. دلوقتي هما اللي محتاجين يعرفوا هيعملوا إيه.»

نزل.

بعد يومين، اجتمعت الأسرتان في شقة فؤاد. جلس كمال إلى جوار زين، لكن المسافة بينهما بدت أكبر من السلم كله. قالت سالي إنها تريد سماع كمال مباشرة.

كرر موقفه بهدوء. لم يهِنها، ولم يصف عملها بالعائق. قال إنه لا يرى الزواج مناسبًا الآن ولا في المستقبل القريب، وإنه لن يمنح موافقته على خطوبة يعتقد أنها ستؤذي الاثنين.

سألته سالي: «لو فضلنا متمسكين بعد سنة؟»

قال: «ما أقدرش أوعدك إن رأيي يتغير.»

ـ ولو اتغيرت الظروف؟

ـ المشكلة مش ظروف بس.

قالت: «المشكلة إنك مش مصدق إننا اخترنا بعض.»

لم يجب.

نظر زين إلى أبيه. «أنا هتقدم لها من غيرك.»

قال كمال: «ده قرارك.»

قالت سالي بسرعة: «لا.»

التفت الجميع إليها.

كان وجهها شاحبًا، لكن صوتها ثابت. «مش هتقدم لي وإنت خارج من بيتك غاضب، ولا وأنا داخلة بيتكم كسبب قطيعة. أنا مش جائزة تثبت بيها إنك مستقل.»

قال زين: «أنا مش بعمل كده.»

ـ جزء منك بيعمل.

ـ وإنتِ عايزة إيه؟ نستسلم؟

ـ عايزة وقت قصير نفكر إحنا، بعيدًا عن ضغط البيتين.

ـ الوقت هو اللي جابنا هنا.

ـ لأ. التأجيل من غير قرار هو اللي جابنا هنا. أنا بطلب قرار واعي.

قال فؤاد: «قد إيه؟»

ـ شهر.

نظر زين إليها كما لو أنها طلبت عامًا. «شهر من غير إيه؟»

ـ من غير كلام عن خطوبة، ومن غير محاولات لإقناع كمال. وإحنا نتكلم عن اللي نقدر نتحمله فعلًا.

ـ وإنتِ شاكّة فينا؟

ـ أنا شاكّة في الطريقة اللي هنبدأ بيها. وده حقنا قبل الجواز.

وقف زين. «أنا مش محتاج شهر عشان أعرف إني عايزك.»

قالت: «وأنا محتاجة أعرف إنك عايز حياة معايا، مش معركة عشاني.»

لم يجد ردًا.

غادر الاجتماع. صعد إلى شقته، وجمع بعض الملابس في حقيبة صغيرة. سأله كمال إلى أين يذهب.

قال: «عند كريم كام يوم.»

ـ عشان ما تشوفنيش؟

ـ عشان أعرف أفكر من غير ما كل باب في العمارة يبقى موقف.

خرج.

سمعت سالي باب العمارة يغلق. لم تنزل خلفه.

وصل زين إلى بيت كريم بعد منتصف المساء. فتح له أخوه الباب بملابس البيت، ونظر إلى الحقيبة الصغيرة من غير سؤال. أشار إلى غرفة الضيوف، ثم وضع إبريق الماء فوق النار.

قال كريم: «خناقة كبيرة؟»

ـ بابا رفض.

ـ عارف. كلّمني.

رفع زين رأسه. «قال لك إيه؟»

ـ قال إنك بتسيب البيت عشان تعاقبه.

ـ وأنا قلت لك إيه؟

ـ لسه ما قلتش.

جلسا في المطبخ. لم يحاول كريم الدفاع عن أبيه، ولم يشجع زين على تحديه. قال بعد صمت: «أنا اتجوزت وأنا عايز أخرج من البيت وأثبت إني كبير. الحمد لله إن مراتي ما كانتش مجرد وسيلة. بس أول سنة دفعت تمن إن النية كانت فيها حاجتين مع بعض.»

قال زين: «أنا مش بتجوز عشان أخرج.»

ـ عارف. بس دلوقتي إنت غاضب، والغضب بيخلّي القرار الصح يطلع من سبب غلط.

ـ وسالي طلبت شهر.

ـ كويس.

ـ كله شايف الانتظار حكمة.

ـ لا. أنا شايفه اختبار للسبب. لو بعد شهر لسه عايزها من غير ما يكون هدفك تكسب على بابا، يبقى عايزها فعلًا. ولو هي لسه عايزاك من غير ما تعتبر نفسها بتثبت له إنه غلط، يبقى عندكم بداية.

نظر زين إلى كوب الشاي. للمرة الأولى منذ الصباح، شعر أن أحدًا لا يطلب منه أن يختار طرفًا.

في تلك الليلة، فتحت سالي الدفتر الأسود، وأخرجت القلم الفضي. كتبت:

«أصعب ما في الرفض أنه لا يقف بين شخصين فقط. يدخل كل غرفة كانا يتخيلانها، ويطلب منهما أن يثبتا أن البيت لم يكن مجرد رد فعل.»

توقفت، ثم أضافت:

«طلبت شهرًا. أخاف أن يثبت الشهر أننا أقوى مما ظنوا، وأخاف أكثر أن يثبت أننا كنا نعرف الطريق فقط لأننا مشيناه دائمًا معًا.»

أغلقت الدفتر.

في الطابق الثالث، دخل كمال غرفة زين بعد رحيله. كانت الحقيبة الكبيرة ما تزال فوق الدولاب، والمعطف الأبيض في مكانه. جلس على السرير، ومد يده إلى الوسادة، ثم سحبها.

الفصل الثالث والخمسون

شهر بلا سلام

في الأيام الثلاثة الأولى بعد الاجتماع، اكتشف زين أن الابتعاد عن العمارة لا يعني الخروج منها.

كان ينام في غرفة الضيوف ببيت كريم، ويستيقظ على أصوات لا يعرف ترتيبها: باب الحمام، خطوات زوجة أخيه في المطبخ، نشرة الأخبار الصباحية، وطفل الجيران الذي يبكي في موعد ثابت. كل شيء في الشقة يؤدي وظيفته من غير أن يحتاج إليه، وهذا ما كان يريده حين حمل حقيبته، وما أزعجه بعد أن وصل.

في البيت القديم، كان يعرف من وقع الخطوة مَن يصعد السلم. يميّز فتح باب فؤاد من فتح باب أبيه، ويعرف متى تضع ليلى صينية فوق الرخامة، ومتى تتوقف سالي عند الطابق الثالث قبل أن تكمل النزول. أما هنا، فلم تكن الأصوات تحمل أسماء.

خرج إلى المستشفى قبل أن يستيقظ كريم. ترك له ورقة فوق المائدة: «نوبة طويلة. ما تستنانيش.»

في الطريق، فتح هاتفه، ثم أغلقه. اتفق مع سالي على شهر، ولم يتفقا على تفاصيله. هل يعني الشهر ألا يتكلما؟ أم ألا يتكلما عن الزواج؟ هل يحق له أن يسألها إن وصلت إلى العمل؟ هل يحق لها أن تخبره أن حلقتها تغير موعدها؟

كتب رسالة قصيرة: «وصلت المستشفى.»

ظل ينظر إليها قبل أن يمسحها.

في الطابق الثاني من العمارة، كانت سالي تفعل الشيء نفسه.

كتبت: «ماما بتقول إنك عند كريم. أتمنى تكون كويس.» ثم حذفتها، لا لأنها لا تتمنى، بل لأنها خافت أن يبدأ الشهر من أول ساعة في التحول إلى نسخة أخرى من الانتظار نفسه.

لم تتوقف عن استخدام السلم، لكنها غيرت مواعيدها.

خرجت إلى العمل قبل أن يفتح كمال بابه، وعادت بعد أن تطفأ إضاءة الطابق الثالث. لم تكن تخشى رؤيته بقدر ما تخشى أن ترى أثر زين في وجهه، فتغضب نيابة عن شخص طلب منها ألا تحوّل الحب إلى معركة.

في اليوم الرابع، صعدت ليلى إلى كمال بطبق من الأرز واللحم. فتح الباب، وأخبرها أنه طبخ لنفسه.

قالت وهي تنظر إلى المطبخ: «ريحة الطبخ مش واصلة.»

أجاب: «عملت بيض.»

ـ البيض مش طبخ.

ـ بالنسبالي إنجاز.

دخلت من غير أن تنتظر دعوة. وضعت الطبق في الثلاجة، ثم جلست في الصالة. لم تسأله إن كان نادمًا. قالت: «فؤاد متضايق منك، بس مش عايز يقطع كلامه معاك.»

ـ وأنا مش عايز.

ـ وسالي ما قالتش كلمة وحشة عليك.

خفض عينيه. «ده طبعها.»

ـ لأ. ده مجهودها.

نظر إليها.

قالت: «السكوت مش دايمًا طبع. أوقات بيبقى شغل تقيل الواحد بيعمله عشان ما يهدش حاجة.»

لم يرد. سأل عن ضغط فؤاد، وعن ريم، ثم وقف ليشير إلى أن الزيارة انتهت. عند الباب، قالت ليلى: «إنت قلت إنك محتاج وقت. ما تحولش الوقت لعقاب ليهم.»

أغلق الباب بعد خروجها. ذهب إلى غرفة زين وفتح النافذة. دخل هواء بارد حرك طرف الستارة. كان الغياب في اليوم الأول صدمة، ثم بدأ يتحول إلى نظام: كوب واحد على المائدة، مفتاح واحد عند الباب، ودواء يتذكره أو ينساه وحده.

في المستشفى، لم يمنح العمل زين فرصة كافية ليغضب. بدأ فترة تدريب في قسم جراحة القلب، تحت إشراف الدكتور صفوت خطاب، رجل قصير لا يرفع صوته إلا حين يرى خطأ يمكن منعه.

في أول جولة، سأل زين عن تحليل لم يُطلب في موعده. قال الطبيب المقيم إن المعمل تأخر. فتح صفوت الملف، ووجد أن الطلب نفسه كُتب بعد الموعد.

قال: «المعمل ما بيتحاسبش على حاجة إحنا ما طلبناهاش.»

ثم نظر إلى الفريق كله. «التعب مش عذر نخبي وراه تقصير. لو ما نمتوش قولوا. لو مش قادرين اطلبوا مساعدة. بس ما تغيروش اسم الخطأ.»

حفظ زين الجملة. في المساء، حين جلس وحده في غرفة الأطباء، فكر في كلامه مع أبيه. هل كان يسمي خوف كمال سيطرة فقط، لأنه لا يريد أن يرى الجزء الذي يشبه الحب؟ وهل كان كمال يسمي خوفه حكمة، لأنه لا يريد أن يعترف بوحدته؟

فتح دفتره وكتب: «تغيير اسم الشيء لا يغير أثره.»

توقف، ثم أضاف: «لكن معرفة اسمه لا تكفي لإصلاحه.»

مر أسبوع من دون اتصال مباشر بينه وبين سالي.

عرف أخبارها من الآخرين رغمًا عنه. قالت له ريم إن سالي ستقدم حلقة أسبوعية جديدة. أخبره كريم أن فؤاد جاء إلى مكتبه في شأن يخص التأمين، وكان متعبًا لكنه بخير. قال كمال في مكالمة قصيرة إن «الناس تحت كويسين»، كأن كلمة الناس تستطيع أن تخفي اسمًا واحدًا.

أما سالي، فعرفت أن زين بدأ تدريب القلب من داليا، التي سمعت الخبر من سامر حين جاء إلى الإذاعة لمقابلة شخص يعرفه. لم تسأل سامر عن التفاصيل. قالت فقط: «كويس.»

نظر إليها سامر طويلًا. «إنتوا متخاصمين؟»

ـ لأ.

ـ دي إجابة ناس متخاصمة.

ـ دي إجابة ناس عندها موضوع مش عايزة تدخّل فيه حد.

أومأ. لم يعد يحاول أن يصبح وسيطًا. تعلم متأخرًا أن القرب من شخصين لا يمنحه حق إدارة المسافة بينهما.

في نهاية الأسبوع الثاني، عاد زين إلى العمارة ليأخذ بعض الكتب. اختار وقت الظهيرة، حين تكون سالي في العمل وفؤاد في الشركة. فتح له كمال، ثم ابتعد عن الباب.

دخل زين إلى غرفته. لم تكن الأشياء في مواضعها تمامًا. رتب كمال الكتب، وغسل الكوب، ووضع المعطف الأبيض في كيس بلاستيكي حتى لا يجمع الغبار.

قال من خلفه: «كنت هكلمك أقول لك تعالى خده.»

ـ ماشي.

ـ هتفضل عند كريم الشهر كله؟

ـ مش عارف.

ـ البيت بيتك.

نظر زين إليه. «بس القرار قرارك.»

قال كمال: «مش كل مرة هنرجع لنفس الكلام.»

ـ إحنا ما خلصناهوش عشان نرجع له.

سكت الاثنان.

جمع زين كتابين وسماعة الطبيب. عند الباب، قال كمال: «أنا ما طردتكش.»

أجابه: «وأنا ما قلتش إنك طردتني.»

ـ بس بتتصرف كده.

ـ أنا خرجت عشان ما أقولش حاجات أندم عليها.

قال كمال بصوت خافت: «وأنا قلت حاجات؟»

تردد زين. «قلت لا. والباقي كله أسباب حوالين الكلمة.»

نزل السلم. عند الطابق الثاني، فتح باب شقة فؤاد فجأة. كانت ليلى تحمل كيس قمامة. توقفت حين رأته، ثم ابتسمت ابتسامة لم تعرف أين تضعها.

قالت: «حمد لله على السلامة.»

ـ الله يسلمك يا طنط.

ـ مش هتدخل؟

نظر إلى باب الشقة المفتوح. رأى طرف المرآة القديمة، وصورة أحمد الصغيرة فوق المنضدة، وكرسي فؤاد. لم ير سالي.

قال: «ورايا شغل.»

أومأت. «خلي بالك من نفسك.»

خرج. لم يسأل عنها، ولم تقل إنها في الاستوديو. حين عادت سالي مساء، أخبرتها ليلى أنه جاء.

توقفت وهي تخلع حذاءها. «دخل؟»

ـ لأ.

ـ سأل عليا؟

ترددت الأم نصف ثانية، وكانت كافية.

قالت سالي: «كويس.»

دخلت غرفتها وأغلقت الباب. لم يكن في عدم سؤاله إهانة، لكنها شعرت به كمساحة باردة. فتحت الدفتر الأسود، ثم لم تكتب. للمرة الأولى، خافت أن يتحول الشهر من اختبار إلى تدريب على الغياب.

في الليلة نفسها، جلس زين في بيت كريم يحمل هاتفه. عرف أن سالي عادت من العمل من ضوء شرفتها الذي تخيله، لا الذي رآه. كتب اسمها في خانة الاتصال، ثم ضغط زر الإغلاق.

الفصل الرابع والخمسون

ما يفعله الصمت في الأماكن الصغيرة

لم يكن الصمت بين زين وسالي كاملًا. كان له وكلاء.

تصل رسالة من ريم تسأل سالي عن موعد برنامجها، ثم تضيف من غير مناسبة أن زين يعمل ليلًا. يتصل فؤاد بكريم في شأن عائلي، ويسأله في النهاية إن كان أخوه يأكل. تخبر ليلى كمال أن سالي نامت متأخرة بعد حلقة صعبة، فيرد بأن السهر «مش كويس للصحة»، ثم يسكت حين تدرك أنه ما زال يتابعها كابنة للبيت حتى وهو يمنعها من دخوله زوجة.

حتى سامر صار يحمل أخبارًا لا يريد حملها. رآه زين في كافتيريا المستشفى بعد زيارة قريب له. جلس أمامه وسأله إن كان يستطيع شرب القهوة معه من غير أن يتحول إلى مندوب مفاوضات.

قال زين: «اشرب.»

طلب سامر كوبًا، ثم قال: «أنا مش هسألك على سالي.»

ـ شكرًا.

ـ بس هسألك عليك.

ـ أنا كويس.

ضحك سامر. «واضح إن الشهر ده عامل تخفيض على الجملة دي.»

نظر زين إلى الممر. كان يرتدي ملابس العمليات، وعلى جبينه أثر غطاء الرأس. قال: «أنا مش عارف المفروض أثبت إيه.»

ـ لمين؟

ـ لنفسي، لها، لأبويا. لو رجعت أكلمه يبقى أنا ما احترمتش الشهر. لو ما كلمتهاش يمكن تحس إني قدرت أعيش عادي.

قال سامر: «ما هي أكيد عارفة إنك بتعيش. الناس ما بتموتش من الصمت في شهر.»

ـ أوقات اللي بيموت مش الناس.

حرك سامر الملعقة. «أنا زمان كنت فاكر إن القرب بطولة. كل ما أقرب أكتر أبقى كسبت. بعدين عرفت إن في قرب بيبقى اقتحام، وفي بعد بيبقى عقاب. يمكن المطلوب مساحة مش مسابقة.»

رفع زين عينيه إليه. «إنت بقيت حكيم إمتى؟»

ـ بعد ما دفعت رسوم غباء كفاية.

لم يقل سامر إن سالي تبدو متعبة، ولم يقل لها لاحقًا إن زين فقد وزنًا. كانت هذه أول مرة يحمي فيها علاقتهما بالامتناع، لا بالتدخل.

في العمارة، صار كمال ينزل إلى شقة فؤاد أقل من قبل. ليس لأن فؤاد منعه، بل لأن الجلوس أمامه يجعل أي حديث عن الأخبار أو الأسعار يبدو كغطاء شفاف فوق السؤال الحقيقي.

ذات مساء، وجده فؤاد عند مدخل العمارة يحمل كيس دواء. قال: «الضغط عامل إيه؟»

ـ تمام.

ـ رحت للدكتور؟

ـ زين حجز لي، ورحت مع كريم.

ـ كويس.

وقفا أمام المصعد المعطل منذ أسبوع. قال فؤاد: «نطلع؟»

قال كمال: «اتفضل.»

صعدا السلم ببطء. عند الطابق الثاني، توقف فؤاد وفتح بابه. قال: «اشرب شاي.»

تردد كمال، ثم دخل.

كانت سالي في الاستوديو. جلست ليلى معهما دقائق، ثم تركتهما. سأل فؤاد عن المستشفى، وسأل كمال عن حلقة سالي الجديدة. أجاب كل واحد بقدر ما يعرف، ثم ضحكا من غرابة أن يتبادلا أخبار أبنائهما وهما يسكنان فوق بعضهما.

قال فؤاد: «إحنا حولناهم لدولتين وإحنا سفارات.»

أجاب كمال: «هما اللي طلبوا الشهر.»

ـ سالي طلبته عشان تهدي النار، مش عشان تفتح حدود.

ـ وزين سايب البيت.

ـ عشان ما يضغطش عليك.

قال كمال: «أو عشان يضغط بطريقة تانية.»

نظر إليه فؤاد. «إنت بتفسر كل حركة ضده.»

ـ وإنت بتفسر كل حركة لصالحهم.

ـ يمكن عشان أنا مش خايف منهم.

شد كمال أصابعه حول الكوب. «أنا مش خايف منهم.»

ـ إنت خايف من اللي بعدهم.

لم يسأله كمال ماذا يقصد. كان يعرف.

في عملها، لم يكن لدى سالي ترف الصمت. برنامجها الجديد كان يُبث على الهواء مساء الخميس، ويعتمد على رسائل المستمعين ومكالماتهم. اختارت له اسم «بين سطرين»، واقترحت أن يتناول ما يخفيه الناس داخل الرسائل العادية: طلب توظيف يخفي خوفًا، خطاب اعتذار لا يقول سبب الندم، أو رسالة ابن إلى أبيه تبدأ بالسؤال عن الدواء وتنتهي قبل السؤال الحقيقي.

قال رئيس القسم، الأستاذ نجيب، إن الفكرة «أدبية أكثر من اللازم»، لكنه منحها أربع حلقات تجريبية.

في الحلقة الثانية، اتصلت امرأة اسمها منى. قالت إنها تكتب لابنتها المقيمة خارج مصر كل أسبوع، ولا تذكر في أي رسالة أنها باعت جزءًا من ذهبها لتسدد ديون العلاج.

سألتها سالي: «ليه ما تقوليش؟»

قالت المرأة: «عشان ما ترجعش عشاني وتضيع حياتها.»

ـ وهي لو عرفت بعدين؟

ـ هتزعل.

ـ ومن حقها تعرف؟

صمتت المرأة. ثم قالت: «مش عارفة. الأم ساعات بتعتبر الخوف حق ملكية.»

بقيت الجملة في الاستوديو بعد انتهاء المكالمة.

نظرت داليا إلى سالي من خلف الزجاج. عرفت أن الكلام أصاب مكانًا آخر. أكملت سالي الحلقة بهدوء، لكنها حين خرجت، دخلت الحمام وظلت أمام المرآة دقائق.

«الخوف حق ملكية.»

هل كان كمال يعتقد أن فقده لنادية يمنحه حق اختيار شكل البيت الذي سيعيش فيه ابنه؟ وهل كان زين يعتقد أن سنوات الحب تمنحه حق أن تنتظر سالي حتى تصبح ظروفه مناسبة؟ وهل كانت هي، بطلبها الشهر، تختبره أم تحاول امتلاك القرار وحدها بعدما امتلكه الجميع؟

عادت إلى مكتبها، ووجدت الأستاذ نجيب ينتظرها.

قال: «المكالمة كانت قوية، بس سيبتيها تقول جملة كبيرة من غير ما ترجعيها للأرض.»

ـ تقصد إيه؟

ـ المستمع ممكن يطلع متأثر، بس مش عارف يعمل إيه.

ـ مش كل حلقة لازم تنتهي بنصيحة.

ـ صح. بس لازم تنتهي بسؤال أوضح.

لم يدافع عنها، ولم يهاجمها. أعطاها ملاحظة مهنية. شعرت بالامتنان لأن في حياتها غرفة لا يعرف أحد فيها قصة العمارة.

قال: «الحلقة الجاية عن إيه؟»

نظرت إلى ورقتها. «عن القرارات المؤجلة.»

ابتسم. «واضح إن البرنامج واخد منحنى شخصي.»

قالت: «كل البرامج شخصية. الفرق مين بيعترف.»

في نهاية الأسبوع الثالث، بدأ الصمت يغير شكل الأشياء الصغيرة.

توقفت سالي عن إعداد كوب قهوة ثانٍ صباح الجمعة ثم تذكر أنه لن يصعد. توقف زين عن شراء المجلة التي كانت

تقرأها في استراحة المستشفى. لم يختفِ الحب، لكنه فقد عاداته اليومية، والعادات هي الجزء الذي يجعل المشاعر قابلة للسكن.

زار زين أباه مساء الأحد. لم يحمل حقيبة، ولم يعلن عودة. أحضر له جهازًا صغيرًا لقياس الضغط وشرح طريقة استخدامه.

قال كمال: «عندي واحد.»

ـ القديم قراءته مش مظبوطة.

ـ عرفت منين؟

ـ كريم قال لي.

جلس أمامه وقاس ضغطه. كان مرتفعًا قليلًا.

قال زين: «بتاخد العلاج؟»

ـ آه.

ـ كل يوم؟

ـ تقريبًا.

ـ مفيش تقريبًا في الدواء.

ابتسم كمال. «رجعت دكتور بسرعة.»

رفع زين الجهاز، ثم وضعه في الحقيبة. كان يريد أن يسأل: هل فكرت؟ لكنه لم يفعل.

سأله كمال: «الشهر قرب يخلص.»

ـ عارف.

ـ هتعملوا إيه؟

ـ هنتكلم.

ـ وبعدين؟

نظر زين إليه. «ده يعتمد عليك برضه.»

قال كمال: «أنا ما طلبتش الشهر.»

ـ ولا أنا طلبت الرفض.

نهض. قبل أن يخرج، قال الأب: «أنا مش عايز أخسرك.»

أجابه زين من عند الباب: «اللي مش عايز يخسر حد، ما ينفعش يطلب منه يفضل في مكانه عشان يطمن.»

نزل.

في تلك اللحظة، كانت سالي تصعد السلم. التقيا بين الطابقين الثاني والثالث، في المكان الذي لا ينتمي كاملًا إلى أي بيت.

توقفا.

قالت: «إزيك؟»

ـ كويس. وإنتِ؟

ـ كويسة.

كانا يستطيعان أن يقفا أكثر، لكن الشهر بقي بينهما كاتفاق له كرامة.

قال زين: «فاضل ست أيام.»

ـ عارفة.

ـ نتقابل الجمعة؟

ـ بعد الحلقة. الساعة سبعة.

ـ فين؟

فكرت. «مش في العمارة.»

ـ الكافيه القديم جنب المدرسة؟

ـ اتقفل.

ابتسم للمرة الأولى. «كل حاجة بتتقفل وإحنا بنتأخر.»

قالت: «في جنينة الميريلاند. عند المدخل اللي ناحية روكسي.»

أومأ. تحرك كل منهما في اتجاهه.

بعد خطوتين، التفتا في الوقت نفسه، ثم ضحكا بخفة.

الفصل الخامس والخمسون

الميكروفون الذي لا يسأل

في الحلقة الأخيرة قبل انتهاء الشهر، اختارت سالي موضوع القرارات المؤجلة. كتبت المقدمة ثلاث مرات، ثم مزقت النسخ كلها.

قالت لها داليا: «إنتِ بتحاولي تقولي حاجة لحد بعينه؟»

ـ بحاول ما أقولش.

ـ وده أصعب.

جلست سالي أمام الميكروفون قبل البث بدقائق. كان الاستوديو باردًا، والمصباح الأحمر مطفأ. في الخارج، يراجع الفني التسجيلات، ويشرب الأستاذ نجيب قهوته من كوب ورقي. لا أحد هنا يعرف أن الجمعة ستنتهي بلقاء قد يقرر ما إذا كانت السنوات الماضية بداية لحياة أو مجرد تاريخ جميل.

وضعت الورقة أمامها. حين أضاء المصباح، قالت:

«نؤجل أحيانًا لأن الوقت غير مناسب، وأحيانًا لأننا نخاف أن نعرف ما نريده فعلًا. المشكلة أن القرار المؤجل لا يبقى ساكنًا.

بينما ننتظر، تتغير الوظائف، والبيوت، والقلوب، ونصبح أشخاصًا جددًا قد لا يناسبهم السؤال القديم بالطريقة نفسها.»

تلقت الحلقة اتصالات كثيرة. رجل يؤجل ترك عمل يكرهه. فتاة تؤجل إخبار أسرتها برغبتها في تغيير الكلية. زوجان يؤجلان الإنجاب لأنهما يخافان ألا يكفي المال. لم تقدم سالي حلولًا. كانت تسأل كل متصل: «ما المعلومة التي تنتظرها كي تقرر؟ وهل يمكن أن تأتي أصلًا؟»

اتصل شاب لم يذكر اسمه. قال إنه يحب فتاة منذ سنوات، لكن أسرته ترى أن الظروف غير مناسبة.

توقفت يد سالي فوق الورقة.

قالت: «هل هي تعرف موقفك؟»

ـ تعرف.

ـ وهل اتفقتما على مدة للانتظار؟

ـ لأ.

ـ يبقى أنتم مش بتأجلوا قرار. أنتم سايبين الزمن يقرره بدلًا منكم.

سكت الشاب، ثم قال: «طب لو القرار هيكسر أهلي؟»

ـ مفيش قرار كبير من غير ثمن. السؤال مش إزاي ما تدفعش. السؤال: أي ثمن تقدر تعيش معاه من غير ما تتحول لشخص يلوم الكل؟

انتهت المكالمة.

شعرت سالي أن صوتها خرج أكثر ثباتًا مما تشعر. الميكروفون لا يسأل إن كانت تؤمن بما تقول. ينقل الكلمات فقط، ويترك صاحبها يواجهها بعد أن تعود من السماعات.

بعد الحلقة، قال الأستاذ نجيب: «دي أحسن حلقة لحد دلوقتي.»

ـ عشان الموضوع؟

ـ عشان ما كنتيش بتستعرضي ذكاءك. كنتِ بتسمعي.

سألت: «والنهاية؟ واضحة كفاية؟»

ـ النهاية مش بتاعت البرنامج.

فهمت أنه يتحدث مهنيًا، لكن الجملة لحقتها إلى الخارج.

وجدت زين عند المدخل. كان يرتدي قميصًا أزرق داكنًا، ويحمل معطفه فوق ذراعه. بدا أنحف قليلًا، وأكثر تعبًا، لكن حضوره لم يعد صدمة بعد لقائهما على السلم.

قال: «سمعت آخر عشر دقايق في العربية.»

ـ كنت بتتجسس؟

ـ برنامج عام.

ـ دي حجة قانونية مش أخلاقية.

ابتسم. «نتمشى؟»

ذهبا إلى الحديقة بدل الجلوس في مقهى. كانت الجمعة مزدحمة بالعائلات، والأطفال يركضون قرب البحيرة، وبائع الذرة ينادي بصوت يقطع الحديث. اختارا مقعدًا بعيدًا نسبيًا.

لم يبدأ أحدهما بالكلام الكبير.

سألته عن التدريب. حكى لها عن الدكتور صفوت، وعن أول مرة أمسك فيها قلبًا نابضًا خلال عملية، وعن خوفه من أن يعتاد المشهد حتى يفقد دهشته.

قالت: «الاعتياد مش دايمًا فقدان. ساعات هو اللي يخليك تعمل الصح وإنت خايف.»

سألها عن البرنامج. حكت عن منى وذهبها، وعن ملاحظة الأستاذ نجيب، وعن شعورها أن صوتها صار يعرف طريقه قبل أن تعرف هي.

قال: «مبروك.»

ـ على إيه؟

ـ على إن عندك حاجة مش محتاجة إذن حد.

نظرت إليه. «إنت زعلان من كده؟»

ـ بالعكس. يمكن بغير شوية.

ـ من البرنامج؟

ـ من إن قرارك فيه واضح. أنا شغلي واضح. علاقتنا هي الحاجة الوحيدة اللي كل ما نحاول نمسكها تدخل إيد تانية.

سكتا.

قالت سالي: «أنا افتقدتك.»

أغمض عينيه لحظة، كأنه كان يحتاج إلى سماع الجملة ولا يريد أن يطلبها. «وأنا.»

ـ بس عرفت أعيش.

ـ وأنا.

ـ دي حاجة كويسة.

ـ وجعتني في الأول.

ـ عشان كنا بنخلط الاحتياج بالاختيار.

قال زين: «بعد الشهر، أنا لسه عايز أتجوزك. مش عشان أخرج من البيت. ومش عشان أثبت لأبويا إنه غلط. عايز حياة معاك، حتى لو صعبة.»

قالت: «وأنا لسه عايزاك. بس مش عايزة أبدأ حياتي وإنت مقاطع أبوك، ولا أبقى مشروع مؤجل من غير تاريخ.»

ـ نحدد تاريخ.

ـ إزاي؟

ـ أتقدم رسميًا لفؤاد. نعمل خطوبة، حتى لو بابا ما حضرش. وبعد سنة نتجوز.

رفعت عينيها إليه. «وهنسكن فين؟»

ـ نأجر.

ـ ودخلك؟

ـ قليل، بس هيزيد.

ـ ونوباتك؟

ـ ننظم.

ـ وعملي؟

ـ تكملي.

قالت بهدوء: «إنت بتجاوب بنفس الكلمات اللي قلناها من سنين. ننظم، ونستحمل، والدخل هيزيد. بس لما دخلنا في أول ضغط حقيقي، خرجت من البيت وأنا طلبت شهر.»

ـ يعني شايفة إننا ما ننفعش؟

ـ لأ. شايفة إننا محتاجين خطة مش إيمان بس.

أخرجت ورقة صغيرة من حقيبتها. كانت قد كتبت أرقامًا: متوسط إيجار شقة صغيرة، مصروفات أساسية، مواصلات، ومبلغ يمكن أن تساهم به من راتبها.

نظر إليها زين بدهشة. «إنتِ عاملة ميزانية؟»

ـ عشان ما نقعدش نتكلم عن الحب كأنه بيدفع فواتير.

قرأ الأرقام. لم تكن مستحيلة، لكنها ضيقة. أي مرض أو تأخير في الراتب أو احتياج لكمال سيكسرها.

قال: «ممكن آخد نوبات إضافية.»

ـ وهتبقى موجود إمتى؟

ـ دي مرحلة.

ـ كل حياتك مراحل صعبة يا زين. التخصص، النيابة، الماجستير، السفر يمكن. وأنا كمان عندي شغل بيكبر.

ـ عايزة أسيب القلب؟

ـ ما طلبتش. وإنت ما ينفعش تطلب مني أسيب شغلي. عشان كده لازم نعرف مين هيدفع تمن اختيارين كبار.

قال: «ندفعه إحنا الاتنين.»

ـ الكلام سهل وهو متقسم بالنص. الحياة ساعات بتبعته كله لشخص واحد.

لم تكن ترفضه. كانت ترفض أن تكتشف بعد الزواج أن قوة حبهما لم تُلغِ اختلاف إيقاع حياتهما.

قال زين: «إيه اقتراحك؟»

ـ ندي كمال فرصة أخيرة، بس بمدة واضحة. ست شهور. خلالهم إنت تثبت مكانك في القسم وتعرف دخلك الحقيقي، وأنا أعرف البرنامج مستمر ولا تجربة. ونحط خطة للسكن. لو رفض بعد ده لنفس السبب، ناخد قرارنا إحنا.

ـ ست شهور كتير.

ـ أقل من عمر جوازة تبدأ وإحنا بنجري.

ـ وإنتِ ضامنة إن بيتك مش هيضغط؟

ـ لأ. عشان كده المدة لازم تبقى معروفة للجميع.

نظر إلى الأطفال حول البحيرة. كان يريد قرارًا يعيد له الشعور بالسيطرة. ما تقترحه سالي ليس انتصارًا ولا هزيمة، بل عمل بطيء.

قال: «موافق بشرط.»

ـ إيه؟

ـ ما نرجعش للسر. علاقتنا تبقى معروفة، ونتقابل عادي، ومحدش يتعامل مع الست شهور كأننا انفصلنا.

ـ موافقة.

ـ ولو بابا حاول يمدها؟

ـ ما نسمحش.

مد يده. لم تصافحه كأنهما يوقعان عقدًا. وضعت يدها في يده، وبقيا هكذا لحظة.

قالت: «إحنا بنعمل اتفاقات كتير.»

ـ عشان الوعود القديمة ما كانتش فيها تفاصيل.

عند خروجها من الحديقة، اتصلت بأبيها وأخبرته أنها ستعود متأخرة قليلًا. لم تسأله إن كان كمال عندهم. أخبرت زين أنهما سيجتمعان مع الأسرتين يوم الأحد.

قال: «مستعدة؟»

ـ لأ.

ـ وأنا كمان.

ـ كويس. المرة اللي فاتت دخلنا وإحنا كل واحد عايز يكسب.

ـ والمرة دي؟

ـ عايزين نعرف لو في حاجة قابلة للبناء.

افترقا عند سيارتين مختلفتين. أغلق كل منهما بابه في اللحظة نفسها.

الفصل السادس والخمسون

ستة أشهر على المائدة

اجتمعوا يوم الأحد في شقة فؤاد، لكن ترتيب المقاعد تغير هذه المرة.

جلس زين إلى جوار سالي، لا إلى جوار كمال. جلس الأبوان متقابلين، وليلى في المنتصف تقريبًا، كأنها تخشى أن يتحول الخط المستقيم بينهما إلى مواجهة. وضعت الشاي، ثم أبعدت الصينية حتى لا تبقى الأكواب حجة لتحريك الأيدي.

بدأت سالي بالكلام. شرحت أن الشهر انتهى، وأنهما لم يغيّرا قرارهما، لكنهما أدركا أن الزواج الآن يحتاج إلى إعداد واقعي. قالت إنهما يقترحان ستة أشهر يحددان خلالها العمل والدخل والسكن، ثم يتخذان القرار النهائي.

قال فؤاد: «يعني خطوبة بعد ست شهور؟»

أجابت: «لو الخطة بقت قابلة للتنفيذ، آه.»

نظر إلى كمال. «وأنت؟»

قال كمال: «أنا ما طلبتش خطة.»

قال زين: «إحنا عاملينها لنفسنا مش عشان نشتري موافقتك.»

قالت ليلى: «خلّوا الكلام هادي.»

تابعت سالي: «إحنا مش طالبين وعد إنك توافق. طالبين إنك تشوفنا وإحنا بنتصرف كناس كبار، وبعد الست شهور تقول رأيك النهائي من غير تأجيل جديد.»

سأل كمال: «ولو رأيي فضل لا؟»

قال زين: «هناخد قرارنا.»

ـ يعني الاتفاق مجرد مهلة قبل ما تعملوا اللي أنتم عايزينه.

قالت سالي: «ممكن يكون فرصة عشان نكتشف إحنا إن الخطة ما تنفعش. مش كل الاختبار ليك.»

نظر إليها كمال. كانت أول مرة يسمعها تضع احتمالًا غير انتصار الحب. قال: «إنتِ فعلًا ممكن تغيري رأيك؟»

ـ لو اكتشفت إن الجواز هيطلب من واحد فينا يلغي نفسه، آه. أو نغير شكله وموعده.

قال زين: «بس مش هنغير عشان خوف عام.»

سأل فؤاد: «إيه المطلوب مننا؟»

قالت سالي: «ما تضغطوش علينا في الاتجاهين. لا حد يفضل يقول اتجوزوا رغمًا عن كمال، ولا حد يتعامل معايا كأني بضيع وقتي.»

قالت ليلى: «وده ينطبق على أي عريس ييجي؟»

التفتت إليها سالي. «أي حد ييجي خلال الست شهور، الرد معروف.»

خفضت ليلى عينيها. لم تكن قد ذكرت وجود أحد، لكن السؤال كشف أن فكرة «العريس المناسب» بدأت تتحرك في الخلفية، كما تتحرك الأشياء في البيوت قبل أن تظهر في الصالة.

قال كمال بعد صمت: «أنا موافق أسمع بعد ست شهور. لكن ما تعتبرونيش وافقت على العلاقة.»

أجابه زين: «مش محتاجين نعتبر. محتاجينك ما تحاربهاش.»

ـ أنا ما بحاربش حد.

قال فؤاد: «كويس. يبقى ما فيش كلام يقلل من شغل سالي، ولا زيارات زين تتحول لتحقيق.»

نظر كمال إليه. «وأنا كمان مش عايز كل مرة أنزل ألاقي الموضوع مستنيني.»

قالت ليلى: «نتفق إن الموضوع ما يتفتحش إلا لو في جديد.»

وافقت الوجوه بدرجات مختلفة.

بعد الاجتماع، صعد زين مع أبيه. دخل كمال المطبخ ووضع الماء على النار. قال من غير أن ينظر إليه: «هترجع البيت؟»

ـ آه.

ـ النهارده؟

ـ لو ما عندكش مانع.

أطفأ كمال النار قبل أن تغلي. «هو أنا كنت بطردك؟»

قال زين: «هنفضل نعيد السؤال ده؟»

ـ لحد ما تقول إنك خرجت بمزاجك.

ـ خرجت بمزاجي عشان قرارك.

أومأ كمال، كأنه قبل نصف الإجابة. «غرفتك زي ما هي.»

عاد زين إلى بيت كريم ليجمع حقيبته. لم يقل له أخوه «قلت لك»، ولم يسأله عن الاتفاق. حمل معه الحقيبة إلى السيارة.

قال كريم: «الرجوع أصعب من الخروج.»

ـ ليه؟

ـ عشان لازم ترجع من غير ما تتصرف كأنك سامحت حد، أو إنهم سامحوك. البيت مش محكمة.

في المساء، وضع زين ملابسه في الدولاب. وجد المعطف الأبيض مطويًا بعناية، والجهاز الجديد لقياس الضغط فوق مكتب أبيه. تناول العشاء معه. تحدثا عن المستشفى، وعن ارتفاع أسعار السيارات، وعن إصلاح المصعد. لم يذكرا الستة أشهر.

لكنها جلست معهما على المائدة.

في الأسابيع التالية، بدأت الخطة تتحول من كلام إلى أوراق.

عرف زين راتبه الأساسي، وعدد النوبات الإضافية الممكنة، وتكلفة المواصلات. سأله الدكتور صفوت لماذا يريد نوبات أكثر.

قال: «بحاول أوفر.»

ـ للماجستير؟

ـ للجواز.

نظر إليه الطبيب. «النوبات الزيادة تجيب فلوس وتاخد تركيز. جراحة القلب مش شغل تقدر تدخله بنص نوم.»

ـ محتاج أعمل الاتنين.

ـ يبقى تعلّم تقول لا لنوبات مالهاش قيمة تدريبية. ما تبيعش صحتك بسعر الساعة.

ساعده في ترتيب جدول يضم نوبات أقل، لكنها في غرف العمليات التي يحتاج خبرتها. قال: «لو هتتعب، اتعب في حاجة تبنيك.»

أما سالي، فطلبت من الحسابات بيانًا حقيقيًا لدخلها بدل الاعتماد على الراتب الذي يصل متغيرًا. اكتشفت أن البرنامج التجريبي لا يضمن استمرار البدل، وأن جزءًا من دخلها يأتي من إعداد حلقات إضافية قد تتوقف.

قال الأستاذ نجيب: «في احتمال البرنامج يتحول لساعة أسبوعية ثابتة، بس لسه بدري.»

ـ إمتى القرار؟

ـ بعد تلات شهور.

سجلت الموعد.

ذهبت مع داليا لرؤية شقتين للإيجار في مصر الجديدة. الأولى صغيرة، لكن ضوءها جيد. الثانية أوسع وأرخص، إلا أنها بعيدة عن المواصلات وتحتاج إلى إصلاحات. وقفت في غرفة خالية وتخيلت مكتبًا لها قرب النافذة، وكتب زين فوق رف، وهاتفًا يرن وهو في نوبة.

قالت داليا: «حلوة.»

ـ الحيطان محتاجة شغل.

ـ كل الشقق بتحتاج.

ـ مش قصدي الحيطان.

لم تسألها داليا.

حين أخبرت زين، قال إنه يريد رؤية الشقة الأولى. اتفقا مع السمسار على موعد. جاء متأخرًا أربعين دقيقة بسبب حالة

طارئة. كانت سالي قد انتهت من الزيارة، والسمسار يكرر أن هناك عروسين آخرين مهتمين.

وصل زين يلهث. اعتذر.

قالت: «أنا فاهمة.»

ـ ندخل نشوفها تاني؟

قال السمسار: «المالك مشي، والمفتاح معاه.»

وقفا أمام العمارة.

قال زين: «نتفرج على غيرها.»

أجابت: «أكيد.»

لم تتشاجر. وهذا ما جعل اللحظة أثقل. لم يكن تأخره إهمالًا، ولم يكن انتظارها مبالغة. كانت الحياة تعرض المشكلة في شكلها الصافي: شخصان صادقان، ووقت لا يكفيهما في اللحظة نفسها.

قال: «الحالة كانت نزيف بعد العملية.»

ـ عامل إيه؟

ـ رجعنا فتحنا. مستقر دلوقتي.

ـ يبقى كان لازم تفضل.

ـ وإنتِ كان لازم تمشي.

ابتسمت ابتسامة صغيرة. «أهو بنعرف الإجابات. التنفيذ هو الصعب.»

مرا على محل عصير وشربا واقفين. حكى لها عن المريض، وحكت له عن الغرفة ذات الضوء. لم يتعاملا مع فشل الموعد كعلامة قدرية، ولم يخفياه تحت الرومانسية.

في نهاية الشهر الثاني، علقت سالي الورقة المالية داخل الدفتر، وكتبت تحتها: «الخطة ليست وعدًا بأن كل شيء سينجح. هي فقط طريقة محترمة لمعرفة أين قد نفشل.»

وفي الطابق الثالث، بدأ كمال يراقب من بعيد.

رأى زين يعود متأخرًا ويستيقظ مبكرًا، ويقسم راتبه داخل أظرف صغيرة. رأى سالي تصعد أحيانًا لتسلم كتابًا أو تشرب الشاي بحضور الجميع، ثم تنزل من غير أن تحاول استمالته. لم تتصرف كأن موافقته غير مهمة، ولا كأنها ستذوب من أجلها.

هذا لم يطمئنه كما توقع.

كلما بدوا أكثر نضجًا، فقد سببًا من أسباب رفضه، وبقي السبب الذي لا يريد أن يسميه.

الفصل السابع والخمسون

البيت الذي يحتاج امرأة موجودة

خرج السبب من فم كمال في مساء عادي، لا في اجتماع ولا مشادة.

كانت ريم تزوره، تساعده في ترتيب بعض الأوراق. سألته عن اتفاق الأشهر الستة، فقال إنه لا يريد الحديث. استمرت في فرز الفواتير، ثم وجدته يراقب صورة نادية فوق المكتبة.

قالت: «إنت شايف سالي مش مناسبة؟»

ـ قلت الكلام ده كتير.

ـ قلت إنها كويسة، وإن التوقيت غلط، وإن شغلهم صعب. ما قلتش هي فيها إيه.

ـ مفيهاش حاجة.

ـ يبقى المشكلة في زين؟

ـ مفيهوش حاجة.

ضحكت ريم بحزن. «نفس حوارك مع عمو فؤاد.»

قال كمال: «الجواز مش اتنين كويسين وخلاص.»

ـ أمال إيه؟

تردد. «بيت.»

ـ وهما عايزين يعملوا بيت.

ـ مين هيبقى فيه؟ زين طول اليوم في المستشفى، وهي في الإذاعة وساعات بث بالليل. لو خلفوا، مين يربي؟ لو مرض واحد، مين يقف؟ البيت محتاج حد موجود.

قالت ريم: «حد يعني ست.»

ـ ما قلتش كده.

ـ بس تقصدها.

ـ أمك كانت موجودة.

سقطت الجملة بينهما.

قالت ريم بهدوء: «ماما ما كانتش موجودة لأنها ست بس. كانت موجودة لأنها اختارت، وإنت كمان كنت بتغيب بالشهور في الشغل.»

ـ وكنت عارف إن البيت في أمان.

ـ يعني عايز زين يتجوز واحدة تبقى نسخة من ماما.

ـ ما قلتش.

ـ يا بابا، إنت كل ما تقول ما قلتش، بتكون قلت أكتر.

نهض كمال. «مش عايز أتكلم.»

ـ عشان الكلام غلط ولا عشان حقيقي؟

دخل غرفته وأغلق الباب.

لم تكن ريم تنوي نقل الحديث، لكنها حكت لكريم بعد أيام، لا لتشعل المشكلة بل لأنها شعرت أن زين يحتاج إلى معرفة ما يواجهه. قال كريم: «ما تقوليش له دلوقتي.»

ـ ليه؟

ـ عشان هيهجم على الجملة، وبابا هينكرها، وكل حاجة ترجع حرب.

ـ بس الست شهور بتجري وهو بيشتغل على أسباب مش هي السبب.

قال كريم: «هنفهمه بطريقة ما تكسّرش الباقي.»

لم يجد الطريقة سريعًا.

وصل الكلام إلى سالي من طريق آخر.

كانت ليلى تشرب القهوة مع كمال في شقته بعد أن أحضرت له بعض الطعام. قال لها إنه يرى جهود الاثنين، لكنه لا يزال يخشى أن يصنعا بيتًا لا يسكنه أحد. حاولت أن تشرح أن شكل الحياة تغير، وأن الناس توزع المسؤوليات، فقال: «الكلام ده حلو، لكن لما الطفل يمرض الساعة اتنين، البرنامج مش هيلغى نفسه، والعملية مش هتتأجل.»

لم يعلم أن سالي صعدت في تلك اللحظة لتعيد وعاءً إلى أمها. كان باب الشقة مواربًا. سمعت الجملة، ثم سمعت ليلى تقول: «يعني الحل سالي تسيب شغلها؟»

أجاب كمال: «أنا ما طلبتش منها. عشان كده بقول الجوازة نفسها مش مناسبة.»

تراجعت سالي من غير صوت. نزلت إلى شقتها، وضعت الوعاء في المطبخ، ثم دخلت غرفتها.

لم تبكِ فورًا. جلست أمام المكتب، ونظرت إلى الميكروفون الصغير الذي احتفظت به من أول تدريب. تذكرت كل مرة قال لها كمال إنه فخور بصوتها، وكل حلقة كان يسأل ليلى عن

موعدها، وكل زيارة للمستشفى حملت فيها له الطعام. كان يقبل نجاحها ما دام لا يدخل بيت ابنه.

حين عادت ليلى، وجدت الباب مغلقًا. طرقته.

قالت سالي: «سمعته.»

دخلت الأم وجلست قربها. «هو خايف، وكلامه قديم.»

ـ مش قديم يا ماما. الكلام القديم لما يبقى عند شخص بيقرر مستقبلك، يبقى حاضر جدًا.

ـ هو ما قالش تسيبي شغلك.

ـ قال إن وجودي بالشكل اللي أنا عليه مشكلة. الفرق لغوي.

ـ ما تكبريش الجملة.

نظرت سالي إليها. «إنتِ شايفة إني مكبراها؟»

تراجعت ليلى. «لا. أنا بس مش عايزة كل حاجة تنهار.»

ـ وأنا مش عايزة أبني بيتي وأنا داخلاه متهمة إني مش هكون موجودة.

في المساء، اتصلت بزين وطلبت أن تراه. جاء بعد نوبته، وجلسا في السيارة أمام العمارة. أخبرته بما سمعت.

شد يديه فوق المقود. «أنا هطلع أكلمه.»

ـ لأ.

ـ سالي، ده مش سبب. ده حكم عليك.

ـ عشان كده مش عايزاك تطلع وإنت غاضب. هيقول إنه ما قصدش، وإننا فهمنا غلط، وهنرجع لنفس الدائرة.

ـ عايزاني أعمل إيه؟

ـ تجاوبني إنت.

ـ على إيه؟

ـ لو اتجوزنا وخلفنا، مين هيغيّر شغله؟

قال بسرعة: «نتقسم.»

ـ بالتفصيل.

ـ نجيب مساعدة، وماما ليلى قريبة، وإنتِ ممكن ترتبي مواعيدك.

توقفت عند الجملة الأخيرة. «وأنت؟»

ـ أنا كمان أرتب.

ـ تقدر تلغي عملية؟

ـ لأ. بس أقدر...

صمت.

قالت: «أنا مش بلومك. بس أول إجابة طلعت منك كانت إني أنا أرتب.»

ـ عشان شغلك عنده مواعيد أكتر قابلية للتغيير.

ـ البرنامج على الهواء يا زين. والمقابلات مرتبطة بناس. مش كل شغل مش مستشفى يبقى مرن.

مرر يده فوق وجهه. «معاك حق.»

ـ أنا محتاجة ما تقولش معاك حق عشان تهديني. محتاجة تفكر: هل أنت فعلًا مختلف عن باباك، ولا بس بتحبني أكتر من إنه يبان دلوقتي؟

أصابه السؤال. «إنتِ شايفاني كده؟»

ـ شايفة إننا كلنا اتربينا في بيوت الست فيها هي اللي بتملأ الفراغ. ممكن نكون بنكرر ده وإحنا مقتنعين إننا حديثين.

جلسا صامتين.

قال زين: «أنا مش عايزك تسيبي شغلك.»

ـ عارفة.

ـ ومش عايز بيت فاضي.

ـ وأنا كمان.

ـ يبقى نلاقي شكل.

ـ لازم يكون شكل حقيقي، مش جملة.

قال بعد وقت: «ممكن أختار مستشفى أقرب بعد ما أخلص التدريب.»

ـ ممكن، بس ما تختارش قرار مهني عشان تثبت حاجة دلوقتي وتندم بعدين.

ـ وإنتِ ممكن تقللي برامج؟

ـ ممكن لو أنا اخترت. مش لأن ده دوري الطبيعي.

هز رأسه. «فاهم.»

قالت: «لسه بنتعلم نفهم.»

لم يصعد لمواجهة أبيه. عاد إلى المستشفى في اليوم التالي، وظلت الجملة تعمل داخله. لاحظ كيف يتحدث الأطباء عن زوجاتهم: «هي بتدبر البيت»، «هي واخدة بالها من العيال»،

«هي فاهمة طبيعة شغلي». لم يسمع أحدًا يسأل عن طبيعة عملها.

سأل الدكتور صفوت في نهاية نوبة: «حضرتك متجوز؟»

قال: «من عشرين سنة. ليه؟»

ـ إزاي شغلكم اتنظم؟

ضحك الطبيب. «ما اتنظمش. مراتي دفعت تمن كبير وأنا كنت بسميه تفاهم. بعد عشر سنين فهمت إنها كانت بتتنازل أكتر. حاولنا نصلح، ولسه.»

لم يقدم له نموذجًا مريحًا. قال: «الجراحة بتحب إنك تعتبر كل حاجة تانية أقل أهمية. لو صدقتها، هتبقى جراح ممتاز وشخص صعب العيش معاه.»

في الحلقة التالية، غيرت سالي الموضوع. لم تتحدث عن البيوت أو القرارات. قدمت حلقة عن أصوات المدينة القديمة. خرجت تسجل باعة الصحف، وجرس الترام الذي اختفى من بعض الشوارع، وصوت ماكينة سينما متوقفة. احتاجت إلى أن تعمل في شيء لا يفسر حياتها.

لكن حين جلست للمونتاج، سمعت في أحد التسجيلات امرأة تنادي طفلها من شرفة: «اطلع قبل ما الدنيا تليل.»

أعادت المقطع ثلاث مرات.

البيت يحتاج شخصًا موجودًا، نعم. لكن لماذا يفترض الجميع أن الموجود شخص واحد، وأنه هي؟

في نهاية الشهر الثالث، أخبر زين أباه أنه عرف السبب.

كانا في المطبخ. قال كمال: «سبب إيه؟»

ـ إنك شايف سالي مش هتعمل بيت.

ـ مين قال لك الكلام ده؟

ـ مش مهم.

ـ ريم؟

ـ ما تهاجمش الناقل.

قال كمال: «أنا ما قلتش إنها مش هتعمل بيت. قلت إن شغلكم الاتنين صعب.»

ـ وعايز واحدة شغلها يسمح لها تبقى موجودة.

ـ عايزك ما تتبهدلش.

ـ يعني عايز واحدة تتبهدل بدالي.

وقف كمال. «ما تتكلمش بالطريقة دي.»

ـ دي الطريقة اللي المعنى بيقولها حتى لو إنت ما قلتهاش.

ـ أمك عمرها ما قالت إنها اتبهدلت.

انخفض صوت زين. «يمكن عشان محدش سألها.»

صفعه كمال.

جاءت الصفعة سريعة، كأنها خرجت من رجل آخر. وقف الاثنان في صمت. رفع كمال يده مرة ثانية، لا ليضرب، بل كأنه لا يعرف أين يضعها.

قال زين: «أنا ما أهنتش ماما.»

ـ إنت بتقلل من حياتها.

ـ أنا بحاول ما استخدمهاش عشان أكرر نفس الحياة على حد تاني.

غادر المطبخ. لم يخرج من البيت هذه المرة. دخل غرفته وأغلق الباب.

جلس كمال وحده. نظر إلى كفه، ثم إلى صورة نادية المعلقة قرب الثلاجة، وأخفى يده تحت حافة الطاولة.

الفصل الثامن والخمسون

جواب لا يغيّر معناه

مرت الأشهر الثلاثة التالية ببطء أكثر من الثلاثة الأولى.

لم تنتهِ العلاقة بين زين وكمال بعد الصفعة، لكنها فقدت لغتها اليومية. يتحدثان عن الدواء والطعام ومواعيد العمل، ويتجنبان كل جملة يمكن أن تفتح المطبخ من جديد. لم يعتذر كمال، ولم يطلب زين الاعتذار. كان كل منهما ينتظر من الآخر حركة تثبت أنه فهم، لا مجرد كلمة تنهي الإحراج.

استمر زين وسالي في خطتهما. وجدا شقة أخرى أصغر من الأولى، وسجلا تفاصيلها. حسبا تكاليف الأثاث الضروري فقط. اتفقا أن يؤجلا شراء غرفة كاملة، وأن يستخدم زين مكتبًا قديمًا من بيت كريم، وأن تمنحهما ليلى بعض أدوات المطبخ.

حصلت سالي على قرار استمرار برنامجها لعام جديد، مع زيادة محدودة في الأجر. دخلت مكتب الأستاذ نجيب، فدفع إليها ورقة القرار وقال: «ما تفرحيش قوي. الزيادة مش هتغنيكي.»

ابتسمت. «الاستمرار أهم.»

ـ وعندك اقتراح تعملِي حلقة شهرية خارج الاستوديو. لو نجحت، ممكن البرنامج يتوسع.

أخذت الورقة. كان هذا ما تريده، وما يخيف كمال تحديدًا: عمل يكبر ولا يعتذر عن ذلك.

في المستشفى، قُبل زين رسميًا في برنامج النيابة بقسم جراحة القلب. قال له الدكتور صفوت إن السنوات المقبلة ستكون أقسى، وإن عليه أن يقرر إن كان يريد المسار الأكاديمي أيضًا.

قال زين: «عايز.»

ـ يبقى الماجستير من دلوقتي، ولغة، واحتمال تدريب بره بعدين.

خرج من المكتب يحمل خبرًا سعيدًا يشبه تحذيرًا.

التقى سالي في مقهى قريب. وضعا الورقتين فوق المائدة: استمرار البرنامج، وقبول النيابة.

قالت: «إحنا بننجح في تعقيد الخطة.»

ضحك. «على الأقل بننجح.»

ـ موضوع السفر؟

ـ احتمال بعد سنتين أو تلاتة. مش مؤكد.

ـ قد إيه؟

ـ ممكن شهور، ممكن سنة.

ـ وده شيء إنت عايزه؟

ـ لو فرصة قوية، آه.

أومأت. لم تقل إن السفر يأتي دائمًا بعد أن يطلبا من الحياة الاستقرار.

قال: «ممكن نتجوز قبلها، وتسافري معايا.»

ـ وشغلي؟

ـ ممكن تعملي حاجة هناك.

رفعت حاجبها.

قال بسرعة: «أنا عارف. ما ينفعش أفترض.»

ـ كويس إنك لحقت نفسك.

أمسك الورقتين. «الخطة مش كاملة، بس عندنا دخل، وشقة ممكنة، وجدول تقريبي. فاضل رأيه.»

حددوا يوم الجمعة الأخير من الأشهر الستة للاجتماع.

قبل الموعد بيوم، دخل كمال غرفة زين. كان يحمل قميصًا مكويًا، وضعه فوق السرير.

قال: «القميص ده كان عندي بالغلط.»

عرف زين أنه قميصه، لكنه لم يكن عند أبيه بالغلط. كان مدخلًا لحديث.

قال كمال: «أنا فكرت.»

جلس زين. «وبعدين؟»

ـ إنت شغلك لسه في أوله. والفلوس اللي حاسبها ممكن تتغير. والسفر وارد.

ـ كل ده موجود في الخطة.

ـ والخطة نفسها بتقول إنكم هتعيشوا على الحافة.

ـ ناس كتير بتبدأ كده.

ـ مش لازم تبدأوا غلط عشان ناس كتير عملت.

قال زين: «إنت رأيك لا؟»

تجنب كمال النظر إليه. «آه.»

ـ حتى بعد كل اللي عملناه؟

ـ اللي عملتوه أثبت إنكم جادين. ما أثبتش إن الجواز مناسب.

ـ إيه اللي يثبت؟

لم يجب.

قال زين: «ولا حاجة. لأنك مش بتختبر الخطة. إنت بتدور على سبب يفضل الجواب زي ما هو.»

ـ يمكن الجواب صح.

ـ ويمكن إنت محتاجه صح.

وقف كمال. «أنا هقول الكلام بكرة قدامهم.»

ـ ما تجيش.

توقف.

قال زين: «لو جاي تكرر لا من غير طريق لموافقة، ما تجيش. إحنا مش محتاجين جلسة إهانة تانية.»

ـ أنا ما أهنتش حد.

ـ الرفض اللي ما لهوش شرط قابل للتحقق، حكم نهائي. على الأقل سمّيه.

خرج كمال من الغرفة.

في اليوم التالي، انتظروا في شقة فؤاد. جاءت الساعة السابعة، ثم السابعة والنصف. لم يصعد كمال.

اتصل به فؤاد. لم يرد. صعد وطرق الباب. فتح كمال، وقال إنه متعب ولن ينزل.

سأله فؤاد: «رأيك إيه؟»

ـ قلت لزين.

ـ وعايزني أقول لبنتي؟

ـ قول لها إني ما زلت شايف الجواز غلط.

نظر فؤاد إلى صديقه طويلًا. «إنت مش رافض جوازة. إنت رافض إن الحياة تكمل من غير ما تستأذنك.»

أغلق كمال الباب ببطء، لا بعنف.

نزل فؤاد. لم يحتج إلى الكلام؛ عرفوا من وجهه.

جلست سالي مستقيمة. سألت: «قال لا؟»

أومأ.

قال زين: «أنا جاهز نتخطب الأسبوع الجاي.»

نظرت إليه. «من غيره؟»

ـ هو اختار.

قال فؤاد: «أنا مش هقف ضدكم.»

قالت ليلى: «بس لازم نفكر...»

التفتت إليها سالي. «فكرنا ست شهور.»

ثم عادت إلى زين. «لو اتخطبنا دلوقتي، هتسيب البيت؟»

ـ غالبًا.

ـ وهتكلم باباك؟

ـ لما يهدى.

ـ ولو ما هديش؟

ـ مش عارف.

ـ ولو مرض؟

ـ هروح له.

ـ ولو طلب منك تسيبني عشان يرجعك؟

ـ مش هسيبك.

قالت: «كل إجاباتك فيها حرب مستمرة.»

ـ الحرب هو اللي بدأها.

ـ بس إحنا اللي هنعيش جوّاها.

قال زين بصوت مرتفع: «إنتِ عايزة إيه أكتر من اللي عملته؟ خرجت، رجعت، استنيت، خططت، اشتغلت. كل مرة المطلوب مني حاجة جديدة.»

قالت سالي: «وأنا عملت نفس الحاجات. مش إنت لوحدك.»

ـ يبقى نتجوز.

ـ الجواز مش مكافأة على التعب.

وقف. «قولي إنك مش عايزة.»

ـ ما تحاصرنيش في الجملة دي.

ـ أنا محتاج جواب.

أخذت نفسًا. «أنا عايزاك. لكن مش عايزة الحياة اللي واقفة قدامنا بالشكل ده.»

ـ يعني إيه؟

ـ يعني ما أقدرش أبدأ وأنا عارفة إن كل زيارة لأبوك اتهام، وكل نجاح في شغلي دليل ضدي، وكل نوبة لك سبب إني أتنازل. إحنا مش بس ما حلناش المشكلة. اكتشفنا إنها أكبر.

قال زين: «نحلها بعد الجواز.»

ـ ليه بعد الجواز أسهل؟

لم يجد إجابة.

قالت بصوت أقل: «أنا محتاجة نتوقف.»

ـ الشهر خلص من زمان.

ـ مش شهر.

فهم قبل أن تكمل.

قال: «انفصال؟»

اهتز صوتها لأول مرة. «مسافة من غير وعد. عشان ما نفضلش ماسكين بعض وكل واحد بيطلب من التاني يدفع الثمن اللي هو مش قادر يدفعه.»

قال: «ده اللي بابا عايزه.»

ـ لو فضلنا مع بعض بس عشان ما يكسبش، يبقى هو فعلًا بيدير حياتنا.

نظر إلى فؤاد وليلى. لم يتدخلا. كان القرار قاسيًا، لكنه ليس قرارهما.

سأل زين: «إنتِ قررتِ قبل النهارده؟»

ـ كنت خايفة منه قبل النهارده.

ـ وفي البرنامج قلتِ لازم نقرر بدل الزمن.

ـ عشان كده بقرر.

ضحك مرة قصيرة بلا فرح. «مبروك. الميكروفون علّمك.»

عرف فورًا أنه جرحها. فتحت فمها، ثم أغلقته.

قال: «آسف.»

ـ ما تعتذرش دلوقتي. إحنا كلنا تعبانين.

أخذ معطفه. عند الباب، قالت: «زين.»

توقف من غير أن يلتفت.

قالت: «أنا ما بطلتش أحبك.»

أجاب: «دي أسوأ حاجة ممكن تقوليها.»

خرج.

صعد إلى الطابق الثالث. وجد باب شقته مفتوحًا، وكمال واقفًا في الصالة، ينتظر وقع الخطوات.

قال الأب: «إيه اللي حصل؟»

مر زين من جواره. «مبروك.»

دخل غرفته وأغلق الباب.

الفصل التاسع والخمسون

الحياة التي لا تنتظر

في الأسبوع الأول بعد الانفصال، تعاملت العمارة مع الأمر كما تتعامل البيوت القديمة مع شرخ ظهر فجأة في جدار حامل: لا أحد يلمسه، لكن الجميع يرفع عينيه إليه حين يمر.

لم تُغلق الأبواب تمامًا. فقط صارت الزيارات أقل، وصار الصعود إلى الطابق الثالث يحتاج سببًا معلنًا. كانت ليلى تضع طبقًا زائدًا على السفرة، ثم تتذكر أن نادية لم تعد هنا، وأن زين لم يعد ينزل كما كان، فتعيد الطبق إلى الخزانة. أما كمال فصار يشتري جريدتين يوم الجمعة، وينتبه إلى الخطأ بعد أن يصل إلى البيت.

ذهب زين إلى المستشفى كما لو أنه يستطيع أن يدخل غرفة العمليات ويترك حياته خارجها مع الحذاء والساعة. طلب نوبات إضافية، ووافق على حالات لم يكن مطلوبًا منه أن يبقى فيها حتى النهاية. في اليوم الرابع، أخطأ في كتابة جرعة دواء على ورقة المتابعة. لم تصل الجرعة إلى المريض؛ التقطتها الممرضة قبل التنفيذ، لكنها رفعت الورقة أمامه وقالت بهدوء:

«حضرتك كاتب الصفر في المكان الغلط.»

قرأها. شعر ببرودة تمتد من أصابعه إلى كتفيه.

أخذ الدكتور صفوت الورقة، شطب السطر، ثم طلب منه أن يخرج من القسم ساعة كاملة.

قال زين: «أنا كويس.»

«إنت مش كويس، ودي مش شتيمة. لكن المريض مش ملزم يدفع تمن اللي حصل لك.»

جلس زين في الكافيتريا أمام كوب شاي لم يشربه. للمرة الأولى منذ سنوات شعر أن ثبات يده ليس صفة دائمة، بل مسؤولية قد يخسرها في لحظة واحدة. اتصل بسامر، ثم أغلق قبل أن يرد.

اتصل كمال مرتين، ولم يجب.

حين عاد إلى العمارة ليلًا، وجد أباه جالسًا في الصالة والضوء مطفأ. لم يسأله أين كان. قال فقط:

«في ناس جايين الجمعة.»

وقف زين عند باب غرفته.

«مين؟»

«أخت خالتك ومعاها بنت صاحبتها. البنت دكتورة في المستشفى الجامعي.»

فهم. لم يغضب كما توقع كمال، ولم يضحك. خلع معطفه ووضعه فوق ظهر الكرسي.

«اسمها إيه؟»

رفع كمال رأسه بسرعة.

«هالة منصور.»

«وخلاص؟»

«إيه اللي وخلاص؟»

«هي عارفة إن الزيارة عشان إيه؟»

قال كمال: «عارفة إننا هنتعرف.»

دخل زين غرفته. بقي الباب مفتوحًا، ولم يعرف كمال هل ذلك موافقة أم تعبًا يمنعه من إغلاقه.

قبل الزيارة بساعتين، كانت هالة في غرفة الإفاقة بالمستشفى الجامعي. راقبت مريضًا مسنًا يفتح عينيه بعد التخدير ويسأل عن ابنته. أعادت له السؤال بهدوء حتى تذكّر أنه دخل لإجراء

جراحة بسيطة، ثم طلبت من الممرضة أن تستدعي الابنة قبل أن تنتقل إلى الحالة التالية.

اتصلت أمها ثلاث مرات لتسألها متى ستخرج. في المرة الثالثة قالت هالة إنها قد تتأخر، وإن الناس الذين يريدون التعارف يستطيعون الانتظار إلى أن ينتهي مريض من الإفاقة. لم تكن تتعمد صنع موقف؛ كانت فقط تعرف ترتيب الأشياء في يومها.

حين وصلت إلى بيت كمال، كان طرف كمّها يحمل أثر مطهر لم يختفِ بالغسيل السريع. لاحظه زين قبل أن يلاحظ لون فستانها. سألها عن الحالة، فأجابته بتفصيل مهني قصير، ثم سألته هل يريد فعلًا الحديث عن الطب في أول لقاء أم يستخدمه لأنه المنطقة الوحيدة التي لا تزعجه.

قال: «يمكن الاتنين.»

قالت: «تمام. بس خلينا عارفين.»

لم تكن تبحث عن إجابة مثالية. كانت تضع حدود الحديث منذ البداية، كأنها تضبط جرعة قبل أن يبدأ الإجراء.

جاءت هالة يوم الجمعة مع أمها. كانت طبيبة تخدير في السنة الأولى من التدريب، أصغر من زين بعامين، ترتدي نظارة رفيعة وتتكلم بسرعة حين تتوتر. لم تسأله عن درجاته ولا عن دخله ولا عن موعد التخصص. سألته عن المستشفى الذي يريد أن يعمل فيه، وعن سبب اختياره جراحة القلب.

قال: «لسه ما اخترتش نهائي.»

«بس كل الناس بتقول إنك اخترت.»

«الناس بتحب تحسم حياة غيرها.»

ابتسمت. «دي جملة طبيب ولا واحد متضايق من الناس؟»

«الاتنين.»

كانت ذكية بما يكفي لتلاحظ أن نصفه غائب، ومهذبة بما يكفي ألا تفتش عنه. حين خرجت مع أمها إلى الشرفة، وقف كمال إلى جوار زين في الممر.

قال: «بنت محترمة.»

«آه.»

«ومش مستعجلة.»

نظر زين إلى باب الشرفة المغلق.

«مين قال إني مستعجل؟»

لم يجب كمال.

في الطابق الثاني، سمعت سالي صوت نساء غريبات على السلم. كانت تراجع نص حلقة إذاعية عن القرارات المؤجلة. توقفت عند كلمة «المؤجلة»، ثم أكملت القراءة بصوت مرتفع حتى لا تسمع أكثر.

عرفت في المساء. لم يخبرها أحد مباشرة. قالت السيدة وداد لليلى عند باب المصعد إن «الدكتورة اللي فوق شكلها طيبة»، ثم تراجعت حين رأت سالي خارجة من غرفتها.

سألت سالي أمها بعد أن دخلتا:

«زين بيتعرف على واحدة؟»

قالت ليلى: «زيارة بس.»

«أنا ما سألتش عن اسم الزيارة.»

جلست ليلى قربها. «تحبي أكلمه؟»

«ليه؟»

«عشان نعرف.»

وضعت سالي النص فوق الطاولة. «هو حر.»

خرجت الجملة سليمة أكثر مما كانت تشعر.

في صباح اليوم التالي، دخلت سالي غرفة المونتاج قبل الجميع. وضعت السماعات وطلبت من الفني أن يعيد لها الجزء الأخير من الحلقة. كانت الضيفة تتحدث عن قرار ترك وظيفة ظلت فيها سبع سنوات. قالت في التسجيل إنها لم تغادر لأن البديل أفضل، بل لأن البقاء صار طريقة لتأجيل الاعتراف بأن المكان انتهى.

أوقفت سالي الشريط.

دخلت داليا تحمل كوبين من الشاي. وضعت أحدهما قربها، ثم استمعت إلى الجملة مرة أخرى.

قالت: «عايزة تشيليها؟»

«مش عارفة.»

«عشان ضعيفة؟»

«عشان واضحة زيادة.»

جلست داليا على طرف المكتب. لم تسألها عن زين. قالت إن الحلقة لا تصبح اعترافًا شخصيًا لمجرد أن جملة منها أصابت صاحبتها. أعادت سالي الشريط، وقصّت نصف الثانية التي سبقت إجابة الضيفة، وتركت الجملة كما هي.

بعد التسجيل، خرجت إلى الشارع بدل أن تعود مباشرة إلى البيت. مشت حتى الكوربة، اشترت دفترًا جديدًا لا تحتاجه، وجلست في مقهى مزدحم. فتحت الصفحة الأولى، وكتبت موعد التسليم التالي، ثم قائمة ضيوف، ثم توقفت. لم تكتب اسم زين، ولم تكتب أنها لن تكتبه. حين عادت إلى العمارة كان الضوء في الطابق الثالث مطفأ، فشعرت بالراحة ثم غضبت من نفسها لأنها شعرت بها.

مر أسبوع، ثم أسبوع آخر. التقى زين وهالة مرتين في بيت خالته، ومرة في مقهى قريب من المستشفى بحضور أخيها. اكتشف أنها لا تحب القهوة، وأنها تكره الأطباء الذين يحولون كل حديث إلى منافسة، وأنها فقدت أخاها في طفولتها ولا تسمح لأمها باستخدام الفقد لتخويفها من الحياة.

قالت له في اللقاء الثالث:

«أنا مش عايزة أدخل حاجة فيها حد تاني واقف بيننا.»

لم ينكر.

سألها: «ولو قلت لك إن في حد، بس الموضوع انتهى؟»

«انتهى عند مين؟»

ظل ينظر إلى الملعقة في كوبه.

قالت: «أنا مش بسألك تحكي. بس لو إنت داخل عشان تثبت إنك تقدر تكمل، ما تستخدمش حد في التجربة.»

رفع عينيه إليها. لم يكن في صوتها اتهام، وهذا جعل الجملة أصعب.

«أنا عايز حياة مستقرة.»

«دي رغبة. مش إجابة.»

عاد إلى البيت وهو يعرف أنها محقة، لكنه كان مرهقًا من الإجابات التي لا تقوده إلى مكان. وجد كمال قد نام أمام التلفزيون. غطاه، ثم جلس في الشرفة حتى الفجر.

في الصباح، اتصل بهالة.

قال: «أنا مش جاهز أنسى. بس جاهز أحاول أكون صادق.»

سكتت لحظة.

«الصراحة مش ضمان.»

«عارف.»

«والخطوبة مش علاج.»

«عارف.»

«ليه أنا؟»

نظر إلى الشارع أسفل العمارة. كانت سالي تخرج في تلك اللحظة، تحمل حقيبتها والقلم الفضي مثبتًا في جانبها. لم ترفع رأسها.

قال: «لأنك أول واحدة ما طلبتش مني أمثل.»

وافقت هالة على خطوبة قصيرة، لا تتجاوز ستة أشهر قبل قرار واضح. لم يحتفل زين بالجملة. شعر فقط أن بابًا فُتح، وأن عليه أن يدخله قبل أن يرجع الخوف ويغلقه.

الفصل الستون

خاتم قبل أن يهدأ البيت

تمت خطبة زين في مساء الخميس الأول من الشهر.

لم تكن حفلة كبيرة. حضر أهل هالة، وخالة زين، وكريم وريم، وفؤاد وليلى لأن عدم حضورهما كان سيحوّل الغياب إلى بيان.

بقيت سالي في عملها حتى وقت متأخر، مع أن التسجيل انتهى قبل الموعد بساعتين.

اشترى كمال حلوى أكثر مما يحتاج البيت، ووضع صورة نادية فوق المكتبة بدل مكانها المعتاد داخل غرفة النوم. لم يقل إنه فعل ذلك لتكون موجودة. حين رآه زين يرفع الإطار، حمل منه طرفه وساعده في تثبيته.

قال كمال: «كانت هتفرح.»

لم يسأله زين لأي شيء بالضبط.

جاءت هالة بفستان بسيط بلون أخضر داكن. لم تحاول أن تبدو صاحبة البيت، ولم تجلس في مقعد نادية رغم أن الجميع تركوه

فارغًا من غير اتفاق. حين أخرجت أمها الخاتم، مد زين يده ثم سحبها، كأنه نسي أي يد يفترض أن يستخدم.

ضحكت ريم لتخفف الارتباك.

قالت هالة: «إحنا محتاجين بروتوكول.»

رد زين: «أنا شاطر في البروتوكولات.»

«واضح.»

وضع الخاتم في إصبعها. صفق الحاضرون. بقي كمال يصفق بعد أن توقف الآخرون، ثم انتبه وأنزل يديه.

بعد الصور، طلبت أم هالة أن تجلس العائلتان لتحديد الخطوات. بدأت تتحدث عن القاعة والشبكة والشقة. قاطعتها هالة بلطف وقالت إنهما اتفقا على ألا يحددا موعد زفاف قبل مرور شهرين على الأقل. نظرت أمها إلى زين كأنها تنتظر أن يصحح الكلام.

قال زين: «ده اتفاقنا.»

سألته خالته إن كان هناك سبب للتأجيل. ردت هالة قبل أن يجيب: «عشان نعرف بعض وإحنا مخطوبين، مش عشان نلحق نرتب فرح.»

حاولت ريم تحويل الحديث إلى شكل الخاتم. خلعت هالة يدها من فوق الوسادة المخملية ونظرت إليه تحت الضوء. كان أوسع قليلًا. قالت أمها إن الصائغ سيضيقه في اليوم التالي.

قالت هالة: «نسيبه أسبوع. يمكن إيدي تتعود.»

سمع زين الجملة كأنها تخص أكثر من المعدن. في المطبخ، وجدها بعد قليل تغسل كوبها بنفسها. قال إن الضيوف لا يفعلون ذلك. أجابت بأنها لا تعرف بعد إن كانت ضيفة، وإنها لا تريد أن تبدأ دورها في البيت بأوامر صغيرة من الآخرين.

قال: «بابا مبسوط.»

«شايفة.»

«وأنتِ؟»

مسحت الكوب وتركته على الحامل.

«أنا وافقت. الفرحة لسه بتتكون. ما تستعجلهاش.»

لم تكن الإجابة دافئة، لكنها كانت حقيقية. أعجبته، وأخافته في الوقت نفسه.

وصلت سالي إلى العمارة بعد التاسعة. كانت تحمل ملفات التسجيل وكيسًا صغيرًا من شرائط الكاسيت. وجدت باب العمارة مفتوحًا، والمصعد متوقفًا عند الطابق الثالث. صعدت على السلم. عند البسطة بين الطابقين، انفتح باب المصعد. خرج سامر أولًا، وفي يده طبق فارغ. رآها، وتوقف.

قالت: «خلصتوا؟»

«آه.»

«مبروك.»

لم يعرف لمن تقولها. حرّك رأسه نحو الأعلى.

«إنتِ كويسة؟»

«أنا طالعة بيتي يا سامر، مش داخلة عملية.»

ابتعد ليسمح لها بالمرور. شمّت في الطابق الثالث رائحة قهوة وحلوى، وسمعت ضحكة هالة من داخل الشقة. لم ترفع عينيها إلى الباب. عند بابها، وجدت ليلى تنتظرها.

قالت أمها: «كنت هكلمك.»

«ليه؟»

«عشان ما تدخليش العمارة وتتفاجئي.»

وضعت سالي الملفات فوق الكرسي.

«أنا عارفة من أسبوع.»

«من مين؟»

«من العمارة. العمارة عمرها ما استنت خبر رسمي.»

دخل فؤاد من الشرفة. كان وجهه متعبًا.

قال: «إحنا حضرنا عشان ما نخليش الموضوع خصومة.»

«صح.»

نظر إليها. «إنتِ زعلانة؟»

أخرجت الشريط الأول من الكيس، ثم أعادته.

«أنا مش عارفة أسمّي اللي حاساه.»

قالت ليلى: «مش لازم تسميه النهارده.»

في الطابق الثالث، خرج زين إلى الشرفة بعد انصراف الضيوف.

كان الخاتم في إصبعه يلمع كلما تحركت يده. لم يعتد وزنه بعد.

وجد هالة واقفة وحدها قرب السور.

قالت: «أنت سكتّ وقت ما كل الناس كانت مبسوطة.»

«أنا بس بتعب من الزحمة.»

«مش هسألك إذا كنت مبسوط. السؤال ده بيتحول لامتحان.»

«اسألي.»

التفتت إليه. «هل أنت موجود؟»

فكر قبل أن يجيب.

«بحاول.»

قالت: «أنا قبلت المحاولة. ما قبلتش الغياب.»

أومأ. في الشرفة أسفلهم تحرك ظل سالي خلف الستارة، ثم اختفى. لم يعرف إن كانت رأته، لكنه أدخل يده في جيبه.

مرت الأيام التالية ببطء مصطنع. صار أهل العمارة يهنئون زين كلما رأوه، فتتكرر الجملة نفسها حتى فقدت معناها. كانت هالة تزوره مرة في الأسبوع، وتتصل في الأيام الأخرى. لم تكن مكالماتهما طويلة. تتحدث هي عن حالات التخدير وعن استشاري يرفع صوته، ويتحدث هو عن القسم والامتحانات. إذا ساد الصمت، لا تنقذه هالة بسرعة.

سألته مرة:

«إنت بتقول لها عني؟»

عرف من تقصد.

«ما بنتكلمش.»

«ده مش جواب السؤال.»

«ما فيش كلام بيننا عشان أقول.»

قالت: «أنا مش عايزة تعرفني من خبر يوصل لها. لكن مش هطلب منك تكلمها.»

«هي عارفة.»

«العمارة قالت لها؟»

ابتسم رغمًا عنه.

«غالبًا.»

في اليوم التالي للخطوبة، وصلت سالي إلى القناة قبل موعدها. وجدت مها تعلق على لوحة الإعلانات صورة صغيرة للفريق في نهاية تسجيل سابق. كانت سالي تضحك فيها وفمها مفتوح، فطلبت منها أن تتركها.

خلال الاجتماع، نسي المذيع اسم ضيف في فقرة على الهواء. مدت سالي له ورقة من خلف الكاميرا، فقرأ الاسم واستكمل. بعد التسجيل شكرها، ثم قال إنه لم يتوقع منها هذا التركيز «في الظروف». سألته أي ظروف يقصد. ارتبك وقال إنه سمع أن جارها اتخطب.

أعادت الأوراق إلى الملف وقالت: «الشغل مش بيقف لما حد يلبس خاتم.»

خرجت الجملة حادة. لاحقًا، حين بقيت وحدها، أعادت ترتيب الأوراق التي كانت مرتبة أصلًا. لم تكن تريد أن يصير حزنها بطولة في العمل، ولا أن تستعمل العمل لتثبت أنها لم تتأثر. أغلقت المكتب في موعده لأول مرة منذ أسبوع، وعادت إلى البيت لتتعشى مع والديها من غير أن تذكر اسم زين.

في القناة، حاولت سالي أن تنغمس في العمل. أعدت حلقة عن الأطباء المصريين العاملين في الخارج، ورفضت اقتراحًا بأن تبدأ المقدمة بجملة عن «هجرة العقول». قالت إن الناس لا تغادر ككتلة واحدة، وإن لكل شخص سببًا لا يظهر في العنوان.

أرسل لها الأستاذ نجيب ملف الضيف المقترح. كان الاسم: الدكتور مروان عزت الصاوي، جرّاح قلب وصدر يعمل في مستشفى خاص بالكويت، في زيارة قصيرة إلى القاهرة للمشاركة في مؤتمر طبي.

توقفت عند التخصص.

فتحت الصورة المثبتة في الملف.

كان الرجل أطول قليلًا من زين، وشعره أكثر امتلاءً، لكن زاوية الفك، والعينين الهادئتين، والطريقة التي يقف بها وكتفاه إلى الخلف، جعلت يدها تتوقف فوق الورقة.

دخلت مها الغرفة، نظرت إلى الصورة، ثم إلى سالي.

قالت: «إيه؟»

أغلقت سالي الملف.

«ولا حاجة.»

«هو شبه...»

«ما تكمليش.»

أخذت الملف إلى مكتب الأستاذ نجيب.

قالت: «أنا مش هعمل الحلقة.»

رفع عينيه. «ليه؟»

«عندي تضارب.»

«تعارف عائلي؟»

فوجئت. ضحك.

«أبوه اتصل بالقناة قبل ما يوصل. يعرف والدك، وقال إن الدكتور مروان يتمنى تقابليه بعد التسجيل لو مفيش مانع.»

شعرت أن المدينة كلها عادت عمارة واحدة تعرف الخبر قبلها.

قالت: «هات مذيع تاني.»

«الموضوع مهني. ولو مش عايزة تقابليه بعده، ما تقابليهوش.»

أخذت الملف من جديد. بقيت الصورة مغلقة بين الصفحات.

في المساء، أخبرها فؤاد أن عزت الصاوي اتصل به. لم يقل إن مروان يشبه زين. كان وجهه يقول إنه لاحظ.

سألته سالي: «إنت شفته؟»

«من سنين. والصورة النهارده.»

«وشبه مين؟»

نظر فؤاد إلى ليلى.

قالت ليلى بهدوء: «الشبه موجود.»

ضحكت سالي ضحكة قصيرة بلا فرح.

«يعني حتى البديل جه من نفس القالب؟»

قال فؤاد: «مافيش بديل. في واحد طلب يتعرف عليك. وإنتِ حرة تقولي لأ من غير ما تشوفيه.»

فتحت الملف. هذه المرة نظرت إلى الصورة وقتًا أطول.

قالت: «هعمل الحلقة. وبعدها أشوف إذا كان في إنسان ورا الشبه.»

الفصل الحادي والستون

الرجل الذي يشبهه

وصل مروان الصاوي إلى مبنى القناة قبل الموعد بعشرين دقيقة. كان يرتدي قميصًا أبيض مطوي الأكمام، ويحمل حقيبة جلدية سوداء. من خلف زجاج غرفة الإعداد، رأته سالي يقرأ ورقة الدخول، ثم يعيد القلم إلى مكانه فوق مكتب الاستقبال.

لم يكن الشبه في الوجه وحده. كان في الاقتصاد بالحركة، وفي الوقوف بعيدًا قليلًا عن مركز الغرفة، وفي الطريقة التي ينظر بها إلى الشخص المتحدث كأنه يفحص ما وراء الكلمات. لو رآه أحد من ظهره في ممر مستشفى، ربما نادى: «يا دكتور زين.»

لكن الاختلاف ظهر حين رفع رأسه نحو الزجاج. ابتسم فورًا. زين كان يحتاج إلى سبب قبل أن يسمح لابتسامته بالخروج.

دخل الأستاذ نجيب وألقى الملف فوق الطاولة.

قال: «ضيفك وصل. ما تخليش التخصص يخوفك.»

«أنا اللي هسأله.»

«عارف. عشان كده بخاف عليه.»

جلس مروان أمامها داخل الاستوديو. ثبت عامل الصوت الميكروفون في ياقة قميصه، فقال له مروان: «شكرًا يا حاتم» بعد أن قرأ الاسم على البطاقة. اختبرت سالي القلم، ورتبت أوراقها. بدأ التسجيل بسؤال عن سبب اختياره جراحة القلب. توقعت سالي إجابة عن إنقاذ الأرواح، فقال إن أول سبب كان عمليًا: درجاته سمحت بالتخصص، وأستاذه طلب منه أن يجرّب أسبوعًا في القسم. بقي لأنه أحب أن القرار في الجراحة يُرى فورًا، ثم اكتشف أن النتيجة لا تُرى دائمًا بالوضوح نفسه.

سألته عن مريض لم ينسه. ذكر عامل بناء مصريًا جاء متأخرًا بعد أن تجاهل الألم أيامًا حتى لا يخسر أجره. قال مروان إن العملية نجحت، لكن الرجل عاد إلى العمل قبل الموعد وأصيب بمضاعفات. حين سألته سالي إن كان يلومه، قال إنه فعل في البداية، ثم عرف أن نصيحته بالراحة كانت مستحيلة لرجل لا يملك راتبًا خلال الإجازة.

قالت: «يعني الطب ما كانش كفاية؟»

«كان لازم أفهم حياته، مش قلبه بس.»

لم ينظر إلى الكاميرا وهو يجيب. نظر إليها، ثم إلى عامل الصوت حين سقط من يده قلم. انتظر حتى التقطه قبل أن يكمل.

سألته عن الكويت. لم يصفها كفرصة ذهبية. قال إنه وصل مدينًا بثمن التذكرة، وسكن شهرين مع طبيبين في غرفة واحدة، وإنه ظل يضبط منبهًا على أذان القاهرة لأنه لم يحفظ فرق الوقت.

أخطأ في اسم شارع، فضحك من نفسه ولم يطلب إعادة التسجيل.

في الاستراحة، دخل عامل بوفيه يحمل الشاي. أخذ مروان الصينية منه ووضعها على الطاولة لأن الرجل كان يمسك بابًا ثقيلًا بقدمه. كانت حركة صغيرة، لا تحمل معنى جاهزًا. لاحظتها سالي لأنها لم تكن تشبه شيئًا محفوظًا عن زين.

قال المخرج من خلف الزجاج: «ثلاثون ثانية.»

سأل مروان: «الأسئلة كلها مكتوبة؟»

«السهلة بس.»

ابتسم. «والصعبة؟»

«بتظهر لما الضيف يجاوب بثقة زيادة.»

أضاء المصباح الأحمر.

بدأت بسفره إلى الكويت. قال إنه غادر بعد سنوات تدريب طويلة، وإنه لم يسافر لأنه فقد الأمل في مصر، بل لأنه أراد فرصة جراحية لم تكن متاحة له بالسرعة نفسها.

سألته: «يعني الخارج اختصار؟»

«أحيانًا. وأحيانًا طريق أطول بس الناس بتشوف آخره.»

«بتشوف النجاح بعد ما يتنضف؟»

نظر إليها لحظة. «بالضبط.»

سألته عن جراحة القلب، وعن معنى أن يختار طبيب تخصصًا يجعل الخطأ فيه واضحًا في ثوانٍ. لم يجيب بجملة بطولية. تحدث عن الخوف قبل العملية، وعن الجراح الذي يتظاهر بأنه لا يخاف فيصير أخطر من الخوف نفسه. قال إن يده اهتزت في أول حالة توقف قلب مفاجئ، وإن أستاذه أبعده نصف خطوة بدل أن يطرده.

«قال لي: خليك قريب كفاية تتعلم، وبعيد كفاية ما تضرش.»

توقفت يد سالي فوق الورقة. تذكرت زين حين أعطاها مساحة بعد الحادث، وحين فشل أحيانًا في إعطائها المساحة نفسها.

بعد انتهاء التسجيل، انطفأ المصباح الأحمر. أخرج مروان الميكروفون بنفسه، ثم انتظر حتى خرج العامل قبل أن يقول: «أنا عارف إن المقابلة التانية مش جزء من الشغل.»

«كويس.»

«وأعرف إن والدي استعجل.»

«أكتر من شوية.»

«أقدر أمشي دلوقتي، ونعتبر إننا اتقابلنا مهنيًا.»

نظرت إليه. كان الشبه يضايقها أكثر حين يصمت. ومع ذلك، لم يكن الصمت نفسه. صمت زين يمتلئ بما لا يقوله. صمت مروان يترك للطرف الآخر حق الاختيار.

قالت: «قهوة عشرين دقيقة. في الكافيتريا. وبعدها كل واحد يرجع لحياته.»

جلسا قرب نافذة تطل على النيل. طلب مروان شايًا من غير سكر. كادت تضحك؛ زين يشربه بالطريقة نفسها. لاحظ.

«في حاجة؟»

«إنت عارف إنك شبه حد؟»

لم يتظاهر بالمفاجأة.

«والدتي قالت لي قبل ما آجي.»

«مين؟»

«الدكتور زين ياسين.»

رفعت عينيها.

«تعرفه؟»

«بالاسم. شفت صورة قديمة عند والدي، وسمعت إنه طبيب ممتاز.»

قالت: «هو مش لسه جرّاح مشهور.»

«ما قلتش مشهور.»

فهمت أنه سأل عنها قبل أن يأتي، وأن الأسرة لم تخف عنه الماضي كله.

قال مروان: «أنا مش جاي أتنافس مع حد. ولا أحب إنك تشوفيني نسخة من حد.»

«والشبه مش مضايقك؟»

«الشبه حاجة ما عملتهاش. اللي هعمله بعد كده مسؤوليتي.»

جاء الشاي. أمسك الكوب بيده اليسرى. زين يستخدم اليمنى.

تفصيل صغير، لكنه أراحها أكثر مما ينبغي.

تحدثا عن عملها. لم يقل إن الشاشة تناسبها، ولم يسأل إن كانت ستتركه بعد الزواج. سأل عن الحلقة التي منعتها الإدارة، وعن سبب رفضها للتعليق الختامي في فيلم التخرج. حين قالت إن الصورة يجب أن تحمل معناها، قال إنه يختلف أحيانًا؛ في الطب لا يجوز ترك المريض يستنتج كل شيء.

«بس المريض مش قارئ رواية.»

«ولا المشاهد مريض.»

اختلفا لأول مرة، وانتهت العشرون دقيقة إلى خمسين.

حين طلبا الحساب، اكتشف مروان أنه ترك محفظته في حقيبة الاستوديو. بحث في جيوبه مرتين، ثم ضحك من نفسه. دفعت سالي الحساب، وقالت إن عليه دين قهوة لا دين تعارف. عاد إلى المبنى وأحضر المحفظة، ثم أصر أن يعطيها المبلغ فقط، لا أن يحول الموقف إلى دعوة جديدة.

في طريقهما إلى الباب، حكى لها أن له أختًا أصغر رفضت خطيبًا اختارته الأسرة، وأنه وقف معها ثم خاصمها ثلاثة أشهر حين اختارت رجلًا لا يحبه. قال إنه لم يفهم وقتها أن دفاعه عن حقها لا يمنحه حق قبول النتيجة.

قالت سالي: «اتصالحتوا؟»

«هي اللي كلمتني. ولسه بتفكرني إني كنت منافق.»

«وكان عندها حق؟»

«جزئيًا. وده النوع المزعج من الحق.»

حين افترقا، لم تشعر أنها قابلت نسخة من زين. شعرت أنها قابلت رجلًا يحمل ملامح مألوفة، لكن حياته تركت على الملامح آثارًا مختلفة.

عند الباب، قال مروان: «أنا مسافر بعد أسبوعين. لو وافقتِ، أحب أقابلك مع أهلك مرة. لو ما وافقتيش، الحلقة كانت كفاية.»

لم تعطه جوابًا.

في المساء، عاد زين من المستشفى ووجد هالة في الصالة مع ريم. كانت تساعدها في اختيار قماش لفستان بسيط للخطوبة الرسمية. دخل، فرفعت هالة صورة من مجلة.

قالت: «إيه رأيك؟»

نظر إلى الفستان دون أن يراه.

«حلو.»

قالت ريم: «كل حاجة عنده حلو.»

وضعت هالة الصورة. «أنا مش محتاجة رأي خبير. محتاجة رأي موجود.»

جلس إلى جوارها، وأخذ المجلة. اختار فستانًا آخر لأنه أقل ازدحامًا.

قالت هالة: «ليه ده؟»

«إنتِ ما بتحبيش الزحمة.»

توقف هو قبل أن تتوقف هي. كانت الجملة تخص امرأة أخرى قبل أن تخصها.

قالت هالة بهدوء: «مين ما بيحبش الزحمة؟»

أغلق المجلة.

«إنتِ.»

لم تجادله أمام ريم. بعد أن خرجت، وقفت معه عند باب الشقة.

«أنا عارفة إن الذاكرة بتستخدم جملها القديمة. بس ما ينفعش أفضل أستقبل حاجات مكتوب عليها اسم حد تاني.»

قال: «آسف.»

«ما تعتذرش كل مرة. انتبه قبل ما تقول.»

نزلت على السلم. بقي زين عند الباب حتى سمع المصعد يفتح في الطابق الثاني، ثم يغلق.

في شقة فؤاد، وضعت سالي بطاقة مروان فوق الطاولة. سألها أبوها إن كانت تريد لقاءً عائليًا.

قالت: «لسه مش عارفة.»

قالت ليلى: «الشبه مخوفك؟»

«مخوفني إني ما أعرفش أنا شايفاه هو ولا شايفة اللي فقدته.»

قال فؤاد: «يبقى شوفيه أكتر قبل أي قرار.»

أمسكت البطاقة. الاسم مختلف. التخصص واحد. الوجه ليس هو، لكنه قريب بالقدر الذي يجعل الذاكرة ترفع رأسها.

قالت: «قابلوه. مرة واحدة.»

الفصل الثاني والستون

ثلاثون يومًا

خلال الشهر، لم يكن مروان حاضرًا كل يوم. عاد إلى الكويت بعد المقابلة الأولى، وأرسل لسالي ثلاث رسائل طويلة ثم توقف حين قالت إن البريد لا يصلح بديلًا عن معرفة عادية. اتفقا على مكالمة أسبوعية، وعلى ألا يتحول الصمت بين المكالمات إلى اختبار.

في المكالمة الثانية، سألها عن حادثها بعد أن ذكره فؤاد عرضًا. قالت له إنها لا تريد أن تُعرّف من خلاله. اعتذر، ثم سأل بدلًا من ذلك عن الأشياء التي تغيرت في يومها بعده. أخبرته عن السلالم، وعن خوف الطريق الذي خف ولم يختفِ، وعن كرهها لعبارة «رجعت زي الأول».

قال: «وأنتِ عايزة ترجعي زي الأول؟»

«لأ. الأول ما كانش يعرف حاجات كتير.»

لم يقل إنها أقوى. سألها عن الألم في الأيام الطويلة، وعن الأشياء التي تساعد من غير أن تجعلها تشعر بالمراقبة. كتبت بعد المكالمة في دفترها: «سأل عن اليوم، لا عن القصة.»

في الأسبوع التالي، اختلفا حول برنامج بثته القناة عن الأطباء في الخارج. رأت سالي أن الضيوف يتحدثون كأن النجاح فردي، بينما قال مروان إن الغربة تحرم الشخص من رؤية الدعم الذي حصل عليه. انتهت المكالمة وهما متضايقان. لم يرسل وردًا في الصباح. أرسل مقطعًا من مقال يناقش الفكرة، وكتب: «لسه مختلف، لكن فهمت اعتراضك.»

لم يكن ذلك حبًا. كان مساحة يمكن أن ينمو فيها شيء دون أن يطلب منها أن تسميه مبكرًا.

مر شهر على خطبة زين، لا أقل ولا أكثر.

في اليوم الثلاثين، كانت صورة زين وهالة قد وصلت إلى كل شقة في العمارة. طبعتها ريم بنسختين؛ واحدة وضعتها في إطار صغير فوق مكتبة كمال، والثانية أعطتها لهالة. في الصورة، يقف زين مستقيمًا أكثر مما ينبغي، وتضع هالة يدها فوق ذراعه من غير أن تتعلق بها. لم يكن حزينًا، ولم يكن سعيدًا بما يكفي ليخدع من يعرفه.

رأت سالي الصورة عند السيدة وداد. كانت ذاهبة لإعطائها دواءً أرسله زين بعد أن اشتكت من ضغطها. دفعت السيدة وداد الإطار نحوها وقالت:

«بسم الله ما شاء الله. لايقين على بعض.»

قالت سالي: «ربنا يسعدهم.»

أعادت الإطار إلى مكانه، ثم صعدت إلى بيتها على السلم لأن المصعد توقف بين الطابقين. عند كل بسطة كانت تسمع الجملة نفسها داخل رأسها: لايقين على بعض.

قبل وصولهم بنصف ساعة، وقفت سالي أمام دولابها بثلاثة أثواب فوق السرير. قالت ليلى إن الأزرق الهادئ أفضل. سألتها سالي إن كانت تختار اللون لأنها تحبه أم لأنه يشبه الثوب الذي ارتدته يوم رأت زين أول مرة بعد الجامعة. وضعت ليلى الثوب من يدها وقالت إنها لم تفكر في ذلك، ثم جلست.

قالت: «ممكن نقول لأ ونقفل الموضوع.»

«عشان الشبه؟»

«عشان أي سبب.»

قالت سالي إنها لا تريد أن يكون خوفها من تكرار الماضي هو الذي يقرر بدلًا منها. اختارت ثوبًا بلون خمري لم ترتده من قبل، وربطت شعرها بطريقة لم تعرفها العمارة عليها.

عندما دخل مروان مع والديه، لاحظ أن فؤاد وضع ملف الأوراق قربه. لم يفتحه فورًا. طلب أن يتحدث مع سالي أمام الأسرة، لا في غرفة منفصلة. قال إنه يريد خطوبة طويلة نسبيًا، وإن سفرها لن يكون شرطًا في موعد الزواج، وإنه لا يستطيع أن يعدها بأن عملها سيكون سهلًا في الكويت.

سألته الحاجة منى لماذا يبدأ الكلام بالمشكلات. رد بأنه لا يريد أن يبيع سفرًا لامعًا ثم يطلب منها أن تتأقلم وحدها.

قالت سالي: «ولو ما لقيتش شغل؟»

«نراجع القرار. ممكن تفضلي هنا فترة، أو أرجع أنا، أو نكتشف إننا ما نعرفش نكمل.»

تحركت أمّه في مقعدها. لم تحب وضع الفشل على المائدة في أول زيارة. أما سالي فشعرت للمرة الأولى أن كلمة «لا» موجودة داخل العرض، لا خارجه فقط.

في مساء اليوم نفسه، جاء مروان مع والديه إلى شقة فؤاد.

كان المصعد معطلًا، فوصل الضيوف وهم يخفون أثر السلم في أنفاسهم. دخلت الحاجة منى أولًا، ثم عزت الصاوي، وخلفهما مروان يحمل علبة حلوى وملفًا صغيرًا من أوراق السفر. ارتدى بدلة رمادية. بدا الشبه بزين أوضح في الملابس الرسمية، حتى إن ليلى توقفت نصف ثانية قبل أن تمد يدها بالترحيب.

لاحظ مروان. لم يعلّق.

جلس فؤاد وعزت في الشرفة يتحدثان عن سنوات البترول. بقيت الأمهات في الصالة، ثم تركتا لسالي ومروان مقعدين متقابلين عند طرف السفرة، على مسافة تسمح بالكلام ولا تدّعي الخصوصية.

قال مروان: «الزيارة دي بعد ثلاثين يوم بالضبط، صح؟»

رفعت سالي عينيها.

«إنت بتعد؟»

«والدتي قالت إن التوقيت ممكن يبان كأنه رد.»

«وإنت شايف إيه؟»

«شايف إن أي قرار دلوقتي هيتفهم كده، حتى لو استنينا سنة.»

قالت: «أنا مش هتخطب عشان أثبت لحد إني عرفت أكمل.»

«كويس. وأنا مش هتجوز عشان أطلع أكسب من شخص ما قابلتوش.»

دخل صوت ضحك الرجال من الشرفة. نظرت سالي إلى مروان. لم يكن يحاول أن يمحو الشبه أو يستعمله. تركه في الغرفة مثل قطعة أثاث لا يمكن تجاهلها.

سألته عن الكويت. قال إن عمله في مستشفى خاص بعقد متجدد، وإنه يجري عمليات القلب المفتوح ضمن فريق دولي. لم يقدم النجاح كحياة كاملة. تحدث عن شقة باردة في أول سنة، وعن نوبات العيد، وعن المرضى الذين ينادونه باسم طبيب آخر لأنهم لا يميزون الوجوه تحت الكمامات.

قالت: «وأنا لو سافرت؟»

«مش هتسافري عشان تقعدي في البيت.»

«دي إجابة جاهزة.»

«لأ. الإجابة الصعبة إن شغلك هناك مش مضمون، وإن الإقامة في البداية هتبقى مرتبطة بعقدي، وإن ده ممكن يعمل ميزان قوة مش عادل حتى لو نيتنا كويسة.»

تفاجأت. لم يقل لها أحد من قبل جملة تضع الخطر على الطاولة قبل الوعد.

«وهتعمل إيه؟»

«نتفق من دلوقتي إن يبقى لك حسابك، وإننا نقدم على تصريح عمل، وإنك تقدري ترجعي القاهرة لو الفرصة ما نفعتش. ولو أنا بدأت أستخدم الإقامة كسلطة، تقوليها باسمه.»

«والناس هتقول إيه عن زوجة عايشة في بلد وجوزها في بلد؟»

«الناس عندكم في العمارة ولا الناس عمومًا؟»

ابتسمت للمرة الأولى.

بعد انصرافهم، جلس فؤاد وليلى معها. لم يسألا إن كانت أعجبت به. سأل فؤاد:

«تحبي تقابليه تاني؟»

قالت: «آه.»

«عشان هو؟»

نظرت إلى أبيها. كان السؤال ثقيلًا لكنه صحيح.

«لسه بحاول أعرف.»

في الطابق الثالث، كان زين يتحدث مع هالة في الهاتف. أخبرته أنها حصلت على فرصة تدريب في الإسكندرية لمدة ثلاثة أشهر. توقعت أن يعترض، لكنه قال فورًا:

«روحي.»

سكتت.

«إيه؟»

«ولا حاجة. كنت متوقعة نسأل هنعمل إيه في الخطوبة.»

«ثلاث شهور مش كتير.»

«مش ده السؤال. السؤال هل فارق معاك إني أبقى في مدينة تانية؟»

قال زين: «طبعًا فارق.»

«بان إزاي؟»

لم يجد شيئًا يقوله. سمع في صمتها التعب نفسه الذي كان يسمعه في صوت سالي قبل الانفصال.

قالت هالة: «أنا مش عايزة أختبرك. بس كل مرة تديّني الحرية بسرعة، بحس إنك بتبعدني مش بتحترمني.»

جلس على طرف السرير.

«أنا اتعلمت إن ما ينفعش أمسك حد عشان أخاف يبعد.»

«واتعلمت كمان إنك ممكن تقول إنك عايزه يقرب؟»

قال بعد لحظة: «عايزك تقربي.»

لم تكن الجملة كافية، لكنها كانت أول مرة يقولها من غير أن يختبئ خلف المنطق.

بعد أسبوع، خرجت سالي مع مروان بحضور طارق في مقهى بالزمالك. جاء مروان من المستشفى بعد مؤتمر، وكان يرتدي قميصًا أزرق ومعطفًا داكنًا. حين دخل، رفع طارق رأسه ثم نظر إلى أخته. لم يحتج إلى الكلام؛ الشبه ظهر له كاملًا للمرة الأولى.

قال مروان بعد أن جلس: «النهارده أخوك فهم.»

قال طارق: «أنا ما قلتش حاجة.»

«وشك قال.»

سألته سالي: «إنت متضايق؟»

«متضايق إن الشبه ممكن يظلمنا إحنا الاتنين. لكن مش هغير وشي.»

تحدثوا عن تفاصيل عملية: مدة الخطوبة، عمل سالي، السفر، البيت. اختلف مروان وطارق حول فكرة أن تبقى سالي في القاهرة بعد الزواج حتى تجد عملًا. قال طارق إن ذلك غير منطقي. قال مروان إن المنطقي ليس دائمًا عادلًا. بقيت سالي تستمع. لم يكن زين يقول هذه الجمل بالطريقة نفسها؛ زين كان يصل إلى العدل بعد صراع، أما مروان فيضعه داخل الخطة من البداية. لم تعرف أيهما أصدق على المدى الطويل.

في نهاية اللقاء، قال مروان:

«أنا عايز أطلبك رسمي. مش لازم تردي دلوقتي.»

سألته: «وإنت متأكد إنك مش داخل قصة مكتوبة قبلك؟»

قال: «أنا متأكد إن في قصة قبلي. ومش متأكد من أي حاجة تانية. ده القدر الصادق من التأكد اللي عندي.»

عادت إلى العمارة. عند المدخل، قابلت زين للمرة الأولى منذ خطبته. كان الخاتم في يده، وملف طبي تحت ذراعه. توقفا.

قال: «إزيك؟»

«كويسة.»

نظر إلى بطاقة صغيرة خرج طرفها من حقيبتها. لم يقرأ الاسم، لكنه عرف.

سأل: «مروان؟»

قالت: «آه.»

تغير وجهه لحظة، ثم عاد.

«هو كويس.»

ضحكت بحزن.

«حتى إنت؟»

«إيه؟»

«كل الناس بتقول الجملة دي.»

فتح المصعد. دخل زين. بقيت هي خارجه.

قبل أن يغلق الباب، قال: «ما تختاريش عشان أنا اخترت.»

أجابت: «وإنت؟»

توقف الباب نصف ثانية، ثم أغلق قبل أن يجيب.

الفصل الثالث والستون

صورتان على سلم واحد

وافقت سالي على الخطوبة بعد شهر واحد من خطبة زين، في التاريخ نفسه من الشهر التالي.

لم تقصد أن تجعل الموعدين متقابلين. حين اقترحت الحاجة منى الخميس الأول، نظرت ليلى إلى التقويم ثم إلى ابنتها. لاحظت سالي المصادفة، وسألت مروان إن كان يمكن تغيير اليوم.

قال: «ممكن. بس لو غيرناه عشان التاريخ، يبقى التاريخ هو اللي اختار.»

تركت الموعد كما هو.

قبل الزيارة بيوم، جلست مع فؤاد في الشرفة. كان يحمل ورقة شروط كتبها بخطه: استمرار العمل، مدة الخطوبة، تفاصيل السفر، السكن، التأمين الطبي. قرأت الورقة، ثم أعادتها.

قالت: «إنت عامل عقد مشروع.»

«أنا بحاول ما أسيبش حاجة للصدفة.»

«في حاجات مش هتعرف تكتبها.»

«زي إيه؟»

«إني ممكن أصحى يوم وأكتشف إني اخترته عشان شبه زين.»

وضع فؤاد القلم.

«وده احتمال؟»

«احتمال مخيف.»

قال: «والشبه ممكن يخليك ترفضي واحد كويس عشان ما تبقيش متهمة.»

«يعني أعمل إيه؟»

«ما تعمليش قرار ضد التهمة ولا معاها. شوفي لما يختلف عن زين، هل بتحترميه؟ لما يضايقك، هل تقدري تقولي؟ لما ما يفهمكيش، هل يحاول؟»

نظرت إلى أبيها. لم يكن الرجل نفسه الذي أغلق الأبواب بعد الحادث. تعلم ببطء أن الحماية ليست امتلاكًا للقرار.

في الطابق الثالث، كانت هالة تساعد كمال في ترتيب أدوية الضغط. جاء زين من المستشفى، فوجدها تكتب المواعيد بخط واضح على ورقة تلصقها فوق الثلاجة.

قال: «إنتِ جيتي إمتى؟»

«من ساعة.»

«ليه ما كلمتنيش؟»

«كلمتك. كنت في عملية.»

دخل كمال من الشرفة وقال: «هالة خدت بالها إن الدوا الجديد بيتعارض مع المسكن اللي باخده.»

نظر زين إلى العبوتين. كانت محقة.

قال: «مين كتبه؟»

«دكتور العيادة.»

شعر بالامتنان والضيق معًا. هالة وجدت مكانًا في البيت بينما هو غائب، وهذا ما يفترض أن يسعده. لكنه رأى في المشهد شكل حياة يتكون من غير أن يسأله إن كان مستعدًا.

قالت هالة بعد أن خرج كمال:

«سالي خطوبتها بكرة.»

رفع رأسه.

«عرفتِ منين؟»

«ريم قالت. وبصراحة، العمارة كلها قالت.»

أخذ الملف من فوق الطاولة.

«مبروك لها.»

«هتروح؟»

«إحنا كلنا مدعوين.»

«أنا كمان؟»

توقف.

كان يمكن أن يقول لا، فيبدو أنه يحمي سالي. ويمكن أن يقول نعم، فيحول المناسبة إلى اختبار لهالة. قالت هي:

«أنا مش عايزة أروح عشان أثبت إني واثقة. ولا أغيب عشان أخاف. اسألها هي.»

نزل إلى الطابق الثاني. كانت سالي تقف عند الباب تعلق سلسلة صغيرة من الياسمين الصناعي. حين رأته، بقيت يدها مرفوعة.

قال: «هالة مدعوة؟»

نظرت إليه، ثم إلى الخاتم.

«طبعًا.»

«أنا بس...»

«مافيش بس. هي خطيبتك. ومروان هيبقى خطيبي.»

قالت الجملة كاملة للمرة الأولى. أحس بها تستقر بينهما كقطعة أثاث ثقيلة.

قال: «مبروك.»

«الله يبارك فيك.»

لم يتحرك.

سألته: «هو إنت اتخطبت عشان تثبت إنك تقدر تكمل؟»

قال: «وإنتِ؟»

«أنا سألت الأول.»

نظر إلى السلسلة في يدها.

«يمكن جزء مني عمل كده.»

«وهالة تعرف؟»

«تعرف إن في ماضي.»

«الماضي مش كلمة عامة يا زين.»

ارتفع صوته قليلًا. «ومروان يعرف إنك بتبصي له وتشوفي وشي؟»

انخفضت يدها. لم تجبه فورًا.

قالت: «عارف إن الشبه موجود. وعارف اسمك.»

شعر بأن ذلك أكثر قسوة من السر.

قال: «كويس.»

«مش كويس. بس صادق.»

عاد إلى شقته. في صباح اليوم التالي، دخل مع هالة إلى بيت فؤاد. كان مروان واقفًا قرب الشرفة. حين رآهما معًا، فهم الشبه بصورة لم تسمح بها الصور. نظر من زين إلى نفسه في زجاج النافذة، ثم صافحه.

قال: «تشرفنا أخيرًا.»

رد زين: «أهلًا.»

هالة كانت أول من كسر اللحظة. مدت يدها إلى سالي وباركت لها، ثم قالت إن الفستان الأزرق يليق بها. شكرتها سالي. لم تتحولا إلى صديقتين، ولم تتصرفا كعدوتين. كان بينهما وعي حاد بأن كل واحدة تقف داخل حياة كان يمكن أن تكون للأخرى.

قرأ الشيخ آيات قصيرة. حين سأل عن القبول، قالت سالي بصوت واضح: «موافقة.»

وضع مروان الخاتم في إصبعها. في اللحظة نفسها، انطفأ التيار. ضحك الناس، وذهب فؤاد لإحضار الشموع. بقيت الغرفة في ظلام خفيف يأتيه ضوء الشارع.

قال سامر من الخلف: «العمارة بتحب الدراما.»

حين عاد الضوء، كان زين ينظر إلى يد سالي. انتبه، فرفع عينيه. كانت هالة تراه. لم تفضحه، لكنها سحبت يدها من ذراعه.

بعد دقائق، ذهبت هالة إلى المطبخ بحجة مساعدة ليلى. كانت سالي هناك ترتب الأكواب. وقفتا جنبًا إلى جنب أمام الحوض، وكل واحدة تعرف أن الأخرى رأت ما حدث.

قالت هالة: «الخاتم واسع؟»

حركت سالي يدها. «شوية.»

«خليه يومين قبل ما تضيقيه.»

نظرت سالي إليها. تذكرت أن هالة قالت الشيء نفسه عن خاتمها. لم تعرف هل الجملة عادية أم تحمل ما لا تريدان قوله.

قالت: «إنتِ كويسة؟»

جففت هالة كوبًا، ثم وضعته مقلوبًا.

«مش قوي. بس مش عايزة يومك يبقى عني.»

قالت سالي: «ولا يومك كان لازم يبقى عني.»

التقت عيناهما. لم تعتذرا نيابة عن زين، ولم تتبادلا طمأنة كاذبة.

طلبت ليلى من الخارج مزيدًا من السكر، فانتهت اللحظة.

عند الانصراف، عرض زين أن يوصل هالة. قالت إنها ستعود مع أخيها. في السيارة سألها أخوها إن كانت نادمة. قالت إنها لا تعرف بعد. سأل إن كان زين يحب امرأة أخرى. قالت: «هو مش عارف يعمل إيه بالحب اللي عنده، ودي مشكلة أكبر من وجوده.»

في البيت، خلعت الخاتم لتغسل وجهها، ثم أعادته. لم تتخذ قرارًا في ليلة تخص امرأة أخرى. فتحت دفتر الأسئلة، وكتبت تحت السؤال الخامس: «لم يُجب. رأيت الإجابة.»

بعد التصوير، أصر المصور على صورة جماعية. وقف مروان وسالي في الوسط. وقف زين وهالة عند الطرف، وبين المجموعتين فؤاد وكمال. قال المصور:

«قربوا من بعض شوية.»

تحرك الجميع نصف خطوة. التقط الصورة.

حين ظهرت بعد أيام، علقتها ليلى فوق السفرة. كان في الصورة رجلان متشابهان، لكل منهما امرأة مختلفة إلى جواره، وبينهما آباء ينظرون إلى الكاميرا كأنهم نجحوا في ترتيب المستقبل.

سامر وحده لم ينظر إلى العدسة. كان ينظر إلى زين.

الفصل الرابع والستون

ما لا تقوله الخطوبة

بدأت الخطوبتان في العمارة كأنهما جدولان متوازيان لا يلتقيان إلا عند السلم.

هالة تأتي مساء الثلاثاء، ومروان يأتي في عطلة نهاية الأسبوع ما دام في القاهرة. إذا صعد أحدهما والمصعد في الطابق الآخر، انتظر عم حسين حتى لا يحدث لقاء غير مرتب. لم يطلب منه أحد ذلك، لكنه رأى أن تنظيم حركة المصعد جزء من حماية البيوت.

في الأسبوع الثالث، حصلت هالة على تدريب الإسكندرية. كانت تتوقع أن يناقشا الزيارات والمواعيد. قال زين إنه يستطيع السفر إليها مرتين في الشهر. سألته إن كان يريد ذلك أم يقدمه كحل مناسب.

قال: «أنا مش فاهم الفرق.»

«الحل المناسب يطلع من العقل. الرغبة بتبان قبل الحل.»

سافر إليها في الجمعة التالية. وصل متأخرًا ساعة بسبب حالة طارئة، فوجدها في مقهى قريب من البحر تقرأ كتابًا. لم تعاتبه أمام الناس. بعد أن جلس، قالت:

«أنا عارفة إن المريض أهم من الموعد.»

«بس؟»

«بس أنا مش عايزة أقضي عمري بفهم كل حاجة لدرجة ما يبقاش لزعلِي مكان.»

قال: «حقك تزعلي.»

«مش محتاجة إذن.»

أدرك أنه يستعمل الجملة الصحيحة بدل أن يشارك في الشعور. مد يده فوق الطاولة، ثم توقف قبل أن يلمس يدها.

«وحشتيني.»

نظرت إليه طويلًا.

«دي أول مرة تقولها.»

كانت صحيحة. لم يعرف لماذا احتاج إلى مدينة أخرى ليقول شيئًا بسيطًا.

مشيا بعد ذلك بمحاذاة البحر. كانت هالة تتحدث عن يومها، عن طفل استيقظ من التخدير وهو يصرخ باسم أبيه، وعن استشاري وبّخها أمام الفريق لأنها طلبت إعادة فحص جهاز. سمع زين نصف القصة، ثم انتبه إلى أنها توقفت.

قالت: «كنت فين؟»

«معاكِ.»

«قلت لك اسم الطفل إيه؟»

لم يعرف.

لم تغضب. أكملت المشي حتى بائع الذرة، واشترت واحدة لنفسها فقط. بعد دقائق طلب منها لقمة، فأعطته. قالت إن وجود الجسد في المكان لا يساوي الاستماع، وإنها لا تريد أن تتحول حياتهما إلى اختبارات مباغتة كي تثبت غيابه.

في طريق العودة، تركت له اختيار الموسيقى. اختار شريطًا قديمًا كان يسمعه مع سالي، ثم أدرك ذلك بعد أن بدأ اللحن. مد يده ليوقفه. قالت هالة: «سيبه.»

«مش مناسب.»

«الأغنية مش ملك حد.»

استمعا إليها حتى النهاية. لم يصبح الماضي أقل وجودًا، لكنه توقف لحظة عن إدارة كل حركة في السيارة.

في القاهرة، خرجت سالي مع مروان لاختيار بعض الأثاث الذي سيشحنه إلى الكويت. اختار طاولة طعام كبيرة. قالت إن الشقة صغيرة، وإنهما لا يحتاجان ستة مقاعد.

قال: «الناس هتزورنا.»

«مين؟»

«زمايلي، أهلي لما ييجوا، أصحابك.»

«أنا لسه ما عنديش أصحاب هناك.»

«هيبقى عندك.»

تضايقت من ثقته، لا لأنها لا تريد أصدقاء، بل لأن الجملة جعلت غربتها تفصيلًا سهل الحل.

قالت: «ما تقولش المستقبل كأنه حصل.»

«أنا بطمنك.»

«الطمأنة اللي ما تعترف بالخوف بتبقى إنكار.»

توقف عن قياس الطاولة. قال للبائع إنهما سيعودان لاحقًا.

في السيارة، لم يدافع عن نفسه فورًا. قاد حتى شارع هادئ، ثم ركن.

قال: «أنا بخاف إنك تسافري وتفضلي تقارني كل حاجة بالقاهرة، وبزين، وبالبيت. فبسرع في بناء صورة حلوة عشان ما ترجعيش.»

كانت هذه أول مرة ينطق اسمه داخل خلاف بينهما.

قالت سالي: «أنا ممكن أقارن. وممكن أشتاق. ده مش معناه إني هرب.»

«وأنا ممكن أغار. ده مش معناه إني هفتش.»

«لسه.»

ابتسم بمرارة. «لسه.»

اتفقا على طاولة بأربعة مقاعد يمكن توسيعها. لم يكن الاتفاق عن الأثاث وحده.

عادا إلى المحل في الأسبوع التالي. هذه المرة طلب مروان من سالي أن تختار وحدها، فرفضت.

قالت: «أنا ما طلبتش إنك تنسحب. طلبت إنك ما تحسمش.»

وقفا أمام طاولتين. أعجبتها واحدة خشبية داكنة، واختار هو أخرى أخف وأسهل في النقل. جربا الكراسي، وقاسا المساحة على ورقة رسمها صاحب المحل. اختلفا عشرين دقيقة، ثم اشتريا الطاولة الأخف لأن الشقة تحتاجها، واختارت سالي الكراسي منفصلة لأنها لم تحب المجموعة الجاهزة.

في السيارة قال مروان إنه شعر بالراحة حين وافقت على اختياره. سألته لماذا. قال لأنه خاف أن يصبح كل اختلاف بينهما امتحانًا لاستقلالها. قالت إنها أيضًا تخاف أن ترفض اقتراحاته لمجرد إثبات أنها لم تذُب فيه.

توقفا عند محل عصير. شرب مروان بسرعة وأصابه ألم بارد في رأسه، فضحكت سالي حتى دمعت عيناها. كان وجهه في تلك اللحظة لا يشبه زين. حفظت المشهد من غير أن تقصد.

أما سامر، فكان يعد لمعرضه الأول. رسم العمارة من زوايا كثيرة، ورسم السلم، والجميزة، وثلاثة أطفال فوق السطح. حين رأت سالي اللوحة الأخيرة في مرسمه، توقفت.

قال: «لسه ما خلصتش.»

«هتعرضها؟»

«ممكن.»

«سألتني؟»

«الرسم مش صورة شخصية.»

«بس الحكاية بتاعتنا.»

قال سامر: «الحكاية بتاعتي أنا كمان.»

دخل زين في اللحظة نفسها، يحمل كيس طعام. نظر إلى اللوحة، ثم إلى سالي.

قالت: «قول له.»

سأل: «أقول إيه؟»

«إنه ما ينفعش يحول حياتنا للوحة من غير ما يسأل.»

قال سامر: «وأنت ما ينفعش تحكم عشان كل واحد فيكم شايف نفسه بطل القصة.»

وضع زين الكيس فوق الطاولة.

«أنا مش شايف نفسي بطل.»

«بس شايف إن وجعك ملكية خاصة، وإن دوري أحرسه.»

خرجت الجملة من سامر بغضب قديم. للمرة الأولى لم يكن الصديق الذي يحمل الرسائل بينهما، بل رجلًا سئم أن تكون حياته هامشًا في حكايتهما.

قالت سالي: «أنا مش بطلب منك تحرس حاجة. بطلب تسأل.»

سكت سامر. بعد يومين، أرسل لهما بطاقة مكتوبًا عليها: «اللوحة لن تُعرض قبل موافقة أصحابها الثلاثة.»

كتب زين: «موافق.»

كتبت سالي: «موافقة بعد ما أشوف النسخة النهائية.»

أما سامر فكتب تحت الاسمين: «وأنا موافق إني صاحبها، مش شاهد عليها.»

في نهاية الشهر، عادت هالة من الإسكندرية يومين. اجتمعت الأسرتان في بيت كمال. أثناء العشاء، اتصل المستشفى بزين. نهض فورًا. قالت هالة إنها ستنتظره. عاد بعد أربع ساعات فوجدها قد ساعدت كمال في ترتيب الأطباق، ثم جلست تقرأ وحدها.

قال: «آسف.»

أغلقت الكتاب.

«الحالة كانت عاملة إيه؟»

«نزيف بعد عملية. رجعنا فتحنا.»

«والمريض؟»

«مستقر.»

هزت رأسها. ثم قالت:

«أنا بحاول أفهم شكل حياتنا. مش عايزة كل مرة أكون الست الكويسة اللي تستنى الدكتور.»

«أنا ما طلبتش منك تستني.»

«وده أسوأ. لأنك بتتصرف كأن وجودي أو غيابي النتيجة نفسها.»

وقف زين في منتصف الصالة. خلفها كانت صورة الخطوبة فوق المكتبة، وإلى جوارها صورة نادية.

قال: «مش النتيجة نفسها.»

«ورّيني.»

لم تكن تطلب هدية أو موعدًا. كانت تطلب أن تشعر أن حياته تغيرت بدخولها. لم يعرف بعد كيف يفعل ذلك.

الفصل الخامس والستون

قرار لم يكن ردًّا

طلب مروان أن تتم الخطوبة ستة أشهر على الأقل قبل الزواج.

قال إن الشبه، والتوقيت، والسفر، كلها أسباب تجعل الاستعجال ظلمًا لسالي وله.

قالت الحاجة منى إن ستة أشهر طويلة. رد مروان بأنها أقصر من عمر قرار خاطئ. لم يعجبها التعبير، لكنها سكتت.

في مساء شتوي، جلست سالي مع زين للمرة الأخيرة قبل أن يصبح لقاؤهما العابر هو الشكل الوحيد المقبول. لم يرتبا اللقاء. تعطل المصعد، وصعدا معًا من المدخل، ثم توقفا عند السطح لأن عامل الصيانة ترك باب السلم مفتوحًا.

كانت الجميزة قد فقدت معظم أوراقها، والهواء يحمل رائحة مطر بعيد. وقف زين عند السور. وقفت سالي قرب البلاطة التي بقي أثر العلبة المعدنية فوقها سنوات.

قال: «هو شبهّي فعلًا؟»

لم تتظاهر بعدم الفهم.

«آه.»

«وده جزء من السبب؟»

فكرت قبل أن تجيب.

«يمكن كان سبب إني أشوفه. مش سبب إني أوافق.»

«إيه الفرق؟»

«الوش فتح باب الذاكرة. اللي خلاني أقعد وأسمع هو إنه مش إنت.»

تحرك وجهه كأنه تلقى صفعة هادئة.

قالت: «إنت سألت.»

«عارف.»

سألها: «بتحبيه؟»

«لسه بتعلمه.»

«واتخطبتِ له.»

«وإنت حبيت هالة قبل ما تتخطب؟»

نظر إلى يده. كان الخاتم واضحًا في ضوء السطح.

قال: «بحترمها.»

«مش ده اللي سألتك.»

«مش عارف.»

هزت رأسها. «إحنا الاتنين دخلنا قرارات أكبر من إجاباتنا.»

قال: «إنتِ دخلتي بعدي بشهر.»

«عارفة.»

«لو أنا ما اتخطبتش...»

قاطعته: «ما نفتحش باب ملوش آخر.»

«أنا عايز أعرف.»

«أنا كمان كنت عايزة أعرف حاجات كتير وإنت كنت بتقول بعدين.»

سكت. لم تكن تعاقبه، لكن الماضي كان حاضرًا في كل جملة.

قالت: «خبر خطوبتك عمل حاجة واحدة. وقفني قدام الحقيقة. إنك ممكن تعيش من غيري، حتى لو بطريقة ناقصة. وإن أنا كمان لازم أختار حياة، مش أفضل مستنية احتمال.»

«يعني مروان رد.»

«لا. القرار حصل بعدك، مش بسببك وحدك. الفرق مهم.»

جلس زين على حافة منخفضة قرب السور. للمرة الأولى بدا أصغر من عمره.

«هالة ما تستاهلش ده.»

«ولا مروان.»

«عارف.»

«يبقى ما تظلمهاش عشان ما تعرفش ترجع لي.»

رفع رأسه. «وإنتِ؟»

قالت: «أنا قلت له الحقيقة. قلت له إن وشه فكرني بيك، وإن التخصص زود الشبه، وإن اسميك مش هيختفي من حياتي. لو فضل، يبقى بيختار وهو عارف.»

«وهو فضل.»

«آه.»

ظل صامتًا. من أسفل جاء صوت هالة تنادي اسمه عند باب الشقة. كانت قد وصلت قبل الموعد.

قالت سالي: «انزل.»

«وإنتِ؟»

«هنزل بعدك.»

وقف. عند باب السطح، التفت.

قال: «أنا ما اتخطبتش عشان أوجعك.»

«عارفة.»

«بس جزء مني كان عايزك تعرفي.»

أغلقت عينيها لحظة.

«وده وجعني أكتر.»

نزل.

وجد هالة عند الطابق الثالث تحمل كيسًا من الكتب. نظرت إلى وجهه ثم إلى السلم فوقه.

قالت: «كانت هناك؟»

«آه.»

لم تسأله ماذا قالا. أعطته الكيس.

«أنا جبت كتب الامتحان اللي طلبتها.»

أخذه. قال: «هالة، أنا محتاج أقول لك...»

رفعت يدها.

«مش على السلم. ولا بعد ما نزلت من عندها. لما تعرف إنت عايز تقول إيه، قوله في مكان ما يبقاش وجودي فيه رد فعل.»

دخلت الشقة وحدها.

بقي زين أمام الباب. بعد دقائق، نزلت سالي من السطح. مرّت به من غير أن تتوقف. عند الطابق الثاني، فتح مروان باب شقة فؤاد من الداخل. كان قد جاء يحمل ملفات الفحوص وإجراءات السفر. ابتعد ليسمح لها بالدخول، ثم رفع عينيه إلى زين.

لم يكن في نظرته انتصار. فقط معرفة ثقيلة.

قال: «مساء الخير.»

رد زين: «مساء النور.»

أغلق الباب بهدوء.

في الداخل، وضع مروان الملفات فوق السفرة ولم يسألها عما حدث على السطح. شرح لفؤاد موعد الفحوص، ثم انتظر حتى خرج الوالدان إلى الشرفة.

قال: «تحبي نمشي؟»

«إنت لسه جاي.»

«مش بسأل عشان زين. بس شكلك محتاج مساحة.»

جلست سالي. أخرجت الخاتم من إصبعها ووضعته فوق الطاولة لحظة، لا لتعيده، بل لأن الجلد تحته احمرّ.

قال مروان: «لو الشبه بقى تقيل، قولي.»

«هو تقيل.»

انخفضت عينه إلى الخاتم ثم عادت إليها.

«ومع ذلك؟»

«مع ذلك أنا هنا.»

لم يطلب منها أن تشرح أكثر. فتح ملف الفحوص، وأشار إلى تحليل نسيه الطبيب في القائمة. بدأت تقرأ معه. كان الانتقال من السطح إلى الورق حادًا، لكنه أعادها إلى قرار له تفاصيل ومواعيد وأسماء، لا إلى رد فعل واحد.

قبل أن يغادر، قال إن والدته تريد شراء معظم أثاث الشقة.

قالت سالي إنها ستختار معه، حتى لو تأخر الشحن. وافق، ثم نسي الملف فوق الطاولة وعاد بعد عشر دقائق يضحك من ذاكرته التي تتعطل خارج المستشفى.

حين أغلقت الباب خلفه، لم تشعر باليقين. شعرت بشيء أبسط: أنها تستطيع أن تقول له إن الشبه يؤلمها، ويبقى الحديث قائمًا بعد الجملة.

في تلك الليلة، أخرجت سالي العلبة المعدنية من أسفل الدولاب. فتحت الورقة القديمة: «سالي»، وتحتها «زين» بخط طفلين. أضافت في ظهر الورقة تاريخ خطبتها، لا اسم مروان. ثم أعادتها. لم تمزق الماضي، ولم تضعه فوق التسريحة. أغلقته داخل علبة يمكن حملها أو تركها.

في الطابق الثالث، جلس زين أمام صورة خطوبته. لم ينزع الخاتم. لكنه لم يمد يده إلى الهاتف ليتصل بهالة. عرف أن الصمت هذه المرة ليس تأجيلًا بريئًا؛ إنه قرار له ثمن، حتى لو لم ينطقه بعد.

الكتاب الثاني

ما تبقى من الطريق

الفصل السادس والستون

ستة أشهر لاثنين

علقت ليلى ورقة على الثلاجة وكتبت فوقها: «ستة أشهر». تحت العنوان رسمت مربعات للمواعيد: الأوراق، الفستان، الفحوص، القاعة، ترتيبات السفر. حين رأت سالي الورقة، أضافت بندًا في أعلاها لا أسفلها: «العمل».

في الطابق الثالث، كانت هناك ورقة أخرى لا يراها أحد. كتبت هالة في دفتر صغير ستة أسئلة تريد أن تحصل على إجاباتها قبل الزواج: أين سيعيشان؟ هل يقبل زين أن تعمل في الإسكندرية إن استمر التدريب؟ كيف سيتقاسمان رعاية كمال؟ ماذا يعني له الزواج؟ هل يستطيع أن يتحدث عن سالي من غير أن يتحول الاسم إلى باب مغلق؟ وهل يريد هالة نفسها أم يريد الحياة التي تمثلها؟

لم تعرض عليه الأسئلة دفعة واحدة. اختارت كل أسبوع سؤالًا. في السؤال الأول، اتفقا على شقة قريبة من العمارة لا داخلها. غضب كمال يومين، ثم قال إن البيت كبير ويمكنهما العيش فيه.

لم يتراجع زين. كانت تلك أول مرة تشعر هالة أنه اختار شيئًا يخصهما لا يخص الماضي.

في السؤال الثاني، قال إنها إذا حصلت على فرصة أفضل في الإسكندرية يمكنهما تنظيم حياتهما بين المدينتين لفترة. سألته إن كان مستعدًا أن يغيّر هو جدوله، لا أن تنتقل هي وحدها. قال إنه سيحاول. لم تمنحه علامة كاملة، لكنها كتبت في الدفتر: «بدأ يفهم السؤال.»

أما السؤال الخامس، فظل مؤجلًا.

في الشهر الثالث، مرض كمال بنزلة صدرية بسيطة، لكنها كشفت شكل الحياة قبل أن تبدأ. جاءت هالة بعد مناوبتها تحمل جهاز قياس أكسجين. أرادت أن تبقى معه حتى الصباح. قال زين إن عندها عملًا، وإنه سيتولى الأمر. سألته إن كان يرفض مساعدتها لأنها خطيبته أم لأنه لا يحتمل أن يراه أحد محتاجًا.

قال: «أنا ابنه.»

«وأنا ممكن أبقى من أسرته.»

«لسه.»

توقفت عند الكلمة. لم تقل شيئًا حتى نام كمال. في المطبخ، قالت إنها لا تريد أن تحصل على مكانها بخدمة أبيه، ولا أن يظل هو صاحب الحق الوحيد في رعايته.

في الصباح، جهزا الإفطار معًا. أحرق زين الخبز لأنه تلقى اتصالًا من المستشفى. أطفأت هالة الموقد وفتحت النافذة. ضحك كمال من رائحة الحريق، وقال إن نادية كانت تمنع زين من دخول المطبخ. لم ينكمش الجو عند الاسم. سألت هالة عن أكلة كانت نادية تجيدها، فحكى كمال وصفة ناقصة، وأضاف زين المقادير التي يتذكرها. لساعة واحدة، لم تكن هالة بديلًا عن غائبة، بل شخصًا جديدًا يجلس مع ذكراها من غير منافسة.

بعد أن خرجت، كتب زين لها رسالة يشكرها. قرأها مرتين، ثم حذف كلمة «واجب». ترك: «وجودك فرق.» أرسلها قبل أن يقرر هل الجملة كافية.

كان مروان قد عاد إلى الكويت. اتفق مع سالي على مكالمة الجمعة، ورسالة قصيرة كل مساء لا تتحول إلى كشف حضور. في

أول أسبوع تأخر عن الاتصال عشر دقائق. تركت الهاتف يرن مرتين قبل أن ترفع.

قال: «آسف. العملية طولت.»

شعرت للحظة أن زين هو الذي يتحدث. حتى كلمة «العملية» خرجت بالنبرة نفسها تقريبًا. أغمضت عينيها، ثم فتحتهما.

«المريض عامل إيه؟»

«مستقر.»

«وإنت؟»

سكت مروان.

قالت: «أنا سألت عليك إنت.»

«لسه خارج من التركيز. اديني دقيقة.»

سمعت صوت باب يغلق عنده، ثم أنفاسه تتباطأ. لم يكن زين يفعل ذلك؛ كان يحمل غرفة العمليات معه إلى البيت ويختبئ داخل التعب.

قال مروان بعد دقيقة: «دلوقتي أقدر أتكلم.»

حكيا عن أسبوعهما. أخبرته عن حلقة أوقفتها الرقابة، وأخبرها عن مريض مصري رفض توقيع الموافقة لأنه لا يقرأ الإنجليزية. اختلفا حول مسؤولية المستشفى. ارتفع صوته، ثم قال:

«أنا بتكلم كطبيب بيدافع عن نظام شغال فيه، مش كزوج مستقبلي لازم يطلع صح.»

ضحكت. «لسه ما بقيتش زوج.»

«عشان أتدرب بدري.»

لم تكن كل المكالمات جيدة. في الأسبوع الرابع، قال إن السفر للتصوير بعد الزواج سيكون صعبًا، وإن عملها يحتاج إلى ترتيب حول نوباته. سألته:

«ترتيب لمين؟»

«لينا.»

«إنت شغلك ثابت، وأنا اللي هترتب.»

قال بحدة: «أنا بحاول أفكر عملي.»

ردت: «العملي أحيانًا اسم مؤدب لتنازل الست.»

أغلقا المكالمة من غير اتفاق. لم يتصل يومين. في اليوم الثالث، وصل فاكس إلى مكتبها يحمل سطرًا بخطه: «أنا خلطت القلق بالحق. ما عنديش حق أرتب حياتك وحدي.»

كتبت على ظهره: «الاعتراف بداية. مش حل.»

جاء الرد: «موافق. نكمل الكلام الجمعة.»

في المستشفى، كان زين يتدرب تحت إشراف الدكتور صفوت على حالات أكثر تعقيدًا. بعد خطأ الجرعة الذي لم يصل إلى المريض، صار يراجع كل رقم مرتين. لم يمدحه أحد على ذلك؛ كان الحد الأدنى الذي يجب أن يفعله.

قال له صفوت: «الخوف بعد الخطأ مفيد يومين. بعد كده لو فضل، هيعمل خطأ جديد.»

«أعمل إيه؟»

«اعرف سببه. إنت كنت غايب ليه؟»

لم يقل اسم سالي ولا الخطوبة. قال: «كنت فاكر إني أقدر أفصل.»

«محدش بيفصل. إحنا بنتعلم نحط اللي جوانا في مكان ما يمسكش المشرط.»

بدأ زين يذهب إلى طبيب نفسي يعمل مع الأطباء، من غير أن يخبر كمال. أخبر هالة في الأسبوع الثاني.

قالت: «ليه ما قلتش من الأول؟»

«كنت مكسوف.»

«من العلاج ولا من إنك محتاجه؟»

«الاتنين.»

أغلقت دفتر الأسئلة. «دي أول إجابة ما حاولتش تخليها شكلها أحسن.»

في إحدى مكالمات الجمعة، لم يكن لدى سالي ومروان شيء مهم يقولانه. حكى لها أنه اشترى حذاءً ضيقًا لأن البائع أقنعه أن الجلد سيتسع. حكت له أن المذيع نطق اسم ضيفة خطأ ثلاث مرات وألقى اللوم على الورقة. تحدثا عن طبق فشل في إعداده، وعن صوت جار جديد عنده يجر الأثاث بعد منتصف الليل.

بعد أن أغلقت، أدركت أنها لم تقارن صوته بزين طوال المكالمة. لم يحدث اكتشاف كبير. فقط مرّت أربعون دقيقة عادية، وهذا ما جعلها مهمة.

في الأسبوع التالي، كان مروان مرهقًا ومختصرًا. سألها سؤالين ثم بدأ يقلب صفحات ملف أثناء حديثها. توقفت عن الكلام ولم ينتبه. أغلقت الهاتف. اتصل بعد دقائق مستغربًا. قالت إنها لا تريد وقتًا مسجلًا في الجدول بينما عقله في مكان آخر.

قال: «كنت لازم أخلص تقرير.»

«خلصه وبعدين كلمني.»

لم يتصل في الموعد التالي لأنه دخل عملية طارئة، لكنه أرسل قبلها إلى مكتب الاستقبال رسالة من سطر واحد: «لن أستطيع الحضور إلى المكالمة. لا تنتظري الهاتف.» لم تكن رومانسية. كانت احترامًا للوقت، وهو شيء لم تحصل عليه سالي بسهولة من قبل.

في نهاية الشهر الثاني، عاد مروان إلى القاهرة لأسبوع. ذهب مع سالي إلى معرض سامر. كانت لوحة «ثلاثة فوق السطح» معلقة في غرفة جانبية بعد أن وافق الثلاثة على عرضها بلا أسماء. وقف زين وهالة أمامها حين دخلا.

تجمعت الشخصيات الخمس في مساحة أصغر من أن تتجاهل أحدًا.

قال سامر: «أخيرًا اللوحة عملت اللي ما عرفناش نعمله. جمعتكم من غير عمارة.»

قالت سالي: «ما تديش نفسك فضل زيادة.»

ضحك مروان. أما هالة فاقتربت من اللوحة. سألت سامر لماذا رسم النبتة حية مع أنها ماتت.

قال: «لأني مش مصور.»

ردت: «ولا لأنكم محتاجين تصدقوا إن حاجة كملت؟»

نظر إليها سامر للمرة الأولى كفنان ينظر إلى قارئ حقيقي، لا كخطيبة صديقه.

قال: «يمكن.»

اشترى رجل مجهول اللوحة في نهاية المساء. حين علم أنها بيعت، شعر الثلاثة بشيء يشبه فقدًا جديدًا. قال سامر إن الاتفاق كان أن تُعرض لا أن تبقى لهم. لم يعترض أحد، لكنهم ظلوا ينظرون إلى الحائط الفارغ بعد نزعها.

خارج المعرض، وقف زين وهالة ينتظران سيارة. كانت سالي ومروان على الرصيف الآخر. عبر مروان أولًا، ثم مد يده إلى سالي

لأن الرصيف مكسور. لم تمسكها فورًا؛ نظرت إلى الطريق، ثم أخذتها.

قالت هالة: «هو شبهك.»

لم يسأل من تقصد.

«عارف.»

«بس مش بيتصرف زيك.»

قال: «عارف.»

نظرت إليه. «وأنا مش شبهها.»

قال بسرعة: «عارف.»

«ورّيني إنك عارف.»

الفصل السابع والستون

المرأة التي رفضت أن تكون جسرًا

عاد تدريب هالة في الإسكندرية إلى القاهرة قبل موعده بشهر، لكن المسافة بينهما لم تعد مرتبطة بالمدينة.

كان زين يحاول. يحدد موعدًا ويصل، يتصل من المستشفى إذا تأخر، ويسألها عن يومها قبل أن يحكي عن حالاته. غير أن الجهد نفسه كان ظاهرًا، كأن كل حركة ينجزها بند في خطة علاج. هالة لم ترد زوجًا مهملًا، لكنها لم ترد أيضًا رجلًا يؤدي الاهتمام لأنه يعرف أنه مطلوب.

في مساء الثلاثاء، ذهبا لرؤية الشقة المقترحة. كانت في شارع جانبي قريب من روكسي، بالطابق الرابع، وشرفتها تطل على مبنى آخر لا على شجرة. مشى زين في الغرف يقيس المسافات بعينيه. قالت هالة إن الغرفة الصغيرة تصلح مكتبة. قال إنها تصلح غرفة طفل.

توقفت.

«إنت عايز أطفال؟»

«أكيد.»

«إمتى؟»

«بعد الجواز بسنة أو اتنين.»

«اتكلمنا في ده قبل كده؟»

«لأ، بس الطبيعي...»

رفعت يدها. «الطبيعي أخطر كلمة في الجواز.»

جلسا على أرض الصالة الفارغة. من الشارع جاء صوت بائع خضار. قالت هالة إنها لا تعرف إن كانت تريد أطفالًا سريعًا، وإنها تفكر في زمالة بالخارج. بدا الخبر جديدًا عليه، مع أنها ذكرته مرتين من قبل.

قال: «فين؟»

«فرنسا أو بلجيكا.»

«وخطتنا؟»

ابتسمت بحزن. «أخيرًا قلت خطتنا لما ظهر شيء ممكن يبعدني.»

فهم أنها لا تحتفل.

قال: «ممكن نأجل.»

«مين يؤجل؟»

«نتفق.»

«إنت دايمًا بتقدم حل قبل ما تقول إنك خايف.»

سكت.

قالت: «أنا خايفة أتجوزك وأفضل طول الوقت بحاول أعرف هل أنت معايا ولا بتحاول تبقى الشخص الكويس اللي ما خذلنيش.»

«أنا مش عايز أخذلك.»

«بس عايزني؟»

كانت هذه نسخة السؤال الخامس في دفترها.

نظر إلى الغرفة الصغيرة. تخيل سريرًا، وخزانة، وكتبًا، وحياة يمكن أن تكون مستقرة. لم يرَ هالة داخلها فورًا. رأى فكرة الزواج.

قال: «أنا بحترمك جدًا.»

أغلقت عينيها.

«دي الإجابة اللي كنت خايفة منها.»

قال: «أنا ممكن أحبك.»

«ممكن مش وعد. ومش ذنبك. بس ما ينفعش أعيش مستنية يتحول الاحترام لحب، وإنت مستني الحب القديم يهدى.»

خلعت الخاتم ووضعته في كفه. لم تبكِ. ارتجفت أصابعها فقط.

قال زين: «إديني وقت.»

«أديتك. وأنا كمان ليّ وقت.»

«الناس هتقول إيه؟»

ضحكت لأول مرة بمرارة.

«إنت سألت السؤال ده؟»

خفض رأسه.

قالت: «قول لهم الحقيقة: إن هالة ما رضيتش تكون جسر تعبر عليه من حياة لحياة.»

خرجت من الشقة. بقي زين جالسًا فوق الأرض، والخاتم داخل قبضته.

نزلت هالة إلى الشارع ولم تجد سيارة أجرة. مشت حتى روكسي والخاتم داخل جيب معطفها يضرب فخذها مع كل خطوة.

اتصلت بأمها، ثم أغلقت قبل أن ترد. لم تكن مستعدة لسماع

سؤال: «حصل إيه؟» لأن ما حدث لم يكن حادثة واحدة يمكن روايتها.

دخلت مقهى صغيرًا وطلبت شايًا. جاءها في كوب زجاجي رقيق. وضعت الخاتم إلى جواره، ثم غطته بمنديل حين لاحظت نظرات رجلين عند الطاولة المقابلة. شعرت بالغضب من أنها ما تزال تحمي صورة خطوبة انتهت قبل دقائق.

وصلت أمها بعد نصف ساعة؛ كانت قد فهمت من المكالمة المقطوعة. جلست من غير أن تعانقها فورًا.

قالت: «هو عمل حاجة؟»

«ما عملش. دي المشكلة.»

شرحت لها بصعوبة أن زين محترم، وأنه لم يكذب عليها صراحة، وأن الاحترام كله لم يجعلها مرئية داخل الخطة التي صنعها لحياته. حاولت أمها أن تقول إن الحب يأتي بعد الزواج. ردت هالة بأنها لا تطلب قصة كبيرة، بل أن يكون قرار الزواج متجهًا إليها لا بعيدًا عن امرأة أخرى.

قالت أمها: «والناس؟»

نظرت هالة إلى الخاتم تحت المنديل.

«الناس هتتكلم أسبوع. وأنا كنت هعيش العمر.»

في البيت، أعادت الهدايا إلى صناديقها. احتفظت بكتاب أهداه لها زين لأنه كتب اسمها على الصفحة الأولى لا لأنه يخص الخطوبة.

في اليوم التالي ذهبت إلى المستشفى في موعدها. أخطأت ممرضة صغيرة في ترتيب أدوات التخدير، فصححتها هالة من غير أن ترفع صوتها. لم تجعل ألمها سببًا ليخاف منها أحد.

حين أخبر كمال، ثار الأب. قال إن هالة بنت ممتازة، وإن زين يكرر الخطأ نفسه، وإن سالي ستتزوج بعد أشهر ولن تعود. لم يدافع زين عن نفسه.

قال كمال: «إنت مستني إيه؟»

«مش مستنيها.»

«أمال؟»

فتح زين يده ووضع الخاتم فوق المائدة.

«بتعلم ما أدخلش حد في انتظار مش بتاعه.»

صمت كمال. كان يمكنه أن يفهم الجملة عن نفسه، لكنه لم يفعل بعد.

وصل الخبر إلى الطابق الثاني قبل المساء. كانت سالي تختار مع ليلى قماش الستائر حين رن الهاتف. قالت ريم إن الخطوبة انتهت، ثم أضافت بسرعة إن هالة هي التي قررت.

وضعت سالي السماعة. سألتها ليلى:

«إيه؟»

«زين وهالة انفصلوا.»

توقفت يد أمها فوق القماش.

«إنتِ كويسة؟»

قالت سالي: «مش عارفة ليه كل خبر عنه لازم يتحول لسؤال عني.»

لكنها ذهبت إلى الشرفة. في الأعلى كان ضوء غرفته مشتعلًا. لم تتصل، ولم تصعد.

في مكالمة الجمعة، أخبرت مروان بنفسها. لم تقلها كاعتراف، بل كخبر يعرف أنه سيصل.

سكت لحظة، ثم سأل:

«إنتِ عايزة تعملي إيه؟»

«ولا حاجة.»

«مش بسألك عشان أختبرك.»

«أنا زعلانة على هالة.»

«وعليه؟»

قالت بعد صمت: «عليه كمان. بس الزعل مش قرار.»

قال مروان: «أنا غيور.»

«عارفة.»

«ومش هقول لك ما تزعليش.»

«كويس.»

«بس محتاج أعرف إننا مش هنفضل كل ما باب عنده يفتح، نقف إحنا.»

قالت: «مش هنقف. لكن ما تطلبش مني أمشي كأني ما سمعتش.»

اتفقا أن ينهيا المكالمة ويعودا إليها في اليوم التالي. لم يتحول الصدق إلى حل سحري، لكنه منع الخوف من ارتداء ثياب السيطرة.

قبل إرسال الطلب، جلست هالة مع رئيسة القسم لمراجعة أوراقها. سألتها الطبيبة الأكبر لماذا اختارت فرنسا الآن. قالت هالة إن الفكرة قديمة، وإنها أخّرتها مرتين؛ مرة بسبب نقص المال، ومرة لأنها بدأت ترتب حياتها حول خطوبة لم تتأكد منها.

قالت رئيسة القسم: «يعني السفر رد فعل؟»

فكرت هالة، ثم قالت: «لو ما اتقبلتش، هكمل هنا. ولو اتقبلت، هروح عشان الشغل. مش عشان أثبت له حاجة.»

طلبت منها إعادة كتابة خطاب الدافع وحذف الفقرة التي تتحدث عن «بداية جديدة». قالت إن لجان الزمالة لا تهتم بما تحاول الهرب منه، بل بما ستضيفه إلى مهنتها. أعادت هالة الخطاب في ليلتين، وكتبت عن سلامة التخدير في المستشفيات محدودة الموارد، وعن رغبتها في بناء بروتوكول تدريب للممرضين الجدد.

حين ضغطت زر الإرسال، لم تفكر في زين. بعد دقائق فقط تذكرت أن هذه أول خطوة كبيرة منذ أشهر لا تحتاج أن تخبره بها.

بعد أسبوع أرسلت هالة طلب الزمالة إلى فرنسا. ظلت تعمل مع زين في المستشفى أشهرًا؛ وفي أول حالة جمعتهما بعد الانفصال، أعطته جرعة الدواء بصوت مهني ثابت. قال: «شكرًا يا دكتورة هالة.»

ردت: «العفو يا دكتور زين.»

لم يكن ذلك برودًا. كان حدًا جديدًا يحميهما معًا.

الفصل الثامن والستون

حياة سامر خارج الصورة

بيعَت لوحة «ثلاثة فوق السطح» بسعر لم يتوقعه سامر. اشترتها سيدة تعمل في دار نشر، وقالت إنها رأت فيها طفولة المدينة قبل أن تأكلها المباني. صافحها، ووقّع خلف الإطار، ثم قضى الليل نادمًا.

لم يكن ندمه لأن اللوحة غادرت. كان لأنه رأى كيف وقف الناس أمامها يتحدثون عن زين وسالي، بينما صار هو في أعينهم الراوي الذي عرف الاثنين. حتى المقال الصغير الذي نُشر عن المعرض حمل عنوانًا: «الفنان الذي رسم قصة الحب الأشهر في عمارة مصر الجديدة.»

مزق الجريدة، ثم أعاد جمعها من سلة المهملات لأنه احتاج إلى عنوان الصحفية.

اتصل بها.

قال: «المعرض مش عن قصة حب.»

ردت: «بس دي اللوحة اللي الناس وقفت عندها.»

«في خمس وعشرين لوحة تانية.»

«الجمهور بيختار.»

«وإنتِ بتختاري تحكي إيه عن اختياره.»

نشرت الصحيفة تصحيحًا صغيرًا لم يقرأه أحد تقريبًا.

في المعرض نفسه، تعرف سامر إلى مها، زميلة سالي القديمة. كانت تعمل في إنتاج البرامج الوثائقية، وجاءت لتغطية الافتتاح. لم تسأله عن سالي وزين. وقفت أمام لوحة عامل يحمل كيس أسمنت على السلم، وقالت إن الرجل يبدو كأنه يصعد المبنى كله على ظهره.

قال سامر: «دي أول لوحة حد يسألني عنها غير لوحة السطح.»

«يمكن عشان الناس بتحب الحكاية الجاهزة.»

«وإنتِ؟»

«بحب اللي يخليني أشتغل شوية.»

في أول يوم تصوير، أخذهما عامل الترميم إلى بيت في السيدة زينب انهار جزء من سقفه. كان سامر يريد تصوير الشقوق في الضوء الصباحي، بينما أصرت مها على البدء بصوت أصحاب

البيت. قال إن الصورة ستضيع إذا انتظروا. قالت إن البيت ليس ديكورًا وإن السيدة التي تعيش فيه لم توافق بعد على ظهور غرفتها.

اختلفا أمام باب الشقة. خرجت صاحبة البيت، امرأة في الستين، وسألتهما هل سيصوران الحائط أم قصتها. ارتبك سامر. قالت مها إن القرار لها. وافقت المرأة على تصوير يدها وهي تزيل الغبار عن إطار صورة، ورفضت تصوير وجهها.

بعد ساعتين، اعترف سامر أن مها كانت محقة. قالت إنها لم تكن محقة بالكامل؛ الضوء اختفى فعلًا، وكان يمكنها أن تتحدث مع السيدة أسرع. لم تحوّل الخلاف إلى درس في الأخلاق. جلستا على السلم يأكلان فولًا في ورق، وراجع كل منهما ما خسره بسبب عناده.

في الأسابيع التالية، عرف سامر أن مها تكره قيادة السيارة ليلًا، وأنها تجمع تذاكر القطارات القديمة، وأنها لا تحب أن يصمم لها أحد مستقبلًا جاهزًا. عرفت هي أنه يترك أقلامه في كل مكان،

وأنه ينام حين يقلق، وأنه يستطيع أن يقضي يومًا كاملًا يعدّل ظلًا صغيرًا ثم يرسل العمل قبل الموعد بدقيقة.

لم تكن علاقتهما مريحة دائمًا. مرة، ألغت مها عشاءً لأن منتجًا دعاها إلى اجتماع مفاجئ. غضب سامر وقال إنها تتصرف كأن الوقت الذي يخصهما قابل للحذف. اعتذرت، ثم سألته كم مرة فعل الشيء نفسه من أجل زين وسالي. لم يجد رقمًا يخفف الحرج. اتفقا أن الطوارئ الحقيقية لا تحتاج إذنًا، لكن كل شيء آخر يحتاج رسالة واضحة لا اختفاءً.

بدأا يلتقيان. لم يخبر سامر زين فورًا، ولم يطلب من سالي رأيها. كان يريد علاقة لا تحتاج إلى المرور عبرهما. عمل مع مها على فيلم قصير عن عمّال ترميم البيوت القديمة. رسم مواقع العمل، وسجلت هي أصوات العمال. للمرة الأولى صار فنه جزءًا من مشروع لا تكون العمارة رقم 12 مركزه.

لكن عادته القديمة لحقت به. كان يصل متأخرًا لأنه يذهب إلى زين، أو يترك العمل ليحل خلافًا عائليًا، أو يجيب هاتف سالي في منتصف اجتماع. قالت مها بعد شهرين:

«إنت موجود في حياة ناس كتير أكتر ما إنت موجود في حياتك.»

«دول أهلي.»

«وأنا مش بطلب منك تسيبهم. بس كل ما نقرب من حاجة تخصنا، يظهر حريق قديم لازم تجري تطفيه.»

قال: «أنا مش هسيب زين لوحده بعد فسخ الخطوبة.»

«هو طلبك؟»

لم يطلب. سامر ذهب من نفسه، حمل طعامًا، جلس حتى الفجر، وقال الجمل التي يعرف أن صديقه يحتاجها. عاد إلى مها في اليوم التالي متعبًا، فوجدها أكملت مقابلة مهمة من دونه.

غضب لأنها لم تنتظره.

قالت: «دي شغلتي.»

«والمشروع بتاعنا.»

«بالضبط. عشان كده ما ينفعش يتوقف كل مرة عشان قصة مش قصتنا.»

خرج قبل أن يقول شيئًا يندم عليه. ذهب إلى العمارة، ثم توقف عند الباب. صعد إلى السطح وحده. كانت البلاطة التي حملت

العلبة المعدنية قد تغير لونها، لكن لا أحد كان هناك ليشرح له معناها.

فهم أن دوره كصديق صار طريقة يهرب بها من احتمال أن يفشل في حياته الخاصة. طالما هو الذي ينقذ الآخرين، لا يضطر إلى أن يطلب منهم البقاء معه.

في اليوم التالي، اعتذر لمها من غير خطاب طويل. قال إنه سيكمل الفيلم في مواعيده، وإنه لن يجعل الطوارئ العاطفية مبررًا دائمًا. لم تصدقه فورًا. طلبت أن ترى.

بدأ يضع الهاتف على الصامت أثناء التصوير. حين اتصل زين ثلاث مرات في يوم واحد، أرسل له: «في شغل. أكلمك بالليل.» شعر بالذنب، لكنه لم يترك الكاميرا.

في الليل، اكتشف أن زين لم يكن في أزمة؛ كان يريد رأيه في معطف للسفر المحتمل. ضحك سامر للمرة الأولى من حجم الدور الذي اخترعه لنفسه.

قال له: «إنت قادر تختار معطف لوحدك.»

«كنت بس بسألك اللون.»

«رمادي. وماتكلمنيش وأنا بصور إلا لو القلب نفسه خرج من مكانه.»

«إنت بتصور؟»

«آه. عندي حياة.»

سكت زين، ثم قال: «عارف.»

«لأ. إنت بتتعلم.»

قبل العرض بأسبوع، اختلفا على النهاية. أراد سامر لقطة للبيت بعد انتهاء الترميم، نظيفًا وخاليًا. أرادت مها أن ينتهي الفيلم بصوت العمال وهم يتجادلون على الأجر بعد أن غادرت الكاميرا الغرفة الجميلة.

قال سامر: «هتكسري الصورة.»

«الصورة مكسورة أصلًا لو خبينا اللي براها.»

أعادا المونتاج ثلاث مرات. في النسخة الأخيرة، ظهرت الغرفة بعد طلائها، ثم بقي الصوت ممتدًا من الممر: عامل يطلب باقي أجره، وصاحب عمل يقول إن الدفعة لم تصل. لم يظهر حل. في العرض،

قال أحد الحاضرين إن النهاية محبطة. رد سامر بأنها جعلته هو نفسه غير مرتاح، وهذا سبب كافٍ لبقائها.

بعد القاعة، وقفا عند عربة فول. لم يكن معهما مال يكفي لسيارة أجرة، فسارا حتى محطة المترو. قالت مها إنها تلقت عرضًا أوليًا في بيروت، ولم تقرر بعد. شعر سامر برغبته القديمة في تقديم حل: يمكنه السفر، أو يمكنها الرفض، أو يمكنهما تأجيل كل شيء. لم يقل شيئًا من ذلك.

قال: «هتوحشيني لو رحتي.»

انتظرت بقية الجملة.

«وده مش سبب كفاية ما تروحيش.»

قالت: «ولا سبب قليل.»

مشيا حتى المحطة من غير اتفاق. كان الخوف موجودًا، لكنه لم يحتج أن يتحول إلى أمر.

أنهى سامر ومها الفيلم. حين عُرض، لم يذكر أحد زين أو سالي.

وقف سامر في آخر القاعة وشعر بخوف غريب: إذا لم يكن صديق البطلين، فمن يكون؟ ثم ظهرت على الشاشة يد عامل

تمسح الغبار عن نقش قديم، وعرف أن السؤال يمكن أن يظل مفتوحًا.

اشترى بثمن اللوحة الأولى مرسمًا صغيرًا بالإيجار. وضع على الباب اسمه وحده: «سامر فؤاد - رسم وتصميم». لم يكتب «صديق زين» أو «صاحب حكاية العمارة».

دعا زين وسالي ومروان إلى الافتتاح. جاءت سالي مع مروان. جاء زين وحده. وقفت مها إلى جوار سامر، لا خلفه. حين التقطوا صورة، لم يطلب المصور أن يقترب أحد من أحد. ترك بينهم مسافات طبيعية، وبدا كل شخص داخل حياته لا داخل ترتيب قديم.

الفصل التاسع والستون

الخطأ الأول لمروان

قبل الزفاف بثلاثة أشهر، وصل إلى سالي ظرف من الكويت يحمل نسخًا من إجراءات الإقامة. قرأت الصفحات في مكتبها، ثم توقفت عند بند صغير: «إقامة التحاق بعائل - غير مصرح بالعمل إلا بعد موافقات منفصلة.»

اتصلت بمروان من هاتف القناة.

قالت: «إنت عارف إن الإقامة ما تسمحليش أشتغل؟»

سكت نصف ثانية أطول مما يحتمل السؤال.

«عارف إن في إجراء إضافي.»

«من إمتى؟»

«من أسبوعين.»

«وما قلتليش ليه؟»

«كنت بحاول أحلها قبل ما أقلقك.»

أغلقت عينيها. كانت الجملة نفسها التي استخدمها فؤاد، ثم زين، ثم كل رجل ظن أن إخفاء المشكلة شكل من أشكال الحب.

قالت: «إنت وعدت إنك ما تستخدمش الإقامة كسلطة.»

«أنا ما استخدمتهاش.»

«إنت أخفيت إن شغلي هيقف، وقررت إنك هتحل من غيري.»

ارتفع صوته. «أنا بكلم المستشفى والوزارة من أسبوعين!»

«وده شغلي أنا كمان.»

«كنت عايز أجيب لك خبر كويس.»

«وأنا مش طفلة تستنى النتيجة.»

أغلقت المكالمة.

في المساء، أخبرت فؤاد وليلى. توقع فؤاد أن يطلب منها الهدوء، لكنه قرأ الأوراق ثم قال:

«ده غلط.»

قالت ليلى: «نأجل؟»

لم تجب سالي فورًا.

قضى مروان ليلة السفر في مكتب الموارد البشرية بالمستشفى. عرض عليه الموظف أن يصدر لسالي إقامة عائلية أولًا ثم «تتظبط بعدين». كانت الجملة سهلة ومألوفة. قبل شهر، كان سيعتبرها

حلًا مؤقتًا. هذه المرة طلب خطابًا رسميًا يوضح المدة والإجراءات، فرفض الموظف أن يكتب وعدًا لا يملكه.

اتصل مروان بصديق يعمل في محطة تلفزيونية، ثم تراجع قبل أن يرسل السيرة الذاتية. كتب رسالة لسالي يشرح ما عرفه، ومسحها ثلاث مرات. في الرابعة لم يحاول جعل نفسه بطلًا: «عرفت من أسبوعين. خفت أقول قبل ما ألاقي حل. الخوف خلاني أخفي معلومة تخصك.» لم يرسلها؛ حجز أول رحلة وحمل الأوراق معه.

في الطائرة، لم ينم. أعاد في رأسه حديثه القديم عن أن الضيق لا يمنحه حق التفتيش. اكتشف أن السيطرة لا تبدأ دائمًا من الشك. أحيانًا تبدأ من اقتناع هادئ بأنك أقدر على إدارة المشكلة من صاحبها.

جاء مروان إلى القاهرة في اليوم التالي، تاركًا نوبة بدّلها بصعوبة. لم يذهب إلى بيتها مباشرة. اتصل وطلب أن تقابله في القناة بحضور داليا، لأنها تفهم طبيعة عمل سالي وتستطيع أن تسأل عن البدائل.

جلس أمامهما ووضع ملفًا كاملًا فوق الطاولة.

قال: «أنا غلطت لما خبيت. وما ينفعش أصلح الغلط بقرار جديد لوحدي.»

شرح أن المستشفى في الكويت يستطيع إصدار عقد مؤقت لسالي ضمن قسم الإعلام الصحي، لكن الوظيفة لا تشبه عملها التلفزيوني، وأن هناك محطة خاصة يمكنها التقديم لها بعد الوصول، من غير ضمان. اقترح ثلاثة خيارات: تأجيل السفر، أو سفره وحده بعد الزواج وبقاؤها في القاهرة حتى تحصل على تصريح مستقل، أو سفرها معه لفترة تجربة مع حق العودة.

سألته داليا: «وأنت تفضّل إيه؟»

قال: «أفضل تيجي. بس تفضيلي مش قرار.»

نظرت سالي إليه. كان متعبًا، وتحت عينيه أثر سفر بلا نوم. لم يعفِه ذلك.

قالت: «أنا مش هقبل وظيفة معمولة عشاني عشان تبان المشكلة اتحلت.»

«موافق.»

«وهنأجل السفر النهائي، مش الجواز، لحد ما أقدم بنفسي.»

تردد. ظهر خوفه واضحًا.

«قد إيه؟»

«ست شهور حد أقصى.»

«يعني نتجوز ونعيش في بلدين؟»

«ممكن.»

قال بحدة: «ده مش الشكل اللي اتفقنا عليه.»

ردت: «ولا الإقامة التابعة كانت الشكل اللي اتفقنا عليه.»

صمت. ثم قال: «عندك حق.»

قالت داليا: «الحق مش نهاية الحوار.»

ابتسمت سالي. «بالضبط.»

استمر النقاش ساعتين. انتهى إلى حل غير مريح: يتم الزواج في موعده، يبقى مروان في القاهرة شهرًا، ثم يعود إلى الكويت، وتستمر سالي في عملها حتى تحصل على فرصة حقيقية أو تقرر بنفسها تجربة الانتقال. لم يخرج أحد منتصرًا.

في اليوم التالي، ذهبت الحاجة منى إلى بيت فؤاد وحدها. لم تأتِ لتضغط على سالي، بل لتفهم لماذا سيعيش ابنها بعد الزواج بعيدًا عن زوجته. جلست على طرف الكنبة، ووضعت حقيبتها في حجرها.

قالت: «أنا ابني عاش لوحده سنين. كنت فاكرة الجواز هيريحه.»

قالت سالي: «وأنا مش وظيفة راحة.»

تأذت المرأة من العبارة. ردت ليلى قبل أن يحتد الكلام: «هي مش بتقول إنه ما يستحقش بيت. بتقول إن البيت مش لازم يتبني من شغلها المهدوم.»

سألت الحاجة منى إن كان مروان سيعود إلى القاهرة إذا لم تحصل سالي على عمل. لم تعرف سالي. قالت إنهما لم يصلا إلى تلك المرحلة بعد. بدا القلق على وجه الأم؛ لم تكن شريرة ولا متآمرة، كانت تخاف أن يخسر ابنها السنوات التي بناها في الكويت.

قالت سالي: «خوف حضرتك مفهوم. بس لو بقى هو اللي يقرر، هنرجع لنفس الغلط.»

خرجت الحاجة منى من غير اقتناع كامل. بعد يومين اتصلت بسالي وسألتها عن اسم البرنامج الذي تعمل فيه. شاهدت حلقة كاملة، ثم قالت لمروان إنها فهمت لماذا لا تريد تركه بسهولة. لم تصبح حليفة مثالية، لكنها توقفت عن وصف العمل بأنه «حاجة تتعوض».

حين أخبر مروان والدته، غضبت. قالت إن الناس ستتكلم، وإن زواجًا يبدأ بالمسافة علامة سيئة. قال إن الزواج الذي يبدأ بإلغاء حياة أحدهما علامة أسوأ. لم تقتنع، لكنها توقفت عن الضغط حين قال إنه هو الذي أخفى المعلومة.

وصل الخبر إلى زين من فؤاد حين جاء لقياس ضغطه. لم يسأل عن التفاصيل، لكن فؤاد قال:

«كان ممكن الموضوع يقف.»

قال زين: «ووقف؟»

«لأ. اتخانقوا وكملوا.»

بقي زين يلف شريط جهاز الضغط حول ذراع فؤاد.

قال الأب: «هو غلط واعترف.»

«كويس.»

«إنت لو كنت مكانه؟»

نظر زين إلى المؤشر.

«كنت هحاول أحل لوحدي.»

«وعشان كده يمكن هي اختارته.»

لم يقلها فؤاد بقسوة. كانت حقيقة خرجت متأخرة. سجل زين القراءة، ثم أعاد الجهاز إلى حقيبته.

في الليلة نفسها، اتصل بسالي. لم يتحدثا منذ السطح.

قال: «عم فؤاد قال إن في مشكلة في السفر.»

«اتحلت جزئيًا.»

«لو احتجتِ أي حد يسأل عن إجراءات الأطباء هناك...»

قاطعته: «مروان طبيب هناك يا زين.»

شعر بسخافة عرضه.

«صح.»

قالت: «بس شكرًا.»

سكتا.

قال زين: «هو غلط.»

«آه.»

«وإنتِ مكملة.»

«آه.»

«ليه؟»

قالت: «عشان ما حاولش يقنعني إن الغلط ما حصلش. وعشان الحل ما رجعش حقي منّة.»

أغلقا. بقي زين يفكر في عدد المرات التي اعتذر فيها، وعدد المرات التي غيّر فيها السلوك فعلًا.

الفصل السبعون

غرفة العمليات لا تنسى

كان عادل واعيًا حين وصل. أمسك يد زين وسأله إن كان الألم من القلب. قال زين إنهم يفحصون الشريان وإن الوقت مهم. طلب الرجل أن يتصل بزوجته قبل أن يدخل أي إجراء. أعطاه الممرض الهاتف، لكن الشبكة انقطعت داخل غرفة الأشعة. قال عادل إن بناته نائمات وإنه لا يريد إخافتهن.

ظهرت العلامات واحدة بعد أخرى لا دفعة واحدة. ضغط منخفض، عرق بارد، قدم فقدت دفئها، وألم انتقل إلى الظهر. رأى زين الصورة غير مكتملة. كان قبل أشهر سينقل المريض فورًا؛ بعد خطأ الجرعة صار يخشى أن يبني قرارًا على قراءة متسرعة. طلب تحليلًا إضافيًا واتصل بالاستشاري مرة أخرى. قالت الممرضة إن لون القدم تغير. قال لها: «دقيقة.»

الدقيقة لم تكن واحدة. امتلأت بطباعة ورقة، ومكالمة قصيرة، وعربة لم تصل، وسؤال من زوجة وصلت إلى الباب. حين دخل

صفوت، كان عادل قد بدأ يفقد تركيزه. لم يوبخ زين أمامه. قال فقط: «نقل فورًا.»

في غرفة العمليات، وقف زين بعيدًا عن الرأس. لم يُسمح له بأن يقود أي خطوة. كانت هالة ضمن فريق التخدير، ولم تنظر إليه إلا حين انخفض الضغط فجأة. طلبت وحدات دم بصوت ثابت. رأى كيف يعمل الفريق حين لا يملك رفاهية إعادة الدقيقة.

جاءت الحالة في الثالثة فجرًا، قبل نهاية نوبة زين بساعة. رجل في الخامسة والأربعين وصل بألم حاد وضغط منخفض. أظهرت الأشعة اشتباهًا في تمزق بالشريان الأورطي. كان الاستشاري في طريقه، فبدأ زين تجهيز المريض.

لاحظت الممرضة أن كمية البول انخفضت، وأن القدم اليسرى أبرد. قالت إن الحالة تتدهور. نظر زين إلى الشاشة، ثم إلى نتيجة تحليل لم تصل بعد. قرر الانتظار دقائق لتأكيد التشخيص قبل نقل المريض إلى غرفة العمليات.

وصل الدكتور صفوت، قرأ العلامات، وسأل:

«ليه لسه هنا؟»

قال زين: «كنت مستني نتيجة...»

قاطع: «النتيجة مش هتصلح القدم لو فقدت الدم.»

دخل المريض العملية. استغرقت سبع ساعات. نجا، لكنه خرج بضعف دائم في الساق بسبب نقص التروية. لم يكن قرار زين وحده سبب النتيجة؛ المرض كان متقدمًا، لكن الدقائق التي انتظرها دخلت تقرير المراجعة.

جلس أمام لجنة من ثلاثة أطباء. لم يرفع أحد صوته. كان ذلك أسوأ.

سأله رئيس القسم: «إيه اللي خلاك تنتظر؟»

قال: «كنت عايز يقين أكتر.»

«وفي الحالة دي، تكلفة اليقين؟»

نظر زين إلى التقرير.

«الوقت.»

«كنت خايف تتصرف بدري ولا خايف تغلط؟»

«الاتنين.»

قال الدكتور صفوت: «بعد خطأ الجرعة، بقيت بتراجع كل حاجة زيادة. الخوف اللي كان المفروض يحمي المريض أخّرك.»

كانت الجملة دقيقة وقاسية. حُرم زين من قيادة الحالات الطارئة شهرين، وأُلزم بمراجعة قراراته مع استشاري. لم يُطرد، ولم تتحول الواقعة إلى مأساة صحفية. فقط عاد خطوة كاملة إلى الخلف.

في الزيارة الثانية، كان عادل في وحدة العلاج الطبيعي. وقف بين قضيبين معدنيين يحاول نقل وزنه إلى القدم اليسرى. ارتجفت الساق، فجلس غاضبًا. لم يره زين من الباب في البداية؛ رأى المدرس الذي وصفه الملف «مريضًا مستقرًا» يسبّ الأرض لأنه لم يستطع قطع متر واحد.

دخل بعد انتهاء الجلسة. كانت ابنة عادل الكبرى تكتب واجبًا جامعيًا قرب النافذة. عرفته فورًا، ثم عادت إلى الورق. لم تمنحه كراهية واضحة ولا راحة.

قال عادل: «كنت بطلع تلات أدوار المدرسة من غير ما أفكر.»

لم يجد زين جملة مناسبة.

«الدكاترة بيقولوا التحسن ممكن.»

«ممكن دي كلمة واسعة.»

أومأ زين. جلس ولم يعده بشيء. سأله عادل عن سبب انتظاره. شرح له التسلسل من غير مصطلحات تخفي المعنى. قال إنه خاف أن يتصرف على تشخيص غير مكتمل، وإن خوفه جعل العلامات الواضحة أقل وزنًا مما تستحق.

قال عادل: «يعني كنت خايف عليّ؟»

«آه. وخوفي أذاك.»

نظر الرجل إلى القضيبين المعدنيين. قال إنه لا يعرف إن كان سيسامحه، وإنه لا يريد أن يضطر إلى ذلك كي يتعافى. قال زين إنه لا يطلبه.

حين خرج، بقيت الابنة عند الباب. سألته إن كان سيكتب في التقرير أن والدها يحتاج علاجًا أطول حتى يوافق التأمين. قال نعم، ثم كتب الخطاب في الممر قبل أن يعود إلى المستشفى. لم يكن إصلاحًا للخطأ. كان عملًا يجب إنجازه لأن الرجل يحتاجه.

زار المريض بعد أسبوع. كان اسمه عادل، مدرس رياضيات، وأبًا لثلاث بنات. عرف أن ساقه قد تحتاج إلى شهور علاج وربما لا تعود كما كانت.

قال عادل: «الدكتور صفوت قال إنكم أنقذتوا حياتي.»

قال زين: «اتأخرنا في قرار.»

نظر إليه الرجل.

«إنت اتأخرت؟»

كان يمكن أن يختبئ خلف الفريق وتعقيد الحالة. قال: «أنا كنت أول واحد شاف العلامات، واستنيت نتيجة زيادة.»

دخلت زوجة عادل في اللحظة نفسها. سمعت الجملة. لم تصرخ. سألت:

«لو ما استنيتش، كان هيمشي طبيعي؟»

قال: «ما أقدرش أضمن. لكن كان عنده فرصة أفضل.»

جلست المرأة. قالت بعد صمت طويل: «شكرًا إنك قلت.»

لم يكن شكرًا على الخطأ، ولا غفرانًا. كان اعترافًا بأن الحقيقة جزء من العلاج حتى حين لا تصلح الضرر.

خرج زين من الغرفة ووجد هالة في الممر. كانت مسؤولة عن تخدير حالة أخرى. عرفت بما حدث من القسم.

قالت: «إنت كويس؟»

«لأ.»

«هتروح للطبيب اللي بتتابع معاه؟»

«آه.»

«كويس.»

لم تضع يدها على كتفه، ولم تعد خطيبته. لكنها لم تمنع إنسانيتها كي تحمي قرارها.

في المساء، جاء سامر إلى البيت. لم يحمل طعامًا ولا نصائح. جلس قرب زين في الشرفة.

قال زين: «كنت ممكن أضيّع رجله.»

«وأنت قلت له؟»

«آه.»

«عمل إيه؟»

«سمع.»

قال سامر: «أنا مش هقول لك إن كل الناس بتغلط. عشان غلطتك مش محتاجة تصغر.»

نظر إليه زين.

«اتغيرت.»

«عندي حياة.»

ابتسم زين للمرة الأولى منذ اللجنة.

بعد أسبوع، جاء خطاب ترشيح أولي لبعثة تدريب في لندن.

وضعه الدكتور صفوت أمام زين.

قال زين: «بعد اللي حصل؟»

«الترشيح مش مكافأة. والبعثة مش هروب. اللجنة هتعرف بالواقعة، وهي اللي تقرر.»

«ممكن أرفض.»

«ممكن. بس لو رفضت عشان تعاقب نفسك، هتبقى بتفكر في نفسك برضه، مش في المريض.»

قدّم زين الملف كاملًا، وأرفق تقرير الخطأ وقرار اللجنة. في المقابلة، سأله الطبيب البريطاني عن الحالة. لم يقل إن الظروف

كانت معقدة. قال إنه انتظر لأن خوفه من تكرار خطأ سابق أفسد تقديره للوقت.

سأله: «What changed after that?»

أجاب بالإنجليزية المترددة: «I stopped confusing caution with delay.»

لم يعرف إن كانت الإجابة ستمنحه المقعد أو تحرمه منه.

في شقة فؤاد، كانت سالي تقيس فستان الزفاف حين وصلها الخبر من ريم. جلست فوق المقعد والفستان حولها.

قالت ليلى: «زين عمل خطأ في حالة.»

«والمريض؟»

«عايش. بس رجله اتأثرت.»

أغلقت سالي عينيها. لم تفكر في الخطوبة أو مروان. فكرت في زين الطفل الذي كان يريد أن يصلح كل شيء، والرجل الذي تعلم أن بعض الإصلاح يبدأ بالاعتراف بأن اليد تأخرت.

أرسلت له رسالة قصيرة: «سمعت. أتمنى للمريض الشفاء. ما تهربش من اللي حصل، وما تخليش اللي حصل يبقى كل اللي إنت عليه.»

قرأها بعد منتصف الليل. لم يرد فورًا. في الصباح كتب: «بحاول.»

الفصل الحادي والسبعون

الرسالة التي لم تصل

بدأ زين الرسالة في ليلة لم يستطع فيها النوم. أخذ ورقة من ملفات المستشفى، وقلبها إلى الجهة البيضاء، وكتب: «سالي».

ظل الاسم وحده فوق الصفحة عشر دقائق.

كتب: «أنا ما اتخطبتش عشان أنساكي.» ثم شطبها. بدت كأنها إهانة لهالة.

كتب: «أنا فهمت متأخر إن الحب مش كفاية.» ثم شطبها. كانت جملة تصلح لخاتمة برنامج، لا لامرأة عاشت ثمنها.

كتب: «مروان شبهّي، لكن يمكن الشبه الحقيقي هو المهنة بس. هو عرف يعمل حاجات أنا ما عرفتش.» شطبها أيضًا. لم يرد أن يحول مروان إلى امتحان جديد.

في الفجر امتلأت الورقة بالخطوط السوداء، وبقي الاسم واضحًا وحده.

طواها ووضعها في جيب المعطف.

ذهب إلى المستشفى، ثم إلى جلسة المراجعة المهنية. طلب منه الدكتور صفوت إعادة بناء حالة عادل دقيقة بدقيقة. حين وصل إلى لحظة الانتظار، توقف.

قال صفوت: «إنت بتدور على اللحظة اللي لو غيرتها يتغير كل شيء.»

«هي موجودة.»

«موجودة في الحالة. مش موجودة في الحياة كلها. ما ينفعش تعيش بتعيد العملية القديمة.»

خرج زين والورقة في جيبه أثقل من الملف.

قابل هالة عند المصعد. كانت تحمل طلب السفر إلى فرنسا وقد حصلت على قبول مبدئي.

قال: «مبروك.»

«لسه إجراءات.»

«هتسافري؟»

«غالبًا.»

وقفا في صمت. ثم قالت:

«كنت عايز تقول لي حاجة قبل ما ننفصل.»

أخرج الخاتم من محفظته. كان لا يزال يحتفظ به حتى يعيده لأسرتها بطريقة رسمية.

«كنت هقول لك إني مش جاهز.»

«عارفة.»

«وإني ظلمتك.»

«عارفة.»

«وإني ممتن إنك وقفتي.»

نظرت إليه. «دي جديدة.»

«لو ما وقفتيش، كنت ممكن أكمل وأقنع نفسي إن الاحترام كفاية.»

قالت: «الاحترام مهم. بس ما ينفعش يبقى بديل عن إنك تشوف الشخص.»

سلّمها الخاتم. أخذته، ووضعته في جيبها بلا مراسم.

قالت هالة إنها ستعيده إلى أمها، وإنها لا تريد جلسة عائلية لتوزيع اللوم. سألها زين إن كان يمكن أن يودعها قبل السفر لو

اكتملت الإجراءات. قالت إن الوداع ليس دينًا، وإنهما سيعملان في القسم نفسه حتى ذلك الحين.

في الأسبوع التالي، جمعتهما حالة لطفلة تحتاج جراحة عاجلة. كانت هالة تشرح للأم خطوات التخدير، بينما يقف زين عند طرف الغرفة ينتظر توقيع الموافقة. ارتجفت يد الأم، فأبعدت هالة الورقة وسألتها إن كانت تريد إعادة الشرح. لم تتعجل التوقيع رغم أن غرفة العمليات تنتظر.

بعد خروج الأسرة، قال زين إن الوقت ضيق. ردت هالة: «عارفة. بس الموافقة اللي ما اتفهمتش مش موافقة.»

كان يمكن أن يسمعها كعتاب عن خطوبتهما. لم تفعل هي.

دخلت غرفة العمليات وعملت كأن حياتهما الخاصة لا تمنح أيًّا منهما حقًّا إضافيًا في تفسير الآخر.

قالت: «الورقة اللي في جيبك لسالي؟»

تفاجأ.

«باينة.»

نظر إلى الحافة البيضاء.

قالت: «ما تبعتهاش عشان ترتاح. ابعتها بس لو هتضيف لها حاجة مش حمل جديد.»

بعد خروجها، جلس في سيارته. فتح الرسالة. لم يجد فيها شيئًا يمكن أن يضيف لسالي. مزقها إلى أربع قطع، ثم توقف قبل أن يلقيها. جمع القطع، ووضعها في ظرف بلا عنوان داخل درج مكتبه.

في اليوم نفسه، كانت سالي تسجل حلقة عن رسائل لم تُرسل. اقترح المخرج أن يقرأ الضيوف الرسائل أمام الكاميرا. رفضت.

قالت: «في رسائل قيمتها إنها ما وصلت.»

«إزاي نعمل حلقة عن حاجة محدش هيسمعها؟»

«نسأل الناس إيه اللي منعهم، مش إيه اللي كتبوه.»

حضرت المرأة التي لم ترسل رسالة لحبيبها القديم مبكرًا. كانت في أواخر الأربعينيات، ترتدي خاتم زواج، ورفضت أن يظهر وجهها. جلست خلف حاجز ضوئي وقالت إن الرسالة لم تكن طلب عودة؛ كانت تريد فقط أن يعرف الرجل أنها لم تنسه. سألتها سالي ماذا

كان سيتغير لو عرف. سكتت المرأة طويلًا، ثم قالت: «أنا اللي كنت هرتاح. هو كان هيتحمل راحتي.»

توقفت سالي عن متابعة الورقة. طلبت من المخرج ألا يقاطع الصمت. بعد التصوير، شكرتها المرأة وسألت إن كانت سالي نفسها كتبت رسالة لم ترسلها. قالت سالي إنها لا تعرف. كان جوابًا ناقصًا، لكنه منعها من استخدام الضيفة مرآة مباشرة لحياتها.

في المونتاج، حذف المخرج الجزء الذي تبكي فيه المرأة لأن الصورة خرجت مظلمة. قالت سالي إن الظلام ليس سببًا كافيًا للحذف، وإن الصوت يحمل اللحظة. أبقوا الشاشة سوداء سبع ثوانٍ مع تنفسها فقط. لم يحتج المشهد إلى خاتمة.

اختارت ثلاثة ضيوف: أم لم تعتذر لابنتها، ورجل كتب لأخيه بعد خصام، وامرأة قررت ألا ترسل رسالة لحبيب قديم بعد زواجه. لم تجعل الحلقة عن البطولة الأخلاقية. بعض الرسائل لم تُرسل خوفًا، وبعضها احترامًا، وبعضها لأن الوقت فات.

شاهد مروان التسجيل في الكويت. اتصل بعدها.

قال: «الحلقة كانت عنك؟»

تضايقت.

«لازم كل شغل أعمله يبقى اعتراف شخصي؟»

«أنا بس سألت.»

«والسؤال فيه شك.»

قال: «فيه غيرة. قلت لك قبل كده.»

«الغيرة مش تصريح إنك تفسر شغلي.»

سكت. ثم قال: «صح.»

قالت: «مش عايزة كل مرة تقول صح وتفتكر إن الحوار خلص.»

«مش خلص. أنا محتاج أتعلم أعيش مع وجوده في تاريخك من غير ما أحوله لحاضرنا.»

«وأنا محتاجة ما أستخدمش الصراحة عشان أطلب منك تتحمل أي حاجة.»

استمر الحديث. لم يناما وهما متصالحان تمامًا، لكنهما ناما من غير أن يختبئ أحد خلف الصمت.

قبل الزفاف بشهر، جاء قبول زين في المرحلة الأولى من بعثة لندن، مشروطًا بإتمام فترة المراجعة من دون خطأ جديد. أخبر كمال.

قال الأب: «هتسافر وتسيبني؟»

خرج السؤال قبل أن يرتدي ثياب الحكمة.

قال زين: «سنة.»

«كل اللي بيمشي بيقول سنة.»

جلس أمامه. «أنا مش ماشي دلوقتي. ولسه ممكن ما يتمش.»

قال كمال: «سالي سافرت، وهالة هتسافر، وإنت...»

قاطع زين بهدوء: «هالة ما سابتنيش عشان تسافر. سابتني عشان أنا ما كنتش معاها.»

نظر كمال إلى صورة نادية.

قال زين: «وأنا لو سافرت، مش هسافر عشان أسيبك. بس مش هفضل عشان أخاف عليك.»

كانت الجملة التي عجز عن قولها حين كان الأمر يخص سالي. جاءت بعد فواتها، لكنها لم تكن بلا قيمة.

في الليلة الأخيرة قبل الزفاف، فتح درج المكتب. لمس الظرف بلا عنوان، ثم أغلقه. بعض الكلمات لا تصبح أنبل لمجرد أنها صادقة. أحيانًا يكون عدم إرسالها أول فعل لا يطلب من الآخر أن يحمل ألمك.

الفصل الثاني والسبعون

المائدة الثالثة

قبل الزفاف بثلاثة أسابيع، اقترحت ليلى عشاءً يجمع الأسرتين من غير أقارب ولا تجهيزات رسمية. قالت إنها تريد ليلة يأكل فيها الجميع قبل أن تبدأ الأيام التي يأكل فيها كل شخص واقفًا أو في سيارة أو أمام مرآة.

وضعت مائدة إضافية ملاصقة للسفرة القديمة. لم يتساوَ ارتفاعهما، فوضعت ريم مجلة مطوية تحت إحدى الأرجل. كلما وضع أحد طبقًا تحركت الملاعق بصوت خافت.

جلس فؤاد في الرأس، وإلى جواره كمال وعزت الصاوي. جلست ليلى والحاجة منى، ثم سالي ومروان. بقي مقعد زين إلى جوار سامر، ومقعد مها في الطرف الآخر.

تأخر زين أربعين دقيقة. لم يقل أحد إن ذلك متوقع، لكن الجميع فكر فيه. حين دخل، اعتذر، وغسل يديه طويلًا قبل أن يجلس. دفع مروان إليه طبق الخبز من غير أن يوقف حديثه مع عزت عن المستشفى في الكويت.

سأل كمال مروان عن تخصصه. كان يعرف الإجابة، لكنه أراد أن يسمعها أمام الجميع.

قال مروان: «جراحة قلب وصدر.»

نظر أحد الأقارب البعيدين الذي دُعي في اللحظة الأخيرة إلى زين، ثم قال ضاحكًا:

«يعني سالي ما خرجتش بره التخصص.»

توقفت الملاعق.

قالت سالي: «أنا ما اخترتش قسم في كلية.»

احمر وجه الرجل، وتمتم أنه يمزح. قال مروان:

«والشبه ما يخليناش الشخص نفسه.»

كانت المرة الأولى التي يسمعه كمال يتحدث عن الأمر مباشرة.

نظر إلى مروان، ثم إلى ابنه.

قال زين بهدوء: «أكيد.»

في المطبخ، كانت ليلى والحاجة منى تغسلان الأطباق الأولى قبل أن تنتهي المائدة. قالت الحاجة منى إن سالي «تعرف تمسك بيت» رغم انشغالها. توقفت ليلى عن مسح الطبق.

قالت: «هي مش داخلة امتحان.»

«أنا ما قصدتش.»

«عارفة. بس إحنا الاتنين ممكن نقول كلام اتقال لنا ونفتكر إنه عادي.»

فتحت الحاجة منى الماء أكثر من اللازم. حكت أن حماتها كانت تزورها من غير موعد وتفتح الثلاجة لتراجع الطعام، وأنها أقسمت ألا تفعل ذلك بزوجة ابنها. ثم اعترفت بأنها أرسلت لمروان قائمة أكلات يفضلها كي يعطيها لسالي.

ضحكت ليلى. «ابدئي بأنك تبطلي القايمة.»

مزقتها الحاجة منى من داخل حقيبتها أمامها، ثم احتفظت بقطعة صغيرة عليها وصفة دواء ضغط كانت قد كتبتها في الخلف. لم يتغير جيل كامل في مطبخ واحد، لكنهما عادتا إلى السفرة من غير القائمة.

انتقل الحديث إلى الشقة في الكويت. قالت الحاجة منى إن المطبخ صغير، وإن سالي ستحتاج إلى تعلم بعض الأكلات التي

يحبها مروان. قال مروان إنه هو الذي يحتاج إلى تعلم الطبخ لأن نوباتهما لن تسمح بانتظار أحدهما الآخر.

سألته سالي: «نوباتي؟»

«لما تشتغلي.»

لاحظت أنه لم يقل «لو». لم تبتسم، لكنها مدّت إليه طبق الأرز.

انقطع التيار في منتصف العشاء. أخرج فؤاد شموعًا من درج قديم. اختفت الفروق بين المائدتين، ولم يعد أحد يرى أن إحداهما أعلى من الأخرى.

قال عزت الصاوي إنه يتذكر أول موقع عمل جمعه بكمال وفؤاد. حكى كيف ناموا في غرف متجاورة بالصحراء، وكيف كان كمال يضبط المنبه قبل الجميع، بينما يظل فؤاد مستيقظًا يراجع الخرائط. ضحكوا. للحظة عاد الأبوان شابين قبل أن يصبحا سببًا في كل هذا الثقل.

سأل سامر مروان عن أول سنة له في الكويت. قال إنه نام على مرتبة فوق الأرض، وأكل خبزًا وجبنًا أيامًا لأنه لم يعرف تشغيل الموقد الكهربائي.

قالت الحاجة منى: «ما قالش لنا الكلام ده.»

رد مروان: «الناس بتحب النجاح بعد ما يتنضف.»

رفع زين عينيه. كانت الجملة قريبة من شيء قاله هو يومًا، لكنها خرجت من حياة أخرى.

جلس سامر ومها عند المائدة بعد أن قام الآخرون. كان هاتف مها يضيء برسائل من بيروت. قلبته على وجهه. سألها سامر إن كانت اتخذت قرارًا. قالت إنها تريد السفر، لكنها تخاف أن يكون قبولها نهاية علاقتهما.

قال: «أنا كمان خايف.»

انتظرت أن يضيف خطة. لم يفعل.

قالت: «مش هتقول نعمل إيه؟»

«لأ. لأني كل ما أخاف أتحول لمدير مشروع.»

ابتسمت. اتفقا فقط على أن يزورها مرة إذا سمح المال، وأن يتحدثا يومين ثابتين في الأسبوع، وأن يحق لأي منهما أن يقول إن الترتيب لم يعد يعمل. كانت اتفاقات صغيرة، بعيدة عن الوعود التي لا يمكن قياسها.

من الشرفة، لمح زين سامر يكتب المواعيد على منديل ورقي.

عرف أن صديقه لا يقلد قصته، بل يحاول ألا يكررها.

بعد العشاء، خرج الرجال إلى الشرفة. بقي سامر ومها قرب الباب يتحدثان عن فيلمهما. وقف مروان إلى جوار زين عند السور.

قال مروان: «أنا عارف إن الكلام بيننا دايمًا شكله أكبر من الجملة.»

«ما نتكلمش.»

«ممكن.»

بقيا صامتين دقيقة. ثم قال مروان:

«هي قالت لي عن خطوبتك.»

«وعن نهايتها؟»

«آه.»

«وقالت لك إيه؟»

«إن هالة كانت أشجع منكم الاتنين.»

خرجت من زين ضحكة قصيرة.

«صح.»

قال مروان: «أنا غلطت في موضوع الإقامة. وخفت أخسرها، فتصرفت زي واحد عنده حق أكتر.»

«صلحت؟»

«بحاول. زيك.»

نظر زين إليه. للمرة الأولى لم يرَ الشبه، بل رأى رجلًا متعبًا من امتحان لا يستطيع أن ينسحب منه.

قال مروان: «أنا مش طالب منك تختفي. لكن مش عايزها تفضل واقفة تبص على بابك.»

قال زين: «هي مش واقفة.»

«عارف. السؤال عنك إنت.»

تحرك زين بعيدًا عن السور.

«أنا هحضر الفرح.»

«مش ده اللي سألت عنه.»

«ده اللي أقدر أجاوب عليه.»

في الداخل، كانت سالي تجمع الأطباق. اقتربت هالة من ذاكرتها على هيئة كرسي فارغ عند المائدة. لم تكن مدعوة بعد الانفصال،

وكان ذلك طبيعيًا. ومع ذلك، شعرت سالي أن غيابها يكشف حجم الضرر الذي لا يظهر في صور الخطوبة.

حين رفعوا المائدة الإضافية، سقطت المجلة المطوية فعادت المائدة تميل. حملها فؤاد وكمال معًا إلى المخزن، كل واحد يمسك طرفًا. لم يتصالحا تمامًا، لكنهما لم يعودا يحتاجان إلى الكلام عن المصعد كي يقفا في المكان نفسه.

الفصل الثالث والسبعون

أسبوع لا يكفي للوداع

تعطل المصعد قبل الزفاف بثمانية أيام. قال الفني إن القطعة ستأتي من الإسكندرية، وقال عم حسين إن الفني يقول الإسكندرية كلما لم يعرف أين يجد القطعة. تحولت العمارة إلى سلسلة بشرية تحمل الصناديق والملابس والأطباق.

كان مروان في المستشفى ينجز بعض الفحوص المطلوبة للسفر، فحمل زين صندوقًا كتب عليه: «الكويت - كتب سالي». عند المنعطف الأول انفتح الغطاء وسقطت دفاتر وصور وكأس صغير من المدرسة.

جلست سالي على الدرجة تجمع الأشياء. رفع زين صورة الفصل القديمة. كان يقف عند الطرف، وسامر يبتسم، وسالي في صف آخر لا يظهر كاملًا.

قالت: «دي كانت عندك.»

«نسخة تانية.»

قلب الصورة. كان خطها القديم على الخلف: «الضحك مش حركة.»

قال: «دي نسختك.»

أخذتها، ومسحت الغبار عن الحافة.

«كنت غلس.»

«كنتِ بتسألي كتير.»

«لسه.»

أعادا الكتب. بقي الصندوق بينهما.

سألته: «هتيجي؟»

«آه.»

«من غير لو في عملية؟»

«بدلت النوبة.»

رفعت عينيها. لم يقل يومًا إنه يبدل العمل من أجل شيء شخصي إلا نادرًا.

قال: «ما تجيش عشان تعاقب نفسك.»

«مش كل وجع عقوبة.»

«ولا كل حضور شجاعة.»

نظر إليها. «عايزاني ما أجيش؟»

قالت: «عايزاك تيجي لو تقدر تبص لي من غير ما تستنى إني أغيّر القرار.»

«مش مستني.»

«قولها لنفسك قبل ما تقولها لي.»

حمل الصندوق. أكملت معه الصعود.

عند باب الشقة، خرجت ليلى تحمل شماعات. أخذت الصورة من يد سالي، ابتسمت، ثم أعادتها من غير تعليق.

في تلك الليلة، جاء سامر إلى زين. أحضر بدلته بعد تعديلها، ومعها دعوة افتتاح مشروع جديد في مرسمه.

قال زين: «إنت بتختار توقيت ممتاز.»

«المشروع بعد الفرح بأسبوعين. ومش هأجله.»

«ما طلبتش.»

«زمان كنت هأجله من غير ما تطلب.»

جلسا في الشرفة. حكى سامر أن مها حصلت على فرصة عمل في بيروت لثلاثة أشهر، وأنه خائف أن تذهب ولا تعود.

قال زين: «هتقول لها ما تروحش؟»

«لأ.»

«عشان تبقى متفهم؟»

«عشان هي عايزة تروح. وأنا عايز أقول لها إني خايف، من غير ما أحول الخوف لقفل.»

ابتسم زين. «بتتعلم مني؟»

«بتعلم من أخطائك. أوفر.»

قال سامر إن مها ستسافر، وإنهما لا يعرفان ماذا سيحدث بعد ذلك.

سافرت مها قبل الزفاف بثلاثة أيام. ذهب سامر معها إلى محطة القطار لأن رحلتها الجوية ستخرج من الإسكندرية بعد يوم عمل هناك. حمل حقيبتها حتى الرصيف، ثم تذكر أنه وعدها ألا يحول المساعدة إلى طريقة تمنعها من الحركة. سألها إن كانت تريد أن يحملها. قالت نعم، فضحكا من رسميته.

جلسا في مقهى المحطة. كانت المواعيد تظهر على لوحة تقلب حروفها بصوت معدني. أعطاها سامر دفتر رسم صغيرًا، وطلب منها ألا تعتبره واجبًا لتسجيل الرحلة. أعطته مفتاح مرسمها المؤقت في القاهرة كي يسقي نبتة لا تثق في جيرانها عليها.

قال: «لو ما كملناش؟»

أمسكت كوب الشاي بيدين.

«يبقى اللي حصل كان حقيقي برضه.»

لم تعجبه الإجابة لأنها لا تضمن شيئًا. قال ذلك. قالت إن عدم الضمان لا يعني أنها أقل رغبة في العودة.

حين تحرك القطار، لم يركض بجواره كما في الأفلام. وقف حتى اختفى آخر عربة، ثم عاد إلى القاهرة ليكمل تعليق لوحات مشروعه. في الطريق اتصل به زين. نظر إلى الهاتف، ثم رد هذه المرة لأنه أراد أن يسمع صوت صديقه، لا لأنه خاف من أزمة.

قال زين: «وصلتها؟»

«آه.»

«عامل إيه؟»

فكر سامر. «وحش. وهكمل شغلي.»

قال زين: «أجي لك؟»

«بعد ما أخلص تعليق اللوحات.»

كانت هذه أول مرة يعرض زين الحضور ويحدد سامر موعده. لم يطلب نصيحة. كان يحكي فقط، وهذا جديد بينهما.

قبل أن تدخل الاستوديو، وقفت في غرفة الإعداد ومررت يدها على طرف المكتب الذي خدشته مرة بعجلة كرسي. جمعت أقلامها وتركت اثنين للفريق. أخرجت من الدرج ورقة أول حلقة قدمتها، مليئة بتصحيحات داليا، ثم أعادتها إلى مكانها بدل أن تحملها.

دخل عامل الصوت حاتم وقال إنهم سيغيرون الاستوديو بعد سفرها. سألته هل سيحتفظون بالمنحدر الصغير عند الباب. قال إنه صار مثبتًا ولن يُنزع. ارتاحت لأن شيئًا من وجودها سيبقى من غير اسمها.

أثناء التسجيل، أخطأت في اسم مدينة، فتوقفت وطلبت الإعادة. قال المخرج إن الخطأ بسيط ويمكن تركه. أصرت، ثم ضحكت حين

نطقته خطأ للمرة الثانية. ضحك الفريق معها، ولم يتحول آخر يوم إلى جنازة مهنية.

في اليوم التالي، ذهبت سالي إلى القناة لتسجيل آخر حلقة قبل الإجازة. أعدّ لها الفريق كعكة صغيرة كتبوا فوقها: «مش وداع». ضحكت وقالت إن كل من يكتب «مش وداع» يعرف أنه وداع لشكل من الحياة.

بعد التسجيل، جلست داليا معها. قالت إن المحطة في الكويت اتصلت بعد أن أرسلت سالي أعمالها، وإنها مستعدة لاختبار عن بعد خلال شهرين. لم يكن عرضًا، لكنه أول باب لا يأتي عبر مروان. اتصلت به من المكتب.

قالت: «عندي اختبار.»

«مبروك.»

«لسه.»

«مبروك إن الباب اتفتح باسمك.»

كانت الجملة في مكانها. شعرت بأن قرار السفر صار أقل شبهًا بالتنازل.

في مساء اليوم السابق للزفاف، جاء كمال إلى بيت فؤاد يحمل صندوقًا صغيرًا. أعطاه لسالي. في داخله كان دبوس شعر قديمًا لنادية، بسيطًا من الفضة.

قال: «كانت حاطاه ليومك.»

توقفت أنفاسها.

«يومي أنا؟»

«كانت بتقول إنك ما بتحبيش الحاجات اللي فيها زحمة.»

كانت الجملة نفسها التي قالها زين عن الفستان، ثم نقلها دون قصد إلى هالة. هنا عادت إلى صاحبتها الأولى.

قال كمال: «أنا عارف إن ما عنديش حق أديك حاجة كأن كل شيء اتصلح.»

أمسكت الدبوس.

«مش كل حاجة لازم تتصلح عشان نعرف نحافظ على جزء منها.»

لم تقل إنها سامحته. قبّلت رأسه، وبقي هو واقفًا بعد أن دخلت غرفتها، كأنه لا يعرف هل يحق له أن يشعر بالراحة.

في الطابق الثالث، جهز زين بدلته، ووضع جهاز النداء داخل الدرج. اتصل بالمستشفى مرة أخيرة ليتأكد أن زميله تسلم النوبة. ثم أغلق الهاتف الطبي.

كان ذلك فعلًا صغيرًا، لكنه للمرة الأولى اختار أن يكون حاضرًا في لحظة شخصية، لا أن يترك بابًا مفتوحًا للهروب إلى العمل.

الفصل الرابع والسبعون

ليلة المرايا

أقيم الزفاف في قاعة قديمة قرب روكسي، لها مدخل رخامي ومرايا طويلة على الجانبين. كانت الأضواء تلمع فيها أكثر مما تلمع في القاعة نفسها، فتتضاعف الحركة: أم تمسح دمعة، طفل يركض، رجل يصلح ربطة عنقه، وعروس تمر مرة في الحقيقة ومرات داخل الزجاج.

وصل زين قبل عقد القران بنصف ساعة. لم يأتِ من المستشفى، ولم تكن رائحة المطهر في ملابسه. جلس إلى جوار كمال في الصف الثاني. كان الأب يصلح زر كمّه كل دقيقة.

قال زين: «سيبه.»

«مفكوك.»

«مش مفكوك.»

أنزل كمال يده. «أنا مش عارف أعمل إيه بإيدي.»

حين دخلت سالي، لم ينظر زين إلى الباب. رآها في المرآة المقابلة. كان الفستان بسيطًا، والدبوس الفضي يثبت جزءًا من شعرها. عرفه قبل أن يفهم من أين جاء.

التقت عيناها بعينيه في المرآة. لم تبتسم، ولم تتوقف. فقط ثبتت نظرها حتى جلست إلى جوار مروان.

كان الشبه بين الرجلين أوضح في البدلتين الداكنتين، لكنه اختفى حين بدأ المأذون الكلام. أجاب مروان بصوت مسموع، بينما ظل زين صامتًا في الصف الثاني. لم تكن المهنة ولا الوجه هي ما يصنع الموقف؛ كان القرار.

وقع مروان. وقعت سالي. حين قال الحاضرون «بارك الله لكما»، رفع زين يديه مع الجميع.

قبل الصور، طلبت الحاجة منى من سالي أن تعدل طرحتها بطريقة أكثر «عروسية». مدت يدها، ثم تراجعت حين رأت سالي ترفع حاجبها. قالت: «اسأليها يا ماما.»

سألت. قالت سالي إنها تفضلها كما هي. تركتها الحاجة منى، وذهبت تصلح ياقة ابنها بدلًا منها. رأى مروان الحركة فضحك، ثم طلب منها أن تترك الياقة أيضًا.

عند طاولة التسجيل، نسي فؤاد نظارته. قرأ اسمه بصعوبة، ووقع في المكان الخطأ. شطب الموظف التوقيع وأعطاه ورقة جديدة. توتر فؤاد من الخطأ الصغير أكثر مما توتر من الجملة كلها. أخذ زين النظارة من جيب معطفه؛ كان فؤاد قد تركها عنده أثناء الفحوص قبل أيام. ناولها له من غير تعليق.

قال فؤاد: «إنت فاكر حاجات أنا بنساها.»

قال زين: «مش كلها.»

لم يكملا. ناداهما المصور.

بعد العقد، بدأت الصور. نادى المصور أفراد الأسرة القديمة. تردد زين لحظة، ثم وقف. كان مروان إلى جوار سالي. ترك له مكانًا عند الطرف.

قال: «تعالى يا دكتور.»

وقف زين. هذه المرة لم يختبئ عند حافة الصورة. وقف كمال خلفه، وسامر ومها في الطرف الآخر. رفع المصور يده.

«محدش يرمش.»

ضحك سامر قبل الوميض. ضحك الآخرون. نظر زين إلى الكاميرا. حين بدأ الرقص، خرج إلى الممر. وجد فؤاد عند باب جانبي يدخن سيجارة رغم أنه أقلع منذ سنوات.

قال زين: «الضغط.»

أطفأ فؤاد السيجارة.

«مرة واحدة.»

«كل الناس بتقول كده.»

وقفا أمام مرآة طويلة. كانا يريان القاعة خلفهما دون أن يلتفتا.

قال فؤاد: «أنا كنت فاكر إن أصعب حاجة إني أوافق. طلع أصعب حاجة إني أرجع البيت من غيرها.»

قال زين: «هي مش بتتسلّم.»

نظر إليه فؤاد، ثم ابتسم بحزن.

«بقيت تتكلم زيها.»

«اتعلمت متأخر.»

قال فؤاد: «المتأخر مش دايمًا بلا قيمة.»

عادا إلى القاعة. اقتربت سالي من كمال. أشار إلى الدبوس.

قال: «لايق عليك.»

«كان اختيار طنط نادية.»

خفض رأسه. «هي كانت شايفة حاجات قبلنا.»

«وكانت بتغلط برضه.»

رفع عينيه إليها. ابتسمت. لم تحوله إلى قديس لأنها ماتت، ولم تحرم ذكراه من دفئها.

اقترب زين من مروان بعد منتصف الليل. صافحه.

«مبروك.»

قال مروان: «الله يبارك فيك.»

ثم وقف أمام سالي. كانت تحمل باقة صغيرة، وقد انفلتت خصلة من شعرها قرب أذنها.

قال: «مبروك يا سالي.»

«الله يبارك فيك.»

لم يضيفا شيئًا.

سألته فجأة: «إنت موجود؟»

كانت الجملة نفسها التي سألتها هالة ليلة خطبته. فهم.

قال: «آه.»

هزت رأسها. «كويس.»

عاد إلى مقعده. لم يهرب إلى الممر ولا إلى هاتف المستشفى.

في سيارة الزفاف، جلست سالي إلى جوار مروان. كانت الموسيقى خارج الزجاج، والأضواء تمر فوق وجهها ثم تختفي. رفع مروان يده إلى خصلة الشعر المنفلتة، وسأل بعينيه قبل أن يعيدها خلف أذنها.

قال: «تعبانة؟»

«شوية.»

«نرجع؟»

ابتسمت. «إحنا رايحين.»

بعد لحظة، قالت إنها رأت زين ينظر إلى الكاميرا. قال مروان إنه لاحظ.

سألته: «متضايق؟»

«آه.»

«وهتعمل إيه؟»

«أستحمل ضيقي لحد ما أفهمه. مش أفتش عندك عن جريمة.»

مدت يدها، فأمسكها.

في طريق العودة، جلس كمال إلى جوار زين في سيارة كريم. كان يحمل صندوقًا صغيرًا من الحلوى فوق ركبتيه. قال إنه لم يأكل طوال الحفل، ثم فتح الصندوق وأخذ قطعة بيده.

قال: «أنا كنت عايز أمشي بعد العقد.»

«عرفت.»

«فضلت عشانك.»

نظر زين من النافذة. «وأنا فضلت عشان نفسي.»

أكل كمال نصف القطعة ولف الباقي في منديل. بعد قليل قال إن هالة كانت ستتصرف جيدًا في مثل هذا الحفل، ثم ندم على ذكرها. لم يغضب زين.

قال: «هي كانت هتكره الزحمة.»

«زي سالي.»

«مش زيها.»

سمع كمال التصحيح وسكت. كان ابنه أخيرًا يميز بين امرأتين بعدما دفعهما إلى المقارنة طويلًا.

في القاعة بعد خروجهما، بقي زين حتى النهاية. ساعد فؤاد في حمل بعض الهدايا إلى السيارة، ثم عاد مع كمال إلى العمارة. عند الطابق الثاني، كان باب شقة سالي مفتوحًا، والغرفة مضاءة وخالية.

توقف كمال.

قال زين: «اطلع.»

«وإنت؟»

«هقفل النور.»

دخل الغرفة. كان المسمار الذي حمل الفستان فارغًا. فوق المكتب بقي أثر مستطيل أفتح من الخشب حيث كانت العلبة المعدنية. أطفأ الضوء، وأغلق الباب، وصعد.

الفصل الخامس والسبعون

بوابة السفر

لم تسافر سالي فورًا. بقيت في القاهرة خمسة أشهر بعد الزفاف، بينما عاد مروان إلى الكويت بعد ثلاثة أسابيع. عاشا زواجًا موزعًا بين مطارين وهاتفين ونوبتين مختلفتين.

في الشهر الأول، اتفقا على الاتصال بعد انتهاء نشرة المساء عند سالي وقبل نوبة مروان الليلية. نجح الموعد أربعة أيام فقط. في اليوم الخامس، نام مروان فوق أريكة غرفة الأطباء والهاتف إلى جواره. ظلت سالي قرب الهاتف أربعين دقيقة، ثم ذهبت لتغسل شعرها. حين استيقظ اتصل سبع مرات. لم تسمع.

في الصباح، وجد كل منهما نفسه غاضبًا من الآخر بسبب تعب لا يملكه. قال مروان إنه كان ينتظر منها رسالة. قالت إنها كانت تنتظر منه ألا يجعلها مسؤولة عن إيقاظه. انتهيا إلى شراء ساعة منبه له، وإلغاء فكرة الموعد اليومي. حددا ثلاث مكالمات في الأسبوع، وسمحا للأيام الأخرى أن تمر من غير تفسير.

في الشهر الثاني، جاء مروان إلى القاهرة لأربعة أيام. اكتشفا أن اللقاء القصير يحولهما إلى سائحين في زواجهما. أرادت ليلى عزومات يومية، وأرادت الحاجة منى أن يقضي الليالي في بيتها، وكان فؤاد يريد مراجعة الأوراق. حجز مروان ليلة في فندق صغير قرب المطار كي يبقيا وحدهما من غير بيتين يراقبان الوقت.

في الغرفة، اختلفا على شيء تافه: ترك المنشفة فوق السرير. قالت سالي إنها لا تريد أن تبدأ حياتها بتنظيف ما يتركه. قال إنه لم يطلب منها. ردت بأن الأشياء لا تختفي لأنها لم تُطلب. جمعها بنفسه، ثم جلسا يأكلان شطائر باردة من علبة. ضحكا لأن أول ليلة مستقلة لهما صارت نقاشًا عن منشفة.

في الصباح، خرجا يمشيان في شارع لا يعرفهما فيه أحد. اشترت سالي جريدة، واشترى مروان قهوة سيئة. لم يتحدثا عن زين أو الكويت أو العمل ساعة كاملة. كان الزواج موجودًا في طريقة انتظاره لها عند الرصيف، وفي اعتراضها على سرعة مشيه، وفي توقفه من غير اعتذار كبير.

في البداية، كانت المسافة تبدو امتدادًا للخطوبة. ثم بدأت تكشف أشياء جديدة. يتصل مروان متعبًا فيطلب منها أن تؤجل حديثًا مهمًا، فتغضب لأنها قضت يومها تنتظر الموعد. تتأخر هي في التسجيل فينام قبل أن تعود، فيستيقظ غيورًا من حياة لا يراها.

في أول خلاف كبير، قال:

«إحنا متجوزين على الورق وبس.»

ردت: «إحنا اخترنا الحل ده عشان شغلي ما يبقاش ورق يتقطع.»

«وأنا بدفع تمن غلطتي كل يوم.»

«لو بتعتبر الاتفاق عقوبة، يبقى ما اتعلمتش.»

أغلق الهاتف. بعد ساعة اتصل من جديد.

قال: «أنا قلت جملة ظالمة.»

«آه.»

«ومش هقول لك انسيها. بس عايز أصلح اللي وراها. أنا وحيد ومش عارف أطلبك من غير ما أحس إني بضغط.»

قالت: «قول إنك وحيد. دي معلومة، مش أمر.»

سجلت الاختبار في استوديو القناة بعد انتهاء دوامها. طلبوا منها إعداد مقدمة عن عمال عرب يعيشون في السكن المشترك. كتبت نصًا أوليًا، ثم مزقته لأنه بدا كأنه ينظر إليهم من أعلى. اتصلت بعامل إضاءة سوداني في القناة وسألته عن أول سنة له في القاهرة. قال إنه كان يخفي عن أهله أنه ينام مع ستة أشخاص في غرفة حتى لا يقلقوا.

أعادت كتابة المقدمة حول الأشياء التي لا تظهر في المكالمة الأسبوعية إلى البيت: صوت شخص آخر في الغرفة، طعام يبرد قبل نهاية النوبة، وحقيبة تظل جاهزة لأن السكن مؤقت. لم تذكر مروان، لكن خبرتها معه جعلتها تعرف أين تبحث.

في المقابلة الهاتفية، سألها مدير المحطة كيف ستتعامل مع لهجات متعددة. أجابت بأنها لن تحول الجميع إلى نسخة من صوتها، وإنها ستطلب التوضيح حين لا تفهم. سألها إن كانت ستقبل البدء في الإعداد فقط. قالت نعم، بشرط أن يكون العقد واضحًا وأن يحق لها تقديم مقترحات لا تنفيذ تعليمات وحدها.

بعد المكالمة، لم تتصل بمروان فورًا. انتظرت النتيجة ثلاثة أيام. حين جاء العرض، قرأته داليا معها بندًا بندًا. اكتشفتا أن بند التجربة يسمح بإنهاء العقد في أسبوعين فقط من طرف المحطة. طلبت تعديله إلى شهر. رفضوا أولًا، ثم وافقوا على ثلاثة أسابيع. لم يكن انتصارًا كبيرًا، لكنه جعل الورقة أقل ميلًا إلى طرف واحد.

تقدمت سالي إلى المحطة الكويتية، وأجرت اختبارًا عبر شريط مسجل ثم مقابلة هاتفية. عرضوا عليها وظيفة إعداد لبرنامج أسبوعي عن الجاليات العربية، بعقد مستقل يبدأ بعد وصولها. لم يكن الراتب كبيرًا، لكنه باسمها.

حين جاء العقد، حملته إلى فؤاد وليلى. قرأ فؤاد كل بند مرتين. قال إن السكن ما يزال مرتبطًا بمروان، لكن العمل مستقل. قالت سالي إن الاستقلال الكامل وهم، وإنها تريد توازنًا يمكن مراجعته لا وعدًا مثاليًا.

اتصلت بمروان.

قالت: «هسافر.»

لم يتكلم لحظة.

«إمتى؟»

«بعد شهر.»

سمعت ضحكته تتحول إلى بكاء قصير حاول إخفاءه بالسعال.

قالت: «إنت بتعيط؟»

«البصل هنا عدواني.»

«إنت في المستشفى.»

«مطبخ الأطباء.»

في الليلة الأخيرة، جلست سالي على أرض غرفتها أمام حقيبتين. وضعت الكتب أولًا، ثم أخرجت بعضها لأن الوزن زاد. وضعت العلبة المعدنية بين الملابس، ثم أخرجتها، ثم أعادتها.

دخلت ليلى.

قالت: «الحاجة اللي مش عارفة تاخديها ولا تسيبيها، غالبًا وزنها مش في الشنطة.»

فتحت سالي العلبة. الورقة القديمة، غصن جاف، غطاء قلم مكسور، وصورة لا يظهر فيها إلا نصف الجميزة.

قالت: «لو خدتُها، يبقى أنا باخد الماضي معايا؟»

«الماضي مش محتاج شنطة.»

«ولو سبتُها؟»

«مش هيسيبهالك.»

وضعتها بين الكتب.

في الليلة السابقة، جلس فؤاد عند باب غرفتها وهي ترتب الحقيبة. لم يدخل. سألها إن كانت متأكدة من حمل العلبة المعدنية. قالت إنها ليست متأكدة من شيء، وإنها ستحملها مع ذلك.

قال: «لو حصل أي حاجة، البيت مفتوح.»

«عارفة.»

«ما تستنيش لما الحاجة تكبر.»

نظرت إليه. كان الرجل الذي كان يطلب تفاصيل كل طريق يعرض الآن باب عودة من غير أن يحولها إلى توقع بالفشل.

قالت: «وإنت ما تستناش مكالمتي عشان تعيش يومك.»

ضحك. «دي أصعب.»

في الغرفة الأخرى، كانت ليلى تضع أطعمة في أكياس كأن الكويت لا تعرف الجبن والبسكويت. تركتها سالي تفعل. بعض أشكال الحب لا تحتاج إلى تصحيح في ليلة السفر.

في الفجر، نزل الجميع إلى السيارات. جاء كمال وريم وسامر ومها. كان زين داخل فترة مراجعة في المستشفى، لكنه بدّل النوبة وجاء قبل موعد التجمع بدقائق.

حين رأته سالي عند الباب، لم تتفاجأ كما توقعت.

قال: «أشيل دي.»

أخذ الحقيبة الأكبر. قال سامر إن المصعد يعمل، لكنهم صعدوا ونزلوا على السلم بحكم العادة.

في المطار، بقي فؤاد ممسكًا بجواز سفرها حتى ناداه الموظف. أعطاها إياه كأنه يسلمها شيئًا أثقل من دفتر صغير.

قال: «كلمينا أول ما توصلي.»

قالت ليلى: «إنتِ تكلمينا، مش مروان.»

قال زين بصوت منخفض: «وصلّي بالسلامة.»

نظرت إليه. كان وجهه أنحف، وعيناه أهدأ بعد شهور المراجعة.

قالت: «خد بالك من نفسك.»

«وإنتِ.»

«ومن عم كمال.»

«عارف.»

لم يتعانقا. صافحته، ثم ضغطت على يده لحظة. كان ذلك أكثر احتمالًا من عناق يطلب تفسيرًا.

أعطاها سامر ظرفًا بنيًا. في الطائرة فتحته، فوجدت نسخة من لوحة السطح، لكن هذه النسخة لم يكن فيها ثلاثة أطفال. كان السطح فارغًا، وعلى السور ثلاث ظلال تتحرك في اتجاهات مختلفة.

كتب خلفها: «المكان لا يحتفظ بنا. نحن الذين نحمله.»

حين تحركت الطائرة، أمسكت يد مروان في المقعد إلى جوارها. كان قد جاء إلى القاهرة ليعود معها. لم يسألها إن كانت خائفة. أغلق أصابعه حول يدها.

في الأسفل، صارت القاهرة أضواء لا تكشف الشوارع. بحثت عن العمارة، ولم تجدها. لم تعتبر ذلك علامة. بعض البيوت لا تُرى من السماء، لكنها تظل واضحة داخل من غادرها.

الفصل السادس والسبعون

بيت في الكويت

وصلت الكويت عند الظهيرة. أول ما شعرت به سالي لم يكن الحر، بل اتساع الضوء. بدت الطرق أعرض من الحاجة، والسماء بلا شرفات متقابلة، والبحر يظهر بين المباني ثم يختفي.

كانت شقة مروان في الطابق التاسع. صعدا بمصعد سريع لا يهتز ولا يعرف أسماء السكان. حين فتح بابه، خرجت إلى ممر صامت. فتح مروان باب الشقة. كانت مرتبة أكثر مما توقعت وأبرد مما ينبغي: أريكة رمادية، طاولة زجاجية، ستائر بيضاء، وثلاثة أكواب في المطبخ.

قال: «استني قبل ما تحكمي.»

«واضح على وشي؟»

«واضح إنك بتعدي الحاجات.»

«ثلاث كوبايات.»

«واحدة احتياطي.»

ضحكت. كانت أول ضحكة لها في المدينة.

في اليوم الأول، أوصلها مروان إلى المبنى ثم أصر أن يدخل معها. قالت إنها تعرف الطريق. قال إنه يريد التأكد من أن المصعد يعمل. ردت أن المشكلة ليست في المصعد بل في أن يبدأ زملاؤها معرفتها بوصفها زوجة الطبيب الذي أحضرها.

توقف أمام المدخل. ناولها الملف، ثم عاد إلى السيارة. لم يبتسم حين فعل؛ كان متضايقًا، لكنه احترم الطلب.

في غرفة الإعداد، ناداها المدير «مدام مروان» مرتين. في الثالثة قالت: «اسمي سالي فؤاد.» لم يكن الرجل يقصد إلغاءها، فقط اختار أقرب تعريف يعرفه. صحح الاسم فوق الورقة بقلم أحمر.

في الظهر، اتصل مروان وسأل كيف كان اليوم. قالت إنه بدأ باسم خاطئ. ظن أنها تمزح، ثم فهم. في المساء، وجدته قد كتب اسمها وحده على بطاقة صغيرة قرب صندوق البريد في مدخل الشقة. لم تشكره فورًا؛ قالت إن الخط أصغر من اسم العائلة. أحضر قلمًا أعرض وكتباه معًا.

بدأت عملها بعد أسبوعين. لم تدخل الشاشة فورًا. جلست في غرفة إعداد صغيرة تجمع قصص المصريين والعرب، تتصل بضيوف

يعتذرون، وتكتب أسئلة يعيد المذيع صياغتها كأنه صاحبها. كانت البداية أقل من خبرتها في القاهرة، لكنها لم تكن منحة من زوجها. في الأسبوع الثالث، اكتشفت أن مروان أرسل سيرتها إلى مدير طبي في مستشفى آخر من غير أن يخبرها، عارضًا عليها تقديم محتوى صحي. لم تكن الوظيفة سيئة، لكن الفعل أعاد الخطأ القديم.

وضعت البريد المطبوع أمامه على العشاء.

قال: «أنا بس فتحت باب.»

«باسمي من غير ما أعرف.»

«ما وافقتش عنك.»

«استخدمت علاقاتك عني.»

تضايق. «كل الناس بتساعد بعض.»

«المساعدة اللي ما تتطلبش ممكن تبقى استيلاء على الاتجاه.»

قال: «إنتِ مصممة تشوفي كل حاجة سلطة.»

وقفت. «لأن السلطة مش لازم تصرخ عشان تبقى موجودة.»

أغلقت باب غرفة النوم. بعد عشر دقائق طرق.

قال: «أنا زعلان من قفل الباب.»

«وأنا زعلانة من اللي حصل قبله.»

«ممكن نتكلم والباب مفتوح؟»

فتحت نصفه.

جلسا على الأرض، كل واحد في جانب. لم يحلا الأمر في جلسة واحدة. اعتذر مروان، لكنه هذه المرة لم يكتفِ بالاعتذار. كتب إلى المدير موضحًا أن التواصل تم دون طلب من سالي، وأن أي حديث لاحق يجب أن يكون معها مباشرة. أعطاها الرسالة قبل إرسالها، لا لتأذن له، بل لتراجع ما يخصها.

قالت: «أرسلها.»

لم تختفِ المشكلة. ظلت سالي أسابيع تشك في كل فرصة تأتيها، ويسأل مروان نفسه قبل كل مساعدة إن كان يفتح بابًا أم يدفعها خلاله. كان الإصلاح سلوكًا متكررًا، لا جملة ناجحة.

بعد شهر، قدّمت أول فقرة قصيرة على الشاشة بدل مذيع غاب فجأة. أرسل فؤاد شريطًا مسجلًا من القاهرة عليه صوت العائلة وهي تشاهد الإعادة. كان صوت ليلى أعلى من البرنامج، وصوت

المصعد في الخلفية، وكمال يسأل من الممر إن كانت الحلقة بدأت.

لم تسمع صوت زين.

قال مروان وهو يعيد الشريط: «صوته مش موجود.»

نظرت إليه.

«لاحظت.»

«وأنا لاحظت إني ارتحت.»

لم يغلف اعترافه.

قالت: «وأنا زعلت.»

سكت. ثم قال: «ممكن نسيب الاتنين موجودين من غير ما واحد فينا يعاقب التاني؟»

«نحاول.»

في أول عطلة كاملة، مشيا بمحاذاة البحر. افتقدت سالي الباعة والأطفال والأصوات التي تجعل المشي في القاهرة تفاوضًا دائمًا.

قال مروان إن الكويت بدت له في أول سنة مدينة بلا ذاكرة، ثم اكتشف أن ذاكرته تتكون في الأماكن التي يعود إليها وحده.

سألها إن كانت نادمة.

ردت: «إنت مستعجل على الإجابة ليه؟»

قال إنه لا يريد أن يعيش مع امرأة تنظر كل صباح إلى تذكرة العودة. قالت إنها لا تفعل، لكنها تحتاج إلى أن تحزن على مكانها القديم من غير أن يتحول الحزن إلى اتهام له.

في تلك الليلة، فتحت العلبة المعدنية. كان مروان يقرأ في الصالة. رآها مفتوحة ولم يقترب.

قالت: «عايز تعرف فيها إيه؟»

«لما تحبي تقولي.»

بعد دقائق، دفعت إليه الورقة القديمة. قرأ الاسمين، ثم أعادها من الحواف.

قال: «خط أطفال.»

«كان عمرنا ست وست سنين تقريبًا.»

«والتاريخ اللي ورا؟»

«يوم خطوبتي.»

نظر إليها.

«ليه كتبتيه؟»

«عشان أفتكر إني ما مسحتش حاجة وأنا باختار حاجة تانية.»

أعاد الورقة. لم يقل إنه يفهم بالكامل. قال: «شكرًا إنك وريتهالي.»

في الشهر الرابع، استضاف البرنامج عاملين مصريين فقدا زميلًا في حادث موقع. أراد المذيع أن يجعل الحلقة عن «تضحيات الغربة»، بينما أصرت سالي أن يسألوا عن إجراءات السلامة والأجر المتأخر. بعد التسجيل، اتصل مسؤول في شركة مقاولات بالمحطة واشتكى من اللهجة الهجومية. طلب المدير منها حذف سؤال في الإعادة. رفضت أولًا، ثم اكتشفت أن العاملين يخافان فقدان عملهما. جلست معهما بعيدًا عن الإدارة، وسألتهما ما الذي يريدان إبقاءه. اختارا حذف اسم الموقع لا السؤال. تعلمت أن الشجاعة التي تعرض الآخرين للخطر قد تكون نوعًا من الأنانية، حتى لو خرجت في صورة دفاع عنهم.

كوّنت صداقات ببطء. كانت نجلاء، معدة كويتية مطلقة، تأخذها إلى سوق المباركية وتجادل الباعة على أسعار لا تحتاج إلى تخفيضها. وكان يوسف، مصورًا فلسطينيًا، يرفض أن يحمل عنها

الحقيبة إلا إذا طلبت. لم يعرف أي منهما قصة زين في البداية. عرفاها بعد أشهر، حين سألتها نجلاء لماذا تتوقف كلما مر طبيب طويل بقميص أبيض في الممر. حكت لها عن الشبه، وعن العمارة، وعن رجلين اختارا في توقيتين مختلفين. لم تقل نجلاء إن مروان أفضل أو إن زين ضاع. قالت فقط: «واضح إنك عشتي وقت طويل والقرار عند الناس التانيين.»

في البيت، لم تختفِ خلافات مروان. كان يعود من المستشفى فيدخل الصالة وهو يتحدث في الهاتف، ويترك الباب مفتوحًا خلفه. كانت سالي تغلقه بعنف. مرة، دعا زميلين إلى العشاء ونسي أن يخبرها إلا قبل وصولهما بساعة. قالت إنها لن تطهو. طلب طعامًا من مطعم، لكن الزميلين وصلا قبل الطلب. جلس الأربعة أمام مائدة شبه فارغة، وتحدثت سالي معهم من غير أن تنقذ الموقف. بعد أن غادروا، قال مروان إنه شعر بالإحراج.

قالت: «كويس. المرة الجاية تفتكر قبل ما تعزُم.»

لم يعتذر فورًا. قال إنها كان يمكن أن تساعده «عشان البيت». ردت أن البيت ليس جهة تعمل تحت إدارته. ناما في غرفتين

منفصلتين تلك الليلة. في الصباح، وجدته يكتب قائمة بالأشياء التي يفعلها كل منهما في الأسبوع. بدت لها الحركة سخيفة، ثم جلست. اكتشفا أن معظم أعمال البيت غير مرئية حتى لمن يقوم بها. اتفقا على تقسيم يتغير مع النوبات، وعلى أن دعوة الضيوف تحتاج موافقة الاثنين. لم يتحول مروان إلى رجل جديد في يوم واحد؛ نسي مرتين، وتذكّر في الثالثة قبل أن يرفع الهاتف.

في الشهر السادس، حصلت سالي على فقرة ثابتة تحمل اسمها. رفضت أن تكون طبية رغم شهرة زوجها، واختارت موضوعات المدينة والعمل والناس الذين يعيشون بين بلدين. في أول حلقة مباشرة، تعطل جهاز القراءة. بقيت تنظر إلى الكاميرا ثانيتين، ثم أكملت من ذاكرتها. بعد البث، اتصل فؤاد وهو يبكي ويقول إن الصورة كانت واضحة. قالت ليلى في الخلفية إن شعرها كان يحتاج إلى تعديل. ضحكت سالي، ثم طلبت منهما أن يرسلا شريطًا للمصعد والشارع والجميزة، لا للحلقة فقط.

وصل الشريط بعد أسبوعين. سجل فؤاد خمس دقائق من الشرفة، وليلى وهي تناديه أن يبعد الكاميرا عن الغسيل، وعم حسين

يشتكي من المصعد. ظهر زين في آخر اللقطة خارجًا من العمارة. لم يرفع رأسه إلى الكاميرا. أوقفت سالي الشريط، ثم أعادته حتى خرج من الإطار. في المساء أخبرت مروان. قال إنه لا يحب أنها أعادت اللقطة. قالت إنها لا تحب ذلك أيضًا. لم يطلب منها حذف الشريط. وضعه في درج التلفزيون مع بقية الأشرطة.

لم تكن سالي تعرف وهي ترتب أشرطتها في ذلك المساء أن الشقة في الطابق التاسع لن تبقى محطة تجربة، وأن الكويت ستظل مقر حياتها حتى الحاضر. لم تمنح المدينة هذا الوعد في يوم وصولها، ولم تتخذه قرارًا احتفاليًا. تكوّن الأمر من عقد عمل يتجدد، وصداقات، وخلافات تُستكمل في البيت نفسه، وزيارات إلى القاهرة تنتهي دائمًا بتذكرة عودة.

وضعت العلبة المعدنية في درج قرب مكتبها، لا تحت الملابس ولا فوق الطاولة. ثم أغلقت الدرج وذهبت لتراجع حلقة الغد. كان المصعد الهادئ يصعد ويهبط خارج الباب، ولم يعد صمته غريبًا كما كان في الأسبوع الأول.

الفصل السابع والسبعون

المعطف الثاني

وصل خطاب قبول زين في بعثة لندن بعد سبعة أشهر من سفر سالي. لم يكن القبول كاملًا كما تخيل يومًا. اشترط المستشفى أن يبدأ ثلاثة أشهر مراقبًا، وأن يخضع لتقييم خاص بسبب واقعة التأخير في حالة عادل.

وضع كمال الظرف فوق مائدة الطعام ولم يفتحه. انتظر عودة ابنه حتى منتصف الليل.

دخل زين وهو يفك أزرار المعطف. أشار كمال إلى الظرف.

«جالك.»

قرأه زين مرتين.

قال كمال: «اتقبلت؟»

«آه. بس مش زي ما كنت متوقع.»

«إمتى؟»

«بعد شهرين.»

«سنة؟»

«سنة لو عدّيت أول تقييم.»

أخذ كمال الخطاب. مرر إصبعه تحت اسم زين.

«هتسافر.»

لم تكن سؤالًا.

قال زين: «آه.»

فتح كمال الصنبور ثم أغلقه. وقف أمام الحوض.

«البيت هيبقى فاضي.»

«كريم وريم موجودين.»

«مش هنا.»

وضع زين دواء الضغط قرب كوب أبيه.

«هكلمك كل يوم.»

ضحك كمال من غير صوت.

«كل الناس بتقول كده قبل السفر.»

جلس زين أمامه.

«أنا عارف إنك خايف.»

«أنا مش خايف.»

«وأنا مش هستخدم خوفك عشان أهرب، ولا هخليه يمنعني.»

رفع كمال عينيه. كان ذلك الحوار الذي تأخر سنوات.

قال: «لو كنت قلت الكلام ده وقت سالي...»

«ما نعرفش كان هيغير إيه.»

«كان هيغيرني أنا.»

لم يقل زين إن ذلك ربما كان يكفي.

قبل السفر، زار عادل. كان يمشي بعصا، ببطء واضح. عاد إلى التدريس جزئيًا. قال إن العلاج طويل، وإن بناته يضحكن لأنه صار يحسب عدد الخطوات.

قال زين: «أنا مسافر تدريب.»

«عشان الحالة بتاعتي؟»

«مش عشانها بس. لكن هتفضل معايا.»

قال عادل: «خليها تعلمك، مش تسوقك.»

كانت نصيحة من الرجل الذي دفع جزءًا من ثمن تعلمه. لم يحولها زين إلى حكمة مريحة.

في الأسبوع الأخير، جاء سامر يحمل لوحة جديدة للعمارة من الجهة المقابلة. كانت الشرفات مضاءة، والجميزة أكبر، لكن لا أحد عند المدخل.

قال زين: «فين الناس؟»

«جوا. أو مشيوا.»

«مش باينين.»

«مش لازم كل حاجة مهمة تبان.»

قال زين: «لسه بتكتب جمل للصحافة.»

ضحك سامر. «ومها سافرت بيروت.»

«رجعت؟»

«لسه. وإحنا مش عارفين هنكمل ولا لأ.»

«إنت كويس؟»

«لأ. بس مش هاجي أقعد عندك كل ليلة عشان أهرب.»

علّق زين اللوحة فوق مكتبه. فتح الدرج وأخرج الظرف الذي يحتوي على قطع الرسالة غير المرسلة. وضعه داخل صندوق الكتب الذي سيبقى في البيت.

في المطار، وقف كمال إلى جواره حتى نادى الموظف الرحلة. جاء سامر متأخرًا، وريم مع طفلها، وفؤاد وليلى. لم تأتِ هالة؛ كانت قد سافرت إلى فرنسا. أرسلت له رسالة قصيرة: «أتمنى أن تقف قريبًا بما يكفي لتتعلم، وبعيدًا بما يكفي ألا تضر.» كانت تعرف قصة مروان القديمة من زين، وأعادت الجملة إليه في وقتها.

عانق كمال ابنه. كان العناق قصيرًا، لكنه لم ينتهِ حين حاول زين الابتعاد أول مرة.

وصل إلى لندن في صباح رمادي. كان المطر خفيفًا، والناس يعبرون المحطة دون أن ينظر أحد إلى الآخر. في السكن الصغير وجد سريرًا ومكتبًا وخزانة تكفي المعطف ولا تكفي الكتب.

في الاجتماع الصباحي، وقف زين عند الطرف يحمل دفترًا جديدًا. قدّم نفسه باسم كامل نطقه الاستشاري خطأ، ثم انتقل إلى الاسم التالي. لم يصححه زين. بعد الجولة، قالت له ممرضة هندية إن أحدًا لن يعرف اسمه إذا لم يقله كما يريد. في اليوم التالي صحح النطق بهدوء. لم يكن الأمر كبيرًا، لكنه أوقف عادة قديمة في السماح للآخرين بتحديد المسافة.

كانت اللغة الطبية مألوفة على الورق وأسرع في الأفواه. في أول أسبوع، كان يكتب كل اختصار ثم يعود إلى السكن ليبحث عنه. اتصل بكمال كل مساء، لكن المكالمات تحولت سريعًا إلى تقرير: أكلت؟ أخذت الدواء؟ الجو بارد؟ في اليوم الخامس قال كمال إنهما يتحدثان كأن أحدهما مريض.

سأله زين عن يومه. حكى الأب أنه نزل ليصلح إطار صورة عند فؤاد، وأنهما اختلفا على مكان مسمار، وأن المصعد توقف نصف ساعة. ضحك زين. بدأت المكالمات بعد ذلك تحمل أشياء لا تصلح نصائح: سعر الطماطم، زيارة ريم، مباراة لم يشاهدها كاملًا. تعلم أن البقاء قريبًا لا يعني إدارة حياة أبيه من لندن.

بدأ اليوم الأول قبل السابعة. تحدث الاستشاري بسرعة واستخدم اختصارات لم يفهمها كلها. دخل زين عملية مراقبًا. حين مد يده تلقائيًا إلى أداة، أوقفه الجراح بنظرة.

قال بعد العملية: «You are here to observe first.»

شعر زين بالإهانة. في القاهرة كان يقف أقرب. هنا عاد إلى الخلف.

في نهاية الأسبوع الأول، أرسل سامر صورة لافتتاح مشروعه الجديد. كان واقفًا وحده أمام المرسم، وعلى الجدار شاشة تعرض رسالة مصورة من مها في بيروت. كتب تحت الصورة: «لسه بنجرب.» رد زين بعد ساعات: «أنا كمان.»

اتصل به سامر ليلًا. حكى أن مها عادت أسبوعًا ثم سافرت مجددًا، وأنهما تشاجرا لأن كل لقاء يتحول إلى تعويض مضغوط. قال إنه فكر في إنهاء العلاقة كي يتوقف القلق، ثم عرف أنه يعيد حركة زين القديمة: اتخاذ قرار نهائي للهروب من عدم اليقين.

قال زين: «وهتعمل إيه؟»

«هنكمل شهرين بالطريقة الجديدة. مكالمات أقل، شغل أكتر، وزيارة واحدة متخطط لها. وبعدها نقرر.»

لم تكن خطة رومانسية، لكنها تخصهما. طلب سامر من زين أن يسأله بعد شهرين، لا كل يوم. كتب زين الموعد في دفتره بين مواعيد التقييم. لأول مرة، حمل لصديقه شيئًا صغيرًا من دون أن يقتحم حياته.

في الأسبوع الثاني، أخطأ في فهم تعليمات مكتوبة، وكاد أن يرسل عينة إلى المختبر الخطأ. اكتشف الممرض الخطأ. لم يصرخ أحد، لكن الاستشاري كتب في تقييمه: «Technically promising; unsafe when ashamed to ask.»

قرأ زين الجملة مرات. لم تكن المشكلة في اللغة وحدها. كان يخجل من السؤال لأنه اعتاد أن يُرى موهوبًا.

في اليوم التالي، سأل عن كل اختصار لم يفهمه. شعر أنه أصغر من عمره، لكنه لم يختبئ.

بعد شهر، سمح له الاستشاري أن يقف أقرب. لم يعطه مشرطًا. أعطاه مسؤولية متابعة مريض بعد العملية. اكتشف زين تغيرًا مبكرًا في النبض، وأبلغ الفريق قبل أن يتدهور الوضع. لم يمدحه الطبيب كثيرًا. قال فقط: «Good. You asked before assuming.»

في القاهرة، عاد كمال من المطار إلى شقة صامتة. وضع كوبين على الصينية بحكم العادة، ثم أعاد أحدهما. دخل غرفة زين. كان الدرج مغلقًا والمفتاح فيه. لم يفتحه. ترك باب الغرفة مواربًا.

في الكويت، اتصل فؤاد بسالي ليخبرها أن زين وصل. كانت في غرفة الإعداد، تستعد لفقرة عن أطباء عرب يتدربون في الخارج.

قالت: «هو كويس؟»

«هيبقى.»

أغلقت الهاتف. قرأت المقدمة من دون خطأ. عند جملة «يتركون أوطانهم بحثًا عن خبرة تعيدهم أكثر قدرة»، توقفت نصف ثانية، ثم أكملت.

في نهاية يومه الأول الحقيقي، علق زين المعطف الجديد داخل الخزانة. إلى جواره معاطف تحمل أسماء لا يعرفها. كتب اسمه على بطاقة صغيرة وثبتها فوق الباب.

بدا الاسم واضحًا وحده، بلا اسم أبيه، ولا رقم العمارة، ولا اسم امرأة يشرح من يكون.

أغلق باب الخزانة. بقي اسمه ظاهرًا فوقها. خارج النافذة، كان المطر يمحو آثار الخطوات بسرعة، ثم يترك الطريق مفتوحًا لخطوات أخرى.

الكتاب الثالث

أسماء على أبواب بعيدة

الفصل الثامن والسبعون

المكان الأقرب

انتهت الأشهر الثلاثة الأولى في لندن من غير أن يشعر زين أنه عبر اختبارًا واضحًا. لم تكن هناك لحظة يقف فيها أحد أمامه ليقول: نجحت. فقط بدأت الأشياء الصغيرة تتغير. صار الاستشاري يناديه باسمه الصحيح، وصارت الممرضة الهندية، أنيتا، تترك له نتائج التحاليل قبل أن يطلبها، وسمحوا له أن يشرح خطة العلاج لأسرة مريض من دون أن يقف طبيب آخر خلف كتفه.

في صباح بارد، وصل فتى في السادسة عشرة يعاني عيبًا خلقيًا معقدًا في القلب. كان اسمه دانيال، وأمه تطرح السؤال نفسه بصيغ مختلفة: هل سيخرج من العملية؟ لم يجب زين بجملة مطمئنة. جلس على الكرسي المقابل، ورسم القلب بقلم أزرق، وشرح ما يعرفه وما لا يعرفه. حين انتهى، قالت الأم: «أنت أول واحد يقول مش عارف من غير ما يخوفني.»

دخل العملية مراقبًا في البداية. بعد ساعتين، طلب منه الاستشاري أن يقترب. لم يناوله المشرط؛ سأله فقط عن مسار وعاء صغير ظهر

في الأشعة. تردد زين، ثم قال إنه يحتاج أن يرى الصورة مرة أخرى. انتظر الفريق. لم يشعر بالخجل هذه المرة. راجعها، وحدد المسار، وصحح تخمينه الأول قبل أن يتحول إلى قرار.

بعد العملية كتب الاستشاري في تقييمه: «يسأل قبل أن يثبت رأيه.» لم تكن الجملة مدحًا كبيرًا، لكنها بدت لزين كأنها تعيد ترتيب شيء انكسر في القاهرة.

اتصل بكمال مساءً. كان الأب يشاهد مباراة ويخفض صوت التلفزيون كلما تكلم ابنه.

قال زين: «دخلت حالة صعبة النهارده.»

«عملت إيه؟»

«سألت.»

ضحك كمال. «سافرت لندن عشان تتعلم تسأل؟»

«تقريبًا.»

سكتا. ثم حكى كمال أن فؤاد صعد إليه ومعه طبق محشي، وأنهما تناقشا نصف ساعة في سبب موت الجميزة من ناحية واحدة. لم

يسأل عن سالي. لم يعد الاسم يحتاج إلى أن يظهر في كل مكالمة كي يكون موجودًا.

في نهاية العام، عُرض على زين أن يمدد التدريب ستة أشهر. كان العرض أفضل مما توقع، لكنه طلب يومين للتفكير. خرج من المستشفى ومشى حتى جسر لا يعرف اسمه. المطر توقف، وبقيت الأرصفة لامعة. فكر في أبيه وحده، وفي القسم في القاهرة، وفي الرجل الذي يريد أن يصير إليه لا الرجل الذي يهرب منه.

اتصل بكمال.

قال الأب قبل أن يسمع الخبر: «هتطول؟»

«عرضوا عليّ ست شهور.»

«وإنت عايز؟»

كان السؤال جديدًا. لم يقل: وأنا؟ ولا البيت؟

قال زين: «آه.»

«يبقى اقعد.»

«بسهولة كده؟»

«مش بسهولة. بس مش كل حاجة صعبة لازم أمنعها.»

مدد زين التدريب. في الشهر الأخير، سمح له الاستشاري أن يغلق جزءًا من جرح تحت إشرافه. حين انتهى، نظر إلى الخيط المستقيم، ثم إلى يديه. لم تكونا ثابتتين لأنهما لا تخافان. كانتا ثابتتين لأن الخوف صار في مكان يستطيع رؤيته.

في الشهر الرابع من التدريب، أُسند إلى زين أن يتابع دانيال بعد خروجه من العناية. كان الفتى يكره الطعام ويطلب هاتفه كل عشر دقائق، وكانت أمه تكتب كل كلمة يقولها الأطباء في دفتر أزرق. في الزيارة الأولى بعد العملية، دخل زين الغرفة فوجدها تبكي بصمت عند النافذة.

قالت إنها لم تعد تعرف ما إذا كانت الممرضة التي ابتسمت لها صباحًا تخفي خبرًا سيئًا، وإنها صارت تقرأ الوجوه كما كانت تقرأ نتائج الأشعة. لم يحاول أن يطمئنها بجملة جاهزة. جلس، وفتح الملف، وراجع معها ما تغير وما لم يتغير. حين انتهى، سألته لماذا لا يقول لها إن كل شيء سيكون بخير مثل بقية الأطباء.

قال: «لأني ما أعرفش كل حاجة.»

ردت: «بس أنا محتاجة أعرف إنك مش سايبنا لوحدنا مع اللي ما تعرفوش.»

خرج من الغرفة وهو يفكر أن الصراحة لا تكفي إذا تُركت الأسرة بعدها أمام باب مغلق. بدأ يمر عليهم في نهاية كل نوبة حتى لو لم يكن لديه خبر جديد. أحيانًا كان يقول فقط إن التحاليل لم تصل، وإنه سيعود حين تصل. اكتشف أن العودة نفسها جزء من العلاج.

في السكن، كان يعيش مع طبيبين عربيين في الطابق نفسه. الأول سوداني اسمه مأمون، يطبخ كل خميس كمية تكفي أسبوعًا ويترك رائحة الكمون في الممر. والثاني عراقي يدعى نزار، يتحدث في الهاتف مع أطفاله بصوت منخفض ثم يفتح باب غرفته كأن الهواء ضاق. لم يسألهما زين عن سبب الغربة في الأسابيع الأولى. كان كل واحد منهم يحافظ على المسافة التي تسمح له أن يبدو قويًا.

ذات ليلة انقطع التدفئة. تجمع الثلاثة في مطبخ صغير حول فرن مفتوح. حكى مأمون عن زوجته التي رفضت أن تلحق به قبل أن

يجد مدرسة مناسبة للبنات. قال نزار إنه جاء لعام واحد، وإن العام صار ثلاثة لأن العودة كل مرة تحتاج إلى قرار جديد. حين جاء دور زين، قال إنه لا يعرف إن كان يريد العودة أم يخاف ألا يجد لنفسه مكانًا بعد أن يعود.

قال مأمون: «المكان ما يستناكش زي ما سيبته.»

رد زين: «وأنا مش راجع زي ما سبت.»

لم يكتب أحد الجملة. بعد نصف ساعة عادت التدفئة، وعاد كل منهم إلى غرفته.

في المستشفى، أخطأ زين في نطق اسم مريض باكستاني للمرة الثالثة. صححه الرجل بهدوء. اعتذر زين، ثم سأل الممرضة كيف ينطق الاسم الصحيح. لم تكن المسألة كبيرة، لكنها ذكرته باسمه الذي ترك الآخرين ينطقونه خطأ أيامًا لأنه خجل أن يصحح. بدأ يكتب الأسماء صوتيًا في دفتره. صار المريض يبتسم حين يسمعه. وصلت بطاقة دانيال بعد خروجه. رسم قلبًا غير متساوي الجانبين، وكتب تحته: «سألت مرة أخرى، وقلت إنك ستراجع.» وضع زين البطاقة قرب المرآة. لم يضعها قرب شهاداته؛ لم تكن

شهادة على نجاحه بقدر ما كانت تذكيرًا بالطريقة التي يريد أن يعمل بها.

في عيد الميلاد، بقي في لندن لأن ثمن التذكرة مرتفع ولأن المستشفى احتاج متطوعين. اتصل بكمال عند منتصف الليل بتوقيت القاهرة. سمع أصوات فؤاد وليلى وسامر في الخلفية. كانوا مجتمعين في شقة الطابق الثالث، والمصعد متوقف، وريم ترسل الطعام مع ابنها.

قال كمال: «كان ناقصك.»

لم يقل زين إنه كان ناقصه البيت كله. طلب أن يضع الهاتف قرب الشرفة. سمع السيارات في الشارع، وبائعًا ينادي متأخرًا، ثم صوت باب شقة سالي القديمة يفتح ويغلق؛ كانت ليلى تستعمل الغرفة لتخزين أشياء لم تعد تعرف أين تضعها.

أعاد كمال الهاتف إلى أذنه.

«سمعت؟»

«آه.»

«إيه؟»

قال زين: «ولا حاجة مهمة.»

لم يكن يعرف كيف يشرح أن الأصوات العادية هي التي كادت تجعله يحجز أول طائرة. بعد المكالمة، عاد إلى نوبته. جلس قرب مريض وحيد لم يزره أحد، وساعده على الاتصال بأخته. لم يكن يعوض نفسه بشخص آخر؛ كان فقط يعرف شكل الليل حين يصبح الهاتف هو البيت.

في الأيام الأخيرة قبل قرار التمديد، بدأ زين يحزم كتبه ثم يعيدها إلى الرف. اشترى شريطًا لاصقًا وصناديق، وتركها في الممر. كانت أنيتا تمر فتسأله كل صباح هل قرر. يقول لا، رغم أن نصف الغرفة صار جاهزًا للرحيل.

دانيال عاد لإجراء فحص. كان قد استعاد وزنه، وبدأ يشتكي من أن أمه تمنعه من ركوب الدراجة. طلبت منه أن يكتب لها شهادة تسمح أو تمنع. رفض أن يكون الحكم الوحيد. جلس معهما، واتفقوا على مسافة قصيرة وخوذة ومراقبة. قالت الأم إنها كانت تريد كلمة نعم أو لا. قال إن الحياة بعد العملية لا تأتي دائمًا في خانتين.

بعد الفحص، أخذ دانيال قلم زين الأزرق ورسم عجلة إلى جوار القلب القديم. ترك الرسم على المكتب. حين عاد زين إلى السكن، وضعه داخل الصندوق الأول ثم أخرجه. أدرك أنه لا يعرف هل الأشياء التي جمعها من لندن تخص المكان أم تخصه هو.

في آخر نوبة قبل التمديد، مات مريض لم يكن ضمن مسؤولية زين المباشرة. ساعد الأسرة في غرفة صغيرة. لم يعرف اسم الابنة في البداية، فسأل. قالت إن أباها كان يكره المستشفيات وإنه وعدها بالخروج. لم يذكر لها أن الوعود الطبية محدودة. بقي حتى جاء أخوها.

خرج مع الفجر. اتصل بكمال، لكنه لم يرد. ترك رسالة صوتية قصيرة لا تحتوي أخبارًا مهمة: الجو بارد، والنوبة انتهت، وسيتصل لاحقًا. حين استيقظ كمال، احتفظ بالرسالة أيامًا لأن صوت ابنه فيها لم يكن صوت طبيب يشرح، بل رجل متعب يريد أن يسمعه أحد.

قبل الرحيل المتوقع بأسبوع، دعا مأمون ونزار زين إلى عشاء صغير. لم يطبخوا شيئًا خاصًا؛ جمعوا ما بقي في الثلاجات. تحدثوا

عن الأشياء التي لن يفتقدوها: البرد، الغسيل المشترك، وصوت سيارات الإسعاف. ثم سكتوا أمام الأشياء التي سيفتقدونها فعلًا. أعطاه نزار مفتاحًا قديمًا قال إنه لا يفتح شيئًا الآن، كان لشقته الأولى في بغداد. قال: «خليه لحد ما ترجع حاجة ما تعرفش اسمها.» رفض زين أخذه، فضحك نزار ووضعه في جيبه. في الصباح أعاده زين فوق طاولته. لم يكن يريد رمزًا جديدًا. كتب له بدلًا منه عنوانه في القاهرة.

في يوم القرار، لم يحمل زين صناديقه. مدد التدريب، وأعاد الكتب إلى الرف. احتفظ بصندوق واحد فارغ تحت السرير. وجوده ذكّره أن البقاء اختيار مؤقت أيضًا، لا إقامة بلا نهاية.

عاد إلى السكن ليلًا، ووجد رسالة من سامر: صورة للجميزة أمام العمارة بعد تقليمها. كتب تحتها: «لسه عايشة من الناحية اللي ما حدش كان باصص لها.» لم يرد زين بجملة. وضع الصورة فوق المكتب، وفتح كتاب الغد.

الفصل التاسع والسبعون

عودة المعطف

عاد زين إلى القاهرة في آخر الشتاء. كان كمال ينتظره عند المطار مرتديًا معطفًا أثقل من الجو، ويقف بعيدًا عن باب الوصول كأنه يخشى أن يعوق الخارجين. حين ظهر زين، رفع يده ثم أنزلها قبل أن يراه.

عانقه هذه المرة من غير أن يعتذر عن طول العناق.

قال كمال وهو يأخذ حقيبة الكتب: «دي تقيلة.»

«سيبها.»

«أنا لسه بعرف أشيل.»

تركها له، وحمل هو المعطف الأبيض داخل غلافه. في السيارة، لم يسأل كمال عن المرتب ولا المنصب. سأله عن الأكل، ثم عن الرجل الذي كان يكتب تقاريره. حكى زين عن الاستشاري، وعن أنيتا، وعن دانيال الذي أرسل له بطاقة عليها قلب مرسوم بشكل سيئ.

عند العمارة، كان عم حسين قد مات قبل أشهر، وتولى ابنه الصغير إدارة الباب. توقف زين أمام المدخل. الجميزة أقل كثافة، والطلاء الأخضر تقشر عند الحواف، لكن رائحة السلم ظلت كما هي: غبار وخشب قديم وطعام يصعد من شقة ليلى.

فتح فؤاد الباب قبل أن يصلا إلى الطابق الثاني. عانقه، ثم قال: «خسيت.»

خرجت ليلى خلفه تحمل صينية الشاي. لم تكن سالي هناك. كانت في الكويت، وقد بدأت تقدم فقرة أسبوعية باسمها. ذكر فؤاد الخبر في الجملة الثالثة، لا الأولى. قال إن الحلقة تصلهم على شريط بعد أسبوعين، وإن المصعد يظهر في نصف التسجيلات أكثر من المذيعين.

صعد زين إلى شقته. دخل غرفته فوجد اللوحة فوق المكتب والدرج كما تركه. فتحه. كان الظرف المملوء بقطع الرسالة في مكانه. لم يقرأها. أغلق الدرج، ثم فتح النافذة.

في المستشفى، لم يستقبله القسم كبطل عائد. أعطاه الدكتور صفوت جدولًا مزدحمًا، وطلب منه أن يبدأ تحت إشراف مباشر في العمليات الكبيرة.

قال زين: «لسه إشراف؟»

«لندن ما مسحتش اللي حصل هنا.»

شعر بالاعتراض يصعد إلى حلقه، ثم ابتلعه.

«تمام.»

في أول حالة، كان عليه أن يشرح لأسرة المريض أن الجراحة قد تؤجل بسبب عدوى بسيطة. غضب الابن واتهم المستشفى بالإهمال. قبل لندن، كان زين سيدافع عن القرار بالأرقام. هذه المرة ترك الرجل ينهي كلامه، ثم سأله ما الذي أخافه أكثر. قال الابن: «إن أبويا يدخل تاني وما يخرجش.»

تغير الحديث.

بعد أسبوعين، أعاد صفوت إليه قيادة الحالات المختارة. لم يكن ذلك إعلانًا. وجد اسمه مكتوبًا في الجدول أمام كلمة «الجراح

الأول»، وبجواره اسم استشاري للمراجعة. وقف أمام الورقة لحظة، ثم دخل غرفة الملابس.

في مساء الجمعة، جلس مع كمال في الشرفة. من الطابق الثاني جاء صوت شريط سالي المسجل. كانت تتحدث عن امرأة تدير مطعمًا صغيرًا في الفحيحيل. لم يستطع تمييز الكلمات كلها، لكنه عرف صوتها.

مد كمال يده إلى جهاز الراديو ليغطيه، فتوقف زين.

قال: «سيبه.»

لم يكن رجوعه إلى القسم سلسًا كما بدا في الجدول. بعض زملائه رأوا في لندن شهادة تعفيه من المراجعة، وبعضهم رأوا في خطأ عادل سببًا كافيًا لإبقائه في الصف الثاني. في أول اجتماع صباحي، اقترح تعديل خطة لمريض مسن. تجاهله استشاري أقدم، ثم أعاد الاقتراح نفسه بعد عشر دقائق كأنه فكرته.

عاد زين إلى مكتبه غاضبًا. فتح فمه ليكتب شكوى، ثم أغلق الحاسوب. في اليوم التالي، قدّم الاقتراح أمام الفريق ومعه الدراسات، وطلب تسجيله في المحضر. لم يتحدث عن الإهانة. أراد

أن يتعلم كيف يحمي رأيه من غير أن يحول كل خلاف إلى معركة شخصية.

بعد أسبوع، طلب منه الدكتور صفوت أن يزور مدرسة عادل. لم يكن الأمر ضمن برنامج المتابعة الرسمي بعد. قال إن الرجل أرسل دعوة للمركز كي يتحدث الأطباء إلى المدرسين عن العودة إلى العمل بعد الجراحة. ذهب زين وحده.

استقبله عادل عند بوابة المدرسة بعصاه. صعدا إلى الفصل في الدور الأول ببطء. كان الطلاب يعرفون أن قدم مدرسهم لا تتحرك كما كانت، ولم يعرفوا لماذا. قال عادل إنهم يسألونه أحيانًا إذا كان الطبيب أخطأ. لم يعرف ماذا يجيب.

جلسا في غرفة المدرسين. سأل زين إن كان يريد منه أن يشرح ما حدث. قال عادل إنه لا يريد درسًا في الشريان، بل يريد أن يرى المكان الذي تغير بعد القرار. مشيا في ممر قصير. عند السلم، توقف عادل وقال إن مكتبه القديم في الدور الثالث، وإن الإدارة نقلته إلى الأسفل. بدا النقل رحمة، لكنه جعله يشعر أن المدرسة صارت تضيق حوله.

قال زين: «أنا كنت فاكر إن التقرير خلص الموضوع.»

رد عادل: «التقرير خلص عندكم.»

لم يدافع زين. طلب أن يجلس مع الإدارة والمعالج الطبيعي لبحث طريقة تسمح له بالصعود بعض الأيام. لم يعده بشيء. بعد شهر، رُكب درابزين إضافي وسمحوا لعادل بجدول أقل ازدحامًا. لم تعد ساقه كما كانت، لكن حياته لم تُختصر في الكرسي الأقرب إلى الباب.

في البيت، وجد كمال قد نقل بعض ملابس زين من غرفته إلى خزانة أخرى كي يفتح مساحة للكتب القادمة من لندن. غضب زين أكثر مما يبرر الأمر.

قال: «دي أوضتي.»

رفع كمال يديه. «ما رميتش حاجة.»

«كان لازم تسأل.»

سكت الأب، ثم قال: «إنت سبتها سنة ونص.»

«وسبتها عشان أرجع.»

دخل زين الغرفة وأعاد قميصين إلى مكانهما، ثم توقف. لم يكن الغضب على الملابس. كان يخشى أن يجد البيت قد تعلم العيش من دونه. في المساء اعتذر. قال لكمال إنه يحتاج أيامًا كي يعرف أين يضع نفسه. رد الأب بأنه أيضًا لا يعرف كيف يتعامل مع ابن عاد أكبر من الغرفة التي تركها.

بدأا يغيران البيت معًا. أخرج زين كتبًا قديمة من الصناديق، ونقل كمال ماكينة خياطة نادية إلى ريم بعد أن بقيت سنوات لا تُستخدم. اختلفا على كل شيء تقريبًا: ما يُحفظ، وما يُعطى، وما يعد خيانة للذكرى. في النهاية بقيت صورة نادية في مكانها، واتسعت الخزانة للكتب الجديدة.

في المستشفى، جاءت أسرة الرجل الذي تأجلت جراحته بسبب العدوى. دخل الابن الذي كان قد صرخ فيه. قال إن أباه تحسن وإنه يريد الاعتذار. رد زين أن خوفه كان مفهومًا. سأله الرجل لماذا لم يغضب يومها.

قال: «غضبت. بس ما كانش لازم أخليك تدفع تمنه.»

حين عاد في المساء، كان شريط سالي يعمل في الطابق الثاني. لم يصعد ليسمعه بوضوح، ولم يغلق الشرفة. أخذ طبق العشاء إلى كمال، وجلسا يتجادلان في مباراة انتهت قبل ساعتين.

عاد زين إلى عادات القاهرة أسرع مما توقع. صار يشتري القهوة من المكان نفسه، ويعرف أي ساعة يعلق فيها الطريق، ويترك الحذاء قرب باب غرفته. لكن جسده ظل يستيقظ قبل المنبه بتوقيت لندن، فيجلس في الشرفة بينما المدينة لم تبدأ بعد.

في أحد الصباحات وجد كمال مستيقظًا. لم يكن الأب ينام جيدًا بعد عودة ابنه؛ يخاف أن تكون الإقامة مؤقتة. جلسا يشربان الشاي. قال كمال إنه فكر في بيع جزء من أثاث نادية. توقع زين أن يرفض، لكنه ساعده على اختيار ما يُعطى. أخذا الملابس إلى جمعية، وبقي كمال ممسكًا بكيس صغير وقتًا طويلًا قبل أن يتركه.

في المستشفى، دعا زين أنيتا للمشاركة في تدريب قصير بالقاهرة. اعتذرت بسبب أسرتها، وأرسلت له عرضًا عن التواصل مع المرضى. عرضه على الفريق. سخر طبيب كبير من «دروس الكلام». بعد

أسبوع، جاء الطبيب نفسه يطلب نسخة بعد أن اشتكت أسرة من أنه لم يشرح.

بدأ زين يكتب ملاحظات صغيرة عن الأشياء التي تعلمها في لندن، لكنه توقف حين شعر أنه يحول التجربة إلى قائمة فضائل. احتفظ بدفتر واحد فيه أخطاؤه وأسئلته، لا إنجازاته. كان يفتحه قبل الحالات الصعبة.

أما صوت سالي، فصار يظهر في البيت دون إعلان. ليلى ترسل شريطًا، وفؤاد يشغله، وكمال يسمع من الشرفة. أحيانًا يغير زين مكان جلوسه كي لا يسمع، وأحيانًا يبقى. لم يكن الاتزان خطًا مستقيمًا. كان يومًا يستطيع، ويومًا لا.

بعد عودته بستة أشهر، دعاه زملاء لندن إلى مؤتمر. كان يستطيع أن يقدم نفسه بوصفه الخبير العائد، لكنه اختار عرض حالة عادل وبرنامج المتابعة. طلب موافقة عادل على استخدام التفاصيل. قال الرجل إنه يوافق بشرط ألا تُعرض صورته ولا يوصف بأنه «ضحية ملهمة».

في المؤتمر، سأله طبيب شاب لماذا يتحدث عن خطأ قديم بدل إنجازاته الجديدة. قال زين إن الجديد لا يُفهم من دون الطريقة التي وصل بها. لم يصفق الجميع. خرج مرتاحًا لأن الصمت لم يعد يعني الفشل.

عاد إلى القاهرة ليلًا. وجد كمال نائمًا وطبقًا مغطى. سخنه وأكله وحده. كانت العودة هذه المرة إلى حياة مستمرة، لا إلى لحظة استقبال.

بقي الصوت يصعد بين الشرفتين. لم يكن نداءً، ولا رسالة. كان عملًا يصل إلى بيت قديم مثل أي صوت آخر من المدينة.

الفصل الثمانون

امرأة تقيس الضوء

دخلت مريم رشاد حياة زين بسبب نافذة.

كان البنك الذي موّل توسعة مركز القلب قد كلّف مكتبها المعماري بمراجعة تصميم غرف الإفاقة. وصلت إلى المستشفى تحمل لفافة مخططات، وشريط قياس، واعتراضًا واضحًا على وضع النوافذ. قال المهندس المسؤول إن الضوء الطبيعي ترف في وحدة حرجة. قالت مريم إن الإنسان الذي يستيقظ بعد جراحة في صدره يحتاج إلى علامة واحدة تخبره أن العالم ما يزال خارج الأجهزة.

كان زين في الاجتماع ممثلًا للفريق الطبي. نظر إلى الرسم وقال إن النافذة ستضيع مساحة جهازين.

سألته: «والمريض هيعرف الوقت منين؟»

«من الساعة.»

«الساعة رقم. أنا بتكلم عن الصبح.»

لم تعجبه نبرتها. لم يعجبها أنه يتكلم كأن المساحة ملك للأجهزة وحدها. اختلفا أربعين دقيقة، ثم خرجت وهي تقول لزميلها إن الجراحين يظنون أن كل شيء لا يمر تحت أيديهم قابل للإزالة.

سمعها.

في الأسبوع التالي، جاءت إلى غرفة الإفاقة القديمة في السادسة صباحًا. كان زين يمر على المرضى. وجدها واقفة عند نهاية الممر تراقب شريط ضوء ضيق يدخل من نافذة عالية ويسقط على الأرض لا على الأسرة.

قال: «جيتِ تثبتي إنك صح؟»

«جيت أشوف الساعة اللي قلت عليها.»

اقتربت من مريض مسن فتح عينيه وسأل إن كان الليل انتهى. أجابته الممرضة. نظرت مريم إلى زين، ولم تقل شيئًا.

تغير التصميم. لم تحصل على كل ما طلبته، ولم يخسر الفريق الأجهزة. صغّروا مخزنًا، ونقلوا بابًا، وفتحوا نافذتين ضيقتين بارتفاع يسمح للمريض أن يرى السماء وهو مستلقٍ.

بعد افتتاح الوحدة، أرسل لها زين صورة لأول خيط شمس وصل إلى سرير. كتبت: «الصورة مائلة.»

رد: «المريض ما اشتكاش.»

بدأت الرسائل عن العمل. ثم صارت عن مبانٍ قديمة، وممرات المستشفيات، ولماذا تبدو بعض البيوت أكثر رحمة من أصحابها. كانت مريم في الثانية والثلاثين، تعمل أكثر مما تقبل أسرتها، وتسكن وحدها قرب الدقي. فقدت خطيبًا قبل سنوات، لا بالموت بل باكتشافهما أن كلًا منهما يريد حياة مختلفة. لم تقدم القصة كجرح يحتاج إلى تعويض.

في أول عشاء، تأخر زين خمسًا وثلاثين دقيقة. حين وصل، وجدها تدفع الحساب عن فنجانها.

قال: «الحالة طولت.»

«أتمنى المريض يكون كويس.»

«كويس. ممكن نقعد؟»

«عندي موعد تاني.»

لم يكن لديها. مشت نصف ساعة وحدها قبل أن تعود إلى بيتها. اتصل في اليوم التالي واعتذر من غير أن يطلب منها أن تفهم طبيعة عمله.

قال: «كان لازم أكلمك.»

«آه.»

«أقدر أحاول تاني؟»

«تقدر. بس العملية تفسر التأخير، ما تمسحهوش.»

في اللقاء الثاني وصل قبلها. لم يحضر وردًا. أحضر صورة النافذة بعد أن زرعوا أمامها شجرة صغيرة. قالت إن اختيار الشجرة سيئ لأنها لن تتحمل الظل. قال إنه طبيب لا بستاني.

ضحكت.

لم تشبه سالي. لم تكن تسأل بالطريقة نفسها، ولا تسكت بالطريقة نفسها، ولا تحمل تاريخ العمارة في صوتها. في البداية، كان زين يبحث عن المقارنة ثم ينتبه. مع الوقت توقف البحث، لا لأن سالي اختفت، بل لأن مريم احتلت مساحتها الخاصة من غير أن تطلب إخلاء مساحة أخرى.

حين أخبر كمال، سأل الأب: «دكتورة؟»

«مهندسة.»

«كويسة؟»

فكر زين في النافذة، وفي حساب القهوة، وفي الرسالة المائلة.

لم يكن مكتب مريم يعرف أنها بدأت ترى زين خارج المخططات. زميلها حسام لاحظ فقط أنها صارت تدافع عن تفاصيل طبية لم تكن تهتم بها من قبل، وأنها تعيد رسم غرفة الإفاقة للمرة الرابعة. قال لها إن العميل سيدفع مقابل مخطط واحد، لا مقابل اقتناعها الأخلاقي.

ردت أن المباني التي يتعافى فيها الناس لا يجوز تصميمها كأنها مخازن أجهزة. قال إن الجملة تصلح لمحاضرة، لا لميزانية. اختلفا حتى أرسل المدير نسخة مخففة من المشروع إلى البنك من وراءها. اكتشفت الأمر في اجتماع التنفيذ، حين وجدت نافذة حُذفت ومخزنًا عاد إلى مكانه القديم.

وقفت أمام الجميع وقالت إن اسمها يجب أن يُرفع من اللوحة إذا نُفذ التصميم بهذه الصورة. لم ترفع صوتها، لكن يدها كانت

تضغط على القلم حتى ترك أثرًا في إصبعها. طلب المدير استراحة، واتصل بها بعد ساعة ليقول إنها تضع مستقبلها في خطر من أجل فتحة في حائط.

قالت: «مش الفتحة. حق اللي هيصحى يبص بره.»

عادوا إلى التفاوض. لم تحصل على كل شيء، لكنها حافظت على نافذة واحدة في كل غرفة، وعلى مقعد يسمح للأسرة أن تجلس قرب المريض من غير أن تعوق الأجهزة. حين أخبرت زين، لم يقل لها إنه كان يستطيع التدخل. قال فقط: «كويس إنك ما طلبتيش مني.»

سألته: «كنت هتدخل؟»

«غالبًا.»

«عشان تساعدني ولا عشان ترتاح؟»

فكر. «الاتنين.»

كانت هذه إحدى المرات التي أعجبتها فيها إجابته لأنه لم ينظفها قبل أن يقدمها.

في بيت أسرتها، لم يمر الأمر ببساطة. أمها كانت ترى أن سنها لا يسمح بعلاقات طويلة بلا قرار، وأخوها اعتبر عمل زين عذرًا دائمًا سيجعلها تنتظر. في عشاء الجمعة، قال الأخ إن الجراحين لا يتزوجون إلا مستشفياتهم. ردت مريم أنه لا يحق له أن يحول تجربة صديق إلى قانون. ثم اكتشفت أنها تدافع عن زين أكثر مما تعرفه.

بعد العشاء، مشت مع أمها على الرصيف. سألتها الأم إن كان الرجل قد حكى لها عن المرأة القديمة. قالت مريم نعم. سألتها هل تخاف. قالت إنها تخاف من رجل ينكر ماضيه أكثر من رجل يعترف به، لكنها لا تعرف بعد إن كان الاعتراف عند زين شجاعة أم طريقة مهذبة لإبقاء الباب مفتوحًا.

في اللقاء التالي، قالت له ذلك كما هو. لم يحاول إقناعها. طلب وقتًا كي يفهم الفرق بنفسه. أغضبها الطلب؛ كانت تعبت من الرجال الذين يسمون التردد تفكيرًا. انقطعت مكالماتهما أسبوعًا. في اليوم الثامن، وجدته عند موقع المركز يحمل خوذة زائدة. لم يطلب منها عشاءً. قال إن فريق التمريض يريد مراجعة موضع

الأبواب، وإنه جاء ليسمعها وهي تشرح لا ليتكلم مكانها. طوال الاجتماع، قاطعه المقاول مرتين، فأشار إلى مريم وقال: «هي صاحبة القرار في الجزء ده.»

بعد الخروج، قالت: «دي حركة محسوبة؟»

«آه.»

«كويس إنك معترف.»

مشيا إلى المقهى. تأخر النادل، وجاءت القهوة باردة. لم يحولا اللقاء إلى جلسة اعتراف. تحدثا عن أبنية هُدمت، وعن فيلم شاهدته، وعن خوفه من قيادة السيارة في لندن في الأيام الأولى. في نهاية المساء قالت إنها لا تريد أن تكون اختبارًا يثبت به أنه تجاوز أحدًا.

قال: «ولا أنا عايزك تبقي كده.»

«الرغبة مش كفاية.»

«عارف.»

دفعت نصف الحساب. لم يتجادل.

زار زين مكتبها بعد شهر. لم تكن الغرفة مرتبة. نماذج كرتونية فوق الأرض، أكواب قهوة، وشتلات صغيرة مات نصفها لأن النافذة لا تصلها الشمس. رآها تتحدث مع عامل نظافة باسمه وتسأله عن ابنه. حين انصرف، قالت إنها تحفظ أسماء الناس لأنها تكره أن يتحول المكان إلى وظائف بلا وجوه.

تذكر بطاقات المرضى التي كان يكتب عليها الأسماء صوتيًا في لندن. لم يقل إنهما متشابهان. بدأ فقط يساعدها في جمع القطع التي سقطت من نموذج سقف.

في الطريق إلى بيت كمال، قال لها إنه لا يعرف كيف يقدمها.

قالت: «باسمي.»

فعل. جلس كمال أمامها متحفزًا، سألها عن عملها ومسكنها وأسرتها. أجابت، ثم سألته عن مواقع البترول والصحراء. بعد نصف ساعة كان يرسم لها توزيع بيت عاش فيه العمال سنوات. لم تنظر إلى زين طلبًا للنجدة، ولم تحاول كسب الأب. كانت مهتمة فعلًا.

حين خرجت، قال كمال: «مش سهلة.»

رد زين: «مش عايزها سهلة.»

سمع نفسه، وعرف أن الجملة هذه المرة لا تعني أنه يحب الصعوبة، بل أنه بدأ يقدّر شخصًا لا يختصر نفسه كي تناسب حياته.

في الشهر الذي سبق اعترافه لكمال، دعت مريم زين إلى معرض معماري. وقف أمام نماذج مبانٍ لا يفهم لغتها. كانت تتحدث مع زملائها بسرعة وثقة، وتختلف مع رجل مشهور في المهنة من غير أن تخفض صوتها. شعر بأنه الضيف للمرة الأولى.

قدّمته إلى الناس باسمه فقط. أحدهم لم يعرفه. ارتاح، ثم استغرب ارتياحه. جلس في مقعد جانبي يسمعها تشرح كيف يمكن للممر أن يجعل المريض يشعر بأنه مراقب أو محمي.

اكتشف أن خلافهما الأول حول النافذة لم يكن تفصيلًا عابرًا، بل جزءًا من طريقة ترى بها العالم.

بعد المعرض، قالت إن وجوده كان صامتًا أكثر من اللازم. قال إنه لم يرد أن يتدخل. ردت أن الصمت يمكن أن يكون انسحابًا أيضًا.

طلبت منه أن يسأل. سألها عن النموذج الذي رفضته اللجنة، فحكت ساعة كاملة.

في المقابل، حضرت مريم عملية من خلف الزجاج ضمن زيارة للمشروع. رأت زين داخل الغرفة مختلفًا: قصير الجمل، هادئ اليد، يطلب الأداة من غير أن يرفع صوته. بعد الخروج قالت إنها فهمت لماذا يعود إلى البيت وكأنه ما يزال هناك. لم تقل إن ذلك يعفيه.

بدأ كل واحد منهما يرى عمل الآخر لا كعائق، بل كجزء من الشخص الذي سيتعامل معه. لم يجعل ذلك العلاقة سهلة. جعلهما فقط أقل ميلًا إلى اختصار بعضهما في المهنة.

في أول مرة زارت مريم المقابر مع زين، وقفت أمام قبر نادية ولم تعرف ماذا تقول. كمال تحدث عن الطقس، وزين عدّل الزهور. لم تطلب مريم تفاصيل من الميتة. بعد العودة قالت إن نادية موجودة في البيت أكثر من القبر.

سألها إن كان ذلك يضايقها. قالت إن الحضور لا يضايقها، لكن استخدامه كمعيار قد يضايقها. قال إنه لا يقارن. رفعت حاجبها. اعترف أنه يفعل من غير قصد.

في الأسبوع التالي، طبخت مريم وصفة قالت ليلى إن نادية كانت تجيدها. فشلت. أكلها كمال وقال إنها مختلفة. لم يقل أسوأ. ضحكوا. للمرة الأولى، دخلت ذكرى نادية إلى مائدة جديدة من غير أن تطلب تقليدها.

قال: «بتشوف حاجات أنا ما بشوفهاش.»

الفصل الحادي والثمانون

المريض الذي عاد

عاد عادل إلى المستشفى بعصاه في يد، وملف أوراق في اليد الأخرى. لم يكن مريضًا هذه المرة؛ جاء إلى لجنة تراجع تجربة المرضى بعد الجراحة. دخل غرفة الاجتماع فوجد زين في الطرف المقابل.

توقف الاثنان.

قال عادل: «واضح إننا مش هنبطل نقابل بعض.»

لم يضحك زين فورًا. أشار إلى الكرسي، ثم جلسا بعد انتهاء الاجتماع في كافيتريا المستشفى.

كان عادل قد عاد إلى التدريس ثلاثة أيام في الأسبوع. الساق ما تزال أضعف، والبرد يزيد الألم. قال إنه لا يريد أن تكون حياته ملف خطأ، لكنه لا يريد أيضًا أن يختفي ما حدث من التقارير لأن الطبيب تألم أو تعلّم.

قال زين: «حقك.»

«مش جاي آخد اعتراف جديد.»

«عارف.»

«جاي أقول إن اللجنة عايزة حد من الأطباء يسمع المرضى بعد الخروج. مش بس وقت التوقيع.»

اقترح زين برنامج متابعة. لم يكن الاسم مهمًا، لكن عادل أصر أن يشترك مريض سابق في تصميم الأسئلة. قال إن الأطباء يسألون عن الألم والجرح، ولا يسألون عن الرجل الذي لم يعد يستطيع صعود مدرسته.

بدأ البرنامج صغيرًا. مكالمة بعد أسبوعين، ثم زيارة بعد شهر. اكتشف الفريق أشياء لا تظهر في الأشعة: زوجة تنام جالسة لأنها تخاف من صوت تنفس زوجها، عامل يعود إلى العمل قبل الموعد، ومريض يخفي اكتئابه لأنه نجا ويشعر أنه لا يحق له الشكوى.

أصبح عادل يحضر مرة كل شهر. لم يتحول إلى صديق لزين، ولم يحتج إلى ذلك. بينهما شيء أكثر دقة: دين لا يمكن سداده، ومسؤولية لا تنتهي باعتذار.

في أحد الأيام، شاهد عادل مريم تنتظر زين عند نهاية الممر. كانت تحمل نموذجًا لمركز التأهيل الجديد. سأل بعد أن ابتعدت:

«دي مين؟»

«مريم.»

«إجابة دكتور.»

ابتسم زين. «بنتعرف.»

هز عادل رأسه. «خليها تعلمك، مش تسوقك.»

«إنت قلت الجملة دي قبل كده.»

«واضح إنك محتاج تسمعها أكتر من مرة.»

حين طلب زين من مريم أن تزور العمارة، لم يقدمها لكمال بوصفها مشروع زوجة. قال فقط إنها تريد أن ترى بيتًا قديمًا ما يزال يحتفظ بتوزيعه الأصلي. صعدت تقيس عرض السلم بعينيها، وتلمس الخشب المتآكل في الدرابزين، وتسأل عن سبب اختلاف ارتفاع أبواب الشقق.

عند الطابق الثاني، كان باب فؤاد مفتوحًا. خرجت ليلى، ورحبت بها، ثم نظرت إلى زين نظرة قصيرة فهمها. قدمتها لهما باسمها فقط.

في الشرفة، رأت مريم صورة الزفاف التي تقف فيها سالي إلى جوار مروان. لم تسأل. بعد أن غادرا، قالت وهي تنزل:

«البيت مليان ناس مش موجودة.»

«كل البيوت كده.»

«مش بنفس الكثافة.»

توقف عند الدرجة التي كان يجلس عليها طفلًا.

قال: «في حاجات لازم تعرفيها.»

«مش على السلم.»

تذكر هالة. ابتسم رغمًا عنه.

جلست معه في مقهى قريب، وسمعت القصة من غير أن تقاطعه إلا حين حاول أن يجعل نفسه الضحية الوحيدة. قالت إن الحب القديم لا يخيفها، لكن الطريقة التي يستعمل بها الإنسان قصته ليعفي نفسه من الحاضر هي ما يخيفها.

قال: «مش بطلب منك تصلحي حاجة.»

«كويس. لأني مهندسة، مش ترميم مشاعر.»

لم ينجح برنامج متابعة المرضى من أول شهر. الممرضات رأينه عبئًا إضافيًا، والأطباء الشباب كتبوا إجابات مختصرة كي يغلقوا الملفات، وبعض المرضى لم يردوا على الهاتف. في الاجتماع الثالث، عرضت الإدارة إيقافه حتى تتوافر ميزانية.

جاء عادل في ذلك اليوم ومعه سيدة تدعى أمينة، زوجها أجرى جراحة ناجحة ثم مات بعد شهر بسبب جلطة لم يكتشفها أحد في الوقت المناسب. لم تأتِ لتتهم المركز. جاءت تحمل كيسًا فيه علب أدوية مختلفة وتسأل لماذا لم يفهم أحد أنها كانت تعطي زوجها جرعتين من الدواء نفسه باسمين تجاريين.

وضع زين العلب على الطاولة. كانت الأسماء مختلفة، والمادة واحدة. قال الطبيب المقيم إن التعليمات كانت مكتوبة. ردت أمينة أنها لا تقرأ، وإن ابنها كان مسافرًا. لم يحتج الأمر إلى خطأ جراحي كبير؛ احتاج فقط إلى شخص يسألها كيف ستدير الأدوية في البيت.

أُعيد تصميم المكالمة الأولى. لم تعد قائمة نعم ولا. صار الفريق يطلب من المريض أن يضع الأدوية أمامه ويقرأ الألوان أو يرسل صورة. أصر عادل على سؤال: «مين معاك في البيت؟» قال إن النجاة الفردية فكرة يحبها الأطباء أكثر من المرضى.

بدأ زين يزور بعض البيوت بنفسه مرة كل شهر. في شقة ضيقة بشبرا، وجد مريضًا ينام في الصالة لأن غرفة النوم في الطابق العلوي داخل دوبلكس صغير لا يستطيع صعوده. في بيت آخر، وجد زوجة تخفي اكتئاب زوجها لأنها تخاف أن يعتبره الأقارب ضعف إيمان. لم يستطع حل كل شيء، لكنه عاد إلى القسم بأسئلة لم تكن في الكتب.

مريم شاركت في إحدى الزيارات لتقييم إمكانية تعديل منزل مريض على كرسي متحرك. اختلفت مع زين أمام الأسرة حول نقل الحمام. أراد حلًا سريعًا، وقالت إن الحل السريع سيجبر الزوجة على المرور بالمطبخ كل مرة تدفع الكرسي. احمر وجهه، ثم طلب منها أن تشرح.

في السيارة، قال إنه لم يحب أن تصححه أمام الناس. قالت إنها لم تحب أن يتخذ قرارًا في بيتهم أمامهم كأنهم غير موجودين. صمت حتى وصل إلى إشارة طويلة.

قال: «عندك حق.»

ردت: «مش محتاجة تكسب سرعة اعتذار.»

«أنا مش بكسب.»

«أحيانًا بتعتذر بسرعة عشان تقفل الخلاف.»

نظر إلى الطريق. لم يرد. في المساء اتصل بها وقال إنه أعاد التفكير في المخطط، وإنها كانت محقة في نقطة ومبالغة في نقطة أخرى. ناقشاهما. كان ذلك أفضل من الاعتذار الكامل الذي يترك كل شيء كما هو.

دخلت مريم العمارة مرة أخرى وحدها لتسليم كمال نسخة من رسم قديم لموقع البترول. وجدت ليلى عند الباب تحمل طبقًا. جلستا في شقة الطابق الثاني، وشربتا الشاي. لم تسأل ليلى مباشرة عن نيتها تجاه زين. تحدثت عن نادية، وعن سالي، وعن أن البيوت القديمة تجعل كل امرأة جديدة تشعر أنها تمشي بين صور.

قالت مريم: «أنا ما عنديش مشكلة مع الصور. عندي مشكلة لو حد طلب مني أعيش جوه واحدة.»

ابتسمت ليلى. «هو اتعلم شوية.»

«والباقي؟»

«الباقي هتكتشفيه.»

حين عرف زين بالزيارة، شعر بالقلق. سأل مريم ماذا قالت ليلى. ردت أنها لن تحول النساء إلى تقارير يقرأها بعدهن. غضب لحظة، ثم ضحك لأنه عرف أنها محقة.

بعد ستة أشهر من البرنامج، جاءت نتائج أولية: عودة أقل إلى الطوارئ، والتزام أفضل بالأدوية، لكن الأهم كان عدد الأسئلة التي بدأ الأطباء يكتبونها لأنهم لم يعودوا يفترضون أن الخروج نهاية القصة. عرض زين النتائج في مؤتمر صغير. طلب من عادل أن يقف معه. رفض الرجل أن يكون صورة ملهمة، ووافق فقط إذا تحدث عن الأشياء التي ما تزال سيئة.

وقفا معًا. قال عادل للحضور إن الطبيب الذي أخطأ في حقه لم يصبح قديسًا لأنه تعلم، وإن المريض لا يجب أن يُطلب منه أن

يمنح الغفران كي يثبت أن النظام تحسن. لم ينظر زين إلى الأرض. بقي إلى جواره.

بعد المؤتمر، قالت مريم: «كان صعب.»

قال: «آه.»

«حسيت إنه ظلمك؟»

«في أجزاء.»

«وهتعمل إيه؟»

«ولا حاجة. حقه يحكي النسخة اللي عاشها.»

كانت تلك أول مرة تراه يترك رواية لا يسيطر عليها من غير أن يشرح نفسه بعدها.

حين بدأ برنامج المتابعة ينجح، حاولت الإدارة وضع صورة زين على منشوراته. رفض عادل. قال إن البرنامج يجب أن يطمئن المرضى إلى النظام، لا إلى رجل واحد. وافق زين، لكنه شعر بخيبة صغيرة. لاحظتها مريم.

قالت: «إنت عايز الشغل يكمل ولا عايز تعرف إنه كمل بسببك؟»

رد بحدة أن السؤال ظالم. بعد ساعات، اتصل بها وقال إن السؤال ليس ظالمًا بالكامل.

أصبح عادل يراجع نصوص التعليمات. حذف كلمات طبية، وأضاف مثالًا عن مدرس يريد صعود السلم. في اجتماع، اختلف مع زين أمام الجميع. قال إن زيارة الطبيب للبيت قد تتحول إلى استعراض إذا لم تكن ضرورية. غضب زين، ثم قبل تقليل الزيارات ووضع معايير واضحة.

جاءت أمينة إلى المركز بعد ستة أشهر. قالت إن ابنها صار يكتب أسماء الأدوية بألوان مختلفة. لم تشكر زين وحده؛ شكرت الممرضة التي اتصلت. شعر بالراحة لأن النجاح توزع.

في المساء، ذهب إلى بيت مريم. كانت تصلح نموذجًا مكسورًا. جلس يساعدها. سألته عن يومه، فحكى عن الاعتراض لا عن الإشادة. قالت إن هذه أول مرة يعود فيها من نجاح ويتحدث عن الشيء الذي حدّه، لا الشيء الذي رفعه.

أصبح عادل جزءًا من لجنة التعيين في برنامج تجربة المرضى. اعترض بعض الأطباء لأن المريض السابق لا يملك مؤهلًا إداريًا. قال

إنهم قبلوا لسنوات أن يقرر الإداريون تفاصيل العلاج بلا مؤهل طبي.

في مقابلة ممرضة جديدة، سألها عادل ماذا تفعل إذا قال المريض إنه فهم وهو لم يفهم. أجابت إجابة محفوظة. طلب مثالًا. ارتبكت، ثم قالت إنها ستطلب منه إعادة التعليمات بلغته. اختاروها.

بعد الاجتماع، قال زين إن عادل صار أكثر صعوبة منه. رد الرجل: «إنت اللي فتحت الباب.» قال زين: «مش ندمان.» كان صادقًا رغم أن الباب لم يعد تحت سيطرته.

ضحك. هذه المرة، لم يشعر أنه يهرب من وجع. شعر أنه يدخل غرفة جديدة من باب واضح.

الفصل الثاني والثمانون

بيت له نافذتان

استمرت علاقة زين ومريم عامًا قبل أن يتحدثا عن الزواج. لم يكن التأخير خوفًا وحده. كان لكل منهما بيت وعمل وعادات صار تغييرها أصعب بعد الثلاثين.

مريم لا تريد السكن في العمارة رقم 12، ولا ترى أن رعاية كمال تعني أن تعيش تحت سقفه. زين لا يريد أن يترك أباه وحيدًا، ولا يريد أن يجعل حياته كلها امتدادًا لخوف كمال. بحثا عن شقة تقع على مسافة يمكن قطعها مشيًا من العمارة والمستشفى معًا.

وجدتها مريم في شارع جانبي بمصر الجديدة. طابق خامس، مصعد جديد، وشرفتان صغيرتان؛ واحدة تطل على شارع مزدحم، والثانية على حديقة مدرسة.

قال زين: «الزحمة أكتر من اللازم.»

قالت: «عشان كده في نافذتين. تختار حسب اليوم.»

جلسا في الصالة الفارغة، كما جلس يومًا مع هالة في شقة أخرى. جاءت الذكرى، لكنه لم يختبئ منها.

قال لمريم: «قعدت قبل كده في صالة فاضية واتكلمت عن غرفة طفل كأنها أمر محسوم.»

«ومين كانت؟»

«هالة.»

«وإيه اللي اتعلمته؟»

«إن الطبيعي مش اتفاق.»

نظرت إليه. «جملة كويسة. بتاعتك؟»

«لأ.»

قالت إنها تريد أطفالًا، لكنها لا تعرف إن كانت تستطيع التوفيق بين الحمل والمشروعات. قال إنه يريدهم أيضًا، لكنه لا يريد أن يتحول الموعد إلى خطة عمل. اتفقا على أن يعيدا السؤال بعد الزواج، لا أن يوقعا وعدًا داخل غرفة فارغة.

حين أخبرا كمال، صمت طويلًا. سأل عن المسافة، ثم عن عدد الغرف، ثم قال إن الشقة في الدور الخامس وقد يتعطل المصعد. ردت مريم أن بيتهم في الدور الثالث والمصعد يتعطل منذ أربعين عامًا.

ضحك فؤاد. لم يضحك كمال.

بعد يومين، جاء إلى الشقة يحمل صندوق أدوات. قال إن باب الشرفة لا يغلق جيدًا. عمل ساعتين، ثم جلس على الأرض يشرب الشاي.

قال لمريم: «زين ما بيعرفش يعيش لوحده حتى لو قال.»

ردت: «ولا أنا. بس هنحاول ما نخليش احتياجنا يبقى حبس.»

نظر إليها، ثم إلى ابنه. «الكلام سهل.»

قال زين: «عارف.»

لم يطلب كمال منهما العودة إلى العمارة. وضع المفك في الصندوق، وكتب رقم نجار يعرفه على الحائط بقلم رصاص قبل أن تعترض مريم.

تم الزواج في حفل صغير في حديقة بيت قديم. حضر فؤاد وليلى وسامر ومها، التي عادت من بيروت نهائيًا بعد أن اختارت أن تفتح مكتبًا للإنتاج مع سامر بدل أن تظل الزيارات اختبارًا للعلاقة. جاء عادل بدعوة لم يتوقعها، وجلس بعيدًا ثم صافح زين قبل أن يغادر.

في آخر الحفل، وقف كمال أمام مريم وقال: «هو بيتأخر.»

قالت: «عارفة.»

«وبيفتكر إن السكوت حل.»

«عارفة.»

«وإنتِ؟»

فكرت. «بغير ترتيب البيت لما أقلق.»

أومأ كأنه سجل المعلومة.

في الليلة الأولى، فتح زين نافذة الشارع. دخل صوت السيارات. أغلقتها مريم، وفتحت نافذة المدرسة. جاء صوت كلب وحارس يصفّر.

قال: «دي أهدى؟»

«لأ. بس ضوضاء مختلفة.»

قبل الزواج، حاولت الأسرتان تحويل كل تفصيل إلى اختبار. أم مريم أرادت حفلًا أكبر لأن ابنتها انتظرت طويلًا، وكمال أراد أن يبدأ الزوجان حياتهما في العمارة «مؤقتًا» حتى ينتهيا من تجهيز

الشقة. رفضت مريم المؤقت الذي لا يملك تاريخ انتهاء، ورفض زين حفلًا يستهلك ما ادخراه للمطبخ والنوافذ.

اجتمعوا حول مائدة في بيت مريم. رفع كمال صوته حين شعر أن الجميع يتعامل مع بيته كعبء. قالت مريم بهدوء إن البيت ليس عبئًا، لكن خوفه من الفراغ لا يمكن أن يصبح عنوانها. نظر إلى زين ينتظر أن يدافع عنه. قال الابن إنهما سيعيشان في الشقة الجديدة، وإنه سيأتي مرتين في الأسبوع، وإن الاتفاق قابل للمراجعة لا للإلغاء عند أول شعور بالذنب.

غادر كمال مبكرًا. لحق به زين إلى الشارع. قال الأب إنه لا يريد أن يستيقظ فلا يجد أحدًا في الطابق. رد زين أنه لم يعد طفلًا يمكن إبقاؤه قرب الباب كي يضمن بقاء البيت. تشاجرا. عاد كمال وحده.

بعد يومين، جاء إلى الشقة الجديدة ومعه صندوق أدوات. لم يعتذر. أصلح باب الشرفة، ثم طلب من مريم قلمًا وكتب رقم النجار على الحائط. حين انتهى، قالت له إن الرقم سيختفي

بالدهان. قال إنه سيكتبه مرة أخرى بعد الدهان. لم يكن حلًا، لكنه كان طريقته في قبول أن الجدار ليس جدار بيته.

اختارت مريم أن يكون عقد القران في حديقة بيت قديم تستخدمه جمعية ثقافية. لم تضع مقاعد متساوية في صفوف؛ وزعتها حول الأشجار. قال المصور إن الصور ستبدو فوضوية. قالت إن الناس ليسوا لجنة امتحان.

قبل الحفل بساعات، اتصل المستشفى بزين بشأن مريض يعرف ملفه. حمل الهاتف، ثم أعطاه لزميله الذي كان مناوبًا وشرح له النقطة المطلوبة. أغلقه. رأته مريم.

قالت: «كان ممكن تروح.»

«آه.»

«ليه ما رحتش؟»

«عشان في حد مسؤول. وعشان أنا هنا.»

لم تشكره. مدت يدها فقط، ففهم أن القرار ليس بطولة بل ممارسة لما وعد به.

في الحفل، جلس عادل في الخلف. لم يعرف معظم المدعوين من يكون. جاء ليسلم ثم يغادر، لكنه بقي حتى رأى زين يوقع. حين صافحه قال: «البيت محتاج متابعة بعد الخروج.» ضحك زين للمرة الأولى من جملة تخص خطأهما.

مها وسامر كانا قد عادا من مرحلة تردد طويلة. عملا معًا في مشروع صغير، واتفقا على ألا يربطا استمرار العلاقة بنجاح المشروع. في الحديقة، كانت مها تراجع صوت الموسيقى بينما سامر يعلق لوحة رسمها للنافذتين. تشاجرا حول مكانها أمام الضيوف، ثم ضحكا لأنهما لم يعودا يخافان أن يرى الناس خلافهما.

بعد الحفل، دخل زين ومريم الشقة. لم تكن مكتملة. صندوق الكتب في الصالة، وستارة غرفة النوم أقصر من النافذة، والثلاجة تصدر صوتًا كلما أغلقت. جلسا على الأرض يأكلان من علب بلاستيكية.

قالت مريم: «خايف؟»

«آه.»

«من إيه؟»

«إني أكرر نفسي.»

«هتكرر أجزاء. وأنا كمان.»

«مطمّنة جدًا.»

«أنا ما وعدتكش بالطمأنينة.»

في الأسبوع الأول، اكتشفا أن زين يستيقظ مع أي صوت في الممر، وأن مريم لا تستطيع النوم إذا كان باب الغرفة مغلقًا تمامًا. هو يغلق الأبواب من العادة، وهي تفتحها لتشعر بالهواء. تشاجرا في الليلة الثالثة لأن الباب تحرك ثلاث مرات.

قالت: «مش لازم كل عادة يبقى وراها معنى.»

رد: «بالنسبة لي وراها.»

جلست على حافة السرير. طلبت أن يحكي. قال إن كمال كان يترك الأبواب مواربة بعد وفاة نادية، وإنه صار يغلقها حين يريد ألا يسمع أحد ما يدور داخله. لم تقل له أن يتوقف. اتفقا على باب نصف مفتوح.

في الصباح، ذهبا إلى عملهما. لم يشعر أي منهما أن الزواج اكتمل في الليلة الأولى. كان البيت يتعلمهما يومًا بعد يوم: أين يتركان المفاتيح، من يشتري الخبز، وكيف يعودان بعد خلاف من غير أن ينتظر أحدهما اعتذارًا مثاليًا.

في الشهر الأول بعد الزواج، لم يعرف الجيران أي اسم يستخدمون. بعضهم قال «بيت الدكتور»، وبعضهم قال «شقة المهندسة». صححت مريم مرة، ثم تعبت. وضعا الاسمين على صندوق البريد أيضًا.

قسم العمل المنزلي لم يأتِ تلقائيًا. زين كان يظن أنه يساعد حين يغسل الأطباق يوم الإجازة، بينما مريم تتابع الطعام والتنظيف والفواتير طوال الأسبوع. كتبت قائمة، فشعر أنها تحول الزواج إلى إدارة. قالت إن الأشياء غير المكتوبة تقع غالبًا على الشخص نفسه. جربا جدولًا وفشل. ثم اتفقا على مسؤوليات ثابتة قابلة للتبديل. نسي زين شراء المنظفات مرتين، فاضطرت مريم. في الثالثة تركت الغسيل ينتظر. عاد ولم يجد قميصًا نظيفًا. لم تقل شيئًا. اشترى المنظف.

كانت الأيام الجيدة أقل درامية: إفطار متأخر، مشي إلى بيت كمال، خلاف على فيلم، ونوم في الصالة لأن الهواء أفضل. تعلما أن الاستقرار لا يظهر في الصور، بل في أن يعرف كل واحد أين يجد كوب الآخر حين يستيقظ نصف نائم.

في أول شتاء، تسرب المطر من نافذة المدرسة. قالت مريم إن التركيب سيئ. قال زين إن الماء بسيط. وضعت وعاءً تحته. في الثالثة صباحًا امتلأ وانسكب. استيقظا ينشفان الأرض ويضحكان من عنادهما.

في اليوم التالي، جاء كمال بمادة عزل وأصلح التسرب. انتقد المقاول، ثم جلس يشرب الشاي. حين غادر، قالت مريم إن البيت صار يحمل أثره. قال زين إن كمال يحتاج أن يترك مفكًا في كل مكان يزوره. تركا خط القلم الذي كتبه على الحائط خلف الستارة، ولم يطلُياه.

ناما والنافذتان نصف مفتوحتين.

الفصل الثالث والثمانون

اسم على الباب

لم تغيّر مريم اسمها بعد الزواج لمدام زين ، ولم يكن الأمر خلافًا حتى جاء عامل تركيب لوحة الباب. كتب فوق المعدن: «د. زين كمال ياسين وحرمه».

قرأت مريم العبارة، ثم أعادت اللوحة إلى الرجل.

قال: «نكتب إيه يا مدام؟»

«مريم رشاد. مهندسة معمارية.»

نظر إلى زين ينتظر القرار. قال زين: «زي ما قالت.»

ثبت الرجل اسمين متجاورين. كان اسم مريم أطول، فخرجت اللوحتان غير متساويتين. أرادت أن تعيد القياس. قال زين إن الاختلاف لا يضر. قالت إن المهندسة لا تستطيع أن تبدأ بيتها بلوحتين مائلتين.

في الأشهر الأولى، اكتشفا أن الزواج لا يشبه اللقاءات المتفق عليها. زين يترك الكتب فوق طاولة الطعام، ومريم تفتح النوافذ كلها في

الصباح حتى في الشتاء. هي تعدل أماكن الأثاث كلما ضغطها مشروع، وهو يغلق أبواب الغرف من غير أن يعرف لماذا.

في أول خناقة حقيقية، عاد زين بعد منتصف الليل ولم يتصل. كانت العملية طارئة، لكن هاتفه كان في جيبه.

قالت مريم: «أنا مش زعلانة إنك اتأخرت. زعلانة إني ما عرفتش إذا كنت عايش.»

«كنت في العملية.»

«والرسالة قبلها؟»

«ما لحقتش.»

«إنت لحقت تدخل غرفة تغيير الملابس، وتخلع الساعة، وتلبس. ما لحقتش عشر ثواني؟»

رفع صوته. «مش كل مرة هشرح طبيعة شغلي.»

قالت: «وأنا مش كل مرة هقبل الشغل كإجابة عن كل سؤال.»

نام في الصالة. في الصباح، وجد فوق الطاولة ورقة صغيرة: «أنا في الموقع. لا أعرف هل سنأكل معًا.» لم تكن تعاقبه؛ كانت تفعل ما طلبته منه.

بدأ يرسل رسالة قبل العمليات الطويلة. أحيانًا ينساها. تذكره من غير خطبة، ثم يعودان إلى يومهما. لم يتحول الإصلاح إلى فضيلة تُروى، بل إلى عادة تفشل وتُعاد.

أما مريم، فحصلت على مشروع تصميم مركز ثقافي في الإسكندرية يستغرق منها يومين أسبوعيًا. في البداية قال زين إن السفر مرهق. سألته هل يقصد عليها أم عليه. اعترف أنه يقصد البيت. قالت: «البيت مش طفل لوحده.»

اتفقا على عام تجريبي. كان كمال يأتي للعشاء في الليالي التي تسافر فيها، لكنه رفض أن يبدو جليسًا لابنه. يجلس نصف ساعة ثم ينهض، فيطلب منه زين البقاء. ببطء، أصبح حضوره اختيارًا لا مهمة.

بعد عام، مرضت ليلى ودخلت المستشفى لإجراء عملية بسيطة. حضرت سالي من الكويت ثلاثة أيام. عرف زين من فؤاد، وكان في مؤتمر خارج القاهرة. لم يلتقيا. أرسل إلى ليلى باقة من غير بطاقة طويلة. اتصلت تشكره، ثم أعطت الهاتف لسالي فجأة.

جاء صوتها بعد سنوات من الأشرطة والرسائل غير المباشرة.

قالت: «ألو.»

توقف زين عند نافذة الفندق.

«حمد لله على سلامة طنط ليلى.»

«الله يسلمك.»

كان يستطيع أن يسأل عن كل شيء. قال فقط: «إنتِ كويسة؟»

«آه. وإنت؟»

نظر إلى اسميه واسم مريم في بطاقة المؤتمر.

«كويس.»

عاد الهاتف إلى ليلى. استغرقت المكالمة أقل من دقيقة. حين عاد إلى القاهرة، أخبر مريم.

قالت: «حسيت بإيه؟»

«إن الصوت ما كبرش زي الوش.»

بعد أشهر من الزواج، سافرت مريم إلى الإسكندرية للمشروع يومين كل أسبوع. في المرة الأولى، أعد زين جدولًا كاملًا: مواعيد اتصالات، وقت القطار، وأرقام الموقع. قرأته ثم وضعته في درج. قال: «عشان أطمن.»

ردت: «اطمن عليّ، مش أديرني.»

في الأسبوع التالي لم يسألها إلا عن موعد عودتها. تأخر القطار ساعتين، ولم يكن معها شاحن. حين وصلت وجدته في المحطة، غاضبًا وخائفًا. قال إنها كان يجب أن تستعير هاتفًا. قالت إنها كانت وسط مئات الركاب المتعبين ولم تفكر أن تبحث عن رجل غريب كي يطمئن زوجها.

في السيارة، لم يتكلما. عند البيت، قال إنه يعرف أن خوفه ليس حقًا في التحكم، لكنه لا يستطيع إيقافه بالأمر. قالت إنها لا تطلب إيقافه، بل ألا يجعلها مسؤولة وحدها عن علاجه. بدأا يرسلان رسالة قصيرة عند الوصول والمغادرة، لا تقريرًا طوال الطريق.

حين حصلت مريم على أول تكليف كبير باسمها، دعتها المجلة المعمارية إلى جلسة تصوير في البيت. طلب المصور أن يقف زين إلى جوارها لأنه «وجه معروف». رفضت. قال المحرر إن وجوده يزيد الانتشار. ردت أن المقال عن مشروعها، وإن الناس يستطيعون رؤية زين في مكان آخر.

لم يقل زين شيئًا وقتها، لكنه شعر بإهانة صغيرة لم يحب الاعتراف بها. في المساء، سألها لماذا لم تتركه يظهر في صورة واحدة. قالت إن السؤال نفسه يثبت حاجتها إلى الرفض. تشاجرا. اتهمها بأنها تتعمد فصل نجاحها عنه، واتهمته بأنه يريد أن يكون حاضرًا حتى في المساحات التي لا تخصه.

ناما متباعدين. في الصباح وجد المقال الأولي على الطاولة. قرأ اسمها وحده، ورأى صورة للنوافذ التي دافعت عنها. شعر بالفخر والغيرة معًا. قال لها ذلك.

قالت: «الغيرة من نجاحي؟»

«من إن عندك حاجة مش محتاجاني فيها.»

لم تسخر. قالت إنها أيضًا تغار من المستشفى لأنه يعرف منه نسخة لا تراها في البيت. لم يحل الاعتراف كل شيء، لكنه سمح لهما أن يتكلما عن النجاح بوصفه شيئًا يمكن أن يبعد، لا فقط أن يجمع.

في أول عيد زواج، نسي زين الموعد حتى الظهر. لم يكن في عملية. كان في اجتماع عادي. تذكر حين أرسلت له مريم صورة لوحة

الباب وكتبت: «عدّى سنة واللوحتان لسه مائلتين.» عاد يحمل كعكة من محل قريب. قالت إنها لا تريد تعويضًا سريعًا. تناولا العشاء من دون احتفال، ثم فتحا زجاجة عصير ظلت في الثلاجة. في نهاية الليلة قالت إن النسيان ضايقها، لكنه لا يلغي السنة. زار كمال البيت مرة من دون اتصال، وفتح الباب بالمفتاح الذي أعطاه له زين للطوارئ. وجد مريم في الصالة تعمل بملابس البيت. تجمد. اعتذر وخرج قبل أن تمنعه. في المساء، طلبت مريم تغيير الاتفاق: المفتاح للطوارئ فقط، والدخول بعد جرس. قال زين إن أباه لن يفهم. ردت أن فهمه ليس شرطًا لوضع حد. تحدث زين مع كمال. غضب الأب وقال إن البيت بيت ابنه. قال زين إنه بيت مريم أيضًا. لم يزره كمال أسبوعين. بعدها جاء وطرق الجرس طويلًا رغم أن الباب مفتوح. قالت مريم: «ادخل يا عم كمال.» دخل، ووضع المفتاح على الطاولة. أعادته إليه وقالت: «خليه. بس رن.» فهم أن الحد لا يعني الطرد.

أما المكالمة القصيرة مع سالي، فلم تمر على مريم في دقيقة واحدة. بعد أن مدت يدها فوق الطاولة، سألت زين إن كان يتمنى لو

طال الكلام. قال نعم، ثم أضاف إنه سعيد أنه لم يطل. سألته كيف يجتمع الاثنان. قال إنه لا يعرف.

قالت: «سيبهم من غير ما تحلهم.»

في الليلة نفسها، دخلت مريم مكتبها المؤقت في زاوية الصالة، وأكملت مخططًا. جلس زين في الغرفة الأخرى يراجع ملفات. كان بينهما باب مفتوح وصوتان مختلفان. لم يحتج أي منهما إلى ملء الصمت كي يثبت أن البيت بخير.

بعد المكالمة مع سالي، مر أسبوع لم يذكراها فيه. ثم وجدت مريم زين يصلح جهاز تسجيل قديمًا أرسله فؤاد. سألته إن كان الشريط فيه صوتها. قال نعم. جلست قربه وهو يحاول تنظيف الرأس المعدني.

قالت إنها تريد أن تسمع الحلقة، لا لتراقبه، بل لأنها مهتمة بموضوعها. شغلا الشريط. كان عن نساء يعملن خارج بلدهن. بعد عشر دقائق، نسيت مريم التاريخ الشخصي وبدأت تنتقد تصميم الاستوديو من الصوت. ضحك زين.

في نهاية الحلقة، قالت سالي جملة عن البيت الذي يسافر مع الإنسان. توقف الشريط تلقائيًا. لم ينظر زين إلى مريم. قالت إن الجملة جيدة لكنها مباشرة. وافق.

أعاد الجهاز إلى فؤاد. لم يحتفظ بالشريط. كان يستطيع أن يسمع من دون أن يملك. هذه الحركة الصغيرة طمأنت مريم أكثر من أي وعد بالنسيان.

مرت ذكرى زواجهما الثانية وهما متخاصمان حول مشروع الإسكندرية. لم يشتر أحد هدية. في المساء، أخرجت مريم لوحة الباب القديمة التي رفضتها يوم التركيب: «زين وحرمه». احتفظت بها كي تتذكر ما لم تقبله.

قال زين: «لسه عندك؟»

«عشان أعرف إن الحاجات بتتغير لما حد يعترض.»

وضعاها في صندوق، لا على الحائط. تناولا العشاء، ثم اتفقا على موعد لزيارة الموقع معًا. لم تكن المصالحة رومانسية، لكنها أعادت الكلام.

لم تغر. لم تبتسم أيضًا. مدت يدها فوق الطاولة. وضع يده فيها، وبقي الاسمان على باب البيت متجاورين، غير متساويين، ومستقيمين بما يكفي.

الفصل الرابع والثمانون

ندى

جاءت ندى بعد ثلاث سنوات من الزواج، وبعد عامين من أسئلة الأطباء والانتظار الذي حاول زين أن يحوله إلى خطة.

في الشهر الأول، اشترى ثلاثة كتب عن الحمل. أخفت مريم اثنين.

قال: «ليه؟»

«عشان ما تبقاش استشاري حمل في البيت.»

«أنا بس عايز أفهم.»

«افهم. بس ما تحولنيش لحالة.»

حين بدأ النزيف في الشهر الرابع، دخل زين المستشفى زوجًا ثم نسي نفسه عند الباب وصار طبيبًا. سأل عن الأرقام قبل أن يسأل مريم إن كانت خائفة. أمسكت يده وقالت: «بص لي.»

نظر.

بقي الحمل. طلبت الطبيبة راحة نسبية، لا سجنًا. خفضت مريم زيارات المواقع، لكنها واصلت الرسم من البيت. كان زين يعود

فيجد المخططات فوق السرير، فيبعدها، فتقول إنها تحتاج أن ترى شيئًا لا يتعلق بجسدها.

ولدت ندى في صباح ممطر. لم يدخل زين غرفة العمليات رغم أن المستشفى مستشفاه. وقف خارجها، فاقدًا المهنة الوحيدة التي تمنحه شعورًا بالسيطرة. جلس كمال إلى جواره، يضغط مسبحته من غير صوت.

قال زين: «أنا مش عارف أعمل حاجة.»

رد كمال: «أهو عرفت إحنا كنا بنحس بإيه.»

خرجت الممرضة تحمل طفلة صغيرة ذات شعر أسود كثيف. قال زين إنها تشبه مريم. قال كمال إنها تشبه نادية. قالت مريم بعد أن استفاقت إنها تشبه نفسها، وإن عليهم أن يتركوها يومًا واحدًا قبل توزيعها على الموتى والأحياء.

سموها ندى لأن مريم كانت تحب الكلمة، ولأن زين لم يجد اسمًا طبيًا يعترض به.

في الأسبوع الأول، نامت الطفلة نهارًا وبكت ليلًا. عرف زين أن خبرته مع القلوب لا تفيده أمام مغص طفل. حملها بالطريقة التي علمته إياها الممرضة، ومشى في الصالة حتى الفجر.

جاء كمال كل يوم. في المرة الثالثة، قالت مريم: «عم كمال، إنت مش ضيف.»

فتح الثلاجة من غير استئذان بعدها، لكنه ظل يغسل كوبه قبل أن يغادر.

أرسلت ليلى صورة ندى إلى سالي في الكويت. ردت سالي بهدية: بطانية صغيرة مطرزة باسم الطفلة، من غير رسالة إلى زين. كتبت لمريم بطاقة: «ربنا يحفظها ويخلي لها البيت واسعًا مهما صغرت الغرف.»

قرأ زين البطاقة. لم يسأل كيف عرفت عنوانهما. وضعها داخل درج صور ندى.

بعد أشهر، تلقى من فؤاد شريطًا لحلقة سالي الجديدة. كان موضوعها عن الأطفال الذين يولدون بعيدًا عن بلد آبائهم.

ظهرت في آخر الحلقة وهي تحمل طفلًا عمره عام تقريبًا، وقال المذيع إنه ابنها آدم.

أوقف زين الشريط لحظة. كان الصبي يضحك، ومروان يمد يده من خارج الكادر ليمسح شيئًا عن خده. شغله من جديد.

دخلت مريم تحمل ندى.

قالت: «ده ابنها؟»

«آه.»

جلست إلى جواره. لم تطلب تغيير الشريط. بعد الحلقة، وضعت ندى فوق ركبته.

قالت: «واضح إن الاتنين عرفوا يعملوا عيلة.»

نظر إلى الطفلة التي تمسك إصبعه بكف كامل.

«آه.»

قبل مجيء ندى، عاشا عامين يتعاملان مع الانتظار بطريقتين متعارضتين. زين حوّله إلى مواعيد وتحاليل وأسماء أطباء. مريم كانت تؤجل الاتصال بالعيادة يومين، ثم تغضب من نفسها لأنها

تؤجل. في كل دورة جديدة، يقولان إنهما لن يعلقا الأمل، ثم يراقبان الأيام.

في الشهر الذي فشل فيه أول علاج، عاد زين من المستشفى ومعه نتائج مطبوعة ودراسة حديثة. وجد مريم قد نزعت ملاءة السرير وتغسلها رغم أنها نظيفة. قال إن هناك خيارًا آخر. طلبت منه أن يصمت عشر دقائق.

جلس في المطبخ. بعد نصف ساعة جاءت وقالت إنها لا تريد أن تكون شجاعتهما مشروعًا بلا نهاية. قال إنه يستطيع التوقف إذا أرادت. غضبت لأن العبء عاد إليها. قالت إن القرار يجب أن يكون لهما، لا أن يمنحها حق قطع الطريق ثم يقف بعيدًا. جلسا حتى الفجر، واتفقا على محاولة واحدة أخرى ثم راحة ستة أشهر. نجح الحمل في المحاولة التالية. لم يخبرا أحدًا في الأسابيع الأولى. كان زين يمر قرب الصيدلية فيشتري أشياء لا تحتاجها، ثم يعيد بعضها. كانت مريم تضع يدها على بطنها حين لا يراها، ثم تسحبها كأنها تخشى أن يلاحظ الجسد توقعها.

عند النزيف، وصلت مريم إلى المستشفى قبل زين لأنها كانت قرب الموقع. دخل الغرفة فوجدها على السرير، والطبيبة تشرح أن النبض موجود. سأل عن الأرقام بسرعة. رفعت مريم صوتها: «بص لي.» توقف. جلس قربها. قالت إنها خائفة أن تخسر الطفل، وخائفة أكثر أن تختفي هي خلف كلمة الحمل. ظل ممسكًا بيدها حتى انتهى الفحص.

في فترة الراحة، حاول كمال أن يأتي كل يوم. منعته مريم في اليوم الثالث. قالت إنها تحتاج أن تستيقظ من غير أن تجد أحدًا يراقب طبق إفطارها. شعر بالإهانة، لكن زين أيده. عاد كمال بعد يومين في موعد متفق عليه، يحمل طعامًا ويتركه ثم يمشي.

بعد الولادة، لم تكن الأسابيع الأولى جميلة بالطريقة التي تحكيها الصور. بكت ندى كثيرًا، وتألمت مريم من الرضاعة، وشعرت أحيانًا أنها تريد أن تخرج وحدها ولا تسمع اسمها لساعتين. كان زين يعود من المستشفى فيجدها تبكي قرب سرير الطفلة. في البداية سأل عن الحرارة والرضعة. قالت له مرة: «أنا اللي بعيط.»

تعلم أن يسألها هي أولًا. أخذ إجازة قصيرة أغضبت بعض الزملاء. قال صفوت إن المستشفى لن ينهار. في الليلة الثالثة من الإجازة، حمل ندى من الثانية حتى الخامسة، ومشى بها في الصالة. غنت مريم من السرير كلمات بلا لحن لأنها لم تستطع النهوض.

زار سامر ومها ومعهما لوحة صغيرة لا تحمل وجوهًا، فقط نافذتان وقطعة ضوء. قالت مها إن الطفل لا يحتاج إلى مزيد من الأشياء الوردية. وضعت مريم اللوحة قرب السرير.

حين جاءت بطاقة سالي، قرأتها مريم قبل زين. لم تشعر أن المرأة القديمة دخلت البيت من خلال الورق. شعرت أن أمًا بعيدة تبارك لأم أخرى. سألت زين إن كان يريد الرد. قال إنه لا يعرف ما الذي يكتبه. كتبت مريم وحدها: «وصلت البطانية. ندى نامت فيها أول ليلة ثلاث ساعات كاملة، وده إنجاز يستحق الشكر.» وقّعت باسمها وباسم زين.

وصل رد سالي بعد أسابيع: «الثلاث ساعات كانت صدفة. ما تعتمديش عليها.» ضحكت مريم. وضعت البطاقة في درج الطفلة.

كبرت ندى في البيت ذي النافذتين. عند عامها الأول، مشت نحو نافذة المدرسة وسقطت قبل أن تصل. حملها زين بسرعة، ثم تركها تحاول ثانية. كان كمال يريد الإمساك بها من الخلف. قالت مريم: «سيبها تقع على السجادة.» رد كمال أن الوقوع ليس درسًا ضروريًا. قال زين: «على السجادة ممكن.»

نظر الأب إلى ابنه. عرفا أن الحديث لا يخص الطفلة وحدها. تركها كمال. مشت خطوتين، وجلست من تلقاء نفسها، ثم صفقت.

في الكويت، كان آدم في العمر نفسه تقريبًا. وصلت صورة له يضحك وفي يده ملعقة. علقتها ليلى قرب صورة ندى في شقتها. حين زار زين الطابق الثاني، رآهما متجاورين. لم يشعر أن طفلًا سرق حياة طفل آخر. شعر أن الزمن صنع بيتين كاملين من شيء ظنه يومًا نهاية واحدة.

في عام ندى الأول، تضررت علاقة زين ومريم من التعب. كان كل واحد يظن أن الآخر ينام أكثر. يتجادلان عند الثالثة صباحًا حول من حمل الطفلة آخر مرة، ثم لا يتذكران التفاصيل صباحًا.

ذات ليلة، عاد زين من نوبة ووجد مريم نائمة والطفلة تبكي. حملها وغضب لأن البيت فوضى. في الصباح قال جملة عن أن النظام يساعد. نظرت إليه مريم طويلًا، ثم خرجت ساعتين من غير أن تأخذ ندى. تركته وحده مع الرضعات والملابس.

حين عادت، لم يعتذر بخطبة. قال إن اليوم كان صعبًا وإنه فهم جزءًا. ردت أن الجزء يجب ألا يختفي حين يعود إلى المستشفى. اتفقا على مربية لساعات محدودة رغم اعتراض كمال وأم مريم. لم يجعلا الإرهاق فضيلة أبوية.

كبرت ندى وهي ترى أمها تعمل وأباها يطبخ أحيانًا طعامًا سيئًا. في أول يوم حضانة، بكت مريم بعد أن تركتها. قال زين إن الطفلة ستكون بخير. ردت: «أنا اللي مش بخير.» تعلم أن الجملة القديمة ما تزال مفيدة.

في عيد ميلاد ندى الثاني، اجتمعت الأسرتان. كمال أحضر لعبة أكبر من البيت، وأم مريم أحضرت فستانًا لا يناسب الحركة. بكت الطفلة أمام الشموع. حاول الجميع إضحاكها، فزاد بكاؤها.

حملتها مريم إلى الغرفة وأغلقت الباب. قال زين للضيوف أن يأكلوا. جلس قرب الباب ولم يدخل حتى نادته. بعد دقائق خرجت ندى نائمة. أكملوا الاحتفال من دونها.

قال كمال إن الأطفال لا يفهمون المناسبات. ردت مريم أن المناسبات أحيانًا لا تفهم الأطفال. بقيت الجملة داخل الأسرة، وصاروا بعدها يحتفلون بأعداد أقل وصوت أخف.

لم تكن الجملة عزاءً ولا مقارنة. كانت حقيقة وصلت متأخرة بما يكفي كي لا تحتاج إلى رد.

الفصل الخامس والثمانون

صوتان على شريط واحد

كبر آدم في الكويت وهو يعرف القاهرة من أشرطة الفيديو قبل أن يراها. كانت ليلى تصور الشرفة والجميزة والمصعد، ويظهر فؤاد أحيانًا وهو يطلب منها إغلاق الكاميرا. احتفظت سالي بالأشرطة في خزانة قرب مكتبها، إلى جوار العلبة المعدنية.

في عيد ميلاده الخامس، طلب أن يرى البيت الذي كانت أمه «تسكن فوقه وتحته في الوقت نفسه». لم يفهم الطوابق من الحكايات. أحضر مروان ورقة ورسم العمارة: فؤاد وليلى في الثاني، كمال وزين في الثالث، والسطح في الأعلى.

سأل آدم: «وإنت كنت فين؟»

قال مروان: «في الكويت. مستني أمك تكتشف إني موجود.»

ضحكت سالي، ثم قالت إن الحكاية ليست بهذه البساطة. سأل الطفل عن زين لأن اسمه ظهر في أكثر من شريط. قالت إنه صديق قديم للعائلة وطبيب قلب مثل أبيه.

قال آدم: «شبه بابا؟»

نظر مروان إلى سالي. قالت: «شبهه في حاجات.»

«ومين أحسن؟»

قال مروان: «الأسئلة دي بتخلي الكبار يتصرفوا كأنهم أطفال.»

غير آدم الموضوع، ثم عاد إليه بعد يومين.

في القاهرة، كانت ندى تسأل زين لماذا يحتفظ بسيارة حمراء صغيرة فوق رف مكتبه. وجدها كمال في صندوق قديم بعد تنظيف غرفة التخزين، وأعطاها له من غير شرح.

قال زين: «كانت بتاعتي وأنا صغير.»

«ومين كسر العجلة؟»

«ما اتكسرتش. بتعلق بس.»

دفعتها ندى فوق المكتب، فاصطدمت بإطار صورة. التقطها قبل أن تسقط.

قالت: «إنت كنت بتلعب لوحدك؟»

«لأ.»

«مع مين؟»

توقف. كانت مريم عند الباب تسمع.

قال: «مع ناس كانوا ساكنين معانا في العمارة.»

لم يسأل الطفل أكثر. أخذ السيارة ووضعها على الأرض. جلست مريم قرب زين بعد أن نامت ندى.

قالت: «ممكن تقول اسمها.»

«عارف.»

«مش لازم تخاف إن الاسم هيغير البيت.»

في اليوم التالي قال لندى إن اسم الطفلة كان سالي، وإنها كانت تدفع السيارة بسرعة وتخبطها في الحائط. ضحكت ندى وقالت إن سالي لا تعرف اللعب. صحح لها: «كانت بتلعب بطريقتها.»

مرّت السنوات بصوتين يصلان من بعيد. صوت سالي في البرنامج، وصوت زين في المؤتمرات التي بدأت تُبث على التلفزيون. لم يتحدثا، لكن كل أسرة كانت تعرف من شاشة ما أن الآخر ما يزال يتحرك.

في حلقة عن جراحات القلب للأطفال، استضافت سالي مروان. رفض في البداية أن تجري هي الحوار. قال إن الناس سيظنون أنها

تروج لزوجها. قالت إنهم سيظنون ما يريدون، وإن السؤال هل تستطيع أن تسأله كما تسأل أي طبيب.

في منتصف الحلقة، سألته عن خطأ مهني لم ينسه. ذكر مريضًا لم يطلب له مترجمًا، ووقّع على موافقة لم يفهمها. قال إنه كان يظن الوضوح مسؤولية المريض، ثم عرف أنه مسؤولية من يملك المعرفة.

بعد البث، جاء اتصال من القاهرة. كان فؤاد، وإلى جواره كمال. قال كمال بصوت بعيد إن الحلقة جيدة. لم يتحدث زين. كان في المستشفى.

قالت سالي: «سلم لي عليه.»

وصل السلام بعد يومين، عبر كمال، بصيغة أقصر: «سالي بتسلم.»

قال زين: «الله يسلمها.»

لم تكن أشرطة القاهرة مجرد حنين عند سالي؛ كانت وسيلة لتربط آدم بأشخاص لا يراهم. كل شهر، تسجل ليلى دقائق من البيت: صوت الملاعق، فؤاد يقرأ عنوانًا من الجريدة، كمال ينادي من السلم، وسامر يشرح لوحة جديدة. أحيانًا يظهر زين في الخلفية،

وأحيانًا لا يظهر. لم تطلب سالي من أمها أن تتجنبه، ولم تطلب أن تصوره.

في عيد آدم السابع، أرسلت له ندى تسجيلًا قصيرًا تقرأ فيه جملة من كتاب المدرسة. لم تكن تعرفه، لكنها سمعت أن «ابن طنط سالي» يحب الأفلام. رد آدم بشريط يصور البحر. بدأ الطفلان يتبادلان تسجيلات قليلة عبر الجدتين: مدرسة في مصر الجديدة، سوق في الكويت، قطة فوق سيارة، ومصعد يفتح ببطء.

لم يخبرهما أحد أنهما يحملان طرفي حكاية قديمة. بالنسبة إليهما، كان الأمر لعبة بين بيتين.

كبرت مهنة سالي في المحطة ببطء. حين حصلت على برنامجها الأسبوعي، رفض المدير أن يظهر اسمها وحده في البداية، وقال إن الجمهور يعرف المذيع الرجل. تفاوضت على فقرة تحمل توقيعها. بعد عام، أصبحت هي المذيعة الأساسية حين غاب زميلها. لم يحدث انقلاب؛ فقط عاد ولم يعد المقعد له وحده.

مروان دعمها، لكنه أخطأ بطريقته القديمة حين اقترح على مدير المستشفى رعاية البرنامج من غير أن يسألها. اكتشفت قبل

التوقيع. تشاجرا. قال إنه أراد حماية الميزانية. قالت إن حماية العمل من الفشل لا تعني ربطه باسم زوجها. تراجع، لكن هذه المرة لم يكفِ الاعتذار. قضت أسابيع تبحث عن ممول آخر، وشارك هو في مصروف البيت أكثر كي تستطيع رفض العرض. كان الإصلاح له تكلفة فعلية.

في البيت، كان آدم يرى أباه يغسل الأطباق في أيام النوبة الخفيفة، ويرى أمه تعتذر حين تنسى موعدًا. لم يكن الزواج نموذجًا كاملًا؛ كان يسمع الأبواب تغلق أحيانًا. بعد أول مرة رأى مروان ينام في الصالة، سأل سالي إن كانا سيتطلقان. قالت إن الخلاف لا يساوي النهاية، وإن البقاء أيضًا لا يعني أن كل شيء بخير تلقائيًا.

ذات مرة، عاد مروان بعد عملية فقد فيها مريضًا صغيرًا. جلس في الظلام. حاولت سالي أن تسأله، فلم يرد. دخل آدم يحمل لعبته، فصرخ فيه أن يخرج. بكى الطفل. بعد ساعة، ذهب مروان إلى غرفته واعتذر. قال إنه حزين وليس غاضبًا منه. لم يطلب من سالي أن تشرح نيابة عنه.

في القاهرة، كانت ندى تسمع صوت سالي في التلفزيون. سألت مريم لماذا تعرف الأسرة المذيعة. قالت إنها ابنة الجيران القدامى. سألت إن كان أبوها يعرفها. قالت مريم نعم. لم تضف شيئًا.

في ليلة، وجد زين ندى تقلد طريقة سالي في طرح الأسئلة أمام المرآة. ضحك. قالت الطفلة إنها تريد أن تصبح مذيعة وطبيبة ومهندسة في الوقت نفسه. قال إن عليها أن تختار. سمعت مريم وردت من الغرفة: «مش النهارده.»

حين استضافت سالي مروان في الحلقة، تدربا في البيت. كان يسألها إذا كانت ستقص سؤالًا معينًا، فتقول إنها لن تعطيه قائمة مريحة. قال آدم إنهما يتحدثان كأنهما لا يعرفان بعضهما. ردت سالي أن المعرفة قد تجعل السؤال أصعب، لا أسهل.

بعد الحلقة، لم يكن اتصال كمال مجرد مجاملة. قال لسالي إنه لاحظ أنها لم تحم مروان حين تحدث عن خطئه. قالت إن حمايته كانت ستقلل منه. سألها عن آدم، ثم أعطاها ليلى. قبل أن يغلق، قال: «زين شاف جزء من الحلقة في المستشفى.»

توقفت سالي لحظة.

«وقال إيه؟»

«قال كويسة.»

ضحكت. «دي أعلى درجة عنده.»

حين نقل كمال السلام إلى زين، لم يضف تفسيرًا. كان قد تعلم أن نقل الكلام يمكن أن يكون جسرًا أو فخًا. اكتفى بالجملة كما قيلت، ثم سأل ابنه إن كان سيأتي للعشاء يوم الخميس.

حين بدأ آدم المدرسة، اختلفت سالي ومروان على اللغة. أراد مدرسة أجنبية قوية، وأرادت سالي مكانًا لا يجعله يشعر أن العربية لغة البيت فقط. زارا ثلاث مدارس. في إحداها، صحح الطفل نطق موظفة لاسم أمه، فضحكت سالي واختارت المدرسة الأخرى.

كان آدم يسأل عن القاهرة أكثر بعد الأشرطة. أراد زيارة كل صيف، بينما نوبات مروان وبرنامج سالي لا يسمحان دائمًا. في سنة لم يسافروا، غضب واتهمهما بأنهما يتركانه بلا بلد. جلس مروان معه وقال إن البلد ليست مكافأة سنوية، لكنه لم يجد شرحًا أفضل.

سالي صنعت له ألبومًا للعمارة، وأضافت صور الكويت: أول بيت، المدرسة، البحر، واستوديو العمل. قالت إن حياته لا تبدأ في القاهرة فقط. نظر إلى الصور وسأل لماذا لا توجد صورة لمروان شابًا وحده. اكتشف الأب أنه لم يحتفظ بشيء من سنواته الأولى. بدأ يحكي.

وهكذا صارت الأشرطة تحمل صوتين فعلًا: بيت سالي القديم، وبيت مروان الذي بناه قبلها ثم تغير بوجودها. لم يعد آدم يرى أحدهما أصلًا والآخر نسخة.

في إحدى زيارات القاهرة، أرسل آدم إلى ندى شريطًا طويلًا لم يصور فيه شيئًا مهمًا: طريق المدرسة، صوت الباص، وبائع عصير. ردت بتسجيل رحلة عودتها من الحضانة مع مريم. كان الكبار يظنون أن الأطفال يريدون المعالم، بينما احتفظا بالأيام العادية. بعد سنوات، استخدم آدم المقطعين في فيلمه. قالت سالي إنها لم تتذكر صوتها شابة وهي تطلب منه ربط الحزام. قال إن أكثر ما يفقده الناس ليس الأحداث، بل نبرة الكلام قبل أن تتغير.

بقيت الجملة في الغرفة، عادية بما يكفي كي لا تخيف أحدًا.

الفصل السادس والثمانون

الرسالة التي لم تصل

كتب زين أول رسالة إلى سالي بعد وفاة فؤاد.

جاء الخبر في الفجر. أصيب فؤاد بجلطة واسعة وهو نائم، ووصل المستشفى بلا نبض. كان زين في الطريق حين اتصلت ليلى، لكنه عرف من صوتها قبل أن تنطق. دخل الطوارئ ووجد مروان يتحدث مع الطبيب عبر الهاتف من الكويت، وسالي تحاول حجز أول رحلة.

لم يستطع أن يكون طبيبًا. وقف إلى جوار السرير، أمسك يد الرجل الذي فتح له باب العمارة قبل نصف قرن، ولم يقل إنهم حاولوا بما يكفي.

وصلت سالي مساءً. كان البيت ممتلئًا، والسلم يحمل وجوهًا لا تعرفها. رأته عند الباب، فتوقفا لحظة ثم اقتربت. عانقته أمام الجميع، عناقًا قصيرًا بلا تفسير، ثم دخلت إلى أمها.

لم يجلسا وحدهما. كانت الأيام الثلاثة مليئة بالأوراق والعزاء والناس الذين يروون لفؤاد حياة أخرى. حمل زين الكراسي،

وأحضر الأدوية لليلى، وأوصل آدم الصغير إلى سامر كي يبعده عن الزحام. مروان وصل في اليوم التالي، صافحه، ثم وضع يده على كتفه لحظة أطول من المعتاد.

بعد سفر سالي، وجد زين دفترًا صغيرًا تحت كرسي فؤاد. كان فيه حسابات البيت وأرقام هواتف، وبين الصفحات ورقة كتب عليها: «زين - لندن»، ثم رقم قديم لم يعد يعمل. أخذ الدفتر إلى ليلى. قالت إنه كان يحتفظ بأرقام الجميع حتى لو لم يتصل.

في الليل، كتب رسالة:

«يا سالي، لا أعرف ماذا أقول عن عم فؤاد من غير أن يبدو الكلام أقل منه. كان أول شخص حمل طرف دولابنا قبل أن يعرف إننا سنبقى جيرانًا عمرًا كاملًا. أنا آسف إنك لم تكوني هنا في اللحظة الأولى، وآسف إني كنت هنا ولم أستطع أن أغيّرها.»

توقف. شطب الجملة الأخيرة. يعرف أن الاعتذار عن الموت طريقة أخرى لتضخيم دور الطبيب.

كتب عن فؤاد الذي كان يصلح الأشياء قبل أن يطلب منه أحد، وعن سيجارته في ليلة الزفاف، وعن نظارته التي نسيها. ثم طوى الورقة.

لم يرسلها.

قالت مريم حين وجدته أمام الظرف: «ليه؟»

«مش عايز أفتح حاجة.»

«التعزية مش باب سرّي.»

«مروان موجود.»

«وإنت متجوز. وجودنا مش حراس على الكلام المحترم.»

أرسلها مع ليلى، لا بالبريد. بعد شهر، وصلت إليه بطاقة من سالي: «شكرًا لأنك تذكرته كما كان، لا كما مات. آدم سألني من حمل الدولاب بعد أن قرأت له الرسالة. قلت له: رجلان كانا يعرفان كيف يحمل كل واحد منهما طرفًا. تمنيت لو عرفا ذلك في أشياء أخرى.»

قرأ زين الجملة مرتين. لم يرد.

احتفظت مريم بالبطاقة في درج الرسائل العائلية، لا في درج مغلق. حين كبرت ندى وفتحت الدرج تبحث عن طابع، قرأت اسم سالي وسألت من تكون. قالت مريم: «واحدة مهمة في حياة بابا.»

قالت ندى: «ومهمة في حياتك؟»

فكرت مريم.

«بشكل غير مباشر.»

وصلت سالي إلى القاهرة في اليوم التالي للوفاة وهي تحمل حقيبة صغيرة لم تُغلق جيدًا. في المطار، كان مروان إلى جوارها، وآدم نائمًا فوق كتفه. لم تتحدث طوال الطريق. عند أول إشارة قرب مصر الجديدة، رفعت رأسها وقالت إن الشوارع أصغر مما تتذكر. لم يرد مروان؛ كان يعرف أن الناس يقولون أشياء عن المكان حين لا يستطيعون الكلام عن الميت.

في العمارة، وقفت أمام باب شقة الطابق الثاني. لم تستطع إدخال المفتاح من المرة الأولى. أخذته ليلى منها، ثم أعادته إلى يدها وقالت: «إنتِ افتحي.» فتحت.

وجدت كرسي فؤاد قرب الشرفة، ونظارته فوق الجريدة. جلست على الأرض قربه. بقي مروان عند الباب، ثم أخذ آدم إلى بيت سامر. لم يطلب منها أن تتماسك أمام الطفل.

دخل زين بعد قليل يحمل أدوية ليلى وقائمة بالأشخاص الذين يجب الاتصال بهم. بدأ يتحدث في الإجراءات. نظرت إليه سالي وقالت: «اقعد.» جلس. لم يكن هناك شيء يفعله. لأول مرة منذ عرفته، لم يجد مهنة أو قرارًا يضعه بينه وبين العجز.

قالت: «هو كان بيخاف من المستشفيات.»

«عارف.»

«ومات فيها.»

«آه.»

سكتا. دخلت مريم تحمل طعامًا. رأت زين إلى جوار سالي، ولم تتوقف عند الصورة. وضعت الأطباق وسألت ليلى عما تحتاجه. عرّفت نفسها لسالي في المطبخ، لا كزوجة زين، بل باسمها. قالت سالي إنها تعرفها من المركز. لم تستطيعا الكلام أكثر.

في العزاء، وقف مروان إلى جوار زين عند الباب. كان الناس يظنون أنهما أخوان بسبب الشبه الذي ما زال واضحًا قليلًا. صححا الأسماء أكثر من مرة. في نهاية اليوم قال مروان: «غريب إن الناس لسه بتغلط.» رد زين: «إحنا بعدنا.» لم يقصد المكان فقط.

بعد دفن فؤاد، أرادت ليلى أن تبقى وحدها في الشقة. رفضت سالي أولًا. قالت الأم إن الحزن لا يصبح أخف بكثرة الجالسين. اتفقن أن تنام سالي عندها ثلاث ليالٍ، ثم تذهب إلى فندق مع مروان وآدم.

في الليلة الثانية، فتحت ليلى خزانة فؤاد. وجدت قمصانه مرتبة، ومغلفًا صغيرًا يحوي صورًا قديمة لكمال ونادية وفؤاد في مواقع البترول. قالت إن الرجال كانوا يظنون أن حمل الأثاث يكفي لإثبات الصداقة، ولا يعرفون كيف يحملون الكلام. طلبت من سالي ألا تجعل موت أبيها سببًا لفتح كل الأبواب القديمة. قالت سالي إنها لم تأتِ لزين. ردت ليلى: «عارفة. بس الحزن بيخلّي الواحد يمد إيده لأي حاجة قديمة.»

حين كتب زين الرسالة، قرأها مريم كاملة. اعترضت على جملة جعل فيها نفسه حاضرًا أكثر من فؤاد. قال إنها مجرد محاولة. قالت إن المحاولة يجب أن تخدم من سيقرأ، لا راحته هو. شطب الجملة.

وصلت الرسالة إلى الكويت بعد عودة سالي. قرأتها وحدها أولًا، ثم قرأتها لمروان. لم يطلب أن يرى الورقة، فناولته إياها. قال إن وصف الدولاب جيد، وإن زين يعرف فؤاد من زاوية لا يعرفها هو. لم يشعر أن ذلك ينتقص منه.

آدم سأل فعلًا من حمل الطرف الآخر. حكت له عن كمال، ثم عن العناد الذي جعل الرجلين يظنان أن حماية أولادهما تحتاج قرارًا بدل سؤال. لم تذكر كل التفاصيل. كان في التاسعة، وأحيانًا يكفي أن يعرف الطفل أن الكبار يخطئون وهم يحبون.

بعد شهر، اتصلت سالي بليلى. كانت الأم قد بدأت تنام في غرفة ابنتها لأن غرفة الزوج ثقيلة. اقترحت أن تأتي إلى الكويت فترة. رفضت. قالت إن البيت ما يزال يحتاجها. لم تجادلها سالي في

المكالمة. في اليوم التالي أرسلت تذكرة مفتوحة، لا موعدًا. بعد ثلاثة أشهر استخدمتها ليلى.

حين وصلت، حملت معها دفتر فؤاد ومقصًا قديمًا وعلبة توابل. لم تحمل النظارة. قالت إن بعض الأشياء يجب أن تبقى في مكانها حتى لو لم يعد أحد يستخدمها.

بعد وفاة فؤاد، بقيت ليلى في الكويت ستة أشهر. في شقة سالي، أعادت ترتيب المطبخ من دون أن تسأل، وانتقدت التوابل، وأصرت على فتح الستائر صباحًا. شعر مروان أن البيت ضاق، ثم خجل من شعوره.

ذات مساء، قال لسالي إنه يحتاج يومًا وحدهما. غضبت لأنها رأت أمها مكسورة. قال إنه يحبها لكنه لا يستطيع أن يكون زوجًا وضيفًا دائمًا في بيته. تحدثت مع ليلى. توقعت أن تجرحها، فقالت الأم إنها أيضًا تحتاج مكانًا لا تشعر فيه أنها عبء.

استأجروا لها شقة صغيرة قريبة لثلاثة أشهر. رفضت أولًا، ثم اختارت الستائر بنفسها. كان القرار مؤلمًا ومفيدًا. زارتهم كل يوم تقريبًا، لكنها صارت تغلق بابها حين تريد.

في تلك الفترة، قرأت ليلى رسالة زين. قالت إن أسلوبه صار أقل كلامًا من شبابه. سألت سالي إن كانت سترد. قالت نعم، لأن الرسالة عن فؤاد. لم تجعل الرد امتحانًا لزواجها. قرأه مروان، ثم أعاده من غير تعليق طويل.

حين عادت ليلى إلى القاهرة بعد إقامتها الأولى في الكويت، وجدت الشقة أكثر صمتًا. اتصلت بسالي في الليلة الأولى وقالت إنها ربما أخطأت بالعودة. قالت سالي إن الخطأ لا يُقاس من الليلة الأولى.

بدأت ليلى تقضي صباحين في جمعية قريبة تعلم نساءً أصغر منها الخياطة. لم تكن تحتاج إلى المال، بل إلى موعد يخرجها من غرفة فؤاد. أرسلت لسالي صورة أول حقيبة صنعتها متدربة. قالت: «لسه بعرف أفتح باب لوحدي.»

لم تعد الابنة تطلب منها الانتقال كل مكالمة. تركتها تبني حياة صغيرة في القاهرة، ثم قبلت انتقالها إلى الكويت حين صار الجسد أضعف لا حين كان الحزن أعلى.

لم تكن الإجابة كاملة، لكنها لم تكن كذبة.

الفصل السابع والثمانون

الاسم على الواجهة

صعد اسم زين ببطء ثم بدا للناس كأنه ظهر فجأة.

نجحت عملية معقدة لرجل أعمال معروف، فكتبت الصحف عن «الجراح المصري الذي أعاد قلبًا إلى العمل». اعترض زين على العنوان، ثم احتفظ بالقصاصة في درج مكتبه. جاءته دعوات للمؤتمرات، وبدأ المرضى يطلبونه بالاسم حتى في حالات لا تحتاج إليه.

في البداية، كان يرفض التصوير. بعد ذلك قبل مقابلة واحدة لتشرح برنامج متابعة المرضى. شاهد نفسه على الشاشة، فكره طريقة جلوسه وصوت المذيع وهو يقدمه بوصفه «صانع المعجزات».

قالت مريم: «ليه ما صححتوش؟»

«صححت له قبل التسجيل.»

«وفي التسجيل؟»

«ما حبيتش أحرجه.»

قالت: «الراجل اللي صحح اسمه في لندن خاف يصحح لقبه في القاهرة.»

في المقابلة التالية، قال إن الجراحة عمل فريق، وإن بعض المرضى لا ينجون رغم أفضل قرار. حذف المنتج نصف الجملة في المونتاج. طلب زين إعادتها، فرفضوا بحجة الوقت. انسحب من الحلقة. كتبوا أنه متواضع.

بدأ المركز الجديد يأخذ شكلًا. صممت مريم أجزاءه، لكنها رفضت أن يوضع اسم زين على المبنى. قال الممولون إن الاسم يجذب التبرعات. قالت إن المبنى سيعيش بعد أن تتغير الوجوه.

قال زين في البيت: «ممكن الاسم يساعد ناس.»

«وممكن يخليك تصدق إن المكان بتاعك.»

غضب. اتهمها بأنها تقلل من سنوات عمله. قالت إنها تحميه من أن يتحول العمل إلى مرآة لا يرى فيها غير نفسه.

استمر الخلاف أسابيع. في النهاية اتفقوا على اسم المؤسسة، ووُضعت لوحة صغيرة للجراحين المؤسسين داخل المدخل. كان اسم زين أول الأسماء، لكنه لم يكن أكبرها.

في يوم الافتتاح، جاءت ندى، وكانت في الثامنة. وقفت أمام لوحة أبيها وقالت: «اسم ماما فين؟»

أشار زين إلى لوحة فريق التصميم في الجانب الآخر. ركضت إليها. كان اسم مريم في السطر الثالث.

قالت ندى: «ليه مش أول اسم؟»

ردت مريم: «عشان مش أنا اللي عملت كل حاجة.»

نظر زين إلى اللوحتين. فهم أن ابنته لا تقرأ الشهرة بالطريقة نفسها. بالنسبة إليها، الاسمان جزء من مكان واحد.

في الكويت، عرضت سالي تقريرًا عن افتتاح المركز. جاء اسم زين في النشرة. لم تكن هي المذيعة، لكنها كانت في غرفة الإعداد.

سألها يوسف المصور إن كانت تعرفه فعلًا أم أن حكاية الطبيب القديم مبالغة من نجلا.

قالت: «كنت أعرفه قبل ما يعرف هو عايز يبقى مين.»

«ولسه تعرفيه؟»

نظرت إلى الشاشة حيث يصافح مسؤولًا أمام الكاميرات.

«أعرف نسخة قديمة. النسخة دي تخص الناس اللي عاشوا معاها.»

جاءت الشهرة إلى البيت قبل أن يتفق زين ومريم على كيفية استقبالها. بدأت بهواتف في وقت العشاء، ثم مرضى ينتظرون عند مدخل العمارة الجديدة، ثم أشخاص يعرفون ندى في المدرسة لأنها ابنة الطبيب الذي ظهر في التلفزيون.

في أول مرة طلبت إدارة المدرسة حضور زين لإلقاء كلمة، فرحت ندى. في يوم الحفل، تأخر بسبب تصوير مقابلة ولم يصل إلا بعد انتهاء فقرتها الموسيقية. قالت له في السيارة إنها لم تكن تحتاج إلى الطبيب الشهير، بل إلى أبيها وهو يسمعها. اعتذر. قالت إن الاعتذار لا يعيد الأغنية. تذكر العبارة من هالة وسالي ومريم، لكنه لم يقل ذلك. طلب منها أن تعزفها في البيت. رفضت يومين، ثم عزفتها لمريم وحدها. جلس زين خلف الباب ولم يدخل.

في المستشفى، بدأ بعض الأطباء الشباب يتجنبون الاعتراض. في جولة، اقترح زين تغيير دواء. لاحظ طبيب مقيم تعارضًا محتملًا، لكنه صمت. اكتشفته الصيدلانية لاحقًا. استدعى زين المقيم

وسأله لماذا لم يتكلم. قال الرجل إنه حاول مرة في اجتماع سابق فقاطعه زين قبل أن يكمل.

شعر زين بالإهانة من نفسه. طلب من الفريق أن يسجل كل اعتراض، وأن يدير طبيب أصغر جزءًا من الاجتماع. في الأسبوع الأول، لم يتغير شيء. الناس لا يصدقون أن السلطة فتحت الباب لمجرد أنها قالت ذلك. احتاج أن ينتظر، وأن يسمح باعتراضات صغيرة دون رد سريع.

أما القصاصة التي احتفظ بها في الدرج، فوجدتها مريم. لم تعاتبه لأنه احتفظ بعنوان يكرهه. قالت إن جزءًا منه أعجبه. أنكر أولًا، ثم قال: «آه.»

سألته: «إيه اللي عجبك؟»

«إن الناس شافت الشغل.»

«ولا شافتك إنت؟»

لم يعرف الفرق بسهولة.

في المركز، اختلفا حول الاسم على الواجهة. لم يكن الخلاف مهنيًا فقط. مريم شعرت أن اسمها يُختصر في «زوجة الجراح» رغم أنها

صممت أجزاء أساسية. زين شعر أن رفضها لاسمه رفض لمساره كله. في ليلة طويلة، قال لها إنها لا تفهم ما الذي يعنيه أن يخرج من خطأ عادل إلى مركز يثق به الناس. ردت أنها تفهم، لكنها لا تريد أن يتحول المكان إلى تعويض ضخم يُبنى بالحجر.

نامت في مكتبها. في الصباح، وجدت ندى تضع ورقة فوق الباب كتبت عليها «مكتب ماما». لم تكن الطفلة تعرف الخلاف، لكنها رأت أن البيت كله يحمل صور أبيها. أبقت مريم الورقة أيامًا.

في الكويت، كانت سالي تواجه صورة مختلفة من الشهرة. لم تصبح وجهًا قوميًّا، لكنها صارت معروفة داخل الجالية. يوقفها الناس في السوق ليحكوا مشكلات يريدون حلها في البرنامج. مرة، جاءت عاملة منزلية تطلب المساعدة في شكوى، ثم خافت أن تظهر.

أرادت سالي أن تقدم القضية من غير اسمها. قال المدير إن القصة بلا وجه لن تجذب المشاهدين.

رفضت. خسر البرنامج الحلقة. اتهمها المدير بأنها تتصرف كناشطة لا مذيعة. عادت إلى البيت غاضبة. قال مروان إن التنازل أحيانًا يحمي البرنامج كي يقدم قضايا أخرى. سألته هل كان سيطلب من

مريض أن يكشف وجهه لإنقاذ ميزانية المستشفى. اختلفا. بعد أيام، وجد مروان طريقة لتوصيلها بمحامية من غير إعلام. لم يعد كل خلاف بينهما يحتاج فائزًا.

حين عرضت المحطة تقرير افتتاح المركز، جلست سالي في غرفة الإعداد. رأت زين يتحدث بثقة، ورأت مريم تقف في الخلف قرب المخططات ولا يذكرها المذيع. سألت المنتج عن اسم المعمارية. لم يعرف. بحثت وأضافت اسمها في النص الإخباري قبل البث. لم تخبر أحدًا.

في القاهرة، شاهدت مريم التقرير وسمعت اسمها. ظنت أن الصحفي بحث جيدًا. بعد سنوات فقط عرفت من ليلى أن سالي كانت في غرفة الإعداد. لم ترسل لها شكرًا. اكتفت بأن تضع الخبر داخل درج لا يحتاج إلى رد.

مع اتساع شهرة زين، بدأ يتلقى هدايا من مرضى. رفض الغالي منها، لكنه احتفظ بأشياء صغيرة: مسبحة، رسالة، صورة طفل. امتلأ المكتب. قالت مريم إن الامتنان لا يحتاج أن يتحول إلى مخزن. اختار صندوقًا واحدًا، وأرسل الباقي إلى أرشيف المركز.

في مؤتمر، أخطأ المقدم في ذكر اسم عادل بوصفه «قصة نجاح». كان الرجل حاضرًا. وقف وقال إن ساقه لا تزال تؤلمه. ساد الصمت. تدخل زين وأعطاه الميكروفون. تحدث عادل عن النجاح الذي يحتوي خسارة. خرجت الصحف بعنوان أقل بريقًا، لكنه كان أقرب للحقيقة.

في الكويت، شاهدت سالي المقطع. قالت لمروان إن زين تعلم الوقوف إلى جوار رواية لا تمدحه. رد مروان أن التعليم استغرق وقتًا. لم تكن الجملة شماتة؛ كان يعرف أن لكل واحد منهما وقتًا مشابهًا.

أصبح اسم زين يسبق دخوله إلى بيوت المرضى. في زيارة، أعدت الأسرة كاميرا قبل أن يشرح الحالة. طلب منهم إغلاقها. قال الابن إنهم يريدون توثيق اللحظة. رد زين أن والده ليس خلفية لصورته مع الطبيب.

بعد الزيارة، سأل نفسه إن كان رفض التصوير تواضعًا أم تحكمًا آخر في صورته. لم يجد إجابة. أخبر مريم، فقالت إن الدافع

المختلط لا يجعل القرار خطأ. المهم أن المريض لم يتحول إلى إعلان.

في المركز، طلب أن تُمنع الصور داخل غرف المرضى إلا بموافقة واضحة. اعترض قسم التسويق. خسروا مادة إعلامية، وكسب المرضى بابًا أقل انفتاحًا على الغرباء.

في البيت، شاهد مروان التقرير. قال إن المركز جيد، وإن تصميم غرف الإفاقة أفضل من مستشفيات كثيرة. لم يذكر الشبه. كان شعره بدأ يخف عند الجانبين، ووجه زين على الشاشة صار أكثر صلابة. بمرور العمر، بدأ الرجلان يبتعدان شكليًا كما ابتعدا في الحياة.

الفصل الثامن والثمانون

قلب كمال

سقط كمال في مدخل العمارة وهو يحمل كيس خبز وجريدة واحدة.

كان في السابعة والستين. وصل زين خلال دقائق، لكنه لم يدخل الطوارئ بوصفه الابن. قرأ التخطيط، وأدرك أن الشريان يحتاج تدخلًا عاجلًا. طلب من زميله أن يتولى الحالة.

قال كمال وهو فوق السرير: «إنت تعملها.»

«لأ.»

«إنت أحسن واحد.»

«عشان كده بقول لأ.»

لم يفهم الأب في البداية. غضب، واتهمه بأنه يخاف. قال زين: «آه. ومش هخلي خوفي يدخل معايا العملية.»

أجرى الجراحة الدكتور صفوت. وقف زين خلف الزجاج، في المكان الذي وقفت فيه أسر كثيرة أمامه. كانت مريم إلى جواره، وندى عند ليلى. لم يقل أحد إن الأمور ستكون بخير.

نجحت العملية. خرج كمال ضعيفًا، أقل عنادًا في الأيام الأولى، ثم عاد إلى طبعه حين بدأ يتحسن. رفض العلاج الطبيعي في المنزل، فاستعان زين بعادل الذي جاء بعصاه وجلس أمامه.

قال عادل: «أنا دفعت تمن إني استعجلت. إنت هتدفع تمن إنك تعاند.»

سأله كمال من يكون. قال: «واحد ابنك اتعلم عليه.»

نظر كمال إلى زين، ولم يطلب تفاصيل أمامه. بعد أن غادر عادل، سأل. حكى له زين القصة كاملة للمرة الأولى.

قال كمال: «وإنت فضلت شغال؟»

«بعد مراجعة وعلاج وتدريب.»

«كنت ممكن تسيب.»

«كنت ممكن. بس ساعتها كنت ههرب من الخطأ بدل ما أصلحه.»

صمت كمال. بعد أيام، وافق على العلاج الطبيعي.

انتقل مؤقتًا إلى بيت زين ومريم. نام في الغرفة التي كانت مكتبًا. لم تحوله مريم إلى مريض دائم؛ طلبت منه أن يغلق الشرفة إذا

كان آخر من يدخل، وأن يضع كوبه في الحوض. أحبت ندى وجوده، وكانت تدخل عليه قبل المدرسة لتعرض عليه ضفائرها. ذات ليلة، قال لمريم: «أنا خفت أخسر زين، فخليته يخسر حاجة كبيرة.»

لم تسأله عن سالي. كانت تعرف.

قالت: «هو لسه معاك.»

«مش نفس الحاجة.»

«ولا حاجة بترجع نفس الحاجة.»

عاد كمال إلى شقته بعد شهرين. رفض أن يبيعها أو ينتقل. اتفق مع زين على ممرضة تزوره صباحًا، وعلى عشاءين أسبوعيًا لا يُلغيان إلا بسبب حقيقي.

في أول عشاء، تأخر زين عشرين دقيقة واتصل قبلها. كان كمال قد أعد طبقين.

قال حين دخل: «السمك برد.»

«أسخنه.»

«أنا عارف أسخنه.»

جلسا. في منتصف الأكل، قال كمال إن سالي اتصلت تطمئن عليه بعد أن عرفت من ليلى.

قال زين: «كويسة؟»

«كويسة. آدم دخل المدرسة.»

أومأ. ثم سأل عن دواء أبيه.

لم تكن جراحة كمال مجرد يوم في المستشفى. بعد خروجه، صار البيت كله يتحرك حول مواعيد الدواء. زين كتب جدولًا ملونًا، ومريم وضعت العلب في صندوق أسبوعي، وندى رسمت قلبًا على خانة المساء. في اليوم الثالث، نقل كمال العلب إلى درج آخر لأنه لا يريد أن يرى مرضه فوق المائدة.

غضب زين. قال إن إخفاء الدواء سيجعله ينساه. رد كمال أنه لا يريد أن يبدأ كل صباح بعلبة تذكره أن قلبه أصبح مسؤولية عائلية. تدخلت مريم واقترحت أن يختار هو مكانًا واضحًا له لا للضيوف. وضعها قرب الراديو.

في جلسات العلاج الطبيعي، كان كمال يرفض أن يمشي أمام شاب أصغر منه يأمره برفع القدم. جاء عادل كما اتفقوا. لم يحكِ قصته

في البداية. جلس فقط وأدى التمارين أمامه بعصاه. بعد يومين، سأل كمال لماذا ساقه ضعيفة. قال عادل إن ابنك تأخر في قرار.

تجمد زين.

حكى القصة كاملة. توقع غضب أبيه أو دفاعه. قال كمال بعد صمت: «إنت مقلتيش؟»

«كنت مكسوف.»

«مني؟»

«من نفسي.»

في الليل، استيقظ زين ووجد كمال في المطبخ. قال الأب إنه كان يظن أن ابنه صار مشهورًا لأنه لا يخطئ. اكتشف أن الشهرة جاءت بعد خطأ يعرفه رجل بعصا. قال زين إن هذا ما يخيفه في الناس حين يرونه كاملًا.

قال كمال: «وأنا ساعدتك تتعلم تخبي.»

لم يرد زين. جلسا يشربان الماء.

عندما انتقل كمال إلى بيت زين، قاوم كل تفصيل. قال إن الغرفة باردة، وإن مريم تحرك الأثاث كثيرًا، وإن ندى تترك ألعابها في

الممر. ردت مريم عليه أحيانًا، ولم تحوله إلى والد مريض يجب إرضاؤه. مرة، أغلق التلفزيون أثناء برنامجها المفضل. أخذت جهاز التحكم وشغلته. نظر إلى زين. قال الابن: «ده بيتها.»

جرحته الجملة، ثم فهمها. في اليوم التالي، سأل مريم عن وقت البرنامج قبل أن يشغل المباراة.

ندى كانت تدخل غرفته صباحًا وتطلب منه أن يربط حذاءها. في أول أسبوع لم يستطع الانحناء. قال لها أن تطلب من أبيها.

جلست تنتظر. بعد شهر، استطاع ربطه ببطء. صفقت. قال إن الأمر لا يستحق. ردت أن المعلمة تطلب التصفيق لأي تقدم.

ضحك.

في إحدى ليالي العشاء بعد عودته إلى شقته، تحدث كمال عن سالي. قال إنها اتصلت وسألته عن الألم بالتفصيل، ثم تركت ليلى تتحدث. لم تكن المكالمة طويلة. سأل زين إن كان يريد رقمها الجديد. قال لا.

رفع كمال حاجبيه. «مش عايز ولا مش لازم؟»

فكر زين. «مش لازم.»

كان الفرق مهمًا. لم يعد الامتناع عقوبة أو بطولة.

بعد أسابيع، صعد كمال إلى بيت فؤاد وحده. جلسا في الشرفة. اعتذر له عن أشياء لم يقلها حين رفض زواج ابنيهما. قال فؤاد إن الاعتذار جاء بعد أن صار كل واحد يعيش في بلد وبيت. رد كمال إنه لا يملك آلة تعيدهم. قال فؤاد: «ولا أنا طالب.»

تصالح الرجلان بما يستطيعان: أكلا، اختلفا على مباراة، وسقيا الجميزة. لم يخبر أحدهما الأولاد بكل ما قيل. احتفظا ببعض الكلام لأنفسهما، لا سرًا، بل لأنه يخص صداقتهما أيضًا.

بعد عودة كمال إلى شقته، ثبت زين جهاز اتصال للطوارئ. ضغط الأب الزر بالخطأ مرتين في الأسبوع الأول، فجاءت الممرضة مسرعة. أراد إزالته. اتفقوا أن يعلّقوه قرب السرير بدل أن يحمله. تعلم كمال طلب المساعدة بطريقة بطيئة. اتصل مرة بزين ليطلب شراء الخبز، ثم قضى خمس دقائق يشرح أنه كان يستطيع النزول لولا المطر. قال زين: «هجيبه.» ولم يناقش القدرة.

في المقابل، تعلم زين ألا يحضر كل يوم. حين غاب عشاءً بسبب حالة، اتصل. أكل كمال وحده، ثم احتفظ بنصف الطبق. لم

تتحول الوحدة إلى كارثة، ولم يتحول الاتصال إلى حل كامل. كانت علاقة أب وابن تتدرب على مسافة جديدة.

في عيد ميلاد كمال بعد الجراحة، لم يقيموا حفلة. دعا زين فؤاد وليلى ومريم وندى. جاء عادل بدعوة من كمال نفسه. جلس الرجلان يتجادلان حول كرة القدم، كأن العصا وندبة الصدر لا تجمعهما.

بعد الطعام، قال كمال لعادل إنه ممتن لأنه أجبره على التمرين. رد عادل أنه لم يفعل مجانًا؛ كان يستمتع بإصدار الأوامر لأبي الطبيب. ضحك الجميع، حتى زين.

في نهاية اليوم، قال كمال إن البيت امتلأ من غير أن يسكن أحد فيه. كانت تلك أول مرة يكتشف أن خروج الابن لم ينهِ إمكانية الامتلاء.

في العام التالي للجراحة، بدأ كمال يخرج وحده إلى المقهى القريب. كان زين يتصل بعد ساعة، فيرفض الرد أحيانًا. قال له الأب إن المراقبة من بعيد تظل مراقبة. اتفقا على رسالة واحدة حين يصل، لا اتصالات متكررة.

ذات يوم تأخر كمال. انتظر زين عشرين دقيقة ثم ذهب. وجده يلعب الطاولة مع رجلين. شعر بالغضب والراحة. لم يدخل. عاد إلى السيارة وأرسل: «خد وقتك.» رد كمال بعد نصف ساعة بصورة للكوب الفارغ.

كان هذا التحسن أصعب على زين من المرض؛ في المرض يعرف ما يفعل، أما استقلال أبيه فيطلب منه ألا يفعل. تعلم أن التعافي لا يعيد الشخص إلى الأسرة فقط، بل يعيده إلى حياته الخاصة.

بعد أن استعاد كمال قدرًا من قوته، طلب أن يرافق زين في يوم عمل. لم يدخل غرفة العمليات؛ جلس في قاعة انتظار الأسر. قال إنه يريد أن يرى المكان من الجهة التي لم يرها حين كان هو المريض.

جلس إلى جوار رجل ينتظر خبر زوجته. حاول أن يطمئنه، ثم توقف. قال فقط إن الانتظار ثقيل. بعد ساعة، خرج الطبيب بخبر جيد. رأى كمال الرجل ينهار من الراحة. في السيارة قال لزين إنه فهم لماذا يعود إلى البيت صامتًا أحيانًا، لكنه أضاف أن الفهم لا يعني أن البيت يجب أن يخمن كل مرة.

اتفقا على جملة بسيطة: حين يعود زين بعد يوم سيئ، يقول «مش قادر أتكلم دلوقتي»، بدل أن يغلق الباب ويترك الجميع يفسر. جربها في الأسبوع التالي. قالها لمريم، فتركت له الطعام. بعد ساعة خرج وحده. لم تكن العبارة حلًا، لكنها منعت الصمت من أن يتحول إلى عقاب.

لم يكن الانتقال هروبًا. كان للحياة أكثر من موضوع على المائدة.

الفصل التاسع والثمانون

زيارة قصيرة

عادت سالي إلى القاهرة مع مروان وآدم في صيف شديد الحرارة. كان الطفل في التاسعة، يرفض النوم بسبب فرق التوقيت، ويريد رؤية كل مكان في حكايات أمه في يوم واحد.

دخل العمارة ووقف عند المصعد.

قال: «ده اللي بيعلق؟»

ردت ليلى: «ما تقولش قدامه، يسمعك.»

صعد على السلم وهو يعد الدرجات. عند الطابق الثالث، كان باب كمال مفتوحًا. خرج يحمل عصاه. نظر إلى الطفل طويلًا، ثم قال إن عينيه تشبهان فؤاد. قال آدم إنه لا يعرف من يكون فؤاد إلا من الصور.

جلست سالي مع كمال وحدهما بعد الظهر. كان أصغر مما تتذكر في ضعف جسده، وأكبر في صمته.

قال: «أنا اعتذرت لك قبل كده.»

«عارفة.»

«بس ما قلتش كل حاجة.»

«مش لازم تقول كل حاجة عشان أعيش.»

«أنا اللي محتاج.»

حكى أنه لم يرفضها لأنها لا تصلح، بل لأنها كانت تعني أن زين سيصير له بيت آخر، وأن نادية ماتت فاختلط عنده الحب بالفقد. قال إن خوفه لبس شكل النصيحة حتى صدقه هو نفسه.

قالت سالي: «أنا كنت محتاجة أسمع ده زمان.»

«عارف.»

«دلوقتي بيساعدني أفهم. ما يغيرش اللي حصل.»

هز رأسه. «مش طالب يغيره.»

مدت يدها فوق الطاولة. وضع يده عليها. لم تسمه غفرانًا.

كان زين في مؤتمر خارج مصر. عرفت من مريم حين قابلتها صدفة في مركز القلب. جاءت سالي مع مروان لزيارة قريب، وكانت مريم تراجع توسعة جديدة.

توقفت المرأتان أمام نافذة غرفة الإفاقة.

قالت مريم: «أنا مريم.»

قالت سالي: «عارفاكي.»

ضحكتا من ارتباك الجملة.

جلسن في مقهى المستشفى: سالي ومريم ومروان. تحدثوا عن المركز، وعن الكويت، وعن آدم الذي اختفى مع سامر ليرى المرسم. لم يتحول اللقاء إلى مقارنة. لاحظت سالي أن مريم تحرك كوبها كلما فكرت، وأن مروان يتحدث معها عن الضوء في غرف المرضى بحماس مهني.

قالت مريم: «زين قال إن مروان جراح قلب.»

رد مروان: «واضح إن المهنة كانت جزءًا من سوء التفاهم القديم.»

قالت سالي: «الشبه كان أسرع من الفهم.»

لم يطلب أحد تفاصيل.

قبل سفرها، تركت سالي لمريم علبة صغيرة فيها شريط من برنامجها عن المدن التي يحتفظ بها المغتربون داخل أصواتهم.

قالت: «مش رسالة له. بس ممكن يسمعه لو حابب.»

حين عاد زين، أعطته مريم الشريط. سمعه في السيارة وحده. في النهاية، قالت سالي إن الإنسان قد يعيش في مدينة أربعين سنة، ثم يعود في حلمه إلى درجة سلم لم يعد أحد يجلس عليها.

أوقف السيارة أمام العمارة. صعد إلى الطابق الثالث، ووجد كمال نائمًا أمام التلفزيون وآدم قد ترك رسمة لسيارة حمراء فوق الطاولة. كتب الطفل تحتها: «عربية زين وهو صغير».

لم تكن زيارة سالي إلى القاهرة رحلة عائلية هادئة. منذ اليوم الأول، حاول كل شخص أن يعيدها إلى الدور الذي يتذكره.

السيدة وداد نادتها «البنت» رغم أن ابنها يقف إلى جوارها، وريم سألتها عن المطبخ في الكويت قبل أن تسأل عن عملها، وليلى فتحت الدواليب لتريها ما بقي من ملابسها القديمة.

قالت سالي لأمها إن الغرفة لم تعد غرفتها. ردت ليلى أن الغرفة لا تعرف ذلك. نامت فيها ليلتين، واستيقظت في الأولى تبحث عن صوت المكيف الكويتي، ثم احتاجت لحظة لتفهم طنين المصعد.

آدم كان يتحرك في العمارة كأنه يزور موقع تصوير. سأل عن كل باب، وصوّر الدرابزين، وطلب من سامر أن يريه السطح. قال له

سامر إن الكاميرا لا تفهم وحدها. رد الطفل أن الناس أيضًا لا يفهمون وحدهم، ولذلك يصورون.

على السطح، وجد آدم بلاطة مختلفة اللون قرب السور. سأله عن سببها. قال سامر إن أصيصًا قديمًا كان هناك. لم يذكر أسماء. صوّر الطفل الظل، ثم ركض إلى الجميزة.

مروان لم يشعر بالراحة في العمارة. لم يكن الأمر غيرة مباشرة، بل إحساسًا بأنه يدخل مسرحًا بدأ العرض فيه قبل حضوره بسنوات. كل شخص يعرف قصة لا يعرفها، وكل نظرة تقيسه بوجه آخر. في الليلة الثالثة قال لسالي إنه يريد حجز فندق.

سألته: «عشان ترتاح ولا عشان تهرب؟»

قال: «الاتنين.»

لم تمنعه. انتقلت معه وآدم إلى فندق قريب، وظلت تقضي النهار مع أمها. القرار أغضب ليلى، لكنها فهمت لاحقًا أن الزواج يحتاج مساحة لا تدخلها الذكريات بلا استئذان.

لقاء سالي ومريم في المركز لم ينته عند القهوة. بعد أن غادر مروان لزيارة قريبه، بقيت المرأتان وحدهما. سألت مريم عن عمل سالي

في الكويت، لا عن زين. حكت سالي عن الحلقة التي حذفت منها اسم موقع لحماية العاملين. قالت مريم إن المعماري أيضًا يضطر أحيانًا إلى ترك جزء من تصميمه كي لا ينهار المشروع كله.

قالت سالي: «إنتِ بتعرفي إمتى تتنازلي؟»

ردت مريم: «بعد ما أتنازل غالبًا.»

ضحكتا. ثم جاء الصمت الذي يعرف اسمهما.

قالت مريم: «أنا عارفة إنك مهمة في حياته.»

لم تجب سالي بسرعة.

«وإنتِ مهمة في حياته اللي عاشها.»

لم تكن جملة كريمة مصنوعة. خرجت منها بقدر من الغيرة لم تختفِ تمامًا. قالت مريم إنها لا تريد أن تكون المرأة الناضجة التي لا تتأثر. سالي قالت إنها أيضًا لا تريد أن تكون الذكرى النبيلة التي لا تزعج أحدًا.

سألتها سالي إن كان زين يتحدث عنها كثيرًا. قالت مريم إنه يتحدث حين يحتاج الأمر، ويصمت أحيانًا بطريقة تجعل الاسم حاضرًا أكثر. ثم أضافت أن الصمت قل مع السنوات.

قالت سالي: «كويس.»

لم تعرف مريم هل تقصد الزواج أم زين أم نفسها.

عاد مروان، فلاحظ أن وجه سالي تغير. لم يسأل في المقهى. في السيارة قال إن مريم تبدو مختلفة عما تخيل. سألته كيف تخيلها. قال إنه تخيل امرأة تشبه سالي قليلًا، ثم ضحك من نفسه. قالت إن زين اختار هذه المرة شخصًا لا يشبه أحدًا في العمارة.

في آخر يوم، جلس آدم مع كمال. أخرج الرجل السيارة الحمراء من درج، وقال إنها كانت لزين. دفعها الطفل فوق الطاولة فتعطلت العجلة. حاول إصلاحها. قال كمال إن زين كان يرفض أن يرميها. سأل آدم لماذا. قال: «عشان حاجات كتير بتفضل مهمة حتى لما ما تبقاش نافعة.»

رد آدم: «ممكن تتصلح.»

أحضر مفكًا صغيرًا، وفك العجلة. لم ينجح، لكنه رسم السيارة في دفتره. ترك الرسم فوق الطاولة، وكتب العبارة التي قرأها زين بعد عودته.

في المطار، قال مروان لسالي إنه كان سعيدًا لأن زين خارج مصر. نظرت إليه. لم يعتذر عن الشعور. قال إنه يعرف أن وجوده لم يكن سيغيّر شيئًا، لكنه ارتاح لغيابه. ردت أن الصراحة لا تجعل الشعور جميلًا، لكنها تجعله قابلًا للعيش.

في الطائرة، نام آدم. وضعت سالي رأسها على المقعد. لم تشعر أنها تركت بيتًا ولا أنها عادت إلى بيت. كان الاثنان موجودين، وكل واحد يطلب منها نوعًا مختلفًا من الانتماء.

بعد عودة زين من المؤتمر، وجد الرسم فوق الطاولة. سأل كمال عن آدم. قال الأب إن الطفل يفك الأشياء أكثر مما يصلحها، وإنه لا يشبه أحدًا في صبره. أخذ زين الرسم إلى بيته.

رأته ندى وسألت من رسمه. قال ابن سالي. سألت إن كان يعرفه. قال إنه قابله مرة وهو صغير ولم يتذكرا بعضهما. علقت الرسم قرب السيارة الحمراء.

بعد أيام، أرسلت ندى تسجيلًا صوتيًا لآدم تشكره على الرسم وتقول إن العجلة ما تزال تعلق. رد بمقطع قصير يشرح طريقة

إصلاحها. لم ينجح زين في التطبيق، فضحكت ندى وقالت إن الطبيب لا يعرف كل شيء. قال: «اتعلمت.»

علق زين رسم آدم في مكتبه بالمركز أيامًا، ثم نزعه لأن الناس سألوه عنه. أخذه إلى البيت. قالت مريم إنه لا يجب أن يخفي كل ما يحتاج شرحًا.

أعاده إلى المكتب، ووضع تحته بطاقة صغيرة: «رسم لطفل من العائلة». لم يكتب ابن من، ولم يحتج إلى قصة كاملة. بقيت السيارة الحمراء بين صور القلوب والمخططات، شيء شخصي لا يتحول إلى سر.

في الزيارة نفسها، أخذ آدم مروان إلى مركز القلب. أراد أن يرى مكان عمل الرجل الذي يشبه أباه. وقف أمام لوحة الأسماء، ثم قال إن زين ليس في الصورة كما تخيله. مروان سأله كيف تخيله. قال: «شبهك أكتر.»

ضحك مروان، ثم قال إن الناس يتشابهون في الصور لأن الصور تختصر. في الممر، قابل مريم ولم يعرفها. قدمت نفسها. أخذته إلى

غرفة الإفاقة وأرته النافذة. حين عاد إلى الفندق، قال لأمه إن زوجة زين هي التي صنعت الضوء في المستشفى.

لم تكن سالي تعرف أن الجملة ستبقى عندها. شعرت أن مريم خرجت من دور الزوجة في الحكاية وصارت صاحبة أثر يراه طفلها.

خلال زيارة آدم، خرج مع سامر يومًا كاملًا. أخذه إلى أحياء قديمة، وطلب منه ألا يصور أول ساعة. كان الطفل يرفع الكاميرا تلقائيًا ثم ينزلها. قال سامر إن العين تحتاج أن ترى قبل أن تختار إطارًا.

في المساء، عرض آدم على مروان وسالي لقطات قليلة: يد بائع، ظل شجرة، باب مغلق. لم تكن العمارة بينها. قالت سالي إنها توقعت أن يصور البيت كله. رد أنه لم يعرف أي جزء هو «البيت» فعليًا.

قال مروان: «يمكن ده السؤال الصح.»

احتفظ آدم بالرسم للسيارة وباللقطات، وصار يربط بين الأشياء الصغيرة بدل أن يبحث عن مشهد كبير يشرح أمه.

احتفظ زين بالرسم.

الفصل التسعون

باب موارب

مات كمال في شقته، والباب موارب كما تركه يوم سفر زين إلى لندن.

لم تكن الوفاة مفاجئة تمامًا. قلبه ضعف خلال سنوات، لكن الأيام الأخيرة بدت عادية: اشترى خبزًا، اختلف مع فؤاد الذي لم يعد موجودًا حول أفضل وقت لري الجميزة، واتصل بندى ليذكرها بامتحان الرياضيات كأنها ستنساه.

وجدته الممرضة صباحًا في الكرسي قرب الشرفة. كان الكوب على الطاولة، والجريدة مفتوحة عند صفحة الوفيات.

وصل زين قبل سيارة الإسعاف. عرف من برودة اليد أن الوقت انتهى. مع ذلك وضع السماعة على صدره. لم يكن الطبيب يحتاج إليها؛ الابن كان يحتاج حركة يفعلها.

جاءت مريم وندى، ثم ليلى وسامر ومها. اتصلت سالي من الكويت. هذه المرة لم تستطع السفر فورًا بسبب عملية لمروان في

ظهره، فأرسلت آدم مع خاله بعد أيام، ثم جاءت وحدها في الأربعين.

في العزاء، حكى الناس عن كمال المهندس، وعن الرجل الصارم، وعن الأب الذي ربى أبناءه بعد وفاة زوجته. لم يعرف أحد قصة الرفض كاملة. بقيت في الغرفة بين من دفعوا ثمنها.

بعد العزاء، دخل زين غرفة أبيه. وجد فوق الدولاب الصندوق القديم الذي قال عنه كمال يومًا إنه «بتاع زمان». فتحه.

كانت فيه خطابات من مواقع البترول، وصورة لكمال وفؤاد في الصحراء، ومقص ليلى القديم، وقطعة قماش خضراء من فستان نادية، والسيارة الحمراء.

تحت الأشياء وجد ظرفًا باسمه.

كتب كمال بخط مرتجف:

«يا زين، أنا عشت سنين أحاول أحمي البيت من الفقد، وما فهمتش إن البيت اللي ما يخرجش منه حد يتحول لمخزن. لما تقرأ الكلام ده، افتح الشبابيك. وما تسيبش غرفتي مقفولة عشان تحافظ عليّ. أنا مش في الغرفة.»

جلس زين على السرير. دخلت مريم، ولم تسأله ماذا وجد. ناولها الورقة.

في الأسبوع التالي، فتحوا البيت. أخذ كريم بعض الكتب، وريم أدوات نادية، وأخذ زين الصندوق والسيارة. أعطوا الأثاث لجمعية، واحتفظوا بالمائدة الصغيرة التي كان كمال يضع عليها كوبين.

وقفت سالي في الشقة يوم الأربعين. كانت قد وصلت صباحًا. مشت في الغرف ببطء، ثم فتحت الشرفة.

قالت لزين: «هو اعتذر لي آخر مرة.»

«عارف.»

«ما طلبش أسامحه.»

«اتعلم.»

وقفا عند الباب. كانت مريم في الصالة مع ليلى ومروان على الهاتف. لم يكونا وحدهما إلا في المسافة القصيرة بين الغرفة والممر.

قالت سالي: «عم كمال كان جزء من اللي حصل. مش كل اللي حصل.»

نظر إليها.

«عارف.»

«إحنا كمان.»

«عارف.»

ابتسمت بحزن. «اتعلمت تقول عارف.»

قال: «بعد ما دفعت كتير.»

في الأشهر الأخيرة قبل موته، صار كمال يكرر بعض القصص. يحكي لندى عن أول يوم عمل له في الصحراء، ثم يعيد الحكاية بعد أسبوع كما لو أنها جديدة. كانت تصححه في البداية، ثم تعلمت أن تسأله سؤالًا مختلفًا كي تتغير النهاية.

زين لاحظ التكرار وخاف من ضعف الذاكرة. أخذ أباه إلى طبيب، وأخفى القلق داخل قائمة فحوص. جاءت النتائج مطمئنة نسبيًا. قال الطبيب إن العمر والقلب والأدوية كلها تؤثر. في السيارة، غضب كمال لأنه شعر أنه خضع لاختبار من غير أن يعرف.

قال: «لو نسيت حكاية، إيه يعني؟»

رد زين: «أنا عايز أعرف.»

«إنت عايز تعرف كل حاجة قبل ما تحصل.»

لم ينكر.

بدأت الممرضة تأتي صباحًا. في أول أسبوع، كان كمال يرتدي قميصًا كامل الأزرار قبل وصولها كي لا تراه في ملابس النوم. بعد شهر، صار يترك لها مفتاحًا تحت الأصيص، ثم ينكر أنه نسي فتح الباب.

ذات مساء، اتصل بسالي في الكويت. لم تكن المكالمة بسبب مرض. أراد أن يقول لها إنه وجد الورقة القديمة داخل صندوق نادية، الورقة التي كتبت عليها الأسماء. سألته كيف وصلت إليه. قال إنه لا يعرف، ثم اعترف أنه فتح درج زين قبل سنوات وأعادها إلى مكانها. سكتت سالي.

قال: «أنا كنت بتدخل في حاجات ما تخصنيش.»

ردت: «عارفة.»

«كنت فاكر إني لو عرفت كل حاجة أقدر أمنع اللي يخوفني.»

قالت: «وما منعتش.»

«لأ.»

لم تطلب منه اعتذارًا جديدًا. تحدثا عن ليلى، وعن آدم، وعن دوائه. بعد أن أغلق، كتب جزءًا من الرسالة التي وجدها زين بعد موته.

في اليوم الأخير، اشترى الخبز وجريدة واحدة. كان قد توقف عن شراء الجريدتين منذ سنوات. مر على فؤاد في ذاكرته وهو يسقي الجميزة، رغم أن فؤاد مات. أخبر الممرضة أنه سيجلس قرب الشرفة قليلًا. ترك الباب مواربًا لأن الهواء كان جيدًا.

حين وصل زين، لم يصرخ. طلب من الممرضة أن تحكي كل دقيقة، ثم توقف في منتصف السؤال. عرف أن الدقائق لم تعد تغير النتيجة. وضع السماعة، ثم خلعها. جلس على الأرض قرب الكرسي حتى جاءت مريم.

ندى دخلت بعده. لم تر جدها ميتًا من قبل. أرادت مريم أن تمنعها، لكن زين سألها إن كانت تريد الدخول. قالت نعم.

اقتربت، لمست يد كمال، ثم تراجعت. سألته هل كان يتألم. قال إنه لا يعرف. لم يقل لا كي يريحها.

في العزاء، جاء عادل بعصاه. وقف عند الباب وقال إن كمال كان يكره العلاج الطبيعي ثم صار يتصل به ليسأل عن تمارين أخرى. لم يعرف زين أن العلاقة استمرت. اكتشف أن لأبيه حياة صغيرة خارج ما يراه.

سامر بقي بعد انصراف الناس. فتحا درج المكتب، فوجدوا إيصالات، مفكات، وصورًا لم تُرتب. قال سامر إن الموت يجعل كل ورقة تبدو رسالة. رد زين أن معظمها مجرد فواتير. اتفقا على ألا يحملا كل شيء بمعنى.

في الأربعين، وصلت سالي وحدها. مروان كان يتعافى من جراحة في الظهر، وآدم في الجامعة. دخلت الشقة، ووقفت عند كرسي كمال. قالت إنها تتذكره أكبر من المكان. قال زين إن المرض صغّر جسده ولم يصغّر صوته.

فتحت الشرفة. دخل الهواء، وتحركت صفحة الجريدة القديمة التي أبقاها زين يومين ثم رماها. قالت إن كمال اعتذر لها في آخر زيارة. رد زين أنه كان يحاول الاعتذار لنفسه أيضًا.

في الممر، التقيا وحدهما دقائق. لم تكن مريم بعيدة، ولم يكن مروان غائبًا عن الكلام. قالت سالي إن كمال ليس المسؤول الوحيد. قالتها كي تمنع زين من تحويل موت الأب إلى إعفاء نهائي لهما.

بعد أن غادرت، عاد زين إلى الغرفة. قرأ رسالة أبيه مرة أخرى. فتح النوافذ كلها. لم يحتفظ بالسرير ولا بالدولاب. احتفظ بالمائدة الصغيرة ذات الكوبين، لا لأنها رمز، بل لأن مريم قالت إنها تصلح للشرفة الجديدة.

استغرق إفراغ شقة كمال أسابيع. كل فرد جاء في يوم مختلف، وظهر خلاف على أشياء لا تساوي مالًا: ساعة حائط، كرسي، كتاب هندسة. ريم أرادت الاحتفاظ بقميص أبيها، وكريم قال إن الرائحة ستختفي. احتفظت به رغم ذلك.

زين وجد في درج المطبخ أكياس سكر من مقاهٍ مختلفة. كان كمال يجمعها. رماها، ثم أخرج كيسًا واحدًا من القمامة من غير سبب واضح. وضعت مريم الكيس في صندوق صغير وقالت إنهم ليسوا مضطرين إلى فهم كل اختيار يومها.

ندى صورت الغرفة قبل تفكيكها، ثم أغلقت الهاتف. قالت إنها لا تريد أن تتذكر جدها من خلال وفاة فقط. في الأسبوع التالي، سجلت صوت كمال من أشرطة قديمة وهو يضحك على المصعد. صار ذلك الصوت جزءًا من مشروعها الجامعي الأول.

بعد إغلاق الشقة، أخذ زين المائدة الصغيرة إلى بيته. وضعها في الشرفة. في أول صباح، وضع كوبين ثم انتبه أن مريم خرجت مبكرًا. أعاد أحدهما إلى المطبخ، ثم غير رأيه وتركه حتى تعود. عادت بعد الظهر وشربت الشاي البارد. قالت إن الكوب ليس أثرًا مقدسًا، ويمكن غسله. غسلاه. بقيت المائدة للاستعمال، لا لتجميد آخر صباح لكمال.

بعد شهر من إفراغ الشقة، استيقظ زين على يقين أن أباه ناداه. خرج إلى الممر، ثم تذكر أن البيت الآخر مغلق. جلس في الصالة. لم يوقظ مريم.

في الصباح، قال لها. قالت إنها سمعت صوت أمها بعد موتها أعوامًا. لم تحاول تفسير الأمر. صنعَت القهوة ووضعتها على مائدة كمال الصغيرة.

ذهب زين إلى الشقة للمرة الأخيرة قبل تسليم المفتاح. لم يدخل الغرف. وقف عند الباب، قال بصوت مسموع «ماشي»، ثم أغلق. كان يحتاج كلمة بسيطة لا خطاب وداع.

في الليلة التي سبقت تسليم المفتاح، نام زين في شقة كمال وحده. لم يحتج إلى ذلك عمليًا. أحضر مرتبة خفيفة ووضعها في الصالة. لم ينم كثيرًا.

سمع أصوات العمارة تتغير مع الليل: مصعد يصعد، طفل يبكي في شقة جديدة، ماء داخل المواسير. لم يكن أي صوت من أصوات طفولته، ومع ذلك شعر أن البيت لا يزال يعمل من دونهم.

قبل الفجر، صنع شايًا في كوب أبيه. جلس في الشرفة، ثم غسل الكوب ووضعه في الصندوق. حين أشرقت الشمس، لم يشعر بإغلاق كامل. شعر فقط أن دوره في حراسة الغرفة انتهى.

أغلقا الشقة، لكن زين ترك الباب مواربًا حتى نزل الجميع. قبل أن يغادر، عاد وفتحه للمرة الأخيرة، ثم أغلقه بهدوء، لا ليحبس أباه، بل لأن البيت صار فارغًا فعلًا.

الفصل الحادي والتسعون

ما تفعله الشهرة

في الخمسين، صار زين يدخل المستشفى فيلتفت بعض الناس قبل أن يروا وجهه. يعرفون المشية والمعطف والاسم الذي يتكرر في الأخبار. لم يحب ذلك، ثم تعود عليه، ثم بدأ يستخدمه من غير أن ينتبه.

كان يستطيع أن يتصل فتتقدم المواعيد، وأن يطلب فتفتح الأبواب. في اجتماع الإدارة، قاطع مدير التمريض مرتين. بعد الاجتماع، قالت له ممرضة شابة إن الفريق يخاف أن يعارضه حتى حين يخطئ.

قال: «أنا ما بزعلش من الاعتراض.»

قالت: «حضرتك ما بتزعقش. بس بتخلص الجملة كأن النقاش انتهى.»

عاد إلى البيت غاضبًا من جرأتها، ثم وجد مريم تضع مخططًا على طاولة الطعام. بدأ يشرح لها لماذا يحتاج المركز إلى جناح يحمل اسمه لجمع تبرعات أكبر.

قالت: «إنت بتتكلم معايا ولا بتعلن قرار؟»

توقف. كانت الجملة نفسها بشكل آخر.

في تلك الفترة، تأزمت علاقته بندى. كانت في السادسة عشرة، تريد دراسة الموسيقى إلى جوار العلوم، بينما يصر هو على أن تختار مجالًا «واضحًا». قالت له إن الوضوح كلمة يستخدمها عندما يخاف.

سألها من علمها هذه الجمل. قالت: «أنا عايشة معاكم.»

حين رفض سفرها لمعسكر موسيقي في الإسكندرية، ذهبت إلى مريم. لم تتدخل الأم فورًا. طلبت من ندى أن تكتب خطة السفر والأمان، ومن زين أن يكتب سبب الرفض من غير كلمة «خايف» إذا استطاع.

لم يستطع.

سمح لها بالسفر، لكنه اتصل ثلاث مرات في اليوم. في المكالمة الرابعة لم ترد. شعر بغضب قديم، ثم تذكر فؤاد عند النافذة.

أرسل رسالة: «طمنيني لما تقدري.»

ردت بعد ساعة بصورة للبحر.

في المستشفى، دعا الفريق الممرضة الشابة إلى لجنة الجودة.

قدمت اقتراحًا يفرض «توقفًا آمنًا» قبل القرارات الجراحية الكبرى، يحق فيه لأي فرد أن يسأل من دون أن يعتبر ذلك تحديًا. وافق زين، واشترط أن يبدأ هو بتطبيقه.

في أول عملية، قالت ممرضة الأدوات إن عدد الشاش لا يطابق.

كان زين مقتنعًا أنه خطأ في التسجيل. توقف الفريق وبحث.

وجدوا قطعة تحت غطاء جانبي قبل إغلاق الجرح.

بعد العملية، شكرها أمام الجميع. لم يصنع من الموقف بطولة تواضع. كتب في تقريره أن النظام أنقذ المريض من احتمال خطير.

في الكويت، صارت سالي مديرة تحرير برنامجها. اكتشفت أن السلطة تصل إلى الإنسان بالطريقة نفسها، حتى لو قضى عمره ينتقدها. قاطعت معدة شابة لأنها أطالت المقدمة، ثم رأت الفتاة تصمت بقية الاجتماع.

لحقتها إلى الممر وقالت: «أنا قفلت الكلام بسرعة.»

ردت الفتاة: «حضرتك عندك خبرة.»

«وده ما يخلينيش أفهم السؤال قبل ما تكمليه.»

لم يتغير زين بمجرد أن سمع الممرضة الشابة. في الاجتماع التالي، تركها تكمل ثم شرح عشر دقائق لماذا اقتراحها غير عملي. خرج الفريق وهو يعرف أن الباب فُتح شكليًا فقط. قالت له مريم في البيت إن الاستماع ليس تأجيل المقاطعة حتى نهاية الجملة. غضب. قال إنها لم تحضر الاجتماع. ردت أن الطريقة نفسها تحدث معها: يتركها تتكلم ثم يعيد صياغة ما قالت داخل منطقه حتى لا يبقى منه شيء.

في الأسبوع التالي، طلب من الممرضة أن تدير مراجعة حالة. اختارت ملفًا حدثت فيه مضاعفات لمريض معروف. بدأ زين يجيب عن كل سؤال. توقفت وقالت إن دوره أن يسمع. شعر أن الفريق ينظر إليه. وضع القلم.

كشف الاجتماع أن قرارًا اتخذه كان صحيحًا طبيًا، لكن طريقة التواصل جعلت الأسرة توقع موافقة من غير أن تفهم البدائل. قال زين إن النموذج واضح. ردت موظفة تجربة المرضى أن الوضوح على الورق لا يساوي الفهم. تذكر عادل، ولم يدافع.

خارج المستشفى، كانت الشهرة تعطيه امتيازات صغيرة. مطعم يجد له طاولة، موظف مطار يتجاوز الصف، مسؤول يتصل ليطلب استشارة لقريب. في البداية كان يرفض. ثم قبل مرة لأنه متعب، ومرة لأن ندى معه، ومرة لأن الأمر «لن يضر أحدًا».

لاحظت ندى أن رجلًا مسنًا انتظر بينما دخلوا. قالت له في السيارة إنه استعمل اسمه.

رد: «الراجل نفسه دخلنا.»

قالت: «عشان اسمك.»

لم يجد جوابًا.

أزمة ندى لم تكن فقط الموسيقى. كانت تريد السفر إلى ورشة صيفية في بيروت. رفض زين بحجة الأمان والدراسة. قالت مريم إنهما يجب أن يسمعا الخطة. قال إن ابنة في السادسة عشرة لا تقرر وحدها السفر. ردت ندى أنه يتحدث كما كان كمال يتحدث.

صفعته المقارنة. قال لها ألا تستخدم أشياء لا تعرفها. قالت إنها تعرف ما يكفي من البيت ومن السكوت. أغلقت باب غرفتها.

مريم لم تنصرها فورًا. قالت لزين إن خوفه مشروع، لكن تحويله إلى قرار جاهز سيجعلها تتعلم إخفاء خططها. جلسوا ثلاثة أيام لاحقًا. قدمت ندى برنامج الورشة، والسكن، والمشرفة. اتفقوا أن تسافر مع مجموعة وأن تتصل كل مساء. لم يطمئن زين. وافق وهو غير مطمئن.

في المطار، أراد أن يعطي المشرفة تعليمات. نظرت إليه ندى، فتوقف. بعد سفرها، جلس في السيارة عشر دقائق. قالت مريم إن الموافقة لا تلغي الخوف. قال إنه يعرف، لكنه يكره شعور أنه لا يستطيع حماية كل شيء. ردت أن الحماية التي تمنع الحركة اسم آخر للحبس.

عادت ندى أكثر ثقة، وأقل رغبة في أن تصبح طبيبة. أخبرته أنها تريد الهندسة الصوتية. قال إن المجال غير واضح. قالت إن وضوح الطب لم يمنع أخطاءه. كانت الجملة قاسية. اعتذرت في اليوم التالي عن الطريقة، لا عن القرار.

أما المركز، فبدأ مجلسه يعتمد على اسم زين لجمع التمويل. في اجتماع، اقترحوا جناحًا يحمل اسمه. شعر بالفخر قبل أن يعترض.

لم يقل لمريم. اكتشفت من البريد. قالت إن المشكلة ليست الاسم وحده، بل أنه أخفى شعوره لأنه يعرف رأيها.

اعترف أنه أراد الجناح. قالت إنها لا تمنعه، لكنها تريد أن يعرف لماذا. هل لأنه يساعد المرضى، أم لأنه يريد دليلًا لا يموت؟

قال: «الاتنين.»

جلست قربه. لم توبخه. قالت إن الاعتراف بالرغبة لا يعني تنفيذها. في النهاية، اختاروا اسم برنامج عادل للمتابعة على الجناح، ووُضعت أسماء الفريق في الداخل.

في الكويت، واجهت سالي فريقًا أصغر لا يخاف شهرتها بالطريقة نفسها. شابة اسمها ريم قاطعتها أثناء اجتماع وقالت إن الحلقة تعيد إنتاج نظرة المصريين للمغتربين بوصفهم ضحايا فقط. كادت سالي ترد بسرعة، ثم طلبت أمثلة. كانت الحلقة مليئة فعلًا بصور حقائب ودموع ومطارات، ولا تحتوي على حياة عادية.

أعادت إعدادها. أضافت مشاهد عن نادٍ رياضي، زواج، دراسة، وناس لا يريدون العودة. بعد البث، اتهمها بعض المشاهدين بأنها

تروّج للغربة. قالت ريم إنها ستتعلم أن كل تعديل يخلق اعتراضًا جديدًا.

بدأت سالي تسلم إدارة اجتماع أسبوعي لأصغر شخص. في المرة الأولى، جلست في الطرف وقاطعت مرتين. نظرت إليها ريم. رفعت سالي يدها اعتذارًا وسكتت. لم تعرف أن زين في القاهرة يتعلم الجلوس في الطرف نفسه.

في البيت، استمرت أزمة ندى أشهرًا. لم يصبح زين أبًا متفهمًا في جلسة واحدة. كان يسأل عن درجاتها كلما رأى آلة موسيقية، فترد أنها لم تترك الدراسة. مرة، دخل غرفتها ووجد طلب الجامعة مفتوحًا. قرأه قبل أن تسأله. غضبت لأنه دخل ملفها.

قال إنه أراد المساعدة. ردت أن المساعدة تبدأ بالسؤال. تذكر سالي ومروان والإقامة والسيرة الذاتية، رغم أنه لا يعرف التفاصيل كلها. خرج من الغرفة.

في اليوم التالي، طلب أن تريه الطلب. جلست معه وصححت معلومات كتبها عن نشاطها. لم يعد صاحب القرار، لكنه ظل أبًا يخاف. تعلم أن يقول: «أنا قلقان» بدل «ده مش عملي».

بعد أشهر، دعت الممرضة الشابة زين إلى محاضرة يديرها المقيمون. جلس في الصف الثاني. حين انتهت، سأل سؤالًا طويلًا. ابتسمت وقالت: «سؤال واحد يا دكتور.» توقف، واختصره. في السيارة، ضحك من نفسه. أرسل لها رسالة يشكرها. لم ترد فورًا. كان هذا أيضًا درسًا: ليس كل اعتراف يحتاج مكافأة سريعة.

مع مرور الوقت، صار بعض الزملاء يستعملون تحول زين ضده. يطيلون النقاش لأنهم يعرفون أنه يخاف أن يبدو متسلطًا. في اجتماع، ترك حوارًا دائريًا يستمر ساعة. بعده قالت الممرضة الشابة إن الاستماع لا يعني غياب القرار.

تعلم درسًا أصعب: السلطة ليست أن يصمت دائمًا، بل أن يوضح متى يسمع ومتى يحسم ولماذا. في الاجتماع التالي، حدد عشرين دقيقة للنقاش، ثم أعلن القرار وكتب الاعتراض في المحضر.

قالت له الممرضة: «أهو كده.»

رد: «ما تتعوديش.»

ضحكت. عادت العلاقة إلى طبيعتها؛ لم تعد المعلمة الأخلاقية التي تُصلحه، بل زميلة قد تصيب وتخطئ.

وصلت أزمة الشهرة إلى ذروتها حين طلبت أسرة مريض تغيير الجراح إلى زين رغم أن الطبيب المسؤول أكثر خبرة في الحالة. كان يستطيع الموافقة، وسيبدو منقذًا. رفض، وشرح أن الاسم الأشهر ليس دائمًا الاختيار الأفضل.

غضبت الأسرة، وهددت بالشكوى. جلس معهم الطبيب الآخر. بقي زين في الغرفة حتى قبلوا، ثم غادر قبل أن يبدأ الشرح التفصيلي كي لا يظل مركز النظرات.

نجحت العملية. أرسلت الأسرة شكرًا لزين في الصحف رغم أنه لم يجرها. طلب تصحيح الخبر وإضافة اسم الفريق. نُشر التصحيح صغيرًا. علقه في غرفة الأطباء، لا في مكتبه.

قالت الممرضة الشابة إن الناس سيظلون يريدون البطل. رد: «يبقى شغلنا نفضل نفكرهم إن الغرفة مليانة ناس.»

بدأت سالي اجتماعًا أسبوعيًا يديره أصغر أعضاء الفريق. لم تكن تعرف ما يفعله زين في القاهرة. كانا يتعلمان الدرس نفسه في مدينتين، من أشخاص أصغر لم يعرفوا العمارة رقم 12.

الفصل الثاني والتسعون

الغرفة التي تخص مريم

بعد سنوات من تصميم بيوت الآخرين، اكتشفت مريم أن البيت الذي تعيش فيه لا يمنح عملها غرفة واحدة.

بدأ الأمر بصندوق مخططات وجدته ندى تحت السرير. كان طرفه قد انثنى من الرطوبة، وعلى الغلاف اسم مشروع مدرسة أمضت مريم شهورًا في تصميمها. سحبت ندى الصندوق، ومسحت عنه الغبار، ثم سألت أمها لماذا تحفظ رسوماتها هناك بينما تمتلئ الصالة بصور أبيها وشهاداته.

قالت مريم إن الوضع مؤقت.

ضحكت ندى. «الصندوق أكبر مني.»

في الأسبوع نفسه، جاء فريق تلفزيوني إلى البيت لتصوير فيلم قصير عن زين. طلب المخرج أن تظهر الصالة والمكتب؛ نقلت مريم مخططاتها إلى غرفة النوم حتى لا تفسد الخلفية. بعد انصرافهم، بقيت الصناديق قرب الدولاب يومين. في اليوم الثالث، قالت أثناء العشاء:

«أنا عايزة المكتب الصغير.»

رفع زين رأسه. كانت الغرفة تحمل كتبه القديمة، وملفات لا يفتحها، وصندوق كمال، والسيارة الحمراء فوق رف بعيد.

«المكتب مليان حاجات.»

«وأنا شغلي مليان حاجات برضه.»

اقترح أن يضع لها طاولة في الصالة. قالت إن طاولتها تختفي كلما أكلوا أو جاء ضيف، بينما لكل شيء يخصه باب يُغلق عليه.

قال: «ممكن نقسم الغرفة.»

«نص الغرفة يعني نص حضور. وإنت عندك مكتب كامل في المركز كمان.»

ضايقته الجملة. قال إن ملفاته تحتاج إلى خصوصية، فسألته إن كان عملها هواية. ارتفع صوتهما، ثم توقفا حين دخلت ندى لتأخذ كوب ماء. نظرت إليهما، وإلى المخططات عند الدولاب، وعادت إلى غرفتها من غير تعليق.

نامت مريم في غرفة ندى، التي كانت تقضي ليلتها في الجامعة. في الصباح ذهبت إلى مكتبها من غير أن تترك ورقة. اتصل زين ثلاث

مرات، فلم تجب أثناء اجتماع. وحين عادت، قالت إنها فكرت في استئجار استوديو خارج البيت.

سمع الاقتراح كأنه إعلان بالرحيل.

قالت: «كل مساحة مش تحت عينك بتبان لك أول خطوة بعيد.»

أنكر، ثم تذكر كمال والبيت القديم، وتذكر كيف كان الخوف يتنكر في صورة ترتيب عملي للحياة.

جلسا بعد العشاء داخل المكتب. أخرج زين الملفات واحدًا واحدًا. وجد برامج مؤتمرات احتفظ بها بلا سبب، وبطاقات مرضى لا يجوز أن تبقى في البيت، وقصاصات صحف تحمل صورته بأحجام مختلفة. كان رمي الورق أصعب مما توقع. لم تسخر مريم، ولم تساعده من غير أن يطلب.

قال: «أنا مش عارف ليه محتفظ بكل ده.»

«مش لازم تعرف سبب كل ورقة. بس لازم تختار المساحة اللي هتسيبها لها.»

استغرق الفرز ثلاثة أسابيع. نقل الملفات النشطة إلى المركز، وأرسل ما يلزم إلى الأرشيف، واحتفظ بصندوق واحد للذكريات.

وضع صندوق كمال في خزانة الصالة، والسيارة الحمراء فوق رف في غرفة النوم. لم يمنح مريم الغرفة؛ أعادا توزيع البيت معًا.

اختارت لونًا رماديًا فاتحًا. عرض زين أن يطلي الجدران معها، فقالت إنها تريد اختيار اللون من غير لجنة. دخل في اليوم التالي فوجدها فوق سلم صغير. أمسك السلم من أسفل، ولم يأخذ الفرشاة من يدها. قبلت هذه المساعدة.

علقت على الحائط أول مخطط لوحدة الإفاقة التي اختلفا بسبب نافذتها، وتركت علامة قلم رصاص كانت ندى قد سجلت عندها طولها في العاشرة. فوق الباب وضعت لافتة صغيرة: «اطرق».

في الأسبوع الأول، فتح زين الباب من غير طرق. رفعت رأسها فقط. أغلقه، ثم طرق.

بعد ساعة، وقفَت هي أمام مكتبه القديم، الذي صار ركنًا صغيرًا في غرفة النوم، وطرقت على الخشب. ضحكا من الحركة، لكنهما حافظا عليها.

جاء مشروع المدرسة بعد ذلك بعام. أرادت مريم فصولًا تسمح جدرانها المتحركة بتغيير شكل المكان، لكن لجنة التمويل رأت

الفكرة مكلفة. أعادت التصميم بمواد أرخص، ثم انسحب شريكها إلى مكتب أكبر وترك لها ملفات إدارية لم تتقنها.

عرض زين أن يتصل بمسؤول في البنك.

قالت: «مش عايزة المشروع يعيش مدين لاسمك.»

«أنا مش بشتري لك قرار.»

«عارفة. بس ممكن تساعدني في حاجة تانية.»

طلبت منه أن يتولى عشاء ندى وزيارة كمال أسبوعين، وأن يتوقف عن الاتصال كل مساء ليسألها متى تعود. فعل. أحرق الأرز مرة، ونسي موعد دواء أبيه مرة، ثم نظم يومه من غير أن يحول ما يفعله إلى فضل.

حين حصل المشروع على الجائزة، جلست مريم في غرفة صغيرة خلف المسرح ويداها ترتجفان. قالت لندى إنها تخاف أن يكون العمل أقل من الكلمات التي سيقولونها عنه.

ردت ندى: «الرجالة بيطلعوا ياخدوا الجايزة وبعدين يفكروا في السؤال ده.»

ضحكت مريم، وخرجت.

جلس زين في الصف الثالث. قُدمت باسمها وحده. شعر بفخر خالص، ثم مرت في داخله غيرة صغيرة لأنه ليس جزءًا من القصة. لم يعاقب نفسه عليها، ولم يسمح لها أن تفسد اللحظة. صفق طويلًا، وانتبه أنه ظل يصفق بعد الآخرين، كما فعل كمال ليلة خطوبته. أنزل يديه وهو يبتسم.

في البيت، وضعت مريم الجائزة داخل غرفتها. قالت ندى إن جائزتي أبيها وأمها يجب أن تكونا معًا في الصالة.

قالت مريم: «مش كل حاجة بتحب بعض لازم تتعلق على نفس الحيطة.»

بعد سنوات، عُرض عليها منصب في مكتب كبير بالخليج، يتطلب سفرًا متكررًا. لم ترفضه لتحمي البيت، ولم تقبله لتثبت استقلالها. جلسا يراجعان الاحتمالات: عملها، المركز، ندى، وكمال الذي صار يحتاج إلى زيارات منتظمة.

قال زين هذه المرة: «أنا خايف المسافة تكبر.»

قالت: «وأنا خايفة أرفض، وبعدها ألوم البيت.»

اتفقا على عقد لعام واحد، تسافر فيه أسبوعًا كل شهر. لم تكن المكالمات مثالية؛ أحيانًا ينام أحدهما قبلها، وأحيانًا تتحول إلى قوائم. لكنهما تعلما أن يحكيا أيضًا عن يوم سيئ بلا حلول: اجتماع فشل، مهندس تأخر، مريض رفض قرارًا.

عادت بعد العام باختيارها. لم يقل إنها عادت من أجله، ولم تقل إن السفر لم يعجبها. قالت إن التجربة أعطتها ما تريد، وإن البيت ما يزال مكانًا تختاره لا مكانًا منعها من الرحيل.

فهم زين أن الباب المغلق لا يعني دائمًا غياب صاحبه، وأن المسافة قد تكون أحيانًا ما يسمح لشخصين أن يظلا ظاهرين.

الفصل الثالث والتسعون

الذين يكبرون في الخارج

كبر آدم بين لهجتين وبلدين، وبين أم تحكي عن القاهرة وأب صنع حياته في الكويت قبل أن يصير له بيت فيها.

بدأ التصوير قبل أن يعرف اسم المهنة. كان يرفع هاتفًا صغيرًا في المطبخ فيلتقط مروان وهو يحاول ربط رباط حذائه بعد نوبة طويلة، أو سالي وهي تراجع نصًا وتحرك شفتيها من غير صوت. مرة صور جدته ليلى وهي تبحث عن المفتاح، ثم غضبت حين رأت المقطع.

قال آدم إن اللحظة تتغير حين يطلب الإذن.

ردت سالي: «وحق الشخص إنه يغيّر اللحظة أهم من صدق اللقطة.»

لم يقتنع تمامًا، لكنها ألزمته أن يسأل. ظل الخلاف في طريقته سنوات؛ صار يعرف أن الكاميرا لا تمنحه حقًا إضافيًا في الناس.

في السادسة عشرة، أعلن أنه يريد دراسة السينما في لندن. كان مروان يقرأ الطلب حين رفع عينيه وقال إن الطب أو الهندسة

أكثر أمانًا. ضحكت سالي من تكرار التاريخ، ثم توقفت حين رأت وجه ابنها.

قال آدم: «أنا اتولدت في الغربة. ما ينفعش تستخدموا الغربة عشان تخوفوني.»

رد مروان: «إنت اتولدت معانا. مش لوحدك.»

«وده مش معناه إن الكويت بلدي بالطريقة اللي هي بلدك.»

دخل غرفته وأغلق الباب. نهض مروان ليفتحه، فأوقفته سالي.

قال: «إحنا ما نقفلش الأبواب.»

«هو قفله عشان يعرف إن له باب.»

عاد آدم بعد ساعتين. لم تعلن سالي تأييدها، ولم يكرر مروان رفضه. طلبا منه خطة: الرسوم، السكن، العمل الجزئي، وما الذي سيفعله إذا لم يجد فيلمًا يصنعه في الشهر الأول. اكتشفوا أنه فكر في الصورة أكثر من التفاصيل. أجّل التقديم شهرًا وأكملها.

في القاهرة، كانت ندى تواجه سؤالًا قريبًا. أرادت دراسة الهندسة الصوتية؛ مجال لم يفهمه زين ولم يجده في قائمته الواضحة للمهن.

أخذته إلى استوديو صغير، وأرته عشرات المسارات فوق الشاشة: حوار، ضوضاء شارع، نفس ممثل، وصمت يصنعه أحدهم بعناية. قال في السيارة: «أنا ما فهمتش كل حاجة.»

ردت: «مش لازم تفهم كل حاجة عشان تسيبني أجرب.»

تضايق من كلمة «تسيبني». اتفقا على منحة وعمل جزئي ومساعدة محددة منه. للمرة الأولى، لم يكن المال تصريحًا يملكه الأب، بل بندًا في تفاوض.

انتقلت ليلى إلى الكويت في السنوات الأخيرة من عمرها، بعدما صارت شقة القاهرة أصعب من ركبتيها. رفضت كلمة «رعاية»، وأصرت أنها تساعد في البيت. أعطتها سالي درجًا خاصًا، وتركت لها الأكواب التي تحبها، وطلبت منها أن تراجع وصفات الطعام وتتصل بالأقارب.

بدأت تنسى أماكن الأشياء. تضع المفتاح في الثلاجة، وتنادي آدم باسم فؤاد، ثم تضحك قبل أن يلاحظوا خوفها. لم يظهر مرض محدد في الفحوص، فقط تراجع بطيء يحتاج إلى متابعة.

كان آدم في لندن. اتصل بها كل مساء، ثم صار يسجل مكالماتهما بإذنها. لم يكن يفكر في فيلم؛ أراد صوتها. ذات ليلة حكت قصة السطح ثلاث مرات بنهايات مختلفة.

سألها: «أنهي واحدة حصلت؟»

قالت: «اللي فاكرها دلوقتي.»

حين تدهورت حالتها عاد، ووضع الكاميرا في حقيبته ولم يخرجها. قالت له إن المخرج الذي يترك فرصة كهذه فاشل. رد أن الحفيد الذي يصور جدته وهي تتعب أسوأ. ضحكت، ثم نامت.

ماتت بعد أسابيع. أصرت سالي أن تُدفن إلى جوار فؤاد في القاهرة؛ قالت إن أمها اختارت الكويت للحياة، لا للدفن.

في العزاء، التقى آدم وندى للمرة الأولى بوعي كامل. كان كل منهما يعرف اسم الآخر من حكايات والديه. جلسا على سلم العمارة بعيدًا عن الزحام.

قالت ندى: «إنت ابن طنط سالي؟»

قال: «وإنت بنت الدكتور زين؟»

«الناس بتقدمنا كأننا ملاحق.»

ضحك للمرة الأولى منذ وصوله.

صعدا إلى السطح. كان الباب مقفولًا بقفل جديد، والحارس لا يعرف لماذا يصران على فتحه. وجدا المكان أصغر مما وصفته ليلى، وأكثر فوضى: خزانات مياه، وأسلاك، وأطباق استقبال. قرب السور بقيت بلاطة مختلفة اللون.

قال آدم: «ماما كانت بتحكي عنه كأنه مدينة.»

ردت ندى: «الطفولة بتكبّر المساحات.»

عند النزول، سجلا صوت المصعد. المحرك تغير، لكن طنينًا خافتًا بقي في المعدن. قال آدم إنه يعمل على فيلم عن البيوت التي يحملها المهاجرون. عرض على ندى تصميم الصوت.

بدأ الفيلم من أسر فلسطينية وهندية ومصرية في لندن والكويت، لا من قصة والديهما. تسربت العمارة إلى الأسئلة رغم ذلك: لماذا يمنع الآباء السفر حين يكونون هم أنفسهم قد غادروا؟ وكيف يصبح البيت سببًا للبقاء وسببًا للهروب؟

اختلفا على موضع مشهد العمارة. أراد آدم أن يفتتح به. قالت ندى إن ذلك يجعل حكاية عائلته مفتاحًا لحيوات غرباء تعبوا في

جمعها. نقلوه إلى المنتصف. رفضت موسيقى حزينة تحت شهادات المهاجرين، وقالت إن الحزن الجاهز يسرق من الصوت حقه.

استعملا مقطعًا قديمًا يُسمع فيه كمال يسعل من طابق أعلى، وليلى تقول من خلف الكاميرا: «استنى الباب.» قبل إدراجه، أرسلاه إلى زين وسالي كل على حدة. وافقا. أضاف آدم في النسخة الرقمية تنويهًا بأن الأصوات استُخدمت بموافقة أصحابها أو أسرهم.

حمل الفيلم عنوان «بين طابقين». في الشكر الأخير كتب: «إلى بيت رقم 12، الذي لم أسكنه.»

في العرض الأول بلندن، جلست سالي ومروان في الخلف. بكت سالي عند صوت أمها، لا عند أي إشارة إلى زين. شاهد زين ومريم الفيلم في القاهرة؛ حين سمع سعال كمال، خفض عينيه. كانت ندى إلى جواره، تراقب الشاشة لا وجهه.

بعد النجاح، عرض منتج تحويل العمل إلى مسلسل عن «قصة الحب خلف العمارة». رفض آدم. قال إن الفيلم عن الأبناء

والبيوت، لا عن سر الآباء. سألته سالي إن كان يخاف كشف الحكاية.

قال: «مش بخاف منها. بس هي أسهل من قصص الناس اللي قابلتهم، وأنا مش عايز السهل.»

عاد بعد أشهر إلى العمارة وحده. لم يصور. جلس على الدرجة بين الطابقين. مر موظف وسأله من ينتظر.

قال: «ولا حد.»

بقي عشر دقائق، ثم غادر. كان يريد أن يعرف هل يستطيع زيارة المكان من غير أن يحوله إلى مادة. استطاع، بصعوبة.

شاهد زين وسالي الفيلم في مدينتين مختلفتين، ولم يرث ابناهما حكايتهما كما هي. أخذا منها صوت مصعد، وخوفًا قديمًا من السفر، ثم صنعا سؤالًا يخصهما.

الفصل الرابع والتسعون

العملية الأخيرة لأحدهما

ظهرت الرجفة للمرة الأولى عند نهاية عملية لم تكن معقدة. كان مروان يغلق الجرح حين تحرك إصبعه الصغير حركة قصيرة. ثبت يده، وأكمل. قال لنفسه إنها قهوة زائدة أو تعب.

في العملية التالية عادت. هذه المرة طلب من زميله أن يكمل، وخرج إلى غرفة الغسيل. ترك الماء يجري فوق يديه، كأن البرودة تستطيع أن تعيدهما إلى ما كانتا عليه.

عاد إلى البيت قبل موعده. كانت سالي في مكتبها تراجع حلقة. وضع يديه فوق الطاولة.

قال: «بصي.»

لم تر شيئًا في البداية. انتظرت. تحرك الإصبع.

«من إمتى؟»

«أسبوعين.»

غضبت لأنه أخفى، لا لأنها عرفت. قال إنه كان ينتظر أن تزول. ذكّرته بأن انتظار اليقين كلّفهما قديمًا أشياء أكبر من الصراحة. لم يدافع.

أظهرت الفحوص مرضًا عصبيًا في بدايته. لم يكن خطرًا مباشرًا على حياته، لكنه جعل الجراحة الدقيقة مخاطرة. حاول مروان أن يتفاوض مع الأطباء كما يتفاوض مع مرضاه: جرعة مختلفة، شهر آخر، عمليات أقل.

قالت سالي: «إنت عارف الإجابة.»

رد: «عارفها لمريض. مش ليا.»

سمح له الطبيب بالاستمرار فترة قصيرة إذا استقرت الأعراض. لم يخبر سالي أنه عاد إلى جدول العمليات. عرفت من زميل اتصل يسأل عن موعد. وضعت التقرير أمامه.

قال: «إنتِ بتعاملليني كمريض.»

«إنت مخبي قرار يمس ناس تانية. دي مش خصوصية.»

في عمليته الأخيرة، ظهرت الرجفة عند الإغلاق. توقف قبل أن يخطئ، وسلّم الأداة. في المساء كتب طلب التوقف عن الجراحة.

لم يتحول القرار إلى حكمة. في الشهر الأول كان يستيقظ قبل الفجر، يرتدي قميص المستشفى ثم يخلعه. صار ينتقد ترتيب الأدوية، وصوت التلفزيون، وملح الطعام. ذات ليلة صرخ في سالي لأنها طلبت منه أن يترك كوبًا لم يستطع غسله جيدًا.

أغلقت حاسوبها ودخلت غرفة آدم القديمة.

في الصباح اعتذر.

قالت: «الاعتذار مهم. بس البيت مش المكان اللي ترمي فيه فقدانك.»

اقترحت طبيبًا نفسيًا. رفض، وقال إنه ليس مكتئبًا. ردت بأن العلاج لا يحتاج إلى لقب. استغرق شهرين قبل أن يذهب. عاد من الجلسة الأولى غاضبًا لأن الطبيب «لا يفهم الجراحين».

قالت سالي: «اشرح له. ما تمتحنوش.»

حاولت هي أيضًا أن تصلح بسرعة. اقترحت حلقة عن الأطباء الذين يتركون غرفة العمليات. قال إن حياته ليست مادة جاهزة. غضبت لأن الحلقة بدت لها معنى يمكن أن يساعده. رد أنه لا

يريد معنى بعد ثلاثة أشهر؛ يريد وقتًا لا تقف فيه كاميرا أمام خسارته. ألغت الفكرة.

في مساء آخر، أخرجت العلبة المعدنية ووضعتها أمامه.

قال: «إيه علاقة دي؟»

«كنت هقول إن الحياة ممكن تتعرف بحاجة ما حصلتش، وبعدها تكتشف إنها اتملت بحاجات تانية.»

«أنا مش محتاج حكمة.»

أعادت العلبة إلى الدرج فورًا. «تمام. كنت بحاول أصلحك بسرعة.»

جلسا في صمت. بعد ساعة طلب الشاي.

بدأ المرض يدخل التفاصيل: زر قميص، غطاء زجاجة، توقيع طويل. كان يرفض المساعدة قبل أن يحتاجها، فتسقط الأشياء. اتفقا أن تسأله مرة، وأن يقول نعم أو لا. لم ينجح الاتفاق دائمًا، لكنه أوقف المعركة الصغيرة التي كانت تبدأ كلما مدت يدها.

جاء آدم من لندن، ودخل على أبيه فوجد قميصًا فوق الأرض. انحنى ليرفعه.

صرخ مروان: «سيبه.»

توقف آدم وجلس بعيدًا.

قال الأب بعد لحظة: «مش عايزك تشوفني كده.»

رد آدم: «أنا شايفك كده حتى لو خرجت.»

كانت الجملة قاسية، لكنها كسرت شيئًا. طلب مروان المساعدة. لم يلبسه آدم القميص؛ ثبت الكم فقط، وتركه يكمل.

بدأ مروان يحضر اجتماعات تدريب المقيمين. في أول مرة وقف خلف جراح شاب، مد يده تلقائيًا نحو الأداة ثم سحبها. بعد العملية أعطاه عشر ملاحظات دفعة واحدة.

قال الشاب: «مش عارف أبدأ بأنهي واحدة.»

تعلم مروان أن يختار نقطة واحدة. وحين أخبره متدرب أن وقوفه قرب الكتف يخيف أكثر مما يعلم، ابتعد خطوة.

لم يقبله الجميع. قال جراح صغير إن النظر من الخارج أسهل من العمل. طلب منه مروان أن يحضر عيادته يومًا. شاهده يشرح لأسرة لماذا يجب تأجيل عملية، ويتركهم يعيدون السؤال ثلاث مرات.

قال الشاب في نهاية اليوم: «الجراحة مش اليد بس.»

رد مروان: «اليد مهمة. عشان كده وقفت لما ما بقيتش واثق فيها.»

ألقى أول محاضرة له عن «التوقف في الوقت المناسب». بدأ بحالات عامة، ثم قال إن الجراح قد يحتاج إلى شجاعة كي يسلم الأداة. عاد إلى البيت مرهقًا، لا منتصرًا. سألته سالي هل أكل. اكتشف أنه لم يفعل.

وصل الخبر إلى زين عبر آدم. تردد أيامًا قبل أن يتصل.

قال: «سمعت.»

رد مروان: «الأخبار أسرع من الأعصاب.»

تحدثا عن الفراغ بعد العمل اليدوي، وعن الوقوف خلف من يحمل الأداة. لم يذكرا سالي. قال مروان إنه كان يظن أن توقفه يعني نهايته. قال زين إنه كان يخاف الشيء نفسه قبل أن يبدأ أصلًا.

بعد المكالمة، أخبر مروان سالي.

سألته: «حسيت بإيه؟»

قال: «إن الشبه خلص من زمان.»

مع السنوات، تدهورت حالته ببطء. يوم يستطيع الكتابة بيده اليسرى، ويوم يعجز عن فتح الباب. اخترعا إشارة صغيرة: تلمس سالي طرف الطاولة، فإذا أومأ ساعدته. في عشاء عائلي تجاهل الإشارة لأن آدم يراقب، فانسكب الماء.

ساد الصمت.

قال مروان: «كنت محتاج مساعدة وما طلبتش.»

ثم طلب منشفة.

بدأ يكتب مذكرات قصيرة لطلابه، يسجل فيها حالات وقرارات ويترك فراغًا بعد كل صفحة للسؤال. راجعت سالي اللغة وحذفت الجمل التي تلمّعه. غضب أولًا، ثم أعادها بصيغة تعترف بالشك. كتب فقرة عن طبيب كان يشبهه يومًا. قرأها، ثم حذفها. لم يعد يحتاج إلى رجل آخر كي يشرح من يكون.

في ذكرى زواجهما، أهدته سالي قلمًا عريضًا يناسب يده اليسرى. قال إنها هدية عملية أكثر من اللازم. أعطته زجاجة عطر كانت قد أخفتها، فضحك. استخدم القلم لكتابة أول صفحة.

في الليل، اشتدت الرجفة. جلس في الصالة من غير ضوء. جاءت سالي وجلست قربه.

سألها: «خايفة؟»

قالت: «آه.»

«وأنا.»

لم يبحثا عن جملة تنهي الخوف. حين مد يده، أمسكتها كما هي، لا قبل أن يطلب ولا بعد فوات اللحظة.

الفصل الخامس والتسعون

البيت الذي سيختفي

وصل إلى سكان العمارة رقم 12 إخطار لا يحمل لغة للذكريات: المبنى يحتاج إلى ترميم شامل أو إخلاء، والمصعد لا يطابق معايير السلامة، والجميزة رفعت جزءًا من الرصيف.

كان معظم السكان قد غادروا. بقيت شقق مغلقة، وأسماء فوق صناديق بريد لا تصلها رسائل.

في الاجتماع الأول، عرض المالك الجديد شراء الشقق وتحويل المبنى إلى عيادات ومكاتب، مع الاحتفاظ بالواجهة إذا سمحت التكلفة. اعترض سامر كأنهم يعرضون شراء طفولته.

قال زين: «البيت ما يقدرش يعيش بالشعارات.»

رد سامر: «سهل تقول كده. عندك مكان جديد.»

قال المالك إن المبنى خطر، وإن الحفاظ الكامل عليه مستحيل.

دخلت مريم بالأرقام: السلم يمكن تدعيمه، الواجهة يمكن إنقاذها، والجميزة تحتاج إلى خبير قبل الحفر. غضب سامر لأنها حولت البيت إلى تقرير.

قالت: «التقرير هو اللي ممكن ينقذ اللي بتتكلم عنه.»

وصلت سالي من الكويت قبل الاجتماع الثاني. دخلت شقة والديها وحدها. فتحت الخزانة، فوجدت وشاحًا قديمًا يحتفظ برائحة خفيفة من عطر ليلى. جلست على الأرض. للحظة أرادت أن تلغي البيع كله. ثم رفعت رأسها إلى الشقوق قرب السقف، وتذكرت أن أمها في سنواتها الأخيرة لم تستطع صعود السلم.

دخل زين. لم يتوقع أن يجدها.

قال: «هنبيع.»

«عارفة.»

«موافقة؟»

نظرت إلى الجدار الذي كانت عليه صورة الزفاف. «الموافقة كلمة نضيفة زيادة.»

في الاجتماع، اقترحت مريم الحفاظ على الواجهة والسلم والشجرة، مع إزالة معظم التقسيمات الداخلية. قالت سالي إن التاريخ لا يجب أن يتحول إلى دعاية. ردت مريم بأن الحفاظ

يحتاج إلى مال، وأن القصة جزء من قيمة المكان، لا سلعة تُباع وحدها.

لاحقًا جلستا تحت الجميزة.

قالت مريم: «أنا مش ببيع حياتكم.»

ردت سالي: «إنتِ الوحيدة اللي قادرة تحوليها لمخطط.»

«وده مزعلك؟»

فكرت سالي. «يمكن عشان إنتِ هتفضلي هنا بعد ما يتغير.»

لم تنكر مريم أثر الغيرة، ولم تدافع عن مكانها. قالت إن وجودها لا يجعلها صاحبة الماضي، وإن الماضي وحده لا يمنح صاحبه حق تجميد الحجر.

اتفقوا على حفظ الواجهة والسلم والجميزة. رفض المالك كتابة أسماء الأسر كلها على لوحة، فاختاروا عبارة قصيرة عن البيوت التي تصنعها الحياة اليومية، من غير أسماء.

في يوم الإخلاء، جاء الجميع. حمل آدم كاميرته، وندى جهاز تسجيل. سجلا صرير الباب، وطرق المواسير، وخطوات السلم. رسم سامر الجدران الفارغة بدل أن يصور الوجوه.

أخذ كريم ساعة قديمة، واحتفظت ريم بمفرش من أشياء نادية.

نزعت سالي مقبض باب غرفتها بعدما استبدله العمال.

سألها آدم: «ليه ده؟»

قالت: «إيدي عارفاه.»

وضعته في الحقيبة، ثم شعرت بسخافة الفعل. لم تعيده.

أخذ زين الدرجة الخشبية الصغيرة التي كان كمال يستخدمها للوصول إلى الرفوف. قالت مريم إن الذكرى التي تحتاج إلى شاحنة تتحول إلى أثاث جديد. ترك كثيرًا مما أراد حمله.

على السطح، وضعت سالي العلبة المعدنية في موضعها القديم.

فتحها آدم، فرأى الورقة وغطاء القلم والغصن الجاف.

سأل: «الحاجات دي ليها قيمة؟»

قالت: «لأ.»

نظر إليها.

«يمكن عشان كده فضلت. الحاجة الغالية بنعرف نبررها.»

أعادتها إلى حقيبتها. شاهد زين الورقة من بعيد ولم يطلبها. كان يعرفها.

وقفت مريم قرب المهندس تراجع موضع الحاجز الذي سيحمي الجذور. كانت تعمل في المستقبل، بينما يقف زين وسالي داخل ما مضى. لم يشعر أن الصورتين تتعارضان.

جلس زين وسامر على الدرجة بين الطابقين.

قال سامر: «خايف أنسى شكل النور.»

«الصور موجودة.»

«الصور ما تحفظش الحر ولا الريحة.»

لم يحاولا حل المشكلة.

قبل الإغلاق، أدار آدم الكاميرا نحو الباب الأخضر، ثم أطفأها. لم يحتج البيت إلى تسجيل لحظة الإغلاق كي يثبت أنه كان موجودًا. توزع ثمن البيع على الورثة. أنشأت سالي جزءًا منه منحة لمعدين شباب باسم والديها. وضعت ريم نصيبها في شقة أصغر. أما زين، فدعم برنامج متابعة المرضى من غير أن يسميه باسم كمال.

رفض سامر أخذ شيء لأنه لم يكن مالكًا. أعطاه زين الدرجة الخشبية. قال سامر إنها ليست من حقه.

رد زين: «كانت بتطلعنا كلنا للرف.»

وضعها سامر في مرسمه، واستعملها فعلًا بدل أن يعرضها.

خلال الترميم، وصلت صور أسبوعية. كانت سالي تفتحها فورًا ثم تغلق الهاتف. سامر يرفض رؤيتها. زين يراجع الشقوق كأنها ملف مريض، فتذكره مريم أن المبنى ليس جسدًا يمكن إعادته إلى صورته الأولى.

أصيبت جذور الجميزة أثناء الحفر. قال التقرير إن إنقاذها غير مضمون. اتصل زين بخبير، وطالب سامر بحملة، وأصرت مريم على تعديل مسار العمل. قُصت فروع كثيرة، ومرت أشهر بلا ورقة واحدة.

في الربيع، ظهر برعم صغير في ناحية واحدة. أرسل آدم الصورة إلى الجميع بلا تعليق.

لم يسمها أحد معجزة. كانت شجرة نجت جزئيًا، مثل المبنى، ومثل الذين خرجوا منه.

الفصل السادس والتسعون

سنوات بلا اختصار

لم تأتِ السنوات التالية في صف واحد. دخلت البيوت من أبواب صغيرة: مشروع يتأخر، فحص طبي، زفاف، فاتورة، ومكالمة لا يرد عليها أحد في وقتها.

تخرجت ندى في يوم حار. جلس زين في الصف الأول وصفق قبل أن يصل الدور إلى اسمها. ضحكت مريم وطلبت منه أن ينتظر. بعد الحفل، سألها عن الوظائف المتاحة في الهندسة الصوتية. قالت إنها قبلت تدريبًا في فيلم صغير براتب يكاد لا يكفي المواصلات.

عاد خوفه في صورة حسابات: التأمين، الدخل، وعدد الأشهر التي يمكن أن تحتملها. قالت إنها لا تطلب منه تمويل حياتها إلى الأبد. اتفقا على مساعدة محددة لستة أشهر، وعلى أن تعمل مساء في استوديو.

تعرفت إلى حسام أثناء تسجيل موسيقى فيلم قصير. كان عازف كمان يحمل حقيبة قديمة ويعمل في حفلات متفرقة. في أول لقاء، سأله زين عن الدخل أكثر مما سأله عن نفسه.

أوقفت ندى الحديث. وفي البيت قالت: «بصيت له كأنه ملف قرض.»

اعتذر وطلب لقاءً آخر. هذه المرة سأل حسام ماذا يفعل حين تفشل حفلة أو يتوقف العمل.

قال: «بسكت وأغسل المواعين.»

ضحكت ندى. كانت تعرف الصمت والغسيل.

لم يكن الحب كافيًا لإتمام الزواج. تشاجرا حول السفر ومواعيد التسجيل، وحول من يتنازل حين تأتي فرصتان في اليوم نفسه.

عادت ندى إلى بيت والديها يومين. لم يقل زين اصبري، ولم يحكم على حسام. سألها إن كان هناك خوف أو إهانة أو إخفاء.

قالت: «لأ. في تعب، وتفاوضنا وحش.»

وضعا جدولًا، وفشل. عدلاه. وحين قررا الزواج، لم يكن القرار إعلانًا بانتهاء المشكلات، بل قبولًا بأنهما يعرفان شكلها ويستطيعان العودة إلى الكلام.

في زفافهما، مرت في ذاكرة زين مرايا قاعة قديمة وفستان آخر. نظر إلى مريم، التي كان شعرها قد عاد أقصر ومائلًا إلى الرمادي، ثم عاد إلى ابنته. لم يشعر أن ذكرى تسلب اللحظة حقها.

ولدت ليلى بعد عامين. حملها زين ويداه ترتبكان. قالت ندى إن الجراحين لا يعرفون حمل الأطفال. ردت مريم أن أباها تعلم أشياء أصعب، لكنه يتأخر في الأشياء البسيطة.

كان مرض مريم قد بدأ قبل الزفاف بسنوات بكتلة صغيرة اكتشفتها وحدها. أخفتها يومين، لأنها عرفت ما سيفعله زين. وحين أخبرته، اتصل بثلاثة أطباء، وحجز فحوصًا، وكتب قائمة. أخذت الورقة ومزقتها.

قالت: «اسألني أنا عايزة إيه.»

جلست أمامه. أرادت طبيبة لا تعمل تحت إدارته، وموعدًا تستطيع ندى حضوره، وألا يعرف المركز كله قبل ظهور النتائج. وافق بصعوبة.

كان التشخيص مبكرًا لكنه احتاج إلى جراحة وعلاج. في أول جلسة، جاء زين يحمل ملفًا. قالت: «سيبه في العربية.» تركه وجلس إلى جوارها. للمرة الأولى منذ سنوات لم يكن لديه شيء يراجعه.

سقط شعرها. اختارت غطاءً أحمر. قال إنه جميل بسرعة.

قالت: «مش لازم تكذب.»

«مش بكذب. بس خايف كل كلمة تبقى امتحان.»

قالت إنها خائفة أيضًا، وإن خوفها لا يمنحها حق جعل البيت يمشي فوق قشر بيض.

صارت غرفة مريم التي ناضلت من أجلها مساحة للعلاج والعمل والصمت. كتبت على الباب: «من الثانية إلى الخامسة: شغل فقط.» في اليوم الثالث سمع زين شيئًا يسقط فدخل من غير طرق. وجد نموذجًا كرتونيًا على الأرض.

غضبت. قال إنه خاف.

«الخوف ما يديكش حق تدخل.»

خرج. بعد ساعة، نادته لأنها لم تستطع رفع النموذج. دخل حين طلبت.

ندى فكرت في رفض مشروع كي تبقى مع أمها. قالت مريم إنها لا تريد أن يصبح المرض حبلًا يعيد ابنتها إلى البيت. اتفقتا أن تحضر مواعيد العلاج الأساسية وتكمل عملها.

حضرت سالي إلى القاهرة لزيارة ليلى في واحدة من سنواتها الأخيرة، وعرفت بمرض مريم. اتصلت بها. جلستا في مقهى قرب المركز. كان الغطاء الأحمر واضحًا.

قالت سالي: «حلو.»

ردت مريم: «ممكن تقولي غريب.»

«غريب وحلو.»

تحدثتا عن الأزواج الأطباء. قالت سالي إن مروان حاول إدارة مرضه كأنه رئيس الفريق. قالت مريم إن زين حاول إدارة مرضها

كأنه مسؤول عن النتيجة. ضحكتا، ثم سكتتا لأن المزاح لم يلغ التعب.

لم تصبحا صديقتين. أرسلت سالي رسالة كل شهرين. أحيانًا ردت مريم، وأحيانًا تركتها حتى يفوت وقت الرد. كان ذلك كافيًا.

انتهى العلاج من غير احتفال. خرجت الأسرة إلى مطعم صغير، واختلفوا على الطعام، ونسي النادل الطلب. قالت مريم في السيارة إن اليوم العادي أفضل من حفلة تلزمها بأن تبدو منتصرة.

بعد عام، جاءت نتيجة فحص مطمئنة. قال زين: «كويس.» قالت: «كويس.» ذهبا لشراء خبز.

أما آدم، فصار مخرجًا وثائقيًا يعمل بين لندن والكويت. تزوج ريم، وهي كويتية فلسطينية تعمل في المونتاج. لم يستقرا في مدينة واحدة بسهولة. كان يسافر، يشتكي من المطارات، ثم يختارها من جديد.

قال لسالي مرة إنه يخاف أن يكرر حياة مروان الأولى: رجل يؤجل البيت لصالح العمل.

قالت: «الشبه ما يصنعش المصير. اتكلم مع ريم عن الأيام العادية.»

اتفقا على شقة صغيرة في لندن وزيارات طويلة للكويت، لا وعدًا أبديًا بالاستقرار في مكان واحد.

انفصل سامر ومها في الفترة نفسها. لم تحدث خيانة. صار المشروع المشترك الشيء الوحيد الذي يجلس بينهما، وكل خلاف مهني يعود معهما إلى البيت. استأجر سامر مرسمًا أصغر، وبقي شهرًا لا يرسم.

جاء زين وجلس من غير نصائح.

قال سامر: «حاسس إن السنين فشلت.»

رد زين: «كنت فاكر النهاية هي اللي بتقيم كل حاجة.»

قال سامر إن أشياء تنجح ثم تنتهي، وأشياء تفشل وتظل مهمة. لم يكملا الجملة. شربا القهوة باردة.

اتفق سامر ومها لاحقًا على حفظ المشاريع المشتركة باسم الاثنين. مر عام قبل أن يتحدثا بلا عتاب. وحين التقيا أمام لوحة قديمة

واختلفا على تاريخها، ضحكا. لم تسم الصداقة ما بقي، ولم يحتاجا إلى اسم.

تقاعدت سالي من الإدارة اليومية في المحطة، ثم اكتشفت أن الفراغ لا يختلف كثيرًا عن فراغ مروان بعد الجراحة. كانت تستيقظ في موعد البث وتبحث عن هاتفها. رفضت لقبًا شرفيًا بلا عمل، وبدأت تدرب معدين شباب مرة كل أسبوع.

في الجلسة الأولى، أعادت كتابة نصوصهم كلها. عادوا في الأسبوع التالي بأصوات تشبه صوتها.

قالت لها متدربة: «إحنا جايين نتعلم نسأل، مش نتكلم زي حضرتك.»

ضحكت من دقة الجملة. صارت تسألهم لماذا اختاروا السؤال بدل أن تصوغه عنهم.

في ذكرى زواجها الأربعين، خرجت مع مروان إلى البحر. كان يمشي أبطأ، وتضع هي قبعة كبيرة. جلسا في المكان الذي سألها فيه قديمًا إن كانت نادمة.

قال: «عرفتي الإجابة؟»

فكرت. «في أيام آه، وأيام لأ.»

«وده يزعلك؟»

«الحياة اللي لازم أنكر فيها كل ندم عشان أثبت إنها صح تبقى هشة.»

أمسك يدها. لم تكن الجملة حكمًا على الزواج، بل سماحًا له أن يكون كاملًا وناقصًا معًا.

كبرت الأعمار في تفاصيل لا تحمل عناوين: نظارة تُنسى، ركبة تختار المصعد، عشاء يحترق، وزوجان ينامان غاضبين ثم يسألان صباحًا عن القهوة. لم يعرف أحد، وهو يعيش يومه، أي لحظة ستبقى.

في الكويت، فتحت سالي العلبة المعدنية مرات أقل. لم تعد تحتاج إلى التأكد أن الماضي موجود. كان حاضرًا في طريقة سؤالها، وفي آدم، وفي خوفها من الأبواب المغلقة، وفي قدرتها المتأخرة على ترك بعضها يُغلق.

الفصل السابع والتسعون

اليد التي توقفت

توقفت يد زين في منتصف عملية، لا بسبب رجفة، بل بسبب لحظة فراغ.

كان يعرف الخطوة التالية؛ أداها آلاف المرات. لكن اسم الأداة اختفى ثانيتين. نظر إلى الممرضة، ورأى السؤال الذي أخفته. طلب من مساعده أن يكمل، وبقي حتى استقرت الحالة، ثم خرج.

أظهرت الفحوص أنه لم يصب بجلطة ولا مرض عصبي. إرهاق، وقلة نوم، وعمر لا يمكن قياسه بتحليل واحد. قال الطبيب إنه يستطيع العودة بعد راحة.

شعر زين بالارتياح، ثم خاف من ارتياحه. كان يبحث عن إذن، لا عن إجابة.

عرض مجلس المركز أن يقلل عدد عملياته. بعض الأعضاء أرادوا عودته لأن اسمه مهم. قال تلميذه الأقرب إن القرار لا يجب أن يُبنى على السمعة. غضب زين من جرأته، ثم تذكر الممرضة التي قالت له يومًا إنه ينهي الجملة كأن النقاش انتهى.

طلب تسجيلات عملياته الأخيرة. شاهدها وحده. كان أبطأ قليلًا، لكنه آمن. رأى شيئًا آخر: يتدخل في خطوات يستطيع غيره أداءها، ويقترب كلما شعر أن الغرفة يمكن أن تستغني عنه.

قالت مريم إنها تخاف إذا عاد وتخاف إذا توقف، وإن الخوفين يخصانها لا القرار. قالت ندى إنها تريد جدها لابنتها أكثر مما تريد اسمه في خبر جديد، ثم اعتذرت لأنها ضغطت عليه بالعائلة.

زار عادل. كان قد تقاعد من التدريس، وما زال يمشي بعصاه. مشيا في حديقة المركز.

سأله زين: «لو اعتزلت، أبقى بهرب؟»

قال عادل: «مش مدين لك بإجابة.»

ثم أضاف: «يمكن الفرق في اللي هتعمله بعد القرار. تختفي، ولا تفضل مسؤول عن اللي بنيته.»

اختار زين ستة أشهر بلا جراحة. راجع الحالات، ودرّب الأطباء، وحضر اجتماعات المتابعة. في الشهر الأول شعر بخفة، ثم جاء الفراغ. كان يمر قرب غرفة العمليات فيبطئ من غير أن يدخل.

طلب منه جراح شاب حضور حالة معقدة. وقف خلفه. عند خطوة حساسة، رأى مسارًا مختلفًا وكاد ينطق الحل. سأل الجراح ماذا يرى. شرح الشاب، وكان قد لاحظ الأمر. اكتشف زين أن الصمت في اللحظة المناسبة جزء من التعليم.

دخل غرفة العمليات الخالية في صباح مبكر. كانت الأضواء مطفأة إلا مصباحًا صغيرًا. لمس الطاولة، ثم وضع يديه في جيبيه. دخلت رئيسة التمريض، وهي الممرضة نفسها التي نبهته قديمًا إلى خطأ الجرعة.

سألته: «هترجع؟»

قال: «مش عارف.»

«إنت اللي علمتنا إن مش عارف أحسن من يقين غلط.»

ضحك. «بتستخدموا كلامي ضدي.»

في نهاية الأشهر الستة، أعلن اعتزاله الجراحي، لا الطب. كتبوا في الصحف: «أسطورة المشرط تضع سلاحها». كره العنوان، لكنه لم يخض معركة جديدة معه.

جاءته رسالة قصيرة من سالي: «اليد اللي تعرف إمتى تتوقف أنقذت ناس برضه.» قرأها لمريم.

قالت: «جميلة زيادة.»

ضحك، ولم يرد.

في آخر يوم، لم يسمح بحفل داخل غرفة العمليات. أغلق جزءًا بسيطًا من جرح تحت إشراف الفريق، ثم سلّم الأداة. غسل يديه وقتًا أطول من المعتاد. لم ينتظره مصور في الخارج.

عاد إلى البيت مبكرًا. كانت مريم في مكتبها، وليلى الصغيرة تلعب بالسيارة الحمراء.

قالت الطفلة: «جدو، العجلة بتعلق.»

جلس على الأرض وأراها كيف تدفعها بهدوء.

سألته مريم: «خلصت؟»

نظر إلى يديه. «آه.»

لم تبكِ. أغلقت حاسوبها وجلست تراقب الطفلة تخبط السيارة في الحائط ثم تعيدها.

كانت الأيام الأولى سيئة. استيقظ قبل الفجر وارتدى قميصًا أبيض، ثم تذكر. انتقد ترتيب المطبخ، وأعاد تنظيم الأدوية. قالت مريم إنه يتصرف مثل مروان حين ترك الجراحة. استاء من المقارنة، ثم اتصل به.

قال مروان إن أصعب شيء ليس فقدان المهارة، بل فقدان الطوارئ التي كانت تعطي اليوم شكلًا. نصحه بأيام ثابتة للتعليم، لا أن يبقى متاحًا لكل من يتصل. فعل.

بدأ يأخذ حفيدته من المدرسة يومًا في الأسبوع. في المرة الأولى نسي الماء، وفي الثانية وصل قبل الموعد بنصف ساعة.

قالت ليلى: «الأمهات بيستنوا في العربية.»

«أنا جد.»

«الجد يستنى برضه.»

تعلم مهمات لا يصفق لها أحد: شراء الخبز، تذكر الدواء، والعودة بطفلة ومعطفها وحقيبتها. كتب قوائم، ونسي الورقة أحيانًا، وعاد.

بعد عام، دُعي إلى عملية نادرة بصفته مستشارًا. جلس في غرفة جانبية يراجع الصور. شعر بجسده كله يتذكر الحركة. انتهت العملية بنجاح، وخرج الجراح الشاب يشكره.

في السيارة، شعر بالحزن والفخر معًا. اتصل بمريم وقال إنه سيشتري اللبن. قالت له النوع مرتين. كتبه على يده.

أرسل لها من المتجر صورة العبوة الصحيحة. ردت: «تقدم طبي ملحوظ.»

صار يمشي صباحًا مع سامر. كان سامر يتوقف عند باب أو ظل شرفة، فيتضايق زين من البطء. بعد أسابيع، صار هو الذي يشير إلى ضوء فوق حائط. لم يصبح فنانًا؛ تعلم فقط أن الطريق لا يُقاس بالوصول وحده.

في مركز التدريب، واجه طبيبًا موهوبًا يرفض الاعتراف بخطئه. كاد يوبخه أمام الفريق، ثم طلب منه البقاء بعد الاجتماع. حكى له عن عادل بلا تفاصيل تبرئه.

قال الطبيب: «حضرتك تقدر تتكلم عن الخطأ لأنك نجحت بعده.»

رد زين: «نجاحي ما قوّاش رجل عادل.»

طلب منه أن يكتب ما حدث كما يراه المريض. وبعد أسبوع، سأله ما الذي سيفعله غدًا بصورة مختلفة.

صارت يده تتحسس جيبه لتتأكد من المفاتيح. لم يعد يخاف فقدان المشرط. كان يخاف الأشياء الصغيرة التي تثبت أنه يستطيع العودة إلى البيت، ثم تعلم أن ينساها أحيانًا ويعود مع ذلك.

الفصل الثامن والتسعون

موعد مع المدينة

بعد انتهاء ترميم العمارة رقم 12، دُعي أصحاب الشقق القدامى إلى زيارة المكان.

وصل زين مع مريم وندى وحفيدته ليلى. جاء سامر، وحمل آدم جهاز تسجيل صغيرًا بدل الكاميرا. لم تستطع سالي الحضور؛ كان مروان يمر بوعكة، وطلبت من ابنها أن يفتح الاتصال حين يصلون إلى السطح.

عند الباب، طلب موظف الأمن أسماءهم. قال زين إنه كان يسكن هنا. بحث الرجل في قائمة الضيوف ولم يجد الاسم فورًا. شعر زين بإهانة طفولية، ثم رأى بطاقة الموظف الجديد، وانتظر حتى وجدها.

كان الباب الأخضر أنظف مما عرفوه، والسلم نفسه أفتح لونًا. اختفت رائحة الطعام والخشب القديم؛ صارت الأصوات ترتد من واجهات زجاجية وممرات واسعة.

دخلوا موضع شقة كمال. كانت موظفة شابة تعمل على حاسوب في المكان الذي كان فيه السرير. حين عرفت، عرضت أن تترك الغرفة لحظات.

قال زين: «لأ. كملي.»

ركضت ليلى الصغيرة إلى نافذة تطل على الجميزة.

قالت: «المكتب جميل.»

لم يعرف هل يفرح لأن المكان صالح لحياة جديدة أم يغضب لأن حياته اختفت. قالت مريم إن الحفاظ الكامل كان سيحول البيت إلى متحف لا يزوره أحد.

في موضع شقة فؤاد وليلى، افتتح مكتب علاج نفسي. خرجت امرأة في منتصف العمر، ورأت المجموعة. قالت إن مرضاها يحبون النافذة لأنها تطل على الشجرة. لم تعرف تاريخ الغرفة.

قال آدم لأمه لاحقًا عبر رسالة: «أخيرًا حد بيتكلم في الأوضة.»

ردت: «كان لازم يحصل من زمان.»

أما غرفة زين، فصارت مكتب محاسبة. قال سامر إن ذلك أقل شاعرية. رد زين إن الأرقام تحفظ البيوت أيضًا. فوق الحائط

كانت لوحة جداول، وفي المكان الذي وقف فيه السرير خزانة ملفات. لم يشرح لصاحب المكتب لماذا كانت النافذة منخفضة قديمًا.

وقف سامر على السلم يرسم. قال إن الترميم جعل العمارة تشبه نفسها في صورة إعلانية. رد آدم أن كل صورة تختار ما تخفيه.

اختلفا حول حق الذاكرة في تغيير الحقيقة، بينما كانت ليلى الصغيرة تسأل أين نامت أمها وهي طفلة. أخذتها مريم إلى المكان الخطأ، ثم صححت نفسها.

قال زين: «المكان اتغير كفاية عشان نغلط.»

لم يضايقه الخطأ كما توقع.

على السطح، وجدوا لوحة صغيرة تذكر تاريخ البناء واسم المعماري وسنة الترميم. لم تذكر الأسر. قال سامر إن التاريخ الرسمي يعرف الحجر أكثر من الناس.

وضع آدم جهاز التسجيل قرب باب المصعد. كان المحرك الجديد أهدأ، لكن ترددًا خافتًا بقي في المعدن. سجلَه.

فتح الاتصال. ظهرت سالي، وخلفها مروان جالسًا عند الطاولة.

قالت: «شايفين الجميزة؟»

وجه آدم الهاتف إليها. قالت ندى إن الشجرة أكبر من الصور.

ردت سالي: «هي كانت صغيرة وإحنا اللي كنا أصغر.»

تكلم زين بعد تردد. «المكان كويس.»

سكتت لحظة. «حمد لله.»

رفع مروان يده. رفعت مريم يدها أيضًا. لم يكن المشهد مريحًا أو ثقيلاً؛ كان مجموعة أشخاص عاش كل منهم جزءًا مختلفًا من الحكاية، ويتبادلون التحية عبر شاشة صغيرة.

قالت ليلى الصغيرة: «تعالي بسرعة.»

ضحكت سالي. «هحاول.»

لم يحمل أحد الوعد أكثر مما يحتمل.

بعد انتهاء البرنامج الرسمي، جلسوا في المقهى الجديد في الدور الأرضي، حيث كان مكتب عم حسين. قال سامر إن القهوة سيئة.

قال المالك إنهم ما زالوا في مرحلة التشغيل.

ضحكت ندى. «دايمًا في حد بيبرر القهوة.»

شغّل آدم طنين المصعد. قالت ليلى إنه صوت مزعج. حاول الكبار تقليد الطريقة التي كانوا يعرفون بها موضع المصعد من الصوت، فضحكت الطفلة حتى كادت توقع كوبها.

قبل أن يغادر، عاد زين وحده إلى الدرجة بين الطابقين. لم يجلس. مر موظف يحمل ملفات واعتذر كي يصعد. لم يعرف أن الدرجة كانت يومًا مقعدًا لطفلين.

عند الباب، لمس الطلاء الأخضر الجديد. لم يبحث عن أثر أصابعه؛ كان الطلاء قد غطى كل شيء. خرج، ثم التفت من الرصيف إلى الجميزة. بين الفروع المقصوصة ظهرت ورقة جديدة.

صورها وأرسلها إلى آدم ليعطيها لأمه. بعد دقائق جاء رد سالي: «شوفتها.»

لم يتحول التبادل إلى حديث. كانت الورقة كافية لذلك اليوم.

ذهب زين إلى المركز، مع أنه لم يكن مطلوبًا منه الحضور. وجد عادل يتحدث مع طبيب شاب في برنامج المتابعة. صار أبطأ، لكنه ما زال يسأل المريض عن البيت والعمل بعد العملية.

قال الطبيب إن النتائج جيدة.

سأل عادل: «جيدة بالنسبة لمين؟»

جلس زين في الخلف. لم يحتج البرنامج إلى اسمه كي يستمر.

عند المساء، اتصلت مريم تسأله عن قائمة المشتريات: لبن، دواء، وبسكويت طلبته حفيدته. قالت إن المتجر سيغلق.

قاد عبر مصر الجديدة. مر بسينما اختفت، ومقهى تغير اسمه، وشارع كانت فيه مدرسة سالي. لم يتوقف. كانت المدينة تجمع الطرق القديمة والجديدة من غير أن تعلن ما تخبئه.

عند الإشارة، أخرج القائمة. كانت بخط مريم، وتحتها رسمة سيارة صنعتها ليلى. طواها ووضعها في جيب المعطف، ثم نسي أي جيب اختار.

عند مدخل المتجر، ساعد رجلًا مسنًا على إعادة عربة. شكره الرجل ولم يعرفه. شعر زين براحة صغيرة.

أخذ عربة رغم أن القائمة قصيرة. اشترى اللبن من ذاكرته فاختار النوع الخطأ، ثم عاد يبدله. مر على الصيدلية، ووضع الدواء في السلة، وتذكر البسكويت.

انعطف إلى ممر الشاي لأنه رأى العلامة التي تشتريها مريم.

كانت امرأة ترفع عبوة إلى الضوء لتقرأ تاريخ الصلاحية.

ترك يده فوق مقبض العربة، ورفع عينيه.

الفصل التاسع والتسعون

من جهتها هي

وصلت سالي إلى القاهرة في زيارة قصيرة بعد أن استقرت حالة مروان. جاء معها آدم وابنته الصغيرة نور، التي أصرت أن تشتري حلوى مصرية «لا توجد في الكويت»، رغم أن معظمها كان مستوردًا من المكان نفسه.

في المساء، ذهبوا إلى السوبر ماركت الكبير. دخل آدم مع نور إلى قسم الألعاب، وطلب من أمه أن تنتظره عند الصيدلية الداخلية. قالت إنها ستشتري الشاي والخبز والدواء ثم تتصل به.

كانت تقرأ تاريخ الصلاحية على عبوة الشاي حين شعرت بأن أحدًا توقف خلفها. لم تلتفت فورًا. تعودت في العمر المتأخر أن تمنح جسدها ثانية قبل الحركة، خصوصًا بعد أن صار توازنها أقل ثقة. رفعت رأسها، فرأته في المرآة عند نهاية الممر قبل أن تراه مباشرة. لم تعرفه من الشعر الأبيض ولا من المعطف. عرفته من الوقفة: نصف خطوة بعيدًا عن مركز المكان، ويد تركت مقبض العربة كأنها نسيت مهمتها.

قالت اسمه.

حين أجاب، عاد الصوت من مكان لم تكن تعرف أنه ما يزال محفوظًا بهذه الدقة. لم تر الجراح الشهير، ولا الرجل الذي ظهرت صوره في الصحف، ولا زوج مريم وأبا ندى. رأت طفلًا يمسك سيارة حمراء ويخفي خوفه من بيت جديد.

قالت إنها لم تكن ستعرفه لولا عينيه. كذبت قليلًا. كانت ستعرفه من يديه أيضًا، حتى بعدما صارت أبطأ.

تحدثا عن العمارة والجميزة والباب والدرجة. تجنبا في البداية أسماء الأشخاص، ثم جاءت الأسماء وحدها: كمال، فؤاد، ليلى، نادية. قال إن مريم بخير، وإن حفيدته هي التي أرسلته للبسكويت. قالت إن مروان توقف عن الجراحة منذ سنوات، وإنه ما يزال يصحح للأطباء الشباب طريقة وقوفهم حول المريض. لم يسألها هل كانت سعيدة. شكرته في داخلها على السؤال الذي لم يطرحه.

كان يمكن أن تقول إن الشبه الذي جمعها بمروان اختفى مبكرًا، وإن ما أبقاهما لم يكن وجهًا ولا مهنة، بل آلاف التفاصيل التي لم

يعرفها زين. كان يمكن أن تسأله إن كانت مريم تعرف اسمها. لكنها رأت خاتمًا قديمًا في يده، وصورة طفلة صغيرة داخل غطاء هاتفه، وفهمت أن حياته ليست فراغًا ينتظر تفسيرها.

حين قال: «وأنا... لولا عينيك»، خفضت نظرها. لم تخجل من الجملة؛ خافت أن تفتح فيها غرفة ظلت مرتبة سنوات.

قالت إن عليها أن تذهب. كانت نور تنتظرها، ومروان سيقلق إذا تأخرت مكالمتها. مدّت يدها. كانت يد زين دافئة أكثر مما توقعت.

ابتعدت. عند نهاية الممر، التفتت. وجدته قد التفت أيضًا. رفعا يديهما.

خلف الرف، كان آدم يقف من غير أن يقترب. رأى أمه تمسح تحت عينها بإصبع واحد.

سأل: «ده هو؟»

لم تنكر.

«آه.»

قالت نور: «مين؟»

انحنت سالي إلى حفيدتها.

«واحد كان ساكن فوقنا زمان.»

قال آدم: «بس؟»

نظرت إلى الممر الذي اختفى فيه زين.

«وده كان كتير وقتها.»

في السيارة، اتصلت بمروان. سألها عن الدواء أولًا، ثم سمع الصمت.

قال: «شفتيه؟»

لم تسأل كيف عرف. كان يعرف زياراتها إلى القاهرة، ويعرف أن المدن القديمة تضع مفاجآتها في الأماكن العادية.

«آه.»

«عامل إيه؟»

«كبر.»

ضحك مروان. «معلومة صادمة.»

قالت: «وأنا كمان.»

«عارف.»

انتظرت أن يسأل ماذا قالا. لم يسأل. قالت من تلقاء نفسها:

«فرحت إني شفته.»

جاء صوته هادئًا: «كويس.»

لم تكن إجابته تنازلًا ولا بطولة. كانت ثمرة حياة طويلة تعلما فيها أن الضيق لا يمنح حق التفتيش، وأن الماضي لا يصبح خيانة لمجرد أنه تحرك في ممر مضاء.

وضعت نور رأسها فوق كتف سالي ونامت. نظر آدم من المرآة إلى أمه، ثم أعاد عينيه إلى الطريق.

الفصل المائة

شبهي

عاد زين إلى البيت بعد منتصف الليل. وجد مريم في الصالة تقرأ، ونظارتها منخفضة فوق أنفها. كانت قد تركت له ضوء الممر مفتوحًا، كما كان كمال يفعل في البيت الأول.

رفعت رأسها.

«جبت البسكويت؟»

نظر إلى الكيس. نسي الدواء، واشترى نوع اللبن الخطأ، لكنه أحضر البسكويت.

قال: «قابلت سالي.»

أغلقت مريم الكتاب، ووضعت علامة بين الصفحات.

«في السوبر ماركت؟»

«آه.»

لم تسأله لماذا لم يتصل، ولا كم استغرق اللقاء. قالت: «عاملة إيه؟»

«كويسة. على قد العمر، زي ما قالت.»

جلس قبالتها. حكى عن العبوة، والمرآة، والعمارة، وعن يديهما اللتين تردّدتا قبل المصافحة. لم يحكِ كل ما شعر به؛ ليس لأن هناك سرًا، بل لأن بعض الإحساس لا يخرج كاملًا في اللغة.

قالت مريم: «فرحت؟»

«آه.»

«واتوجعت؟»

فكر. «آه.»

أومأت. «الاتنين ينفعوا.»

مد يده إلى يدها. لم يكن يطلب غفرانًا. لم يرتكب ذنبًا. كان فقط يعود من مكان قديم ويحتاج أن يعرف أن البيت الحالي مفتوح.

في الكويت، دخلت سالي الشقة بعد عودتها بيومين. كان مروان جالسًا عند الطاولة يحاول فتح زجاجة دواء بيده اليسرى. أخذتها وفتحتها، ثم وضعتها أمامه من غير تعليق.

قال: «كان لسه شبهّي؟»

ضحكت. «مين فينا؟»

«زين.»

فكرت في الرجل الأبيض الشعر أمام المرآة.

«لأ. يمكن إحنا اللي كنا محتاجين الشبه وقتها.»

قال مروان: «وأنا كنت فاكر إني لازم أثبت إني مختلف.»

«أثبتّه كل يوم من غير ما تقصد.»

مد يده المرتجفة إلى كوبه. ساعدته حين طلب، لا قبل ذلك.

في صباح اليوم التالي، جاءت ليلى الصغيرة إلى بيت جدها. وجدت السيارة الحمراء فوق الرف، فطلبت اللعب بها. أنزلها زين، وجلس معها على الأرض.

دفعتها بقوة، فاصطدمت بالحائط.

قال: «بالراحة.»

قالت: «ما هي عربية.»

توقف قلبه لحظة عند الجملة، لا مرضًا، بل ذاكرة.

دخلت مريم تحمل كوبين من الشاي. رأت وجهه، ولم تسأل.

جلست على الأريكة تراقبه يصلح العجلة التي تعلق.

سألت ليلى: «دي بتاعة مين؟»

قال زين: «كانت بتاعتي.»

«ولعبت بيها مع مين؟»

نظر إلى السيارة، ثم إلى الطفلة.

«مع بنت اسمها سالي.»

«كانت صاحبتك؟»

لم يقل حب حياته، ولا الفرصة التي ضاعت، ولا المرأة التي كان يمكن أن تكون. قال الكلمة التي استطاعت أن تحمل كل ذلك من غير أن تهدم شيئًا:

«كانت شبهي.»

سألت الطفلة: «يعني شكلها زيك؟»

ضحك زين. «لأ. كانت بتفهم حاجات جوايا قبل ما أفهمها.»

فكرت ليلى قليلًا، ثم دفعت السيارة نحوه. دفعها إليها. تحركت بينهما فوق السجادة، أبطأ من زمان، لكنها لم تتوقف.

في الظهيرة، فتحت مريم نافذتي البيت. دخل صوت الشارع من واحدة، وصوت المدرسة من الأخرى. فوق المكتب بقيت قائمة المشتريات ناقصة، وإلى جوارها صورة العمارة بعد الترميم، وبطاقة قديمة من سالي، وصورة ندى وحسام وطفلتهما.

لم يعد زين يحتاج إلى اختيار صورة واحدة كي تشرح حياته.

أما في الكويت، فقد وضعت سالي العلبة المعدنية أمام نور.

فتحت الطفلة الورقة القديمة، وقرأت الاسمين بصعوبة.

قالت: «مين كتب تحت؟»

«ولد كان خطه أوحش من خطي.»

«هو اللي شوفتيه في المحل؟»

«آه.»

«ليه محتفظة بيها؟»

لم تقل لأنني ما نسيته. ولم تقل لأنها ذكرى بريئة. أغلقت العلبة، ثم أعادتها إلى حفيدتها.

«عشان أعرف إن الحاجة ممكن تخلص وتفضل حقيقية.»

وضعتها نور في الدرج، لا في أسفله ولا فوق الطاولة. أغلقت الدرج وركضت إلى مروان، الذي كان يناديها لتساعده في لعبة جديدة.

في القاهرة، توقفت السيارة الحمراء عند قدم زين. التقطها، وأعادها إلى ليلى.

خارج النافذة، كانت المدينة تغير أبوابها ووجوهها وأسماءها. وفي مكان ما، ظل بيت رقم 12 قائمًا بواجهة جديدة، يحمل سلمًا قديمًا لا يعرف أن طفلين صعداه ذات يوم، كل واحد منهما يبحث في الآخر عن شيء يشبهه.

دفعت ليلى السيارة مرة أخرى.

هذه المرة، عبرت السجادة كلها من غير أن تصطدم بشيء.

عن المؤلف

د. محمد فتحي

كاتب وباحث وقائد تنفيذي في مجال التكنولوجيا والتحول الرقمي، يشغل منصبًا قياديًا في أحد البنوك المصرية.

يمتلك خبرة تتجاوز عشرين عامًا في البنية التحتية والتقنية والخدمات المصرفية الرقمية.

حصل على الدكتوراه المهنية في الإدارة، ودرجة الماجستير في إدارة الأعمال، وبكالوريوس هندسة الحاسبات.

يقود مبادرات تطوير تقنية وتحول رقمي، ويُهتم بالقيادة وبناء المؤسسات وصناعة الأثر.

من مؤلفاته وإصداراته:

1. Tech's Revolution in Middle East Finance
2. Understanding Zero Trust Architecture (قريبًا)
3. Leadership for Beginners from A to Z
4. HBR Manager's Handbook — Arabic Summary
5. القيادة للمبتدئين من أ إلى ي
6. رحلة في القيادة والإدارة والتكنولوجيا
7. الإدارة الحديثة
8. ساعة من الرعب اللذيذ

الموقع الرسمي:
muhammadfathy.com

الكتب والإصدارات:
muhammadfathy.com/books

MF